٩

الخزانة التاريخيّة

محمّد رفيق بك
محمّد بهجت بك

ولاية بيروت

القسم الشمالي

٢

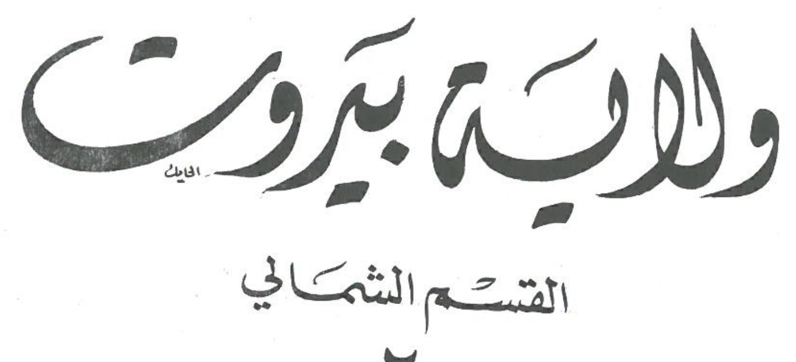
ألوية طرابلس واللاذقيّة



٩

الخزانة التاريخيّة

محمّد رفيق بك
محمّد بهجت بك



ولاية بيروت

القسم الشمالي
٢
ألوية طرابلس واللاذقيّة



مباحث علمية وادبية

ولاية بيروت

— ٢ —

القسم الشمالي

طرابلس الشام واللاذقية

يتضمن الابحاث الجغرافية ، والتاريخية ، والروحية ، والاخلاقية، والاجتماعية ، والصحية، ودرس الآثار القديمة ، وخصائص الشعوب ، وطبقات الارض ؛ ومباحث الدين ، واللغة ، والادبيات، والفنون الجميلة، والمعارف والزراعة والتجارة والنافعة، وحالةوصفة هذين اللوائين

مطبعة الولاية

١٣٣٦ هـ — ١٣٣٣ م

طبعة ثالثة
١٩٨٧

دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب. ٢٠٠٢-١٦٦ - بيروت، لبنان
هاتف: ٢١٧٦٩٦

المقدمة

(مقدمة) الجلد الثانى

ان حضرة عزمى بك افندى ، والى الولاية العالى ، القانع بضرورة تأييد معارفنا بكتب مفيدة تدرس الاحوال العمومية فى بلادنا من الوجهة العلمية والمدنية وتطلعنا على حقيقة وطننا المقدس ، وتكون المرشد العلمى لاهل البلاد ومأمورى الحكومة ؛ قدانتدب للمرة الثانية مؤلفى كتاب (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) وهما (رفيق بك التميمى) مدير المدرسة التجارية و (محمد بهجت بك) مدير المدرسة السلطانية الثانى وسيرهما يستأنفا الكرة فى البحث عن القسم الشمالى من الولاية . تجول المؤلفان فى انحاء [طرابلس الشام — حلبا — تل كلخ — برمانه — طرطوس — بانياس — جبله — صهيون — لاذقيه] رغماً عن قصر مدة التجوال وفقدان الوسائط التسهيلية واضطرا لتصفح بعض المصنفات العلمية والادبية المذكورة اسماؤها فى خاتمة كتاب (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) وفى خاتمة هذا الكتاب ايضاً ؛ واختص منهما رفيق بك بكتابة مباحث [الجغرافيا وخصائص الشعوب والتاريخ والآثار القديمة والمعارف والزراعة والتجارة والنافعة والصنايع] ودرس مسئلة [المهاجرة] ومذهب [النصيرية] ، واختص بهجت بك بمباحث [الاحوال الروحية والاخلاقية والاجتماعية والصحية واللغات ، والادبيات والفنون الجميلة] ودقق [الحركة العلمية وحيات الطباعة] و [احوال الاسماعيليين ، والتركمان] وضبط [المشهودات] فى القصبات والدروب و [الاوصاف العمومية] واوجدا هذا الكتاب الثانى المتضمن القسم الشمالى من ولاية بيروت .

هذا وان تكن الابحاث المتعلقة بجميع ملحقات الولاية تمت بهذا الكتاب ؛ بيد ان مقام الولاية الجليل مزمع على المثابرة لتصنيف مجلد ثالث يتضمن البحث الدقيق فى بلدة (بيروت على حدة . وبه تتكون فى برهة وجيزة سلسلة من الكتب تطلعنا على احوال الولاية ، فندرأ بها احتياجنا الى مرشد علمى وادبى .



المدخل

المدخل

ان الناحية المأهولة منذ القدم فى سورية . هى الاسياف البحرية الكائنة بين خليج اسكندرون ، وارض مصر البحرية التى ينتهى بها حد البحر المتوسط . وهى منطقة ضيقة ، مملوءة بالعوارض الطبيعية وقد رسمت يد الطبيعة حدودها الشمالية والشرقية بصورة بارزة. وترسم هذه الحدود خطاً طبيعياً فى الجهة الشرقية من ضواحى حلب ، يبتدأ من وادى الفرات الغربى ، ويمتد الى الجهة الجنوبية حيث تقاطعه الصحراء بشواطئها ، ورمالها وصخورها الصلدة . وسلسلة الجبال شرقى بحيرة لوط تتعالى ، ثم لا تلبث ان تتدرج بالانخفاض حتى تنقلب فى الجهة الجنوبية الى سهول رملية ، وتنتهى على سواحل بحر الاحمر فى زاوية تفرق بين بحر السويس وخليج العقبة .

لا يفوتنا ان البلاد السورية الممتدة من (الماداغ — *Amanus*) الى سيناء على طول يقرب من الف كيلومتر ، وعرض مائة وخمسين ؛ تنقسم الى بضع مناطق من حيث العوارض الطبيعية والاقليم والتكامل التاريخى . فتوجد فى الشمال ضواحى العاصى ، وفى الوسط وادى الشريعة ، وفى الجنوب شبه جزيرة سيناء . وان هذه البلاد الطويلة الضيقة لم يأهلها السكان على نسبة واحدة فى كل مناطقها ، ولا فى كل ناحية من تلك المناطق. حتى ان سكانها يفترقون منذ القدم باعتبار الامزجة والمعتقد الى اقسام متعددة . وقد احتفظ سكان سورية بكيانهم فى الازمنة الغابرة لما كانت بلادهم مصونةً من التحكم الاجنبى ، اما فى حكم ما اسسوه من دول متفرقة واما فى حكم دول مجتمعة .

اما سكان السواحل الذين هم اقل نفراً من سكان الداخل فقد اقعدهم العجز عن رد غارة الفاتحين الذين اكتسحوا بلادهم طمعاً فى ثروتها الطبيعية ، فخسروا استقلالهم ، وخضعوا للسلطة الاجنبية ، وكانوا اسرى قوانينها .

ان الدول اللاتى تأسست فى ضواحى دجلة والفرات ، وفى انحاء بلاد العجم ، وفى مصر السفلى ، واليونانيين ، والرومانيين لم يهملوا امر سورية لما اسسوا بنيان سلطانهم وعظمتهم فى المشرق والمغرب . ولذلك يمكننا ان نقول بان وحدة الادارة فى هذه البلاد لم تكن الا من قبل الاجانب .

اما شبه جزيرة سيناء ؛ تلك السهول الرملية المحرومة من الحياة لفقدان المياه لم تحرك طمع احد من الفاتحين بارضها القاحلة الجرداء ، وصخورها الصماء .

ومن العبث ايضاً ان نرتاد المياه فى الصحراء الفاصلة بين خليج البصرة ووادى الشريعة والعاصى ، ولهذا السبب كانت بادية الشام على حظ يسير من كثافة النفوس لا يكاد يذكر .

من المعلوم ان الانسان منذ خلقته ينتقى الانحاء الخصبة الريانة ويرجحها على سواها ، ويؤسس فيها الامصار والقصبات . وقد نشأت البلاد السورية تبعاً لهذا القانون . فسورية على اعظم درجة من الاهمية لانها نقطة ارتباط مصر السفلى ، بسهول العراق الخصبة ، وهى من اصلح البلاد فى المناسبات البحرية لكثرة خلجانها ووفرة مرافئها .

انتهز الفينيقيون فرصة استعداد بلادهم بما هى عليه من الجدارة المحلية ، والمواهب الطبيعية ، وسلكوا سبيل الملاحة منذ ابتداء القرون التاريخية ؛ ولم تكن الزراعة مهملة فى ذلك الزمن على ما يظن ؛ بل ان البحث عن الآثار القديمة الان اظهر انقاض طواحين ، ومخازن ، ومجارى مياه محفورة فى الصخور ، مما يدل على ان القوم اشتغلوا فى الزراعة . ويحتمل انه لم يكن لسواحل سورية فى الازمنة القديمة مرافئ مصونة من تأثير الانواء . صالحة للتجارة البحرية . ولذلك فقد شعر الفينقيون بضرورة تأسيس مرافئ امينة على بعض نقاط ذلك الساحل الذى ما زال هدفاً للارياح العاصفة والامواج المتلاطمة . واليوم نشاهد فى اكثر المرافئ الموجودة ، بعض سدود للامواج من آثار اولئك القوم العاملين .

ان الفينقيين الذين عملوا على اعمار الساحل باصلاح بعض المرافئ الموجودة فيه ، او بانشاء مرافئ جديدة اسسوا ميناء آرادوس ، تريبوليس ، بەريت ، سيدون على هضاب مرتفعة ، حيث لم تكن المسافة بين كل منها اكثر من يوم واحد ، بصورة اوجدت للملاحين حين تفاقم الانواء ملاجئ عن اليمين وعن الشمال . وقد بالغ الفينقيون فى العمل لانهم على غالب الظن عالجوا الانهار الكبيرة التى تصب فى البحر الابيض وجعلوها صالحةً لسير السفن .

ان هذه الموانى والمرافئ التى اسست منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة لم تزل للان قابضة على زمام التجارة السورية بالرغم عن غارات الفاتحين ، وهجمات الجيوش الضخمة ، والحروب الاهلية ، وما نتج عنها من المحن والنكبات . وان الزلازل الصادعة التى ما زالت تستهدف هذه الاقطار فى بعض الاحايين . لم تستطع تقويض تلك الآثار القديمة . وهذا البرهان المجسم يدل على نفوذ نظر القوم ، واصابة آرائهم فى تأسيس البلاد .

ابتدأ الفينيقيون من الطفيف ، فكانوا يكسبون معاشهم ببيع محصولاتهم الزراعية ، ولكن ما لبثوا ان توسعوا بالعمل فمدوا ايديهم الى محصولات العراق ولم يهملوا البلاد المصرية التى هى بلاد بحرية . واصبح بتدال الازمان ملاحو سورية يتجولون فى جميع الانحاء . ولم تعذب عن دهائهم التجارى بلاد انكلترە وپروسيا ، والقوقاس ، وخط الاستواء لاسيما وان الامتعة العراقية كانت مضطرةً للمرور من طريق سورية لتصل الى مصر . وتجار بلاد مصر المحرومة من الغابات والاحراج ، مضطرون الى تسليم بضاعتهم الى الملاحين

الفينيقيين . وبما ان الالواح التى تصنع من شجر الارز اللبنانى هى على اتم ما يرام من المتانة ، واصلح ما يكون لانشاء المراكب ، كان اولئك الملاحون يستثمرون هذه الهبة الطبيعية على غاية الاعتناء والدقة .

كان الفينيقيون الذين هم سماسرة الشرق الادنى كاتمين سر حرفتهم لا يذيعونه . لاسيما تجاه رقبائهم اليونانيين . فما من احد يعلم الى اين يذهب هؤلاء البحارة الذين يشقون عباب الامواج ، ويخوضون غمار البحار ومن اى البلاد يجلبون هذه المعادن وتلك الذخائر النفيسة ؟

ما لبث الزمن الا ونبه الاقوام المجاورة ، وخلق الرقباء للفينيقيين ارباب الملايين . فتطاول اليونانيون ثم القرطاجيون على التجارة البحريه ، واحرزوا قسماً منها . فذاع السر المكتوم ، وشرع باقى الاقوام باستعمال تلك الوسائط التى كانت الحجر الاساسى فى بنيان المدينة . حتى ان اليهود لم يملكوا انفسهم دون الانخراط فى هذا السلك رغماً عما هم عليه من بساطة العيش والحياة الابتدائية لتجنبهم مخالطة الناس ، ذلك لانهم مشغوفون باستقلالهم القومى ، وهم يعتقدون ان الله خلقهم اعلى واعز من جميع الناس . نعم علم تلامذة الفينيقيين تباعاً ان للانسان وظائف دنيوية كوظائفه الدينية ، واصبحوا اليوم وفى قبضتهم ازمة تجارة العالم على الاطلاق .

وقصارى القول ان سورية — رغماً عن كثرة المعارضين — هى فى الدرجة الاولى بين الاصقاع التى عملت على انارة الادمغة البشرية . ولا يستطيع احد ان ينكر ما لهذه البلاد التى احتوت على القدس والشام من الشأن العظيم ، فى تاريخ البشرية .

ما زال المتدينون من النصارى موجهين افكارهم الى جبل (غولغوتا — *golgatha*) يشغلون ادمغتهم المخمرة بالاعتقادات العويصة بقدسية تلك البقعة المباركة التى تعذب فيها آلههم الجليل ، وكل البلاد التى قطنتها أسباط بنى اسرائيل هى ارض مقدسة لديهم . ولذلك الناصرة ، وبيت لحم ، وطبريا وجبل الطابور وبئر يعقوب وجبل الزيتون وغيرهم من المحال المقدسة هى على جانب عظيم من المكانة فى نظر النصرانية .

وفى عصرنا ايضاً ، ما من نصرانى ، ولو كان من اكبر اصحاب المصانع ، واغنى ارباب الملايين ؛ بل وادهش الملوك المستبدين ، حتى واعدل القضاة الحاكمين ؛ الا وتعروه هزة دينية وهو على عرش سلطانه ، او فى منتزه روضته المرصعة بابهى البدايع المدنية ، فيخضع خاشعاً لذكرى تلك الارض المقدسة .

والمسلمون ايضاً يلصقون بسورية اهميةً عظمى . لان السكة الممتدة الى الحرمين تبتدأ من الشام ، وبقية البلاد المقدسة التى كانت مهبط الوحى ، وموضع تجلى شرائع الانبياء العظام ، ما عدا مكة والمدينة ، هى فى هذه القطعة .

صنف للآن الوف من الآثار بشأن هذه القطعة المهمة التى خلفت فى تاريخ الانسان انفس الذكرى ، وكانت معرضاً للآثار التاريخية ، والعرقية الموروثة عن امم ، وشعوب لا تحصى ؛ ومسرحاً لمختلف الامزجة والعادات وشنشنة الاديان والمذاهب ؛ ولكم جست من حسيات المبدعين اوتاراً فابدعوا اشعاراً تلمس الارواح ، وتنفذ لمدب الراح .

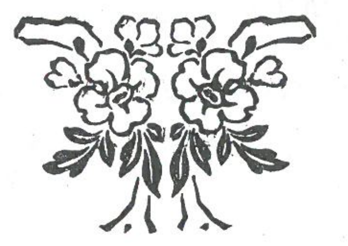
لا نريد هنا ان نعالج تدقيق تلك الآثار والمآخذ ؛ المصنفة بلغات مختلفة ؛ بل نكتفى بذكر اسماء المهم منها فى آخر صحيفة من كتابنا هذا .

ولنذكر ؛ بما ان وظيفتنا هذه مع خطورتها — كما اعترفنا سابقاً — هى على درجة عظيمة من الاهمية العلمية ، لا جرم يعسر على مساعينا فى هذا السبيل ان تتكلل بالنجاح الكامل . بيد اننا بهذا المصنف الذى نافت صحائفه على الالف ؛ هيأنا للخلف سبيل حركة ممهداً ، واحضرنا لهم خطةً مدمثةً . ويسعدنا ، ان نرى الاخصاء الافاضل ، تلحظ مسعانا هذا بعين العناية ، وتجزى خلوص نيتنا فيه بالجزاء الاوفى .

— بيروت فى ١٩ ايلول سنه ١٣٣٣ ، ١٩١٧ —

المدير الثانى فى المدرسة السلطانية	مدير مدرسة التجارة
محمد بهجت	رفيق التميمى

المباحث العمومية



المباحث العمومية

—١—

موقع لوائى طرابلس واللاذقية وحدودهما ومساحتهما

١ — الموقع والحدود

ان لوائى طرابلس الشام ، واللاذقية الكائنين فى الجهة الشمالية من ولاية بيروت محدودان من الجهة الشمالية بولاية حلب ، ومن الشرق بلواء حما ، ومن الجنوب بلواء لبنان ، ومن الغرب بالبحر المتوسط .

بينا فى القسم الاول من كتابنا ان جبل لبنان يفصل ولاية بيروت الى قسمين كادا ان يكونا متساويين . وطول القسم الشمالى الذى نبحث عنه الان اعتبارا من قصبة طرابلس الشام الى الحدود الشمالية من قضاء صهيون فى لواء اللاذقية ١٩٠ ، وعرضه ٣٠ — ٥٠ كيلومتراً .

٢ — المساحة

ان مساحة هذين اللوائين على رواية ويتال كينه *V. Guinet* هى ١١٧٧٩ كيلومتراً مربعاً .

—٢—

الاحوال الطبيعية فى القسم الشمالى

بحثنا فى عين الفصل من كتابنا الاول عن الاحوال الطبيعية بالنظر لجميع الولاية ، بحثاً شافياً . ولذلك لا نرى لزوماً للزيادة ؛ على انه لا يمكن توسيع هذا الموضوع ، اكثر من هذه الدرجة فى كتاب مخصص لدرس الاحوال العمومية ؛ وما زلنا معترفين باننا فى اشد الحاجة الى درس التكونات الارضية ، والاحراج ، والاقاليم ، والحالات الجوية فى بلادنا ، والتنقيب عنها . وهذا يحتاج الى اخصاء بهذه الفنون مجهزين باحدث الالات والوسائل ، فما بالك بنا ونحن ما لدينا من الاجهزة الا نظرة مجملة . ولذلك نكتفى هنا برسم الخطوط الاساسية فقط .

١ — الجبال

ان سلسلة جبال آلماطاغ التى كادت ان تكون مبدأً لجبال سورية ، والتى يسميها الاقدمون (آمانوس *Amanus*) ، ما هى الا فضالة من جبال آسيا الصغرى . تمتد من

الشمال الشرقى ، الى الجنوب الغربى ، موازيةً لجبال طوروس ، وآتى طوروس حيث تتصل بجبل بركت ، بيفاع فيه بحيرة كاوور . ويبلغ ارتفاعها فى بعض النقاط الى ٢٠٠٠ متر ، اما سفوحها المطلة على البحر فهى مستوية ، تستقر على الساحل برؤوس بارزة .

ان الممر الصلد الكائن فى شمال قصبة اسكندرون ، وسع من قبل ژوستينيان ايمپراطور البيزانسيين ، حتى اصبح مساعداً لمرور العجلات الحربية ذات الدراجتين . وهناك توجد انقاض معبد قديم ، بنى من المرمر الابيض . ويذهب الاهلون ان هذا المحل هو المكان الذى لفظ الحوت فيه يونس النبى كما جاء فى الكتب المقدسة . ولذلك يسمونه « مسند يونس » ومن الروايات الخرافية ايضاً ان جنازة اسكندر الكبير مدفونة فوق هام القوس المذكور ، لتكون ذكرى لارباب الفتوحات الذين يمرون منه ، تذكرهم بصغر شأنهم .

ان الطريق المار من جنوب اسكندرون يتطاول متنحياً عن الجبل الاحمر المسرد ، وعن جبل موسى الذى ينتهى فى رأس الخنزير ، ثم يقطع جبال الماداغ من ممر « ابواب سورية » ويصل الى سهول انطاكية . وحدود سورية تبتدأ من الساحل الايسر لنهر العاصى الذى يخترق تلك السهول من الشرق الى الغرب . ثم ينصب فى البحر المتوسط ، وتوجد هناك ما عدا نهر العاصى بحيرة انطاكية وبضع جداول تجرى من الشرق وتنتهى فيها . وفى الجهة الشرقية سهول حلب المسورة بهضاب لا يزيد ارتفاعها عن ٤٠٠ متراً من جميع انحائها .

اما جبال النصيرية التى تبتدأ من جنوب انطاكية ، وتمتد من الشمال الى الجنوب فهى مسماة بأسماء ما تمر عليه من البقاع . وجبل الاقرع *Casius* الذى هو من الجبال المقدسة لدى الفينيقيين ، هو على ارتفاع ١٧٦٩ متراً ؛ وذروته بشكل اهرام . وتشاهد من اعلاه جزيرة قبرص ، وجبال بلغار الكائنة فى الجهة الشمالية الغربية عن بعد ٢٠٠ كيلومتراً . ويعتقد قدماء اليونانيين ان هذا الجبل موطناً « لزهؤس — *Seus* » رئيس الآلهة . وهو على زعمهم من العلو بدرجة يكون فى احد سفوحه الليل ، وفى الآخر النهار وجبال الاكراد ، دريوس ، عمامره ، الكلبيه ، صقره ، نواصره ، بورى قراحله ، قدموس من جبال النصيرية ما هى الا السلسلة التى سماها الاقدمون (*Baraylus*) وهذه السلسلة تفترق عن بادية الشام بنهر العاصى ، وعن جبال عكار فى الجنوب بوادى النهر الكبير . وارتفاعها على الحد الوسطى ١٠٠٠ متراً ، وجبل شعر (١٥٠٠ متراً) الذى هو فى ناحية الكلبية من قضاء جبلة . هو النقطة العليا فى تلك السلسلة . وهذه الجبال تتركب من صخور رمعية منفصلة عن بعضها بشقوق ، قسمت تلك الاراضى الى قطع كثيرة وليس هناك من رابطة تصل تلك القطع ببعضها ، وهذا السبب جعل النقليات ، والمراسلات

صعبةً متعذرةً . وبه استطاع سكان هذه الجبال من النصيريين محافظة استقلالهم ،وحريتهم مدة مديدة . وجبال عكار المعدودة من سلسلة لبنان تبتدأ من يسار النهر الكبير .

أن جبال لبنان المحاذية للبنان الشرقى ، والممتدة من الشمال الشرقى ، الى الجنوب الغربى ، ترى من جهة البحر على غاية العظمة والمهابة وتركيبها من فحميت الكلس ، والكلس ، والحجارة الرملية ، والكلس الصلصالى . ولها منظر ناصع البياض بسبب الثلوج التى تدوم على ذراها اكثر من عشرة شهور ، وبسبب ما تتركب منه من الكلس . وهذه الجبال تتدرج بالتعالى اعتباراً من الشاطئ فتوجد انواعاً من الدكك ؛ والسدود وتنتهى على ارتفاع ٣٠٠٠ متراً بسد يسور يفاعاً واسعة الارجاء ، مستوية السطح. مملوءة من الحفر المسماة « دولين » . اما الجانب الشرقى من لبنان فهو ينحدر بغتةً ،وينساب بسرعة الى الغور حيث يبيد .

ما اخطأ الذين يعدون لبنان كاسويچره بالنظر لسورية ، او للشرق . لاسيما ان هذه الجبال اللطيفة هى مصطاف لبلدة بيروت . والبيروتيون منهم من يذهب الى عاليه التى تبعد عنهم مسافة ساعتين ونصف . ومنهم من يتسلق الجبل الى صوفر المرتفعة عن سطح البحر بمقدار ١٢٥٠ متراً . ويصعد على هذا الجبل بسكة حديدية مسننة . كما يصعد على جبل (كولم) القريب لبلدة لوسه رن فى اسويچره . وهذه المشابهة ليست فى المناظر الطبيعية فقط ، بل هى محسوسة فى الكد والكدح ايضاً . وهنا تتخذ الدكك ، والمصاطب على الصخر فتردم بالتراب ، ثم يغرس فيها » او يزرع ؛ وهو عين الحال الموجود على سواحل بحيرة جنوه . او (له مان).يتسلق الخط الحديدى الواصل بيروت بدمشق . جبال لبنان الى موقع ظهر البيدر الذى يبلغ ارتفاعه (١٤٨٠) متراً ثم ينحدر بهبوط ليقطع السطح الثانى . وهناك يرى الناظر ابهى المناظر من وادى البقاع ، وانتى لبنان . ويصادف من الخرارات ، والشلالات الصغيرة ما تلذ به النواظر . ويوجد فى القرى ، كما فى اسويچره فنادق على اتم المراد من النظافة والمعدات . وقد كان قبل الحرب كثير من المصريين ، والامريكانيين ؛ وحتى الاروبيين يؤمون لبنان لاجل النزهة .

٢ — الانهار

ان المياه المنصبة فى البحر المتوسط هى وديان تفيض فى اكثر ايام السنة . ثم تفيض بتوالى الامطار . او بذوبان الثلوج .

ومن اهمها [نهر العاصى *L'Oronte*] فهو ينبع من امام بعلبك ، ويجرى فى واد ضيق عميق ، ثم يحدث مستنقعات ، وبحيرات صغيرة ، ويمر بحمص ، وحما ، وينعطف الى الجنوب الغربى بين جبال النصيرية ، والما . فيحدث وادى انطاكية . ويأخذ هناك ماء

بحيرة العمق التى اوجدها نهر عفرين الناشئ من جبل بركت . ثم يمر بفيضه المزبد على عارضة صخرية فيتخطاها حيث يندلق فى البحر المتوسط . وهذا هو أهم نهر يوجد فى القسم الشمالى من سورية

ان الجداول الموجودة فى لوائى طرابلس واللاذقية هم على ما يأتى :

قنديل — ينصب فى البحر قريباً من قرية صليب التركمن عن مسافة ثلاث ساعات من اللاذقية .

فرشيش — منبعه فى جبال باير ؛ وينصب على البحر فى (راس البسيط) الكائن فى منتهى الحد الشمالى للواء اللاذقية .

النهر الكبير — ينبع من جبل الاقرع فى قضاء جسر الشغور التابع لولاية حلب . ويمر بناحيتى باير ، وبوجاق من اعمال اللاذقيه ، وينصب فى البحر بمسافة ساعة عنها .

صنوبر — يخرج من جبل الكلبيه ،وينصب فى البحر قريبا من قرية صنوبر فى قضاء جبله .

المضيق دروس — يخرج من هذه الجبال وينصب فى البحر قريباً من جبله .

برغل — يخرج من محجر يسمى بالشيخ حسن فى قرية كفرون من توابع ناحية حذور ، وينصب فى البحر جنوب جبلة .

نهر السن ، او الابتر -- يخرج من جبل الكلبية ويلاقى البحر قريباً من قرية عرب الملك التابعة لجبله ، وبناءً على وفرة مائه ، يمكن ان تسقى منه جميع الاراضى المجاورة له .

حريصون ، ومرقبه — يخرج من جبال الكلبية ، وينصب فى البحر قريباً من المتن ، وزمزين شمالى بانياس .

النهر الكبير — ينبع من الجانب الشرقى لجبال لبنان ، ويفصلها عن جبال النصيرية وينصب فى البحر بين طرطوس وطرابلس الشام ، وان مجرى هذا النهر هو اصلح ممر يدخل منه من ساحل سورية الى الداخل .

نهر ابو على — يخرج من جبل لبنان ويسقى انحاء طرابلس الشام ، ثم يمر من قصبتها فيفرقها قسمين وينصب فى البحر .

—٣—

الاقليم

ان القروى الجاهل عندنا ، يظن ان استعداد الانبات فى اراضيه لا يتناهى . ويعتمد على اقليمه اعتماداً اعمى . مع انه يهاب الجدب ، ويعده من نقم القضاء . ولكن لا يتحفز

لوسيلة تخفف مصابه . فيثابر على صبره الجامد ، وتوكله الباطل ، مهما توالت المصائب ، واخذ الجدب المميت بخناق بلاده . اذ من رأيه الفائل ، ان القضا لا يدفع ، والطبيعة لا تحارب .

يدعى ذوو الآرا الصائبة من المؤلفين ان الاحوال الاقليمية فى سورية لا تزال تتبدل قائلين :

يشاهد اليوم فى ضواحى الشريعة مجارٍ شتى لانهار غائضة ؛ وقد برهن الفحص الفنى على ان سطح الما فى بحيرة لوط لا يزال على تخفض متوالٍ . ولا يسوغ ان يعطف هذا الحال على كثرة التبخر فى المياه . بل يجب ان يحمل على قلة الامطار ؛ نعم ان الرى فى سورية وعلى الاخص فى القسم الوسطى منها هو على نقص متتابع . وهذه التحولات الجوية اوجبت نقص مقدار المحصول السنوى من الحبوب فى قطعة فلسطين . ولكننا نرى غير هذا الرأى : لان المحصولات النباتيه فى بلادنا كانت موجودة فى زمن مهاجرة العبرانيين ، اى فى منتصف القرون الاولى . والتحولات الاقليمية التى يدعيها علما الطبقات لا جرم كانت قبل ما هو معلوم لدينا من التاريخ البشرى . وعليه يجب ان يحمل نقص المحصولات الزراعية وانحطاطها ، على عدم مساعدة الاقليم من جهة وسقامة اصول الزراعة من جهة اخرى . لا ننكر ان عين الاصول ونفس الالات الزراعية كانت تستغل محصولاً اكثر مما تستغل اليوم ولكن لا ننسى ان هذه الاراضى التى ما فتئت تستعمل على وتيرة واحدة منذ زمن العبرانيين قد اضاعت قسماً عظيماً من المواد العضوية ، والمعدنية اللازمة للنبات . فاذا لوحظت هذه النقطة ينكشف سر التفاوت الموجود بين محصول اليوم ومستغل العصور الاولى .

تفصيل الوجهة الفنية من الاقليم :

الحرارة — ان الدرجة الوسطى من الحرارة تزداد بنسبة الابتعاد عن الساحل ، وبالاقتراب من رمال الصحرا المسعرة ، اعتباراً من سهول البقاع .

تبلغ الحرارة فى يافا ايام الصيف الى ٤٢ درجة على الاكثر . ولا ينقص حدها الوسطى عن ١٢ درجة . اما فى بلدة بيروت الكائنة فى الجهة الشمالية تكون الدرجة العظمى من الحرارة ايام الصيف ٣٥ درجة ؛ واصغر ما تكون فى ايام الشتا ٣ درجات ، والدرجة الوسطى من حرارة السنة الماضية هى ٧ درجات .

ان الشتا فى سهول البقاع يكون شديداً . ويدوم الثلج هناك اكثر من ثلاثة شهور . وربما تحرم هذه البقعة من كمال الربيع ولطافته . ولهذا يزرع حب السليط (السمسم) فى اكثر انحا سورية ، ولا يستطاع زرعه فى السهول المذكورة . لان ارتفاعها بمقدار ٨٠٠ متراً اوجب هذه الوضعية الطبيعية .

اما سهول الشام المرتفعة بمقدار ٧٠٠ متراً ، تفترق عن فلسطين باعتبار المواسم . لان شتائها اشد من شتا بيروت ، وكثيراً ما تصعد الحرارة فيها ايام الصيف الى ٣٨ درجة . اما حوران فهى اشد شتاءً وصيفاً من فلسطين ، وتفترق عنها كالشام ، فى مواسم الزراعة . وهنا تبلغ درجة الحرارة فى الصيف ٤٠ وتنخفض الى ٨ ونصف فى الشتا .

ولهذا نجد سورية تنقسم باعتبار الحرارة الى منطقتين ، توجد فى القسم الاول ديار فلسطين ، ويفاع حوران ، وسهول الشام . وفى الثانى سهول البقاع وحدها . والمفرق لهاتين المنطقتين عن بعضهما ، هى قابلية زرع السمسم .

الامطار — لاسعادة لمن له اراضى تسقى من القرويين الا بنزول الغيث بصورة منتظمة ، فاذا امسكت السما ، او كان المطر غير كاف ؛ يزعمون ان ويلهم منه ؛ وانهم لمخطئون ؛ اذ قد يمكن الانتفاع من المكان العطش بحسن التدبير ، والاهتمام . فكم من مواد تستحصل فى هكذا بقاع ، لاتوجد فى الانحا الزيانة . وسكان هذه الاقاليم يستبدلون تلك المحصولات النادرة بما يحتاجون اليه من المواد الغذائية ، وذلك بتوسط التجار . ولا نرى لزوماً لايضاح ما لتلك المحصولات من الاهمية والرواج فى ميدان التجارة .

ومن جهة اخرى ، ان القحط الذى يصيب سورية فى بعض السنين لايكون عن عدم كفاية الامطار ، بل هو عن عدم الاقتدار لاستخدام تلك المياه على وجه نافع لأن مقياس المطر يرينا ان كمية الامطار التى تهطل فى الانحا السورية تتراوح بين ١٨٠ و— ٢,٢٥ متراً . وبهذه الدرجة لاتكون بلادنا ادنى رياً من اكثر البلاد المشهورة بوفرة الرى . ولكن المياه لاتغيض فتنفذ لبطن الارض ، بل تتراكم وتبقى على سطح السهول الصلصالية *Argileuses* ، حتى تقتحمها حرارة الصيف فتستحيل بخاراً ، وينحرم النبات من الانتفاع بها .

ان لبلادنا التى هى معرض للغرائب ، حالاً خاصاً بالنظر للامطار . فان سعادتها ورفاهية ابنائها لاتكون الا بتوزيع المياه المطرية على الاراضى ؛ والمياه عينها تكون الطامة العظمى على الصحة العامة ، بما تحدثه من المستنقعات الوبيلة .

لاجرم ان موسم المطر فى سورية غير متناسب مع الشهور . فلا تغاث حروثنا الا من اول تشرين الثانى الى منتصف نيسان ؛ ثم تبتدأ اليبوسة ، وتزداد بصورة متوالية ولقد يمر اكثر من نصف السنة وسمائنا خلو من السحاب . وهذا التشوش لايزال يستلفت انظار ارباب الفن . على ان الاشكال ليس بصعب الاقتحام كما يرى لاول وهلة . فان سهول الشام سالمة بعناية الله من هذا الجدب . وان الامطار الغزيرة ، المشفوعة بالمياه الوافرة هناك ، خلقت فى تلك السهول الرياض الزاهرة ، والحدائق الغلب .

اما فى المناطق الاخرى ؛ يمكن اذلال الجدب المذكور ، بتبديل نوع الزرع . وهذا

التدبير ينجح في سهول البقاع نجاحاً كاملاً. وفي حوران يمكن ان يكون ٥٠—٦٠ في المأة. ويشكل تطبيقه في سواحل فلسطين ويتعذر في جبالها. لان ارض البقاع وحوران مكونة من طبقات خفيفة عميقة. تحتها طبقة كثيفة من الاحجار الكلسية الصلبة. ومياه الامطار تنفذ الى تلك الطبقة وتجتمع فيها، حيث تكون خزينة للنبات يستمد منها ايام الصيف الري الذي ينشؤه ويحييه. اما فلسطين، فان ارضها البور ، وطينتها الصلصالية محرومة من تلك الخصيصة، ولذلك يبيد جميع ماء المطر فيها بالتبخر.

ان علو القطاع الحورانية والبقاعية يخفف وطئة اليبوسة بحالين. الاولى؛ ان الثلوج التي تسقط على هاتين المنطقتين لغاية فصل الربيع، لا تابث ان تذوب بتأثير الحرارة؛ فيجري ماؤها على وجه السهول حيث يودي بيبوسة التراب.

والثانية؛ ان الرياح الباردة التي تهب من شواهق الجبال القريبة، ربما اقلت بخاراً مائياً، واوجبت نزول القطر، في ذاك القطر. اما في فلسطين فما من ري، ولا نسيم بليل، لان الحرارة هناك، في الدرجة العظمى.

— ٤ —

طبيعة التراب في سورية

ينقسم قشر الارض باعتبار التشكلات الطبيعية الى طبقات متنوعة. وجوهر هذه الطبقات ليس من مادة واحدة؛ بل لكل مواد معدنية تتركب منها على حدة. ولقد يشاهد هذا الحال في نقاط مختلفة لارض واحدة لدى فحصها. مثلاً يكون التراب يرمعيا (تباشيري) في نقطة ويكون في الاخرى رملياً، وفي غيرها يتركب من الحصباء، والمرمر وغيرها من الاحجار وهذه من الحقائق التي برهن عليها الفحص الفني.

ان ما تتضمنه الاراضي من المواد المعدنية، يكون تارةً افقياً، واخرى عمودياً، وآونة منحنياً، واكثر ما ترى على شكل طبقات مرتبة بعضها فوق بعض. وهذه هي الصخور الارضية.

هذه الصخور اما ان تتكون من مادة واحدة، كالحجر الكلسي، وصخور الملح. او من مواد متعددة كتركب حجر غرانيت من معادن قوارس، فلدسپات، وميقا. وعليه ان الصخور اما تكون بسيطة او مركبة، والطبقات المتنوعة التي تحدثها هذه الصخور تكون على اقسام متعددة من حيث التربة. واشكال هذا التراب معروضة للتبدل الدائم. والسبب هو تأثير الحرارة، والهواء بصورة متنوعة ودائمة.

فالتراب الزراعي الذي هو اساس هذا البحث؛ ما هو الا ذرات لتلك الصخور — تجزأت، وتفتتت بتاثير الحراره والهواء —.

لا تكون طبيعة التراب على نسق واحد في كل مكان؛ بل يختلف تأثيره على النبات باختلاف كمية المواد المعدنية التي يتركب منها وكيفية خواصها الحكمية والكيموية.

يمكن تقسيم اراضي سورية بالنظر لطبيعة التراب والتشكلات الطبيعية الى ثلاثة اقسام مستقلة.

الاراضي اليرمعيه (تباشيريه) *Terrain cretacées*
الاراضي البركانية « « *Volcaniques*
اراضي الدور الرابع « « *qua ternaires*

يندر ان توجد في اراضي سورية آثار للدور الثالث، وان تلك الاتربة التي توجد مبعثرة في الانحاء الشمالية والجنوبية مؤلفة من الكلس والسيليس يعثر عليها في تلال الجليل والسامره من اعمال فلسطين.

الاراضي اليرمعية (تباشيريه) —. تتألف هذه الاراضي من سلسلة تلال حصبائية، محدودبة الطبقات؛ ممدة من الشمال الى الجنوب. ويوجد في منتصف هاتيك التلال وادي الشريعة المعروف بخصبه، وجودة انباته؛ وهناك سهول منسوبة للدور الرابع، على غير انتظام بالتشكل، تقطع هذه المنطقة عرضاً. وتوجد شرقي هذه السهول قطعة حوران الخصيبة، وغربها سهول معوجة تنتسب الى الادوار الحديثة. اما سهل الجليل فهو محاط بسهول البقاع من الجهة الشمالية، ويختلط من الجنوب بالسامره بواسطة منطقة جودا التي تنتهي على حدود صحراء التيه المرملة.

يندر في الجليل والسامره وجود الطبقات اليرمعية (تباشيريه) التي تشاهد في منطقة جودا الجبلية. وجبال هذه الانحاء على الاطلاق تتكون من طبقات الحجر الكلسي، والصلصال الكلسي الابيض.

اما الصوان الذي يندر وجوده في الجهة الشمالية والوسطى، يوجد منه في الجهة الجنوبية مقدار وافر. وبينما لا يوجد منه شيء في جبال الناصرة، تراه في جنين يملأ السهل والوعر.

ان حجر الكلس الابيض يوجد احياناً مخلوطاً بفحمية الكلس، او بالكلس الكثيف وربما تدخل في التركيب الاول بعض مواد قارية فتحيل اللون الى سواد لطيف، ويسمى هذا النوع بحجر موسى. وهذه عناصره.

فحمية الكلس	٦٨٫٧٣
فحمية الماغنزيه	٠٫٢٧
القار	٢٥٫٠٠
الرسوب الترابي	٦٫٠٠
	١٠٠٫٠٠

للصخور الكلسية احجار من غير هذا النوع كثيفة تميل بلونها للزرقة ، تحتوى على محجرات من صغير النبات والحيوان ، كما يصادف منهـا فى انحاء نابلس . والاحجـار الكلسية فى منطقة جوده ، عظيمة الحجم ، تتفتت لدى الكسر ، كثيرة المحجرات . والهضاب المطلة على خليجى ، عين الغوير ، وعين ترابه هى من نفس هذا التركيب . ويعثر على خطوط صوانية فى ذرى جبل الزيتون المؤلف من الاحجار الكلسية. وخلاصة القول ؛ ان الاراضى اليرمعية (التباشيريه) فى سورية تتأسس على احجار كلسية صلداء ، ثم فوقهـا احجار كلسية لينة ، تميل بلونها الى البياض ، ثم تعلوها طبقة يرمعية يخالطها حصى الصوان وفوق كل هذه الطبقات طبقة من احجـار الكلس ، اما بحالة التراب ، او بشكل صفائح

ان امحـاء الاحراج ، جعل تلك الربى جرداء ، حيث لا حائل للجبس الـترابى . لدى تساقط الامطار ، اذ يجره السيل من اعالى تلك الربى ، ويهوى به الى الاوديـة ، فتنكشط الطبقة الترابية ، عن الصفائح اليرمعية ، وتصبح قرعاء جرداء ، لا شجر ولا ماء . عـلى ان التراب الكلسى الذى يتراكم على اذيال الجبال ، لا يلبث ان ينهال على الاودية فيزيد استعداد انباتها . ويعوض جدب الذرى ، بخصب الاذيال .

الاراضى البركانية — بدأت الاندفاعات النارية فى الدور الثالث ، ودامت فى الادوار البدائية للتاريخ ايضاً كما ورد فى التوراة . وان الزلازل التى ما زالت تحدث فى هذا العصر ، والينابيع الحارة المعدنية التى ما فتئت تفور ؛ تدل على ان السيال النارى فى قلب الارض لا يزال على هياج .

ان الاراضى فى الجهـة الشرقية من وادى الشريعة هى من هذا النوع ، وهى واسعـة جداً ؛ ومنطقة حوران كلها اراضى بركانية . اما فى الجهة الغربية من هذا الوادى لا يوجد الا مقدار محدود من هذه الاراضى فى منطقة الجليل ويدخل فى هذه الفصيلة من الصخور جبال صفد ، وهضاب الشاغور فى قرب طبريا ، وجبل الطابور الكائن على طريق الناصره — طبريا .

ان المواد النارية المتصلبة التى تملؤ تلك المناطق البركانية ، هى من نوع البـازالت . وعناصرها ، على ما رواه الدقتور آندرسون — *Anderson* هى :

آلومين	١٤،٦٢
متحمض الحديد	٢٣،١٥
فحمية الكلس	١٢،٧٠
ماغنزيه	٠٧،٠١
سيليس	٣٨،٤١
القالى	٠٣،٤٢

وبما انه يوجد فى تلك الاراضى ، ما عدا هذه المواد ، حامض الفوسفور ، والبوتاس ، والكلس . تكون هاتيك الانحاء صالحة لزرع النبات المنسوب للفصيلة النجلية ؛ واكبر سبب لجودة القمح الحورانى كثرة هذه المواد .

ان صخور البازالت التى هى اكمل نموذج للاراضى البركانية ترى على شكلين :

(١) صخور منطقة جولان ؛ يسيرة الجروف *Scarie* بذرات كثيفة ، ولونهـا اسود يقرب من الزرقة ، ويوجد فيها كثير من بللور الزبرجد الاصفر ؛ ولا تأثير لها على الابرة المغناطيسية .

(٢) صخور حوران ؛ تفترق عن الاولى بجذب الابرة المغناطيسية فقط .

وهذه الصخور ، اما ان تزيد استعداد الانبات ، او تبيده ، وذلك باختلاف كيفية تشكلها .

ان طبقات الاراضى الجرداء . المحصبة الواقعة بين طبريا وبانياس . هى عبارة عن صخور بازالتية صماء . لا تصلح لان ينتفع السكان من استثمارها . على ان البازالت ، يكون فى السهول قطعاً تختلط بالتراب الناعم ، فتصبغ الاديم بالسمرة ، وتجعل تلك الاراضى غنيـة بالمواد المعدنيـة ، مستعدة للانبات على غاية ما يرام . والانحاء المزروعـة من ديار لجا الصخرية فى ولاية سورية ، هى من نوع هذه الاراضى . ويفـاع حوران . هى احسن نموذج للاراضى البركانية فى سورية .

اراضى الدور الرابع — لقد يعسر تعيين هذه الاراضى وتشخيصهـا . اذ لا يعثر على محجرات تنسب اليها من جهة ؛ وتاريخ حدوث التحول الاقليمى . الذى يحد ذلك الدور ويعرفه مجهول من جهة اخرى ولا تزال الافاعيل الاقليمية التى تفصل الدور الثالث عن الدور الرابع ملتبسة ، غير واضحة ، الا فى بعض الانحاء . مثلاً ان تلك الافاعيل هى على اتم الوضوح ، فى الاراضى الرملية الحمراء المغروسة فيهـا بساتين الليمون فى يافا ؛ وفى السواحل الشمالية ، والجنوبية لقصبة بيروت المكونة من الاحجار الكلسيـة . وكثيراً ما يعثر على قشور حيوانانية قديمة ، تشاهد حيواناتها اليوم .

نرى ان سواحلنا لا تزال تتعالى ؛ وتحاذيها ارصفة تتركب من صخور الرمل الصلبة فالصخور الموجودة امام يافا وعكاء وطرابلس الشام هى من هـذا النوع . اما الكثبان التى لا تزال تتكون على الساحل ، كادت تصل الى درجة تجعـل القصبات تحت خطرها

وقد قلنا فى كتابنا (القسم الجنوبى) [يذكر ارباب المعرفة والوقوف من المتتبعين للتاريخ انه كان شرقى قيسارية محلات للاستراحة على مسافة سبعة كيلومترات او ثمانية فكانت النساء الرومانيات يخرجن اليها ويمضين مدة القيلولة فيهـا ويلتجئن الى تلك الظلال اتقاء من الحر وقوارص الشمس ، وكم للادباء من المدائح والتخيلات فى تلك

الظـلال . ولو نظرنا اليوم الى تلك الجهه لا نجـد فيها الا اكثبة رملية متجمعة . ويؤخذ من المنقولات التاريخية ان الاكثبة التا يخية الممتدة على عرض ستة او ثمانية كيلو مترات على طول السواحل الفلسطينية هى نتائج الفـين من السنين . وقد ثبت بالارقام المحققة ان المساحة السطحية للاكثبة السيارة فى فلسطين يبلغ مليون دونم وتبلغ مساحة الاراضى التى تستولى عليها الرمال سنوياً . وتحرم الزراعة منها الا اقل من خمسة آلاف دونم] . (*)

وقد غرست احراج الصنوبر قريباً من بلدة بيروت لتكون حائلاً لتلك الكثبان السيارة .

يعلم من هذه الابحـاث ان اراضينا تتنوع فى موادها . وان تلك الاراضى التى تكونت بتأثير مؤثرات متنوعة يمكن فصلها الى قسمين ؛ فالقسم الاول يغلب فى تركيبه الصلصال، والقسم الثانى يكثر فيه حمض سيليسوم . فالاراضى اللحقية *Alluvion* فى سهول البقـاع والشام المعروفة بخصبها ، هى على طبقات لينة بعكس ارض فلسطين فانها صلبة ، وخاصية الانبات فيها ضعيفة .

وقصارى القول : ان ارض فلسطين تختلف عن ارض سورية بالنظر لتربتهـا ، وتكوينها الطبيعى ولقد يحس فى ارض كنعان بوطئة اقليم البحر المتوسط. المعروف باليبوسة الدائمة ابان الصيف .

تنقسم ارض فلسطين الى قسمين :

(١) سيف البحر : وسهوله مكونة من حمض سيليسيوم . والصلصال *Argileuse* .
(٢) الاراضى اليرمية ، وهى عبارة عن تلال كلسية .
اما قطعة سورية الاصلية ، فهى تنقسم الى ثلاثة اقسام .
(١) وادى الشـام المتكون من الاراضى اللحقية ، الذى يسقى معظمـه من نهر بردى .
(٢) اراضى حوران البركانية ، التى هى اقل يبوسةً من فلسطين .
(٣) سهل البقـاع ، المؤلف قسماً من اراضى تركيبهـا الصلصال وحمض سيليسيوم ، وقسماً من احجار كلسية منسوبـة للدور اليرمى ويكون موسم الشتاء فيه شديداً للغـاية ، بسبب ترفعه عن سطح البحر .

(*) (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) ص : ٤٨

— ٥ —

النفوس

ها نحن نبـين مقدار عموم النفوس فى القسم الشمـالى ، على ما نطقت به القيود الرسمية .

١٧٦٥٢٥	لواء طرابلس الشام	مركز قضاء طرابلس الشام	٦٦٥٤٨
		» » عكار	٤٢٣٦٣
		» » صافيتا	٣٧٩١٣
		» » حصن الاكراد	٢٩٧٠١
١٤٧٦٩٨	لواء اللاذقية	مركز قضاء اللاذقية	٥١٢٥٩
		» » مرقب	٣٤٨١٦
		» » صهيون	٣٢٩٧٢
		» » جبله	٢٨٦٥١
٣٢٤٢٢٣	يكون		

بالنظر لكون المساحة العمومية ١١٧٧٩ كيلومتراً مربعاً ، والنفوس المخمنة ٣٢٤٢٢٣ نسمةً . فيكون نصيب كل كيلومـتر مربع ٢٧و٦١ نسمةً . واذا اضفنـا اليه مجموع نفوس القسم الجنوبى (*) وهو ٥٧١٣٧١ نحصل على ٨٩٥٥٩٤ وهو العدد الذى ينطق بمجموع

(*) وقع خطأ فى جدول النفوس المقيد فى الصحيفة ٨٨ من الجلد الاول ، وهذا صوابه :

٢٧٦٦٣٩	لواء بيروت	مركز قضاء بيروت	٥٠٠٠٠
		» » صيدا	٥٤٠٠٠
		» » صور	٤١٢٤٠
		» » مرجعيون	٣١١١٥
١٣٩٢٦٩	لواء عكا	» » عكا	٤١٣٢٢
		» » حيفا	٣٠٧٣٠
		» » صفد	٣٢٢٣٧
		» » طبريا	١٤١٩٠
		» » ناصره	٢٠٧٩٠
١٥٥٤٦٣	لواء نابلس	» » نابلس	٧٧٦٤٩
		» » بنى صعب	٣٥٨٠٩
		» » جنين	٤١٩١٥
٥٧١٣٧١	يكون		

نفوس الولاية .

ان سكان الولاية كما فصل فى البحث الخاص هم عبارة عن المتاولة ، والدروز ، والاسماعيليين ، والنصيرية ، والروم الاورتودقس ، والمارونيين ، والقاتوليك ، والپروتستان ، واللاتين ، والارمن ، والسريان ، والكلدانيين ، واليهود ، والسامريين .

فى القسم الشمالى :

٢٥٤٧٧٢	المسلمون (*)
٧٣٣٧٩	النصارى
٧٢	اليهود
٣٢٦٢٢٣	يكون

وفى القسم الجنوبى :

٤١٥٧٥٦	المسلمون
١٤٠١٠٤	النصارى
١٥٥١٣	اليهود والسامريون
٥٧١٣٧٣	يكون

بناءً على هذا ، يكون المسلمون ٧٤،٨ والنصارى ٢٣،٥٥ واليهود ١،٧ فى المائة بالنسبة لمجموع عدد النفوس .

وعدد غير المسلمين فى الالوية هو على ما يأتى :

١١٣١٥٠	لواء بيروت
٥٩٤٨٨	» طرابلس الشام
٣٨٥٨٩	» عكا
١١٩٩٣	» اللاذقية
٣٨٧٨	» نابلس
٢٢٧٠٦٨	يكون

ان هذه الارقام المنقولة عن دوائر النفوس ، وان لم تكن جديرة بالاعتماد ، غير انها تخدم لانارة ذهن القارئ بكمية منتسبي الاديان فى الولاية . ان معظم اليهود على قلة عددهم، يسكنون فى لوائى بيروت وعكا . ويوجد منهم فى قضاء صفد ٦٠٧٥ وفى قضاء طبريا ٤٢١٠ وفى بلدة بيروت ٢٧٨٤ وفى قصبة حيفا ١١١٧ نسمةً . وما بقى منهم يسكن من الولاية فى انحاء متفرقة .

(*) الدروز والنصيرية معدودون من المسلمين .

جاء فى سالنامة الولاية التى طبعت سنة ١٣٢٤ ان مجموع نفوس الولاية هو « ٦٨٠٠٦٥ » منها ٥٥٣٥٢٥ مسلمون ذكوراً واناثاً ؛ و٥٥٢٠٧ من الروم الاورثوذوقس و٣١٤٤٦ مارونى و٢١٦١٢ قتوليك و٢٢٨٢ پروتستان و١٢٤٤ لاتين و٤٥٧ ارمنى قتوليك و٨٤٠ ارمنى قديم و٤٢٢ سريانى و٢٠ كلدانى، و١٢٨٣٢ من اليهود و١٧٨ سامرى . وعليه تكون نفوس الولاية ، ازدادت من ذلك التاريخ للآن مقدار ٢١٨٥٤٩ نسمةً فاذا طرحنا منها الوفيات التى حدثت فى تلك السنين الثمانية ، بموجب الارقام التى اطلعنا عليها وهى ، ٩٥٢٥٦ نسمةً ، يكون حاصل الطرح ١٢٣٢٧٢ وهو مقدار زيادة النفوس، وبذلك يكون ربح الولاية منها ١٥٢٨٤ فى كل سنة . ومع الاسف ليس فى امكاننا الآن ان ندعى وثوق هذه الارقام .

— ٦ —

السكان

سبق ان بينا فى الجلد الاول ان سكان سورية تنقسم من حيث القومية الى عرب وترك وسريان ، وجركس ، ويهود ، وفرانك ، وقد تكلمنا هناك عن جميع هؤلاء ماعدا الاتراك . والآن نبحث هنا عن التركمان المتوطنين فى القسم الشمالى من ولايه بيروت . والمنتسبين فى العرقية الى الجنس التركى . ونتكلم عن اصلهم ومنشأهم ، وكيفية ، وزمان قدومهم الى البلاد السورية.

التركمانه

[١] — **اصل التركمانه ومنشأهم** — التركمن : هم اقوام يقطنون صحراء التركمن الواقعة بين بحيرة آرال ، وبحرخزر ، واكثرهم من سكان الخيام ؛ وهم من اكبر قبائل الترك . من الضرورى ان نسلم بان التركمان من صميم الاتراك ؛ وان نعد تاريخ هؤلاء القبائل المعروفين باسم (الاتراك الغربيين) لسبب توطنهم فى الجانب الغربى من بلاد الترك فى آسيا الوسطى ، قديماً كتاريخ بقية الاتراك. هذا وان ادعى بعض المؤلفين (*) ان التركمن هم من القبائل التى اتت من بلاد فارس وتوطنت فى تركستان ، وانهم ليسوا من صميم الترك ، بل هم من المتتركين ، والمتشبهين بالاتراك ، بدليل ان كلمة تركمان ، وتوكمان معناها ، بالفارسية « شبه الترك » . بيد انه ليس لدينا دليل يبرهن على صحة هذه الرواية وبالعكس ان لنا من البراهين ما يدل على عدم صحة هذا الادعاء وبطلانه . ومما يجدر بالذكر من الادلة فى هذا المقام لغة التركمان واوصافهم الطبيعية . انه وان يكن توالي الازمان

(*) راجع كلمة Turcoman من (Bibliothèque Oriental d'Herbelot) .

احدث فى سحنائهم ، وهيا كلهم بعض التبدل والتحول فابعدهم عن المغولية ، وقربهم من العرق القوقاسى لكنهم لا يزالون مجهزين باظهر خصائص الاتراك ، واوصافهم ، مثلاً (*) بالرغم عن طول قاماتهم ، ان جماجمهم كروية ، ووجوههم واسعة ، وعظامها ناتئة ، وعيونهم براقة ، وانوفهم قصيرة فطساء ، وشفاههم غليظة ؛ صفر البشرة وشعرهم اسود كث خفيفو شعر اللحى ، وآذانهم متنحاة ، وزيادة على هذا ان تقارب جواهر الالفاظ فى اللغة التركمانية لكلمات اللغات التركية ، بل وعينيتها مما لا يدع شكاً فى ان التركمان هم من صميم الجنس التركى . ومع ذلك ، يجب ان نمعن النظر فى درس هذه المسئلة وان لا ننسى ان هؤلاء القوم لا يزالون حاملين هـذا الاسم . من المعلوم (**) ان الاتراك كانوا ، فى القرون التى لم تدخل حوزة التاريخ ساكنين جبال الطاى ؛ المعروفة عندهم بجبال الذهب ثم انتقلوا من هناك وجعلوا يتجولون فى صحراء تركستان ؛ تلك الاصقاع المتسعة التى تحاط من الجهة الشرقية بخطاى ، اى الصين الشمالى ، ومن الغرب ببحيرة آرال و (خوارزم *Kharezm*) ومن الشمال بسبريا ، ومن الجنوب بتبيت ، وبخـارا الكبيرة . ثم لم يلبثوا ان اتخذوها موطناً وسكناً لهم .

ان قدامى الفرس الذين جعلوا اسم (ايران) لبلادهم ، مقابلاً لتعبير (آنيران) ، اى غير ايران . وضعوا اسم (توران) للانحاء الواقعة على يسار نهر جيحون المعروفـة الان بتركستان . لا جرم ان الاسهاب فى تاريخ الاتراك والتورانيين القاطنين بلاد توران لايدخل تحت بحثنا الآن ، ولكن نضطر لان نأتى بنبذة منه لنعلم كيفية انشعاب التركمانيين من الاتراك .

فالتورانيون ذوو الصيت الطائر فى وقائعهم وجسارتهم اقتحموا المسافات الشاسعة فى قارة آسيا على طولها ، وكانوا اصدق ناقل لمدنية الصين والبيزانسيين ، وامهر ناشر لحضارة العرب . وتاريخ حياتهم يجب ارجاع النظر فيه الى بضع آلاف سنة .

اشتهر الاتراك فى تلك القرون الخالية ، باسماء مختلفة . لدى مشارق الارض ومغاربها ؛ وكانت حكوماتهم اذ ذاك نموذجاً فى السلطان ؛ وقوة الشكيمة .

ان الامم العظيمـة التى ذكرها هيرودوت ، المؤرخ اليونانى باسم (تارژيتـاوس) ، و (توغارما) التى ذكرت فى التوراة ، و (هيونغنو) ، (توكيو) و (توكونه) المعروفة لدى الصينيين القدماء ما هى الا من الامم التركية . و (الهون) الذين زلزلوا اوروبا ايضاً كانوا من التورانيين .

فاذا لاحظنا ان « الحتيين » الذين يروى انهم افتتحوا آسيا الصغرى فى الازمنة القديمة اتراك ، واطلعنا على ما جزم به علماء خصائص الشعوب من ان المجريين والبلغاريين اتراك

(*) راجع كلمة تركمان من [Nouveau Larousse illustrée].

(**) مترجم ها مىر . محمد عطا ج ١ ص ٥٠

الجنسية ايضاً ؛ نحصل على مسكـة من الفكر باهمية هؤلاء القوم الذين هم من اقـدم واعظم امم الكون . لاسيما ؛ اذا علمنـا ان النفوس التى تدخل فى اسم الامم التورانيـة تجاوز فى العدد مائة مليون ، تجلى لنا مكانة هؤلاء القوم وقيمتهم التاريخية .

على اننا لا ننكر ان تاريخ التورانيين ما هو من الوضوح على درجة تليق بهذه المكانة . وان رادلوف ، طومسون ، وامبەرى وامثـالهم من علماء العصر الحديث لم يألوا جهداً فى التنقيب عن تاريخ الاتراك ، واستنباط بعض اقسامه ولكنهم ما استطاعوا ان يقشعوا عنه غياهب الابهام ، ولذلك يعسر ابداء الرأى الصادق فى حقيقة شعوب الاتراك ، وفى كيفية انشعابهم ودرجة مناسباتهم ، وعلى الخصوص فى مدنيتهم القديمة . اذ ليس لدينا من الحقائق ما نستطيع بها انتقاء اصدق الحديث من اقوال المؤلفين المتضاربة ولهذا السبب اننا سنتوخى الظنة حين جمع الروايات المختلفـة التى تبحث عن مركز التركمان ، تجـاه الاتراك وعن مناسباتهم .

يقول ابو الغازى مؤلف الشجرة التركيـة « ان شعوب الاتراك القديمة عبـارة عن قيچاق ، اويغور ، قانقـلى ، قال آج وقارلق » فالاسمان الاولان هما اساسيـان . ولفظـة « قيچاق » هى كلمة قديمة تتركب من هجاء واحد ومعناها « بلقع » . وكلمـة (قوبى) التى يستعملها المغوليون هى من عين المنشا . اما كلمـة (اويغور) فهى باللغة التركية القديمة ، ولغة المغول ومانچو مشتقة من مصدر (اويمق) ، الذى معناه (التوحد والتجمع واتباع نظام واحد والارتباط بالقانون) . وعليه تكون كلمة قيچاق مختصة بسكان السهول الخالية ، واما (اويغور) اى (المتمدن) فهى لقوم مجتمعين متحدين يخضعون لقانون . وكلمة (قانقلى) معناها « ذوو المركبة » . اما كلمة « قالاچ » يصعب تعيين معناها الحقيقى لانهـا مكتوبة باشكال مختلفة فى نوعى الكتابة التركية وقد كان الاروام يكتبونها فى العصر السادس من الميلاد بصورة (خلياته . ونرى ان كلمة (قيليچ) التركية ظاهرة فى هذا اللفظ . ولفظة (قار) الموجودة فى كلمة (قارلق) لا تزال اليوم مستعملةً فى اللغة التركية .

من المحقق ان الانسال التركية تنقسم الى خمسة شعوب . منها ثلاثـة سموا انفسهم او سماهم جيرانهم باسماء معناهـا (البادون والتمدنون ، ذوو المركبـات) . وهى ليست باسماء رؤساء ولا اسماء شعوب . لاسيما هذه الاسماء الثلاثة فانها تدل على نسق عيش القوم وعاداتهم القديمة . (*)

لقد بين جهانتما اشهر قبائل الاتراك على ما ياتى :

(١) — الاوغوزيون ، وهم من خطاى اى الصين الشمالية .

(*) تورك تاريخى لنجيب عاصم ص ٣٩

(٢) — قبيلة قايي ، وقد اتت من سارى الى ارمينيه . واصل الاتراك منها .
(٣) — قبيلة ساريخ ، وقد سكنوا جبل (ايمانوس) الشاهق لما جاهروا خاقان الترك بالثورة .
(٤) — القايماقيون .
(٥) — قبيلة پهچنك . وكانت فى حرب دائم مع قبائل (طولازى) و(غاز) او (غوز) و(اوز) .
(٦) — قبيلة ماهريقا او موهاريقا ، كانت ساكنة بين نهرى (وولغا) و (دون). وكانت الخصم الالد للروسين والسلافين.
(٧) — الخزريون ، وهم على شواطئ بحر خزر .
(٨) — السلافيون .
(٩) — الروسيون (*) .

اما وامبهرى *Vambéry* . المستشرق الشهير ، فقد قسم الاتراك بالنظر الى اللغة الى خمس شعب .

١ — اتراك سيبريا ، ويفترقون اربعة عشر قسماً :
(١) قاراقالموقيو طومسق .
(٢) الالطائيون ، او قالموقو آلطاى .
(٣) شورج ، او قوندوج
(٤) اوريانق
(٥) قوماندى كيش
(٦) القيريقيون ويتألفون من تاتار تهلوت ، قوبول ومن الاوستاقين)
(٧) تاتار جوليم
(٨) ساغايهن
(٩) قاچنتس
(١٠) القيباليون
(١١) قاراغان
(١٢) سوئيوت

(*) دولت عثمانية تاريخى (مترجم عن هامر) ، محمد عطا ج ١ ص ٣٠٢ : على ان هامر بعد ان اعطى هذا التفصيل قال (مما يستلزم العجب تفريق الاغوزين عن الغوزين . او الاوزين لانهم امة واحدة كما يدعى ده كينى Deguines) . فكيف يمكن اعتبار السلافين والروسيين من الاتراك انه لم يتكلم عن هذا بشى .

(١٣) قاماسينيج
(١٤) تاتار بارابا

٢ — اتراك آسيا الوسطى ، البادون او شبه البادين ، وهم ستة اقسام :
(١) قيرغيز — قازاق
(٢) قارا قيرغيز
(٣) اويغور ، او اتراك تركستان الشرقى او الكاشغريون
(٤) اوزبك
(٥) قاراقالپاق
(٦) تركمان

٣ — اتراك وولغا ، وهم ثلاثة اقسام :
(١) تاتار القازاق [ينشعبون من القيچاق]
(٢) باشقير — مهچچه رياق
(٣) چواش او الفينواليون المتركون .

٤ — اتراك بحر الاسود ، وهم ثلاثة اقسام :
(١) تاتار قريم او قيريمچاق
(٢) نوغاى
(٣) قوميق او قاراچاى

٥ — اتراك الغرب وهم :
(١) اتراك قاوقاس ، وايران ، وآزاربايجان
(٢) الاتراك العثمانيون .

اذا صرفنا النظر عن هذه التفصيلات الثانوية ، واضربنا عن التقسيمات التى اوردها مؤلفا (شجرة تركيه) و(جهانما) يمكننا ان نقول ان الأتراك ينقسمون منذ القدم الى قسمين . (الاتراك الشرقيون) و(الاتراك الغربيون). (*)

فالشرقيون ينقسمون الى بضع قبائل مثل : اويغور ، قال آچ ، قارلق ؛ والغربيون الى عشر قبائل مثل : اوغوز ، قيچاق ، پهچهنك ، قيرغيز ، قانقلى وغيرهم .

ان قبيلة اويغور التى هى من اشهر اتراك الشرق ، تقطن الاصقاع الكائنة بين قرهقروم ، وطورفان . ولغتهم هى افصح واقدم لغة تركية . ثم دعيت هذه اللغة باسم چغتاى السلطان ابن جنكيز خان . ولغة اويغور هذه التى يسميها العثمانيون بالتركية القديمة ، هى الاخت

(*) لهجة عثمانى . احمد وفيق باشا

الكبيرة للغة التركمان وفى القرن الخامس عشر للميلاد بلغت هذه اللغة حد كمالها .ثم شرعت تنحط ، بعكس اللغة العثمانية التى انبثت عنها فانها اخذت بالرقى.

اما اشهر الاتراك الغربيين فهى قبيلة « اوغوز » ، التى كانت تقطن ما بين سيحون وجيحون فى تركستان ، وكانوا يحاربون الاكاسرة والعرب . ويروى ان (ساتور خان) من اولاد (طاغ خان) (*) قد اعتنق الدين الاسلامى ، بعد وفاة النبى « صلعم » بثلاث مائة وخمسين سنةمع الفين من الاسر ، ومن ثم بدل اسمه بجناق خان . او قره‌خان ، وسمى قومه « تركمان » ليميزهم عن الاتراك الوثنيين وقد ارتقت اللغة التركمانيــة فى ايام السلجوقيين الذين هم من نسل اوغوز ، واقتبست من اللغة العربية ، ما اقتبسته لغة اويغور من الفارسية .

ان عشيرة قايى خان الاوغوزية غادرت فى الزمن الاخير بلادها ، وهاجرت حيث اسست الحكومة العثمانية ، وافترقت لغتها عن التركمانية ، وتكون اللسان العثمانى المؤلف من اختلاط الكلمات العربية والفارسية. يفهم من هذا التلخيص ان التركمان هم من الاتراك الغربيين ، ولهم ارتباط قوى بالعثمانيين والسلجوقيين بالنظر لكونهم من نسل اوغوز ، وان اسم (تركمان) لم يكن الا بعد العصر الرابع للهجرة . ويزعم كما ذكر فى (جهانما) لمؤلفه (نشرى) ان كلمة تركمان مؤلفة من « ترك » و « ايمان » . وقد اطلق هذا الاسم على من آمن بالدين الاسلامى منهم. ولكن اكثر المؤلفين ينكر هذا التأويل . والبعض منهم مدعى ان لفظة (مان) و (من) فى آخر كلمة (تركمان) . بمعنى الرجل كما هو الحال فى

(**) وعلى رواية قديمة للاتراك ان اوغوزخان ابن قره‌خان هو الذى ايد بفتوحاته ، وقوانينه سلطان الاتراك ومدنيتهم . فارق اوغوز قره‌خان جبال قره قروم التى هى مشتاه ، وجبال اورطاغ ، وقورطاغ التى هى مصطافه ، وتوجه الى الجنوب حيث جعل مقامه فى بلدة (ياس) ، اشهر بلاد تركستان . والتى كانت مركزا لمدينة الاتراك ، وسلطتهم مدة مديدة وكان لاوغوز خان ستة اولاد . هم : كون خان وآى خان ، ويلديز خان وكوك خان وطاغ خان ودكز خان . وكان مشغوفاً بالصيد . فارسلهم ذات يوم الى الصيد — مؤملا ان كل واحد منهم يأتى بما يكون دليلاً على حالته فى المستقبل — فاصابوا قوساً وثلاثة اسهم وآبو ، فعرضوهم عليه . فاعطى السهام الى كوك خان وطاغ خان ودكز خان ؛ والقوس للثلاثة الاخرين. وهؤلاء كسروا القوس ليقسموها بينهم . فاعطى لاولئك ، السهام الثلاثة — اوجوق او (اوج اوق) ، وللاخرين (بوزوق) السهام الكسرة . ولما توفى قسمت بلاده فأخذ الجناح الايمن والجناح الايسر عشائر الشرق والغرب . ويزعم ان قد ولد لكل خان اربعة اولاد ، فكان منهم اربعة وعشرون رئيساً لعشائر الاتراك . ان امراء « بك » الجناح الايمن ، وبوزوقلر الذين كانوا قاطنين فى بلاد تركستان ، هاجموا بلاد ما بين النهرين وسخروها ، ثم اخترقوا تلك الحدود وساروا الى ان وصلوا بفتوحاتهم الى فروق ، ثم الى نهر الدانوب . وان قدماء مؤرخى الاوغوزيين ، والسلجوقيين ، والعثمانيين يضبطون انساب سلاطينهم ، ويصعدونها الى الاجنحة الثلاثة اليمنى ، ويعتبرون الاغوزيين من طاغ خان والسلجوقيين من (دكزخان) والعثمانيين من (كوك خان) .

هاممر ، ج ١ ص ٥٤ — ٥٥

الالمانية والانكليزية . فيكون معنى كلمة (تركمان) هو (الرجل التركى) وهكذا (قره‌مان) فان معناه (الرجل الاسود) .

وعند البعض ان كلمة تركمان معناهــا (الترك الصميم) ، الترك الكامل) ، (الترك المتين) ، وذلك لانهم على احسن ، وامتن الاوصاف الجنسية بين الاتراك (*) . والا فان الرواية المتضمنه ان كلمة (تركمان) مؤلفة من (تارك) و (ايمان) . لهى هذيان محض(**)

ان بعض المؤلفين الذين يبحثون عن الاتراك الساكنين بين بحيرة آرال وبحر الخزر ، المعروفين باسم تركمان . يزعمون انهم عبارة عن « الهونيـين البيض » و (تى — لو) سكان السواحل و (غوز) او (كه ز) . (***)

[٢] **اقسام التركمان** — يمكن تقسيم التركمان القاطنين الاصقاع الكائنة بين بحرالخزر وبحيرة أرال وبين خيوه وجيحون ، ووادى اترك الى عشرة اقسام كبيرة (***)

١ — قبيلة (يومود *Yomouds*) يعيشون تحت الخيام فى الناحيــة العليــا ، وعلى سواحل بحر الخزر الشرقية.

٢ — قبيلة (تكه *Tekkese*) . تقطن فى انحاء مرو ، تجين قيزيل آرواد.

٣ — قبيلة (ساكار — *Sakar*) تقطن بين (قاباقـلى) فى الشمال ، و (جارجوى) فى الجنوب ؛ وفى الساحل الايسر من نهر امدريا .

٤ — قبيلة (چودور — *Tchoudors*) . هى فى الجانب الشمالى من خيوه .

٥ — قبيلة (ئەمرالى — *Emzalie*) . هى فى الجهة الجنوبية من خيوه .

٦ — قبيلة (غوقلان — *Goklan*) . تسكن فى خرآسان وتتصل باليومودييـن من الغرب .

٧ — قبيلة (ئەرسارى — *Ersari*) . هى على ضفاف امدريا فى انحاء كليف .

٨ — قبيلة (سالار — *Salar*) تسكن فى انحاء مرو .

٩ — قبيلة (آليلى — *Alili*) . تقطن سهول تركستان الافغانية .

١٠ — قبيلة (ساريق — *Sariks*) . تعيش تحت الخيام فى اطراف (بادكيز).

يعيش هؤلاء القبائل متفرقين ، ولكنهم لا يجهلون بعضهم . ومنهم قبيلة ساكار ، وامرالى وغوقلاند ، وسالار وساريق هم على غاية من وفرة العــدد . لاسيما وان معيشتهم لم تزل تحول من البداوة الى الحضارة .

(*) آنسيقلويه‌دى الكبير

(**) لغات تاريخيه وجغرافيه : احمد رفعت

(***) ترك تاريخى . لنجيب عاصم . يرويه عن (وقايعنامهٔ نستور) ، وترجمة له زه‌ن ص ١٩٥،٦٩

(***) راجع كلمة Turcomans من La grande Encyclopédie (ج٣١)

ان اعظم قبيلة فيهم هى قبيلة تكه . لان عدد نسماتها يقرب من ثلاثمائة الف ثم الوفرة من بعدها لقبيلة آليلى . ومقدار افرادها لا يقل عن مائتين وخمسين الفاً . وبعد هاتين القبيلتين تأتى قبيلة يومود وقبيلة ئەرسارى وهما اكثر عدداً من بقية القبائل .

وقصارى القول ، ان مجموع نفوس التركمان فى الديار التركية لا يزيد عن مليون ونصف من النسمات رغماً عن اتساع اقطارهم واراضيهم وتباعد اطرافها .

وقد اختلط التركمان مع من يجاورهم من القبائل كقبيلة قيرغيز ونوغاى . ولا يزالون الان خلطائهم .

وللتركمان اقسام من الدرجة الثانية ، ما عدا الاقسام العشر التى عددناها آنفاً . ولكن يتعذر علينا تعداد تلك الاقسام لهؤلاء القوم الذين غادروا اواسط بلاد الترك وانبثوا فى بلاد متفرقة كآسيا الصغرى ، والعراق ، وسورية وسواحل البحر المتوسط .

على اننا نصادف فى بعض انحاء الاناطول عشائر تنتمى لتركمان (رمضان او غللرى) ابناء رمضان كعشيرة بيات ، قاچار ، ابناء رجب (رجب او غللرى) ، كوچكلى . عبالى اوردكلى . وامثالهم ؛ توجد فى ايران والاناطول عشائر كبيرة كالافشاريين . والبعض من هذه العشائر تسمى باسم البلاد التى تسكنها ، كالعشائر الموجودة فى ولاية بيروت ، فانها تدعى باسم تركمان باير ، وبوجاق ، وحذور ، وكواچره .

[٣] — **احوال التركمان الاجتماعية** — اشتهر التركمان ذووا القامات الطويلة . والابدان القوية المتينة . بالشجاعة والفروسية . ولهذا السبب آثرت الدولة العباسية ان تستخدمهم فى امر المحافظة . ولم يؤسسوا حكومة الا وكانت مثالاً للقدرة والبسالة . لاسيما ان خصائصهم فى الخضوع لمتبوعهم ، والاذعان لاولى الامر تتجاوز الحد المعروف .

يلبس رجال التركمان قميصاً طويلاً ، وفوقه جبة طويلة ، ويشدون اوساطهم بالمناطق شداً وثيقاً ، ويحتذون الامواق « جزمات » او الخفاف المتخذة من جلود الجمال ، او الخيل ويلفون ارجلهم بالصوف . ويلبسون فى رؤوسهم قلانس من جلود الخرفان ، اما نساؤهم فيقنعن رؤوسهن بقنع دون ان يسترن وجوههن ، ولهن شغف زائد بالحلى ،

وقدماء هؤلاء القوم كانوا يعيشون تحت الخيام ؛ وخيامهم مدورة الشكل ، سهلة التقويض ، مجللة باللبود . وكثيراً ما ترى شاة . او عنز مربوطة فى جانب كل خباء . وهم يذبحونها فى ايام مخصوصة ، فيجعلون اللحم قديداً ، ويحتفظون به ، اما العظام فيغلونها على النار ، ويفرقون المرقة على الجيران والاصدقاء . وحظ الاطفال من الذبيحة امعاؤها ، وهم يشوونها على النار ويمضغونها [*] .

---

[*] دائرة المعارف . لبطرس البستانى .

التركمان مطبوعون على القناعة ، ونساؤهم يقنعن من الطعام بكسرة من خبز مع قليل من الثريد .

ان دواعى المعيشة فى التركمان جعلت لكل من الرجال والنساء وظائف على حدة . فالرجال يشتغلون بالزراعة ؛ فيحرثون ، ويبذرون ، ويحصدون ، ويرعون الماشية ، وايضاً يفتلون الحبال بأيديهم ، ويعملون السروج ، ويصنعون القلانس والخفاف ، ويتعاطون التجارة اوقات فراغهم ، ويلعبون على الحبال ، ويتغنون ، وياخذون نصيبهم من السرور . ويكثرون من التدخين وشرب الشاى .

اما نساؤهم فعليهن مشاغل ، واتعاب باهضة حملهن الرجال اياها . ولهن كامل الحرية ولا يعاملن من قبل الرجال بسؤ ؛ ويتجولن حيث شئن على اتم الاستقلال والحرية . واذا وجدن مع الرجال يكن موضع رعاية واحترام .

لا ينقطع نساء التركمان عن العمل ، بل دأبهن السعى ، ولا بد ان يخلقن لانفسهن مشغلة . فطحن القمح ، وغزل الصوف والقطن ، ونسج السجاد ، وتلبيد اللبود ، وجلب الماء ، هى من وظائف النساء . فتراهن يثابرن على القيام بهذه الوظائف ولو كن حاملات او مرضعات . حتى انهن يشتغلن بالغزل اثناء الزيارات ايضاً . ولا من متعب لهن مثل تدوير الرحى ، ولا يفتئن يتألمن منها .

التركمان ، رجالاً ونساءً ميالون لعمل الخير ، واغاثة ابناء جنسهم ، ويندر ان يصدر منهم لبعضهم كلام سئ ، او سب ، وانهم يشنون الغارة على بعضهم ، ويسمونها غزواً فتحدث بين العشائر المتجاورة مقاتلات دموية . على انهم معذورون بذلك ، لان هذه من دواعى البداوة . والمثل التركى يقول (داخل البلد للتركى سجن) . ولذلك نجد فيهم ميلاً قوياً لتلك الحياة . وهم مشغوفون بحب جيادهم ، وافراسهم ، وقسيهم وسهامهم . ويحبون ان يكونوا على حياة راحلة كقدماء الاتراك . ومما امتازوا به من الاوصاف الحسنة اكرام الضيوف . يتزاورون فى خيامهم نساءً ورجالاً . والرجل يحيد بنظره لدى فتحه باب الخيمة ، فتتقنع المرأة ، وتتنحى للداخل ، ثم يدخل . وبعد ان يسلم وتنتهى مراسم الترحيب ، لا تلبث النساء ان تأتى وعلى ايديهن الطعام . ويسارعن لبذل انواع الاكرام والاحترام .

النساء عندهم يحترمون الرجال احتراماً فائقاً ، ويتكلمن همساً اذا وجدن قريباً منهم ولا يردن ان يسمعوهن . ويسترن اسفل وجوههن فى حضرتهم . ومع ذلك انهن على اتم ما يرام من الحرية . فلا يخجلن من محادثة الغريب ، ولا يصدفن حياءً اذا سلم عليهن .

ولهؤلاء القوم ارتباط عظيم فى الدين . وهم اول من اسلم من الاتراك ، والحكومات

التى اسسوها لم تأل جهداً فى حفظ بيضة الاسلام ، والذب عن حوضه فى احرج الظروف ، واخطر الاحوال . وهذا اكبر دليل على فرط احترامهم للدين ومحبتهم له . وكلهم مسلمون وسنيون ، وقلوبهم صادقة لهذا الدين ، غير انهم فى اشد الاحتياج الى هدايه العلم وارشاده .

٤ — *ملخص تاريخ التركمان* — ها نحن نسرد نبذة من اشهر وقايع التركمان على ما يأتى :

١ اول ملوك التركمان

سبق ان بينا ان اقوام الترك البادية الساكنة فى الانحاء الشرقية من بحر الخزر ، اعتنقت الدين الاسلامى فى اواسط القرن الرابع للهجرة ، وتسمى سازوخان : (جاناق) او (قاره) خان بعد ما اسلم ومعه الفان من الاسر ، واستأصل شأفة الوثنية من بلاده . ثم لم يلبث ان هاجر قسم منهم الى الانحاء الغربية من ارمينية ، وسكنوها وبذلك انقسموا الى قسمين « تركمان الشرق » و « تركمان الغرب » . ولم تزل تلك الانحاء مأهولة بهم حتى الان (*)

ثم صار الامر من بعده الى ابنه « موسى خان » . فشيد الجوامع واسس المدارس ، وبنى التكايا ، ووجه عنايته الى العلم والعلماء ، وشد ازرهم واعلى منزلتهم . ثم جاء من بعده « بغراخان هارون » ابن عمه وخليفة سليمان خان ، ففتح البلاد ووسع الملك ، حتى بلغ الى ما وراء كاشغر و« بالاساغون » من حدود الصين . وفتح بخارا فى تاريخ « ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م » وانتزعها من ايدى السامانيين الايرانيين . ثم جاء من اخلافه « احمد خان ابن ابى النصر بن على » فاكره الاتراك الوثنيين على الدخول فى دين الاسلام . ثم افضى الامر من بعده الى اخيه « آرسلان خان ابو المظفر بن على » فاستولى على ما وراء جيحون من البلاد وكنى نفسه بشرف الدولة « ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م » . وبعد وفاته « ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م » اخلفه « قدر خان يوسف » ابن بغراخان ، وكان مشهوراً بكرمه وجوده بين الاتراك المسلمين . اما ابنه « قرهخان عمر » فقد مات مسموماً مع اخيه محمود المجوسى « ٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م » وهنالك انتقل ملكهم الى « طاغماج خان » سلطان سمرقند ثم من بعده لابنه « شمس الملك » . وهذا الملك قد تزوج ابنة آلپ آرسلان سلطان السلجوقيين وزوج اخته « طورخان » من السلطان « ملكشاه » . وبهذا اصبحت القرابة بين التركمان ، وبين الاسرة الحاكمة من السلجوقيين مزدوجة .

(*) مترجم هامر ، محمد عطا ج ١ ص ٥٥ — ٥٦

٢ . حكومة السلجوقيين والتركمان

من المعلوم ان السلجوقيين الذين هم من اقوى قبائل الاتراك ينتسبون الى دكزخان ابن اوغوزخان . وفى القرن العاشر للميلاد كانوا يسكنون قريباً من بخارى فى بلاد بغراخان . وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ تسلط عليهم « محمود » سلطان غزنه وفاتح الهند ، فاجلاهم الى ما وراء نهر جيحون من خراسان .

ان السلطان محمود ، ورث الملك عن ابيه « سبكتكين » . وهذا كان من مماليك احد افراد الاسرة السامانية الايرانية . وقد كان والياً . وما لبث ان سخر البلاد ، وجعلها فى قبضته ، واقتدى بما فعله طولون ، واخشيد من مماليك الاتراك وولاة الخليفة فى مصر . فجاهر بالاستقلال ، واسس حكومة « آل سبكتكين » . ومحمود هذا هو اول من سمى نفسه سلطانا . وهذه الحكومة دامت مقدار عصر ونصف ، ثم اضمحلت ، واكتسحها السلجوقيون .

فالسلجوقيون — الذين جلبهم السلطان محمود من وراء جيحون — دوخوا البلاد الممتدة من بحر الخزر الى البحر المتوسط ، وتسلطنوا عليها مقدار ثلاثة قرون . ثم انقسموا الى خمسة اقسام : وهم سلجوقيو « فارس » ، « كرمان » ، دمشق » ، « حلب » « آسيا الصغرى » .

١ — سلجوقيو ايران دامت حكومتهم من سنه ٤٣٢ الى ٥٩٠ هجرية ، وحكم منهم خمسة عشر سلطاناً

٢ — سلجوقيو كرمان ، دامت حكومتهم من سنة ٤٣٣ الى ٥٨٣ ، وحكم منهم تسعة سلاطين .

٣ — سلجوقيو حلب . دامت حكومتهم من سنة ٤٧١ الى ٥١٠ ، وحكم منهم خمسة سلاطين .

٤ — سلجوقيو دمشق ، دامت حكومتهم من سنة ٤٨٨ الى ٥٤٩ ، وحكم منهم تسعة سلاطين

٥ — سلجوقيو الروم دامت حكومتهم مأتين وعشرين سنة من سنة ٤٧٧ الى ٦٩٩ ، وحكم منهم خمسة عشر سلطاناً .

ان نجاح السلجوقيين فى ادارة تلك الاصقاع الفسيحة ، ودوام سيطرتهم عليها لاجرم يستند معظمه على ما ناله اولئك القوم . من نصرة التركمان ومؤازرتهم لهم . وقد جاء فى « سياستنامه ص ٦٥ » ان التركمان وان لم يخلص السلجوقيون من معاكستهم ، فان

لهم اليد البيضاء في تاسيس تلك السلطنة وتأييد سلطتها وعليه لا يسوغ انكار ما لهؤلاء لقوم من الخدمة لهذه الحكومة الذى هم اقرباؤها .

٣ . مهاجرت انتركمان

نضطر هنا ، قبل البحث عن مهاجرة التركمان ، لان نبحث عن مهاجرة الاتراك . ذلك لانهم اصل لهم .

من المعلوم ان الصينيين كانوا يستخدمون الاتراك فى الجندية منذ القدم . وفى القرن الاول للهجرة ، لما تسلط مجاهدو العرب على تركستان ، واكتسحوا بعض انحائها ، جند « سوجونغ » بالاجرة كتيبة من الاتراك وسماها « كتيبة البحر الاحمر » ، ولكن التانغيين اوصدوا فى وجوههم ابواب السد . وحملوهم على الاتجاه الى بلاد العراق ، وارض الروم . وان استيلاء العرب على تلك الانحاء كان سبباً لتحويل وجهة المهاجرة فبينما كان السيل التركى المنحدر من جهات « اوقسوس » و « الخزر » على طريق « سيت » القديمة متجهاً الى الشمال الغربى ؛ الى بلاد قبچاق ؛ يابيق « اورال » ؛ ايديل « وولفا » اصبح مستهدفاً بتياره الجهة الجنوبية الغربية ، وانصب على انحاء ازربايجان ، وجنوب القوقاس ، وآسيا الصغرى وبلاد سورية ، وارض الروم [*] وبعد مهاجرة الاتراك بمدة طويلة ، اخذ التركمان ايضاً بالهجرة فكانوا ينخرطون فى سلك الجندية لدى بعض الحكومات تارةً ، واخرى ينتهزون الفرص فيؤسسون حكومات مستقلة .

ما من حكومة تركية تأسست فى آسيا الصغرى ، او سورية او مصر الا وكان للتركمان فى تأسيسها ، وتشييد دعائمها [**] الحظ الاوفى . وسبق لهم فى زمن العباسيين مآثر حسنة ، ومثلوا فيه أدواراً خطيرة . وقد اتوا من اقاصى بلاد « پهلو » او «خوارزم » ، وكانوا من قبائل « قانقلى » و « قال آچ » و « الهون البيض » ، او من تركمان السواحل [***] ثم ما لبثوا ان اظهروا من البسالة والشجاعة ، ما جعل لهم عظيم المكانة فى نظر العباسيين .

وفى زمن المستعين بالله العباس عظم سواد الاتراك فى الولايات ، كما هو فى المركز ، حتى اصبحت قطعة سورية ومصر فى ايديهم ، والحجاز واليمن تحت ادارة ولاة منهم [****] واسسوا لانفسهم حكومات مستقلة كبنى طولون ، والاخشيديين وامثالهم. وقصارى القول ؛

(*) تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ١٣٤ ، ١٥٣ ؛ ٢٠٣

[**] لا ننسى هنا الاتابكة فى سورية وحلب والمماليك البحرية فى مصر ، و«آل ينال» فى ديار بكر

[***] تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ٢٠٥

[****] تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ٢١١

ان كثيرا من الاتراك ، وعلى الاخص التركمان الذين دخلوا الجندية فى خدمة العباسيين ، ما انفكوا يهاجرون الى جهة الغرب الجنوبى وانتشروا فى انحاء مازندران وكيلان وطبرستان وآزربايجان من شمالى بلاد العجم ؛ وانبثوا فى بلاد ارضروم وديار بكر ، وتخطوا منها الى بلاد الاناطول ايضاً . وفى زمن العثمانيين والسلجوقيين — كما سنبينه بعد — توطن منهم اناس كثيرون فى قطعة الاناطول والروم ايلى . فالاتراك المتوطنون فى انحاء بغداد وارضروم وفى بعض جهات آزربايجان وايران ، وفى بلاد القوقاس هم من صميم التركمان ، ولغتهم لا تختلف عن تركية الاناطول الا يسيراً . ولهم لهجة خاصة . وبناءً على امتزاج هؤلاء القوم واختلاطهم بغيرهم من الاقوام فى بلاد العجم والمملكة العثمانية وسواحل بحر الخزر ، تبدلت سحنائهم وفقدوا آثر السمات والشعائر التورانية . [*]

٤ — الحكومة العثمانية والتركمان

سبق ان قلنا ان التركمان لهم اليد البيضاء فى تأسيس الحكومات القوية ، وان الحكومة العثمانية لهى انطق برهان لتأييد هذا الادعاء .

من المعلوم ، لما اكتسح جنكيز خان ذاك الصرصر الاسيوى حكومة «خوارزم» التى كانت سداً محكماً لرد طغيان المغوليين اضطر سليمان شاه ابن « قيا آلپ » المنسوب لاسرة « قالى » من الاغوزيين الى ان يغادر ربوعه فى خراسان قرب بلدة « ماهان » . وتوجه مع خمسين الفاً من عشيرته الى ديار الارمن حيث خيم فى جوار ازربايجان ، والاخلاط ٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م .

ولنذكر هنا على سبيل الاستطراد ان عشيرة سليمان شاه لم تكن من آل خوارزم [**] لان بلاد خوارزم التى يحدها نهر جيحون من الشرق وبحر الخزر من الغرب ، وخراسان من الجنوب وديار التركمان من الشمال هى قطعة ضيقة طويلة ، أهولة بسكان مختلفى الجنسية يفترقون عما يجاورهم من الاقوام باخلاق وطباع مختصة بهم وبلغتهم المركبة من التركية والفارسية . وعليه يجب اعتبار قبيلة سليمان شاه من التركمان — كما ذكر فى جهاننما لمؤلفه نشرى — هذا وان يكن الخوارزميون من التركمان كما جاء فى هامر ، ولكن لا يكون هذا سبباً لاعتبار جميع القوم من تلك القبيلة . وعليه فان نسبة الخوارزميين للتركمان واعتبار قبيلة سليمان شاه خوارزمية لا يكون صحيحاً . توفى جنكيز خان بعد ان اقام سليمان شاه فى الاخلاط سبع سنين . وتمزق شمل الخوارزميين بعد ان غلبوا من قبل علاء الدين

[*] قاموس الاعلام . لشمس الدين سامى .

[**] مترجم هامر ج ١ ص ٧٥

لسلجوقى سلطان قونية ، ولذلك آثر سليمان شاه ان يرجع بعشيرته الى وطنه فمشى يتبع ساحل الفرات وعشيرته معه الى ان قدموا قلعة جعبر ، فاقتحم سليمان النهر بفرسه ليقطعه امام عشيرته ولم يلبث ان سقط فيه وغرق . وكانت وفاته سبباً لانحلال العشيرة التى كانت مجتمعة تحت كلمته . وبقيت منهم الى اليوم بقية تسمى بتركمان سورية وتركمان الروم [*]

كان لسليمان شاه اربعة اولاد : سنقور — تكين ، كون طوغدى . دوندار وارطغرل اما الاول والثانى فقد عادا الى خراسان. والاثنين الاخيرين ذهبا ومعهما اربع مائة من العائلات الى الجانب الشرقى ونزلا اغوار « سورمهلى » الفسيحة المسورة بالجبال الشامخة التى تلمس آفاق ارضروم . وتوجهت شرذمة منهم الى سهول باسين وتوطنت فها . ثم ما زال ارطغرل واخوه دوندار يرتادان المواطن حتى ساقهما الحظ الى علاء الدين السلجوقى فاقطعهما ارضاً اسس فيها السلطان عثمان ابن ارطغرل بك الحكومة العثمانية — على النسق المعلوم — وذلك بعد انقراض الحكومة السلجوقية » ٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م . وبه يكون مؤسسو الحكومة العثمانية هم من التركمان الاوغوزيون ايضاً

٥ . التركمان فى آسيا الصغرى

تأسست الحكومة العثمانية كما قدمنا على انقاض الحكومة السلجوقية . وكانت قطعة الاناطول حينئذٍ مأهولةً بكثير من عشائر التركمان ؛ كما ان الحدود الشرقية ايضاً كانت بتمامها تحت سيطرة هذه العشائر . وبعض هذه العشائر ولاسيما الحكومات الصغيرة والامارات « بكلك » التى اسست من قبلهم . لم تنقطع عن معاكسة العثمانيين ، وارهقتهم العسر الامر . فمنهم القرمانيون الذين جاهروا بالثورة فى زمن السلطان مراد خداوندكار وجمعوا تحت رايتهم كثيراً من سفلة التركمان والتاتار وضموا اليهم عشائر ارساق وطورغود وبايبورد ، واشغلوا الحكومة زمناً طويلاً [**] وفى زمن السلطان مراد الثانى خرج اربعة اخوة من تركمان قيزيل خواجه وعاثوا فى انحاء آماسيه وتوقات بعد ان استحوذوا عليها . وتطاولوا الى سبي النساء وسلب السابلة ونهب القرى واوغلوا فى الفساد . وندب يوركج باشا لكبح جماحهم واستئصال شأفتهم فارسل لهم كتاباً وعدهم فيه بانه يقطعهم اراضى اورتوق آباد ، اذا رضوا بان يساعدوه على عشيرة « اولاد آلپ آرسلان » الذين تسلطوا على سواحل جانيك واستولوا عليها — وقد تيسر لخضر بك ابن يوركج باشا القاء القبض على اكثرهم فجلبهم الى آماسيا حيث زجهم فى السجن ثم عقد الابواب عليهم بالحجارة .

---

[*] مترجم هامر ج ١ ص ٨٩
[**] مترجم هامر ج ١ ص ٢٣٩

واضرم النار حول ذلك السجن فاهلكهم خنقاً . ثم اعاد الكرة بالهجوم على بقية عشائر چورم فمزق شملهم واستولى على خزائنهم ؛ والجأهم الى الفرار ، والانجلاء عن الملك العثمانى . فلاذوا بتركمان منتشا فى بلاد امراء « ذى القدر » و« آق قويوق » . وبعد مدة وجيزة سخر يوركج باشا حصن جانيك ، الذى هو لحسين بك رئيس عشيرة اولاد « آلپ آرسلان » التركمانية « ٨٣١ هـ — ١٤٢٧ م » .

*
* *

اما الحكومات والامارات التى اسسها التركمان فى الاناطول ، فاننا نذكر منها اسرة « ذى القدرية » و« رمضان اوغللرى » وحكومات « آق قويونلى » و« قره قويونلى » .

٦ . اسرة ذى القدريه

ان هذه الامارة اسسها « زين الدين قرهجه ذو القدر » التركمانى فى اراضى قادوقيا القديمة التى نسميها اليوم بلواء مرعش (*) وزين الدين هذا مؤسس تلك الاسرة ، فتح بلدة مرعش والبستان سنة [٧٨٠ هـ — ١٣٧٩ م] وشيد دعائم امارته . ثم ان اخلافه استولوا على بلدة خربوط وبهسنى وملاطية ووسعوا ملكهم بها . وقد اثبت هامر فى جدول انسابه عشرة امراء لهذه الاسرة ، وعددهم على الوجه الآتى :

١ — [زين الدين قرهجه ذو القدر [٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م] هو مؤسس هذه الامارة .

٢ — ابنه [خليل بك] قتله التركمان سنة ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦ م

٣ — سولى بك [هو اخ لخليل بك] قتله باطنى من المصريين بايعاز من برقوق سلطان مصر سنة [٨٠٠ هـ — ١٣٩٧ م]

٤ — ناصر الدين محمد بن خليل بك . توفى فى الثمانين من عمره سنة « ٨٤٦ هـ — ١٤٣٩ م »

٥ — سليمان بك ابن ناصر الدين . وقد زوج اخته « ستى سلطان » من « السلطان محمد الثانى » وتوفى سنة « ٨٥٨ هـ — ١٤٥١ م »

٦ — آرسلان بك .

٧ — شهسوار بك و٨ — بوداق بك و٩ — علاء الدولة بك وهؤلاء تتابعوا وزاء بعضهم بالامارة .

(*) مترجم هامر ج٢ ص١٨٦

١٠ — شهسوار زاده على بك ، وهو الذى ختمت فيه تلك الاسرة بعد ان دامت مأة وعشرين سنة قمرية . اما سبب انقراضها فهو : [*]

حنق السلطان سليم ياوز على امير ذى القدرية بسبب مسئلة مصر وعزم على الايقاع به ؛ فرجع الى سيواس بعد ما سخر كماخ فى ثمانية ايام «١٣ ربيع الاخر ٩٢١». وارسل من هناك وزيره الاعظم سنان باشا ومعه شهسوار زاده على بك ورفقهما بعشرة آلاف يكيجرى . وسلطهم على «علاء الدولة» . فوصل سنان باشا الى البستان وعسكر على ضفاف «اينجه صو» وكان علاء الدولة فى تلك الاونة فى محل اوردكلى. فما كان منه الا ان سارع بنقل نسائه وخزائنه الى شواهق جبل طورنه ؛ وعمد الى مضايق الجبل فاستولى عليهما مع من معه من التركمان . اما سنان باشا فانه قطع سهول كوكصو . وزحف الى ذيل جبل طورنه الذى تحصن فيه امير ذى القدرية . وهناك اضطره الى قبول الحرب .

ولم يطل الامر الا وقتل علاء الدولة ، ونصب على بك شهسوار والياً على بلاده . وبه ختمت انفاس تلك الاسرة «٩٢١ هـ — ١٥١٥ م» .

٧ — آل رمضان

اسس آل رمضان حكومتهم فوق شواهق جبال طوروس الكائنة بين آسيا الصغرى وسورية ؛ ودامت مقدار مأتى سنة اى من «٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م» الى «٩٧٠ هـ — ١٥٦٢ م» وكيفية تكون هذه الاسرة كان على الوجه الآتى : [**]

لما قضى سليمان شاه جد السلطان عثمان الذى اسس الحكومة العثمانية غرقاً فى جوار «حصن جعبر» . ذهب اولاده الى ناحية الشمال وذهب سبعة من رفقائه مع عائلاتهم وكلهم من قبيلة اوجوق «اوچ اوق» الى «جقور اووه» وتوطنوا فيه . وهؤلاء هم «بوركر» ، «قوسون» ، «وارساق» ، «قره عيسى» ، «اوزر» ، «كوندوز» ، «قيش تيمور» . فترأس عليهم بوركر . ونال المذكور من الارمن المتوطنين هناك حق رعى ماشيته فى انحاء آطنه ومسيس وطرسوس . ثم انتقل هذا الحق منه لابنه رمضان . وخصص رمضان جبل «آسارلق» مشتى لقوسون وجبل «كولك» مصطافاً .

وكانوا يرعون ماشيتهم تارة فى السهول وأخرى فى الذرى . فكان «قيش تيمور» يصيف فى طرسوس ويشتى فى جبل «بلغار» و «كوندوز» فى سهول مصيص وفى جبالها اما رمضان ففى اغوار اطنه ونجودها . وبهذا كانت جميع السهول فى قبضتهم . ولم

[*] مترجم ها مر ج٤ص١٤٨
[**] ايضاً ، ج ٤ ص ١٣

يكن لديهم قدرة تمكنهم من اجلاء الارمن من القصبات والبلاد . وبعد خمسين سنة عزم «داود» من آل «اوزر» على تحقيق تلك الامانى ، فاستعان بالشيخ احمد سلطان مصر . فلباه وارسل له الجنود ، فسخروا تلك الاصقاع باسم السلطان . ولم يكن حظ داود منها الا عنوان الامارة ، وكان عمل داود منشطاً لبنى عمه على الاقتداء به .

ثم ترك اولاد «كوندوز» قلعة آياس لعساكر السلطان ، وذهبوا الى مصر ، ولم يلبث ابراهيم بن رمضان ان استنجد بالمصريين ، وساعدهم على امتلاك آطنه وسيس . وضبطت طرسوس ايضاً بمعونة احد اولاد قيش تيمور . وبهذه الكيفية تمكن الشيخ احمد من امتلاك ستة قلاع من احصن ديار الارمن «كلكيا» ، دون ان يتكبد حرباً تستحق الذكر . وهذه القلاع هى : قلعة اياس ، كوله‌ك ، سيس ، مصيص ، آطنه ، طرسوس . ثم مد يده الى عدة حصون هناك فاستولى عليها وجعلها مراكز دفاع عن ثغور سورية .

وبهذا تمكن آل رمضان من احراز عنوان الامارة فى تلك الانحاء ، ودام سلطانهم فيها مدة تقرب من قرنين وحكم منهم ثمانية امراء لم يذكر منهم «هزارفن» الا اربعة :

١ — احمد بن رمضان ، تأمر فى انحاء اطنه وسيس وآياس وبياس . ٢ — ابنه ابراهيم بك . ٣ — ثم خلفه فى الامارة محمود بك ، وهذا الامير اطاع السلطان بايزيد ، ورافق السلطان سليم فى سفره الى مصر ، وتوفى وهو معه . ٤ — پيرى بك ابن خليل بك وهو آخر امراء آل رمضان . وقد اندرست هذه السلالة فى تاريخ «٩٧٠ هـ — ١٥٦٢ م» كما بينا آنفاً ولهم بقية مبعثرة فى انحاء حلب وآطنه وبلاد الاناطول تكونت منهم عشائر مختلفة الاسماء كعشيرة «پهلوان اوغللرى» و «بيات» و «قاچار» و «رجب اوغللرى» و «كوچكلى» و «عبالى» و «اوردكلى» . [*]

٨ . حكومات «قره قويونلى» و «آق قويونلى»

ان «قره قويونلى» و «آق قويونلى» [**] اسمان لعشيرتين من التركمان ، غادرا السهول التى كانوا فيها . وتحولا من الشرق الى الغرب حيث توطنت احداهما — آق قويونلى — فى «قپادوقيا» ، والثانية — قره قويونلى — «بين النهرين» . وذلك فى القرن الثامن للهجرة واواخر القرن الرابع عشر للميلاد فى زمن ارغون ملك المغول المنسوب الى جنكيز خان . وبعد مرور قرن ، اى بعد ان بادت حكومة المغول الايرانية بمدة طويلة ، استطاع هاتان العشيرتان لاول مرة تأسيس حكومتين ، الواحدة جنوبية فى بلاد ديار بكر ، والثانية شمالية

[*] نقلاً عن جهانما ص ٥٩٣ ، مترجم هامر ج ٤ تذييلات ص ٣١٦ .
[**] راجع (Bibliothèque. Or. d'Herbelot)

فى بلاد سيواس .

فسلالة قره قويونلى ، لم يكن لهـا الا اربعة سلاطين فى ظرف (٩٧) سنة . وتأسست هذه الحكومة سنة « ٧٧٧ هـ — ١٣٧٥ م » من قبل « قره يوسف » ابن « قره محمد التركمانى . وجاء فى تاج التواريخ ان هذه الحكومة دامت الى سنة « ٨٧٤ هـ — ١٤٦٩ م » . اما هامر فقد ذكر منهم اربعةً ، وعدد لهم فى جدول انسابه اثنى عشر اميراً فى العراق وآذربايجان وهم على ما يأتى :

١ — قره محمد . ٢ — قره يوسف بن قره محمد . ٣ — الامير اسكندر بن قره يوسف . ٤ — جهـانشاه ميرزا بن قره يوسف . ٥ — الامـير پيربوداق بن قره يوسف . ٦ — الامير ابو السعود بن قره يوسف . ٧ — الامير شـاه محمد بن قر يوسف . ٨ — الامير آسيان بن قره يوسف . ٩ — پيربوداق بن جهانشاه ميرزا . ١٠ — حسن على بن جهانشاه ميرزا . ١١ — محمد ميرزا بن جهانشاه . ١٢ — ابو يوسف ميرزا بن جهانشاه .

*
* *

اما حكومة « آق قويونلى » فقد اسسها « قره يولوق » او « قره سلوك » سنة « ٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م » وهذه الحكومة تعرف بالبايندرية ايضاً . ومن هذه الاسرة « حسن الطويـل » الذى كانت له حروب طـاحنة مع العثمانيين . ودامت هذه الحكومة تسع وتسعين سنـة ثم درست سنة « ٩٠٨ هـ — ١٥٠٢ م » كما جاء فى تاج التواريخ . اما هامر فانه ذكر منهم تسعة امراء ، وابلغ عددهم فى جدول انسابه الى اثنى عشر وها هى اسماؤهم :

١ — قره يولوق « قره سلوك »	وفاته	« ٨٣٩ هـ — ١٤٣٥ م »
٢ — حمزه بك بن قره يولوق	»	« ٨٤٨ هـ — ١٤٤٤ م »
٣ — جهانكير بن على بن قره يولوق	»	« ٨٧٢ هـ — ١٤٦٧ م »
٤ — اوزون حسن بن على بن قره يولوق	»	« ٨٨٣ هـ — ١٤٧٨ م »
٥ — خليل بن اوزون حسن	»	« ٨٨٤ هـ — ١٤٧٩ م »
٦ — يعقوب بن اوزون حسن	وفاته :	« ٨٩٦ هـ — ١٤٩٠ م »
٧ — بايسونغور بن يعقوب	»	« ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م »
٨ — رستم بن محمود بن اوزون حسن	»	« ٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م »
٩ — احمد بن اوغورلى بن اوزون حسن	»	« ٩٠٣ هـ — ١٤٩٧ م »
١٠ — محمد بن يوسف		
١١ — الوند بن يوسف	»	« ٩١٠ هـ — ١٥٠٤ م »
١٢ — مراد بن يعقوب	»	« ٩١٤ هـ — ١٥٠٨ م »

وبهذا نكون انهينا البحث عن حكومات التركمان فى حوالى بحر الخزر ، وآسيا الصغرى وعرفنا كيانهم . ولهذه العشائر بقية متفرقة نراها الان منتشرة فى ساحة فسيحة تمتد من سهول التركمان فى الشرق الى آذربايجان وارزنجان والاناطول وبلاد سورية .

[٥] — **تركمان بيروت** — يمكن تفريق التركمان الموجودين فى ولايـة بيروت لاربع مناطق :

١ — تركمان قضاء عكار فى لواء طرابلس الشام
٢ — » » حصن الاكراد » »
٣ — تركمان ناحية حذور » »
٤ — تركمان نواحى خزينه وباير ، وبوجاق فى لواء اللاذقية

وها نحن نبين القرى التى يسكنها هؤلاء القوم ونذكر عدد نفوسهم ايضاً [*]

١ — تركمان عكار : يسكن التركمان الموجودون فى عكار ، قرى (١) كواشره و(٢) عيدمون و (٣) الجديده و (٤) الدوسـه ، الكائنة فى الشرق الشمالى من القضـاء فوق الجبال الوعثة . ويوجد منهم فى كواشره « ٣٠٠ » وفى عيدمون « ١٥٠ » وفى الجـديده « ١٠٠ » وفى الدوسة « ٥٠ » فيكون مجموعهم « ٦٠٠ » نسمة .

٢ — تركمان حصن الاكراد : هم فى الجهة الغربية من هذا القضاء ، ويسكنون فى قرى « زاره » و « حكيه » و « حصرجية » اللاتى يتراوح عدد نسماتهـا بـين « ١٠٠ » و « ١٥٠ » . وان مجموع عددهم « ٤٠٠ — ٥٠٠ » نسمة .

٣ — تركمان حذور : يسكن التركمان فى هذه الناحية اربع قرى مبعثرة فى جهـات تلك الناحية بين قرى الاروام والمارونيين والنصيرية . وهذه القرى هى « ١ » بساتـين و« ٢ » بيت ارسلان و« ٣ » متراس و« ٤ » عين دابش . ويوجد فى قرية بساتـين « ١٠٠ » وفى بيت ارسلان « ٢٥٠ » وفى متراس « ٢٥٠ » وفى عين دابش « ٣٠٠ » ، فيكون مجموعهـم فى هذه الناحية « ٩٠٠ » نسمة .

٤ — تركمان اللاذقية : يمكن تفريقهم الى ثلاثة اقسام . فالقسم الاول تركمان ناحية الخزينة التابعة للواء اللاذقية . ويسكنون منها انحـاء « ١ » برج الاسلام و« ٢ » الصليب . ونفوس كل واحدة منهما تتراوح بين « ١٠٠٠ — ١٥٠٠ » . ويكون المجموع قريبـاً من « ٣٠٠٠ » نسمة

والقسم الثانى ؛ تركمان ناحية « باير » التابعة للاذقيـة ايضاً . ويسكنون فى قصبـة

(*) اننا سنبحث عن احوال تركمان ولاية بيروت الاجتماعية والروحية والادبية . اثناء البحث عن عكار وحصن الاكراد وحذور واللاذقية

« كبليه » مركز الناحية ، وما عداها فى قرى « كبره ، شرهن ، چوقورچاق ، قولجوق و كهبير ، قاراجغز ، شمروران ، آقجه باير ، قلايه ، آره نلك ، مصيين ، قاپاقليه ،حزبة ثولاث ، والى ، قيزيل جورة عبود ، قيزيل جورة ازهرى ، ياماديه ، قيزيل » . وعدد نفوس كل واحدة من تلك القرى يتراوح بين «٢٠» و « ٤٠٠—٥٠٠ » فيكون المجموع على التخمين مقدار ثلاثة او اربعة الاف نسمة من التركمان ، ولهذا تكون هذه الناحية تركمانية محضة . والعرب لا يشغلون هناك الا قليلاً من القرى .

والقسم الثالث ؛ تركمان ناحية « البسيطة » او « بوجاق » من اعمال اللاذقية ايضاً وهم ساكنون فى قصبة « كشيش » مركز الناحية وماعداها فى قرى « بدروسيه ،فاقى حسن ، عيسى بكلى ، طورنجه ، بوزاوغلان ، كسلهجك ، زيتونجق ، سراى ، زاغرين شقروران ، الماليه ،مران » ، ويتراوح عدد نفوس كل واحدة من هذه القرى بين «٢٠» و « ٤٠٠—٥٠٠ » . فيكون مجموع نفوس التركمان هناك قريباً من اربعة آلاف نسمة . والقرى التى يسكنها العرب هنا قليلة ايضاً ، فاذا اجملنا هذه التفصيلات نعلم ان مقدار التركمان فى ولاية بيروت يقرب من «١٥٠٠٠» نسمة .

[٥] — **منشأ تركمان بيروت ، وابدأ رأى** — يجب علينا قبل انهاء هذا الفصل ان نبحث عن منشأ التركمان المبثوثين فى عدة انحاء من ولاية بيروت ، الذين لا يقل تعدادهم عن ١٥٠٠٠ نسمة ، وتحرى زمان ورودهم الى بيروت، وبالاحرى الى بلاد سورية وكيفية تمكنهم فى هذه البلاد .

اولاً — ان التركمان انفسهم لا علم لهم بزمان مغادرتهم لسهول التركمان ، او لديار تركستان ، ومهاجرتهم لهذه البلاد ؛ ولا بكيفية تلك المهاجرة ولا غايتها ، حتى ولا بكيفية انتقالهم من بلاد الاناطول بعد ان مكثوا فيها برهة من الزمن الى بلاد سورية .

ثانيا — لم يتيسر لنا الحصول على حجة تاريخية ، او دليل يهدينا الى كشف الحقيقة ، رغماً عن بحثنا وتنقيبنا الذى عالجناه فى قرى التركمان ومحلاتهم .

ثالثا ؛ لم نكد نظفر فى الكتب التاريخية التى تبحث عن الترك والتركمان ، او سورية والاناطول الا بالنذر من المعلومات التى تطرق هذا الموضوع . وعليه لا تخلو آرائنا التى سنبديها فى شأن منشأ التركمان البيروتيين من نقاط تحتاج الى حجج وبراهين مؤيدة .ولهذا آثرنا هنا ان نستند على ما سمعناه من التركمان انفسهم ، وعلى ما رأيناه فى بعض المؤلفات ومن جهة اخرى على آراء بعض المتجولين فى آسيا الصغرى ورواياتهم ، ونسعى ماستطعنا لايضاح هذه النقاط والتقرب من الحقيقة ان لم يمكن ادراكها بذاتها .

وها نحن نشرع بعد هذه المقدمة الوجيزة بنقل كلامهم وآرائهم بهذا الخصوص :

يقول تركمان عكار ؛ انهم اتوا الى هذه البلاد من انحاء جولان وسوريه فى قضاء القنيطرة من اعمال الشام . وذلك قبل « ١٠٠ — ١٥٠ » سنة وان بعض اقاربهم يسكنون الآن فى انحاء حمص . وان شجرة نسبهم لاتزال محفوظة عندهم . وهذه الرواية ،وان كانت تدل على ان لتركمان عكار اتصال بتركمان سورية ولكنها لاتزيل الابهام والغموض عن وجه الارومة الاساسية .

اما اقوال تركمان حصن الاكراد ، وارائهم فى هذه المسئلة ، كادت ان تكون عين اقوال تركمان عكار ، وهى على عين الدرجة من الابهام ، وعدم الوضوح .

اما تركمان حذور فأن اقوالهم شتى ، ومتضاربة . فبعضهم يقول انهم جاؤا مهاجرين من جهات آطنه ، قبل « ٣٠٠ — ٤٠٠ » سنة . وبعضهم يدعى انتماء العشيرة الى قبيلة « قايى » . وهذه الاقوال المتضاربة تذهب بنا الى الحكم بأحد امرين . ١ — ان هؤلاء من الذين هاجروا مع سليمان شاه ، ولكنهم لم يعرجوا على بلاد الاناطول .٢— انهم بعد ان اقاموا فى بلاد الاناطول ، او فى جهات آطنه ، هاجروا لهذه الديار . واننا سنبين رأينا على ترجيح احدى هاتين الفكرتين فى الابحاث الآتية .

واما تركمان خزينة وباير ، وبوجاق ، فأن اقوالهم متضاربة ايضاً اذ منهم من يقول انهم اتو من توقات ، وآطنه فى بلاد الاناطول ، وذلك فى زمن يجهلونه . ومنهم من يدعى بأنهم اتوا من بلاد ارضروم ، وكماخ . وبعضهم يقول ان السلطان سليم جلبهم ، واسكنهم فى انحاء لبنان ولبنان الشرقى ، وفى جوار جبل الاقرع . والبعض يدعى ان فرهاد پاشا ، جاء بهم ، واسكنهم هنا فى زمان السلطان سليمان وذلك بعد حادثة « جانبرد غزالى » وليس لهذه الاقوال المتنوعة من حجة تاريخية يؤخذ بها ، ولهذا نضطر لان نمزجها مع المعلوم من الاساسات التاريخية ، لنتمكن من استنباط الحقيقة .

١ — يجب ان يكون قدوم تركمان سورية . وبالاخص تركمان بيروت الى هذه الديار قبل بضع قرون . وبرهاننا على هذا هو كثرة عددهم ، واتساع نطاق مواطنهم ، ومن جهة اخرى ابتعاد لغتهم ، ولهجتهم عن اصل اللغة التركمانية ، وقربها من اللغة التركية ، وامتزاجها بالكلمات العربية ، ولا سيما بالعربية العجمى. كل هذا مما يدلنا على انهم قدموا الى هذه الاصقاع قبل ثلاثة او اربعة قرون . ولا سيما اذا نظرنا الى مارواه هامر بأن « جانبرد غزالى » الذى خرج على السلطان سليمان ، قد استصحب معه خمسة عشر الفاً من فرسان التركمان والمماليك ، وثمانية آلاف من الرماة ، وذلك لما خرج من الشام متوجهاً لاستانبول فى تشرين الاول سنة ١٥٢٠ ميلادية الموافق لذى الحجة سنة ٩٢٦ هجرية . نعلم ان التركمان كانوا موجودين هنا فى ذلك الزمن ايضاً .

٢ —اما قبل هذا التاريخ ، فقد كانت اسرة « آل رمضان » دارسة ، وممزقة وتبعثر

اتباعها من التركمان فى انحاء حلب — كما بينا آنفاً — والان يوجد منهم جم غفير فى ناحية اوردو) من قضاءجسر الشغور التابعة لولاية حلب . وبما ان ناحية اوردو متاخمة الى نواحى باير وبوجاق يحتمل ان يكون سكانها من احفاد آل رمضان ايضاً ؛ وانهم جاؤوا من بلاد آطنه .

٣ — وقبل هذا التاريخ — كما بينا سالفاً — يذكر هامر انه قد تشتت شمل عشيرة قايى لما سقط سليمان شاه فى نهر الفرات اثناء هجرتهم الى بلاد الاناطول ، وتبعثر افرادها فى انحاء متعددة ، وفى سورية ايضاً . ولهذا يحتمل ان يكون تركمان هذه البلاد من اخلاف قبيلة (قايى) .

*
* *

اقد بحثنا عن هذه المسألة بصورة خصوصية ، واستطلعنا فيها آراء بعض المتجولين فى سورية والاناطول ، وانحاء ارضروم وها نحن نذكر هنا ما اطلعنا عليه من تلك المعلومات الشفاهية .

يجب — على رأيهم — تقسيم تركمان سورية الى قسمين كبيرين فيشمل القسم الاول تركمان باير ، بوجاق ، خزينه اردو ، والقسم الثانى تركمان حمص ، حما ، حصن الاكراد ، عكار ، حوران . فأذا قابلنا بين تركمان بوجاق وخزينه وباير وبين تركمان الاناطول ، نجد فيهم مشابهةً تامة لتركمان ارضروم وارزنجان .

اما تركمان حذور ، عكار ، حمص ، حوران الخ فهم يشبهون تركمان (افشار) الموجودين فى الاناطول ، والذين ينوف عددهم عن عشرات الالوف . نعم اننا نجد النساء واهل القرى من التركمان المتوطنة فى بلاد ارزنجان ، اكين وكماخ كادت تكون كالقرويين والنساء فى باير وبوجاق لاسيما المماثلة فى اللهجة الكلامية فهى على جانب عظيم . وهذه اللهجة لا تبعد عن اللهجة العثمانية .

ويقول مخاطبنا علاوةً على ذلك :

« ان السلطان سليم استجلب من اكناف خراسان مقدار « ٨٠ — ٩٠ » الف عائلة ، اى « ٥٠٠ — ٦٠٠ » الفاً من التركمان واوطنهم ذرى جبال لبنان وحلب وسفوحها . ولكنهم ما زالوا يتناقصون حتى اصبحوا لا يزيدون عن خمسة عشر الف . هذا ولو سلمنا بان تركمان باير وبوجاق قد اتوا من خراسان ، لا بد ان نعترف بانهم لبثوا مدةً فى انحاء ارزنجان . ويثبت هذا ما يرويه بعض امراء التركمان فى كماخ ، ان احد اجدادهم دعى واتباعه من قبل احد السلاطين ليحضر حرب حدثت فى بلاد العرب ، ثم لم يرجع منهم الا القليل ، وتوطن الباقى فى تلك البلاد وليس للكماخيين علم بمكانهم . وتركمان بوجاق وباير ايضاً يروون بالتواتر عن اجدادهم انهم من الكماخيين . فاذا قابلنا هاتين الروايتين ،

يلزمنا الحكم بان تركمان باير وبوجاق هم من تركمان ارزنجان . . . »

اما القسم الثانى ، اى تركمان حصن الاكراد وعكار وحذور فانهم يشبهون « الافشاريين » فى نضرة وجوههم ، وقوة اجسامهم وبما فى لغاتهم من الغموض وقربها من اللهجة التركمانية .

وقد جاء فى قاموس الاعلام عن قبيلة افشار :

« انها احدى قبائل الاتراك القدماء ، ويسكن منها قسم كبير فى انحاء العراق العجمى من بلاد ايران ، ولها فى جهات الاناطول بضعة فروع ، واحدهم فى لواء يوزغاد فى ولاية انقره . » وخصص « اليزه رهقلوس — *Elisée Reclus* » احد متخصصى الجغرافية حين تكلمه عن لاناطول فى كتابه الشهير ، بحثاً ضافياً لقبائل آفشار . (*)

نعم ان مقدار الافشاريين الموجودين فى شمالى آطنه ، وبين سيواس وآطنه وحلب ، وفى قضاء العزيزية ، ولواء يوزغاد يناهز (١٠٠) الف من النسمات . وانهم اليوم من اهم العشائر التركمانية بالنظر لاحتفاظهم بخالص سجايا قومهم .

ولهم شغف عظيم بلغتهم . ونساؤهم على جانب عظيم من الحرية والاستقلال ، وهم من الاصالة والنجابة الروحية على ما يجعلهم قدوةً لغيرهم من عشائر التركمان .

فاذا لاحظنا ان تلك الشمائل موجودة فى تركمان حذور وعكار وجوارها ، وشاهدنا جمال نسائهم وبهائها ، يحصل لدينا غالب الظن بانهم من الافشاريين . وهم يتقاربون فى نسق اللباس ايضاً . وعليه يمكن ان يكون الافشاريون تخطوا الى جهة سورية حين مهاجرتهم الى الاناطول .

هذا واننا نشكر لمن حبانا بهذه المعلومات صنيعهم ؛ ونعترف بان الآراء التى بيناها فى ايضاح منشأ تركمن بيروت لا تكفى لتنوير الصحائف التاريخية . بل يجب على المجهزين بالوسائط الكافية من ارباب العلم والاطلاع ان يتحفونا بما ينفذ الى كبد الحقيقة فى هذه المسئلة .

— ٧ —

الاديان والمذاهب

يمكن تفريق السكان فى القسم الشمالى من ولاية بيروت ، من حيث الدين الى (مسلمين ونصارى ويهود . فالمسلمون منهم (السنيون ، والاسماعيليون ، والنصيرية) . اما النصارى ففيهم « الكاتوليك ، والاورتودقسى ، والمارونيون ، والبروتستانت ... الخ » . وبما اننا

(*) راجع قسم L'Asie Antérieur من كتاب Géographie universelle ص ٥٣٩

بحثنا عن هؤلاء الاقسام فى المجلد الاول ما عدا الاسماعيلية والنصيرية ؛ نصرف النظر عن تكرارها ، ونكتفى بالبحث عن هاتين الفرقتين الاسلاميتين .

١ — الاسماعيلية والاسماعيليون

يجب علينا فى البحث عن ظهور مذهب (الاسماعيليين) الذين عرفهم التاريخ منذ الف ومائتى سنة ، واحرزوا من قوة النفوذ الفكرى والسلطان الادبى ما جعل لهم مجالاً من غرب الشمال لافريقا الى اقصى حدود العجم الشرقية والتنقيب عن عوامل انتشاره وتفشيه ، ان نرجع بالنظر الى عصر الاسلام الذهبى ، ونضبط الخطوط الاساسية لما ارتسم تباعاً على صحائف التاريخ من « الفرق الاسلامية » التى نافت بعددها عن ستمائة . لانه لا يمكن العثور على الفروق الاصلية بين المذهب السنى المعروف ، وبين العقائد الاخر التى سنفيض فى تشريح ماهيتها ؛ الا فى معتقدات تلك الفرق التى ربما تنزع الى ما لا يتوقع من الغايات . وبهذا نتمكن من تحليل تلك الفروق وايضاحها . والا فان رابطة المذهب الاسماعيلى بالاعتقادات الاسلامية تنخفض لدرجة لا يكاد يحس بها .

ولهذا نضطر لان نبحث على سبيل الاجمال عن الفرق الاسلامية :

[١] — ***الفرق الاسلامية*** — ان القرآن العظيم هو اس الديانة الاسلامية . وقد نزل بلسان مبين على اقوام هم من الفصاحة فى الدرجة القصوى ، فلم يكن ليحدث اختلاف فى فهم معانيه واحكامه ؛ ومن جهة اخرى كانت الاحاديث النبوية تمزق ما يخالج الاذهان من الشكوك وتجلى غياهب الظنون الباطلة ، فاصبح سيد الكونين محاطاً بهالة من الوحدة الاسلامية امتن من البنيان المرصوص .ولم يكن هنالك داع لتشكل الفرق وتأسسها :

وكانت احكام الدين الاسلامى فى عصر النبوة سهلة التلقى لدرجة لم نر فيها تلك المعتقدات الخاصة التى خلقت الفرق الاسلامية فى الازمنة المتأخرة ، خالجت فكر احد من الصحابة الكرام ، ولم يحدث لديهم حادث يخل بالوحدة الاسلامية . وما سبق لهم تردد يستلزم السوآل عن نصوص القرآن الناطقة « بالصفات الازلية » — كما ذكر المقريزى — بل ان صفة « العلم ، والقدرة ، والحياة ، والارادة والسمع ، والبصر والكلام ... الخ » كانت مفهومة لدى جميعهم بحسب التعاليم القرآنية ، ولذلك لم يحدث بينهم اختلاف فى هذا الشان قط . والمناقشات التى اخذت تحدث منذ عصر النبوة الى خلافة على رضى الله عنه لم تكن الا اختلافات اجتهادية [*] ؛ ولم تتجاوز العشيرة بعددها فى مدة نصف قرن واكثرها كان يحسم فوراً . فمنها

(*) كتاب الملل والنحل — لابى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى

١ — الاختلاف الحادث بسبب حديث النبى فى مرضه الاخير (ائتونى بدواة وقرطاس فاكتب لكم كتاباً لا تضلون من بعدى » [*] . ولم يلبث ان حسم فى الحال

٢ — ما كان من امر رسول الله (صلعم) بشان تجهيز جيش اسامه . وهذا الاختلاف لم يطل ايضاً بل حسم على الفور .

٣ — ما كان من هياج عمر رضى الله عنه عقب وفاة النبى (صلعم) حيث قال [من قال ان رسول الله (صلعم) مات علوته بسيفى هذا ...] ، وهذه الحدة من عمر لم تلبث ان خمدت بقرائة ابى بكر رضى الله عنه آية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ؟] .

٤ — الاختلاف فى تعيين موضع دفن النبى (صلعم) وقد حسم بهذا الحديث (الانبياء يدفنون حيث يموتون) .

٥ — الاختلاف فى مسئلة الامامة والخلافة . وقد حسم بما كان من البيعة لابى بكر رضى الله عنه . ومع ذلك لم يزل هذا الاختلاف آخذاً نصيبه من التأثير فى النفوس .

٦ — ارث النبى (صلعم) وقد حسم بالحديث الشريف الذى نصه (نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة)

٧ — الاختلاف بشأن (الزكاة) فى زمن ابى بكر ، ولم يدم كثيراً

٨ — الاختلاف الناشىء عن نصب ابى بكر لعمر خليفة من بعده ، وبعض اختلافات فى خلافة عمر بشأن الارث والحدود الشرعية ، وما لبثت ان حسمت على الفور .

٩ — الاختلاف الذى نشأ عن الآراء المتخالفة بشأن (الشورى) اثناء انتخاب عثمان رضى الله عنه للخلافة . وقد حسم ايضاً .

١٠ — آخر ما حدث من الاختلاف ، وأهمه ، كان فى ايام خلافة على رضى الله عنه وموضوعه كيفية انتخاب الخليفة وشرائط الاهلية فى الخلافة ، وهذه المسئلة اوجبت تكون كثير من الفرق الاسلامية . نعلم من هذا الايضاح الاجمالى ان اهم اختلاف حدث بين المسلمين هو مسئلة (الخلافة) .

ان مسئلة الخلافة اخذت بعد وفاة النبى (صلعم) دوراً مهماً ، وكانت من اهم المسائل الخلافية ، على انها لم تحدث فى زمن الخلفاء الثلاثة . وقد تكونت فرقة الخوارج فى زمن على (رضى الله عنه) ، واعقبها اتحاد المتحزبين له فاسسوا مذهب الشيعة . وكان موضوع هاتين الفرقتين هو على رضى الله عنه ، اذ كانت الاولى ترى وجوب قتاله ، والاخرى غايتها الدفاع عنه ، ولهذا السبب كانتا فى بادىء امرهما كفرقتين سياستين ، ولكن لم يطل

(*) روى هذا الحديث محمد ابن اسماعيل البخارى . منسوباً لعبدالله ابن عباس

الامر حتى انغوستا فى المسائل الدينية فاصبحت صبغتهما مزيجاً من الدين والسياسة . وما لبث بعض الشيعيين ان اغرقوا فى المسائل الدنية وبالغوا بالغلو فقالوا بحلول الالوهية فى على بن ابى طالب ، وانتقالها من بعده الى الخلفاء الذين هم من نسله . وان اكبر سائق لهذا الغلو فى الدين ؛ هو تأسيس قدرة دينية تقابل الوحدة الاسلامية ، وتكون حجاباً تدس المقاصد السياسية من ورائه . وما كان هذا الا بتسلط الروح الايرانية ، تلك العجوز الشمطاء . وما كادت شخصية على رضى الله عنه تدخل التاريخ ، الا وانعقدت حولها هالة من العقائد ، واخذت تربو ، وتتكاثف بتوالى الادوار ، وفى مدة ثلاثة قرون او اربعة ، تجت بالعقائد المتباينة عند (الاسماعيليين ، والنصيرية ، والدروز) . ويمكننا ان نقول ؛ لا تنطوى القرون التاريخية على شخصية اضطربت لها الاسلامية كشخصية على رضى الله عنه):

ثم تأسس فى زمن الصحابة — غير الفرق التى ذكرناها — مذهب « القدرية » لمبدعيه (معبد الجهنى) ، (غيلان الدمشق) ، (يونس الاسوارى)

وبعد عصر الصحابة اسس (جهم بن صفوان) مذهب (الجهمية) (وواصل بن عطاء) مذهب (المعتزلة) ، وتأسس مذهب (المشبهة) لقاء المعتزلة وبعد هذا مذهب (الباطنية) .

ان الانهماك فى مطالعة الكتب الفلسفية التى ترجمت عن لغاة مختلفة فى زمن (المأمون) سابع خلفاء العباسيين فى القرن الثالث للهجرة ، ونتيجة الميل المفرط للاساطير القديمة . اوجدا الطرائق المتباينة . اشتدت وطأة (غلاة الشيعة) المعتقدين بالحلول والتناسخ وعلا امرهم فى زمن الدولة (الفاطمية) فى الغرب ، (وآل بويه) فى الشرق ، واحتدم الجدال بينهم وبين اهل السنة ، ثم مالبث ان استحال الى حرب طحون . واصبحت مآت من الفرق الاسلامية كالقدرية والجهمية والمعتزلة والخوارج والشيعة والباطنية ... الخ تنفث فى البلاد الإسلامية سموم الاختلاف والعدوان . وتزج بالاسلامية الى مهاوى البوار .

لا بأس ان نجمل هنا العوامل والمؤثرات الدينية التى ادت الى تكون هذه الفرق الاسلامية — بصرف النظر عن المطامح السياسية — .

يمكننا ان نحصر المسائل الاصولية التى كانت سبباً للاختلافات فى اربعة اسس . (*)

الاساس الاول — مسئلة الصفات والتوحيد . والاختلاف فى اثبات الصفات الازلية ، او نفيها ، ثم فى (صفات الذات) و(صفات الفعل) . وأى هذه الصفات واجبة لله ، او جائزة ، او مستحيلة . وهذا الاختلاف هو بين الاشعرية ، والكرامية والمشبهة ، والمعتزلة .

الاساس الثانى — مسئلة العدل والقدر . وهى عبارة عن اثبات ، او نفى القضاء

(*) الملل والنحل — للشهرستانى

والقدر ، والخير والشر ، والمقدور والمعلوم وهذا الاختلاف بين القدرية ، والجبرية والاشعرية والكرامية .

الاساس الثالث — مسائل الوعد والوعيد ، والاسماء والاحكام : وقد اختلفت هنا فى اثبات ، او نفى الايمان والتوبة والوعيد والارجاء والتكفير والتضليل ، وهذا الاختلاف كان بين المرجئة والحرورية والمعتزلة والاشعرية .

الاساس الرابع — مسائل السمع والعقل ؛ والرسالة والامامة : والاختلاف هنا فى خصوص التحسين فى النبوة والتقبيح ، والصلاح والاصلح واللطف والعصمة ، ثم فى شروط الامامة ، وكيفية انتقالها أبالنص ، او بالاجماع . وهذا الاختلاف هو بين الشيعة والخوارج ، والمعتزلة والكرامية والاشعرية .

ما لبث (علم الاصول والفروع) الذى اخذ يتأسس فى القرن الرابع للهجرة . ان تقرر على شكل قويم ، بهمة الائمة الاربعة اصحاب المذاهب ، وآخرين معهم . وبه عصمت عقائد (اهل السنة والجماعة) من الخلل ، وعليه انحل اكثر الفرق المتغالية . وانحصر الاختلاف بين فرقتين عظيمتين « السنية » و« الشيعية » فى مسائل محدودة كالامامة والاجتهاد والتفسير . وانحصر غلاة الشيعة فى فرقة (الدروز) و(الاسماعيلية) و(النصيرية) . ومع هذا فان بذر الشقاق الذى زرعته مئات من الفرق التى نوهنا عنها آنفاً ما فتئ ان اثمر بالويل والخراب ، واخذ بتلابيب الامة الاسلامية يجرها الى مهاوى السؤ والانحطاط .

*
* *

لنتكلم بعد هذه المقدمة المجملة ، على الفرق بصورة خصوصية . لا يستطاع قطعياً تعيين عدد الفرق الاسلامية باعتبار فروعها . ولذلك يتحتم علينا ان نرجعها الى اصول جامعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ستفترق امتى على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى) .

فقيل من هى الناجية يا رسول الله فقال (اهل السنة والجماعة) وسئل عن اهل السنة والجماعة فقال :

« ما انا عليه اليوم واصحابى » .

ثم قال :

« لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحق الى يوم القيامة » .

واننا نعتبر ان اول فرقة اسلامية هى فرقة (اهل السنة والجماعة . اما ما بقى من الثلاث وسبعين فرقة فالبعض يرجعهم الى اربع (القدرية ، والصفاتية ، الخوارج ، والشيعة) . والبعض يعتبرهم عشرة : (المعتزلة والمشبهة والقدرية والجبرية والمرجئة والحرورية

والنجارية والجهمية والخوارج والشيعة). واننا سنأخذ فى بحثنا هذا بالتصنيف الثانى، ونعتبر الفرق المذكورة عشرة اصول. وان لبعض هؤلاء معتقداً يقارب معتقد (السنيين) فى بعض نقاطه، ويخالف الاسس الاسلامية عن بكرتها فى نقاط اخرى، وها نحن نفصل تلك الفرق على الوجه الآتى :

١ — المعتزلة

اشتهر منتسوبو هذه الفرقة باسم (اصحاب العدل والتوحيد) ايضاً وانهم يقولون بنفى الصفات والتشبيه ورؤية البارى. ويعتقدون بان القرآن مخلوق؛ وان العبد هو خالق فعله، وانه لا يجوز اسناد الشر والظلم الى الله، وان الحكيم يعمل الصالح، وان المؤمن يستحق الثواب اذ مات عن توبة وطاعة. وان الكبيرة اذ لم تعقب بتوبة توجب الخلود فى النار، وانه تجب المعرفة والشكر على النعمة قبل ورود السمع، وان الحسن والقبح مدرك بالعقل، فيجب اعتناق الحسن واجتناب القبح... الخ. وقد اتفق جميع فرق المعتزله على هذه المسائل، ولكنهم افترقوا فى مسئلة الامامة

ان للمعتزلة عشرين فرعاً. واننا نذكر هنا اسمائهم مع اسماء مؤسسيهم :

١ — الواصلية (واصل بن عطان حذيفة العزال) ٢ — (عمرويه) (عمرو) ٣ — الهزيليه (ابو هزيل محمد بن الهزيل العلاف) ٤ — النظامية (ابراهيم بن سيار النظام) ٥ — الاسوارية (ابو على عمر بن قائد الاسوارى) ٦ — الاسكافية (ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافى) ٧ — الجعفرية (جعفر بن حرب بن ميسرة) ٨ — البشرية (بشر بن المعتمر) ٩ — المزدارية (ابو موسى عيسى المزدار بن صبيح) ١٠ — الهشامية (هشام بن عمر الفوطى) ١١ — الحائطية (احمد بن حائط ١٢ — الحمارية (هى شعبة من معتزلة عسكر مكرم) ١٣ — المعمرية (معمر بن عباد السلمى) ١٤ — التمامية (تمامه بن اشرس النميرى) ١٥ — الجاحظية (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) ١٦ — الخياطية (ابو الحسين بن ابى عمرو الخياط) ١٧ — الكعبية (ابو القاسم عبدالله بن محمد بن محمود البلخى الكعبى) ١٨ — الجبائية (ابو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى) ١٩ — البهشمية (ابو هاشم عبد السلام بن ابى على الجبائى) ٢٠ — الشيطانية (محمد بن نعمان المعروف بشيطان الطاق)

وللمعتزلة فروع اخرى ما عدا هذه الفروع التى عددناها وهى : الثنوية، الكيسانية الناكتية، الاحمدية، الوهمية، البترية، الواسطية، الواردية، الحرقية، اللفظية :

وهى على مكانة عظيمة بين الفرق الاسلامية ونطاق تأثيرها واسع جداً. ولكننا اضربنا عن تفصيل طرائقها واحدة واحدة ذلك لان علاقتها مع « الاسماعيليين » الذين هم من غلاة الشيعة قليلة

٢ . المشبهة

ان هذه الفرقة تتغالى فى اثبات الصفات الآلهية على خلاف الشيعة ومنها من يبلغ به التفريط الى ان يصور للخالق تمثالاً. وتسمى هذه الفرقة « صفاتية » ايضاً. ولها فروع كثيرة نعدها مع اسماء مؤسسيها على الوجه الآتى :

١ — الهشامية او الحكمية (هشام بن الحكم) ٢ — الجولقية (هشام بن سالم الجوالقى) ٣ — البيانية (بيان بن سمعان) ٤ — المغيرية (المغيرة بن سعيد العجلى) ٥ — المنهالية (منهال بن ميمون) ٦ — الزرارية (زراره بن عين) ٧ — اليونسية (يونس بن عبد الرحمن العتمى) ٨ — الكرامية (محمد بن كرام السجستانى). ولها احزاب غير هؤلاء كالسابية والشاكية، والعملية والمستثنية، والبدعية والشرية والاترية والهيضمية، والاسحاقية والجندية.

وان بعض فروع هذه الفرقة، هو فى عين الزمن فرع للشيعه، ولذلك سنبحث عن عقائدهم بصورة خصوصية.

٣ . القدرية

تتغالى هذه الفرقة باثبات قدرة للعبد، على الخلق والايجاد. ويقولون لا يحتاج العبد الى معونة الخالق. وبعض هؤلاء من المعتزلة.

٤ . الجبرية، او المجبرة

وغلو هذه الفرقة هو فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده، ومع الفعل، ومنهم من لم يقبل بكسب العبد واختياره. وتفترق هذه الفرقة الى ثلاثة احزاب. وها هى اسماؤهم واسماء مؤسسيهم :

١ — الجهمية (جهم بن صفوان الترمزى) وهذه الفرقة تقول بنفى الصفات الالهية ايضاً. ٢ — البكرية « بكر ». وهذا الرجل يحرم بعض المأكولات (كما هو عند النصيرية). ٣ — الضرارية (ضرار بن عمرو) ولها فروع غير هؤلاء كالنجارية، والبطيخية والصباحية والفكرية والخوفية.

٥ . المرجئه

ان ارباب هذه الفرقة يرجون من الله ثواباً لذوى المعاصى، ويعتقدون ان المعصية مع وجود الايمان لا توجب معزةً، وبالعكس ان الطاعة مع الكفر لا تجدى نفعاً. ويرجئون حكم ذوى الكبائر الى الآخرة، وانهم لعلى غلو فى اثبات الوعد والرجاء ونفى الوعيد والخوف عن المؤمنين.

ينقسم هؤلا الى ثلاثة اقسام : القسم الاول — هو اعتقاد غيلان من بنى ضيفه ، وابو شمر ويجمعان بين الرجاء والقدر . والثانى — اعتقاد (جهم بن صفوان) وهو يجمع بين الارجاء والجبر . والثالث — اعتقاد الارجاء المحض . وله اربعة احزاب . ١ — اليونسية (يونس بن عمرو) ٢ — الغسانية (غسان بن ابان الكوفى) ٣ — الثوبانيـة (ثوبان) ٤ — التؤمنية (ابو معاذ التؤمنى) . ولهم غير هؤلاء . المريسية ، والصالحية ، والجحدرية والزيادية والشبيبية والناقضية . ومن هؤلاء من يصل فى الغلو الى انكار نبوة عيسى عليه السلام .

٦ . الحرورية

وتسمى با(لوعيدية) . وارباب هذه الفرقة تسلقوا جبل (حروراء) لقتال على بن ابى طالب . وغلوهم فى اثبات الوعيد والخوف على المؤمنين . ويعتقدون بامكان الخلود فى النار مع تحقق الايمان ، ويفترقون عن المرجئة بالوعد والوعيد ، والنفى والاثبات . وباعتقادهم الشرك فى مقترفى الكبائر ويفترقون عن الخوارج الذين يعتقدون بكفرهم .

٧ . النجارية

وهؤلاء هم حزب (حسن بن عبد الله النجار) يتحدون مع اهل السنة فى مسائل القضاء والقدر . والوعد والوعيد وامامة ابى بكر رضى الله عنه . ومع المعتزلة فى خلق القرآن . ونفى الصفات ورؤية البارى . والبرغوثية والزعفرانيـة والمستدركة هى من توابعها .

٨ . الجهميه

هم حزب (جهم بن صفوان) . ومن ذكرهم مع الفرقة (المجبرة) . وارباب هـذه الفرقة يتحدون فى مسئلة القضاء والقدر مع السنيين مع ميل قليل للجبر . ويعتقدون بخلق القرآن ، وينفون صفات البارى . ورؤية الله :

٩ . الخوارج

ويسمون با (لنواصب) . ويتغالون فى حب ابى بكر وعمر وبغض على رضى الله عنهم . ويفترقون الى عشرين فرقة كبيرة .

١ — الحـكمية ؛ خرجوا على على رضى الله عنه فى حرب صفين ويعتقدون ان لا حكم للرجال . والحـكم مختص بالله وحده . ٢ — الازارقة . وهم اتباع (نافع بن الازرق) . وخرجوا فى زمن عبد الله بن الزبير فى البصره . ٣ — النجدات . وهم اتباع (نجد بن

عويمر) وهذا خرج فى نجد واليمامة ثم ارسل (عطية بن الاسود) الى سجستان . وجاهر بمذهبه فى (مرو) . ٤ — الصفرية (زياد بن الاصفر) ٥ — العجاردة (عبد الكريم عجرد) ٦ — الميمونية (ميمون بن عمران) ٧ — الشيعية ٨ — الحمزية . وهم اتباع (حمزة بن ادرك الشامى) الذى خرج فى زمن خلافة الرشيد العباسى فى خراسان ٩ — الحازمية . ١٠ — فرقتا المعلومية والمجهولية ١١ — الصلتية (عثمان بن الصلت) ١٢ — الاحسنية ١٣ — المعبدية ١٤ — الشيبانية وهم اتباع (شيبان بن سلمة) الذى خرج فى زمن ابى مسلم الخرسانى . ١٥ — الشبيبية (شبيب بن يزيد بن ابى نعيم) الذى خرج فى زمن عبد الملك بن مروان ١٦ — الرشيدية ١٧ — المكرمية (ابن المكرم) ١٨ — الحفصية (حفص بن المقدم) . ١٩ — الاباضية (عبد الله بن اباض) الذى خرج فى زمن مروان ٢٠ — اليزيدية وهم اتباع (يزيد بن ابى انيسة) . ويعتقدون ان الله سيرسل رسولاً من بلاد العجم وينزل عليه كتاباً ينسخ فيه الشريعة المحمدية . وللخوارج اقسام اخرى ماعداهذه كالحارثية . والصومية والبهيسية . واليعقوبية والفضلية والشمراخية . والضحاكية .

١٠ . الشيعية

ان اشياع هذه الفرقة يحبون علياً بن ابى طالب محبة عظيمة . وسموا بهذا الاسم لانهم اشياع لعلى .

ولما حصل التردد فى اسناد الخلافة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر اوللعباس بن عبد المطلب ، او لعلى بن ابى طالب او لعثمان بن عفان ... الخ كانت هذه الفرقة تدعى بانها لعلى .

ويعتقدون ان الخلافة والامامة لعلى جلياً وخفياً ، معناً ووصايةً ولا تنفك بعده عن اولاده واذ انفكت فاما عن تقوى منهم واما عن ظلم من غيرهم [*] ولا تترك الامامة للرأى العمومى بل هى اساس يرتكز عليه ركن الدين ، ولا يسوغ للنبى عليه السلام اغفال او اهمال الامامة او تفويضها لاحد . والائمة معصومون عن الكبائر والصغائر .

ان جميع الفرق الشيعية على اتفاق فى هذه المسائل . ولكنهم اختلفوا فى مسئلة الامامة بعد على رضى الله عنه وافترقوا الى اكثر من ثلاثمائة حزب .

فبعضهم يقول ان الخلافة والامامة تعينت بالنص لعلى ، ومن بعده للحسن والحسين ، واما الذى بعدهم فيكون بالانتخاب ، والبعض يقول بانها محصورة فى على فقط . ومنهم من يقول انه نص على على بالوصف لا با « العين » و « الاسم » ، والآخر يقول بان النص

(*) كتاب الملل والنحل — الشهرستانى .

يخص الائمة الاثنى عشر الذين سيكون آخرهم « المهدى المنتظر »

على ان هؤلاء الذين قالوا بخلافة على واولاده وامامتهم لم يلبثوا ان اظهروا الغلو واخذوا يسبون بعض الصحابة ويشتمونهم ثم سرى اليهم من اساسات الرافضة اعتقاد « الغيبة والرجعة ، والبدأ والتناسخ والحلول والتشبيه » وكانت الفرقة التى تسمى (غلاة الشيعة) او (الغالية) ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل اعتقد بعضهم بنبوة على ، وحتى بالوهيته . ولهذا تنقسم الشيعة اولاً باعتبار الامامة ، وثانياً باعتبار الغلو الى اربعة اقسام :

١ — الكيسانية ، يعتقدون بان الخلافة بعد على لمحمد بن الحنفية .

٢ — الزيدية ، يعتقدون بانها لزيد بن على .

٣ — الامامية ، يعتقدون بانها للحسن والحسين .

٤ — اما (غلاة الشيعة) فانهم معروفون بالغلو والمبالغة فى الامامة واشهرهم (الخطابية والسبائية والكاملية والبيانية والمغيرية والهشامية والزرارية و لجناحية والمنصورية والغرابية والذمية واليونسية والرزامية والنعمانية والبسلمية والجعفرية والصباحية) وهم سبع عشر فرقة . ووجد فى الفرق الثلاث الاصلية ايضاً من اتبع الغلو . ولهذا يمكننا ان نعتبر عدد فرق الشيعة عشرين فرقة . وها نحن نذكر اسماء هذه الفرق مع اسماء مؤسسيهم على الوجه الآتى :

١ — الكيسانية :

هم اتباع (كيسان) مولى على بن ابى طالب ، وهم يقولون بان الخلافة لمحمد بن الحنفية بعد على ،ويختلفون فيمن بعده فقسم يقول بانها رجعت الى اولاد الحسن والحسين وقسم يقول بانتقالها لابى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية .ومن هؤلاء فرقة (الكربية) التى تعتقد بان محمد بن الحنفية لا يزال حيا وهو الامام المنتظر .

٢ — الزيدية :

هم اشياع زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . ويعتقدون بامامة زيد ويرضون بامامة من جمع فى نفسه هذه الستة شروط ، العلم والزهد والسخاء والشجاعة وجمال الطلعة ؛ وكان من اولاد فاطمة حسنياً او حسينياً ، ويتفق اشياع هذه الفرقة مع المعتزلة فى جميع المسائل ما عدا الامامة . ولهم اربعة اقسام :

١ — الجارودية ، هم اشياع (ابى الجارود) او (ابى النجم زياد بن المنذر العبدى) ويعتقدون ان صاحب الشريعة نص على امامة على بالوصف —لا بالتسمية —ويحكمون بكفر من امتنع عن البيعة لعلى والحسن والحسين .

٢ — الجريرية . وهم اتباع (سليم بن جرير) . ولا يعتقدون بكفر الناس الذين لم

يبايعوا علياً ، ولكنهم يقولون بأنهم مخطئون لتركهم الافضل وهو على ٣ — الابترية ، وهم اشياع (حسن بن صالح بن كثير الابتر) ويزعمون ان علياً هو الأفضل ، والاولى بالامامة . ومع ذلك فأن ابا بكر امام ، ولم تكن امامته خطأً ولا كفراً ، بل ان علياً تركها له . ٤ — اليعقوبية هم اتباع (يعقوب) ويقولون بأمامة ابى بكر وعمر ويتبرؤن من الذى يتبرأ منهما . وينكرون رجوع الاموات الى الدنيا قبل يوم القيامة ويتبرؤن ممن يأخذ بهذا الاعتقاد . وانهم يفضلون علياً على ابى بكر وعمر دون ان يتهمون احداً من الاصحاب بالفسق او الكفر ، ولا يطعنون فى احد منهم ولا يلعنون .

٣ — الامامية :

يعتقدون بأن الامامة بعد صاحب الشريعة منصوص عليها لعلى واولاده ، وبعضهم يقول بأرتداد الاصحاب الكرام ماعدا على والحسن والحسين ، وابى ذر الغفارى ،وسلمان الفارسى ، وبضعة اشخاص من الصحابة .

وهذه الفرقة تتفق على امامة الائمة من على الى (جعفر الصادق) اى [على بن ابى طالب ، حسن بن على ، على بن حسين، محمد بن على ،جعفر بن محمد الصادق].ويختلفون فيمن بعدهم . لان لجعفر الصادق خمسة ، وعلى رواية ستة اولاد [*] . محمد ، اسحق عبد الله ، موسى ، اسماعيل ، على . واختلف فى من يجب ان تنتقل اليه الامامة بعد هؤلاء الستة . وبعضهم يعتقد بتوالى الامامة وتتابعها فى اشخاص معينة، ومنهم من يقطع السلسلة ويقف بها على حد . ولم يلبث ان طرأ عليهم الغلو وتفرقوا فرقاً كثيرة ؛ منها فرقة « القطعية » ، وهى تعتقد بتسلسل الامامة فى « على ، والحسن والحسين ، وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر ، وعلى بن موسى » ثم تنقطع السلسلة وتقف على هذا الحد .

(التاوسية) تعتقد بأن جعفر بن محمد لم يمت ، وهو لم يزل حياً .

(الشميطية) اتباع يحيى بن شميط الاحمس ، ويعتقدون ان الامامة انتقلت بعدجعفر لابنه محمد واولاده .

(المعمرية) اتباع معمر ، يعتقدون ان الامامة انتقلت بعد جعفر لابنه عبد الله ومنه لاولاده .

(الموسوية) : يعتقدون ان الامامة كانت بعد جعفر لابنه موسى ، وان موسى لم يزل حياً ، وهو الامام المنتظر .

(الزرارية) اتباع زرارة بن اعين ، يذكرون ان الامامة بعد جعفر كانت لابنه عبدالله ،

---

[*] كتاب الملل والنحل ، للشهرستانى

وانه سؤل عن اسئلة فعى عن الجواب ، فكانت لاخيه موسى ، ويقولون ان عبـد الله اقر بذلك .

(المفضلية) : اتباع المفضل بن عمرو ؛ يعتقدون بأن الامامة كانت بعد جعفر لابنـه موسى ثم انتقلت بعد وفاته لابنه محمد بن موسى .

(المفوضة) ؛ يعتقدون بان الله خلق محمداً ، وفوضه خلق العالم وادارتهم .

(الاثنى عشرية) ، وهم يقولون بانتقال الامامة من جعفر الصادق الى موسى الكاظم ثم الى على بن موسى الرضا ، ثم الى محمد بن على النقى ، ثم الى على بن محمد النقى ، ثم الى الحسن بن على الزكى ، ثم الى محمد بن حسن العسكرى المعروف عندهم بالمهدى . ويعتقدون انه اختفى فمنهم من يقول بوفاته ومنهم من يعتقد خلافها ، وينتظرون رجوعه.

(الاسماعيلية) وهذه شعبة من الامامية . تعتقد بان الامامة بعد جعفر الصادق هى لابنه اسماعيل بن جعفر . وقد طرأ الغلو على معتقد هذه الفرقة . وخرجت عن شكلها الاساسى. واننا سنبين هذه النقاط على وجه التفصيل . ومن هذا نعلم ان الاسماعيلية هى من الامامية باعتبار الاصل . ثم انقلبت الى (غالية) ومن فروعها (المباركية) التى تعتقد بامامة محمد بن اسماعيل بعد ابيه و(الباطنية) وهم يقولون بانتقال الامامة بعـد محمد بن اسماعيل الى ائمة خافية وباطنية : فالاسماعيليون الذين هم من غلاة الشيعة هم هؤلاء [*]

٤ — الخطابية :

هم شيعة « ابى الخطاب محمد بن ابى زيب الاسدى الاجدع » ومذهبه الغلو فى محمد بن جعفر الصادق . وهو من المشبهة ايضاً . وتنقسم هذه الفرقه الى خمسين شعبة كلهم متفقو الرأى فى المواد الآتية :

« ان علياً واولاده من الائمة كلهم انبياء. ويجب ان يكون لكل امة رسولان، الواحد « ناطق » والآخر « صامت » . فمحمد كان رسولاً « ناطقاً » وعلى رسولاً « صامتاً » . وان جعفر بن محمد الصادق نبى ايضاً وانتقلت النبوة بعده الى « ابى الخطاب الاجدع »

اما فرقة « المعمرية » من الخطابية . تقول بان الامامة انتقلت من ابى الخطاب الى « معمر ». وان الدنيا ليست بفانية . وان الجنة هى التنعم بخير الدنيا . وجهنم هى الحرمان منه. ويستحلون من المحرمات الخمر والزنا . ويقولون بجواز ترك الصلاة . ويعتقدون التناسخ . ويزعمون ان الانسان لايموت . ولكن تنتقل صفاته واحواله الى غيره .

وفرقة « البزيغية » . تقول ان « جعفر بن محمد آله » . وهو على غير الشكل الذى يرى فيه . وهو ترآى بهذا الشكل . وان الوحى ينزل على كل مؤمن . وكل فرد من اتباع الفرقة

[*] ان الفرقة التى سنبحث عنها على وجه التفصيل هى هذه

هو خير من جبرائيل وميكائيل ومحمد ، ولا بد لمن مات ان يظهر »

ويدعى هؤلاء ان جعفر بن محمد الصادق ترك لهم كتاباً يسمى « الجفر » ، وانه يحتوى من « علم الغيب » و « تفسير القرآن » على جميع ما يحتاجون اليه .

ويذهبون الى ان المراد من كلمة « بقرة » فى آية « ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة » هى عائشة ام المؤمنين ومعنى « الخمر والميسر » هو ابو بكر وعمر .

٥ — السبائية :

هم اشياع عبدالله بن سبا . وسبق لهذا ان خاطب علياً رضى الله عنه وقال له « انت آله » ،

٦ — « الكاملية » :

هم اشياع ابى كامل ، وهذا يكفر جميع الصحابة لامتناعهم عن البيعة لعلى ، ويكفر علياً ايضا لانه ترك قتالهم. وهو يقول بانتقال الانوار الالهية الى الائمة على طريقة التناسخ .

٧ — البيانية :

هم اتباع « بيان بن سمعان » ، ويعتقدون بحلول الروح الآلهية فى الانبياء ، ثم فى على ، وبعده فى ابنه محمد بن الحنفية ، وبعده فى ابنه ابى هاشم عبدالله بن محمد ، وبالنهاية فى « بيان بن سمعان »

٨ — المغيرية :

هم اشياع « مغيرة بن سعيد العجلى » . ومغيرة هذا ادعى ان الامامة بعد محمد بن عبدالله بن حسن انتقلت له . ولم يلبث ان تنبأ وادعى ان معجزته علمه بالاسم الاعظم ، وانه يقتدر على احياء الموتى . ويزعم ان الله لما شاء خلق العالم ، كتب اعمال عباده باصابعه ؛ فاغضبته المعاصى ، وعرق ، فكان من عرقه بحران ، الواحد عذب ، والآخر أجاج فخلق من العذب « الشيعة » ومن الاجاج « الكفار » ؛ وان المهدى الذى هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب سيظهر بعد .

٩ — الهشامية :

على قسمين . الاول اشياع « هشام بن الحكم » ، والثانى اتباع « هشام الجولقى » . وهم يعتقدون ان العصمة لا تجوز فى الائمة ، وتجوز فى الانبياء ، ويزعمون ان محمداً عصى ربه بقبول الفدية من اسرى بدر ، وهذه الفرقة من « المشبهة » ايضا .

١٠ — الزرارية :

هم اتباع « زرارة بن اعين » ، وهذا يعتقد ان الله لم يكن عالما وقادراً ، بل احرزهما بالكسب .

١١ — الجناحية :

هم اشياع « عبدالله بن معاوية ذى الجناحين » . وهذا يزعم انه آله ، وان العلم ينمو فى قلبه ، وان الروح الالهية تجلت فى الانبياء ، ثم فى على واولاده ، ثم انتقلت اليه . واحل الخمر والميتة ، ونكاح المحارم ، وانكر القيامة ، ودليله على هذا قوله تعالى [ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فى ما طعموا اذا ما تقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » الآية . ويعتقدون ان الميتة والدم ، ولحم الخنزير فى الآية هى رموز للكناية عن الذين يجب بغضهم . وهم ابو بكر وعمر وعثمان ومعاوية . والفرائض التى امر بها القرآن . هى ايجاب موالاة من تجب موالاتهم كعلى والحسن والحسين واولادهم.

١٢ — المنصورية :

هم اتباع « ابى منصور العجلى » . وهذا يزعم ان الامامة انتقلت اليه من محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن حسين ، بن على بن ابى طالب . ويعتقد ان على بن ابى طالب واولاده هم من اهل الجنة ، وان ابا بكر وعمر وعثمان ومعاوية هم من اهل النار .

١٣ — الغرابية :

يزعم اشياع هذه الفئة ، ان جبريل بعث بالرسالة الى على فأخطأ وذهب بها الى محمد ، ولهذا لا يزالون يلعنون « صاحب الريش » اذا خلوا بانفسهم ، ويقصدون من « صاحب الريش » جبرائيل .

١٤ — الذمية :

يزعم اشياع هذه الفئة ان الله بعث علياً بالنبوة ، وارسل محمداً ليصدع بامر على ولكن محمداً ادعاها لنفسه ، وارضى عليا بتزويج ابنته اياه ، وباقداره بالمال .

ومنهم « العليانية » من اتباع « عليان بن زراع السدوسى » يفضلون علياً على محمد ، ويذمون صاحب الشريعة ، ومنهم من يدعى بالوهية محمد وعلى معاً ويرجحون محمداً فيها . وتسمى فرقتهم « الميمية » . ومنهم من يقول بالوهية « محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين » معاً ويعتبرونهم « شيئاً واحداً » ، وان روح الالوهية حلت فيهم على السوية ، وليس لاحدهم افضلية على الآخرين .

١٥ — اليونسية :

هم اتباع « يونس بن عبدالله القمى » من غلاة المشبهة . ويزعمون ان الملائكة تحمل العرش ، والعرش يحمل الرب .

١٦ — الرزامية :

هى فرقة « رزام بن سابق » وهذا يقول بان الامامة انتقلت بعد على لابنه محمد بن الحنفية . ثم لابنه ابى هاشم ، وبوصاية منه الى على بن عبدالله بن عباس ، ومنه لابنه محمد

بن على ، وبالوصاية لابنه ابراهيم . ودعوة ابى مسلم الخرسانى كانت باسم ابراهيم هذا .

١٧ — النعمانية :

وتسمى بـ « الشيطانية » ، وهى من المعتزلة ايضا .

١٨ — البسلمية :

ان اشياع هذه الفئة تقول بانتقال الامامة بعد صاحب الشريعة الاسلامية الى على ، ثم على الترتيب الى الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وابى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وبالوصاية الى على بن عبد الله بن عباس ثم الى ابى العباس السفاح ، ثم الى ابى سلمة . وقد ظهر فى ناحية « كش » فى ما وراء النهرين شخص يدعى هاشم من اهالى مرو ، وادعى الوهية ابى سلمة ، وان الالوهية انتقلت من ابى سلمة اليه . ولما رأى انطلاء خدعته تغيب برهة حيث جعل لنفسه نقابا من ذهب ، واتخذ مرآة من زجاج ، تعكس اشعة الشمس ، فكان يسلط شعاعها على بعض مريديه ويحرقهم بها . وبهذا استطاع ان يتسلط على مخيلتهم فاعتقدوا فيه الالوهية ، وزعموا ان النظر لا يستطيع اقتحام رؤيته :

١٩ — الجعفرية ؛ ٢٠ — الصباحية .

ويعتقد هؤلاء عدم وجود النص فى امامة على ولهذا لا ينكرون امامة ابى بكر . بل يعتقدون ان علياً افضل منه .

*
* *

وقصارى القول : اذا اضفنا لما بحثنا عنه من الفرق . فرقة « الكرمية » و « الزيدية » التى ظهرت فى انحاء اليمن ، وفرقة « الوهابية » التى انتشرت فى نجد ودرعيه ، والفرقة التى عرفت بقدحها فى قريش ، وظهرت فى اصقاع عمان ، نطلع على حقيقة هذه الفرق التى ما زالت تزج بالاسلامية منذ بدايتها فى تيار الهلكات حتى اهوت بها الى حضيض الوهن والضعف .

وبهذا تمكنا من تدميث خطة نتطرق عليها اثناء الفحص عن اساس مذهب « الاسماعيلية ، والنصيرية » الذين هما من غلاة الشيعة ، ونستعين بها على ارجاع هذه الفروع لأصول مستقرة ، ثم نتمكن من تعيين موقعهم بين الفرق الاسلامية الاخرى .

[٢] — ***كيفية ظهور الاسماعيليين وانتشارهم*** — سبق لنا ان ذكرنا اثناء البحث عن فروع الفرقة « الامامية » ان فئة « الاسماعيليين » هى من غلاة الشيعة التى تعتقد بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق واولاده . واشياع هذه الفئة يعتقدون — كما سنفصل بعد — ان الامامة انتقلت عن اسماعيل ، لابنه « محمد المكتوم » وثم لابنه « جعفر المصدق » وبعده الى « محمد الحبيب » وهو الذى انتشر فى زمانه مذهب الاسماعيليين ، وكثر رواجه.

كان محمد الحبيب يسكن قصبة « السليمية » القريبة من حمص فى سورية . وكان محباً للشهرة وسعى السعى الحثيث لنشر مذهبه بواسطة الدعاة والمبشرين . ودأب لتأييد سلطان دينه ومكانته . وانتدب لهذه الوظيفة فى العراق « عبدالله بن ميمون القداح » المنجم ، ويروى انه كان خادم مزار الحسن رضى الله عنه [*] وكان عبدالله هذا ابناً لميمون القداح من اهل العراق المتظاهر بالشيعية ، مع انه مجوسى فى الباطن .

اقبل ابن ميمون على تحصيل العلم منذ حداثتـه ، وما لبث ان توغل فى امور الدين ومباحث الفلسفة ، فاطلع على شنشنة المجوس المذهبية ، وعلى عقائد زردشت ، واحاط علماً بفلسفة قدماء اليونان ، ودرس مذهب الصابئين ، ودين المسيحيين . وقد كان له المام فى العلوم الطبيعية ومهارة فى الطبـابة العينية . وكان مطبوعاً على خصائص المجوس لانه ولد مجوسياً وهو الرئيس السرى لفرقة « الغبارية » من المجوس.

ذكر فى كتاب « شرح المواقف » ان قد التأم فى احد الايام مجلس هذه الفرقة تحت رياسة ابن ميمون ، وبحث فيه عن ما اصاب المجوس من الوهن والاضمحلال منذ ظهور الدين الاسلامى ، واتخذ فيه هذا القرار :

— « سخر المسلمون بلادنا ومزقوا حكومتنا وما لنا من سبيل لنقهرهم حرباً . بل نستطيع بث الضغائن ودس الشقاق بينهم بالحيل والخدع . فعلينا ان نتأول فى الدين لنخرج به عن جادة يقينه . ونضل الجاهلين من المسلمين بزخارف القول فنبث فيهم باسم الاسلامية روح المجوسية ، وهذه هى الطريقة المثلى التى ننتقم بها لانفسنا ونعيد بها للدين « الفارسى » مجده القديم وشنشنته الغابرة . [**]

واحيل انفاذ هذا القرار الذى اجمع عليه المجوسيون على الرئيس « ابن ميمون » . ورأى ابن ميمون ان مذهب « الاسماعيلية » هو نعم الوسيلة لتحقيق تلك الآمال ، فتقرب من محمد الحبيب ، واتفق معه بسهولة . وعليه نهض عبـد الله بن ميمون فى اواسط القرن الثالث للهجرة[*] ورسم الخطوط الاساسية لطريقتيه الظاهرية والباطنية . وعمد الى اسس دينه التى سماها « الدعوة » فجعلها على تسع مراتب . وذهب الى « الاهواز » من بـلاد فارس واخذ يدعو الناس الى مذهبه باسم الامام « محمد بن اسماعيل ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن زين العابدين ، بن الحسين ، بن على بن ابى طالب » واولاده . ثم خيم فى « عسكر مكرم » حيث ظفر بالاموال الطائلة . والشهرة الرنانة وعظم سواد شيعته واتباعه :

[*] M. R. Memoire sur les trois plus famenses sectes du Muslumanisme (Paris 1818)

[**] راجع (خرافاتدن حقيقته — م . شمس الدين)

ان مذهب « الباطنية » الذى اوجده « ابن ميمون » كانت اسباب نجاحه مهيأةً من قبل . لان ابن ميمون اسس هذا المذهب المتظاهر بالشيعية على « حب على » ايضاً . وحصر الامامة فى اولاد على ؛ وفى هذا الزمن الذى مافتئت فرقة « الشيعة » ، و« غلاة الشيعة » تبالغ فيه بالدعوة لعلى واولاده . توفر لابن ميمون اناس كثيرون ممن اقبل على مذهبه واجاب دعوته .

وبما ان « عبد الله بن ميمون » « اسماعيلى » النزعة . كان مفترقاً عن الشيعة . ولا سيما عن فرقة « الامامية » لاول وهلة .

ان اشياع فرقة « الامامية » لم يختلفوا — كما بينا سابقاً — فى كون الامامة لعلى بن ابى طالب . ثم لابنه الحسن من بعده . وبعده لاخيه الحسين ولابنه زين العابدين ، ثم لمحمد الباقر . وبعده لجعفر الصادق . ولكن ينحصر اتفاقهم فى امامة هؤلاء الستة فقط ثم يختلفون : فيقول قسم منهم بنزع الامامة من اسماعيل بن جعفر الصادق لانه توفى قبل ابيه . ويخصون بها بعد جعفر اما ابنه موسى الكاظم ، او احـد اخوته . ومن هؤلاء فئة يعدون اثنى عشر اماماً . ويقفون عند الأخير وهو « المهدى » الذى يعتقدون تغيبه . وهذه فئة « الاثنى عشرية » من فرقة الامامية .

ويقول القسم الآخر من الامامية :

« ان حق الامامة بعد جعفر الصادق ، هو لابنه اسماعيل بناءً على وصية ابيه . وهذا يقضى بحصرها فى اولاده ولو كانت وفاته قبل ابيه . لان الوصاية توجب ذلك » . وعليه يعتقد هؤلاء بامامة اسماعيل بن جعفر . وبانتقالها لابنه محمد من بعده . وهؤلاء هم « الاسماعيليون » احد اقسام الفرقة الامامية . وقد تمكن « ابن ميمون » بانتمائه لهذه الفرقة من جلب الشيعيين لطرفه . على انه كان فى اشد الحاجة الى عوامل تمكنه من الوصول الى غايته الاساسيـة . وتؤمن له النجاح فى طريقته الحقيقية . وبما انه جمع بين الفراسة والحنكة . لم تعزب حالة المحيط الروحية عن تقديره . وعلم ان افكار العراقيين والايرانيين المنكبين على اساطير العجم ، وخرافاتهم الخياليه ، تتطلب عقيدةً خيالية ايضاً ، تطرقها مسالك الاضلال . ولذلك رأى من الضرورة ان يضيف الى عقيدة « الاسماعيلين » مقـداراً من الخيال ، وشيئاً من الاسرار المبهمة وساعده على القيام بهذا العمل ، ان الائمة بعد اسماعيل بن جعفر لم يكونوا معروفين لدى الناس . فكان يقول بانتقال الامامة بعد وفاة جعفر الصادق الذى توفى ابنه اسماعيل فى حياته ، الى محمد (المكتوم ابن اسماعيل) . فيؤيد اعتقاد الاسماعيليين به من جهة ويزعم ان الامام اما ان يكون (ظاهراً) او « مستتراً وباطناً » ، وبه يفتح اول نافذة من ايوان الخفاء من جهة اخرى .

[*] جاء فى (La grande Encyclopédie) ان هذا كان سنة ١٨٦٤ ميلادية

كان يقول :

— الامام مجبور على « الاستتار » اذا لم يكن ذا قوة وسلطان ؛ اما الدعاة فيظلون ظاهرين ؛ ليكونوا دليلاً على وجود الامام . وقد يظهر الامام ، ويصدع بالدعوة متى حظى بقدرته وسلطانه ولهذا فان كلاً من « محمد المكتوم » خليفة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وابنه « جعفر المصدق » وابنه « محمد الحبيب » . امام مستتر . ولا بد لهكذا امام مهما تأخر . ان يظهر متى رأى مساعدةً فى الظروف — ان هذه العقيدة كانت موضع اعجاب واستحسان لدى الناس ؛ لانها تهيج المخيلة . لاسيما وان الاعتقاد بالامام المنتظر . والمهدى والمسيح الموعود . — الخ كان متفشياً بين السواد الاعظم من الناس. ولا يزال السنيون ينتظرون المهدى ؛ واليهود المسيح الموعود ؛ والنصارى روح القدس . وبهذه العقيدة كان ابن ميمون متسرباً بالاسماعيلية الى طريقة جديدة . او بالاحرى كان مؤسساً طريقة « الباطنية »

وكان ابن ميمون مجبوراً على وضع اسس تجتذب جميع الطوائف الموجودة الى نقطة واحدة . لان هذه الشعوب المتباينة فى القومية . والآمال ؛ المنبثة فى العراق وبلاد العجم لم يزل اكثرها مشغوفاً بالاساطير والخرافات رغماً عن اعتناقها الدين الاسلامى .

فكان الناس مزيجاً من ملحدين لايدينون بدين ؛ ومن فضالة للايرانيين افنت الدهور وهى على عقيده زردشت ؛ ومن مانويين تناصفتهم المجوسية والنصرانية ؛ومن اناس استحوذت عليهم عقيدة الصابئة . وكان الجهل مخيماً على الجميع . وزد على ذلك ماشهده اولئك الاقوام من المسارح الدموية التى نفثت فى الطباع روح الثورة . وشحنت القلوب بكراهية هاتيك المؤسسات الاجتماعية والنفرة منها . ولهذا ما كان بالصعب جمع هؤلاء الى نقطة واحدة . وتلقيحهم بفكرة الالحاد التى توهن الاساسات الاسلامية وتودى بها .

اهتم ابن ميمون فى مسألة الاسرار والغوامض ؛ واستفاد مما اذاعته الخطابية وغيرها من احزاب « غلاة الشيعة » من الآراء فى معانى القرآن . فكان يقول :

— ان للقرآن مدلولين ؛ ظاهرى وباطنى ، فالمعنى الظاهرى واللغوى ليس هو المقصود بالذات ، والتمسك بهذا المعنى يوجب العذاب والمشقة ، اما الاخذ بالمعنى الباطنى فهو يوجب الانشراح والسعادة لانه يقضى بترك التكاليف . والاعمال الظاهرة — وكان ابن ميمون يدس هذه الفكرة بصورة خفية . وباطنة . وما كان يتظاهر بها تجاه غير الاسماعيليين . ولذلك كانت هذه الطريقة مبالغ فيها بالباطنية وهكذا تدرج مذهب الباطنية بالاتساع . ودخل فيه كل فاسدى العقائد . وجميع المستائين . ووجد فيه من دخل بسائق حب آل البيت . وآخرون تعلقوا بأهدابه تخلصاً من التكاليف الشرعية ؛ وكان معظم اشياعه ممن حركتهم العصبية القومية . واهاجتهم خواطر الاسلاف .

اضاف مؤسس (الباطنية) — كما سنفصله بعد — لمؤسسته الحديثة بعض اسرار من آثار المجوسية . وهذه الاسرار كانت محشودة فى عدد « السبعة » . ولذلك اضيف لاسم (الاسماعيلية) و (الباطنية) اسم (السبعية) .

وسبب تسميتهم بهذا الاسم ؛ هو انهم يعتقدون ان عدد الائمة (سبعة) كعدد ايام الاسبوع ، وعدد السماوات والكواكب ؛ وان عدد الرسل الناطقة ايضاً سبعة . ويزعمون وجود سبعة ائمة بين كل رسولين ناطقين لاجل اتمام الشريعة ؛ وان كل ناطق ينسخ شريعة الناطق السابق ، ثم يأتى الائمة السبعة فيتمون هذه الشريعة . ويسمون الائمة السبعة بالائمة (المستترة) وما عدا هؤلاء لا بد من وجود سبعة اشخاص يقتدى بهم فى كل زمان :

١ — الامام ؛ يستمد فيوضه من الله .

٢ — الحجة ؛ يستمد من الامام ، ويكون حجة لوجوده .

٣ — ذو المصة ؛ يأخذ العلم ، ويمتصه من الحجة .

٤ — الداعى الاكبر ، هو اعظم المؤمنين .

٥ — الداعى المأذون ؛ ياخذ « العهد » ممن يشاء ان يدخل فى الدين من اهل الظاهر ويدخله فى ذمة الامام ، ويؤذن ليفتح لهم باب العلم والمعرفة .

٦ — المكلب ؛ من علت مرتبته فى الدين ، ولم يؤذن « للدعوة » ؛ وهو يعاون الداعى .

٧ — المؤمن ، من اتبع الداعى ، وآمن بالعهد واستيقن به ودخل فى ذمة الداعى وحزبه ، اى فرقته .

فاعتقاد الاسماعيليين بسبعة رسل وسبعة ائمة وسبع مراتب فى المذهب ، كان سبباً لتسمية هذا الدين الذى ما زال يطرق المجهولات بالسبعية .

كان ابن ميمون — كما سنرى بعد فى البحث عن تعاليمه الدينية — يستعين بالنظريات الفلسفية ، والتعاليم الاشتراكية والخوارق للنواميس الطبيعية ؛ ويعمد الى تكاليف الشرع فيطمسها بمعنى باطنى ويهوى بها الى العدم . واخذ اللادينيون يدخلون فى دينه افواجاً وزمراً حتى تمكن من الاقتراب لنيل آماله ومقاصده .

وقصارى القول ، ان تعاليم « ابن ميمون » كانت بالنظر للعقائد الاسلامية بمثابة القنبرة المدمرة . لان كل من دان بها كان ناشطاً من عقال الشريعة ، ومستحلاً حرماتها وواضحا لدستور الاشتراك فى الاموال والاعراض .

ظهر عبدالله بن ميمون فى اواسط القرن الثالث للهجرة فى « الاهواز » ؛ وخيم فى « عسكرمكرم » ، واخذ يجاهر فى الدعوة ، الى ان عظم سواد زمرته واشياعه ثم راى ان

ينحى بالقوة على من خالف دعوته ، وتهيأ للتسلط عليهم ، ولكن ما لبث ان باء بالفشل واضطر الى الفرار فقدم البصرة ومعه من شيعته « حسين الاهوازى » . ولم يلبث فيها الا قليلاً حتى شاع امره وصدف ان جاءه الامر بالحضور الى « السليمية » فلبى وذهب اليها واقام هناك يثابر على نشر الدعوة الى ان ودع الحياة .

لما توفى عبدالله بن ميمون ، اناب «محمد الحبيب» مكانه «حسين الاهوازى» وارسله الى انحاء العراق لكى يستأنف الدعوة .

ظهر فى العراق فى اواخر القرن الثالث للهجرة «حمدان» بن «الاشعث» الذى كان يلقب بـ « قرمط» لانضمام اطرافه وقصرها وتقارب خطوه ؛ (*) وتوفق لنشر الديانة الاسماعيلية ، والعقائد الباطنية فى انحاء الكوفة ، وكان ذلك بايعاز من « حسين الاهوازى » .

ما لبثت دعوة «حمدان بن قرمط» ان تفشت وانتشرت مسترسلةً فى اصقاع العراق والبحرين ، ذلك لان اهل العراق كانوا على غاية الضجر ونهاية الكراهية للهيئة الاجتماعية بسبب ما ينتابهم من الظلم ، وما كاد «حمدان» يجهر بتعاليمه الاشتراكية حتى تشيع له جم غفير من الناس . لاسيما وان مذهب «المزدكية» الذى انتشر فى ايران ، امال الافكار الى قبول هذه التعاليم بما لقنه من فكرة الاشتراك ايضاً .

ولهذا السبب سميت شيعة «حمدان بن قرمط» باسم «القرامطة» على ان الروايات فى منشأ كلمات «قرمط» و«قرامطة» لا تزال متعارضة .

ان مجلة المشرق الصادرة فى « ايلول ١٩٠٧» ، بحثت عن كلمة «قرمط» وانكرت الرواية التى يزعم فيها انها اسم لقرية قديمة من اعمال واسط الواقعة بين بغداد والبصرة (**) وقالت انها كلمة «نبطية» بمعنى الخبيث والملوث :

اما ابن الجوزى المؤرخ ، فقد ذكر فى معنى كلمة «قرامطة» ستة اوجه :

١— ان تسمية اشياع هذا الدين العراقى «بالقرامطة» ناشئة عن اسم مؤسس الدين وهو «محمد الوراق المقرمط» .

٢— كان لهم رئيس نبطى يدعى «قرمطونه» ، ولذلك كان اسمهم « القرامطة» .

٣— حل بعض اشياع هذا المذهب ضيفاً عند شخص يدعى « كرميته» فنسب اسمهم اليه .

(*) كتاب سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان — نوفل نعمة الله.

(**) راجع كتاب (J, de Goeje Memoire sur les Caramathes du Bahraïn et les Fatimides).

٤— ابتاع بعض « دعاة » هذا المذهب بقرةً من رجل اسمه « قرمط بن الاشعث » ، ثم ادخلوه فى دينهم فسموا بالقرامطة .

٥— ان قرمطاً كان عاملاً لاسماعيل بن جعفر ، وهو الذى اسس هذا المذهب ، فنسب الاسم اليه .

٦— وضع هذا الاسم نسبة الى « حمدان بن قرمط» من اهل الكوفة ، ويزعم ان حمدان هذا كان رجلاً زاهداً ، فادخله دعاة الباطنية فى دينهم .

ونرى ان اكثر المؤلفين يرجحون القول الاخير من بين هذه الاقوال المتعددة .

علماً مما مر ان الاسماعيليين استحالوا الى (الباطنية) اولاً ، ثم الى (القرامطة) وقد قام (ذكرويه بن مهرويه) من رؤساء هذه الفئة ، واسس حكومة القرامطة التى كانت عبارة عن شرذمة ثورية ، فامعنت فى سفك الدماء ، واصبحت ترهق البلاد طغياناً ، وفساداً . (*)

عمد الاسماعيليون لنشر دينهم فى العراقين وايران بواسطة الباطنية والقرامطة ، ثم اتجهوا بانظارهم الى مصر وبلاد المغرب ، فبثوا من تعاليمهم فيها ما جعل لهم الاشياع الوافرة .

قام بالدعوة الاسماعيلية فى بلاد المغرب « ابو عبدالله الشيعى » الذى لا يعرف الكلل ، وقد ارسله اليها (محمد الحبيب) نزيل « السليمية » . فلم يأل جهداً ببث تلك الدعوة الى ان كثر اشياعه واستحكم نفوذه ، وقهر الاغالبة حكام المغرب فى موقع « رقاده » . فخلى له الجو وتمكن من طرح اساس الدولة العبيدية .

* * *

يجب علينا البحث عن كيفية انتشار التعاليم الاسماعيلية فى انحاء العراق ، وما وراء النهرين ايضاً ، ليتم بها هذا الفصل :

ذكر المؤرخ (ابن خلكان) ، انه قد اشتغل فى نشر الديانة الاسماعيلية فى انحاء الاحساء بعد (حمدان بن قرمط) ، (ابو سعيد الجنابى) من اهالى (جناب) التابعة للبحرين . وفى انحاء توركستان وما وراء النهرين (ابو جعفر محمد بن على الشلمغانى) المعروف (بابن ابى الغراقر) ، وذلك فى ايام « المقتدر بالله » من خلفاء العباسيين ؛ وفى انحاء بغداد والعراق « حسين بن منصور الحلاج » المعروف بابى المغيث والمولود فى البيضاء من بلاد ايران . ثم عقبهم «ابو طاهر الجنابى » بن «ابى سعيد الجنابى» واصيبت الاسلامية من دعوتهم

(*) راجع تاريخ ابن الاثير جلد (٧—١٢) .

بما يكاد يزلزل مكانتها ، ولكن ما لبثت تلك الدعوة ان نكصت على عقبها بقتل بعض الدعاة ، واحراق البعض وضاق نطاقها ، وخمدت ثورتها .

*
* *

هكذا استطاع الاسماعيليون تعميم تعاليمهم فى برهة وجيزة،من اصقاع ايران الى اقاصى بلاد الغرب ، وعرفوا باسماء كثيرة ما عدا « الباطنية والسبعية والقرامطة » . فمنها « الملاحدة » لما كان لديهم من الالحاد ، و « التعليمية » منسوبة لتعاليم عبدالله بن ميمون المشهورة و « الخرمية » او « البابكية » نسبة الى « بابك الخرمى » الذى ظهر فى انحاء آذربايجان ؛ و «النزارية » بالنسبة الى « نزار بن المستضئ العبيدى » كما جاء فى تاريخ ابن خلدون ؛ و «الحشاشين » لان بعض مريديها كان يشرب الحشيش .

[٣] — **ملخص تاريخ الاسماعيليين** — سبق ان بينا كيفية ظهور الاسماعيليين فى القرن الثالث للهجره ، وصورة انتشار مذهبهم . نعم ان ما كانت تنشره الفرق الشيعية من الاعتقادات العلوية فى انحاء العراق وبلاد فارس وما جبلت عليه طباع الناس من حب الخرافات والانشغاف بالاساطير هيء للمذهب الاسماعيلى وسطاً مساعداً لتفشيه وشيوعه فما كادت تعاليمهم تندلق الا وسرت بسرعة البرق وانبثت فى ديار المغرب الى داخل بلاد العجم . وما مر عليهم قرنان الا وادركوا غايتهم ، واوجدوا هيآت سياسية لا بأس بمكانتها و حازوا قصب السبق باحداث الخلافة الشيعية وقوى سلطانهم وقهرهم لدرجة جرأتهم على مصارعة العباسيين ، ومعاركة السلاجقة و الايوبيين ، وخضبوا القرون الاربعة بما اهرقوه من الدماء الى ان اخذتهم صيحة التاتار ،ونزل عليهم هلاكوخان بضربته القاضية (سنة ٦٥٤ هجرية) [*]

تمزق شمل الاسماعيليين بعد هذا التاريخ ، وفقدوا نفوذهم السياسى ، واضطروا لان يعيشوا شتاتاً ، وزمراً مبثوثة فى انحاء متفرقة .

ويجب بعد هذا الاجمال العمومى ان نبحث عن الحكومات التى اسسها الاسماعيليون، ونذكر بعض وقايعهم السياسية والدنية .

١ . الدولة العبيدية

ان اهم عمل سياسى قام به الاسماعيليون هو تأسيس (الخلافة الشيعية العبيدية)المعروفة (بالدولة الفاطمية) التى حكمت بلاد المغرب ومصر والشام وانحاء الحجاز ، ودام سلطانها مائتين وسبعين سنة (من ٢٩٧ الى ٥٦٧) هجرية) .

(*) راجع (Journal Asiatique) المؤرخة فى حزيران سنة ١٨٤٩

ذكرنا ان (محمد الحبيب بن جعفر المصدق) ارسل « ابا عبدالله الشيعى » (سنة ٢٨٨ هجرية) الى بلاد المغرب ، وجعله مبشراً للدين الاسماعيلى . وكان « ابو عبدالله » رجلاً بعيد الهمة وخطيباً مصقعاً بيانه السحر الحلال . وما لبث ان سخر قلوب الناس وحببهم بنفسه وفى برهة وجيزة تمكن ان يصير اماماً لقبيلة « فطامه » فى بلاد الجزائر . وكان حكام تلك البلاد فى ذلك الزمن هم « بنو الاغلب » . تظاهر « ابو عبدالله » بانه مبشر بالمهدى الموعود ، واخذ يحرض الناس ويهيجهم على القيام ، والثورة ضد بنى الاغلب ليستولى على اموالهم واملاكهم ، وليحظى بوفرهم وثروتهم . وما طال الامد حتى اسعده الجد وظفر بآماله فانتزع من الاغالبه « رقاده » قاعدة بلادهم . ومتع مريديه بهاتيك الاموال الطائلة التى وعدهم بها .

كان الناس فى اشد الانتظار لقدوم المهدى ؛ وفى هذا الزمان توفى (محمد الحبيب) الذى ارسل (ابا عبدالله) الى افريقيا ، واوصى بالامامة لابنه (عبيدالله) وبلغ بانه «المهدى الموعود » . ثم ان « ابا عبدالله الشيعى » دعى « عبيدالله المهدى » ليحضر الى افريقيا . فما كان منه الا ان بادر للاجابة وخرج من السليمية فى زى تاجر . ولكن اطلع الخليفة العباسى « المكتفى بالله » على دخيلة امره ، فطير الاخبار الى جميع الانحاء بوجوب القبض عليه . فقبض عليه امتثالاً لامر الخليفة فى قاعدة بنى مدار وزج فى السجن . ولكن ما لبث ان وصل الخبر الى (ابى عبدالله) فمشى على بنى مدار بجيش عظيم ، واصدق مريدوه الحملة لانقاذ مهديهم من السجن ، واقتحموا قاعدة بنى مدار فاستولوا عليها ؛ واخرج المهدى من سجنه وبايعوه . وبها تأسست الدولة الفاطمية .

اما « ابو عبدالله الشيعى » فقد اراد ان ينتهز الفرصة . ويستفيد من ميل الناس « لعبيدالله » ومحبتهم له ، فيجعله ولياً ، ثم يصطفى السلطة لنفسه وآله . ولكن كان عبيدالله ادهى منه وايقظ فلم يمهله بل عمد اليه وخنقه ، فخلصت له السلطة وانتقل من بساط المشيخة الى عرش السلطنة » [*] واسس دولة عظيمة . [**]

اهتم عبيدالله واولاده فى الدرجة الاولى ، بادارة ملكه فى بلاد المغرب . ومع ذلك فان

---

[*] خرافاتدن حقيقته — م . شمس الدين .

[**] ذكر قاموس الاعلام كيفية تشكل الدولة الفاطمية على الوجه الآتى :

ولد فى قصبة « السليمية » من اعمال الشام رجل اسمه « سعد » وسمى نفسه « عبيدالله المهدى » وزعم انه من نسل محمد بن اسماعيل . سليل الاسرة العلوية . وان الخلافة له ، فتعقبه الخليفة العباس « المكتفى بالله » . فهرب الى بلاد المغرب . ولكن قبض عليه يسع بن مدار والى سجلماس بامر الخليفة وحبسه هو وابنه محمد نزار ثم ظهر رجل يدعى « ابا عبدالله » الشيعى فقتل اليسع وخلص عبيدالله ونزاراً من الحبس . واعلن خلافة عبيدالله ، وكانت قاعدة بلادهم قصبة « المهدية » التى هى فى جوار القيروان .

المذهب الاسماعيلى ، لم يزل آخذاً حظه من الانتشار فى انحاء افريقيا . حتى ان (يعقوب الكلس) وزير العزيز بالله جمع ما تلقاه من العزيز نفسه ومن (المعز لدين الله) من الاحكام ، والف كتاباً جمع فيه اسس عقائد الاسماعيليين (*) ، وكان كتابه المسمى « دعائم الاسلام » و« مختصر الوزير » على جانب عظيم من الاهمية .

وفى زمن « الحاكم بامر الله » من خلفاء الفاطميين (سنة ٣٩٥ هجرية) اسست مكتبة حافلة فى القاهرة ، قريباً من القصر الغربى ، تماثل مكتبة « بيت الحكمة » العظيمة التى اسسها العباسيون فى بغداد ، وسميت « بدار الحكمة » . او على رواية ابن خلدون « دار المعرفة » وخصص لها علماء من النجمين والنحويين واللغويين والاطباء برواتب معينة ، وفتحت ابوابها للقراء والمستنسخين والمؤلفين ؛ وكانت جميع اللوازم تعطى من قبلها مجاناً . ولهذا السبب كان يعتبرها البعض ، نوعاً من المدارس .

وكان الحاكم بامر الله يحضر علماء هذه المكتبة الى مجلسه ويأمرهم بالمباحثة والمحاورات العلمية واذن لهم فى اجراء المناقشات داخل المكتبة ايضاً . وقد اغتنم علماء الشيعة هذه الفرصة ، فاصبحوا يجاهرون بتلقين غايتهم الحقيقية لاسقاط الدوله العباسية فى المشرق ؛ ويدرسون التعاليم الاسماعيلية المؤسسة على تسع مراتب ، والتى استنبطت من مبادئ عبدالله بن ميمون الذى كاد ان يكون مؤسس الديانة الاسماعيلية (**) ولهذا السبب كانت دار الحكمة مهمة جداً . وان « حسن الصباح » مؤسس الحكومة الاسماعيلية فى الشرق كان متخرجاً فيها — كما سنبينه بعد — .

وقصارى القول ان « الدولة العبيدية » المعروفة بالعلوية نسبة الى على رضى الله عنه ، وبالدولة الفاطمية لانتسابها الى اولاد فاطمة رضى الله عنها — كما يزعمون — وان تكن جعلت همها الاكبر، سياسة حكومتها وادارتها ؛ واهتمت بالدين فى الدرجة الثانية ، فلها اليد البيضاء فى تاريخ الاسماعيلية من حيث تعميم الدين ونشره . وهى السبب لظهور مذهب الدروز الذى هم من غلاة الشيعة. (***)

٢ . حكومة القرامطة

ذكرنا اثناء البحث عن سبب تسمية الاسماعيليين (بالقرامطة) ، ظهور (زكرويه بن مهرويه) من دعاة الاسماعيلية المنسوب الى « حمدان بن قرمط » . وان زكرويه هذا اخلص الدعوة باسم الاسماعيليين ، واستطاع تزييد اشياعه وتكثير اتباعه (****) وكاد ان

(*) راجع تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان.
(*) اننا سنشرح هذه التعاليم التسعة ، اثناء البحث عن اسس الدين الاسماعيلى.
(**) راجع الصحيفة ٢٦ من كتابنا « ولايت بيروت — القسم الجنوبى » ، فى بحث الدروز.
(****) راجع دائرة المعارف لبطرس البستانى.

يكون بل كان المؤسس الاول لحكومة القرامطة .

هذا وان تكن حكومة القرامطة ، او بالتعبير الاصح حكومة الاسماعيليين ، اخضعت لسلطانها انحاء خوزستان والبصرة ، والكوفة والاحساء وتطاولت على بلاد الشام والحجاز ودامت الى سنة ٣٧٢ هجرية . ولكنها ما كانت حكومةً حقيقيةً ؛ بل طائفة دينية ثارت فى وجه العباسيين والمسلمين وكونت شرزمةً تتألف من ثوار دينية ، سياسية واجتماعية . (*)

انكسرت شوكة القرامطة بعد ان فتك بمؤسسهم (زكرويه بن مهرويه) (سنة ٢٩٤ هجرية) ، ولكن لم يتقاعس اشياعه عن العمل ، بل واصلوا السعى الخفى الى ان ردت قوتهم اليهم . وتأسست يومئذ حكومة العبيديين فى ديار الغرب على اشد ما يكون من المكانة . ووجفت من سطوتها قلوب العباسيين . فانتهز القرامطة هذه الفرصة ، ونهضوا الى استرداد مكانتهم الاولى ، فنجح مسعاهم وعظم كيدهم ، وما لبثوا ان اوغلوا فى اهراق الدماء ، وغلوا فى الفساد وما ادخروا وسعاً فى تخريب البلاد .

وقد ظهر منهم فى انحاء الاحساء رئيس اسمه (ابو على حسن بن احمد) . فتجول فى بلاد خوزستان ، والبصرة والكوفة . وبعد ان حصل على اشياع وفيرة ، جاهر بالقيام فى العراق العربى ، فاستولى على البصرة والكوفة ، ثم زحف على الشام ايضاً وامتلكها .

ومنهم « ابو طاهر بن سعيد الجنابى » الذى مر ذكره فقد ذهب الى الحجاز ، وصد المسلمين عن اداء فريضة الحج ، وفتك فيهم الفتك الذريع ، ثم اقتلع (الحجر الاسود) من جانب الكعبة ، وحمله الى البصرة .

ونهض بعض رؤساء القرامطة فى جهة البصرة والعراق والبحرين ، وحكموا فى تلك البلاد وجرعوا الخلفاء العباسيين انكد العيش .

وقد ازدادت شوكتهم وقويت سلطتهم فى زمن (بابك الخرمى) الذى ظهر فى انحاء آزربايجان ، ولم تزل دولتهم الى اواخر القرن الرابع للهجرة حيث اخذتهم صيحة (بنى الاصفر بن ثعلب) وانزلت عليهم تلك الضربة القاضية التى فرقتهم ايدى سبا ومزقتهم كل ممزق ،

٣ . الدولة الاسماعيلية الشرقية

ظل الاسماعيليون على ما هم عليه من الضعف والانحطاط منذ اندراس حكومة القرامطة الى اوائل القرن الخامس للهجرة . ثم تأسست الحكومة السلجوقية فى انحاء ايران (سنة ٤٢٩ هجرية ، وحملت على السلطة العباسية فابادتها فى تلك الاصقاع ؛ وعجز الخلفاء

(*) خرافاتدن حقيقته — م. شمس الدين .

العباسيون عن الدفاع فاصبحت البلاد عرضةً للغوائل ، والانحلال . ولم يهمل الاسماعيليون هذه الفرصة بل جددوا الهمة فى نشر معتقداتهم ، واخذوا يدأبون لتحقيق آمالهم السياسية ثم استولوا على قلاع العراق وايران ؛ وعادوا الى ديدنهم القديم فى سفك الدماء فقتلوا كل من وصلت ايديهم اليه . وفى زمن « ملكشاه بن آلب آرسلان » ثالث ملوك السلجوقيين [*]

وصلت دولتهم من المكانة والقوة الى درجة تستطيع بها مقاومة الدول المعظمة . وسميت بالاسماعيلية الشرقية ، لتتميز عن دولة الفاطمية المسماة بالاسماعيلية الغربية .

اسس دولة الاسماعيلية الشرقية فى ايران (حسن بن الصباح *Sabbah*) سنة ٤٨٣ هجرية الموافقة لسنة ١٠٩٠ ميلادية .

اما كيفية تاسيسها فكانت على ما يأتى :

ان « حسن بن الصباح بن على بن محمد بن جعفر بن حسين بن محمد يوسف الحميرى » منسوب ليوسف الحميرى من امراء اليمن (**) وقد ولد فى بلدة « رى » من بلاد العجم ، وتلقى علومه من الامام « الموفق النيسابورى » مع « نظام الملك » المعروف و « عمر الخيام » الشاعر الطائر الصيت .

تمكن حسن الصباح ان يكون حاجباً لآلب ارسلان السلجوقى ، وذلك بايعاز من نظام الملك . ولكنه كان مفطوراً على حب الرياسة منذ حداثته ، فما لبث ان اختلف مع نظام الملك ، وهرب (سنة ٤٦٤ هجرية) الى « الرى » ومنها الى (اصفهان) ثم الى العراق وآذربايجان ، ثم الى مصر حيث لقى الحفاوة والاعزاز من المستنصر الفاطمى . لانه شيعى المذهب .

كان يتردد على « دار الحكمة » مدة اقامته هناك ويدرس مذهب الاسماعيلية ، ثم اوجد فى هذا الدين بعض احكام جديدة ، وقام يدعو الناس اليه فى سورية وحلب وديار بكر ، وبغداد وايران وما كانت ضالتـه المنشودة الا الحصول على السلطنة التى ما زال مشرأباً اليها . فجعل الدين حجاباً يعمل من ورائه ، وما انفك يصيغ الحيل ، ويرجع الى الدسائس حتى قيض له الزمن (ابا الفضل اللبنانى) فاعانه على تسخير قلعة « ألموت *Almout* » (***) « سنة ٤٨٣ هجرية » فاتخذها قاعدة للدولة « الاسماعيلية الشرقية » التى خلفها .

ثم استولى على بضع قلاع بعد « ألموت » . واستطاع ان يحتفظ بكيانه ، ويدفع كيد السلجوقيين عنه بمناعة موقفه ورصانته . لم يتخذ حسن الصباح لنفسه اسم « سلطان » او

---

[*] كانت حكومة آلب آرسلان السلجوقى (سنة ٤٦٥ — ٤٨٥ هجرية)

(**) M. R. Memoir sur les trois plus fameuses secte du musllimanisme.

(***) ألموت ، معناها عش العقاب « آنسيقلوبه دى الكبير »

« امير » ، بل تسمى بـ « السيد » و « الرئيس » و « شيخ الجبل » ، ولم تكن دعوته لنفسه بل كانت لامام مستتر ، يزعم انه سيظهر فى الغد .

ما لبث حسن الصباح برهة وجيزة الا وعظمت سلطته وقويت شوكته ؛ وكثر اشياعه واستطاع جذبهم اليه وجمعهم حوله . واخضعهم لامره ونهيه . ومما يروى ان السلطان ملكشاه ارسل اليه رسولاً يدعوه لاطاعة الدولة السلجوقية والخضوع لامرها . فاستدعى بعض اتباعه على مرأى من الرسول

ثم قال لاحدهم :

اقتل نفسك ! ففعل :

وقال للآخر :

هيا ، اقذف بنفسك الى الواد ؛ ففعل .

ثم التفت الى الرسول فقال :

« بلغ ربك ، ان لى سبعين الفاً من هؤلاء » !

اقام حسن الصباح فى قلعة « ألموت » السنين الوافرة ، ولم يزل متظاهراً بالزهد والتقشف ؛ ولم يبرز من قصره الا مرةً او مرتين فى جميع عمره .

برهن حسن الصباح عن ذكاء حاد وبصيرة وقادة فى ما وضع من الاسس الدينية والسياسية وحشد حوله شرذمة من الفتاك فاصبح الاسماعيليون فى زمن حكمه الذى دام (خمسة وثلاثين سنة) على الدرجة القصوى من علو الكلمة ووفرة القوة . وقد فتك الاسماعيليون فى زمانه بكثير من الملوك والوزراء . منهم « المسترشد بالله » و « نظام الملك » وزير ملكشاه سلطان السلجوقيين وابنه « فخر الملك ابى المظفر » . وبهذا برهنوا على انهم من الفوضويين (نيهيلست *Nihiliste*) . واقتدروا على ارهاب ملوك السلاجقة ، ويروى . ان مملوكاً « لسنجر بن ملكشاه » سلطان السلجوقيين ، دخل المذهب الاسماعيلى ؛ ولما ازمع على الفرار ، اخذ سكيناً وغرسها فى الارض قريباً من رأس السلطان وهو نائم ، ثم هرب والتحق بالاسماعيليين . فارسلوا الى السلطان سنجر كتاباً من ألموت ، يقولون فيه :

— لو شئنا قتلك ، ما غرسنا السكين فى الارض ، بل فى صدرك !

ومنذ اطلع السلطان سنجر على هذا الكتاب ، ارتدع عن حرب الاسماعيليين وهاب جانبهم ؛ ثم صالحهم ووصلهم بالعطايا الوافرة .

توفى حسن الصباح سنة (٥١٨ هجرية) بعد ان عاش تسعين سنة ، وحكم خمس وثلاثين عاماً . وكان كما قال محسن « الكشميرى » :

[لم ينتقل من دار الاسلام ، الى دار الرضوان ؛ بل كشط من وجه الارض التى جعلها

موطناً للفوضى، الى لعنة ربه] .

وقد كان سفاكاً ، وبلغ من حبه لاهراق الدماء ، ان قتل اثنين من اولاده بلا سبب.

دامت دولة حسن الصباح الى ان استولى هلاكوخان على قلاعهم وهدمها سنة ٦٥٤ هجرية و« ١٢٥٦ ميلادية » (*) ، وقد جاء من هذه الدولة المعروفة « بملاحدة الاسماعيليين» و« الحشاشين» ثمانية ملوك ، ها هى اسماؤهم. (**)

١ — حسن الصباح ؛ حكم خمس وثلاثين سنة «٤٨٣ هـ —٥١٨ هـ » .

٢ — كيابزرك اميدرودبارى ؛ صار رئيساً بوصاية حسن الصباح وحكم اربع عشر سنة «٥١٨—٥٣٢» .

٣— محمد بن بزرك اميد ؛ حكم اربع وعشرين سنة (٥٣٢—٥٥٧).

٤— جسن بن محمد ، عرف باسم حسن الثانى وذكرة الاسلام ،حكم اربع سنين (٥٥٧ —٥٦١) .

٥— محمد بن حسن ؛ حكم ست واربعين سنة (٥٦١—٦٠٧) .

٦— جلال الدين حسن بن محمد ؛ حكم احد عشر سنة ونصف. وسمى «حسن الثالث» و« نومسلمان » . (٦٠٧—٦١٨) .

٧— علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن ، حكم خمس وثلاثين سنة (٦١٨— ٦٥٣) .

٨— ركن الدين خاورشاه بن علاء الدين ، هو آخر رؤساء الاسماعيلية الشرقية ، وحكم سنة واحدة (٦٥٣— ٦٥٤) .

اذا تصفحنا الوقايع التى حدثت فى زمن « الاسماعيلية الشرقية » الذى امتد مقدار قرن ونصف ، نعلم ان سطوة الاسماعيليين بلغت منتهاها فى ذلك الزمن ، فى بلاد العجم والعراقين وسورية ، وقد امعنوا فى العسف والطغيان ، وتبين انهم من اجرأ الفتاك .

وهذا اجمال تاريخى نذكر فيه اشهر الوقايع التى حدثت فى ذلك الزمن :

٤ . مؤسسات حسن الصباح السياسية

رأى حسن الصباح ان يكون الاسماعيليون هيئةً نشيطةً فدائية تخضع لامره ، وتنقاد لمشيئته ؛ او جمعية فوضوية يمشى بها على اهوائه . فقسمهم الى عدة اقسام ، وخص كلاً منهم بوظيفة حتمها عليه . فما لبثت تلك الطائفة الدينية التى كانت اسيرة الاهواء فى حركاتها ،

---

[*] (Defrémery, Essai sur L'histoire des Ismaéliens ou Batiniens de la Perse.

(**) راجع Bibliothèque Oriental d'Herbelot.

الا واصبحت هيئةً سياسية ذات وظائف معينة ، وبهذه الهمة من حسن الصباح تسنى لهم ان يعيشوا بحكومة مستقلة اكثر من قرن ونصف .

قضى نظام حسن الصباح بانقسام الاتباع الى ثلاثة صنوف . ١— الدعاة ، ٢— الرفاق ٣— الفدائية.

فوظيفة الدعاة ؛ هى دعوة الخلق الى المذهب الاسماعيلى ؛ وارشادهم بتلقين التعاليم الدينية .

اما الرفقاء ؛ فهم الذين دخلوا فى المذهب ، او خضعوا لسلطة « الرئيس الاكبر » الدينية والسياسية .

والفدائيون ؛ هم الذين يعملون للفتك باعداء الاسماعيلية ويتقاضون من الرؤساء ما يسمونه الفدية — لقاء استماتتهم فى طريق المذهب —

اوجب هذا التقسيم وجود بعض مراتب اجتماعية بين الاتباع فكان منهم فى المرتبة الاولى الدعاة او المقدمون والاعيان . وهؤلاء كانوا يقيمون فى الولايات التى لها قلاع متينة كالشام وقهستان وكوهستان . وهم خاضعون لاوامر الرئيس الاكبر .

والمرتبة الثانية يوجد فيها الدعاة ورسل الدين والوكلاء السياسيون ، ثم مرشحو الرياسة .

والمرتبة الثالثة يوجد فيها « الرفاق » وتتفاوت درجاتهم بالقرب الى الرياسة بنسبة نجاحهم فى التعاليم السرية والباطنية .

ثم يأتى بعد هؤلاء فى الدرجة الرابعة ، الفدائيون وحراس المذهب والمحاربون والسفاحون . ثم يأتى فى المرتبة الخامسة ، حديثو العهد فى المذهب وباقى الاهالى .

ولا جرم ان الادعى للعجب بين هؤلاء الطبقات الاجتماعية والسياسية . هم الفدائيون وهم يمرنون على هذه الوظيفة منذ حداثة سنهم فى بيوت الرؤساء ، تحت رعاية الدعاة . يعلمونهم ان السعادة لا تكون الا بتضحية الحياة ، وان اقل مخالفة تكون سبباً للخلود فى الجزاء ، وانهم ينعمون بالجنة اذا اطاعوا وفعلوا ما يؤمرون به .

وقد هيئت لهؤلاء الفدائيين رياض مخصوصة لاثبات صدق التلقينات من جهة وليذوقوا نعيم « الجنة » فتقوى قلوبهم على ايفاء وظيفتهم الدينية والسياسية من جهة اخرى .

زينت هذه الرياض بنفائس اعلى من ان يتصورها الذهن ، وازدهت بانظم ما تبدعه يد المهارة ، واجمل ما تخلقه القدرة الطبيعية من الحسن، الخالص بازهار ضمت جميع الالوان واشجار كاكاة الزمرد فى اخضرارها . وعيون ماؤها كمذاب اللجين وفوارات تنفث قضباناً من النور . وشلالات كانها من سيال الشمس . وقد شيدت فى تلك الرياض قصور عالية

صيغت من المرمر ، وفرشت باحسن سجاد العجم على الطراز اليونانى و واقعمت بالاوانى الظريفة المصاغة من العسجد الاصفر او الفضة البيضاء ، او من البللور الشفاف . فكانت نموزجا للحسن ومثالاً للجمال الكامل مبثوث فى جميع انحائها الكواعب والولدان كانهم اللؤلؤ المنثور عليهم ثياب ارق من الهواء . يتجولون فى تلك الساحة الخضراء ، ويبدون من الغنج والدلال ما ينفذ لاعماق القلوب ، فيسحرها ويسخرها ، وربما يضحكن فتطير تلك الاصوات الرخيمة حيث تصافح الجدران الذهبية من هذا الايوان الغرامى ، فتعتنقها انوار الافق ، وتوغل فى كبد الهواء الى ان تنطمس فى الخفاء .

لايحظى بهذا النعيم بين الاسماعيليين الا كل سعيد تمسك بتعاليم الدين ، وكان ممتازاً بالسجايا الطبيعية والادبية التى تسوقه الى المفاداة بالنفس فى طريق الواجب الدينى .

اذا اراد « شيخ الجبل » ان يجزى احد السعداء ، او بالاجدر احد الفدائيين ويمتعه بنعيم جنانه ، يدعوه الى مائدته ، ثم يناوله المخدر (الحشيش) ، وبعد ان يستحكم فيه السكر ينقله الى احدى تلك الرياض ، ثم لايلبث ذاك الفدائى المحروم ان يصحو فيجد نفسه فى تلك الجنة ، وفيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين ، فتعروه الحيرة ؛ ولكنه لايلبث ان يقتحم تلك الملذات ، وينغمس فى تلك العيشة الغرامية ، ويصيب منها مايشاء ، ثم يسقى من المخدر مايفقده الوعى ، ويرجع به الى مجلس الرئيس . على غير علم منه . ولا تزال ذكرى تلك اللحظة الهنية ، فى مخيلته كاحلام السعادة ؛ وان هذه السعادة التى انعم عليه بها « شيخ الجبل » فى الرؤيا الصادقة ، تضطره الى الاطاعة العمياء ، والخنوع الى العبودية المحضة . وتجعله يتضور انتظاراً لتخليد تلك السعادة الموقتة . وعليه كان يتلقى امر رئيس الجبل كالأمر القدسى المحتم . ولا تزال ذكرى الجنة التى نقشت فى دماغه سطوراً مذهبة ، تشغل خياله ، وترسم على شفاهه ابتسامات ملؤها الحرص ، والشوق . وكان هذا الحرص على نيل تلك السعادة يؤجج فى قلوب الاسماعيليين نيران الشوق وجحيم الشغف .

ان تأثير هذه السعادة الخالب ، جعل قلوب الاسماعيليين معكساً لهذه الآمال :

— هل من فرصة ؟... الا من امر للرئيس ... ثم النعيم المقيم ...

اذا اراد شيخ الجبل ان يبطش بأحد ، يستدعى اياً كان من الفدائيين ، ويقول له :

— هل لك فى السعادة الخالدة ؟ هيا .. لفلان ....

فيقضى امر الرئيس على الفور . وقد كان عند الرئيس حسن بن الصباح الوف من هؤلاء الفدائيين ، له عليهم الاطاعة العمياء .

احدث حسن الصباح بعض مراتب دينية ، وطبقات تعليمية ماعدا هذه الاسس الأجتماعية والسياسية ، وسعى بما فيه لاعلاء كلمة الاسماعيليين فى ذلك العصر .[*]

(*) سنفصل هذه الاسس الدينية ، اثناء البحث عن تعاليم الاسماعيلية

٥ . ملكشاه والاسماعيليون

ان زمن تأسيس الدولة الاسماعيلية الشرقية [٤٧٣] كان فى ايام السلطان ملكشاه بن آلب ارسلان ثالث سلاطين الدولة السلجوقية الايرانية [٤٦٥—٤٨٥] [*] ولذلك كان اول تألبهم ، وشروعهم فى زمن هذا السلطان

نعم ان اول اجتماع للاسماعيليين كان فى موقع (ساوه) (**) وقد شوهد ثمانية عشر شخصاً منهم اجتمعوا فى احد المحلات بعد صلاة العيد ، فاستلفت اجتماعهم النظر ، وقبض عليهم وسجنوا ، ثم اطلق سراحهم بعد مدة . وصدف ان دعوا مؤذناً من اهل (ساوه) ، مقيماً فى اصفهان الى الدخول فى دينهم ، فلم يقبل فخافوا من افشائه الخبر ، وقتلوه وهذه اول جناية اقترفها الاسماعيليون .

اهتم نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى فى المسئلة لما اطلع على قتل المؤذن ، وشدد الامر فى تحرى القاتل والقبض عليه ، ثم علم انه وجل نجار اسمه (طاهر) ، فصلب ومثل بجثته وجرت على رأسها فى الطرق والشوارع . وكان هذا اول قتيل من الاسماعيليين ، ثم اقترف الاسماعيليون جنايتهم المعروفة ، فقتلوا (نظام الملك) : وقالوا :

— قتلوا منا نجاراً ، فقتلنا وزيراً .

اى واحدة بواحدة .

واول ما سخروا من البلاد ، هى قصبة قريبة من (قاين) . وكان مقدمها (رئيسها) اسماعيلياً ، فتجمع الاسماعيليون عنده ، وتعرضوا فى جوار تلك القصبة على قافلة مقبلة من كرمان فقتلوا جميع رجالها . ولم يسلم منهم الا رجل تركمانى ، استطاع ايصال الخبر الى اهل (قاين) ، فهبوا فى اثر الاسماعيليين ولكنهم لم ينجحوا .

وقد ازدادت سطوتهم ، وقويت شكيمتهم بعد وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى ، واشتدت اطماعهم السياسية .

٦ . بركياروق والاسماعيليون

ورث تاج الملك السلجوقى فى خراسان بعد السلطان ملكشاه ، ابنه بركياروق (٤٨٥ — ٤٩٨) . واشتد فى زمانه ازر الاسماعيليين ، وعلا شأنهم وعظمت قدرتهم ، وشرعوا يسلبون اموال مخالفيهم ، ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً . وقد اوغلوا فى التطاول ، وما كان

(*) هذا التاريخ هجرى يدل على مدة السلطنة .

(**) راجع تاريخ ابن الاثير ، وابن الجوزى ومؤلف M. c. Defremery Neuvelles recherches sur les ismaeliens de Syrie.

الرجل يبطئ عن بيته هنيهةً الا ويعتقد اهله ان قد اغتاله الاسماعيليون . وما كان احد يجسر ان يمشى وحده ، لان الاسماعيليين فى المرصاد ، فلا يقبضون على احد الا قتلوه .

هذا ولما تفاقم خطبهم ، وجاوز بغيهم حد التحمل نهض احد الفقهاء ، وهو « ابو القاسم مسعود بن محمد الخجندى » فاثار حمية الناس وهيجهم ، وحشد حوله جماً غفيراً واقتحموا الاسماعيليين واحرقوا منهم كل من وصلت ايديهم اليه . وقد قتل فى هذه الحادثة من الاسماعيليين خلق كثير (سنة ٤٩٤ هجرية) .

ومع هذا فان معظم القلاع فى ذلك التاريخ كانت تحت حوزتهم فمنها قلعة (اصفهان) وقلعة (الموت) الشهيرة ، القريبة من قزوين لم تزل لهم . وقد سخروا ما عدا هؤلاء قلاع (طبس ، خور ، خوسف ، زوزن ، قاين ، نون » وحاصروا قلعة (وسمنكوه) فى انحاء (ابهر) ثمانية اشهر وفتحوها عنوةً . وقتلوا جميع من فيها .

ثم سخروا قلعة (خالنجان) التى هى على بضعة فراسخ من اصفهان وقلاع . (استونا ندبين ، رى ، آمل ، اردهن ، كردكوه) ، وقلعة (ناظر) فى خوزستان . وقلعة (الطنبور) التى سخرها (ابو حمزة السكاف) الارجانى ، وقلعة (فلاذخان) الكائنة بين « فارس » و « خوزستان » .

وجرت سنة ٤٩٤ هجرية حادثة ذات شان بين الاسماعيليين و « امير جاولى سقاووا » والى « ارجان » و « رامهرمز » . وهى :

لما استولى الاسماعيليون على القلاع الانفة الذكر ، فى جوار « خوزستان » وقطعوا السابلة على المارين والعابرين ، تحتم وجوب التذرع بحيلة لقمع اولئك الطغاة . فبادر قسم من اتباع « جاولى » والتحق بالاسماعيليين وعملوا الى ان استوثقوا بهم . ثم اذاع « جاولى » ان امراء بنى برسق مزمعون الهجوم عليه والاستيلاء على بلاده ، وانه لا قبل له بهم ، وقد عقد العزم على الذهاب الى (همدان) . فاخذ اتباعه يزينون للاسماعيليين معارضته والتضييق عليه الى ان اقنعوهم بذلك . فخرجوا ومعهم ثلاثمائة من اعيان الاسماعيليين ، وكمنوا فى الطريق الى ان ظهر الامير جاولى فالتحقوا به ونزلوا بالسيوف على الاسماعيليين فافنوهم جميعا وغنموا ما معهم من الاسلحة وغيرها .

ومع هذا لم يزل الاسماعيليون على جانب عظيم من القوة فى زمن بركياروق . ولقد اوجب سؤ الظن به ان اكثر الذين قتلهم الاسماعيليون كانوا من مخالفيه ، واتهم بالميل الى هذه الفئة

ولكن ما كان اهمال بركياروق لامر الاسماعيليين الا عن معاناته لاخيه محمد الذى خرج عليه وعصاه . وما لبث ان هزم جنود اخيه وقتل وزيره . وكان مذهب الاسماعيلية قد انتشر بين العساكر وتفشى بصورة هائلة . فاصدر السلطان امره بقتلهم ؛ فقتل منهم عدد

وافر . وقد كان السلطان بركياروق ارسل « ابراهيم اسد الابازى » مقدم الاسماعيلية سفيراً الى بغداد فاعدم هناك (٤٩٤) .

وفى هذه السنة ايضاً (٤٩٤) هجم (بزغش) من امراء السلاجقة على بلاد الاسماعيليين وهدم اكثرها وقتل منهم اناساً كثيرين .

٧ ، محمد السلجوقى والاسماعيليون

تسلطن على السلجوقيين بعد السلطان بركياروق ، اخوه محمد بن ملكشاه وقد ثابر هذا السلطان الذى امتد زمن حاكميته من (سنة ٤٩٨ الى ٥١١ هجرية) على مناضلة الاسماعيليين ومقاومتهم .

ثار (سنة ٤٩٨) من الاسماعيليين جم غفير وخرجوا من (طريثيت) من اعمال خراسان ، ويمموا انحاء « بيهق » ، وامعنوا فى سكان تلك الانحاء نهباً وقتلاً . ثم تسلطوا على الحجاج فى الطريق فقتلوهم عن بكرتهم ، واستولوا على سلبهم واموالهم . وفى هذه السنة ايضاً ظهر الاسماعيليون فى انحاء الشام ، وسخروا حصن « قاميه » وقطعوا السابلة .

هجم السلطان محمد السلجوقى سنة « ٥٠٠ » ، على قلعة « شاهدز » من اعمال اصفهان التى استولى عليها الاسماعيليون قبل مدة ، وسخرها وقتل مالكها « ابن العطاش » وثابر السلطان محمد بعد ذلك على طريقة امحاء الاسماعيليين . وفوض هذه المهمة الى « انوشتكين بن شيركير » المشهور ، صاحب انحاء « آبه وساوه » . ووجهه اليهم .

سخر انوشتكين بضع قلاع للاسماعيليين ، واجلى سكانها الى قلعة « ألموت » ثم زحف عليها . وحصرها . وامده السلطان بالجنود والامراء ، والذخيرة ، وبنى دوراً يأوى اليها فيما اذا امتدت مدة المحاصرة . فضاق الخناق على الاسماعيليين ، واضطروا لان يرسلوا نسائهم واطفالهم الى « نوشتكين » يطلبون منه الامان ورجوه ان يفسح لهم الطريق ليخرجوا من القلعة . فأبى نوشتكين الاجابة ، وردهن الى القلعة . وقد ضاق الامر على حسن الصباح ، واشفى اهل القلعة على الموت جوعاً . وكان كل منهم يتجزأ فى يومه برغيف صغير ، وثلاث جوزات ولكن لم يطل الامر ، حتى جاء نعى السلطان محمد ، ونفس الكرب عن المحصورين ، لان اتباع نوشتكين عزموا على العود منذ جاءهم الخبر ، وقد اراد نوشتكين ان يمانعهم ، وافهمهم ان فى الرجعة خطراً عليهم ، واعلمهم ان تسخير القلعة سهل اذا شددوا الحملة . ولكنهم لم يعبأوا بكلامه ، وتركوه وانسلوا على غير علم منه فبقى وليس معه الا قليل من اتباعه . فهجم عليه الاسماعيليون وهزموه ، واستولوا على جميع ذخائره (٥١١)

٨ . سنجر والاسماعيلون

تسلطن ، السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي سنة (٥١١) ، واصدر امره (سنة ٥٢٠) الى الوزير (المخنى ابى النصر احمد بن الفضل) بان يوقع فى الاسماعيليين اينما حلوا ، ويصادر اموالهم ، ويجلى (ينفى) نساءهم . فجهز ابو النصر جيشين ، وجه احدهما الى (طريثيث) والثانى الى انحاء (بيهق) ، ثم جهز كتائب اخر ، وبثها فى كل جهة يوجد فيها الاسماعيليون ، وامرهم بان يقتلوا كل من لاقوه منهم . فسارت كل كتيبة الى وجهتها واقتحمت الجنود التى هاجمت انحاء (بيهق) ، قرية (طرز) وقتلت جميع من فيها واضطرت مقدم القرية (حسين بن سمين) ان ينتحر قاذفاً بنفسه من اعلى المنارة . ثم اغتنمت جميع اموال القرية .

٩. الاسماعيليون فى سوريا

ذكرنا ان الاسماعيليين قدموا الى انحاء الشام سنة ٤٩٨ . ثم اخذت سلطتهم تنمو وتزداد الى (سنة ٥٢٠) حيث قويت شكيمتهم وعظم سوادهم ، وتيسر لهم امتلاك قلعة (بانياس) [*] التى هى على ستين كيلومتراً فى الجنوب الغربى من الشام .

وقد كان (لابن بهرام) اليد الطولى فى امتلاك هذه القلعة . و(ابن بهرام) هذا ، هو ابن اخت (لابراهيم اسد الاباذى) الذى قتل فى بغداد ايام السلطان بركياروق . وقد غادر بغداد بعد قتل خاله وقدم الشام . واخذ يدعو الى الاسماعيلية فجاب البلاد وحشد حوله كثيراً من اجلاف الناس الذين دخلوا فى دينه . ومع هذا فان ابن بهرام لم يزل متكتماً ومستتراً فى دعوته . ثم قدم حلب واقام فيها . وكان حاكم حلب فى ذلك الزمن هو « ايلغازى بن آرتق » الامير الثالث من « ابن الارتق » . [**] «٤٩٨—٥١٦» .

تجامل ايلغازى مع ابن بهرام واشياعه خشية شرورهم ، وبذلك تسنى له ان يقى الناس بغى الاسماعيليين وطغيانهم .

ثم ما لبث ايلغازى ان سير ابن بهرام لعين الغاية الى طغتكين مؤسس حكومة آل طغتكين فى الشام (٤٩٧—٥٢٢) [***] اذ قد استطار شر الاسماعيليين فى هاتيك الانحاء ، وظن طغتكين انه يستطيع اطفاء ثورتهم وردعهم عن الافساد اذا تجامل مع

---

[*] اسمها القديم (قيصرية فيليبس)

[**] حكم (بنو الارتق) (٣٣٤) سنة فى انحاء حلب وديار بكر . وجاء منهم (١٧) اميراً (سنة ٤٧٧—٨١١) .

(***) دامت حكومة بن طغتكين فى الشام من سنة ٤٩٧ الى سنة ٥٤٩ ، وجاء منهم ستة ملوك .

ابن بهرام ووالاه كما فعل ايلغازى . ولكن ابن بهرام تجرأ فى هذه الكرة واضرب عن التكتم والتستر ، وصدع بدعوة الاسماعيليين واخذ يسعى الى ان تكاثف عدد شيعته واتباعه وكان وزير طغتكين (ابو طاهر بن سعد المرغينانى) لا يزال يوآزر ابن بهرام ويجامله مفكراً انه سيستفيد من هذه الموالاة ، على ان ابن بهرام جعل هذا الاقبال وسيلة للقيام بالواجب الدينى ، وبالغ فى الدعوة حتى اصبح اتباعه ضعف ما كانوا عليه بالامس . واندروا البلدة بخطرهم . والفت هذا الحال نظر اهل الشام ايضا . فادرك ابن بهرام خطر الامر وطلب من « طغتكين » قلعةً ياوى اليها فاقطعه قلعة « بانياس » فسار اليها وخف اليه الاسماعيليون من كل حدب ، واعتصموا بتلك القلعة . وكانت السيطرة الكبرى فى بانياس لابن بهرام . ولم ترق حالة الاسماعيليين فى اعين علماء الدين فى الشام وفقهائها ولكنهم كانوا يهابون السلطان طغتكين من جهة ، ويجتنبون كيد الاسماعيليين وشرهم من جهة اخرى ، ولم يكن لهم من الامر شئ ، فكموا افواههم ؛ والتزموا السكوت .

غادر ابن بهرام الشام وابقى فيها وكيلاً ، وعهد اليه بوظيفة الدعوة الى المذهب ولم يقصر الاسماعيليون فى انتهاز هذه الفرص بل بذلوا جهد الطاقة لتحقيق أمالهم فيها فتكاثروا ، ثم تسلطوا على بضع قلاع فى جبال (سوماق *Somāk*) القريبة من لبنان واستولوا عليها . وابتاعوا قلعة « قدموس » من صاحبها « ابن عمران » (سنة ٥٢٧) وتحصنوا فى تلك القلاع ، وشرعوا يكافحون من فى جوارهم من الاسلام والصليبيين .

وفى ذلك التاريخ « ٥٢٢ » كان « وادى التيم » موطناً لثلة من النصيرية والدروز ، ولبضع قبائل تتألف من مختلفى المذاهب ، يرأسها رجل يسمى « الضحاك » . فتحفز ابن بهرام للتضييق عليهم . ولكن الضحاك باغتهم بالهجوم مع الف من اتباعه فمزق جمعهم وقتل ابن بهرام وفر اتباعه واعتصموا بقلعة « بانياس » .

ترأس على الطائفة الاسماعيلية بعد ابن بهرام بوصايته رجل يدعى « اسماعيل » ولم يلبث هذا الرئيس الا برهة وجيزة حتى تمكن من جمع شتات الاسماعيليين واعاد لهم سابق مكانتهم فى الشام بهمة « المزدقانى » و « ابى الوفاء » من معتمديه ، حتى لقد اصبحت كلمة « المزدقانى » هناك اعلا وارجح من كلمة (تاج الملوك بورى بن طغتكين) سلطان البلاد وحاكمها [٥٢٢ — ٥٢٦] .

لم يطل الامر حتى اطلع (تاج الملوك) ان « المزدقانى » تواطأ مع الصليبيين على تسليم الشام لهم لقاء قصبة صور . وانه يسعى لانفاذ عهده ، فاستدعاه وقتله وعلق رأسه على باب القلعة . ثم امر بقتل (رمضان سنة ٥٢٣) جميع الاسماعيليين فقتل منهم ستة الاف نسمة . وقد خاف اسماعيل صدق هذا العزم ، فالتجأ الى الصليبيين وسلمهم قلعة «بانياس» .

١٠ . ايام محمد الثاني . والاسماعيليون .

اشتد أزر الاسماعيليين ، وكثر جمعهم فى زمن « السلطان محمد الثانى بن محمود بن محمد بن ملكشاه » حادى عشر سلاطين السلاجقة فى ايران [٥٤٧ — ٥٥٥] . وتجمهروا [سنة ٥٤٩] فى انحاء « قهستان » فحشدوا بين فارس وراجل مقدار (٧) الاف رجلاً ، واغتنموا فرصة انشغال السلجوقيين فى حرب « الغزيين » وساروا الى انحاء خراسان . وقد صادفهم « فرخشاه بن محمود الكاسانى » من امراء السلاجقة اثناء مرورهم بانحاء « خواف » ولكنه هابهم ولم يجسر ان يتعرض لهم . غير انه اوصل خبرهم الى « محمد بن آنره » احد امراء خراسان ، ودعاه الى الاشتراك مع بقية الامراء وقمع هذه الفئة والتنكيل بها .

وعليه نشب الحرب بين الاسماعيليين وامراء خراسان ، ودام مدةً طويلة ونتج بفشل الاسماعيليين وهزيمتهم ، وقتل من اعيانهم عدد وافر ، واضطروا لاخلاء اكثر قلاعهم .

وبعد هذه الواقعة بسنتين «٥٥١» هب الاسماعيليون للاخذ بالثار ، ودخلوا فى ملحمة كبيرة مع السلجوقيين فى موقع «طبس»، واسروا عدة رجال من اعيانهم . ونهبوا اموالهم وسلبهم واجلوا اطفالهم .

وفى سنة «٥٥٢» حشد سلطان مازندران « رستم بن على بن شهريار » جنوده وهجم على قلعة « ألموت » . ثم اغار على قرى الاسماعيليين فهدمها وحرقها ، وقتل سكانها واستولى على اموالهم وشتت نسائهم واسترق اطفالهم .

وفى سنة «٥٥٣» تجمهر «٧٠٠٠» محاربا من الاسماعيليين، فطرقوا قرى التركمان وهى خلوف ، فامعنوا فيها احراقاً وهدماً ونهباً . وما كادوا يرجعون الا وآب رجال التركمان ، وجدوا فى طلبهم فادركوهم وهم يتقاسمون الاموال ، فشدوا عليهم واسرفوا فى القتل ، فلم ينج منهم الا تسعة انفار . ولم يحدث بعد من المناوشات الا الطفيف .

١١ . صلاح الدين الايوبى والاسماعيليون

تعرض الاسماعيليون للملك الناصر ابو المظفر « صلاح الدين يوسف بن ايوب» مؤسس الدولة الايوبية فى مصر ٥٦٧—٥٨٩ (*) وارادوا قتله . فشد عليهم واحرق مواطنهم ،

(*) حكمت الدولة الايوبية فى مصر من سنة ٥٦٧ الى سنة ٦٤٩ . وجاء منهم عشرة ملوك . وما عدا هذه ، وجد لهم بقية حكمت فى حمص واليمن وحلب وحصن كيف وحما والشام فى تواريخ مختلفة .

وزحف على (مصياف) التى هى من احصن قلاعهم وحصرها ورماها بالمجانيق .

فلما ضاق عليهم الخناق ، وعلموا ان لا مناص عمدوا الى امام لهم اسمه «سنان» وارسلوه الى (شهاب الدين الحارمى) صاحب حماه ، وخال لصلاح الدين وعزموا عليه ان يسعى بينهم بالصلح ، والا فانهم يقتلونه . فقبل الوساطة ، وراجع صلاح الدين فى ذلك فخلى عنهم .

١٢ . آخر ايام الاسماعيليين

لا جرم ان زمان (حسن الصباح) كان احسن ايام « الدولة الاسماعيلية الشرقية » . اما الرؤساء الذين اتوا بعده كانت مزيتهم الوحيدة انهم لم يألوا جهداً فى اهراق الدماء . ولم يتسن للاسماعيليين تأسيس دولة قوية . بسبب الفوضوية الداخلة فى اسس دينهم ، ومعارضة ملوك السلاجقة لهم من جهة اخرى اوجبت تفريق جمعهم وتمزيق شملهم . ولذلك كانت دولتهم فى الشرق عبارة عن ثلة فوضوية سفاكة ؛ اما سيرتهم فهى صحيفة بطش وفتك يقطر منها الدم .

حكم « الغوريون » فى بلاد خراسان بعد ان بادت دولة السلاجقة الايرانية (٥٩٠ هـ) فقام الاسماعيليون الى مناهضتهم ، وعادوا الى ديدنهم فى اهراق الدماء .

ثم ظهر « آيتغمش » — لعله آى طوغمش — من مماليك « جهان پهلوان » من اتابكة آذربايجان (٦٠٠—٦٠٨) فاكتسح بلاد الاسماعيليين فى انحاء قزوين (٦٠٢) وهدم لهم خمس قلاع وقتل كثيرا منهم .

تأسست شعبة من الغوريين فى « باميان » بعد ان درست حكومتهم الاصلية (٦٠٤) وعمد الاسماعيليون (٦٠٩) فقتلوا اميراً من امراء (جلال الدين) رابع وآخر سلاطين هذه الشيعة . فغضب هذا السلطان واقتحمهم بجنوده ، فاكتسح بلادهم من « ألموت » الى « كردكوه » فى خراسان وهدم اكثرها ، وقتلهم قتلاً ذريعاً (٦٢٨) .

ثم جاء هلاكوخان الشهير (٦٥٤) واسر « ركن الدين خاورشاه » رئيس الاسماعيلية ، ثم قتله وهدم قلاع [آلاموت ، ميمون ديز ، لار ، سروش ، سرخ درنك ، بتره ، بهرام ديز ، ايهن كوه ، موران تاج ، سيمران ، فردوس ، منصور] (*) وانزل عليهم تلك الضربة القاضية التى كادت تقضى عليهم .

ثم جاء الملك الظاهر بيبرس من ملوك الجراكسة فانتزع منهم قلعة (مصياف) الشهيرة . واخذ جميع ملوك آسيا بعين هذه السيرة فلم يدخروا وسعاً فى قتل من وصلت ايديهم اليه

(*) راجع نسخة (حزيران ١٨٤٩) من Journal Asiatique

من الاسماعيليين وبهذا استؤصلت شأفة الاسماعيليين الذين رجفت من هول فتكهم البلاد ؛ وبلادهم فى آسيا الغربيـة الممتدة من بحر الابيض الى داخل بلاد الترك ، او بالاصح من جبال سورية وخراسان وبحر الخزر ، الى السواحل الجنوبية من بحر الابيض تمزقت ايدى سبا .

ومع هذا فان هذه الفئة لم تهلك بتاتاً . بل لا تزال اليوم لها بقيـة فى بلاد فارس وسواحل نهر « السند » ، وفى ناحية قدموس وخوابى من قضاء مرقب من اعمال بيروت وفى انحاء مصياف وسلميه من لواء حماه التابع لولاية الشام ، وفى دمشق ايضاً . اما عددهم فيتراوح فى اصقاع حماه بين (٨٠٠—١٠٠٠) وفى ناحيتى خوابى وقـدموس [*] (٣٠٠٠—٤٠٠٠) نسمة . ويوجد منهم فى دمشق فى محلة الحشاشين من ثمن الميدان مقدار مائة نسمة . ومجموع عددهم فى البلاد العثمانية يناهز خمسة عشر الفـاً وانهم الآن على غاية ما يكون من السكون .

ومن العجب انهم لم يقابلوا النصيرية بما يستحق الذكر من دفع العدوان لما هجموا عليهم وقتلوهم ، واجلوهم عن اماكنهم (سنة ١٨٠٩ ميلادية) . ثم لم يلبثوا ان عادوا الى مواطنهم بعد ان نكل بالنصيرية .

[٤] **دعوة الاسماعيليين وتعاليمهم الدينية** — سبق لنا ان ذكرنا (دعوات) عبدالله بن ميمون القداح مؤسس المـذهب الاسماعيلى . وشيئاً من تعـاليم « دار الحكمة » الدينيـة التى تستنـد على تلك الاسس . والآن نشرع بتفصيـل هذه التعـاليم والدعوات وايضاحها :

ان « للدعاة » الحظ الاوفى من الخدمـة فى نشر المذهب الاسماعيلى ، وتوسيع نطـاقه وكانوا يتخللون طبقات الناس وينتهزون فرصة كونهم مشبعـين بالشكوك والظنون ، ومشتتى الافكار ، عاجزين عن انتقاء الحقيقة بين التلقينات الشيعية وغير الشيعيـة ، ومفطورين على حب الخرافات والاساطير . فيتسربون الى افكارهم بمعتقدات دينهم الهيولى . وبهذا تسنى لهم تكثير اشياعهم وتزييد اتباعهم وان وفرة المذاهب فى تلك الآونة كانت تشدد عصبية الشرقيين المشغوفين بالخيال ، لاسيما ان الاعتقاد بتسرب الروح الالهية من جسم الى آخر والايمان بعود الائمة الى الدنيا ... الى آخر ما هناك من المعتقدات كانت تضـاعف همك الناس فى الاقبال على المكنونات والغوامض . وعليه كان رواج مذهب الاسماعيلية المغرق فى

[*] سنبحث على وجه التفصيل عن احوال الاسماعيليين الموجودين الان فى ناحيتى قـدموس وخوابى اثناء البحث عن احوال «مرقب» .

الباطنة والغموض من الامور الطبيعية . لان هذا المذهب حاد عن الطريقة المعروفـة فى الانبياء والائمة ومحجرها . ثم اعتد بعدد السماوات والارضين واعتبر « السبعـة » فى كل شئ واحدث اسراراً ، وخواف جديدة وبين ان للعدد بنفسه قيمة خاصة . وقد زعم — كما سنبحث بعد — ان للقرآن معـان باطنية . فكانت داعية للعجب ، وباعثـة للتنقيب . وان المراتب السبع فى المذهب الاسماعيلى استفزت افكار الناس الى معالجة اختراق هاتيك الطباق والاطلاع على ما وراء تلك الغوامض . واصبحت القلوب يسعرها ظمأ استكناه هذه المجهولات المتسلسلة . فاذا فكرنا فى الائمة الظاهرة والباطنة ، وحياتهم المطمورة فى الغموض والكتمان وعلمنا تلك الوعود الخالبة وما تضمنته من انواع النعم الجنانية ، وتلك السعادة اليقينية التى أيدتهـا التجربة ، وتلك القصور ومقصوراتها والرياض وزينتها ؛ ينكشف لنـا الغطاء عن المؤثرات التى سهلت لدعاة الاسماعيلية طرق النجاح .

نعم ان نجاح دعاة الاسماعيلية انبعث عن رقة شعور الناس . وقد علموا انهم كلما بالغوا بتحريك الشبهات وتزييدهـا يزدادون نجاحاً ، فلم يألوا جهداً بمـد خطواتهم الى تلك الوجهة .

حتى ان عبدالله بن ميمون جعل دعواته على تسع مراتب وبين فى كل دعوة ومرتبة قسماً من اسس دينه . وجعل الارتقاء عن مرتبة الى اخرى معلقاً بالتجـارب الطويلة . فالذين يصلون الى الدرجة التاسعة يحرزون العقيدة الجديدة ، او بالاحرى يكونون براء عن كل عقيدة . وتعاليم الدين فى دار الحكمة كانت على عين النمط . وها نحن نستقصى دعوات ابن القداح وتعاليم دار الحكمة ، بعد تفريقها لتسع مراتب ، دون ان نبدل ، او نعدل من حقيقتها شيئاً . (*)

١ . الدعوة الاولى

[سوآل الداعى لمن يدعوه الى مذهبه عن المشكلات وتأويل الآيات . ومعانى الامور الشرعية وشئ من الطبيعيات والامور الغامضة . فان كان المدعو عارفاً سلم له الداعى والا تركه يعمل فكره فى ما القاه عليه من الاسئلة وقال له : يا هذا ان الدين لمكتوم ، وان الاكثر له منكرون وبه جاهلون ؛ ولو علمت هذه الامة ما خص الله به الائمة من العلم لم تختلف. فيتشوق حينئذ المدعو الى معرفة ما عند الداعى من العلم . فاذا علم منه الاقبال اخذ فى ذكر معانى القرآات وشرائع الدين ، وتقريران الآفة التى نزلت بالامة وشتت الكلمة ، واورثت الاهواء المضلة ؛ ذهاب الناس عن ائمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم

(*) راجع كتاب سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان

رسول الله (خلقت حواء من ضلع آدم) .وما معنى قول الفلاسفة « الانسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير » ؟

ولما كانت قامة الانسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ، ولم كان في يديه من الاصابع عشر ، وفي رجليه عشر اصابع ؛ وفي كل اصبع من اصابع يديه ثلاثة شقوق الا الابهام فان فيه شقين فقط . ولم كان في وجهه سبع ثقب وفي سائر بدنه ثقبان ؛ ولم كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة .وفي عنقه سبع عقد ؛ ولم يجعل عنقه صورة ميم ويداه حاء وبطنه ميماً ورجلاه دالاً حتى صار ذلك كتاباً مرسوماً يترجم عن محمد ؟

ولم جعلت قامته اذا انتصب صورة الف ؛ واذا ركع صورة لام . واذا سجد صارت صورة هاء فكانت كتاباً يدل على الله ؟ ولم جعلت اعداد عظام الانسان كذا ، وعداد اسنانه كذا والاعضاء الرئيسية كذا الى غير ذلك من التشريح ، والقول في العروق والاعضاء ووجوه منافع الحيوان ثم يقول الداعي : الا تتفكرون في حالكم وتعتبرون وتعلمون ان الذي خلقكم حكيم غير مجازف ، وانه فعل جميع ذلك لحكمة وله فيها اسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق . فكيف يسعكم الاعراض عن هذه الامور وانتم تسمعون قول الله عز وجل [وفي لارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون] [ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون] و [سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق] . فاي شيء رآه الكافرون في انفسهم وفي الآفاق حتى عرفوا انه الحق واي حق عرفه من جحد الديانة ؟ الا يدلكم هذا على ان الله جل اسمه اراد ان يرشدكم الى بواطن الامور الخفية واسرار فيها مكتومة لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية . الا ترون انكم جهلتم انفسكم التي من جهلها كان حرياً ان لا يعلم غيرها . اليس الله تعالى يقول [ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلاً] ونحو ذلك من تأويل القرآن وتفسير السنن والاحكام وايراد ابواب من التجويز والعلل .

فاذا علم الداعي ان نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه وطلب منه الجواب عنها قال له حينئذ :

لا تعجل ، فان دين الله اعلى واجل من ان يبذل لغير اهله ويجعل غرضاً للعب .وجرت عادة الله وسنته في عباده عند شرع من نصبه ان يأخذ العهد على من يرشده ولذلك قال [واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً] وقال عز وجل [من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً] وقال جل جلاله [يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعهود] وقال [لا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله كفيلاً

يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ، ويعرفون بواطنها ؛ غير ان الناس لما عدلوا عن الائمة ونظروا في الامور بعقولهم واتبعوا ما حسن في رأيهم ، وقلدوا سفاتهم واطاعوا سادتهم وكبرائهم اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا التي هي ايدي متبعي الاثم واجناد الظلمة واعوان الفسقة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون في طلب الرئاسة على الضعفاء ، ومكايدة رسول الله في امته وتغيير كتاب الله وتبديل سنة نبيه ومخالفة دعوته وافساد شريعته وسلوك غير طريقته ، ومعاندة الخلفاء الائمة من بعده ؛ فصار الناس الى انواع الضلالات ؛ فان دين محمد ما جاء بالتحلي ولا باماني الرجال ولا شهوات الناس ، ولا بما خف على الالسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكنه صعب مستصعب ، وامر مستقبل . وعلم خفي غامض ستره الله في حجبه وعظم شأنه عن ابتذال اسراره فهو سر الله المكتوم وامره المستور الذي لا يطيق حمله ولا ينهض باعبائه وثقله الا ملك مقرب او نبي مرسل ، او عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى .

فاذا ارتبط المدعو على الداعي وانس له نقله الى غير ذلك . فمن مسائلهم ، ما معنى رمي الجمار ، والعدو بين المروة والصفا ، ولم كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر ؟ وما بال الله خلق الدنيا في ستة ايام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟

وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً ، والكاتبين والحافظين وما لنا لا نراها أخاف ان نكابره ونجاهده حتى ادلى العيون واقام علينا الشهود ؟ وقيد ذلك بالقرطاس بالكتابة ؟ وما تبديل الارض غير الارض وما عذاب جهنم . وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب وما معنى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ؟ وما ابليس وما الشيطان وما وصفوا به ، واين مستقرهم ؟ وما مقدر قدرهم ؟ وما ياجوج وماجوج وهاروت وماروت واين مستقرهم ؟ وما سبعة ابواب النار ، وما ثمانية ابواب الجنة ، وما « شجرة الزقوم » الثابتة في الجحيم . وما « دابة الارض » ، و « رؤوس الشياطين » و « الشجرة الملعونة في القرآن » و « التين والزيتون » وما « الخنس الكنس » . وما معنى [الم ، والمص] وما معنى [كهيعص وحمعسق] . ولم جعلت السموات سبعاً ، والارضون سبعاً . والمثاني من القرآن سبع آيات ؟ ولم فجرت العيون « اثنتى عشرة عيناً » ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهراً ؟ وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ومعاني الفرائض اللازمة ؟

فكروا في انفسكم اين ارواحكم وكيف صورها ، واين مستقرها ، وما اول امرها والانسان ما هو وما حقيقته وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات ؟ وما الذي بانت به حياة الحشرات من حياة النبات ؟ وما معنى قول

ان الله يعلم ما تفعلون] [ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً] وقال [لقد اخذنا ميثاق بنى اسرائيل] . ومن امثال هذا فقد اخبر الله تعالى انه لم يملك حقه الا لمن اخذ عهده . فاعطنا صفقة يمينك وعاهدنا بالموكد من ايمانك وعقودك ان لا تفشى لنا سراً ولا تظاهر علينا احداً ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحاً ، ولا توالى لنا عدواً .

٢ . صورة العهد (*)

وهو ان يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلفه :

— جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه ، وذمة رسوله وانبيائه وملائكته ورسله وما اخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق ؛ انك تسترجع ما تسمعه وسمعته وعلمناه وتعلمه وعرفته وتعرفه من امرى وامر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الامام عرفت اقرارى له ، ونصحى لمن عقد ذمته ، وامور اخوانه واصحابه وولده واهل بيته المطيعين له على هذا الدين؛ ومخالصته له من الذكور والاناث والصغار والكبار ؛ فلا تظهرن من ذلك شيئاً قليلاً ولا كثيراً ولا شيئاً يدل عليه ، الا ما اطلقت لك ان تتكلم به ، او اطلقه لك صاحب الامر المقيم بهذا البلد ، فتعمل فى ذلك بامرنا ولا تتعداه ولا تزيد عليه ، وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك ، ان تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وتشهد ان محمداً عبده ورسوله ، وتشهد ان الجنة حق وان النار حق وان الموت حق وان البعث حق [وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور] . وتقيم الصلاة لوقتها وتؤتى الزكاة لحقها ، وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده على ما امر الله به ورسوله وتوالى اولياء الله وتعادى اعداء الله وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن رسول الله ظاهراً وباطناً وعلانية سراً وجهراً ، فان ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه ، ويثبته ولا يزيله ، ويقربه ولا يباعده ، ويشده ولا يضعفه ، ويوجب ذلك ولا يبطله ويوضحه ولا يعميه ، كذلك هو الظاهر والباطن ، وسائر ما جاء به النبيون من ربهم على الشرائط المبينة فى هذا العهد ، جعلت على نفسك الوفاء بذلك قل نعم :

فيقول المدعو نعم . ثم يقول الداعى له :

والصيانة له بذلك واداء الامانة ، على ان لا تظهر شيئاً اخذ عليك فى هذا العهد فى حياتنا ، ولا بعد وفاتنا ، لا فى غضب ، ولا على حال رضى ولا على رغبة ولا فى حال رهبة ، ولا عند شدة ولا فى حال رخاء ولا على طمع ولا على حرمان ، تلقى الله على

(*) سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان ص ٢١٨

التستر لذلك والصيانة له على الشرائط المبنية فى هذا العهد ، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسوله ان تمنعنى وجميع ما اسميه لك ، واثبته عندك مما تمنع منه نفسك وتنصح لنا ولوليك ولى الله نصحاً ظاهراً وباطناً ، فلا تخن الله ووليه ولا احداً من اخواننا واوليائنا ، ومن تعلم انه منا بسبب ؛ فى اهل ولا مال ، ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما يبطله ، فان فعلت شيئاً من ذلك وانك تعلم انك قد خالفته وانت على ذكر منه ، فانت برئ من الله خالق السموات والارض الذى سوى خلقك ، والف تركيبك واحسن اليك فى دينك ودنياك وآخرتك ، وتبرأ من رسله الاولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبين والروحانيين ، والكلمات التامات والسبع المثانى والقرآن وتبرأ من التوراة والانجيل والزبور والذكر الحكيم ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الاخرة ، ومن كل عبد رضى الله عنه وانت خارج من حزب الله وحزب اوليائه وخذلك الله خذلاناً بيناً يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير الى نار جهنم التى ليس لك فيها رحمة ؛ وانت برئ من حول الله وقوته . ملجأ الى حول نفسك وقوتك وعليك لعنة الله التى لعن الله بها ابليس ، وحرم عليه بها الجنة ، وخلده فى النار . ان خالفت شيئاً من ذلك ولقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ، ولله عليك ان تحج الى البيت الحرام ثلاثين حجة حجاً واجباً ماشياً حافياً . لا يقبل الله منك الا الوفاء بذلك ؛ وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، الذين لا رحم بينك وبينهم ، لا يأجرك الله عليه ولا يدخل عليك بذلك منفعة . وكل مملوك لك من ذكر وانثى فى ملكك او تستفيده الى وقت وفاتك ، ان خالفت شيئاً من ذلك فهم احرار لوجه الله ، وكل امرأة لك او تتزوجها الى وقت وفاتك . ان خالفت شيئاً من ذلك فهن طوالق ثلاثاً بتة طلاق الحرج ، لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة . وكل ما كان لك من اهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام ؛ وكل ظهار فهو لازم لك ، وانا المستحلف لك لامامك وحجتك وانت الحالف لهما وان نويت او عقدت او اضمرت خلاف ما احلك عليه واحلفك به فهذه اليمين من اولها الى آخرها مجددة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله منك الا الوفاء بها والقيام بما عاهدت بينى وبينك . قل نعم .

فيقول نعم .

فاذا اعطى العهد على هذه الصورة قال له الداعى اعطنا جعلاً من مالك نجعله مقدمة امام كشفنا لك الامور وتعريفك اياها . والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى فان امتنع المدعو امسك عنه الداعى . وان اجاب واعطى نقله الى الدعوة الثانية .

٣ . الدعوة الثانية والثالثة

الدعوة الثانية . لا تكون الا بعد ما تقدم . فاذا تقرر فى نفس المدعو جميع ما تقدم واعطى الجعل قال له الداعى :

ان الله لم يرض فى اقامة حقه وما شرعه لعباده الا ان يأخذوا ذلك عن ائمة نصبهم للناس واقامهم لحفظ شريعته على ما اراده الله تعالى ويسلك فى تقرير هذا ، ويستدل عليه بامور مقررة فى كتبهم حتى يعلم ان اعتقاد الائمة قد ثبت فى نفس المدعو فاذا اعتقد ذلك نقله الى الدعوة الثالثة .

الدعوة الثالثة ؛ مرتبة على الثانية ، وذلك انه اذا علم الداعى ممن دعاه ان ارتباطه على دين الله لا يعلم الا من قبل الائمة ، قرر حينئذ عنده : ان الائمة سبعة قد رتبهم البارى تعالى كما رتب الامور الجليلة فانه جعل الكواكب السيارة سبعاً وجعل السموات سبعاً وجعل الارضين سبعاً ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات ، وهؤلاء الائمة السبعة هم :
١ — على بن ابى طالب ، ٢ — حسن بن على ، ٣ — حسين بن على ، ٤ — على بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ٥ — محمد بن على ، ٦ — جعفر بن محمد الصادق ، ٧ — هو القائم صاحب الزمان . [*]

فاذا علم الداعى ثبات هذا العقد فى نفس المدعو ، شرع فى ثلب بقية الائمة الذين قد اعتقد الامامية فيهم الامامة ، وقرر عند المدعو ان « محمد بن اسماعيل » عنده علم المستورات ، وبواطن المعلومات التى لا يمكن ان توجد عند احد غيره ، وان عنده ايضاً علم التأويل ، ومعرفة تفسير ظاهر الامور ، وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم ، واتقان دلالته فى كل امر يسأل عنه فى جميع المعدومات ، وتفسير المشكلات ، وبواطن الظاهر كله و التأويلات ، وتأويل التأويلات ، وان دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لانهم اخذوا عنه ، ومن جهته رووا ، وانه لا يستطيع احد من الناس المخالفين لهم ان يساويهم ، ولا يقدر على التحقق بما عندهم الا منهم ويحتج لذلك بما هو معروف فى كتبهم مما يطول شرحه . فاذا انقاد المدعو ، واذعن لما تقرر ، نقله الى الدعوة الرابعة .

(*) يزعم بعضهم ان القائم هو « اسماعيل بن جعفر الصادق » ويقول الآخرون انه « محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق » وسنبين فى ابحاثنا الاتية انهم يعتقدون ان اسماعيل بن جعفر الصادق امام وابنه محمد بن اسماعيل نبى ناطق .

٤ . الدعوة الرابعة

يقرر الداعى فى هذه الدعوة : ان عدد الانبياء الناسخين للشرائع ، المبدلين لاحكامها، اصحاب الأدوار وتقليب الاحوال ، الناطقين بالأمور ؛ سبعة فقط كعدد الائمة سواء وكل واحد من هؤلاء الانبياء لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويحفظها على امته ويكون معه ظهيراً له فى حياته ، وخليفة له من بعد وفاته الى ان يبلغ شريعته الى احد يكون فى سبيله معه ، كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه . وكذلك كل مستخلف خليفة الى ان يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة اشخاص ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها اثر واحد هو اولهم ، ويسمى الاول من هؤلاء السبعة [السوس او الأس] وانه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم ، من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى من قبله وتكون الخلفاء من بعده امورهم تجرى كامر من كان قبلهم، ثم يكون من بعدهم نبى ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت ابداً ، وهكذا حتى يقوم النبى السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله ويكون صاحب الزمان الأخير . فكان اول هؤلاء الانبياء النطقاء « آدم » ، وكان صاحبه ، واسه ابنه شيث ، وعدوا تمام السبعة الصامتين على شريعة آدم ؛ وكان الثانى من الانبياء النطقاء « نوح » فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم وكان صاحبه وسوسه ابنه « سام » وتلاه بقية الصامتين على شريعة نوح ؛ ثم كان الثالث من الانبياء « ابراهيم الخليل » فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح وآدم ، وكان صاحبه وسوسه ابنه « اسماعيل » ولم يزل يخلفه صامت بعد صامت حتى تم دور السبعة الصمت ؛ وكان الرابع من الانبياء النطقاء « موسى بن عمران » وكان صاحبه وسوسه اخوه « هرون » ولما مات هرون فى حياة موسى قام من بعده « يشوع بن نون » خليفة له صمت على شريعته ، وبلغها عنه فأخذها واحد بعد واحد الى ان كان آخر الصمت على شريعة موسى « يحى بن زكريا » ثم كان الخامس من الانبياء النطقاء « عيسى بن مريم » نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله وكان صاحبه وسوسه « شمعون الصفا » ومن بعد تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح ؛ كان السادس من الانبياء النطقاء « محمد » فانه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التى جاء بها الانبياء من قبله ، وكان صاحبه وسوسه « على بن ابى طالب » ثم من بعد على ستة صمتوا على الشريعة المحمدية وقاموا بميراث اسرارها وهم : ابنه الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ثم اسماعيل بن جعفر الصادق وهو آخر الصمت من الائمة المستورين ؛ والسابع من النطقاء هو صاحب الزمان « محمد بن اسماعيل بن جعفر » الذى انتهى اليه علم الاولين وقام بعلم بواطن الامور وكشفها ، واليه المرجع فى تفسيرها دون غيره وعلى جميع الكافة اتباعه ،

والخضوع له والانقياد اليه والتسليم له ، لان الهداية فى موافقته واتباعه والضلال والحيرة فى العدول عنه .

فاذا تقرر ذلك عند المدعو انتقل الداعى الى الدعوة الخامسة .

٥ . الدعوة الخامسة

يقرر الداعى فى هذه الدعوة :

انه لا بد مع كل امام قائم فى كل عصر ، حجج متفرقون فى جميع الارض عليهم تقوم وعدة هؤلاء الحجج ابداً ، اثنا عشر رجلاً فى كل زمان كما ان عدد الائمة سبعة ويستدل لذلك بامور ؛ منها ن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ، ولا بد فى خلق كل شئ من حكمة والا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعاً ، وجعل ايضاً السموات سبعاً والارضين سبعا ، والبروج اثنى عشر والشهور اثنى عشر ، ونقباء بنى اسرائيل اثنى عشر نقيباً ونقباء « محمد » من الانصار اثنى عشر نقيباً ، وخلق فى كف كل انسان اربع اصابع وفى كل اصبع ثلاث شقوق تكون جملتها اثنى عشر شقاً . على ان فى ابهام كل يد شقان دلالة على ان الانسان بدنه كالارض واصابعه كالجزائر الاربع والشقوق التى فى الاصابع كالحجج ؛ والابهام الذى به قوام جميع الكف وسداد الاصابع ، كالذى يقوم الارض بقدر ما فيها والشقان اللذان فى الابهام اشارة الى ان الامام وسوسه لا يفترقان ، ولذلك صار فى ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة اشارةً الى الحجج الاثنى عشر ، وصار فى عنقه سبع فكان العنق على خرزات الظهر وذلك اشارة الى الانبياء النطقاء والائمة السبعة وكذلك الاثقاب السبعة التى فى وجه الانسان العالى على بدنه واشياء من هذا النوع كثيرة . فاذا تمهد عند المدعو ما دعاه اليه الداعى وتقرر ، نقله حينئذٍ الى الدعوة السادسة .

٦ . الدعوة السادسة

وفى هذه الدعوة :

يأخذ الداعى فى تفسير معانى شرائع الاسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة ، وغير ذلك من الفرائض بامور مخالفة للظاهر ، بعد تمهيد قواعد تبين من غير عجلة تؤدى الى ان هذه الاشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة ، وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض وتصدهم عن الفساد فى الارض حكمة من الناصبين للشرائع وقوة فى حسن سياستهم لاتباعهم واتقاناً منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك حتى يتمكن هذا الاعتقاد من نفس المدعو فاذا طال الزمان ، وصار المدعو يعتقد ان احكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز السياسة العامة ، وان لها معانى أخر غير ما يدل عليها الظاهر نقله الداعى الى

الكلام فى الفلسفة ، وحضه على النظر فى كلام « افلاطون وارسطو وفيثاغوروس » ومن فى معناهم ، ونهاهم عن قبول الاخبار والاحتجاج بالسمعيات ، وزين له الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها ، فاذا استقر ذلك عنده واعتقده نقله الى الدعوة السابعة ويحتاج ذلك الى زمان طويل .

٧ . الدعوة السابعة

لا يفصح الداعى بهذه الدعوة ما لم يكثر انسه بمن دعاه ، ويتيقن انه قد تأهل الى الانتقال الى رتبة اعلا مما هو فيه فاذا علم ذلك منه قال :

ان صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون احدهما الاصل والاخر عنه كان وصدر ، وهذا انما هو اشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى ، فان مدبر العالم فى اصل الترتيب وقوام النظام صدر عنه اول موجود بغير واسطة ولا سبب نشاء عنه ، واليه الاشارة فى قوله تعالى [انما امره ان ارد شيئاً ان يقول له كن فيكون] اشارة الى الاول فى الرتبة والاخر فى القدر الذى قال فيه [انا كل شئ خلقناه بقدر] وهذا معنى ما نسمعه من الله اول ما خلق القلم ، فقال للقلم اكتب فكتب فى اللوح ما هو كائن واشياء من هذا النوع موجودة فى كتبهم . مأخوذة من كلام الفلاسفة القائلين « الواحد لا يصدر عنه الا واحد » واذا تقرر ما ذكر فى هذه الدعوة عند المدعو نقله الداعى الى الدعوة الثامنة .

٨ . الدعوة الثامنة

يقول الداعى فى هذه الدعوة :

اعلم ان احد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود والصادر عنه انما تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول . فكانت الاعيان كلها ناشئةً وكائنة عن الصادر الثانى بترتيب معروف فى بعضهم ، ومع ذلك فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد : فلا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر عاجز وكذلك سائر الصفات فان الاثبات عندهم يقتضى الاشتراك بينه وبين المحدثات والنفى يقتضى التعطيل وقالوا ليس بقديم ولا محدث . بل القديم امره كلمته والمحدث خلقه وفطرته كما هو مبسوط فى كتبهم فاذا استقر ذلك عند المدعو قرر عنده الداعى :

ان التالى يدأب فى اعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وان الصامت فى الارض يدأب فى اعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواءً ، وان الداعى يدأب فى اعماله حتى يبلغ منزلة السوس وحاله سواء ، وهكذا تجرى امور العالم فى اكواره وادواره ولهذا القول بسط

كثير فاذا اعتقده المدعو ،قرر عنده الداعى ان معجزة النبي الصادق الناطق ليست اشياء ينتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوى معانى فلسفية تنبئ عن حقيقة آنية السماء والارض .وما تشتمل العالم عليه باسره من الجواهر والاعراض فتارة برموز يعقلها العالمون وتارة بافصاح يعرفه كل احد ، فينتظم بذلك للنبي شريعة يتبعها الناس ويقرر عنده ايضاً ان القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه العامة وغير ما يتبادر الذهن اليه ، وليس هو الا حدوث ادوار عند انقضاء ادوار من ادوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع كما قد بسطه الفلاسفة فى كتبهم فاذا استقر هذا العقد عند المدعو نقله الداعى الى الدعوة التاسعة.

٩ . الدعوة التاسعة

الدعوة التاسعة ، هى النتيجة التى يحاول الداعى بتقرير جميع ماتقدم رسوخها فى نفس من يدعوه فأذا تيقن ان المدعو تأهل لكشف السر والافصاح عن الرموز احاله على ماتقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات ، وما وراء الطبيعة ، والعلم الآلهى وغير ذلك من اقسام العلوم الفلسفية حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعى قناعه وقال :

ماذكر من الحدوث والاصول ، رموز الى معانى المبادى ، وتقلب الجواهر ،وان الوحى انما هو صفاء النفس ، فيجد النبي فى فهمه مايلقى اليه ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبي شريعته بحسب مايراه من المصلحة فى سياسة الجميع، ولا يجب حينئذ العمل بهما الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء بخلاف العارف فانه لايلزمه العمل بها ويكفيه معرفته فانها اليقين الذى يجب المصير اليه وما عدا المعرفة من سائر المشروعات فانما هى اثقال ، وآصار حملها الكفار اهل الجهالة لمعرفة الاعراض والاسباب ، ومن جملة المعرفة عندهم ، ان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع انما هم السياسة العامة ، وان الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة ، وان الامام انما وجوده فى العالم الروحانى ،اذا صرنا بالرياضة فى المعارف اليه. وظهوره الان انما هو ظهور امره ونهيه على لسان اوليائه ونحو ذلك وبهذه الآراء المتسلسلة يصرف المدعو عن المنقولات الى المعقولات ، ويحرر من جميع التكاليف .

*
* *

نرى من اللازم بعد ايضاح الدعوات الاسماعيلية ومراتب تعاليمهم ، ان نبحث نبذة عن [المراتب] (*) التى رتبها حسن الصباح ونظمها وجعلها قانونا متحتم الرعاية على

(*) دائرة المعارف — لبطرس البستانى .

الدعاة .

ان اول هذه المراتب هو [الذوق] . والذوق هو تفرس الداعى واطلاعه على، هل عند المدعو اقبال على قبول الدعوة او عدم قبولها ام لا . ولذلك منعت المثابرة على دعوة من ليس عنده ميل لقبولها .

اما المرتبة الثانية ؛ فهى « التأنيس » . وهو كناية عن الوثوق ويحصل عليه بتزييد ميل المدعو الى الزهد والسفاهة .

والمرتبة الثالثة ؛ هى « التشكيك » . وهو القاء المدعو فى الشك ويكون بتوجيه الاسئلة عن بعض الوصايا الدينية ، وعن التناقض الموجود فى القرآن على زعمهم وتشويش افكار المدعو بها .

والمرتبة الرابعة ؛ هى « الربط » . وهو عهد وميثاق يؤخذ على المدعو بان لا يذيع سر معتقده وان يرجع فى حل ما يعترضه من الاشكال الى الامام .

والمرتبة الخامسة ؛ هى « التدليس » . وهو انهم يدعون ان جميع اعاظم الدين والدنيا هم من رهطهم وذلك لكى يزيدون المدعو رغبة فيهم .

والمرتبة السادسة ؛ هى التأسيس » . وهو بيان بعض مقدمات يوافق عليها المدعو .

والمرتبة السابعة ؛ هى « الخلع » . وهو التطمين بامر اسقاط بعض الاعمال الدينية.

والمرتبة الثامنة ؛ هى « السلخ » وفيها تباح جميع اللذات ويصار لتأويل التكاليف الشرعية ؛ ومن وصل لهذه المرتبة يكون عريقاً فى الباطنية ومتملصاً من جميع التكالف ، وهؤلاء يزعمون ان معانى الاحكام الشرعية على هذا الوجه :

« الجنة » هى اعفاء الناس من العبادات البدنية وراحتهم؛ « جهنم » هى مثابرة الناس على العبادات البدنية الشاقة ؛« الوضؤ » هو تلقى اصول الدين من الامام ؛ « التيمم » هو تلقى اصول الدين من « الحجة » المأذون له بذلك لدى غياب الامام ؛ « الصلواة » هى اتباع الرسول الناطق ؛ « الاحتلام » هو توديع السر عن غير قصد لغير اهله ؛ « الغسل » هو تجديد العهد والميثاق ؛ « الزكاة » هى تزكية النفس وانارة الفكر ؛ « الصوم » هو صيانة سر الامام ؛ « الزنا » هو افشاء اسرار الدين ؛ « الكعبة » هى النبي ؛ « الباب » هو على رضى الله عنه « الطواف سبعاً » .. هى موالاة الائمة السبعة .

ونعلم من هذه التفاصيل ان حسن الصباح اخذ باصول ميمون القداح مع يسير من الفرق . وها نحن بعد ان اجملنا هذين الاصولين على الصورة الانفة ، ننقل الكلام الى البحث عن اسس الاسماعيلية الفلسفية .

[٥] — **اسس الاسماعيليين الفلسفية** — سبق ان تكلمنا عن الاسس العمومية فى

الدين الاسماعيلى اثناء البحث عن تاريخهم وكيفية ظهورهم وانتشارهم وتعاليمهم الدينية ودعواتهم. والآن نريد ان نمعن فى البحث ونربط ما بينا من المعلومات المتفرقة فى اصول ونلفق تلك الاصول والاسس ونجمعها على نسق واحد.

لو كان مذهب الاسماعيلية ومعتقدهم كما يزعمون وكما فصلنا عبارة عن تخصيص الامامة والخلافة لعلى واولاده وتفضيلهم على بعض الاصحاب وترجيحهم؛ او الاعتقاد بان ماهية نفوس الائمة هى فوق الطبيعة. وان لبعضهم قدسية تمكنه من الرجوع الى الدنيا فى الآتى ما كانت هذه الفئة تفترق عن بقية الفرق الشيعية التى مر تفصيلها فى البحث عن الفرق الاسلامية. فهذه فرق «الاثنى عشرية، القطعية، الشميطية. الذرارية. المفضلية» من فروع الامامية تعتقد كل واحدة منها بصور مختلفة فى اسناد الامامة الى اولاد جعفر الصادق. ويقطعونها عنهم على اشكال مختلفة ايضاً. و «السبائية» تقول بالوهية على. و «البيانية تعتقد بانتقال الروح الالهية من اولاد على الى «بيان بن سمعان» صاحب المذهب ويجاهرون بالغلو فى الشيعية. ولكن للاسماعيليين شذوذاً يفرقهم عن الشيعيين وغير الشيعيين.

هذا. وان تكن اسس العقائد الاسماعيلية تتحد مع اسس المعتزلة بلزوم اثبات الصفات فى الخالق او نفيها — كما سنفصل بعد — ولكن لا يسوغ حصر الاسماعيلية فى هكذا دائرة ضيقة. بل ان اكبر عامل اساسى للاسماعيلية باعتبار كونها مجوسية تتظاهر بالشيعية هى الاطماع السياسية من جهة واحياء اساطير الاولين بضربة تقضى على الاسلامية من جهة اخرى. والاسباب الحقيقية التى حدت بهم ان ينصرفوا عن المنقول الى المعقول. وقلبت معتقدهم من صورة مذهب الى مسلك. ومن عقيدة بسيطة الى اقانيم فلسفية. هى سيطرة الفلسفة اليونانية واراء فيثاغور وافلاطون وآرسطو وابيكور وپلوتەن من الحكماء اليونانيين وافكارهم.

على انه يجب الاعتراف بان الاسماعيليين لم يكونوا مجهزين كافتهم حتى ولا قسماً منهم بالفلسفة الافلاطونية ولا بغيرها؛ بل كانوا اناساً رانت على قلوبهم خاطرات الاسلاف وغرتهم الامانى. ومن العبث ايضاً ارتياد هكذا افكار فى فرقة تقبل مبدئياً تعدد مراتب التعليم ودرجات المعرفة. ولهذا كان يوجد بين الاسماعيليين من يقول بامامة اسماعيل بن جعفر فقط ونبوة محمد بن اسماعيل ويكتفى بها ومن شغف بعلى واحبه واولاده حباً مبرأ عن كل غرض؛ ومن ساقه الحرص والسفه للتجرد من التكاليف الشرعية او من اضله الخيال ومن اهاجه الحرص على سفك الدماء والبطش ثم من اخترق حدود النقل وحلق فى سماء الفلسفة واتبع خطة فكرية خاصة. ولا جرم ان هذا القسم الاخير هو اقل اقسام الاسماعيليين عددا واضيقهم حداً.

وقصارى القول انهم عبارة عن بضعة اشخاص يتبعون طريقة فلسفية، وجم غفير من عامة الناس ممن يتبع خطواتهم، ويمشى على اهوائهم ويسعى لتنفيذ مآربهم دون ان يعلم شيئاً.

ولهذا ما كانت جناتهم — التى بحثنا عنها سابقاً — واصر المفاداة وكتم الاسرار، ذلك العمى الاسود، والعهود والمواثيق وغيرها من المراسم الا مهيجات وسوائق مسلطة على ذلك الجمع الكثيف. وتلك العراقيل والشبهات والحيرة التى يستقبلون بها اولئك الناس، ما هى الا وسائل لجلب الاتباع، واستخدام الوف من الاشياع.

فاذا اضربنا عن هذه الوسائط والوسائل التى يجب اعتبارها من النقاط الثانوية تكون الاسماعيلية عبارة عن [مزيج من الفلسفة اليونانية والنصرانية ضم اليه بعض اسس من المجوسية والشيعية].

واذا لاحظنا ان مؤسسى الاسماعيلية توخوا فى غايتهم ما وراء الطبيعة من النظريات، والافكار الفلسفية المعضلة واعدوا لها الوسائط والمعارج، قاصدين خلق مركز عمومى من الالحاد يحشر اليه ثلة جديدة من الناس؛ نعلم ان للاسماعيليين طريقة خاصة وانه قد تكون لهذه الطريقة «نسق» فكرى وفلسفى.

ولا جرم ان هذه الطريقة الخاصة استمدت فيضها وقوتها من دماغى عبدالله بن ميمون القداح، وحسن بن الصباح المشبوعين بالفلسفة والعقليات. ولا نكر ان الكتب الفلسفية اليونانية التى ترجمها «حنين بن اسحق، يحى بن عدى، ابن البطريق، تيادورس، ابو بشر ابن ناعمه، ابو روح الصابى، اسحق» فى زمان المأمون من الخلفاء العباسيين. قد سهلت تكون العقيدة الاسماعيلية، وكانت سبباً لوضع اسس فلسفتهم.

*
* *

ها نحن نشرع بعد هذا الاجمال بفحص الاسس وتحليلها:

ان الديانة الاسماعيلية تحيل جميع الحادثات الكونية الى اصل واحد، الى سبب اولى كما هو الحال فى كافة الاديان السماوية والطرائق الفلسفية. وهذه العلة الاولى تسمى عندهم «الله»، واله الاسماعيليين لا يختلف باعتبار الاصل عن اله اليهود، واله النصارى، واله المسلمين. وهذا (الاله) منزه عن كل وصف. ويزعم الاسماعيليون ان القوة المدركة عاجزة عن الاحاطة بالخالق. ولذلك لا يقال عنه موجود، ولا غير موجود؛ ولا عالم، ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا يستطاع وصفه بهكذا اوصاف. [*] لان الاثبات يقتضى اشتراكه

(*) كتاب الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩

مع الموجودات الاخر فى تلك الصفات،وهذا تشبيه . ولذلك لا يؤخذ فيه بالاثبات المطلق ولا بالنفى المطلق بل ان الله — كما يزعم الاسماعيليون — هو « آله المتقابلين » و « خالق الخصمين » و « حاكم بين المتضادين » . والاسماعيليون باعتقادهم بالتنزيه عن الوصف ، يقربون الى معتقد المعتزلة . و « افلاطون » كان يرى الآله الذى سماه بالخير فوق كل تعريف ، وا فع من ان يتناوله المنطق ويظهره . وارسطو ايضاً كان يرى الله اعلا وارفع من كل شئ . اما « پلوتهن » مؤسس الفلسفة اللاافلاطونية، واشياع الطريقة الاسكندرية يقولون « ان كل ما يستطاع ادراكه بذكائنا ليس هو بألله ، ولا يسوغ القول بان بعض اوصاف الموجودات موجودة فى الاله ، فاذا قلنا عن الاس الاول انه هكذا او ليس هكذ، نزل به الى دركة الاشياء ، مع انه فوق كل شئ ، ولا يقاس بشئ» [**] وعليه يكون آله الاسماعيليين قريباً من آلههم . اما بالنظر للفلسفة النصرانية « ان الله فى مطلقية وجوده لا يوصف ولا يعرف ويزعم « آياطناس » احد فلاسفة النصرانية :« ان الله فوق كل اس ، وارفع من كل ما يتبادر لعقل الانسان » . فآله الاسماعيليين يجب ان يعرف بهذه الصفة .

وقد روى « الشهرستانى » عن « محمد بن على الباقر » ان الاسماعيليين يقولون « لما وهب الله العلم للعالمين سمى عالماً ، ولما وهب القدرة ، سمى قادراً . وبها كان الله عالما وقادراً » اى يسوغ اسناد هذه الصفات الى الله بالنظر لكونه وهب العلم والقدرة ؛ ولا يسوغ بالنظر لقيامه بهاء ولعين السبب لا يسوغ ان يقال عنه قديم او حادث ؛ بل القديم امره وكلامه ، والحادث خلقه وتكوينه .

ويزعمون ان « الآله » الذى تجب معرفته على هذه الصفة لم يخلق الدنيا . ومسئلة تكوين الكائنات اشغلت الفلاسفة اليونانية . فقال افلاطون « ان الله خير ، والخير يريد بث الخير وتعميمه ولذلك خلق الكون » وقابله آرسطو قائلاً « ان الله تفكر كامل ، فلا يفتكر بهذه الدنيا الناقصة ، وليس لفكر الكون نصيب من الاله . لانه ارفع من كل شئ .

اما پلوتهن فيقول « ما فطر الله الدنيا عن حاجة ، ولا عن هوس . اذ التسليم بهذه الصورة، يشعر ان الله لم يكن مالكاً عليها . وعدم الملك هو عدم الكمال . وايضاً ان الله لم يخلق الدنيا بطريق الصدفة ، ولا بألجاء الضرورة . لانه هو خالق الضرورات ، والقوانين فى الموجودات

وبما ان الله والاراده لا يفترقان ، يكون الله خلقها بالاستقلال وبالارادة الربانية . وتداخل فى الكون دون ان يخل وحدته ومحضيته » . وبالنظر لهذه الاقوال ، يجب ان

(**) راجع كتاب (Alfred Fouillée, Histoir de la Philosophie)

يسلم بوجود بعض الدرجات فى خلق الكون ، وبعض وسائط من الدرجة الثانية . وقول الاسماعيلية « ان الله لم يخلق الكون » واعتقادهم به يشعر ان الخلق كان على وجه التجلى التدريجى .

يزعم الاسماعيليون ان الله فطر « العقل» او «عقل الكل — *Raison universelle*» قبل كل شئ واختلط فى العقل الاول ، فتجلى بحال آله خارجى يفهمه الانسان ويتجه اليه فى عبادته . واوجد بواسطة العقل الاول « النفس الثانية » او « روح الكل — *Ame universelle* » . وبهذا يتكون تثليث الاسماعيليين . والتثليث دخل الفلسفة المسيحية ، واللاافلاطونية من فلسفة الهند واسس الوثنية .

فاعتقاد الاسماعيليين بالآله والعقل الاول ، والنفس الثانية يقرب من عقيدة البراهمين فى « براها ، سيوا ، ويشنو » وعقيدة المسيحيين فى « الاب ، الابن ، روح القدس » وعقيدة پلوتهن فى « الخير والذكاء والروح » .

واللاافلاطونيون كالاسماعيليين تماماً يأخذون بالتثليث اثناء البحث عن خلق الكون فيقولون :

[اما كيفية الخلق ؛ فيجب على « الخير » فيها ان يخلق من ذاته موجوداً قريباً منه ، اكمل من كل شئ بعده ؛ ويجب ان يكون التفاوت بين الخير الخالق ، وبين الخير المخلوق يسيراً جداً . فالخالق هو الاب ، والمخلوق هو الابن . ثم ان الخير ، والخير ابنه يحدثان موجوداً اقل منهما كمالاً . ولا يفقد الثانى شيئاً بايجاد الثالث ؛ كما لم يفقد الاول شيئاً بايجاد الثانى . فالموجود الذى اوجده الله هو الذكاء ؛ والذكاء هو الذى فطر الكون ... الخ] .

وهكذا اخذ الاسماعيليون بعقيدة التثليث متبعين الاسس اللاافلاطونية ، والمعلوم من العقائد النصرانية .

ولكن للاسماعيليين شذوذاً فى هذا التثليث ، يزعمون ان « العقل الاول » تام فى فعله اما الثانى فهو غير تام . ونسبة النفس الى العقل ، اما كنسبة النطفة الى الخلق الكامل ، او كنسبة البيضة الى الطير ، او كنسبة الولد الى الوالد ، او النتيجة الى المنتج ، او الانثى الى الذكر ، والزوج الى الزوجة .

ثم ينتقل الاسماعيليون بعد هذه المقدمة الى التكلم عن كيفية الخلق فيقولون:

— لما تاقت النفس الى كمال العقل ، احتاجت الى الحركة من النقص الى الكمال . واحتاجت الحركة الى « آلة الحركة » ايضاً . وبهذا وجدت الافلاك السماوية . ودارت بتدبير النفس « حركة دورية » . ثم حدثت حركة اخرى ، وبتدبير النفس ايضاً كان منها المعدن والنبات والحيوان ، والانسان وغيرهم من المركبات . ثم اتصلت النفوس الجزئية بالابدان ، وامتاز

الانسان بما لديه من القدرة الخاصة على تلقى النور واخذه . فكان عالمه مقابلاً للعالم الكلى .

يريد الاسماعيليون بهذه العبارة ان يقولوا ان الروح الكلية خلقت المادة الاولى بالحاجة الى الحركة ، وبهذا كانت تجايات الزمان والمكان .

وعقيدة « هراقليت » بارجاع الكون الى الحركة اوجدت نظرية التكامل فى فلسفة آرسطو . وكان افلاطون يقول « ان الله روح عمومية فيها خاصة الحركة ، بل هو روح الاكوان » ولذلك ان نظرية الحركة عند الاسماعيليين ليست بغريبة عن افكارنا .

بعد ان فصل الاسماعيليون كيفية وجود « العالم الانسانى » ، قالوا :

— وجب وجود عقل للشخص فى هذا العالم ، عالم الانسان ؛ كوجود العقل والنفس الكلى فى العالم العلوى . ذلك ليتكون الكل ويكون حكمه كحكم الشخص الكامل البالغ ولكن توجد « نفس مشخصة » يكون حكمها كحكم الطفل الناقص . تتجه الى الكمال كما يتجه الطفل . يريد الاسماعيليون بهذا الاجمال ان يطرقوا الاسس المهمة . ويوجد هنا تلميح الى نظرية پلوتهن بشان « العالمين » يزعم پلوته ان الله خلق عالمين . « العالم العلوى» او السماوى الذى يتضمن عناصر الالوهية . و « العالم السفلى » وهو يتضمن الطبيعة والانسان . وان الثانى من هذين العالمين مستعد لان يكون نظيراً للاول . او بالاجدر ان الواحد منهما نازل ، والثانى صاعد ، واحد يتباعد عن الله ، والاخر يتقرب منه .

وقصارى القول ، ان هذه النظريات تجرنا الى نظرية « التكامل » لارسطو من جانب ؛ والى الفلسفة اللاافلاطونية ، ونظرية « رجوع الرب الى الكون » من فلسفة النصارى من جهة اخرى . ويزعم ارسطو « ان حركة المادة عبارة عن الترقى ، فترقى بها الطبيعة من الحضيض الى السمو وتترفع من اللاعضوية الى العضوية ، ثم من النبات الى الحيوان وتتعالى من الانسان الى الله »

اما پلوتهن فيقول « ان فوق كل درجة درجة اكمل . وتحت الدرجة الدنيا درجة ادنى وكل درجة تشرع بالرجوع الى الدرجة التى ولدتها . والموجودات كلها مندفعة نحو الله ولذلك يجب المرور على كل الدرجات ليحصل الكمال . فالولد يرجع الى ابيه والاب الى ابيه . وموجودات الكون هكذا ؛ تحدث الحركات الكونية بصعودها وهبوطها . وهذه الحركات تكون من الصاعد الى الهابط وثم من الهابط الى الصاعد . اى تكون اولاً من الكامل الى الناقص . ثم تنقلب من الناقص الى الكامل » . وهذا هو اساس الموازنة التى يريد الاسماعيليون تأسيسها فى العالم السفلى ، لتكون نظيراً للعالم العلوى .

يريد الاسماعيليون ان يقولوا :

— يجب ان يكون فى العالم السفلى تمثالاً لعقل الكل وروح الكل ؛ كما كان فى العالم

العلوى عقل الكل وروح الكل . فيجب ان يتجه هذا التمثال الى عقل الكل ، كما ان روح الكل متجهة اليه . فتوجد فى الكون حركة من الصاعد الى النازل ، ثم من النازل الى الصاعد .

وهم يؤمنون بان العقل العلوى تجسد (Incarnation) فى العالم السفلى ، وبوجد « النبى » او « الناطق » ، وان النفس الكلية تجسدت فى العالم السفلى فوجدت « الاساس » او « الاس ، الوصى » (*) وبهذا تكون عقيدة « التجسد » فى النصرانية ، موجودة بتمامها فى الديانة الاسماعيلية . وان فكرة وجود الانبياء والائمة الناطقين والصامتين كانت معروفة لدى « الخطابية » من فرق الشيعة . ثم استأنف الاسماعيليون الكلام فيقولون :

— ان الناس تحركت بالشرائع ، وذلك بتحريك « النبى » و « الاساس » ؛ كما تحركت الافلاك بتحريك العقل والنفس . لان سلامة العقل البشرى فى العالم السفلى لا تحصل الا بكسب العلوم التى وضعها « النبى » المجسد من « عقل الكل » . وبهذا تتعالى « الروح البشرية » او « النفس البشرية » متجهة الى « روح الكل » اى « نفس الكل » . وبناءً على قصر الحياة البشرية ، ومحدوديتها يظهر عين التجسد فى سلسلة من الاشخاص . وهكذا اصبح « النبى » و « الاساس » يتوالى مع الزمن على المراتب السبع (**) . ومتى انتهى الدور الاخير تتحقق القيامة . والغاية من هذه الحركات الفلكية ، والسنن الشرعية هى بلوغ « النفس » درجة الكمال . والكمال يكون ببلوغ النفس درجة العقل واتحادها معه ، ووصولها فعلاً اليه . فاذا حصلت الامنية ، وبلغت النفس العقل ؛ تدخل فى « عقل الكل » « الله » . وهنالك تبطل جميع الحركات . وهذه هى « القيامة الكبرى » . ويومئذ يحل ارتباط العناصر ، وينفرط تركيبها فتنفطر السماء ، وتنتثر الكواكب ، وتبدل الارض غير الارض ، وتطوى السماء كطى السجل للكتب .

واعتقاد الاسماعيليين هذا بشأن القيامة الكبرى كان متضحباً للفلاسفة اليونانيين . والقيامة بزعم افلاطون هى « شمول الخير » ، وبزعم ارسطو هى « خاتمة التكامل » .

ونرى كلاً من الشرائع الدينية ، والطرائق الفلسفية سلمت بوجود هكذا خاتمة . اما التناسخ فى الامامة و النبوة ، فحقيقته النظرية القديمة فى تناسخ الارواح ، افرغت فى شكل آخر . والذى احدث هذا المذهب هو اعتقاد فرقة « لمخية » من المجوس ،

(*) راجع (La grande Encyclopedid).
(**) ذكرنا اسماء الانبياء ، والاسس فى الابحاث السابقة.

وفرق « المعمريـة » و « الكاملية » من غلاة الشيعة الذين عرفوا بهذا المعتقد فى انحاء ايران .

اما « السبعة » فى الائمة ؛ و« الاثنى عشر » فى النقباء فهى موروثة عن فرقة « المزدكية » من المجوس . لان هذه الفرقة تزعم ان ادارة العالم العلوى تكون اولاً باربعـة قوى ، ثم بسبعة ؛ ثم باثنى عشر قوة . [*]

نرى من الضرورة ان نوضح وضعية « النبى » ونبحث عن نبذة من صلاحيته . يقول الاسماعيليون :

— ان الشريعـة التى يؤسسها الانبياء قطعية لانهم التمثال المجسد لعقـل الكل. ولهذه الشرائع معنى ظـاهر ومعنى باطن . فالعارف يطلع على المعنى البـاطن ؛ ويتملص من قيود الشرع الظـاهرة . ويرى كل شئ مباحاً. اما الجهلاء فيستسلمون للمعانى الظـاهرة من الشرع ، ويلبثون مرضوخين تحت اعبائها الباهظة . مع ان الغاية من الشرع هى اظهـار حقائق الكون . وبتلقينها يكون الانبياء ناهضين بالروح البشرية الى الكمال. وقصارى القول ان المعرفة هى المرشد لاعمال الانسان ولا تكون الا بارشاد الدعاة والائمة والانبياء . وبهذا يتم التكامل .

لا مراء فى ان امر التجرد عن القيود والتكاليف الشرعية هو افظع ضربة اريد تسليطها على الجامعة الاسلاميـة ، وهى اكبر امنيـة الاسماعيليين. وهذه الغـاية ترمى الى الافراط والاغراق فى فلسفة الحظ المعروفـة لاپيكور . لاسيما ان فرق « الخطابيـة والمعمرية ، والجنـاحية » من غلاة الشيعـة لم يألوا جهداً فى اعداد الافكار للاقبـال على هذه الطريقة . (**)

وقد دسوا فى مسئلة التملص من الدين فكرة الاشتراك فى الاموال ، واباحة الاعراض ايضاً . وهذه اقتبست من معتقد « المزدكية » . لان هذا الدين قد عرف سابقا بتلقين هذه الفكرة . حتى انهم يقولون :

— ان الاختلافات بين الناس والبغض والعدوان والمشاحنات والقتـال لا تكون الا من اجل النساء والمال . ولذلك يجب تحليل النساء ، واباحة الاموال الى عموم النـاس . وبهذا ينقطع الشقاق وينعم عيش الانسانية .

اتبع الاسماعيليون هذه التلقينات وبلغوا « ذروة الالحاد » بمروقهم عن الدين، وتملصهم من ربقـة قيوده . وسبق ان قد ذكرنا هذه العقيدة الثـانوية الاسماعيلية التى صدرت

(*) كتاب الملل والنحل — للشهرستانى ج ٢
(**) بحثنا عن هذا الفرق، اثناء البحث عن الفرق الاسلامية .

عن هذا الاسـاس ، وذلك حين البحث عن دعوتهم الاخيرة ولـذلك لا نرى لزوماً للاعادة.

وها نحن نجمل ما افضنا بتفصيله الى الآن ، قائلين :

— لا عبرة للمذهب الظاهر لدى الاسماعيليـين . لان الدين من الامور الغامضـة والباطنة . ولا يكتسب الا ممن اتصف بالقدسية ، وبالاجدر من شخص متجسدومتناسخ والعلم الذى سيحصل بهذه الطريقة هو غايـة الكمال للانسان ، ولا يرضخ تحت اعبـاء التكاليف الظاهرة من اسعده الحظ وبلغ هذه الغاية . وان السعادة المحضة فى نيل هـذه المعرفة وادراك تلك الحقيقة والوصول الى هاتيك الجنات . وروح الذين ينالونها تتعالى الى ان تلحق « بعقل الكل » بالوجود الازلى ، وبه يتم دور الكون المحتم .

٢ — النصيرية

[١] — *مقدمة تاريخ النصيرية* — ان الديانة النصيرية التى لها القسم الجلى من سلسلة المذاهب لم تتضح بعد ، ولم تزل اتباعها معروفة بالاغراق فى كتم اسس المذهب والابلاغ بصيانة شنشنته ومراسمه . وكان من المنتظر من علماء الغرب الذين عالجوا اعسر الكتابات واغمضها فى مختلف الانحاء من البر العتيـق ونفذوا لغورها واقتدروا على استنبـاط معانيها ، ودونوا فيها الوفاً من المصنفات والرسائل ان يمدوا ايديهـم الى هذا الحجـاب الكثيف فيمزقونه ، ويظهرون ما ورائه من الخبايا . ما لبث مذهب النصيرية الذى زادتـه اسنادات الفرق الدرزية والمتوالية والاسماعيلية تشوشاً واشكالاً ، ان حرك شوق المستشرقين لدرسه والاقبال على استكناه حقيقته . وسنرى فى المبحث الخاص ان ابن تيمية وابن بطوطه وابن جبير وابا الفدا من العلماء والمؤرخين الاسلامية وقليلاً من خواص الاسماعيليـين ، والدروز عالجوا معرفة عقيدة هؤلاء الجبليين وكتبوا فيها كتابات كثيرة .

ثم نهـض المستشرقون الاوروبيـون فى اواخر القرن الاخير ، وبعد انتشار كتـاب « الباكورة — كما سيمر معنـا — وعمدوا الى المدونات الموجودة فرتبوهـا انواعاً ، ووسعوا ميدان البحث والتدقيق ، ثم نصبوا انفسهم لاستكناه ماهية هذه العقيدة .

لا يفوتنا ان موضوعنا هذا لا يزال فى اشد الحاجة الى البحث العميـق ، والتمحيص الدقيق ؛ ذلك لعدم كفـاية ما كان الى الان من الابحـاث العلمية وندرة الوثائـق اللازمة . وسيطلع القارئ على صدق هذا المقال ، حينما يمعن بقرائة هذه المباحث فى كتابنا .

اضطررنا لان ندرس كثيراً من الكتب والرسائل المدونة بلغات مختلفة وان نلخص منها

ما يناسب حجم هذا الكتاب ، ليتسنى لنا ان نكتب ما نكتب على الحياد ونقدر ان نبين للقارئ في مذهب النصيرية فكراً واضحاً ياخذ بالحقيقة . واكثر ما رجعنا اليه من المصنفات حين الجمع هو « تاريخ النصيرية ودينهم » للمستشرق الشاب René Dussaud من العلماء الفرنسويين . ومع ذلك فقد كنا نرجع الى الآثار الآتية كلما مست الحاجة .

١ . — كتاب الباكورة السليمانية فى كشف اسرار الديانة النصيرية :

صنف هذا الكتاب « سليمان افندى الاذنى » المولود فى انطاكية سنة ١٢٥٠ هجرية . يقول الطبيب الحاذق « وانديك » من معلمى الكلية الاميركانية فى بيروت : « ان سليمان افندى كان نصيرياً ثم انسلخ عنها الى اليهودية ثم اسلم ولم يلبث ان انتسب الى البروتستانية وألف كتابه فى بيروت وطبعه على عهدته » .

ان ما تضمنته الباكورة من المواد هى عين الحقيقة كما يشهد لها كثير من الاخصائيين والمستشرقين . وكادت تجمع جميع الاعتقادات النصيرية . وقد حنق عليه ابناء النصيرية لانه اول من فضح دينهم واظهره ، ففتكوا به فى قصبة طرسوس . وكاد هذا الكتاب يدخل فى الندرة .

٢ — كتاب المجموع .

ان هذا المصنف الذى اثبتناه فى كتابنا مع ترجمته يتألف من « ١٦ » سوره تبحث عن عقائد النصيريه وصلواتهم . وهو كتاب مختصر كاد ان يحتوى على جميع الاسس فى العقيدة النصيرية . ويتوقف فهم مضمونه على التضلع فى الامور الدينيه والتوغل فى تتبعها واختلف فى مؤلفه فمنهم من يسنده الى « عبدالله بن حمدان الخصيبى » احد المقدسين لدى النصيرية . ومما راج من الخرافات عند النصيرية ان محمداً عليه السلام هو الذى رتب هذا الكتاب ، واهداه الى النقباء الاثنى عشر المذكورين فى السورة السادسة فى « وادى منى » القريب من مكة وذلك عن غير علم من المسلمين . وان لتفسير سور هذا الكتاب موقعاً عظيماً اثناء اجراء المراسم فى نقل احد النصيريين من الطبقة العامة الى الخاصة بواسطة الشيوخ .

٣ — كتاب مجموع فيه الأعياد والدلالات .

وهذا الكتاب يبحث عن الاعياد النصيرية وقد كتبه « ابو سعيد ميمون بن القاسم الطبرانى » الذى يأتى بعد الخصيبى فى الاهمية . وقال مؤلف الباكورة « ان ميمون الطبرانى تلقى علومه من الشيخ « محمد على الجبلى » وقد افحش فيه بسب ابى بكر ، وعمر وعثمان ، وشتمهم .

٤ — كتاب الاسوس :

يزعم النصيريون ان مؤلف هذا الكتاب . هو « سليمان بن داود » عليهما السلام .

وقد نقل سنة ١٢٠٦ هجرية عن نسخة وجدت فى قرية (رأس بعليه) فى منطقة عليقة الواقعة فى قضاء صافيتا . ويبحث فيه عن الله والخلق والملائكة ، وعن موجودات السماء والارض .

ويوجد ما عدا هؤلاء المصنفات اكثر من ثلاثين كتاباً ومجموعة تمكن الاستفادة منها فى البحث عن النصيرية وقد ازمعنا على درج اهمها فى جدول اسماء الكتب .

[٢] — **الديار والنفوس** — تنتهى جبال لبنان من الجانب الشمالى ، بنهر الكبير (Eleuthère) الذى يصل وادى العاصى بسواحل بحر الابيض ، ويجرى فى واد عميق . اما الجبال الموجودة وراء هذا الوادى فهى تمتد حتى انطاكية على ارتفاع متوسط يقرب من (٩٠٠) متراً وهى محرومة من السهول والنجود . ويجرى هناك نهر العاصى فى واد عميق . ويتصل جبل الاقرع (Cassius) فى هذه السلسلة من الجانب الشمال الغربى .

ان تلك الوعور التى يحدها نهر الكبير من الجنوب ؛ ونهر العاصى من الشرق والشمال وسواحل بحر الابيض من الغرب هى موطن النصيريين . ويوجد فيها قليل من الارمن ، وفى انحاء قدموس وخوابى يوجد الاسماعيليون وفيها التركمان ايضاً مبعثرون فى انحاء مختلفة . وتسمى تلك الانحاء بجبل الاكراد . لان الزاوية الجبلية الكائنة بين النهر الكبير الشمالى ، واصقاع العاصى ماهولة بهم .

يوجد من النصيريين عدد وافر فى جبل القصير الواقع فى الجهة الشمالية من سورية ويفرق النصيريون القاطنون فى انحاء طرسوس ومرسين وآطنه ، بسعيهم وغنائهم عن سكان الجبل الكسالى والفقراء . وقد كان يوجد كثير من النصيريين فى الانحاء الجنوبية التى تبتدأ من النهر الكبير الجنوبى . ولكنهم اخذوا فى المدة الاخيرة بالهجرة الى الجهة الشمالية ، وذلك لضغط المارونيين ولاسيما الاورتودوقسيين عليهم بصورة غير محسوسة . وبسبب الزراعة ربما يعثر على قرى نصيرية فى الشمال من سهول البقاع والغرب من بحيرة حمص . اما النصيريون فى انحاء العراق فعلى غالب الظن لا يتجاوز عددهم بضع مئات . اما ما ادعاه « مسيو دهغوبينو De Gobineaus » بان خمسى الاعجام نصيريون فذاك امر يقتضى التمحيص والدرس العميق . وعليه يجب قبوله مع الظنة .

يمكن ان يقال ان عدد النصيرية فى لوائى اللاذقية وطرابلس وولاية حلب يناهز ١٣٠,٠٠٠ نسمة برواية رونه دوسسو — Dussaud) . والذين فى انحاء آطنه ومرسين منهم لا يقل عددهم عن (٢٠,٠٠٠) نسمة .

[٣] — **منشأ النصيريين** — لا نبالغ اذا قلنا انه لم تتفق الآراء فى الحكم على هذه المسئلة . يقول بعض المؤلفين ان النصيريين نتجوا عن اقتران الاهلين بالافرنج ؛ وهؤلاء المتمسكون فى هذا الادعاء مستندين على ما هو موجود بين النصيريين من شقر الشعور ، وزرق العيون ، وعلى بعض اسماء الاسر التى يزعمون اشتقاقها من الافرنجية ، لاجرم انهم مخطئون . والادعاء بان الافرنج تمكنوا من ايجاد هذا النسل الوافر بظرف قرنين ونصف يعد من السذاجة . والصليبيون فى هذه المدة التى تعد يسيرة فى جانب حياة الامم ، لم يتمكنوا من تخليد اثر مادى سوى بضعة مواقع تاريخية .

نهض موسيو هارتمان احد المؤلفين الالمانيين واذاع انه يريد البحث والتنقيب عن الاسر الكبيرة فى سورية التى هى من بقايا الافرنج ، ثم ما لبث ان نشر بعض آرائه (*) . وقد التبست عليه بيت الشامبور هل هى مشتقة من كلمة *Chambord* ام لا .

ويزعم العلماء « كارنست رونان » و « پەر لامنس » ان النصيريين كانوا يدينون بدين النصرانية ، وبعض من حذا حذوهم من العلماء يبرهن على هذا الراى قائلاً ان كلمة « نصيرى » هى مصغر النصرانى . وعليه تسوغ تسمية النصيريين ، بصغار النصارى — *Petites Chrétiens* .

وقد دخل هذا التوجيه فى كثير من الكتب الحديثة . على ان خطأ هذا الاشتقاق معلوم لدى كل من له ادنى المام فى القواعد العربية . لان مصغر النصرانى ليس بنصيرى ، بل هو نصيرانى . وما عدا هذا فقد تنقب « ابو الفرج » بطريق حلب ومن مؤرخى القرن (١١) الميلادى منشأ النصيريين ، ولكنه لم يزعم انهم من النصارى .

وقد كثر من تمسك بهذا الادعاء الغريب من مؤلفى الافرنج . فزعم مدريتى *Mariti* الايطالى ان اليزيديين — الذين ينطق اسمهم عن دينهم — هم من الجزويت . وزعم آخر ان الدروز هم من احفاد *Dreux* احد الامراء الفرنساويين .

وقد برهن الفحص الفنى على ان اسم هؤلا القوم منسوب الى « محمد بن نصير » الذى هو من اتباع « حسن العسكرى » من رجال القرن التاسع للميلاد وحادى عشر ائمة الشيعة . ومذهبهم يماثل مذهب الاسماعيليين . ولكن لا تزال العداوة والبغضاء مستحكمة بين الفريقين رغماً عن تلك المماثلة المذهبية .

ما كان محمد بن نصير ليشذ عن دأب صناديد الاديان ؛ بل اخذ بشنشنتهم ، وتطوق بهالة خرافية كدأب الذين من قبله .

(*) Das Liwa el-Ladkije und Naye Urdu, ZDPV.,

يزعم النصيريون ان محمداً هذا ، هو ابن « نصير » من وزراء معاوية وقد كان يدين بالنصيرية . وشاع فى تلك الاونة دخول رجل اسمه « احمد البنا » فى هذا المذهب فسعرت النار لاحراقه ، وعزموا على القائه فيها ثلاث مرات فكان ينقلب الى صورة يزيد بن معاوية فى كل مرة ؛ فيرتدع الخليفة عن قذف ابنه فى النار . واثر هذا الحال على عواطف الوزير النصيري ، فاسترضى معاوية بتقديم ابنه الوحيد ليحرق مكانه ، وضم ذلك المظلوم اليه ، وتبناه . وكان يومئذ عمره (١٠٥) سنة ثم نزل عليه الروح الامين فبشره بغلام جزاء انقاذه النصيرى من النار ، ولم تلبث امرأته العجوز ان ولدت ذلك الغلام ، فكان هبة الله « محمد بن نصير »

اما « ابو شعيب محمد بن نصير العبدى البكرى النميرى » المذكور فى السورة الاولى والرابعة من كتاب المجموع فهو « الباب » الى « حسن الآخر العسكرى » حادى عشر ائمة الشيعيين . وعليه يكون ظهور رئيس النصيرية فى النصف الاخير من القرن التاسع للميلاد اى « سنة ٢٦٠ هجرية » . والغالب فيه ، انه اعجمى الاصل ، وكلمة عبدى فى الاسم تدل على انه كان مولى لاحدى القبائل العربية .

ويزعم ايضاً ان النصيريين ينتمون الى « نصير » مولى على بن ابى طالب ، وانهم عراقيون ، وعلى رواية اخرى انهم من انصار النبى ، ومهاجرى الحجاز وهذه الروايات — مع بطلان بعضها — لم تكد تستقر على يقين علمى . وسنتمكن من ايضاح هذه النقطة فى الفصل الآتى :

[٤] — **تاريخ النصيرية** — منذ ايام الرومانيين الى القرن الحديث — . كان النصيريون فى ايام الرومانيين ايضا . ويروى « استرابون » من مؤرخى يونان ان النصيريين حافظوا على كيانهم واستقلالهم تجاه الفنيقيين فى العصر الاول للميلاد . وشد ما امعنت النصرانية فى الانتشار والتعمم بين الوثنيين فى سورية ، ولكنها لم تستطع ولوج تلك الجبال على النصيريين ، فكانوا فى معزل عن تبشيرها . ويبرهن على صدق مدعانا مايعثر عليه فى انحاء سورية من انقاض البيع والكنائس المبنية على طراز القرن الخامس ، والسادس للميلاد التى لا اثر لها فى بلاد النصيرية .

ويغلب فى الظن ان المسلمين ايضاً لم يتمكنوا من اكتساح جميع هاتيك الشواهق فى القرن الميلادى السابع . واسم النصيرية لم يدخل التاريخ الا منذ القرن (١١) . وقد اخترقت جنود الصليبيين هذه الجبال من انحاء متفرقة ؛ وتمكن « صلاح الدين الايوبى » ايضاً من استمالتهم ، والاحراز على طاعتهم .

نهض الاسماعيليون فى القرن الثانى عشر للميلاد ، وارادوا ان ينتهزوا فرصة ما جنه

ايدى الافرنج على سورية من الارتباك والتشوش الادارى ؛ وعمدوا الى قصبة بانياس القريبة من الشام فاستولوا عليها . ولكن لم يقدروا على الاحتفاظ بها ، وعجزوا عن الدفاع ، ثم غلبوا وفروا الى جبال النصيرية . وقاد رئيسهم « شيخ الجبل » ففتح قدموس وكهف ومصياد وقاهر ومانيقه وخوابى ومرقب من بلاد تلك الديار ، وادخل النصيريين فى طاعته .

ثم أخذ شيخ الجبل « رشيد الدين سنان » باستمالة الجبليين اليه . وتسنى له ادخال كثير منهم فى زمرته رغماً عما تكنه صدور الطائفتين — الاسماعيلية والنصيرية — من الضغائن والبغضاء لبعضهما .

وفى اوائل القرن التاسع عشر للميلاد نبغت عشيرة « بيت رسلان » التى هى من اعظم العشائر النصيرية ، وزادت بسطتها ، وقويت شوكتها واصبحت ذات السيطرة على جميع مشايعيها . وقد نهضت لقتال الاسماعيليين اعدائها وهجمت على قصبة « مصياد » حيث فتحتها وذبحت جميع من فيها . ولم تلبث « ايالة الشام » فى ذلك الزمن ان جهزت مقدار خمسة آلاف جندياً وسيرتهم اليها ، ولكن ما كان من هذا الجند الا ان نهب بضع قرى وعاد الى حيث اتى .

ولما اقبل « ابراهيم باشا » المصرى بجنوده ليفتح سورية (١٨٣٢ — ١٨٣٣) تحفزت لرده عشيرة « شمسين » الحاكمة على ضواحى « صافيتا » ، وحاولت ان تقف امام تياره ؛ ولكنه اناخ عليها بكلكله ، فبطش برؤسائها ، ودمر جميع حصونها .

وفى سنة (١٨٥٤) ميلادية . قام « اسماعيل بك » احد رؤساء النصيريين ، المنتمى الى عشيرة « المتاوره » والمولود فى قرية « لوكبه » القريبة من بلدة « حما » وانتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب الروس ، فشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان ، وحشد حوله كثيراً من عشائر النصيرية ؛ ثم انتقل الى (صافيتا) وسمى نفسه « مشير الجبل » ، واخذ يشتغل بادارة تلك الاصقاع على وجه شبيه بالاستقلال . وقد كانت الدولة يومئذ مرتبكة فى الغوائل الخارجية فرأت ان تجنح معه الى السلم واقطعته تلك الانحاء ونصبته وال عليها .

ما لبث الوالى الجديد الا واغرق فى الترف ، وتسرب الى البذخ حتى كان قصره مختصر بلاط سلطانى . واصبح الرسلانيون والشمسيون ، والخياطيون ؛ اولئك الذين رجفت لسطوتهم قلوب الجبليين ، يدأبون لمرضاة هذا السيد الجديد ، وبذلك تسنى لهم الخلاص من الظلم ، والعسف الذى ارهب جميع الناس .

رأى اسماعيل خضوع (١٢٠) الفاً لحكمه المطلق ، ورأى فى نفسه من البأس والقدرة ما مكنه من جميع آماله ، فرنحه ذلك السلطان وغرته تلك المكانة ؛ فاستسلم الى

الطمع ، وطلب من الدولة ان تقطعه قلعة حصن الاكراد يضيفها الى ما فى حوزته من البلاد ، وقد نجح طلبه ، واسعف ، ولكن نهض سنيو سورية واظهروا مخالفتهم على اقطاع تلك القلعة الخطيرة الى النصيريين ، وجاهروا بالثورة والعصيان ، وجرت بين الطائفتين حروب متعددة . اما الدولة فقد آزرت السنيين وامدتهم بخمسة الاف جندياً فانهزمت طائفة اسماعيل بك ، وجد « طاهر باشا » قائد الحملة فى طلبه ، حتى ادخله قرية « لوكبه » التى هى مسقط رأسه حيث قتله فيها احد النصيريين .

اخذت الحكومة ادارة النصيريين بعد ان قتل اسماعيل بك على عهدتها واسست فى بلادهم الاسس الادارية ، ومع هذا لم يخلص النصيريون من الظلم والعسف . ولم تكن ثوراتهم فى سنة ١٨٣٧ و١٨٧٠ الا من سؤ تلك الادارة .

كانت اللغة السريانية متفشية بين النصيريين قبل مهاجرة الاسماعيليين فى اوائل القرن الحادى عشر . ولم تزل بعض كلمات تلك اللغة موجودة فى لغة النصيريين الى الان . ويستدل من كثرة الكتابات اليونانية الموجودة هناك ، على ان تلك اللغة كانت متفشية عندهم قبل السريانية .

[٥] — **دين النصيرية** — تتالف احكام الدين عند النصيريين الذين عهد الينا البحث عن شؤونهم العمومية : من العقائد ، والصلاة ، ومراسم الدعاء ، ويسير من الاخلاقيات .

ان اول اعتقادهم هو تثليث الآلهة ، اى ايمانهم بثلاثة آلهة . ويسمون اول هؤلاء الآلهة « المعنى » والثانى « الاسم » والثالث « الباب » . ويقصدون الغيب المطلق من المعنى ؛ والاسم الصورة الظاهرة للمعنى ، اما الباب فهو الطريق الموصل الى الغيب المطلق . وقد كان قدماء علماء النصيرية يسعون لايضاح هذا « الواحد المثلث » وتفسيره ويستعينون ببعض ما تمسك به النصارى من الادلة والبراهين .

يدعى المستشرق پهر لامنس احد معلمى المدرسه اليسوعية البيروتية الملغاة ، ان النصيريين كانوا على دين النصرانية قبل الاسلام . ويؤيد صدق مدعاه بما شاهده من انقاض البيع والكنائس فى محلات متفرقة فى تلك الجبال . ويجب على القارئ ان يكون على يقظة من امره تجاه هذا الادعاء . لان هذا المستشرق ينتمى الى فئة الجزويت التى لو مكنت لجعلت جميع سكان البسيطة نصارى . هل لا نرى منهم « پهر شيخو » الذى حشد فى كتابه « شعراء النصرانية » كل غريبة ؟ الم يجعل اكثر شعراء الجاهلية من النصارى ؟

لم يخلص النصيريون من تاثير النصرانية فى مراسمهم الدينية . وسنتكلم عن هذه المسئلة ونفصلها بعد . وان المستشرق دوسو — *Dussaud* ينكر على من يزعم ان النصيريين

دخلوا فى النصرانية قبلاً ثم انسلخوا عنها . ويأتى بالبراهين الناصعة ، والحجج القاطعة فى تأييد مدعاه . ولا بد لمن يطلع على آراء هذين المستشرقين ان تعتريه الحيرة ، ويظن الظنون وهذه احدى المسائل المهمة التى لم تحسم بصورة يقينية .

ينقسم اشياع الديانة النصيرية الى اربع شعب :

الحيدرية ، الشمالية او الشمسية ، الكلازية او القمرية ، الغيبية . لا ننسى ان هذا الانقسام منحصر فى الفروع . وان « كتاب المجموع » المقدس جعل جميع افراد النصيرية مندمجةً فى الوحدة الدينية .

يقسم النصيريون زمانهم الى سبعة ادوار ، كل واحد منها تمثال لآله . وسبب هذا التقسيم هو انقسام الاسبوع الى سبعة ايام . ويزعم الاسماعيليون وجود نبى ناطق فى كل دور من هذه الادوار . وهو مكلف بتعليم اسس الديانة ونشرها . ويأتى بعد كل نبى سبعة ائمة لاجل اتمام شريعته ، والاول من هؤلاء السبعة يكون كالاساس . فآدم ونوح ، وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، ومحمد بن اسماعيل بن جعفر ، هم انبياء صدعوا بالنبوة وجاهروا بها .

وتزعم هذه الفئة ان الائمة السبعة الذين ظاهروا النبى عليه السلام هم : [على بن ابى طالب « وهو اساس محمد الناطق » ، الحسن ، الحسين ، على بن الحسين ، محمد بن على ، جعفر بن محمد ، اسماعيل بن جعفر] .

ويعتقد الاسماعيليون ان قد جاء الائمة الستة المكلفون بتعليم الشريعة المحمدية ونشرها ودرجوا . ولذلك يجب الانتظار لبعثة مهدى آخر . والنصيريون يجحدون هذا الادعاء ويقولون : ان الدورة السابعة للزمن قد تشرفت بتجلى الالوهية فى على بن ابى طالب للمرة السابعة .

والباطنيون لم يفترقوا الا بعد وفاة اسماعيل بن جعفر . فمنهم من يعتقد ببقاء امامته بعد وفاته ، وانه سوف يكون مهدياً ويرجع الى عالم الظهور . اما الفرق الاخرى ، فتعتقد بانتقال الامامة الى موسى اخى اسماعيل (*) . وان كتاب « مجموع الاعياد » الذى هو من اهم الكتب لدى النصيريين يعدد الائمة ، ويذكر موسى بعد جعفر عوضاً عن اسماعيل . وبما ان « محمد بن نصير » كان من شيعة « حسن العسكرى » حادى عشر الائمة الشيعية ، لا يستغرب عن اتباعه النصيريين انكار امامة اسماعيل بن جعفر التى آمنت بها الاسماعيلية ؛ والاخذ بامامة موسى الذى هو جد « حسن العسكرى » . ومع هذا فان النصيريين يعتبرون الائمة سبعةً ، كما هو منصوص فى السورة السابعة من كتاب المجموع .

(*) تاريخ النصيرية لرونه دوسسو (René Dussaud) ص ٤٢

يزعم النصيريون ان المعبود المقدس واحد ، من جهة الغيب ، ولكن يتعدد فى الظهور فيحل فى الاجسام ، وما هذه الاجسام الا الكواكب السبعة التى تقلدت ادارة الكون .

حتى ان فرقة من الاسماعيلية تزعم ان على بن ابى طالب الذى هو اساس لمحمد عليه السلام قد باح بجميع اسراره الى النبي ولكن لم يطلعه على المعنى ، او بالاوضح ان « المعنى » بقى فى نفسه وبهذا يكون هيء وسيلة تساعد على خلق دين آخر . والنصيريون يصعدون بعلى الى درجة الالوهية ، ويلصقونها بكل « اساس » حاز عنوان « المعنى » .

وتوجد فروق ظاهرة بين هاتين الفئتين :

يؤمن الاسماعيليون بان « الناطقين » الذين هم شكل متجسد « لعقل الكل » هم اول ممثل للمظهر الالهى وقد زعم كل من الحاكم بامر الله ، ورشيد الدين سنان حين ادعائه بالالوهية انه « الناطق » السابع .

اما عند الدروز الذين هم اقرب الى الاسماعيلية من النصيرية ، فالاساس يأتى بعد الناطق وبالنظر الى العقيدة الباطنية فى الاسماعيليين ، ان علياً اكبر من نبى الاسلام [*] .

وان « للمعنى » الذى هو مرادف لكلمة « الله — على » قيمة خاصة فى دين النصيرية وكما ان « يسوع » عند النصارى ، هو كلمة الله ، فعلى ايضاً هو « المعنى » عند النصيريين ولهذا سميت هذه العقيدة بـ « المعناوية » .

ولكن الدروز يفترقون عن النصيريين فى هذه المسئلة . وقد بالغ حمزة بن على فى الطعن على هؤلاء قائلاً : لا جرم سينسلخ عن رحمة الله فى الدنيا والاخرة كل من اعتقد بحلول « المعنى » فى على بن ابى طالب ، وعبده كالنصيريين . [**]

و« ابن تيمية » من العلماء الاسلامية ، شدد النكير فى فتاواه المشهورة على النصيريين بسبب هذا الاعتقاد وطبق عليهم بحملة شعواء

وان ما اقترفه امراء الامويين من الظلم والجور على اولاد على ، كان سبباً لاقبال اكثر الفرق الاسلامية عليهم ، وحبهم لهم والاخذ بيدهم ، وكانت تلك الافاعيل الروحية فى بلاد العجم من الشدة على درجة اصبحت منها الاسلامية على شفا الخطر واخذ بعض الفرق الاسلامية كالشيعة والخارجية ، وفروعهما يدينون بما يخالف نص الفرقان من الاعتقاد واضطر الخلفاء ، وغيرهم من الحكومات السنية الى اختيار الشدة ،

(*) يقول رونه دوسسو فى الصحيفة ٤٥ من كتابه « تاريخ النصيرية » ان هذا شاذ . وقد ذكرنا فى الصحيفة (١٠١) من كتابنا هذا ان الاسماعيليين يعتقدون ان « الاساس تحت الناطق »

(**) نسى على بن حمزة — اثناء الطعن — عقيدة الدروز

واستعمال القسوة ليلفتوهم عن ضلالاتهم . ولكنهم لم ينزجروا ، واخذ مذهبهم يربو ويتفشى بسرعة هائلة .

قال « ابن حزم » أثناء البحث عن هذه الفرق والتنديد بها :

افرط بعض فرق الشيعة بالغلو الى درجة ، اعتقدوا فيها بالوهية على ، والائمة من بعده . ومنهم من وصل فى الغلو الى تحريف المعانى الظاهرة من القرآن . كزعمهم بان القصد من كلمة السماء هو « محمد » ، وكلمة الارض هى « الاصحاب » ، و « العمل الصالح والعدل » هو « على » والمراد من « الجبت والطاغوت » هما « ابو بكر وعمر » ، والصلاة هى « الامام » ، و « الزكاة » هى الاموال التى تعطى له ، و « الصحبة » هى « زيارة الامام » .

انتشر دين النصيرية فى أوائل القرن الخامس للهجرة ولم يزل الى الان محتفظاً على مكانته الاولى . ويعتقد ذووه بوحدانيـة الخالق ، ولكنهم يزعمون تجسد الالوهيـة فى ذات « على » ويضعون كلمة « على الاعلى » بازاء كلمة « على الله » .

ولا جرم ان الحاكم بامر الله الفاطمى ، استعان بهذه العقيدة النصيرية لما توسع فى معنى ألوهية على ، وادعى انه تمثال لها ، واسس الدرزية بمعونة وزيره « حمزه » . وهكذا فعل « رشيد الدين سنان » ، واتبع عين الخطة .

يقول النصيريون ، خلافاً لما يعتقده المسلمون :

« ان على بن ابى طـالب ، واحد لا يزول ؛ وهو حاضر فى كل مـكان وزمان . وهو نور النور الذى ينير جميـع الكواكب . وان تفتت الصخور ، وتكـون البحور ، وجميع الحركات ، هى تحت تصرفه وارادته ، وعلى الذى يبيد الكون ، غير مستور بحجاب مادى ، بل هو كامن فى انوار الذرات الالهية وما « المعنى » الا هو ، وهو امام فى الظاهر ، ورب فى الباطن وابو بكر وعمر وعثمان ، هم تماثيل الشيطان . والجهاد المقدس يجب ان يكون على الفرق التى تزعم ان علياً وغيره من الأنبياء ياكلون ويشربون كسائر الناس ، وانهم ولدتهم النسـاء [*] . ويجب تطبيـق الجزاء نفسه على من يخون عهـد النصيرية ، ويبوح باسرار العقائد ، [**] . »

يتضح لنا من هذا ، ان النصيريين يعتقدون بحلول الالوهيـة فى على ، ونرى فى السورة الحادية عشر من كتاب المجموع هذه العبارة « اشهد بأن ليس آلهاً الا على بن ابى طالب الاصلع المعبود » ، وهى تنطق بحقيقة تلك العقيدة واسسها . والائمة تمثل علياً فى الارض ولعدم وجود الائمة اليوم ، كان من المحتم انابة المشائخ عنهم . وهؤلاء لهم السيطرة

(*) سور كتاب المجموع .
(**) كتاب الباكورة

التامة على دين الافراد ودنياهم . وكل نصيرى من اى طبقـة كان مجبور على استشارة الشيخ قبل مباشرته بأى عمل كان

يقرأ النصيرى فى السورة الخامسة من كتاب المجموع « . . . واشهد بان السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه » .

ان ما فصله سليمان افندى مؤلف كتاب الباكورة هو افصح واوضح :

يعتقد النصيريون ان عليا « اب » ومحمداً « ابن » وسلمان الفارسى « روح القدس » ؛ وان سلمان الفارسى خلق الايتام الخمسة المولجين بادارة الـكون . وخلق « مقداد بن الاسود الكندى » ، من هؤلاء الايتام « الرعد والزلزال والصواعـق » . وامر « ابو ذر الغفارى » بتنظيم حركات الكواكب السيارة والثابتة ؛ و « عبدالله بن رواحه الانصارى » بادارة الارياح ، وقبض الارواح ، و « عثمان بن مطعون النجاشى » بتفقد حرارة الاجسام وتعهد الامراض البشرية ؛ و « قنبر بن كادان الدوسى » باعادة الارواح الى الاجسـام ونفثهـا فيها .

ويعبر عن التثليث برمز قدسى يسمونه سر (ع — م — س) . ولهذا الرمز موقع عظيم فى التقاليد الدينية عند النصيريين . ومدلول حرف الـ « ع » هو « على » والـ « م » ، (محمد) والـ « س » ، سلمان الفارسى . وقد جاء فى السورة الرابعة من كتاب المجموع ما ينطق عن قدسية هذا السر ، وعظم موقعه : فقيل:

« احسن توفيقى بالله ، وطريقى لله ، واحسن سمعى واستماعى من شيخى ومرشدى المنعم كما انعم الله عليه بمعرفة « ع ، م ، س » وهى بشهادة ان لا آله الا على بن ابى طالب الاصلع ، الانزع ، المعبود ! ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ؛ ولا باب الا السيـد سلمان الفارسى المقصود . . . »

ويمكن اجمال هذه العبارة مع الجمل الآنفة بما يأتى :

ع	م	س
على	محمد	سلمان
معنى	اسم	باب

ويقول النصيريون « تقدم الى الباب ، واركع امام الاسم ، واعبد المعنى » . وهـذا يبرهن على اعتقادهم بان عليا اقدس من الجميع . ويزعمون ان الاوقات الخمسة يقصد بهـا الاشخاص الخمسة المقدسـة لديهم . ويقيمون صـلاة الظهر باسم (محمد) ، والعصر باسم « فاطمة ، او بتعبيرهم « فاطر » وصلاة المغرب باسم « الحسن » ، والعشـاء باسم « الحسين » والصبح باسم « محسن » ؛ ويعتقدون ايضاً بان الالوهية تمثلت فى هؤلاء الخمسة ، كما تمثلت فى على . ومن اعجب العجـاب ان النصيريـين لم يختلفوا فى وحدانيـة الرب ويسمون

انفسهم « اهل التوحيد » ! !

[٦] — **اقسام النصيريين** — (فرقة الحيدرية) — ان اشتقاق هذا الاسم هو من كلمة حيدره ، وهى اسم للاسد . واشتهر منتسبو هذه الفرقة بعدم التصلب فى العقائد القديمة ، وسهولة الاقبال على المعتقدات الاجنبية . وهم يتركون اعتقادهم بان محمداً « عليه السلام » هو الشمس ، وسلمان الفارسى هو القمر ، لغيرهم من الفرق . وقد سيطرت على فكرة اسلافهم فى زمن الفنيقيين عقيدة « جزيرة ارواد » وشيدت يومئذ فى جبالهم معابد خاصة لاسقالون *Ascalon* واستارته *Astarté* من الالهة . وما نراه اليوم من عبادة بعض القوم للشمس والقمر يطلعنا على ان الديانة الفنيقية لا تزال انها بقية من حياة ويوجد هناك « حصن سليمان » مقوض البنيان خاوياً على عروشه مرتكم بانقاضه فوق معبد بوتوسه سه *Boetocécé* الذى كان مبنياً على تلك الجبال باسم احد الالهة المحلية . اما المقام الذى فى جانبه فهو محترم للغاية عند النصيريين . ولم يزل وقف البنات الكواعب والذكران من الحيوانات مالوفاً عندهم ، ويحتمل ان تكون هذه العادة من مخلفات الفنيقيين ايضاً .

(فرقة الشمالية ، او الشمسية) — يعتقد اشياع هذه الفرقة من النصيريين ان المعبود الاعظم ، « على بن ابى طالب » الذى هو السماء . يقطن فى الشمس التى تمثل محمداً « عليه السلام » . وتوجد فى السورة ١١ و١٢ من كتاب المجموع اشارة على ان علياً حل فى قرص الشمس . وعقيدة الشماليين تتكون من امتزاج محبة على التى بثها الاجانب فى قلوب النصيريين ، مع الدين المحلى .

حذا الشماليون حذو الاقوام القديمة فى سورية ، اذ كانوا يعبدون آلهاً مقامه الشمس *Helios* اسمه « بعل سامين » ؛ والشماليون يزعمون ان على بن ابى طالب الذى هو آلههم — كبعل سامين — مقيم فى الشمس ايضاً .

ان كلمة الشماليين يجب ان تكون مشتقة من الشمال . ولكن معظم السكان فى القسم الشمالى من جبال النصيرية هم من الحيدريين . ولذلك لا يكون هذا الزعم صحيحاً .

ان محمداً « عليه السلام » — كما يزعم الشماليون — هو « اسم » على ومقره ، وله جميع بأسه وقدرته . وقد يتحدان فى الليل ، ويفترقان فى النهار . ومحمد هو عين الشمس وهذا السبب حدى بالشماليين الى عبادة الشفق .

يعيد النصيريون فى ٣ ايلول و١٧ مارت و١٦ تشرين اول وفى شهر نيسان ، ويحرقون البخور فى اعيادهم ، ويشربون النبيذ . ولم يقتبسوا هذه العادة من النصارى ، بل سرت اليهم من الاقوام الشرقية .

ومن المعلوم ان هؤلاء يحرمون اكل بعض الحيوانات . وهذا التحريم لم يكن من قبل الديانة الاسلامية. بل يزعمون ان المعنى «على» حرم اكل الجمل والارنب والانقليس (سمك الحيات) ؛ والاسم «محمد» حرم الخنزير والدم والذكور من الحيوانات ؛ والباب «سلمان» حرم سمك « السللور » الذى يوجد فى نهر العاصى وبحيرة انطاكية .

والصحيح ، ان تحريم هذه الحيوانات كان فى الاديان التى قبل الاسلامية . وعلى كل حال ان السوريين قيدوا انفسهم بهذه القيود قبل التوراة والقرقان ، وقصارى القول ان عقائد الشماليين اليوم كادت تنطبق فى اكثر المسائل على اعتقادات اقوام « حران » القديمة .

وما الايتام الخمسة الذين ذكرنا اسمائهم آنفاً ، والمعروفون عند النصيرية بميكائيل واسرافيل وعزرائيل « دردائيل وسالسيائيل ؛ الا الكواكب الخمسة « زحل والمشترى والمريخ والزهرا وعطارد » ، معبودوا الاقوام القديمة وآلهتهم . وكان الوثنيون من قدامى «حران» يعتقدون ان كلاً من هذه الكواكب هو مقر لاحد الآلهة ، وان كلاً من اولئك الآلهة كان يقوم باحدى الوظائف المختصة بالايتام الخمسة . ونرى ان المماثلة بين الاعتقادين ظاهرة جداً .

(فرقة الكلازية ، او القمرية) — يخالف اتباع هذه الفرقة ، الفرقة الشمالية . فيقدسون القمر ، مع ان الاولى تقدس الشمس . ويزعم هؤلاء ان الوحدة الصمدانية حلت فى القمر ؛ وان قدسية الاله التى بوركت فى سور كتاب المجموع ، تجلت فى القمر لا فى الشمس . لان علياً عرج الى القمر بعد ان لبث مدة فى الارض وحل فيه ، وكون القسم المطموس منه . وهو اليوم غير مرئى . وحينما ينصل النصيريون من الجسمية ويحلون فى السماء باجسامهم النورانية ؛ سيتراآى لهم «على» بانواره الياقوتية السماوية .

ينتقد بقية النصيريين على الكلازيين عبادة القمر ، وهؤلاء ينتقدون على الشماليين ترجيحهم نبى المسلمين على «على» بقراءتهم « اؤمن بالوهية محمد » .

ولهم اشعار ، وترنمات كثيرة فى النبيذ المعروف بينهم بـ « عبد النور » الذى يعده الكلازيون هبة « القمر » ويعتبره الشماليون عطية « الشمس » .

يظهر مما فصلنا ان النصيريين يقدسون السماء والشمس والقمر باسم على ومحمد وسلمان كما فعل الفنيقيون والسريان من قبل ، لانهم كانوا يعبدون « بعل سامن » باسم « الاله الاعظم » و« آلهة الشمس » باسم « مالابك » و« آله القمر » باسم آغليبول .

ان الاختلاف بين الشماليين والكلازيين كائن فى تفسير « الباب » و« المعنى » ، لان الشماليين يزعمون ان المعنى هو السماء والباب هو القمر ، والكلازيين يعتقدون نقيضه اى ان عليا « المعنى » هو « القمر » وسلمان الفارسى « الباب » هو السماء : ويتفق كلاهما على ان محمداً

« عليه السلام » هو « الشمس ».

اما فرقة المغيبية ، او « عابدو الهواء » فتزعم ان الله كان مقيماً فى الارض ثم اختفى ، وما الزمن الحالى الا كرة من دور الغيب ؛ وان الله لا تدركه الابصار ، وهو حاضر فى كل مكان ، وانه عبارة عن « الهواء ». ولهذا فقد سماهم سليمان افندى مؤلف الباكورة بعباد الهواء.

يبالغ النصيريون بالتكتم واذا احوجهم الامر يتظاهرون بالاسلامية والنصرانية ،وحتى باليهودية . ولما كانت حياتهم بين المسلمين تجدهم يقيمون الصلاة ، ويتظاهرون بالقيام بجميع الفرائض . ويذهبون الى الجوامع فيركعون ويسجدون مع السنيين . وبما ان القرائة فى الصلاة لا تكون جهاراً . فهم يقرؤن من سور كتاب المجموع .

يرتكز اساس النصيريين على الانانية وحب النفس . ويزعمون ان الله لما كون العالم جعلهم كواكباً منيرةً ، ولكن ما لبث ان اجلاهم الى سطح الارض لاقترافهم السيئات . ويقول مؤسسو هذه العقيدة ، ان ارواح الاتقياء من النصيريين تنتقل بعد الموت من جسم الى آخر حتى تنشط من اوزارها ، ثم يكون النشور فترجع الى اصلها . اى انتقل من الجسمية وتكون كوكبا يلتحق بعالم « المجرة *Voie Lactée* » كما كان من قبل. اما ارواح العصاة فتتقلب فى اجسام كثيرة ثم تتمثل فى يهودى او مسلم او نصرانى . ويحيق بها العذاب برهةً حتى تطهر من ادران الذنوب وتكون كالفضة النقية ، ثم تنقلب كوكباً وتلتحق بابناء دينها فى السماء. اما المسلمون الذين لا يعبدون علياً فسيصيرون حمراً والنصارى خنازير ، واليهود قردةً . وان الشياطين خلقت من معاصى الانسان ، وكانت النساء من خطيآت الشياطين . ولهذا السبب لا تزال النساء محقرةً فى نظرهم ، ولا يطلعوهن على شئ من عقائدهم ولا اسرارهم .

وقد جاء فى السورة الثانية من كتاب المجموع ، ان للروح سبع استحالات تمر عليها ريثما تتجرد من المادية ، وتنقلب الى كوكب منير . ويحتمل ان تكون هذه النظرية فى الاستحالة ، هى عين الاعتقاد الذى اسسه البابليون بعروج الارواح الى السماوات السبع ، وانتقل منهم الى الايرانيين ثم الى الرومانيين .

يستعمل النصيريون هذه الرموز والكنايات لمعرفة بعضهم . يسال الغريب من اهل القرية التى يدخلها . قائلاً :

— هل فيكم من يعرف عمى ؟

فيجيبه القرويون :

— ما اسمه ؟

— ح . ين

فيتم القرويون الجملة :

— ابن حمدان .

الغريب :

— الخصيبى .

او يقول له القرويون :

— كم لعمك من البز ؟

— ستة عشر .

اين اروى عمك غليله ؟

— فى عين العلوية .

وتوجد عندهم بضع كنايات ما عدا هذه .

لا يجوز فى مذهب الفرقة الشمالية حلق اللحى ، واكل اليقطين والبامية والفاصل والبندورة ، ولا يجوز عندهم استعمال الدخان « التبغ » ولكن الكلازيين لا يعبئون بهذا المنع .

[٧] — **تقاليد الدخول فى النصيرية** — تنقسم اتباع النصيرية بالنظر الى درجة الاطلاع على المسائل الدينية الى بضع طبقات ومراتب ذكرها كتاب المجموع في الصورة « ١١ و ٣ » ولكننا آثرنا ان نجمعها فى اثنتين ، اقتداءً بالمستشرق الشهير « قليمان هوار *Clement Huart* » . ينقسم النصيريون الي « خاص » ، اى الذى دخل في الدين والى « عام » اى من لا له نصيب فى الدين ، شروى الدروز بانقسامهم الى عقال وجهال: ويتوقف ارتقاء العامة الي الطبقة الخاصة علي شروط وقيود كثيرة . ولا يكون ذلك الا بأرشاد الاستاذ والاطلاع على العقائد بالتدريج .

ان الاساتذة المعظمين والمحترمين عند النصيريين ، هم على ثلاث مراتب ، فمن كان فى المرتبة الاولى فهو « امام » ، والذى فى المرتبة الثانية هو « نقيب » ، والذى فى المرتبة الثالثة هو « نجيب » ولكل منهم سلطة تخضع لها الطبقة العامة باسرها ، وكل الاحكام التى تصدر عنهم لا بد ان يعمل بها .

قلنا ان افراد العامه لا يدخلون الطبقة الخاصة الا بالتدريج . يدخل اولاً من يرشح نفسه لذلك الى حضرة الامام وذلك فى يوم معين يسمونه بالمشورة ؛ وهناك يبرهن على اذلال نفسه بوضع نعل الاستاذ على راسه ثم يشرب قدحاً من خمر حباً بسر الامام . وبعد

اربعين يوماً يحظى بالمثول فى يوم يسمونه « المليك » ويشرب القدح حباً بسر ع م س • ويؤمر بأن يتلو هذه الحروف الثلاثة على ثلاثة ايام فى كل يوم خمسمائة مرة . وبعد سبعة اشهر يأتى المرشح والنقيب على يمينه والنجيب على شماله فيشرب القدح الثالث ، ثم يقدمه احد الحاضرين الى الاستاذ الذى يسمونه « المرشد » . وهنالك يقرأ النقيب والنجيب بضع قصائد دينية . ثم ينهض المرشد ويقف متجهاً نحو الامام ويتلو بعض سور من كتاب المجموع . ثم تجرى بين الامام والمرشد محاورة مملة لا حاجة لتفصيلها وبعد ذلك يطلب المرشد تأديب المرشح .

يسأل الامام عمن ارشد المرشح ، فيجاوبه المرشد ، بانه مدفوع بهداية المعنى القديم والاسم العظيم ، والباب الكريم [اى: ع م س] . وبهذا الأثناء لا ينفك المرشح يتقدم ويتأخر ، ويشبع ايدى الامام وازياله تقبيلاً : وهنالك ينظر اليه الامام بنظرة ملؤها التهكم والجد ، ويساله هل يشترى الاحتفاظ بهذه الاسرار المقدسة بحياته . فيقول : نعم فيطالبه باقامة مأة كفيل ، ولكن بتوسط من حضر فى المجلس فيحطون المقدار الى اثنى عشر ؛ وهؤلاء يدعون الى حضرة الامام ويرضون بالكفالة ، ويقولون [عهدنا وميثاقنا على ان نقتل اخانا هذا الذى كفلناه ، اذا خالف الواجب واذاع السر] . ثم يقوم اثنان من الجمع فيكفلان هؤلاء الاثنى عشر ايضاً وحينئذ تنجلى العبوسة عن صحيفة الامام فيرحب بالجمع ، ويتلقاهم بوجه بشوش . ثم يوكد ايمان المرشح بتحليفه بكتاب المجموع تأميناً لصيانة السر ويجازفه فى الوعد والوعيد ويقف هنيهة . فيبادر الكفلاء ويضعون ايديهم على رأس المرشح ويأخذون بقرائة بضع سور من كتابهم المقدس ، ثم يسقونه قدحاً من نبيذ ، ويدعونه ليحفظ هذه الجملة [باسم الله وبالله وسر السيد ابى عبدالله (حسين بن حمدان الحصيبى) العارف بمعرفة الله سر تذكاره الصالح سره اسعده الله] .

وبعد انتهاء هذه التقاليد ، يأخذ المرشد [*] بيد الرجل الى بيته وبعد ان يطلعه على اصول الدين ، يشرع فى تعليمه كتاب المجموع المحتوى على ستعشرة سورةً ، باداً بسورة الشتائم التى تتضمن اغلظ السب على (ابى بكر وعمر وعثمان) الذين يسمونهم بالاضداد الثلاثة . وبهذا يدخل المرشح فى طبقة الخواص بعد ما يتكبد عذاب الامتحان ، ويقاسى مضض هاتيك التقاليد مدة طويلة .

يجب فى المرشح ان يكون نصيرياً عن اب وجد ، ويكون متجاوزاً فى العمر ثمانى عشر سنةً ، ولا يكون من النساء .

ان سورة الشتائم تتضمن الشتوم الغليظة على [ابى بكر وعمر وعثمان وطلحة وسعد

(*) ويسمى عندهم « العم » ، وهو بمثابة الاب للمرشح . ولا يسوغ له نكاح ابنة المرشد .

وسعيد وخالد بن الوليد ومعاويه وابنه يزيد والحجاج وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد ، وعلى كافة المسلمين المنتمين الى المذاهب الاربعة ، واليهود والنصارى واحمد البدوى والشيخ احمد الرفاعى والشيخ ابراهيم الدسوقى والشيخ محمد المغربى والشيخ عبد القادر الكيلانى من المشاهير ، وعلى الجلند بن كركر واسحاق الاحمر وقيدار وحبيب العطار وغيرهم من المجهولين] . (*)

يفهم مما فصلنا ان العقيدة النصيرية لا يعرفها الا من كان فى طبقة الخواص ، اما العوام « ولاسيما النساء اللاتى خلقن من اوزار ابليس » لا يزالون مبعدين عنها . غير انهم لا يرون بأساً باطلاع الرجال من العوام على بعض المعلومات الدينية البسيطة .

[٨] — **اعياد النصيريين** — ربما يؤمل القارئ ان بحث الاعياد يطلعه على شئ من العقائد . ولكن هذه الفرقة التى تقدس على بن ابى طالب لم تكترث فى اكثر اعيادها بالتقاليد لدينية مطلقاً .

كانت الطوائف التى تقطن الجبال الشمالية من سورية قبل الاسلام تعيش محاطة بالنصرانية ، فحذت حذوها بانتقاء ايام الراحة . ومن المعلوم ان معظم اعياد النصارى كانت موجودة عند قدماء الوثنيين [**] . ثم جاء الاسماعيليون مهاجرين الى انحاء قدموس وكانوا سبباً لدخول كثير من اعياد العرب والعجم على الطائفة النصيرية جارتهم . وقد جمع هذه الاعياد « ميمون بن القاسم » احد مشايخ النصيرية فى كتاب سماه « كتاب الاعياد » .

لا يحتفل النصيريون باعيادهم فى الجوامع والكنائس كما يفعل المسلمون والنصارى بل يكون ذلك فى بيت « صاحب العيد » من بينهم . فيقرأ المشايخ فى تلك البيوت الادعية المندرجة فى كتاب الباكورة . ثم يشترك الجميع فى الوليمة المعدة .

ان اعظم اعيادهم ، هو (عيد الغدير) الذى يكون فى اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة . وهذا العيد الذى اجمع عليه (سنة ٣٢٥ هجرية) فى العراق و (سنة ٣٦٢) فى الخطة المصرية انتقل الى النصيريين عن الشيعيين .

يزعم الشيعيون ان النبى (صلعم) كان قافلاً من الحج ، فنزل عليه الوحى وامر بالتبليغ فوقف بموكبه النبوى فى مكان اسمه « غدير خم » وقرأ على الجميع :

(*) كتاب الباكورة ص ٤٤

(**) من الجملة ، فقد ابدل النصارى عيد (Dies natalis solis invicti) المعروف عند القدماء بعيد ميلاد عيسى ، واقاموا اعياد سن جان بانيست مكان عيد التحول الصيفى . وهذه الاعياد تتراوح بين السنة الشمسية والقمرية كما هو عند النصيريين . فيكون بعضهم ثابتاً والآخر متحولا .

[يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ؛ فان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس]. ثم قال :

[من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله] [*] وعليه لا يستغرب من الشيعيين الذين يؤمنون بصدق هذه الحادثة ان يعظموا يوم ١٨ ذى الحجة ويجلوه . وقد اختلف العلماء السنيون فى عبارة هذا الحديث . والنصيريون يكثرون من قرائة الخطب والادعية فى هذا اليوم العظيم . ويوجد فى كتاب الاعياد التفصيل الممل عن هذا البحث الذى اضربنا عنه خشية الاسهاب .

ان كل عيد ، بل كل شهر عند النصيريين يمثل شخصاً من رجال الدين . مثلاً : ان عيد الفطر عند السنيين هو « عيد محمد » على زعمهم ! وعيد الاضحى هو عيد « اسماعيل بن هاجر » ويوم ٢١ ذى الحجة هو عيد « المباهلة » . وفى هذا العيد الاخير حصل نزاع بين النبى (صلعم) وبين نصارى نجران . وكان معه « على وفاطمة والحسن والحسين » .

اما ٢٩ ذى الحجة فهو اليوم الذى دخل فيه (على) فراش النبى (صلعم) ومكنه من الهجرة ليسلم من كيد المشركين ولذلك يسمونه (عيد الفراش)

ولا يتظاهر النصيريون بما يدل على اكتئابهم فى يوم عاشوراء (١٠ محرم) الذى يعظمه الشيعيون ويخصونه بمظاهرهم الدينية المعروفة . وسبب ذلك هو عدم اعتقادهم بقتل الحسين بل يزعمون انه استتر . ويعتقدون عين الاعتقاد فى عيسى (عليه السلام) .

ومن اعيادهم ايضاً يوم ٢٩ ربيع الاول و١٥ شعبان . ويزعمون فى الاول ان النبى (صلعم) دعا فيه الى الحسن والحسين ولعن اعدائهم ، اما الثانى فهو يوم الحسين . يجتمع النصيريون ليلة هذا اليوم ويقدسون اسماء الله ويتباركون بذكرى « درجاته » و« ابوابه ». ويتعاطون الخمر الذى يسمونه «عبد النور» ويعدونه رمزاً لعلى ، على اتم السرور والصفاء .

ولهم ما عدا هذه الاعياد «عيد الميلاد» . ويكون ليلة (٢٤—٢٥) كانون الاول . وتلقوا عن قدماء العجم عيد النوروز ، والمهرجان ويكونا فى الاعتدال الربيعى والخريفى . ولهم عيد آخر فى ١٧ مارت .

ان ليلة عيد الميلاد هى الليلة التى ولد فيها عيسى (عليه السلام) من مريم ذات الطهر والعفاف . ويزعم بعض العلماء ان النصيريين اقتبسوا هذا العيد من النصارى . ولكن رونه دوسسو ينكر ذلك ويقول :

(*) كتاب الاعياد .

كثيراً ما يتعلق الاسماعيليون الذين كانت لهم السلطة النافذة بين النصيريين بهذه الاديان المحلية ثم يضيفون اليها رموزاً ومعانى من عندهم . وان يوم الميلاد هو عين اعياد ميسترا *Misthra* وميلقار *Milquart* عند القدماء . وكان معدوداً من الايام المعروفة عند الرومانيين .

وقد اخذ النصارى هذا العيد ، وكثيراً من ايام الوثنيين ، وقدماء الاقوام الحرانية ايضا ما انفكوا يعظمون هذا اليوم ويقدسونه الى ان تسلط عليهم العرب . ولذلك لا نخطأ اذا حكمنا على ان النصيريين الذين اقتبسوا كثيراً من عوائد الحرانيين ، اخذوا يعظمون يوم « الانقلاب الشتوى » او بالاحرى يوم « ميلاد الشمس » . (*)

لم يبحث كتاب الاعياد الا عن هذه الاعياد التى ذكرناها . ولكن للنصيريين اياماً دينية فى الدرجة الثانية . مثل عيد البربارة *Ste Barbe* (١٦ تشرين الاول) المعروف عند النصارى ، وعيد القداس المصادف لعيد القصب (*Dimanche des Rameaux*) .

[٩] — **الطعن فى النصيرية** — قبل ان نختم هذا الاجمال التاريخى فى الديانة النصيرية ، نريد ان نبحث نبذة عن تعرض المسلمين والنصارى على هذه الفئة ، وما يلصقون بها من المعادات الذميمة . من المسلم لدى المتوغلين فى تاريخ الاديان ان العقيدة الدينية اذا كانت قليلة الافراد ، مسورة بالخصوم والمخالفين لا بد لها ان تكون عرضة للطعن والقدح .

لذلك كانت النصرانية فى بادئ امرها هدفاً لتعرض الرومانيين ومفترياتهم . ثم ان النصارى ما كادوا يؤسسون الدول القوية فى القرون الوسطى الا وتسلطوا على من يخالف معتقدهم باسلحتهم ومظالمهم وملوكهم المستبدة .

ما زال النصيريون الذين استطاعوا الاحتفاظ بكيانهم رغماً عن قلة عددهم بالنسبة الى السنيين والشيعيين فى سورية ، عرضة للطعن والتشنيع ، والصاق التهم منذ القرن الخامس للهجرة . فهل صحيحة يا ترى تلك التهم ؟ ها نحن نطرق هذا البحث من الوجهة العلمية ونفحصه باسم الحقيقة وعلى اتم الحياد .

ما زالت فلسطين ، او بالاصح سورية تعتبر مهد الاديان . ولم تزل دفاتر اعمال سكانها وافكارهم محشوة بمسائل الاديان والمذاهب . حلت النصرانية بادئ امرها فى انطاكية . ثم اخذت تتخطى مركزها الى ان شملت اقطار المعمور ، وهكذا الاسلامية ما كادت تظهر الا وتسربت بسرعة البرق الى جميع الانحاء . ورغماً عن هذا لم يتسن لسورية ان ترى

(*) Histoir des Nosairie p. 148.

وحدة الدين حتى ولا فى يوم من ايام التاريخ . واكبر برهان على صدق هذه الدعوى، هو وجود اكثر من ثلاثين مذهباً بين السكان السوريين الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة ملايين من النسمات .

اول من طعن فى النصيريين هو « حمزة بن على » وزير « الحاكم بامر الله » الفاطمى (*) والرسالة التى ألفها لهذه الغاية كان لها الوقع العظيم ؛ ذلك لانها ذاعت بين العالم الاوروبى فى زمان لم يكن فيه غيرها من الاثار الباحثة عن النصيريين .

يقول حمزة [ان النصيريين لا يحرمون القتل ولا السرقة ، ولا الكذب ولا الافتراء ، ولا الزناء حتى ولا اللواطة . ولا يحجب عريقو النصيرية نساءهم وبناتهم عن بعضهم ، ولا يعبثون بكل ما يمكن حدوثه بين الرجال والنساء . والا فلا يكمل ايمانهم] وسليمان افندى مؤلف الباكورة السليمانية يقول فى الصحيفة (٥٨) من كتابه : [الزناء عند الكلازيين فرض لازم . فاذا حل الامام ضيفاً عند احد الاخوان، يكون من واجب رب البيت اكرامه بتقديم امرأته له . لان هذا التقديم فرض لازب ، وحق واجب . ومن لم يفعل ذلك فلن يدخل الجنة . اما الطبقة العامة فلا علم لها بهذه الامور] .

لعل هذه الاتهامات مختلقة ، اذ لا يعثر فى كتب النصيرية ، ولا فى اغانيهم على ادنى اشارة تدل على صحتها . وقد اجمع كل من احتك بهذه الطائفة واختبرها على ان لا صحة لوجود تلك الرزائل الاخلاقية فيهم . ولعل مؤلف الرسالة الدامغة استهجن من النصيريين عدم الاحتجاب ، فضرب اخماسه باسداسه وتشفى منهم بهذه التهمة المشينة .

لا نبعد ، اليس كثيراً من السذج الذين يتشاءمون من عدم التحجب ويشنعونه ، يرشقون بعين التهمة من لا يحتجب من نساء الامم الراقية فى هذا القرن العشرين ؟

لم تحصر هذه الاتهامات فى النصيريين فقط ، بل لم تنج منها كل فرقة خالفت ولو قسماً من الفرائض التى امر بها القرآن الشريف بنص صريح . والنصيريون الذين ما زالوا عرضة لاتهامات المسلمين ، وحتى النصارى ومفترياتهم يبالغون اليوم فى الامتناع عن الاجهار بحقيقة عقائدهم . ويقول سليمان افندى : [اذا لقى النصيريون المسلمين يتمسكون بالاسلامية ، ويدعون انهم يصومون ويصلون . ولكنهم لا يصومون ؛ ويصلون رئاء اذا اوجبهم الامر ووجدوا فى احد الجوامع مع المسلمين ، فيركعون ويسجدون . ويلعنون « ابا بكر وعمر ، وعثمان » وغيرهم من الصحابة فى قيامهم وقعودهم [**] .

(*) الرسالة الدامغة للفاسق ، الرد على النصيرى .
(**) الباكوره ؛ ص ٨٢ .

لا يقتدر النصيريون اليوم على الدفاع ، ورد هذه التهم عن طائفتهم لانهم ما زالوا يخبطون من الجهالة فى ليل أليل . وقد يسمع عنهم من يتجول فى اصقاعهم من الغرائب والخرافات ما لا يدخل فى عقل ، ولا ينطبق على حقيقة . هذا ولتكن عقيدتهم شاذة ومنحرفة عن مسلك التوحيد . ولكن يجب ان لا تحتقر اخلاقيات هؤلاء القوم الجاهلين الذين رافقوا القرون القديمة بعددهم الوافر . بل من الضرورى الامعان فى البحث ، والابلاغ فى التدقيق .

[١٠] — **كتاب المجموع** — ها نحن نأتى بالسور النصيرية المدونة فى كتاب المجموع:

١ . سورة الاول

قد افلح من اصبح بولاية الاجلح [*] ، استفتح بانى عبد استفتحت باول اجابتى بحب قدس معنوية [**] امير النحل [***] على ابن ابى طالب المكنى بحيدرة ابى تراب [****]. فيه استفتحت وفيه استنجحت ، وبذكره افوز وفيه انجو واليه الجأ ، وفيه تباركت . وفيه استعنت ، وفيه بدأت وفيه ختمت بصحة الدين واثبات اليقين .

قال السيد ابو شعيب محمد بن نصير [*****] بن معين السامرى ، يا يحى اذا نزلت بك نزلة بالحياة ، ودهت بك داهية بالممات ، فادع دعوة عالية خالصة مخلصة ، تقية نقية بيضا علوية ، طاهرة زكية مشعشعة نورانية ، تخلصك من هذه القمصان [******] البشرية اللحمية الدموية وتلحقك بالهياكل النورانية ، فقل فيك تباركت يا دليلاً بدلته ، ياظاهراً بقدرته ياباطناً بحكمته ، ويا محجبا ذاته بذاته ، يا مخاطباً اسمه بصفاته ، ياهو ، يا كل قديم يا ازل لم تزل ، يا معلل العلل ، يا معنى حركات الدول ، يا غاية الغايات يا منهى النهايات ، يا عالم باسرار الخفيات ، يا حاضر يا موجود ، ياظاهر يا مقصود يا باطناً بغير غموض ، يا من انوارك منك تشرق ، وفيك تغرب ومنك بدت واليك تعود ، يا من جعل لكل نور ظهوراً ولكل ظهور اسماً ، ولكل اسم مكاناً ولكل مكان مقاماً ، ولكل مقام باباً ، يرشد الباب منه اليه ، ويدخل الباب منه اليه ، وانت يا امير النحل يا على بن ابى طالب ، الدليل عليه والكل انت هو ، ياهو يا هو ، يا من لا يعلم ما هو الا هو واسئلك بمسائل السين ، سالكون سلكاً ، سلك سالك ، سلك بما سألك به السائلون ، وبمرشد المرشدين ، وبعلى

(*) هو على رضى الله عنه
(**) هى اسم للنصيريين .
(***) يقصد من النحل ، النجوم
(****) كنية على عند الحيدريين
(*****) هو الشخص الذى ينتمى اليه النصيريون
(******) هو جسم الانسان

زين الدين والعابدين ، انت تؤلف ما بين قلوبنا وقلوب اخواننا المؤمنين ، على البر والتقوى والتقويم والعلم والدين ، نذكر حضرتك الطاهرة وقدرتك الباهرة ، ورحمتك الشاملة والغرض اللازم ، والحق الواجب ، هى اسرار وتذكار وجلال وافتخار ، ونصر وانتصار وطلعتك الزاهرة ، وقبابك الفاخرة وقبة العلى وتاج المهدى ، والدين المقيم والصراط المستقيم ، ومن عرف باطنه وظاهره وفاز ونجا ، والذى قد عرفنا به سيدنا سلسل سلمان يتلى ، وقد دلنا عليه وارشدنا اليه شيخنا وسيدنا تاج رؤسنا وقدوة دينا وقرة اعيننا ، السيد ابو عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس العلى روحه لان مقامه مقام الصفا ومحله محل الصدق والوفا بسم الله وبالله وسر السيد ابى عبدالله العارف معرفة الله سر تذكاره الصالح سره ، اسعده الله . انتهت .

٢ سورة تقديسة ابن الولى

يا حسين ما يرى النائم فى منامه ، وهو يسمع الحس ، ولم ير الشخص وهو ينادى ويقول لبيك لبيك يا امير النحل . يا على بن ابى طالب ، يارغبة كل راغب ، يا قديماً باللاهوت ، يا معدن الملكوت . انت آلهنا باطناً وامامنا ظاهراً ، يامن ظهرت فيما ابطنت وابطنت فيما ظهرت ، وظهرت بالاستتار ، واستترت بالظهور وظهرت بالذاتية وتعاليت بالعلوية ، واحتجبت بالمحمدية ، ودعوت من نفسك الى نفسك بنفسك . انت يا اميرالنحل يا على ، اشرق نورك ، وابزغ سفورك ، وسطع ضيائك وتعظمت آلائك ، وجل ثنائك بان تؤمننى من شر مسوخياتك لنا ولجميع اخواننا المؤمنين من شر الفسخ والنسخ والمسخ والوسخ والرسخ (*) والقش والقشاش انك على ذلك قدير سر الولى بن الولى ابى الحسين محمد بن على الجلى علينا من ذكره السلام . سره اسعده الله .

٣ . سورة تقديسة ابى سعيد

اسألك يامالك الملك ، يا امير النحل يا على يا وهاب يا أزلى يا تواب يا داحى الباب (١) اسالك بالخمسة المصطفية (٢) والستة التجلية (٣) وبالسبعة الكواكب الدرية (٤) وبالثمانية

(*) النسخ حلول الروح فى جسم مرذول ، والمسخ حلولها فى الحيوان ، والفسخ حلولها فى النبات ،

(١) اى الذى امر سلمان الفارسى بالتبشير .

(٢) هى اوقات الصلاة الخمس التى سبق ذكرها .

(٣) الايتام الخمسة التى ذكرت فى سورة الفتح مع سلمان الفارسى .

(٤) الكواكب السبعة .

حملة العرش القوية (٥) وبالتسعة المحمدية (٦) وبالعشرة الدجلجات الذكية (٧) وبالاحد عشر مطالع البابية (٨) وبالاثنى عشر سطر الامامية (٩) بحقهم عندك يا غاية الكلية ، يا امير النحل يا صاحب الدولة العالية يا من انت الاحد ، واسمك الواحد ، وبابك الوحدانية يامن ظهرت فى السبع القباب الذاتية ، بان تجعل قلوبنا وجوارحنا ثابتة على معرفتك الزكية ، وخلصنا من هذه الهياكل الناسوتية ، ولبسنا القمصان النورانية بين الكواكب السماويه . نذكر حضرة شيخنا وسيدنا الاجل الاكبر الشاب التقى ابا سعيد الميمون بن قاسم الطبرانى العارف معرفة الله المكف عما حرم الذى اخذ حقه بيده من قفا ابى دهيبة وعلى ابى دهيبة لعنة الله وعلى ابى سعيد السلام ورحمة الله . سر ابى سعيد الشاب التقى الحر الميمون بن قاسم الطبرانى ، سره اسعده الله .

٤ . سورة النسبة

احسن توفيق بالله وطريقى لله ، واحسن سمعى واستماعى من شيخى وسيدى ومرشدى (*) المنعم على كما انعم عليه بمعرفة (ع م س) وهى بشهادة ان لا اله الا على بن ابى طالب الاصلع الانزع (**) المعبود ؛ ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ، ولا باب الا السيد سلمان الفارسى المقصود (***) وهذا ما سمعته من شيخى وسيدى ، وغاى ومعتمدى ومهدينى الى طريق النجاة ، وموردنى الى ينبوع الحياة ، ومعتق رقبتى من رق العبودية ، بمعرفة كنه الذات العالية ، السيد الفاضل والطود العظيم عمى وشيخى وسيدى وتاج راسى ووالدى الحقيقى احمد . وقد القى الى هذا السر العظيم فى سنة كذا

---

(٥) الخمسة ايتام وجمعهم طالب وعقيل وجعفر الطيار .

(٦) هم محمد ، حسن ، حسين ، على زين العابدين ، محمد الباقر ؛ جعفر الصادق ، موسى الكاظم ؛ على الرضا ، محمد الجواد .

(٧) الايتام الخمسة وهم : نوفل ابو الحارث ، محمد بن الحنفية ابو برزه ، عبدالله بن فضله .

(٨) روبه بن المرزبان ، ابو العلاء ، رشيد الهجرى . كنكر بن ابى خالد الكاملى ، يحيي بن معمر ؛ جابر بن يزيد الجعفى ؛ محمد بن ابى زينب الكاهلى ؛ المفضل بن عمر ، عمر بن المفضل ؛ محمد بن نصير البكرى النميرى ، دحية بن خليفة الكلبي ؛ السيدة ام سلمة ،

(٩) هم ما عدا التسعه المحمدية : على الهادى ؛ الحسن العسكرى ؛ محمد بن حسن الحجة . وهؤلاء ائمة الشيعة الاثنى عشر وقد ذكر هنا محمد بدلاً عن على . وبهذا الاعتقاد يفترق النصيريون عن الاسماعيليين .

(*) هو اسم لمن يدخل احد النصيريين فى الطبقة الخاصة .

(**) كناية عن الاسد الذى يشبه به على ويقصد من سر النصيرية الخفا ،

(***) تعريف صريح لسر (ع م س) .

وكذا فى كذا ويوم كذا منه وسمع احمد من ابراهيم ، وسمع ابراهيم من قاسم وسمع قاسم من على وسمع على من احمد ، وسمع احمد من خضر وسمع خضر من سلمان وسمع سلمان من صبح وسمع صبح من يوسف وسمع يوسف من جبرائيل ، وسمع جبرائيل من معلى وسمع معلى من ياسين ، وسمع ياسين من عبسى وسمع عيسى من محمد وسمع محمد من هدا محمد ، وسمع هدا محمد من رضى احمد وسمع رضى احمد من صفندى وسمع صفندى من بلاذرى اسد ، وسمع بلاذرى اسد من حسان الرشيق وسمع حسان الرشيق من محمد ، وسمع محمد من مرهف مصر وسمع مرهف مصر من عقد جبرائيل وسمع عقد جبرائيل من عبدالله الجوغلى ، وسمع عبدالله الجوغلى من اسماعيل اللفاف وسمع اسماعيل اللفاف من جعفر الوراق ، وسمع جعفر الوراق من احمد الطراز وسمع احمد الطراز من ابى الحسين محمد بن على الجلى ، وسمع ابو الحسين محمد بن على الجلى من السيد ابى عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبى ، وسمع ابو عبدالله من شيخه وسيده محمد عبدالله بن محمد الجنان الجنبلانى العابد الزاهد الذى هو من بلد فارس ، وسمع عبدالله الجنان الجنبلانى من محمد بن جذب وسمع محمد بن جذب من السيد ابى شعيب محمد بن نصير العبدى البكرى النميرى (*) الذى هو باب الحسن الآخر العسكري منه السلام واليه التسليم ، ومن محمد بن نصير اقام النسب والدين ، وتعالى مولانا الحسن العسكرى عما يقول الضالون ونطق الظالمون علواً كبيراً ، سر الدين وسر اخواننا الجبليين اين ما كان منهم مكين ، بسرهم اسعدهم الله اجمعين ، واشهد بان الحسن الآخر العسكرى هو الاول والآخر وهو الباطن والظاهر وهو على كل شئ قدير .

٥ . سورة الفتح

[اذا جاء نصرالله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً] . اشهد بان مولاى امير النحل على اخترع السيد محمد من نور ذاته وسماه اسمه وذاته وعرشه وكرسيه وصفاته متصل به ولا منفصل عنه ولا متصل به بحقيقة الاتصال ، ولا منفصل عنه فى مباعدة الانفصال . متصل به بالنور منفصل عنه بمشاهدة الظهور . فهو منه كحس النفس من النفس او كشعاع الشمس من القرص ، او كدوى الماء من الماء او كالفتق من الرتق (١) او كلمع البرق من البرق ، او كالنظرة من

(*) سر تفصيل هذه المسئلة فى البحث الخاص .

(١) يعتقد الاسماعيليون فيهما قيمةً علمية . فالرتق هو حال الكون قبل تكوين الاله . والفتق حاله بعد الخلق .

الناظر او كالحركة من السكون ، فان شاء على بن ابى طالب بالظهور اظهره وان شاء بالمغيب غيبه تحت تلألى نوره ، واشهد بان السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره ، وجعله بابه وحامل كتابه فهو سلسل سلسبيل وهو جابر (١) وجبرائيل وهو الهدى واليقين ، وهو بالحقيقة رب العالمين . واشهد بان السيد سلمان خلق الخمسة الايتام الكرام فاولهم اليتيم الاكبر والكوكب الازهر ، والمسك الاذفر والياقوت الاحمر ، والزمرد الاخضر ، المقداد بن اسود الكندى وابو الدر الغفارى ، وعبدالله بن رواحه الانصارى ، وعثمان بن مظعون النجاشى وقنبر بن كادان الدوسى ، هم عبيد مولانا امير المؤمنين لذكره الجلال والتعظيم ، وهم خلقوا هذا العالم من مشرق الشمس الى مغربها وقبلتها وشمالها ، وبرها وبحرها وسهلها وجبلها ما حاطت الخضراء وحوت الغبراء ، من جابلقا الى جابرصا (٢) الى مراصد الاحقاف (٣) الى جبل قاف (٤) الى ما احاطت به قبة الفلك الدوار ، الى بلدة السيد محمد السامرة (٥) التى اجتمع فيها المؤمنون واتفقوا على رأى السيد ابى عبدالله ، ولا يشكون ولا يشركون ولا فى سر على بن ابى طالب يبيحون ولا يخرقون له حجاباً ، ولا يدخلون اليه الا من باب ، اجعل المؤمنين مؤمنين ومطمئنين مستورين مجبورين على اعدائنا واعدائهم منصورين بسر الفتح ، ومن فتح الفتح ، ومن كان الفتح على يده اليمين بسر سيدنا محمد ؛ وفاطر ، والحسن والحسين ومحسن سر الخفى واشخاص الصلواة وعدة العارفين علينا من ذكرهم السلام . صلواة الله عليهم اجمعين .

٦ سورة السجود

الله اكبر الله اكبر الله اكبر لله السجود ، للرب العلى الانزع المعبود ، يا سيدى يا محمد يا فاطر ، يا قاهر ، يا نور المغنى العظيم وحجابه الكريم بك استأمنت اعنى بهذه الدار وبك

(١) لعل هذا ؛ هو جابر بن عبدالله من اصحاب النبي الذى توفى فى المدينة سنة (٧٨ ه) .

(٢) هما بلدتان موهومتان . وقد قال فيهما ياقوت الحموى فى معجمه [ان جابرسا ؛ هى بلدة فى اقصى الشرق ويروى بعض اليهود ؛ لما انهزم قوم موسى فى محاربة طالوت وبختنصر ؛ اسكنهم الله فى هذه البلدة ليعصمهم من كل طارئ ؛ وبعض اليهود يقول ان سكان جابرس هم من بقايا ثمود ؛ وسكان جابلق التى هى فى اقصى الغرب هم من بقايا عاد المؤمنين . (ج ٢ ص ٢).

(٣) ان الاحقاف قد ذكرت فى القرآن ايضا وهى المنازل القديمة لقوم عاد .

(٤) يزعم قدامى الفلكيون ان هذا الجبل محيط بالارض ، والشمس تطلع من ورائه وتغرب ورائه ايضا .

(٥) لم تتضح مناسبة قصبة سامره مع محمد (عليه السلام) ولعلها كناية عن شهرة السامريين و« المنجم الكاذب سيمون» من رافضى اليهودية ؛ بين الفرق الاخرى التى كانت تمزج العقائد الدينية فى الفلسفة الزمانية بقصد الاطلاع على اسرار الحقيقة .

استجرت اجرني من عقاب النار (١) يا عزيز يا جبار يا قادر ، يا قاهر يا خالق الليل والنهار الله نور السموات والارض وهو العلي الكبير . اليه نقصد ونشير . عز وجل . للباب قصدت وللاسم سجدت وللمعنى عبدت وسجدت وسجد وجهي الفاني البالي لوجهه على الحي الدائم الباقي . يا على يا كبير ، يا علي يا كبير ، ياعلي ياكبير ، يا اكبر من كل كبير . يا مخترع شمس الضحى . وخالق البدر المنير . يا على لك العزة . يا على لك الوحدة يا علي لك الملك ، يا على لك الكبرياء ، يا على لك الاشارة (٢) يا على لك الطاعة عملي على لك الشفاعة ، يا على لك الفطرة ، يا على لك القدرة ، يا علي انت سورة البقرة (٣) امانك يا على ، امانك من سخطك وعذابك من بعد رضوانك ، آمنت بعجزك ومعجزك ، وجلالك يا امير النحل عن العجز ان يقع بك ، امنت وصدقت بباطنك وظاهرك ، ومظاهرك امامي ووصية ، وباطنك معنوى ولاهوت . ياهو ياهو يا معز من اعزك وذكرك وافردك ، ياهو يا هو ، يا مذل من اذلك وانكرك وجحدك ، يا حاضر يا موجود ، يا غيباً لا يدرك يا امير النحل يا على يا عظيم .

٧ . سورة السلام

سجدت وسلمت ، ووجهت وجهي لفاطر السماوات والارض حنيفاً مسلماً وما انا من المشركين . بدأ السلام من المعنى القديم ، على الاسم العظيم على الباب الكريم ، وسلم الباب الكريم على الخمسة الايتام اركان الدنيا والدين ، السلام على الابواب ، السلام على الايتام السلام على النقباء ، السلام على النجباء ، السلام على المختصين ، السلام على المخلصين ، السلام على الممتحنين ، السلام على المقربين ، السلام على الكروبيين ، السلام على الروحانيين ، السلام على المقدسين ، السلام على السائحين ، السلام على المستمعين ، السلام على اللاحقين ، فهم اهل المراتب (*) يتقدس عالم الصفا اجمعين ، السلام على من اتبع

---

(١) المراد من النار هنا هي جهنم . ولكن لا ننسى ان النصيريين لا يؤمنون بالعذاب الذي نص عليه القرآن . ويزعمون ان العصاة يرجعون الى الدنيا بعد الموت ليكفروا ذنوبهم .

(٢) يزعم ان محمداً (عليه السلام) قد عين الخليفة بعده وهو في محل (غدير خم) واشار باصبعه الى علي .

(٣) يقول مؤلف الباكورة في الصحيفة (١٧) ان النصيريين يعتقدون بان علياً تجلى في صورة البقرة التي امر موسى بذبحها ؛ ولذلك فقد كتبت هذه الجملة بهذه الصورة « انت سورة البقرة » .

(*) سبق ان بحثنا عن هذه المراتب . ويزعم النصيريون ان اول المراتب المنبر هي العالم النوراني الاعظم الذي يتألف من خمسة آلاف شخصاً . ولا فرق بين هذا العالم الذي وجد قبل الخلقة ، وبين السماوات السبع التي ذكرت في القرآن . اما المراتب السبع الاخيرة تتألف من مائة وتسعة عشر الف كوكب كلهم يؤمن بسر (ع م س) . وهذا هو العالم النوراني الصغير ، والاوصياء السبع هي عبارة عنه (الباكورة ص ٢٣) .

الهدى ، واهتدى وخشى من عواقب الردى ، واطاع الملك العلي الاعلى واقر بربوبية محمد المصطفى ، السلام على المائة الف نبي ، واربعة وعشرين الف نبي ، اولهم باب وآخرهم لاحق ، السلام عليكم يا عباد الله الصالحين ، جمع الله شملنا وشملكم في جنة النعيم ، بين الكواكب السمائيين .

٨ . سورة الاشارة (*)

سبحان آله خضعت له الرقاب ، وذلت له الامور الشداد الصعاب ، فقد ارتفع العقد والاشارة من السيد محمد المصطفى في يوم عين الغدير خم الذي شرفه وفضله عند الله مقام عظيم ، انا عبد من المشيرين اليك يا امير النحل يا على يا عظيم بالتوحيد والتفريد والتنزيه والتجريد لك يا على يا عظيم يا ازل يا قديم يا باري يا حكيم اسألك بحق الدعوة التي دعاك بها السيد محمد وهو خارج من باب مكة ، وراكب المطية البيضاء وهو ينادي ويقول الجهاد الجهاد ، الحراب الحراب في سبيل الله وهذه اشارتي اليك يا نور النور يا فالق الصخور وزاجر البحور ومدبر الامور بان تسكن المؤمنين في جنتك العليا التي رضوان خازنها ويا فوز عبد رجاها ، فاذا بالذي من قبل العلا من جانب الطور الايمن من الشجرة المباركة ينادي ويقول يا حبيبي يا محمد اي عبد دعاني بهذه الدعوة بصفو قلبه وخالص يقينه نهار الخميس النصف من نيسان ، او عشية الجمعة او ليلة النصف من شعبان او في خمس ليال من شهر رمضان او يوم القداس او ليلة الميلاد او يوم عيد الغدير ، الا جعلته من امتي واسكنته جنتي ، واسقيه بكاس رحمتي واجعله مع المؤمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . رفعت اشارتي بسر العين العلوية ، بسر الميم المحمدية ، بسر السين السلسلية بسر (ع م س) ، اول دعائنا نشير لمعنانا ، ونقول باسم الله الرحمن الرحيم وآخر دعائنا نشكر من هدانا ، ونقول الحمد لله رب العالمين ،

٩ ، سورة العين العلوية

بسر العين العلوية الذاتية الظاهرة الانزعية ، بسر الميم المحمدية الهاشمية الملكوتية الحجابية ، القرصية النورانية ، بسر السين السلسلية الجبرائيلية السلمانية البابية البكرية النميرية النصيرية ، بسر (ع م س) .

(*) هي اشارة الى ان النبي (صلعم) نصب علياً خليفة من بعده في محل يدعى (غدير خم) . والحيدريون يبسطون اكفهم على بطونهم حين قراءتهم هذه السورة يشيرون بها الى الوحدة النصيرية التي تتركب من خمسة اشخاص . ويضمون اصابعهم كالنصارى ، يشعرون بها الندامة . اما الكلازيون او القمريون فانهم يضعون ايديهم على صدورهم بصورة تشبه للاشارة الدينية التي كانت يشار بها للزهراء (وهنوس) في الشرق .

١٠ ، سورة العقد

اشهد ان الله حق وقوله حق ، وان الحق المبين على بن ابي طالب الانزع البطين ، والنار مثوى للكافرين ، والجنة روضة للمؤمنين . والماء من تحت العرش يطوف وفوق العرش رب العالمين ، وحمالة العرش الثمانية الكرام الذين هم اليه مقربون ، عدتى فى شدتى وعدة المؤمنين ، سر عقد ع م س .

١١ . سورة الشهادة ، والعامة تسميها الجبل (*)

شهد الله انه لا آله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا آله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام . ربنا أمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين بشهادة ع م س . اشهد على ايها الحجاب العظيم ، اشهد على ايها الباب الكريم اشهد على يا سيدى المقداد اليمين ، اشهد على يا سيدي ابو الدر الشمال ، اشهد على ياعبدالله اشهد على يا عثمان ، اشهد على يا قنبر بن كادان ، اشهد على يا نقيب ، اشهد على يا نجيب ، اشهد على يا مختص، اشهد علي يا مخلص ، اشهد علي ياممتحن ويا مقرب ويا كروبي ويا روحاني ويا مقدس ويا سائح ويا مستمع ويا لاحق ، اشهدوا على يا أهل المراتب . ويا عالم اصفا (١) اجمعين انى اشهد بأن ليس الهاً الا على بن ابى طالب الأصلع المعبود ، ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ، ولا باب الا السيد سلمان الفارسى المقصود واكبر الملائكة الخمسة الايتام . ولا رأى الا رأى شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي الذى شرع الاديان فى سائر البلدان . اشهد بان الصورة المرئية اتى ظهرت فى البشرية هى الغاية الكلية وهى الظاهرة بالنورانية ، وليس آله سواها وهى على بن ابى طالب وانه لم يحاط ولم يحصر ولم يدرك ولم يبصر . اشهد بانى نصيرى الدين ، جندبى الرأى ، جنبلانى الطريقة خصيبي المذهب ، جلى المقال ميمونى الفقه (٢) واقر فى الرجعة البيضاء (٣) والكرة الزهراء ، وفى كشف الغطاء وجلا العماء ، واظهار ما كتم واعلان ما خفي وظهور على بن ابى طالب من عين الشمس ، قابض على كل نفس ، الأسد من تحته وذو الفقار

(*) ويتضح من هذا العنوان ان الطبقة العامة لم تكن منحاة عن الامور الدينية بالكلية .
(١) لا ننسى ان هذه السلسلة هي عين التى فى السورة السابعة
(٢) راجع الاسماء الموجودة في النصف الاخير من السورة الرابعة
(٣) ان الرجعة فى نظر السنيين هى البعث والنشور وعند النصيريين هي رجوع الروح بعد الموت الى عالم الحياة مرة اخرى فى جسم لا يماثل الجسم الاول ، فالرجعة البيضاء هى الاستحالة الاخيرة اى الرجوع الى جسم سماوى

بيده (١) والملائكة خلفه والسيد سلمان بين يديه والماء ينبع من بين قدميه ، والسيد محمد ينادى ويقول هذا مولاكم على بن ابى طالب فاعرفوه وسبحوه وعظموه وكبروه هذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه ، اشهدوا على يا اسيادى ان هذا دينى واعتقادى وعليه اعتمادى وبه احيا وعليه اموت ، وعلى بن ابى طالب حى لا يموت بيده القدرة والجبروت ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا . علينا من ذكرهم السلام . تمت

١٢ . سورة الامامية

اشهدن على ايها النجوم الزاهرة ، والكواكب النائرة ، والافلاك الدائرة بان هذه الصورة المرئية ، المعاينة الناظرة ، هى على بن ابى طالب القديم ، الاحد الفرد الصمد ، الذى لا يتجزأ ، ولا يتبعض ، ولا ينقسم ولا يدخل فى عدد ، فهو آلهى و آلهكم ، وآلهكم والهى ، امامى ، وامامكم ، وامامكم وامامى ، امام الائمة ، وسراج الظلمة ، حيدرة ابى تراب الظاهر بالاصلع ، الباطن بالانزع ، الظاهر من عين الشمس ، القابض على كل نفس ، الذى له ، ولعظم جلال هيبته ، ولكبرياء سنى برق لاهوته تخضعت له الارقاب ، وذلت له الامور الصعاب ، سر آله فى السماء ، وهو امام فى الارض ، سر امام كل امام ، سر على بن ابى طالب قديم الزمان ، سر حجابه السيد محمد ، وبابه السيد سلمان باب الهدى والايمان ، علينا من ذكرهم الرضى والسلام .

١٣ . سورة المسامرة

سبح لله ما فى السماوات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم . اصبحنا وسبحنا واصبح الملك لله . وسبح الملك لله ، بسم الله وبالله وسر السيد ابى عبدالله سر الشيخ واولاده المختصين الشاربين من بحر ع م س . منهم واحد وخمسون ، منهم سبعة عشر عراقى ، وسبعة عشر شامي ، وسبعة عشر مخفى (٢) وهم واقفون على باب مدينة حران (٣) ياخذون بالحق ويعطون بالحق (٤) من يتدين بدياناتهم ، ويعبد عبادتهم ، وفقه الله الى معرفته ومن لايتدين بدياناتهم ، ولا يعبد عبادتهم فعليه لعنة الله . بسر الشيخ واولاده المختصين بسرهم . اسعدهم الله اجمعين .

---

(١) اسم لسيف العاصي بن منابه الذى قتل فى وقعة بدر . وقد اعطاه النبي الى على بن ابى طالب
(٢) ان هؤلاء الواحد والخمسين هم كوكب ينتمى الى العالم النورانى الاصفر
(٣) القصد من مدينة حران ، هى السماء
(٤) اى ينقذون من يروم شفاعتهم بتضحية الضحايا ، ويسوقون ارواح الكفار الى الحيوان والجماد (الباكورة ص ٢٩)

١٤ . سورة البيت المعمور

والطور وكتاب مسطور فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ، بسر طالب وعقيل ، وجعفر الطيار . هم اخوة على بن ابى طالب ، نور من نور وجوهر من جوهر ، وعلى بن ابى طالب منزه عن الاخوة والاخوات والآباء والامهات ، احداً ابداً موجود باطن بغير غموض ، سر البيت وسقف البيت وارض البيت واربع اركان البيت . اما البيت فهو السيد محمد ، وسقف البيت ابو طالب ، وارض البيت فاطمة بنت اسد واربع اركان البيت هم محمد وفاطر والحسن والحسين ، سر الزاوية الغامضة الخفية التى هى فى نصف البيت هى محسن سر الخفى ، سر صاحب البيت (١) العلوى الشريف الهاشمى الذى هشم القرون وكسر الاصنام ، علينا من ذكره الرضى والسلام . (٢)

١٥ . سورة الحجابية

سر الحجاب العظيم ، سر الباب الكريم ، سر سيدى المقداد اليمين ، سر سيدى ابو الدر الشمال ، سر الملكين الكريمين الطاهرين هما الحسن والحسين ، سر الوليين هما نوفل بن حارثه وابو برده ، سر الصفى وعالم الصفى ، سر كل كوكب فى السماء ، سر قدس العلى وسكانه علينا من ذكرهم الرضى والسلام .

١٦ . سورة النقيبية

فنقبوا فى البلا هل من محيص . نذكر اسامى السادة النقباء الذين اختارهم السيد محمد من السبعين رجلاً فى ليلة العقبة فى وادى منى . اولهم ابو الهيثم مالك بن التيهان الاشهلى والبر بن مغرور الانصارى ، والمنذر بن لودان بن كناس الساعدى ، ورافع بن مالك العجلانى ، والاسد بن حصين الاشهلى وعباس بن عبادة الانصارى ، وعبادة بن صامت

---

[١] صاحب البيت محمد (صلعم)

[٢] يتضح من هذه السورة قصد النصيريين من الحج . يزعمون ان البيت الحرام هو محمد والصفا هو مقداد ، وعتبتا الكعبة هما الحسن والحسين ، والمروة هى ابو الدر ، والمشعر الحرام ؛ سلمان الفارسى فمعرفة هؤلاء هى عين الحج . وان محمد بن نصير كان ينكر على السنيين فريضة الحج ؛ وله خطاب فى كتاب الاعياد يخاطب به النبى (عليه السلام) . ويقول [ان الذين ظنوا انك مدفون هنا جعلوا لك ضريحا وهبوا لزيارتك ، ولكنهم كاذبون] ، وان الشيخ محمد الكلازى الذى ينتمى اليه الكلازيون ، اغرق فى الافراط ؛ وروى هذه الخرافة ، [ان المفضل استفسر يوما من جعفر الصادق عن بيت الله الذى يحج اليه المسلمون ؛ فقال له ؛ ان هذه التقاليد كفر . لان الكعبة مبنية من الحجارة فهى بمثابة الصنم ، « الباكوره ؛ ص ٣١ »

النوفلى ، وعبدالله بن عمر بن حزام الانصارى ، وسالم بن عمير الخزرجى ، وابى بن كعب ورافع بن ورقه وبلال بن رياح الشتوى ، سر نقيب النقباء ونجيب النجباء سيدنا محمد بن سنان الزاهرى (*) علينا من ذكرهم الرضا والسلام .

—٨—

المهاجرة

و

تناقص السكان فى سوريه

لا جرم ، ان المهاجرة هى احدى المسائل التى لا تزال تشغل اذهان الوزارت ، وادمغة المفكرين فى هذا العصر . ولا ريب فى ان رقى البلاد وعمرانها وتمكنها من اشغال مقام رفيع فى نادى الدول ، يتوقف على كثرة سكانها وثباتهم ونجاحهم فى معترك الجدال الحياتى . لم يخطأ قدامى المؤلفين فى تشبيههم الامة بالشخص . لان الفرد القوى القادر يقتدر على ان يسعد ويرقى بعلو الهمة والعزم الصادق . وهكذا الامم فان سعادتها وشقائها وانتصارها فى الجدال الحياتى او عدمه ، يختلف باختلاف قدرة افرادها اوضعفهم ، وكثرة اقويائها واذكيائها وعلمائها او قلتهم .

ولذلك نرى الدول الراقية لا تدخر وسعاً فى تحرى الوسائل الفنية والاجتماعية والاخلاقية التى من شأنها ترفيه عيش رعيتها ، او بالاحرى دعائم عزها وسلطانها ؛ وتزييد عددهم .

ان الدولة الفرنساوية التى قضت عليها بعض الاسباب الاقتصادية والاجتماعية بتناقص السكان ما فتئت منذ خمسين سنة وهى تسعى السعى الحثيث لايجاد ما يدرأ عنها هذا الويل الحياتى من الوسائل . فتسن القوانين وتضع النظامات ، ولا يزال نسلها يرزح تحت ضغط ذلك البلاء القاهر (**) حتى ان الامة الالمانية والايتالية المشهورتين بكثرة اللدات لم تقعدا قط عن التذرع بالتدابير القانونية والاجتماعية لاجل تزييد السكان . ومع هذا فان كثرة اسراب المهاجرين من البر العتيق الى البر الجديد لا تزال تعرقل مساعى الدول فى امر تزييد النسل .

(*) ان محمد بن سنان الزهرى محترم لدى الاسماعيليين ايضاً .

(**) لا تتجاوز زيادة النفوس فى فرانسا (١٠٠) الف نسمة فى كل سنة .

بعد أن اكتشف كريستوف كولومب قارة أمريكا، واطلع الاوروبيون بتوالي الازمان على ما هناك من الثروة والوفر، وذلك في القرن السادس والسابع عشر للميلاد. اخذت الوف من الاسر الانكليزية والالمانية والاسبانية والفرنساوية تبارح اوطانها وتتقاطر زرافات وافواجاً على ذلك المهجر الغني حيث تستقر فيه وتتخذه مسكناً ووطنا. والكيان الاجتماعي لم يكن يومئذٍ على حالة يتأثر فيها من هذه الحادثة. لان الامم ما كانت تقتني ما نراه اليوم من الجنود الدائمة وما كان نطاق المزاحمة الاقتصادية متسعاً بعد.

ثم جاء القرن التاسع عشر وحدث فيه التبدل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في حيات الامم الراقية. فنهضت كل دولة تتحرى ما يؤمن بقائها ويؤيد تجارتها ويمكنها من تحكيم بسطتها بين باقي الامم.

على ان ضنك المعيشة ما زال يشدد الاقبال على المهاجرة. واخذ السكان في هذه الايام ايضاً يتسربون من آلمانيا وايرلانده وإيتاليا وروسية وإوستريا الى القارة الجديدة افواجاً افواجاً. ولم يلبث هذا الحادث الذي كان غامضاً في إواسط هذا القرن، ان دخل اليوم في دور جاد واستلفت انظار الرجال السياسة. ولا يحمل دخول مسئلة المستعمرات في سياسة جميع الدول الغربية — ما عدا انكلترة — الا على امر المهاجرة الخطيرة. فاذا شئنا التنقيب عن سوائق «الغلو» في السيطرة «(ايمپريالزم) نضطر لأن ندخل فيها درس المزاحمة التجارية، والمهاجرة ايضاً الذين هما من امهات المسائل الاجتماعية. لان الاولى بالايدي العاملة القوية من ابناء الوطن ان تدأب في بلادها او مستعمراتها، ولا تموت وهي منكبة على استثمار انحاء «سن لوران، ميسيسيبي، وآمازون».

هاجر في القرن التاسع عشر للميلاد من بلاد آلمانيا التي تربح كل سنة (٨٠٠٠٠٠) من النسمات ما عدا الوفيات (٦—٧) ملايين. وفي سنة ١٨٨٠ غادر البلاد الالمانية (٢١٠٠٠٠) من المهاجرين يرتادون العيش الرغيد في الاصقاع الاجنبية والبقاع الخصبة الغنة. ولكن ما لبث هذا المقدار ان نقص بما تذرعت به الحكومة من التدابير الاقتصادية الاجتماعية. فكان في سنة ١٨٩٠ (١٠٠٠٠٠) وانخفض سنة ١٩٠١ الى (٢٠٠٠٠) نسمة. ولم يزد عن (٢٠) الفاً في السنة التي اشهرت فيها الحرب العامة. (*)

ويقابلاً لنجاح هذه الدولة فقد احدثت المهاجرة في ديار الامة الايتالية خلواً ملموساً وفراغاً محسوساً، اذ ما زال يهاجر منها كل سنة مقدار (٦٠٠—٧٠٠) الفاً من النسمات منذ سنة ١٩٠٥ ويتركون الحالة الاقتصادية، والوسائل الدفاعية في اوطانهم عرضة للمشاكل

[*] راجع كتاب «اهم حكومات الدنيا» لشراده روغالوثه ده، ص ٢٦٥ پاريس ١٩١٣

والغوائل. (*)

يقول المؤلفون الباحثون في هذا الموضوع:

يمكن ارجاع اسباب المهاجرة التي كادت تكون الطامة الكبرى على الوطن الى سببين:

الاول؛ كثرة اللدات (**) وفقدان ما يقوم باعاشتهم من الاراضي المنبتة.

والثاني؛ كون الاحوال الاقتصادية في ايتاليا غير كافية لدرأ الحاجات العمومية.

لم تنج سورية ايضاً من هذه المهاجرة التي شملت جميع انحاء البر العتيق على درجات مختلفة. بل نهض اكثر اقوامها منذ ربع قرن، بعد ما كانوا قبل ذلك العهد مرتبطين باوطانهم ربطاً وثيقاً. واخذوا يهاجرون الى اميركا مقلدين الاجانب الذين قصدوها حباً بالغنى وحصلوا على جانب عظيم منه. وانهم لما ورثوا خصائل الفنيقيين الذين طبعوا على حب الاسفار الطويلة كان الميل للهجرة بين تلك الخصائل ايضاً.

اول من هاجر من سورية بضع عائلات من قصبة بيت لحم، وكانت حرفتهم في مهجرهم بيع المسابح والصلبان وهياكل صغيرة لأعزاء الدين. وبدأت الهجرة قبل ثلاثين سنة بصورة خفيفة. ثم اخذت تتدرج بالتوسع حتى اصبحت في السنين الاخيرة على درجة هائلة ذعر منها كل محب للوطن. ويا للاسف لا علم لنا بعدد المهاجرين الذين ما نفكوا يبارحون هذه الربوع العثمانية الثمينة منذ ربع القرن الى الآن. وان دوائرنا الرسمية التي ما زالت بعيدة عن الاحاطة بمقدر نفوسنا؛ اهملت هذه المهمة ايضاً. ويرى ذلك بين الامور العادية. ونحن وان لم نعف عن هذا الاهمال ولكن لا يسعنا الا ان نقابله بما عهد فينا من عدم المبالاة والاناة ونعرض لانظار المدققين الذين رأوا قبل الحرب كثيراً من البيوت المقفلة في القرى والقصبات والامصار وشاهدوا القرى الخاوية. واحسوا بتنقص النفوس المتسارع، ان قد هاجر من سورية الى البلاد المتحدة فقط سنة ١٩٠٥ (٤٨٢٢) وسنة ١٠٠٦ (٥٨٢٤) وسنة ١٩٠٧ (٥٨٨٠) وسنة ١٩٠٨ (٥٥٢٠) نسمة. فيكون مجموع ما فقدناه في هذه السنين الاربع ٢٢٠٤٦ نسمة.

ويقرب عدد المهاجرين الى اميركا الجنوبية ومصر واوربا وافريقيا الشمالية والانحاء الاخرى قريباً من ١٥٠٠٠ من النسمات. وبذلك يكون مقدار المهاجرين السوريين قريباً من ٢٠٠٠٠ من النسمات في السنة (***). وبهذا نطلع على ما يلم بحياتنا القومية والاقتصادية من البلاء.

[*] راجع كتاب «اهم حكومات الدنيا» لشراده روغالوثه ده، ص ٣٠١ پاريس ١٩١٣

[**] يوجد في ايتاليا ١٢٠ نسمة في كل كيلومتر مربع، وفي بلجيقا: ٢٤٨، وفي انكلترة ١٤٤ وفي المانيا: ١٢٢، وفي اليابان: ١٠٣ وفي النمسة والمجر: ٧٦ وفي فرانسة: ٧٣.

[***] مجلة المشرق سنة ١٩٠٥، ص ٨٢٨

ان دولة المانيا التى مساحتها (٥٤٠٠٠٠) كيلومتر مربع ، ونفوسها مقدار (٧٠) ميليوناً لا تفقد فى كل سنة الا مقدار (٢٢) الفاً من رعاياها . لم نقصد هنا ان نصل من الغرابة الى مقايسة بلادنا بالبلاد الالمانية التى ادركت منتهى الكمال فى الاحوال الاقتصادية وبلغت الدرجة القصوى فى الرقى التجارى والصناعى حتى اصبحت وهى اليوم من اغنى وارقى البلاد المعمورة ، ولكن سورية التى تضم من الاراضى ما يبلغ اتساعها (٢٩٦٠٠٠) من الكيلومتر المربع ، ولا تحتوى الا على ثلاث ملايين من النسمات ، هى ويا للاسف على عين الدرجة مع المانيا فى المهاجرة فيمكن ذكرها بازائها . وعلى كل حال ان ضياع عشرين الفاً من النسمات فى كل سنة من هذه القطعة العثمانية التى لا تتجاوز كثافة نفوسها العشرات والتى تخيم فيها الجهل والفقر هو جدير بان يدعونا للافتكار والاهتمام .

ان سورية التى كانت تمير عشرة ملايين من السكان ما زالت تهيج اطماع الانام بما فيها من الكنوز الطبيعية ، والسواحل التى كونت كما تشاء التجارة ، وبجبالها اللطيفة ووديانها الخصبة ، وبارتكازها فى منتصف البر العتيق . وقد اصاب هذه البلاد باهمالنا المعهود من الدمار ما جعلها تعجز عن اعاشة ثلاثة ملايين من اولادها . واضطر اهلوها المطبوعون على الذكاء والعزم والمفطورون على استعداد كامل فى الامور الفكرية والتجارية ، لان ينقبوا فى البلاد ويرتادوا سبيل العيش . فاقوت القرى واقفرت السهول وعطلت الارض عن الزرع وكان اولوا الغاية من الصهيونيين فى المرصاد ، فاهوى بهم الحرص على امتلاك ثروة البلاد فاغاروا على تلك القرى التى اضاعت اربابها ، وشروها بثمن بخس باسم مهاجرى اليهود الذين جلبوهم من البلاد الروسية والرومانية. (*)

كثرت الكتابات فى المهاجرة عليها ولها . فقال المحبذون :

اولى للمرء من ان يخلد الى ارض جفت نعمها ؛ ويرضى من العيش باجرة زهيدة ويطفأ حياته جراً وزحفاً ؛ ان يذهب الى اميركا ويشاهد ما هى الحياة المدنية ، ويحصل على الثروة الطائلة . والوطن من البلاد ما يعيش فيه المرء ناعم البال ، راغد العيش ، سعيداً ما استطاع . وليت شعرى هل يصدق من يقول « وطنى المحبوب ! » لبقعة لم ير فيها وجه الراحة ، ولم يكن له ولعائلته فيها ادنى سعادة ؛ ثم لم يجد فيها اماناً ولا انصافاً وعدلاً ؟ . ان كثيراً من السوريين الذين غادروا اوطانهم من المتربة ، وضنك المعيشة ؛ او لخلوها من الانصاف والعدل ، اصبحوا اليوم وهم من اشهر التجار فى نيويورق . او شيقاغو ، او ريودهجانيرو ، او بوئنوس آيرس . وان ما يملكه اليوم عشرة الاف من السوريين من الاموال المنقولة وغير المنقولة فى الخطة المصرية يقدر بثلاثين الف ليرة انكليزية . وان

[*] راجع المجلد الاول ، ص « ٣٠ — ٣٥ »

مجموع ثروة هؤلاء الوطنيين فى اميركا وغيرها من البلاد لا يقل عن ٢٠٠ مليون ذهباً انكليزيا (*) لا ينكر ان سورية فقدت الى الان سدس نفوسها العمومية ؛ ولكن لا ننسى ان لو ظل هؤلاء فى اوطانهم لما استطاعوا الاستحواذ على هذه الثروة ، ولا فنوا حياتهم كسالى تزج بهم البطالة فى الذل والمسكنة .

وقال (آلن مكلولن) احد اطباء دائرة الصحة فى الولايات المتحدة ، فى كتاب الفه باحثاً فيه عن المهاجرة :

ان انجح المهاجرين بعد اليهود هم السوريون . وعدد من لم ينجح من مهاجرى اليونان ٦٨ ، ومن البولونيين ٦٣ ، ومن الايتاليين ٥٩ ومن السوريين ٣٤ ، ومن اليهود فقط ٩ فى المأة (**)

نضطر فى نقطة واحدة الى التسليم بقول هؤلاء الذين تكلموا عن المهاجرة مستندين على الماديات المحضة ، ان السوريين ولاسيما اولاد السواحل منهم لا يزالون معروفين بالعزم والاقدام ، ومشهورين فى عالم التجارة بنجاحهم ، وكثيراً ما تحدث الرقابة الاقتصادية بين التجار المعروفين فى بيروت او طرابلس الشام او يافه او غيرها من الثغور ، وبين التجار الاجانب فيكون الظفر فى اكثر المرار للتجار السوريين . والسوريون لهم اجمل الذكرى فى عالم التجارة المصرية وجميع المطبوعات هناك كادت ان تكون فى ايديهم . والمخازن العثمانية فى اهم ثغور البر الجديد ، هى من الانتظام والكمال فى درجة يحق لكل وطنى ان يفتخر ويباهى بها . وما عدا هذا فان هؤلاء المهاجرين غير منقطعى العلاقة مع اوطانهم ، وما زالت سورية تتقاضى من ابنائها المهاجرين فى كل سنة مقدار (١٤٠٨٠٠٠) ليرة بواسطة الشعبة البيروتية للمصرف (البانق) العثمانى فقط .

حتى ان الربع منهم يرجع الى بلاده بعد ان يحصل على شئ من الثروة ، ويبدل شظفه القديم برفاهية حديثة ، ويعيش عمره دائباً فى احياء الاراضى الموات وزرعها . على ان جميع هذه الفوائد لا تصلح لتبرير المهاجرة والتحبيذ عليها . والاوطان لا ترقى وتعمر الا بهمة اولادها ومساعيهم . اما النقود التى تدخل البلاد فاكثرها يصرف فى تشييد القصور الشاهقة والابنية الجسيمة اما فى لبنان ، او جبل عامل ، او فى احدى قصبات الساحل ،

واكثر عائلات المهاجرين فى سورية تعيش عيشة الطير ، رزق جديد فى يوم جديد . فتدوم الحياة الزاهية ما دام الراتب الاميركى متصلاً ، اما اذا ابطأ ذلك المدد او انقطع فلا بد لتلك السعادة ان تنقلب الى الشقاء ، وتستحيل الرفاهية الى الشظف فى آن واحد . وهذا

(*) مجلة الهلال . جلد ١٣ ، ص : ٣٠
(**) مجلة المقتطف سنة ـ ١٠ ؛ ص ٤٩٠

بجراننا اليوم هو انطق برهان على ما ندعيه . فعلينا ان نؤمل من الحكومة ان تدرس هذه المسئلة بعد الحرب وتضع الاسس المتينة التى من شأنها احياء البلاد والسكان .

— ٩ —

الآثار النافعة

ان اكثر البلدان والقصبات فى ولايـة بيروت موصلة فى لوائى لبنان والقدس وولاية سورية ، بطرق معبدة يحتوى بعضهـا على خطوط حديدية . يتبين من تدقيـق الجدول المرتب من قبل دائرة النافعة فى الطرق والمعابر ، الذى اثبتنا صورته فى كتابنا ان طول الطرق التى مهدت ؛ او مزمع على تمهيدها هو (٩١٠) من الكيلومترات و(٦٣٠) متراً . منها (٥٩٧) كيلومتر و٨٠ متراً تم عملها و٤٧ كيلومـتراً و١٥٠ مـتراً تمت تسويته فقط اما الذى لم يشرع به بعـد فهو ٩٠٠ — ٢٦٥ كيلومتراً .

طريق اللاذقيه — حما . — يبدأ من اللاذقية وبعد ان يقطع قضائى صهيون وجبله ، ويصل الى ناحية قدموس عن طريق بانياس ، مركز قضاء مرقب يدخل حدود سورية من المحل المسمى بدير الشامى . وبهذا يكون قاطعاً جبال النصيرية من الغرب الى الشرق. ولم ينتهى ربعه الى الآن مع انه شرع فى تعبيده سنة ١٨٨٤ . وقد قال مهنـدس الولاية الاول (سر مهندس) فى لائحة النافعـة التى عرضها على المجلس العمومى باحثاً فيهـا عن طريق اللاذقية — طرابلس الذى هو الشكل الاخر لهذا الطريق :

— لقد خصص (سنة ١٣٣١) «٤٠٠،٠٠٠» غرش لاجل اجراء العمليات التعبيديـة من جديد . ولكن لم يمكن عمل شىء بسبب الاحوال الحربية . وعليه اضيف الى موازنـة (سنة ١٣٣٢) «١،٥٠٠،٠٠٠» غرشاً لقاء التعبيد ، وما يلزم من الاعمالات الصناعية.

لا تنقضى الاعمال بمجرد ادخال المبالغ الجسيمة فى الميزانيات . وليس بالعذاب الهين ما يتكبده الانسان من المشقـة التى لا تخطر على البـال فى قطع هـذا الطريـق الواصل الولاية فى لوائها المهمين. لاسيما اذا اوجب الشقاء على احد التجار ، او المأمورين ان يتطرق هـذا الطريق فى الشتاء . فهنالك تكبر المحنة والمشقة عن الوصف . انهـار شتى يمدهـا المطر فتسيل وتطغى . واكثرها خلو من الجسور . فما على المسـافر الا الاستسلام بحياته وماله الى البخت الاعمى ، والانغماس بمركبه فى هذا السيل الطامى . وهنالك يأخذ الموت بخناقه ، وهو بخناق الموت ويتعاركا فى تلك اللجة الهائلة وربما يسعده الحظ فيصل الى الضفة الاخرى وهو غريق حى . لا يعلم المتجول فى تلك الانحاء انه فى قطعـة سورية

اللطيفة ، بل يظن نفسه فى بلاد لم تصل اليها يد الانسان ، ولم تدمثها الخطى البشرية . نعم ان القسم الشمالى من الولايـة لم يجعل الاهمال له شيئـاً من آثار العمران . ولا جرم ان النصيريين القاطنين تلك الاصقاع لم يقتدروا على الاحتفاظ بخشونة طباعهم وغلظة شمائلهم الا بهذا الاهمال العمرانى . فمن محتم الوظائف على حكومتنا المشروطة ان تجعل تعبيد الطرق فى مبدأ مسعاها الذى تريد صرفه لتأمين الامن ، ورقى الفلاحة الزراعية .

طريق طرابلس — حمص — حمـا . — يقطع هذا الطريق قضـائى طرابلس وحصن الاكراد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ويدخل الى ولاية سورية فى محل عين السوده الواقعة على الكيلومتر (٦٢) ثم يتطاول الى ان يصل حمص. ثم ينعطف فى هذه البلدة من الجنوب الى الشمال ويمشى الى حما . والمسافة من عين السوده الى حما هى (٧٩) كيلومتراً . وتتشعب شعبة من مصب نهر العرقا وتصل الى قصبة حلبا على مسافة (٢١) كيلومتراً . وقد احتفظت احدى الشركات بامتياز اجراء المناقلات على هذا الطريق . وكانت قبل الحرب ، ولاسيما قبل تمديد خط الحديد من طرابلس الى حمص، تسافر على هذا الطريق المركبات الجسيمة (ديليژانش) لنقل الركاب ، والعجلات لجر الاثقال . والتى انشأت هذا الخط هى شركة فرنساوية .

طريق بيروت — الشام . — حصل على الامتياز بفتح هذا الطريق (قونت پەرتويس *Comte de Perthuis*) سنة ١٨٥٩ واتم عمله سنة ١٨٦٣ . وما زالت هذه الشركة التى تأسست فى اوانها من حيث القيام بالانشاآت ، واجراء المناقلات ، تستفيد من هذا الامتياز الى سنة ١٨٩٢ . ثم اتفقت مع شركة فرنساوية اخرى ، وفرغت عن امتيازها . وقد كانت هذه الشركة حائزة على امتياز بتمديد خط حديدى (شمندوفر) (سنـة ١٨٩١) من بيروت الى الشام على طول ١٤٦ كيلومتراً . وفى عين التاريخ جاءت شركة بلجيقيـة وحصلت على امتياز بتمديد خط حديدى من الشام الى مزاريب . فاتحد الشركتان وكانت منهما (شركة الخطوط الحديدية الاقتصادية العثمانية فى سورية) .

ثم ما لبثت هذه الشركة ان حصلت على امتياز آخر بتمديد خـط عريض من رياق الى حما ومنها الى حلب . وهذا الخط مضمون على ١٥٠٠٠ فرنك ولكن متى اتصل بخط بغداد يتنزل هذا المقدار الى نصفه .

الخطوط الحديدية . — ان الخطوط الحديدية فى البلاد الغربية من اوروبا تأسست بعد تعبيد الطرق العمومية ، ولذلك نراها تتعقب هاتيك الطرق ؛ اما فى آسيا الصغرى فكان الامر معكوساً ، اذ خطت فيهـا الخطوط الحديدة اولاً ، ثم شرع بتعبيد الطرق . وهـذان الطريقـان من ضروريات بعضهما . لان الطرق المعبدة تنهض بالتجـارة ايضاً كالخطوط

الحديدية . ويجب فى هذه الطرق ان تكون صالحة لاستعمال احدث الوسائط النقلية .

كتب المهندس (ويلهلم فون پرەسسل) كتاباً مهماً جداً وبحث فيه عن الخطوط الحديدية فى آسيا الصغرى ، واوجد لائحةً فى ما سيؤسس فى الاناطول ، وبلاد الجزيرة من الخطوط الحديدية .

مما لا يخفى ان الخطوط الحديدية تفيد وتدوم فى الاصقاع التى يمكن ، او يحتمل اجراء المناقلات الجسيمة فيها . ولهذا يجب ان تكون الانحاء التى يمر عليها الخط خصبةً منبتةً ، وسكانها مستعدين للاشتغال بالتجارة . وعليه فالنقود التى تصرف لتمديد الخطوط فى الاراضى المقفرة لا جرم تذهب ضياعاً .

ومما هو جدير بالبحث مسئلة الخط المنفرد ، او المضاعف . والعريض بمقدار ١٫٤٤ متراً كما هو فى اوروبا ، ام الضيق الذى عرضه مترو واحد . فاى هاتين الطريقتين هى الراجحة يا ترى ؟

اذا صرفنا النظر عن الوجهة العلمية والفنية فى هذه المسئلة ، ونظرنا اليها من حيث التجارة نجد ان للخطوط المضاعفة منافع جمة . ولا جرم ان رأس المال فى الخطوط المضاعفة يكون على غاية من الجسامة . ولكنه يتلافى بما يحصل عليه من زيادة الوارد . اذ بهذا التدبير يمكن تضعيف عدد القطر . هذا وان كانت المسئلة تجاريةً ، فان الحكومات عليها ان تفكر حين تفويض الامتياز براحة الاهلين ومنافعهم ، وتأخذ بالشرائط التى تكفل لها السرعة الممكنة لكى لا ترتكم الامتعة بين منبع الحاصلات ومخرجها . فاذا كان الخط واحداً فان اقل مانعة توجب تعطيله الزمن المديد . وترتكم العجلات فى المواقف ، وتبلى الاموال فى المستودعات .

يرجح الخط المضاعف على الخط المنفرد بهذه الاسباب ؛ ولكن لا ننسى ان الخط المضاعف يحتاج الى المغرم الباهظ . ولهذا يمكن ان يكتفى فى بادئ الامر بخط واحد بشرط تأهيب الممر لاستيعاب خط آخر . فتشييد الجسور ، وتعمد الانفاق ، وغيرها بالنظر لهذا الاحتمال . وبهذا تمكن حين اللزوم مضاعفة الخط على اتم السهولة لان الاساس يكون حاضراً ، فلا تحتاج الا لتمديد القضبان .

اما المسئلة الثانية ؛ فهى اخطر من الاولى . وان الحكومة العثمانية لم تؤثر الخطوط الضيقة فى بلاد الاناطول بل كل امتيازاتها كانت مشروطة بعرض ١٫٤٤ متراً ومع هذا فان الخطوط القديمة فى سورية كانت كلها ضيقةً .

على ان هذه الخطوط التى عرضها مترو واحد ، تقوم بعين الخدمة . ولاسيما انها اقل

مغرماً من الاولى . (*)

خط عكا — الشام . — احيل امتياز تمديد خط حديدى من عكا الى الشام (فى ٣٠ ايلول سنة ١٨٩١) الى رجل انكليزى اسمه پللينغ *Pelling* ، ويوسف الياس من اهل هذه الديار . وان الحكومة لم تضمن هذا الخط الذى طوله ٢٥٣ كيلومتراً على عرض ١٫٤٤ متراً بمبلغ ما . ولكن حصل اصحاب الامتياز لقاء هذا على رخصة من الدولة بتسيير السفائن فى بحيرة طبريا ، واذنوا بانشاء رصيف ومرفأ فى فرضة عكا او حيفا فى مدة اربع سنين اعتباراً من تاريخ الامتياز . فتأسست هذه الشركة بعنوان *Syria Ottoman Railway* واصدرت (٣٠٠٫٠٠٠) من الاسهام قيمة كل واحد (١٢) ليرة . واذنت باصدار (١٥٠٫٠٠٠) من الاسهام اذا اوجب الامر . ثم ما ابطأت ان شرعت بالعمل ، ولكن لم يتمكن المؤسس پللينغ من الحصول على ما يحتاجه المشروع من المال لغاية (سنة ١٨٩٥) .

وعليه اعلنت الحكومة العثمانية انفساخ امتياز هذا الخط الذى كانت حصة ولاية بيروت منه ١٠٠ كيلومتر ، وصادرت الرهنية المودوعة فى المصرف (بانق) العثمانى . وهى (١٠٠٠٠) ليرة عثمانية . وما لبثت ان ردتها الى اصحابها بعد مناقشات ومدافعات طويلة وبهذا تخلى به پللينغ عن المشروع ، وغادره الى شركة انكليزية ما ابطأت ان شرعت بالعمل ايضاً . ولكن كان العمل على غاية من البطائة حيث دخلت سنة ١٩٠٠ ولم يبعد عن حيفا الا (٥) كيلومترات . وفى ذلك التاريخ ارتأت الحكومة ايصال السكة الحجازية الى حيفا فامرت الشركة بتعطيل العمل متمسكة بانفساخ امتياز پللينغ منذ امد بعيد . فاحتجت الشركة على هذا العمل ، وراجعت سفارتها ، وبتوسط السفارة اتفقت الحكومة مع الشركة (١٩٠١) وابتاعت حريتها فى هذا المشروع ثم كان ذلك الخط الفرعى ،

وفى اول سنة للحرب شرع باجراء المناقلات على الخط الفرعى الذى مدد من حيفا الى عكا بطول (١٧) كيلومتراً . ولكن لم يكن حظ سكان حيفا من هذا الخط اكثر من شهرين . ثم قلعت قضبانه وانشأ منها الفرع المصرى من السكة الحجازية . ثم عمد الى موقف عفوله من فرع حيفا ومدد الخط منه الى القدس ، ثم الى بئر السبع ؛ واوغل به فى شبه جزيرة سيناء واخذ يستخدم فى النقليات العسكرية .

خط طرابلس — حمص . — هو على طول (١٠٢) من الكيلومترات . وقد قامت به شركة فرنساوية رأس مالها (٣٠٠) الف ليرة فرنساوية . وذلك بمظاهرة شركة الشام — حما ، وانهته فى مدة سنة ونصف . وجميع الشركاء فيها من الفرنساويين وقيمة السهم

(*) فائق صبرى ؛ عثمانلى جغرافياى اقتصاديسي : صحيفه ٢٣٦ — ٢٣٨ .

فيها خمس ليرات . ومن جملة شرائط المقاولة ان لا يكون للاهلين حق بالاشتراك فى رأس مال الشركة . وقد قلعت قضبان هذا الخط ونقلت الى فرع رأس العين من سكة بغداد. وبذلك جردت بلدة طرابلس الشام من خطها الحديدى .

— ١٠ —

نبذة من تاريخ سورية (*)

١ — المماليك البحرية

المماليك البحرية . — كان المماليك من الجنود الخاصة لسلاطين مصر . وفى اواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، قام التاتار من آسيا ، واندفقوا على الانحاء الغربية حيث هددوا بخطرهم بلاد العجم ، واصقاع العراق ، وعمد الافرنج لانحاء سورية وتوفقوا فيها لاحياء حكومتهم البائدة . اما الخوارزميين الذين فروا من هول التاتار الى الجهة الغربية كانوا يهددون البلاد الفلسطينية بخطرهم . وفى هذا الزمان الحرج جلس الملك الصالح سابع الملوك الايوبية على عرش السلطنة فى مصر ، فرأى من الصواب ان يختار لنفسه جنوداً خاصة ممن يثق بصداقتهم . وكانت افراد عشيرة القبچاق مشتةً عن اوطانها بسبب اكتساح المغوليين بلادهم وقد ابتيع منهم عدد وافر وقدم الى سلطان مصر باغلى الثمن . والملك الصالح الذى ما زال يتربص الفرص لم يهمل امر هؤلاء الافراد ، بل سربهم وقربهم اليه دون الاكراد الذين كانوا من دعائم جنوده . وكان عند هؤلاء الاتراك المهاجرين من المحبة والاحترام لسيدهم ما يفوق الحد المعروف . فبنى السلطان لهؤلاء الجنود ثكنة فى جزيرة الروضة الواقعة تجاه القاهرة واسكنهم فيها . وبما ان هذه الجزيرة كانت فى منتصف النيل سمى سكانها بالمماليك البحرية ، وكانوا يسمون بالحلقة لانهم يحيطون بالسلطان.

لم يكتف السلطان باقامة الاتراك فى الثكنه ؛ بل رتب لهم دروساً عن كيفية ادارة البلاد والجنود ؛ واعتنى بتدريسهم اياها .وكان الملك الصالح على غاية من السرور بنجاحه فى تأسيس

(*) يوجد فى القسم الشمالى من الولاية كثير من الجوامع والتكايا ، والمدارس ، والحصون والقلاع والقسم الاهم من الكتابات التى رقمت على جدران هذه المبانى التاريخية لم يزل على ما هو : فاثرنا اتماما للفائدة ان ننقل عين هذه الكتابات المهمة ، وندرجها فى كتابنا . وقد استندنا فى النقل على كتاب Corpus Inscritterium arabicum. للمستشرق المعروف (سوبيرنهايم Sobernheim) وقد آثرنا درجها ايضاحا لما يمر فى هذه النبذة التاريخية ، وما سنراه اثناء البحث عن الصليبيين ؛ وما تتضمنه تلك الكتابات العربية من اسماء الاشخاص والوقوعات .

هذه المؤسسة التى اعدها قوة لتأييد سلطة اسرته وظن ان هذه القوة تكون سلاحاً لصيانة اخلافه من التجاوز والغدر . ولكن الحادثات التى كانت بعد وفاته كشفت عن درجة خطائه فى هذا الاجتهاد .

جلس على كرسى السلطنة بعد وفاة الملك الصالح ابنه توران شاه ، ودعى بالملك الاعظم فعزل اكثر قواد ابيه ، وعقد هدنة مع سن لوئى ملك فرانسة دون ان يستشير بشانها احداً . وكان من شرائط هذه المعاهدة ان يسلم الفرنساويون قلعة دمياط التى استولوا عليها الى المسلمين ورضى السلطان المعظم بفك سن لوئى من الاسر بفدية باهظة ، فنهض الوزراء والقواد الذين لم ترق فى اعينهم سياسة هذا السلطان الجديد ، واستمالوا رؤساء الحلقة اليهم ، واجمعوا على كيد السلطان .

وبينما كان السلطان راجعاً من الوليمة التى اقيمت بسبب المعاهدة بوغت بهجوم رتبه المملوك (ركن الدين بيبرس) الذى سنرى تسلطنه على الديار المصرية . واصابته جروح فى زنده . وقد علم السلطان ان هذه المكيدة كانت من المماليك وتحفز ليبطش بهم وينتقم لنفسه . ولكنهم عاجلوه قبل ان يقضى عليهم وعمدوا الى قصره فشبوا فيه النار . وحاول الملك المعظم ان ينجو بنفسه من هذا البلاء فما نجح ، واقتحمه مماليك ابيه فقتلوه . ومع ذلك فقد جددت المعاهدة مع الفرنسويين . ثم اجمع المماليك بعد قتل السلطان على امرأة ابيه (شجر الدر) واقعدوها على كرسى السلطنة . ثم تزوج بها (عز الدين ايبك) من المماليك ونصب نفسه وصياً لها . ولم يطل عليه الامر حتى استصعب ادارة الملك بالاشتراك فخلع زوجته من السلطنة واعلن سلطنته واخذ يدير البلاد لوحده . ثم احس اكثر الوزراء بشدة وطئة الفوضى ، وعمدوا الى موسى من احفاد السلطان الكامل واجلسوه على تخت الملك وهو يومئذ فى الثامنة من عمره وسموه الملك الاشرف . وبعد اربع سنين (١٢٩٤م) انتهز عز الدين ايبك مساعدة الظروف ، ولم يطق الشراكة فى السلطنة فخلع آخر بنى أيوب واستبد فى الادارة وحده للمرة الثانية . ثم قصد ان يتزوج بابنة بدر الدين امير الموصل ، فاغتاظت زوجته شجر الدر منه ، وساقتها الغيرة الى الجرأة على قتله فخنقته فى الحمام . وبعد وفاته اجمع المماليك على تولية ابنه نور الدين على ، فكان سلطاناً لمصر بعد ابيه .

ثم نهضت والدة السلطان الجديد للانتقام من شجر الدر ، ونصبت لها مكيدة فاغتالتها فيها . وقتلت تلك التى ابلت البلاء الحسن فى ايام انحطاط السلالة الايوبية ، ولم تستطع الاحتفاظ بحسن سيطها لما طبعت عليه من حب الحرص والطمع ثم جردت من ثيابها وحذفت جثتها الى الكلاب فى خندق القصر.

وبأثناء حدوث هذه الجنايات الغليظة كان الشرق معكساً للوقوعات الهائلة . لان هلاكو

كان مخيماً بجنوده من التاتار على ابواب بغداد ، ومحاصراً لخليفتها ، بعد ان اغرق آسيا الغربية في بحر من الدم .

لما تقرب هلاكو من انحاء بغداد قابله الخليفة بجنوده وتحارب الطائفتان فغلب الخليفة وكر راجعاً الى بغداد . ثم طلب الوزير ابن العلقمي من الخليفة ان يذهب الى هلاكو ويدعوه دعوة حبية الى الدخول في بغداد . وبرر على رأيه بان سبق لارطغرل بك ان قوبل بذلك وادخلها . ولكن لم يجسر الخليفة على هذا العمل ، فذهب بن العلقمي لوحده الى مخيم هلاكو وحصل على الامان لنفسه . ثم عاد الى الخليفة وخبره ان هلاكو يميل الى الصلح وانه يريد ان يزوج ابنته من ابن الخليفة ، واصر عليه بالذهاب . حتى وافقه . وذهب ، واذاع بن العلقمي خبر النكاح واهاب بالناس لان يحضروا في الاحتفال به ، واخرجهم الى خارج البلدة .

ولكن التاتار انتهزوا هذه الفرصة ، وحكموا سيوفهم في الرقاب وابادوا جميع الناس ، ولم ينج ابن العلقمي ايضاً من هذا الظلم العادل . بل جوزي بما كسبت يداه من الخيانة (١٢٥٥م) .

ذاع بعد فجائع العراق ان التاتار يزمعون اكتساح سورية ومصر ايضاً . ولذلك وجب نصب وصي للسلطان المراهق لاجل التذرع بوسائل الدفاع ، والقيام بما يقتضيه الامر من التدبير . فانتدب لهذه المهمة سيف الدين قوطوز احد مماليك عز الدين ايبك واعلنت وصايته . وكان قوطوز قائداً شجاعاً ولكنه مفطور على الطمع والحرص .

ولم ترق في عينه تلك السلطنة المشتركة فعمد الى نور الدين علي فخلعه ، ونصب نفسه سلطاناً على البلاد باسم الملك المظفر . وكان قد جهز الجيوش ، فمشى بهم الى سورية حيث التقى بالتاتار في وادي غرر فمزق شملهم وغلبهم شر غلبة . ثم بالغ في تنسيق ادارة سورية وحكم ربطها بمصر . على ان هذا السلطان الذي امده الحظ ومشى في ركابه لم يقتدر على ضبط « ركن الدين بيبرس » ، قاتل الملك المعظم . فانه وعده بعد الظفر ان يقطعه ولاية حلب ولم ينجز بوعده ، وما لبث ان قتل بيد ذلك الخصم القاهر . وبهذا تمكن بيبرس الذي لم يستطع ان يقنع اولياء الامور بانه اهل للرياسة ، من الارتقاء الى عرش السلطنة المصرية ، واخضع لسلطانه جميع ولاة سورية ثم قفل الى قاعدة ملكه .

وظفر هناك باحد احد امراء السلالة العباسية الذين مزقت سلطنتهم بايدي هلاكو ، فتلقاه باحتفال عظيم ، وقابله بالحفاوة الكاملة . ثم لم يلبث ان اعلن خلافته وسماه « المستنصر بالله » ورأى الخليفة الجديد ان يجزي حاميه بيبرس ويقابله على احسانه ، فحباه بعنوان « السلطان » .

وقد كان بيبرس يقدر قيمة هذا العنوان الصادر عن مقام جليل ، لما يعلم من وقعه العظيم

لدى الناس . وما ابطأ بيبرس ان استصحب الخليفة وقصد سورية للمرة الثانية وبهذه السفرة فقد الخليفة في الطريق ولم يعلم ما نزل به ، اقتل ، ام مات مسموماً ، او ضل عن الطريق في ذلك المهمه القفر ؟

ثم عاد بيبرس الى القاهرة وبعد ان شيد فيها المباني الجسيمة المزخرفة ، عمد لاشهار الحرب على الافرنج ، واستولى في بادئ الحرب على قيسارية ، وما في جوارها من القصبات وفتح قلعة صفد عنوةً (١٢٦٠ م) .

وبعد سنتين هدم يافا ، ونهب طرابلس ، ثم حاصر انطاكية وفتحها . وظل هذا السلطان الذي لا يعرف الكلل يهاجم الافرنج ويظهر عليهم مراراً عديدة . وفي سنة (١٢٨١م) عقد الهدنة مع ملك القدس ، ثم اندفع على حكومة الارمن في شمالي سورية ونكل بها . وبعد اربع سنين استيقظ التاتار وعادوا الى ما عهد فيهم من ايقاع الفساد ، واصبحت البلاد ولا سيما سورية من توالي هجماتهم على شفا الدمار . وكان السكان في اشد الحاجة لمن ينجدهم ، وينقذهم من هذا البلاء الذي جعل اموالهم وارواحهم تحت الخطر . ولم يطل الامر حتى قدم بيبرس بجيش عرمرم ، واقتحم جنود التاتار فمزقهم كل ممزق . وهذه العزيمة الصادقة والهمة العالية سخرت للسلطان المذكور قلوب جميع الناس واكسبته حبهم واحترامهم . وفي سنة ١٢٧٧ م توفى هذا السلطان النشيط في مدينة الشام بعد ان اشغل تخت السلطنة مقدار (١٩) سنة ودفن فيها (*) . ولم يتسع نطاق حكومة المماليك التي اسست في مصر الا بهمة هذا السلطان .

نعم ان بيبرس قوى مركز حكومة المماليك برد غارة المغوليين عن سورية ، وكبح جماحهم . واقتدر على تخليص اعظم القلاع والمعاقل كصفد وحصن الاكراد وانطاكية ، من ايدي الافرنج . وكانت مملكة المماليك حين وفاته ممتدةً من صحراء النوبه الى وادي الفرات . وكان قد عهد بالملك من بعده لابنه « بركه خان » . فلما مات صار الملك اليه وسمى بسعيد ناصر الدين . ولكنه عجز عن الادارة ؛ واستاء منه القواد فلم يمهل الا سنتين وخلع عن سرير السلطنة وانيب مكانه اخوه بدر الدين سلامش وسمى بالملك العادل ، ونصب القائد سيف الدين قلاوون وصي له « ١٢٨٩ » . وبعد سنة من هذا التاريخ خلع هذا السلطان الذي لم يتجاوز السنة السابعة من عمره واجلى الى قلعة حصن الاكراد ، منفى اخيه . ثم وقع الخلاف بين القواد بسبب السلطنة ، فقام الامير سنقر في الشام وادعاها لنفسه ، وعارضه

(*) كان بيبرس من عشيرة قيجاق ، ومن مماليك الملك الصالح . وعنوان (الصالحي) الذي نراه في الكتابات التي كتبت في زمانه هو منبعث من هذا السبب .

قلاوون من امراء المماليك ايضاً ، فافضى امرهم الى الحرب ، حيث كان الحظ موآزراً قلاون فقهر خصمه ، وانتهى الخلاف ، واذعنت جميع الامراء لسلطة هذا القائد المظفر (١٢٨٠م) .

ان قلاوون هذا الذى سمى بالملك المنصور كان من احسن ملوك المماليك وقد حذا بسياسته تجاه الافرنج فى سورية حذو الملك بيبرس . وبعد اربع سنين عمد قلاوون الى حصن «مرقب» الذى هو من اعظم معاقل الافرنج وانتزعه عنوةً من ايدى صيليبي «سن جان» ، ثم استولى على بلدة طرابلس (١٢٨٩ م) . ونقلت البلدة الى مسافة ثلاثة كيلومترات عن الساحل وبنيت من جديد . وفى السنة التى بعدها توفى قلاوون الصالح على الطريق بينما كان قاصدا عكا ليفتحها . ودامت سلطنته احد عشر سنة وثلاثة شهور .

وكان خليفته ابنه «الملك الاشرف» صلاح الدين خليل . فعمد هذا الى محاصرة قلعة عكا عملاً بوصية ابيه . وقد بالغ صيليبيو (سن جان وتامبليه وتوتون» فى الدفاع ، واشتدت المحاصرة ودامت خمسة اسابيع ، ثم سخرت تلك القلعة التى هى آخر قاعدة لحكومة الافرنج بعزم السلطان خليل الاشرف وهمته (١٢٩٧ م) وفتحت بعدها قصبة صور وبهذا أجلى الافرنج عن الارض المقدسة .

وقد قتل الملك الاشرف الذى اباد حكم الافرنج من سورية ، اثناء انشغاله فى الصيد . (١٢٩٣ م) .

ثم اصبح الامر فوضى فى تلك الحكومة ؛ لان السلطنة لم تكن منحصرة فى سلالة خاصة، بل كانت تتداول بين الامراء ؛ ومكثت مدة فى سلالة سيف الدين قلاوون سابع ملوك المماليك ولكن لم تجد فيهم اهلاً تستقر عليه . ولم ينج منهم من الخلع او القتل الا قلاوون. وقد اهمل فى دورهم امر العمران لسبب الفتن والمفاسد ، حتى اشفت مصر على الخراب . ثم انتهت دولة المماليك فى اواخر القرن الرابع عشر للميلاد (١٣٩٢ م) وانتقل الملك منهم الى ملوك الجراكسة وفى زمن هؤلاء الامراء كانت البلاد اشد تعاسة ، واعظم بلاءً ؛ وتجرعت اهلك الثورات ، ودام حكم الامراء الجراكسة مائة وخمس وثلاثين سنة (١٣٩٢—١٥١٧ م) .

تحارب (قانصو الغورى) الثانى والعشرون من هؤلاء الامراء مع السلطان سليم ياوز فى مرج دابق فغلبه وقتل فى تلك الوقعة ، اما خلفه (طومانباى) فقد اسره السلطان سليم بعد مرور سنة من تلك الوقعة ، وصلبه فى مصر ، وبهذا دخلت سورية ومصر فى عداد البلاد العثمانية .

٢ — الصليبيون فى سورية

كانت حومة التاريخ فى القرون الوسطى مجالاً تلعب فيه سلطة الامتين العظيمتين ، امة محمد ، وامة المسيح .

فكانت سلطة الاسلام فى آسيا وآفريقيا ، وقسم من اوربا ، وسلطة النصارى فى اوربا وقسم من آسيا .

وكانت الاحوال تدل على ان لا بد من تناطح هاتين الطائفتين المقادتين برياسة الخليفة والبابا السياسية ، وما لبثت ان وقعت تلك المصادمة باسم الصليبيين .

لماذا تصادم يا ترى هاتان الفرقتان اللتان تقاسمتا البشرية فى ذلك الزمن ؟ واى فرقة كانت اقدر على الظفر من هاتين الفرقتين لدى اول خطوة تجاوزية ؟ واى الطائفتين كانت على الحق ؟ لقد كتب مؤلفو الاسلام والنصارى من المؤلفات فى هذا الموضوع الواسع ما يكون المكتبات الحاشدة . ونحن لا نريد الآن ان نطرق هذا البحث المعضل ، ونبتعد عن موضوعنا الاساسى . بل اننا نعلم ان بلادنا ظلت فى ادارة الافرنج مقدار (١٩٥) سنة ولذلك نريد ان نطلع على كيفية ادارتها فى ايدى اولئك الاجانب .

يدلنا اسم الارض المقدسة على انها ما زالت البقعة المباركة فى نظر جميع اهل الكتاب لا سيما ان قيمتها وقدسيتها فى نظر النصارى عظيمة جداً ، لان عيسى عليه السلام هبط الى عالم الوجود فى هذه البقعة ، وصدع بكلام الله ، وتكبد الالام والعذاب الاليم فيها .

ويزعم ان هيلانة والدة قسطنطين الكبير ، لما قدمت القدس بقصد الحج ؛ تحرت الصليب الذى صلب عليه المسيح ووجدته ووضعته فى الكنيسة التى بنتها فوق المغارة التى دفنت فيها. ومنذ ذلك الزمن كان الحج الى القدس من التقاليد الدينية عند النصارى .

لم يحس حجاج المسيحيين بوطأة انتقال القدس من ايدى النصارى الى ايدى المسلمين لان العرب لم يمانعوهم عن زيارة القدس ، ولم يعارضوهم فى تقاليد دينهم ، ثم لم يلبث الخلفاء الذين كانوا قواد عموم الاسلام ، ان تراخوا بايفاء وظيفتهم المقدسة فى زمن العباسيين ، واختلت شؤون الادارة منذ ولج امرها من قبلهم الى الامراء والوزراء الاحداث المتصلبين فى الدين . فغدوا يتقاضون من حجاج النصارى الضرائب والرسوم ولربما اصيب بعض هؤلاء الزائرين بكيد اللصوص .

ما لبث ان نهض البابا ، حامى المذهب النصرانى ، واخذ يدعو النصارى جميعهم ليتحدوا ويتفقوا على مهاجمة الشرق والانتقام من المسلمين بسبب بضعة افراد من متشردى النصارى فبدأت اول حملة للصليبيين سنة ١٠٩٦ ثم تكررت ثمانى مرات ودامت الى سنة ١٢٩١

وقد تمكن الصليبيون فى القرن الحادى عشر للميلاد من تسخير الرها Edesse) وانطاكية وفتح القدس ، وفى بداية القرن الثانى عشر استولوا على جميع انحاء سورية ما عدا القصبات والبلاد الواقعة على الخط الممتد من حلب الى الشام .

الاسس الادارية — تأسست حكومة ارمنية فى انحاء (سيليسيا) الواقعة بين جبال طوروس وساحل البحر ، والكائنة فى الجهه الشمالية من الاراضى التى استولى عليها الصليبيون ، وانحاء (الرها — اورفه — Edesse) الممتدة الى ضفاف دجلة كانت فى ادارة قائد يسمى بودوين Baudouin) كانها بقعة فرانساوية . وقد كان لهذه الايالة الاخيرة قيمة عظيمة فى نظر الصليبيين . لانها تكون حائلاً بين مسلمى سورية ، وبين ما يحتمل ارساله اليهم من الامداد من انحاء الموصل وبغداد .

ثم تأسست ما عدا هؤلاء ايالة انطاكية وطرابلس ، وفى الدرجة الثانية مقاطعة (قونتية) عسقلان ، يافه ، قيسارية ، ثم ايالة الجليل . اما فى الداخل فان انحاء حلب وحما وحمص والشام بقيت فى ايدى المسلمين ونجت من حكم الصليبيين وعليه تكون المستعمرة النصرانية فى سورية عبارة عن حكومة الارمن ، وايالة انطاكية وطرابلس ، وحكومة اللاتين فى الساحل ؛ وايالة الرها فى الداخل . فتكون الحدود الشرقية للحكومة النصرانية فى سورية عبارة عن جبال النصيرية التى تفصل ايالة طرابلس وانطاكية عن مسلمى حمص وحما ، وجبال لبنان التى تفرق نصارى لبنان عن مسلمى الشام ، وفى الجهة السفلى عبارة عن الخط المنخفض الذى يكونه نهر الشريعة وبحيرة لوط . فكانت المستعمرة الفرنساوية تمتد الى الجنوب الشرقى فتحتوى على المواقع الموجودة من الكرك الى خليج العقبة كالكرك مونتره آل ثملات . وتسمى تلك الانحاء باراضى ما وراء الشريعة Outre Jourdain

اما القسم الجنوبى من سورية فهو القسم الذى يكون الحكومة الاساسية . وكان من بلادها المشهورة بلدة القدس التى هى قاعدة تلك الحكومة ثم فى الداخل من الجنوب الى الشمال قصبات الناصره ، بانياس ، نابلس ، ايبه لين ، رام ، لدا ، جرون ، او قصبة ابراهم المقدسة . وفى الساحل ؛ عسقلان ، يافه ، آرسور ، قايفا ، آقر ، تير ، سابهت ، باروت وامثالها من الفرض الساحلية وكان ايتاليو ، بيزه ، جنوه ، والبندقيه الذين هم السواد الاعظم بين سكان تلك البقعة ، ممتازين عن غيرهم لانهم حسن بلاؤهم فى الحملة الصليبية الرابعة .

اما فى الحدود الجنوبية فتوجد صحراء التيه . وقد شيدت على تخومها قلاع روبر (هى فى جانب بحر لوط) ، سهموآ ، قارمهل . بيت جيبه لين ، دازوق . ثم وراء هذا الخط الدفاعى توجد معاقل ثبه لين وبلانش غارد — Blanche-Garde.

وتوجد وديان كثيرة تمتد من الشرق الى الغرب بين منتهى الجنوب من لبنان وبين بحر

لوط . فكانت جيوش الاسلام تتمكن من هاتيك الوديان ان تهدد الثغور الافرنجية . وقد شيد الافرنج فى هذه الانحاء قلعة الشقيف Beaufort و Castellet Chateau-neuf فى صفد ، وفى جنوب البحيرة قلعة بووار Beauvoir . وما عدا هؤلاء فقد كان للافرنج فى الجهة الشرقية قلعة بانياس .

اما فى الجهة الوسطى فان الحدود التى تفرق مستعمرة النصارى عن بلاد الشام ، هى جبال لبنان التى كان سكانها من المسيحيين ولذلك لا تحتاج الى القلاع والحصون . اما فى الجهة الشمالية فنهر ابراهيم (آدنيس الفنيقيين) الكائن بين بيروت وجبيل ، الذى يصب على البحر من وادى عميق بعد ان ينبع من شواهق لبنان ، هو فاصل الحد الشمالى للحكومة اللاتينية .

واعتباراً من ضفاف هذا النهر تبتدأ حدود أيالة طرابلس . وتوجد جبال النصيرية فى الجهة الشرقية الشمالية من هذه الايالة . وقد شيد الافرنج فى تلك الاصقاع قلاعاً وحصوناً عديدة ليتمكنوا من الدفاع عن كيانهم تجاه ما وراء العاصى من مسلمى حمص وحما . ويوجد فى جبال عكار حصار عكار ، وان حصن عرقا الذى نراه اليوم خراباً ، شيد لاجل الدفاع عن البلاد فى ممر النهر الكبير . وما عدا هؤلاء يوجد Krah des Chevaliers او بالتعبير الحالى حصن الاكراد الحاكم على الممر الذى يصل سيف البحر فى وادى العاصى ، ثم فى الشمال منه قلاع آريمه Areymeh ، برج صافيتا ، سارق ، قوله وهؤلاء مربوطون ببعضهم ببروج قيمتها فى الدرجة الثانية .

اما ايالة انطاكية فهى عبارة عن الانحاء الشمالية من جبال النصيرية ، والجانب السفلى من وادى العاصى ، ومن اشهر بلادها فى الساحل : موانى اسكندرن ، پوربونهل Port Bunnel ، سودهن او سن سيمهؤن ، لاليش Laodicée ، زيبل . وفى وادى العاصى : قصبتى الشغور وفهمى ، وفى الجهة الشرقية بلاد البارا آرتهزى ، قافاردان ، روح اما انحاء قدموس ، ليقا ، ميعاد فكانت مسكونة بالاسماعيليين الذين كانوا تجاه الافرنج على نوع شبيه بالاستقلال اما القلاع والمعاقل التى كانت فى جبال النصيرية ، فقد اقطعها امراء الايالات الى جمعية الزهاد الصليبيين ، لسبب اشكال المحافظة عليها والمدافعة عنها .

جمعية الزهاد الصليبيين — ان جمعية الزهاد المسلحة التى خلقت ابان حرب الصليبيين ، كان لها اليد البيضاء فى تمديد حياة الحكومة المقدسية . وأما هؤلاء الزهاد ثلاث جمعيات : المعبديه Les Chevaliers du Temple وفرسان سنجان Les Chevaliers de St Jean والشركة التوتونية Ordre teutonique .

فالمعبدية من هؤلاء تأسست سنة ١١١٨ من قبل هوك دوپهين ورفقائه بقصد الدفاع عن نصارى الارض المقدسة . وقد اهداهم الملك بودوين الثانى Boudouin بيتاً مجاوراً الى

معبد سليمان عليه السلام ، ليتخذوه مركزاً لجمعيتهم. ولذلك سميت بالمعبدية . وقد تمكنت هذه الجمعية بعد تأسسها باقل من قرنين ان تحصل على مكانة تامة ، وتشغل مقاماً متيناً . وكان رؤساؤها *Grand Maître* بمثابة الامراء، لهم جنود وقواد وقلاع ويزعم ان دخل هذه الجمعية فى اوروبا كان يربو عن مائة مليون . وكان لها فى سورية ١٨ قلعة مع توابعها . وطرطوس — *Tortose* ، عتليت *Chateau Pelerin* كانتا من اهم تلك القلاع . وكادت هذه الجمعية ان تكون على اتم الاستقلال فى الامور الحربية . وقد عقدت مباشرة مع المسلمين هدناً عديدة . ولم تنقطع المناسبات بين رؤساء المعبدية وامراء المسلمين ، وكان الامراء يطلبون كفالة المعبديين فى اكثر هدنهم مع اللاتينيين . وقد الغيت هذه الجمعية بامر البابا قله مان الخامس بايعاز ملك فرانسه وطمعاً بما عندها من الثروة .

امافرسان سن جان ، وتسمى بزهاد رودوس ومالطه ايضاً فقد اسسها ژه رارطوم — *Gerard Tom* سنة ١٠٩٩ لحماية النصارى الذين يقصدون القدس لاجل الزيارة ، ولمداواتهم اذا مرضوا ، وادارة مستشفياتهم . ثم توسعت هذه الجمعية فى الموضوع ولم يلبث مريدوهاان شرعوا بالاشتغال فى الامور الحربية ايضاً (١١٢١ م). ولما فتح السلطان صلاح الدين الأيوبى بلدة لقدس ، نقلت هذه الجمعية مركزها الى عكا .

ومن ذلك التاريخ اخذت عكا اسم *St Jean d'Acre* . ولما طرد الصليبيون الطرد النهائى من سورية انتقلت هذه الجمعية من عكا الى قبرص ، ثم الى رودوس وبقيت هناك مقدار قرنين . ولما فتح السلطان سليمان القانونى تلك الجزيرة طردهم منها فذهبوا الى مالطه وظلوا هناك الى زمن نابليون بوناپارت ، وكانت قلعة مرقب *Margat* وحصن الاكراد *Krak de Chevaliers* فى ايدى هذه الجمعيه ، وكان امر ادارتهما والدفاع عنهما منوطاً بها .

اما طريقة توتون *Ordre teutonique* فقد اسسها صليبيو الالمان سنة ١١٢٨ وقد كانت هذه الجمعية معرضة عن الامور الدنيوية ، ومنكبة على الحرب فى سبيل النصرانية وقد دخلت هذه الجمعيات تحت حماية البابا منذ تأسسها لانها كانت بمثابة الآلة المتحركة بمشيئته يستخدمها فى اى امر اراده وقد حد البابا فى نظام مخصوص وظائف هذه الجمعيات وبين طرز لباسها ، فكانت علامة (السن جانيين) صليب ابيض على حلة سوداء ، والمعبديين صليب احمر على لباس ابيض والتوتونيين صليب اسود على ثياب بيض . وهؤلاء كانوا معدودين من الصنوف الروحانية فلذلك ما كانوا مأذونين بالزواج . ولكن اهتمام البابا وعزم هؤلاء الزهاد ، ومفاداة الابطال الذين تقاطروا زمراً على حرب المسلمين فى القدس ليكفر لهم البابا سيآتهم ، ويعفوا عن ذنوبهم ، لم تكد لتنفع شيئاً فى محافظة حكومة

القدس . بل تمكن المسلمون بعد معارك دموية دامت ١٩٥ سنة ، من طرد هؤلاء الغاصبين عن ملكهم ، واحتفظوا باوطانهم ، ولم تزل الارض المقدسة فى ايدى اصحابها المسلمين .

— ١١ —

الكتابات التاريخية

(١) (كتابة السلطان خليل) « ٦٩٣ هـ » فى الجامع الكبير لطرابلس — ان هذه الكتابة محفورة فوق باب الجامع الشمالى المبنى على الطراز الغوتى وعلى الحائط الذى هو على يسار ذلك الباب :

« البسملة . . . امر بانشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الاعظم سيد ملوك العرب والعجم ، فاتح الامصار ، ومبيد الكفار الملك الاشرف صلاح الدنيا والدين ، خليل قسيم امير المؤمنين بن مولانا السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى خلد الله ملكه ، فى نيابة المقر العالى الاميرى الكبيرى العزى ، عز الدين ايبك الخزندار الاشرفى المنصورى نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة عفا الله عنه وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستماية والحمد لله وحده » .

تولا عمارة هذا الجامع المبارك العبد الفقير الى الله تعالى سالم الصهيونى بن ناصر الدين العجمى عفى الله عنه »

ومما يغلب على الظن ان هذا الجامع كان كنيسة فى زمن الصليبيين . فحولها السلطان قلاوون الى جامع ، وبابه الذى كان مبنياً على الطراز الغوتى ، قلب فى زمن خليل الاشرف بن قلاوون وبنى على الطراز العربى . والقناطر الموجودة فى حريم الجامع ومنبره اللطيف شيد فى زمن سلطنة محمد الناصر ثانى اولاد قلاوون وهذه الكتابة تبرهن عنه :

(٢) — « البسمله . . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . امر بانشاء هذه الرواقات ، تكملة الجامع المبارك مولانا السلطان محمد بن قلاوون خلد الله ملكه فى نيابة المقر الشريف العالى السيفى كستاى الناصرى ، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية اعز الله انصاره باشارة المقر العالى (*) البدرى محمد بن ابى بكر شاد الدواوين (**) المعمورة ادام الله نعمته وكان الفراغ منه فى شهور سنة خمس عشر وسبعماية وصلى الله على سيدنا محمد .

(*) هى من المراتب العالية .
(**) المناظر على الدواوين .

تولا عمارته العبد الفقير الى الله تعالى احمد بن حسن البعلبكى. (*)

*
* *

(٣) — كتابة الامير قرطاى على المنبر (٦٢٦ ه). — « امر بانشاء هذا المنبر المبارك العبد الفقير الى الله تعالى قرطاى بن عبدالله الناصرى اثابه الله فاقام به من ماله بكتوان بن عبدالله الشهابى ، تقبل الله منه وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ستة وعشرين وسبعمية » .

حفرت هذه الكتابة باحرف صغيرة لطيفه . والامير قرطاى المذكور فى الكتابة هو من مماليك السلطان قلاوون . وقد نصب (مقدم الف) . ووجد وال فى طرابلس من سنة ٧١٦ الى ٧٢٦ . وقد توفى فى هذه البلدة بعد هذا التاريخ بثمانى سنين . وقد خلفه فى الامارة الامير طانيال الذى سيمر علينا اسمه .

(٤) — صورة امر السلطان صالح (٨١٧ ه) — نقش هذا الامر فوق الباب الواقع فى الجهة الجنوبية الى الشرق :

« الحمد لله . . رسم بالامر العالى السلطانى الملكى المؤيدى ابى النصر شيخ اعلاه الله وشرفه وانفذه وصرفه بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم ، والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود ، ويبطل ذلك جميعه فى هذه الايام الزاهرة خلد الله سلطانها وادام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الاول سنة سبعة عشر وثمانمايه والحمد لله (**) »

يعلن فى هذا الامر ، وفى الكتابة المحفورة على الباب الشرقى الموصل الى حريم الجامع ايضاً . منع الاحتكار فى الحاجات الضرورية كالقمح ، واللحم ، والخبز . ويصرح فى تلك الكتابات ايضاً ، لغو كل ضريبة لم يأمر بها القرآن .

*
* *

(٥) — كتابة الامير ازدمير « ٨٨٣ ه » . — منقوش على أحد محاريب الجامع الكبير:

« امر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ازدمير الاشرفى كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة اعز الله انصاره فى ايام مولانا وسيدنا قاضى القضاة الشافعى الامام . فى مستهل ربيع الاخره سنه ثلاث وثمانين وثمانماية ، بمباشرة محمد الشاد »

نرى اسماء القضاة الذين كانوا على غاية من النفوذ فى اواخر ايام المماليك ، مكتوبة فى اكثر الكتابات المحفورة فى ذلك الزمن .

(*) هذه الكتابة مكتوبة على حائط يرى الى الجنوب فى حريم الجامع .
(**) نقش عين هذا الامر على الحائط الشمالى فى جامع طوبا فى طرابلس ،

ويوجد اسماء قضاه كثيرة فى من هذا القبيل فى خرب بعلبك .

لم يكن اسم ازدمير معروفاً قبل تسلطن قايتباى « ٨٧٩ ه ؛ ١٤٧٤ م » ولكن هذا كان من قرباء السلطان ، فنبغ بسرعة زائدة . ثم توفى وهو وال فى حلب « ٨٩٨ » بعد ان صار وال فى صفد وطرابلس . وشهد الوقايع الكثيرة .

*
* *

الكتابات فى المدرسة الشمسية — يوجد ثمانى انواع من الكتابات على الحائط الجنوبى لهذه المدرسة الملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية . وكانت الكتابة الاولى اثناء ولاية « سيف الدولة قصروه » من مماليك الامير تيمراز الظاهرى ، منع فيها الملك الاشرف برسباى فى طرابلس تسخير حيوانات الركوب والنقل للاستخدام فى نقل البريد « ٨٢٦ ه » ومنع فى الثانية الملك الظاهر جقمق اثناء ولاية برسباى الناصرى الظاهرى [*] ، جباية الضرائب والرسوم الباهظة التى كانت مضروبة على صانعى النساجة ، وعلى الكروم . « ٨٤٦ » ه » ، والثالثة منع فيها الملك الاشرف ابو النصر قايتباى ، جباية « ١١٤ » درهم التى كانت تجبى كل يوم من مسلخ طرابلس باسم واليها « سيف الدين اينال الاشقر » . ثم فى زمن وال آخر لطرابلس اسمه « اينال الاشرفى » [**]

وايام سلطنة قايتباى حجر فى احدى الكتابات على الحكومة ان تبتاع من الاهالى الصابون والزيت والعنب . وغيرهم من الحاجات الضرورية بثمن بخس ثم تبيعه بثمن غال . وقد افصحت الكتابة عن ان هذا القرار كان بعد شكاية قدمها التجار الى الحكومة .

*
* *

(٦) — صورة منشور السلطان قايتباى (٨٨٩ ه) — محفور هذا المنشور السلطانى على نفس الحائط بين النافذة الثالثة والرابعة :

« الحمد لله لما كان بتاريخ العشرين من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع وثمانين وثمانماية ، ورد مرسوم الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الاشرفى السيفى ابو النصر قايتباى اعلاه الله وشرفه وانفذه فى الآفاق ؛ وصرفه بابطال مكس الدواليب الحرير ، والقصابة بالكهف

(*) كان برسباى الناصرى من مماليك (السلطان الناصر فرج) . فاعان (جقمق) الذى رقى الى السلطنة بعد ان كان رئيساً لحجاب السلطان برسباى (٨٤٢ ه) ، وآزره على تأييد سلطته ، وعليه جزاه جقمق باقطاعه ولاية طرابلس .
(**) ان اينال الاشرفى كان وال فى طرابلس من سنة (٨٨٦) الى (٨٨٩) . ثم التحق بالامير (اقباردى) الذى شق عصا الطاعة على (السلطان محمد الناصر) خليفة قايتباى ولكن ما لبث ان غلب مع سيده فى مرعش وقتل :

والقدموس وابطال مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن، وقدم الاساكفة بالقدموس والخوابى على حكم ما بيدهم من المراسم الشريفة على جارى عادتهم بقصته بالخط الشريف المرفوعة عن اهل الكهف والخوابى والقدموس بتاريخ تاسع شهر رمضان المعظم قدره، سنة ثمان وثمانين وثمانماية ».

صرح فى هذا الامر بالغاء الضرائب والمكوس التى كانت تجبى من تجار الحرير والقصابين فى قلاع الكهف والقدموس، والمكوس التى كانت تجبى من اساكفة قدموس وخوابى، ومكوس نحيرة الحيوانات فى هاتين القصبتين. وان بعض هذه المكوس تشبه (ضريبة النوافذ) التى تجبى اليوم فى فرانسة. اذ كانت تطرح مبسوطةً فى التناسب مع نتيجة السعى. وقد جاء فى الكتابة ان كثرة الوارد وقلته، يتبع كثرة معلمى الصنعة (قرم الاساكفة) وقلتهم. وعليه اذا كان فى احد المصانع معلمان، وفى الآخر خمسة، يكون مكس الاول اقل من الثانى، ولو كان مقدار العمال فى المصنعين واحداً.

اما الكتابة الثامنة فهى على نفس الحائط بين النافذة الثانية والثالثة وقد جاء فيها [ان الوالى « قنصوة اليحياوى» سمع بان ناظر القصر يدفع نصف ما يجب عليه دفعه من مخصصات الحرمين الشريفين فى كل سنة، ويجبى النصف الآخر من قروى الاراضى الموقوفة. ويبين فيها ان هذا العمل اختلاس، وانه ممنوع البتة ويؤمر فيه بان لا يؤخذ من هؤلاء القرويين الا الجزية الشرعية، او المال المقرر (اى الخراج).

*
* *

جامع طايلان، وكتاباته — يوجد هذا الجامع على يسار « نهر ابوعلى» خارج السور. وكان كنيسة من بناء الصليبيين. ولما فتح السلطان قلاوون البلدة (سنة ٦٨٨) بقى هذا المعبد مهملاً، ولم يزل الى سنة (٧٣٦) حيث حوله سيف الدين طانيال والى طرابلس الى جامع. وهو مستطيل الشكل يتألف من رواقين مسقوفين. وله غرفة على يمين الباب معدة للخطيب. ويفهم من الكتابة التى على المزار، انه كانت فى الجانب الاخر من الباب غرفة اخرى. ويدخل اليوم الى غرفة الخطيب من باب خارجى. وتوجد على الرخام فوق الباب العام هذه الكتابة

« ٧ » — «البسملة . . امر بانشاء هذا الجامع الشريف بطرابلس المحروسة، اتماماً المبارك المقر الاشرف العالى المولوى الاميرى نائب السلطنة فى ايام الملك الناصر فى شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعماية ».

وقفية الجامع. — ان هذه الوقفية المجملة محفورة بحروف ناتئة على الحجر الكائن فى الرواق الاول على الناحية الشمالية الغربية من الباب :

(٨) — « البسملة . . . امر بانشاء هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا المقر الاشرف العالى المولوى الكافلى، السيدى المالكى المخدومى السيفى طينال الملكى الناصرى كافل الممالك الشريفة الطرابلسية بلغه الله آماله وتقبل فى الصالحات اعماله، ووقف عليه لمصالحه المعينة فى كتاب وقفه جميع البستان المعروف بالحموى بظاهر طرابلس، وجميع الحانوتين الملاصقين لبابه، وجميع البستان المعروف قديما بالطنطاش بسقى طرابلس وجميع الحانوتين الملاصقين لسوق السلاح بجوار الحمام المعروف باسندمر، وهى الان ملك الواقف وجميع ثلث الخان المعروف بدار الوكالة القديمة، وجميع القرية المعروفة بارزونية من عمل عرقا بجون طرابلس وشرط انه مهما فضل عن ريع هذا الوقف عن ارباب وظائفه ومصالحه المعينة فى كتابه يصرف للفقراء والمساكين المقيمين بطرابلس، والواردين اليها حسبما يراه الناظر فى ذلك من غير ان يرتب لاحد فى كل شهر او كل يوم، ومن غير ذلك او بدله او رتب شيئاً مستمراً كانت عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . »

وعلى رواية الصفدى والمقريزى ان الواقف الامير سيف الدين طابيال مملوك السلطان محمد الناصر وحاجبه . وكان قائداً لمائة من الجند ثم ولى ولاية طرابلس مرتين سنة ٧٢٦ و ٧٣٥ . وقد بنى الجامع المسمى باسمه اثناء ولايته الثانية . ويروى المؤرخون ان طاينال هذا كان من الولاة الاذكياء والمدبرين ولكنه عرف بالخسة والطمع . وقد توفى سنة ٧٤٣ اثناء مروره بالشام . ولكن لم يتضح مدفنه أفى طرابلس ام فى الشام ام فى بلدة صفد التى ولى امرها مدة . وتوجد فى الشام مدرسة تسمى باسمه .

وقد بنى هذا الامير تربة فى الجامع نفسه لتكون مدفناً له، وحفر على بابها وقفية اخرى . عدد فيها من الاملاك والعقارات ما يجهل اليوم آكثره، ووقف ريعها ليصرف على هذه التربة . وتوجد هذه الكتابة منقوشة على المنبر :

(٩) — « البسملة — انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلواة وآتى الذكواة، ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . تكمل هذه المنبر فى شهر ذى القعدة سنة ست وثلاثين وسبعماية . »

ومنقوشة على المنبر هذه العبارة :

« عمل المعلم محمد الصفدى رحم الله من ترحم عليه ».

والكلمة المخطوط تحتها خط مكتوبة خطأً . لان المنبر مذكر فيجب ان يكون اسم الاشارة مذكراً ايضاً . ونظراً لاتمام انشاء الجامع فى شهر رجب كما مر فى الكتابة السابعة يكون الشروع فى المنبر بعد ثلاثة شهور من ذلك التاريخ .

قلعة طرابلس وكتاباتها — حاصر ريموند الرابع امير (قونت) طولوز طرابلس فى ايام

الصليبيين (١١٠٤ م) وبناءً على استبسال السكان فى الدفاع دامت تلك المحاصرة خمس سنين فعمد المحاصرون وبنوا لهم حصناً فوق هضبة جبل الحاج. وشرع فى بناء البلدة حول هذا الحصن فى زمن اسندمير الكرجى الذى ظل وال فى طرابلس من سنة (٧٠٠) الى (٧٠٩ هـ) وسفح هذا الحصن من الجانب الشرقى عمودى يهوى الى اعماق وادى (نهر ابو على). وهذا الحصن يشبه اجمالاً حصون البابا فى اوينيون *Ovignon* احدى البلاد الفرانساوية.

(١٠) — منشور السلطان شعبان العسكرى — حفرت هذه الكتابة على باب القلعة الثانى، المطل على الناحية الشمالية «البسملة،.. لما كان بتاريخ العاشر من شعبان المكرم سنة ست واربعين وسبعماية للهجرة النبوية، برز مولانا السلطان الاعظم المالك الملك الكامل سيف الدنيا والدين شعبان بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون لا زال مراسمه نافذة فى الافاق، هاطلة سحب سماحها بالاغراق والاطلاق، ان يسامح جميع الجيوش المنصورة الاسلامية والامراء والمماليك السلطانية والجند بالحلقات والاصحاب والامراء والاتباع بما لعله يتعين للديوان المعمور على كل مفصل منهم من بقية خدمه او تفاوت ايام الديوان ما بين السنين الشمسية ما بين السنين الشمسية (تكررت الجملة مرتين) والقمرية ويبطل تخريج ما قبل ذلك بديوان الجيوش المنصورة بالممالك الاسلامية بحيث يبقى الديوان المرتجع مدخل فى اقطاعات المقطعين ويكون جميع ما يتعين من الديوان محاسبات مسموحاته داخلاً فى هذا الانعام على توالى الايام مشتمل عليه العطاء الذى شمل جوده الخاص والعام. ومثوبة تحمداجرها فى دار الكرامة وسنة حسنة له اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن ثابر على الاقتداء فيه فيه (تكررت الكلمة مرتين) حقق الله من الخير ظنونه، ومن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه، ومن نقصه او قصد نقصه على مر السنين فيكون الله عز وجل خصمه ونبيه محمد سيد المرسلين ويحقق عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ويبوء بالاثم الذى يخسر به الدنيا والاخرة وذلك هو الخسران المبين .... ومن ... وهو خير الوارثين فى ايام ملك الامراء المقر الاشرف العالى الكافلى السيفى قمارى الكاملى كافل السلطنة الشريفة بالفتوحات الطرابلسية عز نصره..»

كتب هذا المنشور الباحث عن الميزانية العسكريه فى ايام شعبان بن محمد بن قلاوون من سلاطين المماليك (٧٤٦—٧٤٧ هـ؛ ١٣٤٥—١٣٤٦ م).

وقد بحث المؤرخ المعروف ابو الفدا. وابن الوردى عن هذا المنشور وقال ابو الفدا وفى هذه السنة كتبت الكتابات على قلعة حلب وغيرها من الحصون.

وقد طمست هذه الكتابات فى قلعة حلب، والشام، وبصرى. اما فى حصن الاكراد

فهى على شفا. ولا تكاد تقرأ الا بصعوبة. واما فى طرابلس فهى على غاية من الوضوح ولكن اسلوبها معقد غير واضح، والكلمات التى خط تحتها اما مكررة، واما فيها خطاء ولا يمكن الاطلاع على مضمون هذه النشرة البعيدة باسلوبها عن العربية ما لم تراجع الكتب التاريخية التى كتبت فى ذلك الزمان.

ويفهم من هذا المنشور ان الرواتب كانت مرتبة على الحساب الشمسى غير انها تدفع عند انتهاء الاشهر القمرية. وكانت الامراء والقواد، والجنود تربح كل سنة راتب احد عشر يوماً ويكون هذا الربح عطية سلطانية. ويروى المؤرخون انه اذا توفى احد القواد او الجنود دون ان يتم مدته المقررة. يلزم وارثوه برد المبلغ الذى كان اخذه. ومنشور السلطان شعبان الذى نبحث عنه قضى بفسخ هذا الاصول، وماقال اسر منسوبى الجندية هم هذا الدين العسر.

لا يغرنا هذا المنشور بمضمونه الحسن فنحكم بسببه على بعد نظر السلطان شعبان فى الشؤون الادارية واعتنائه بتنظيم الامور العسكرية. بل ان شعبان هو الاجدر بالكراهية والنفرة بين سلاطين المماليك لانه كان منكباً على السفاهة، وغارقاً فى اللهو والهوى. والغاية من اصداره هذا المنشور هى تطييب نفوس الجنود الذين كانوا على غاية الاستياء منه واستمالة قلوبهم نحوه. ولم يكن اعفاء اسر القواد من هكذا دين مبتكراً. وقد اسهب ابو المحاسن فى كتابه «المنهل الصافى» فى تفصيل ما ارتكبه السلطان شعبان من الظلم والجور على الرعية، وما كان عليه من حب المال والحرص على جمعه.

(١١) — كتابة السلطان سليمان القانونى (٩٢٧ هـ) — . تقرأ على باب القلعة الاول المطل على البحر هذه الكتابة:

«البسملة . . . رسم بالامر الشريف العالى السلطانى الملكى المظفرى سلطان سليمان شاه بن السلطان سليم شاه لا زالت اوامره الشريفة مطاعة فى الامراء بان يجدد فى هذا البرج المبارك. ليكون حصناً منيعاً على دوام، وكان الفراغ من عمارته فى شهر شعبان المبارك سنة سبع وعشرين وتسعماية»

من المعلوم ان السلطان سليم الاول فتح سورية ومصر معاً، واضافهما الى الملك العثمانى سنة (٩٢٢ هـ و١٥١٧ م). ثم خلفه السلطان سليمان القانونى «٩٢٦—٩٧٤» وبعد تسلطنه ببضع شهور جاء الى سورية، وجمع ولاة الايالات فى مجلس تحت رياسته. وقرر فيه على اصلاح قلعة حلب وطرابلس. ونرى فى الكتابة انه اضيف لاسم السلطان عنوان «شاه» هو تعبير ايرانى. مع انه قد استعمل فى الكتابات العثمانية الموجودة فى مصر عنوان «خان» الذى يستعمله المغوليون. وقد نبه على الاغلاط فى هذه الكتابة برسم خطوط تحتها.

جامع السكركية فى طرابلس وما فيه من الكتابة — هو على الضفة اليسرى من نهر ابو على وقريب من جامع طانيال. وان هذا المعبد الذى قوض بنيانه ،واشفى على الاندراس ، هو الآن مسكن تقيم فيه احدى العائلات الاهلية ، وله اوقاف كثيرة كشأن غيره من المؤسسات الدينية فى البلاد الاسلامية . وقد قيض الطمع له من سلبه جميع اوقافه من الايدى الجائرة ، فاصبح والخراب ينقصه من جميع اطرافه . وان وقفية هذا الجامع التى درجناها هنا ، هى مما يدع العقل فى حيرة ووله . فكيف مكن اولئك الظالمون من الجناية على هذا المعبد ، وسلب جميع مستغلاته التى تربو على المثل بجسامتها ؟ . وان هذا البنيان المقدس الان هو على ما ينفطر له الفؤاد من سؤ الحال والخراب .

(١٢) وقفية الواقف (٧٦٠ هـ) — مكتوبة هذه الوقفية على الصفحة الجنوبية من الجامع :

« البسملة . . . وقف الجناب الكريم اقطرق الحاجب هذا المكان المبارك مسجداً لله تعالى ، وتربة للدفن ووقف على مصالحه وعمارة اثاثه وتطاويقه، جميع المزرعتين المتلاصقتين من عمل حصن الاكراد وهما مرج السلطان وقيمرة وجميع البستانين المتلاصقين بقرية رشعين من عمل طرابلس احدهما يعرف بمسعود والآخر بابن الافرمى ، وجميع الحوانيت الاربعة المتلاصقات بالصف الشرقى من سوق الحلاويين بطرابلس وجميع الدار الملاصقة للمسجد ، وجميع الآدر الثلاث المتلاصقات بخان المصريين بطرابلس وجميع الحصة الشايعة وقدرها . والنصف، والربع من جميع الدار شمالى خان المهندس بالجسر العتيق وجميع الفرن المعروف بكرخولد للمسجد المذكور وقفاً شرعياً يبدأ من ريعه بعمارته واصلاحه ويصرف منه فى كل شهر اربعون درهماً للامام بالمسجد المذكور وخمسون درهماً الى مؤذنين بالنوبة يؤذنان بمأذنة المسجد المذكور وثلاثون درهماً الى قيم المسجد والتربة وخمسون درهماً فى ثمن زيت وقناديل وآلة الكنس والاستسقاء ، ويصرف فى يوم الاثنين من كل اسبوع ثلاثة دراهم فى ثمن خبز يفرق بباب التربة ودرهم واحد فى ثمن ماء وثلج وكذلك يصرف فى يوم الخميس من كل اسبوع ، ويصرف فى كل شهر احدى عشر درهماً فى ثمن كسوة من قميص او لباس او قبع وغير ذلك للايتام والارامل والفقراء المسلمين وما فضل بعد ذلك يصرف الى من كان فقيراً محتاجاً من اولاد الواقف وانساله ومن عتقائه بالسوية فان لم يكن فيهم محتاج صرف الى الفقراء المسلمين فى باب التربة وشرط الواقف النظر لنفسه ثم للارشد من اولاده وانساله والى من كان امير حاجب كبيراً بطرابلس وشرط الواقف ان لا يؤجر وقفه باكثر من ثلاث سنين وليصرف هذا ، ولا تقدر عليه مظالم ولا مكوس حسبما تضمن ذلك كتاب الوقف المؤرخ بمنتصف ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وسبعماية الثابت المحكوم به بمجلس الحكم العزيز بطرابلس المحروسة ونقش ذلك فى ربيع الاول سنة ستون وولاء لهذا المسجد من الماء

بحق واجب نصف وربع اصبع من قناة طرابلس . » (*)

المدرسة الخاتونية فى طرابلس — سميت هذه المدرسة بالخاتونية لانها بنيت على نفقة (ارغون خاتون) ، بمشارفة زوجها . وكانت على الضفة اليسرى من نهر ابو على، قريبة من باب جامع طايلان . وهى الان خاوية مهملة . لا يقصدها الا ذوو الحاجة للمرحاض . وكان لهذه الدار الخيرية اوقافاً عميمة الدخل وهذه الوقفية تطلعنا على حقيقتها :

(١٣) — وقفية المؤسس عز الدين ايدمير الاشرفى (٧٧٥ هـ) — البسملة . . . الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد انشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الاشرف العالى المولوى المخدومى الكافلى العزى ايدمير الاشرفى مولانا ملك الامراء اعز الله انصاره فى شركة آدره الكريمة الجهة المصونة ارغون ، تغمدها الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة ووقفت جميع القيسارية المعروفة بالدهيشة .

وبساتين الحريرين والحوانيت التسعة والمقعدان لدى
ذلك خارجها ومعروفين بها ويعلق عليها باب
بالمقعد خارج الباب القبلى ملاصق له عن يمنة الداخل
منه ومن الحوانيت التسعة اربع حوانيت كبار ملاصقات لها عن
يمنة الداخل من بابها القبلى حانوتان وعن يسرته حانوتان
والخمسة اقباء ملاصقات القيسارية ايضاً وجميع الحوانيت
الثلاثه المتلاصقات تجاه باب القيسارية القبلى
وجميع الحوانيت المتلاصقين بوسط السوق الشرقى
بالصف الشرقى بالقرب من قيسارية التجار وموقع
ذلك جميعه بطرابلس المحروسة على نفسها مدة
حياتها ثم من بعدها يصرف ذلك على الوجوه الاتى شرحها فيه ؛ وهو ان الناظر فى الوقف شرعيا يقرر بالتربة التى عينت للواقفة ، وتدفن بها اربعة حفاظ من القرآن العزيز ، ويقرر لهم من المعلوم ما اقتضا رأيه على انهم يرددون كل يوم الى تربة الواقفة ويقرؤن بها ربعاً كاملاً من القرآن الكريم ويدعون عقيب القراءة للواقفة ومعتقها زوجها المشار اليه اعلاه ويترحمون عليها ، ويسألون الله عز وجل لهما بالعفو والمغفرة ويهدون ثواب القراءة الى زوجها ويشركون جميع المسلمين فى الدعاء ويختمون الدعاء بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعلون ختم القرآن فى كل ليلة جمعة بحسب

(*) لم نعثر فى الكتب التاريخية على ما يعرفنا بهذا الواقف

انهم يقرؤن على قبرها فى كل سبعة ايام ختمة كاملة . فاذا كانت ليلة الجمعة يجتمعون بالتربة ومن حضر معهم من المسلمين ومسا كينهم يختمون الختمة الشريفة على قبرها ، ويدعون ويترحمون كما تقدم وان يعمل الناظر الشرعى فى لونين من الطعام حسبما يقتضيه رأيه ويحضر قنطاراً من خبز الحنطة الطيب الصافى ويوضع بالتربة ويفرق على الفقراء والمسا كين من امة محمد صلى الله عليه وسلم ويكون ذلك كل ليلة جمعة عند ختم القرآن العزيز وان يصرف بالتربة ما يحتاج اليه من فرش وغير شئ ومغاز قائم مقيم يقوم بها بكنسها وتنفيضها وفرشها وتنيرها وان يجعل لطرابلس كتاب ايتام يجلس لهم الفقيه على العادة يقريهم القرآن ويعلمهم الكتابة وكل ما ختم القرآن العزيز ؛ او مات او اعرض عن الحضور للتعليم يرتب الناظر غيره من ايتام المسلمين ، وان يقرر لمعلم فى شهر مبلغ ثلاثين درهم يصرف اليه وان يصرف الى كل واحد من الايتام كل يوم ربع درهم ويكسى كل منهم كسوة كاملة حسبما رآه الناظر من قميص وقبع ولباس وجبة ومتاع ومال هذا الوقف عند انقطاع سبله وتعدية جهاته الى الفقراء والمسا كين من المسلمين والبدأة من ربع ذلك بعمارته ، وشرطت اليصرف لنفسها ولها ان تثبت وتوكل فيه وتسنده الى من شائت ثم من بعدها يكون النظر لمعتقها مولانا ملك الامراء المشار اليه اعلاه اعز الله انصاره ثم الارشد بالارشد من اولاده منها ، ثم الى من شرطته فى كتاب وقفها المؤرخ فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وتولى عمارة هذا المكان المبارك جميعه الفقير الى الله تعالى الامير جمال الدين يوسف بن المرحوم العزى غزان الشيفى اثابه الله تعالى بالاجر العالى اعلاه الله تعالى وكان الفراغ من ذلك فى سنة خمس وسبعين وسبعماية »

ان ارغون خاتون صاحبة هذا الوقف التى ذكر اسمها فى الوقفية هى معتقة عز الدين ايدمير الاونوكى الناصرى الاشرفى والى طرابلس ، وزوجته . وبنيت هذه المدرسة والتربة بهمتهما . وقد بحث ابو المحاسن وابن حجار ، والعسقلانى ، والمقريزى من المؤرخين فى كتبهم عن ايدمير بحثاً شافياً .

وعز الدين هذا كان من مماليك (اونوك) ابن السلطان محمد الناصر قلاوون . ثم دخل فى الجنود الخاصة وعلت مرتبته حتى اصبح من المقربين . وقد اجلى الى سورية بعد ان قتل السلطان ولم يلبث الا قليلاً حتى صار (مقدم الف) فى القاهرة وبعد برهة وجيزة ، نصب وال على طرابلس . وبقى فيها الى سنة (٧٧٣) ثم بارحها ورجع اليها فى سنة (٧٧٤) . وتوفى وهو مستشار الجيش (اتابك) سنة (٧٧٦) .

لا نعلم كيف استطاع الظالمون عباد الطمع اختلاس هذه المستغلات الوقفية ، وهضموا حقوق هذه المؤسسة الخيرية كما فعلوا بوقف السكركية ؛ واهووا بها من شامخ مجدها الى حضيض المهانة والذل .

وما لهذه الدنيئة من علة الا خلو الشرقيين من الحس . لاننا على اعجب العجاب من المهارة فى سرقة الاملاك الوقفية واختلاسها . نسمع بمن يأخذ بيد الحكومات فى الغرب من المتمولين ويمدها بالاموال الطائلة لتنهض بامر معارف البلاد ، ويشيد المؤسسات الكافلة لهذه المهمة فى قاعدة الملك ، وغيرها . فنحبذ على هذه الاعمال الشريفة ونتشدق بامتداحها ونظهر فى مظهر محبى البر والاحسان ، ولكن لا تاخذنا الاريحية لتأسيس المستشفيات التى تدرأ عنا الامراض السارية ، ولا لتشييد المدارس التى تقوم اعوجاج اخلاقنا . وليتنا نقف عند هذا الحد ؛ بل نجد اكثر ما شيده الاسلاف من الاوقاف الخيرية فى اربع اقطار البلاد الاسلامية اصبح اليوم منطمس المعالم ، دارس الاثار ، التهمته افواه اولئك المتغلبين الظالمين الذين ختم الله على قلوبهم فلم يعلموا انهم ياكلون ناراً تصهر ما فى بطونهم . ويدعى المدعون انه موجود فى طرابلس من الاوقاف اكثر من « ٣٦٠ » مؤسسة معدة لاغاثة الفقراء واليتامى والمساكين ، والايامى من النساء ، والتخفيف عنهم والقيام بجميع حاجاتهم الضرورية . وقد علمنا من دائرة الاوقاف فى طرابلس ان قيمة الاوقاف المضبوطة فيها اليوم تناهز سبعة ملايين غرشاً ، ودخلها السنوى (٢٢) الف غرش ولا يمكن ان نبين — ولو على وجه الاجمال — شيئاً عن الاوقاف غير المضبوطة . ولكن من المحقق ان هاتيك الاوقاف التى لم تزل تحت رحمة متوليها لا تقل عن عشرة امثال الاوقاف المضبوطة . فاين تذهب هذه الغلال يا ترى ؟

ومن العبث ان نرتاد فى طرابلس ما ينطبق على حقيقة المؤسسات الخيرية . ومن هذه الغلال التى تقدر بثلاثة ملايين من القروش لا يصرف ولو واحد من مائة فى ما وضع له . ونرى ان هذه الشائبة الاجتماعية والاخلاقية الموجودة فى جميع البلاد الاسلامية ؛ وصلت من الافراط الى درجة جديرة بان يهتم لها اولياء الامور وينظروا فيها ، بل كان من الواجب التوسل بالتدابير المؤثرة لقلب هاتيك الاوقاف الى ما تقتضيه المدنية من المؤسسات الخيرية او العلمية .

سبيل التينه فى طرابلس — يوجد هذا السبيل فى موقع مرتفع على الضفة اليسرى من نهر ابو على وتجاهه الجامع المعلق . وقد كتبت هذه الخطوط فى اعلاه :

« البسملة . . . انشأ هذا السبيل الفقير الى الله تعالى محمد بن المرحوم زين الدين مباركشاه العلاى فى مستهل سنة ست عشرة وثمنمئة » .

منقوش فى اربعة اطراف الكتابة على هذا السبيل الذى انشأه (محمد بن زين الدين مباركشاه العلاى) هذه الاشارة التى تشبه الكتابة الهير وغليفية : ونرى اكثر ملوك المماليك يستعملونها فى شعارهم .

وقد اسهب آرتين باشا فى تعريف هذه الشعر ووصفها فى كتابه : *Contribution à l'étude du Clasou en Orient.* ويعثر على مثل هذه الرسمة التى صورناها هنا فى الجامع الكبير فى الشام ، وعلى سبيل الدهيشة الذى بناه السلطان الناصر فرج فى القاهرة. وآرتين باشا ينسبها الى السلطان الناصر ، وسبيل التينة فى طرابلس لا يمكن ان يكون من آثار السلطان الناصر الذى كانت سلطنتـه من سنة (٨٠١) الى (٨١٥ هـ)، لانه بنى سنة (٨١٦ هـ) .

(١٤) — كتابة المدرسة الرفاعية فى طرابلس (٨٧٠ هـ) — حفر السلطان خشقدم هذه الكتابة على الجدار الشمالى لهذه المدرسة الكائنة على الجانب الايسر من نهر ابو على قريباً من الطريق الكبير الذى يصل البلدة بالمينا :

« الحمد لله ، لما كان بتاريخ مستهل ربيع الآخرة سنة سبعين وثمانماية ، ورد المرسوم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى ابو سعيد خشقدم نصره الله تعالى وخلد ملك مالكها وادام اقتـداره الى المقر الاشرف الناصرى محمد بن مبارك مولانا ملك الامراء كافل المملكة الطرابلسية المحروسة اعز الله انصاره من مضمونه ان لا يؤخذ من التجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهى على الالف عشرة دراهم لا غير من غير زيادة على ذلك وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ولا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال ، ومنع من يعارض ابناء السبيل وابطال ما جدد على ذلك وهى الخمسة الزائدة على كل الف حسب ما شهد به المحضر الشرعى وان تسطر هذه المثوبة رفعاً للظلامـة فى الصحائف الشريفـة اقتناءً بقوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهـم فتنة او يصيبهـم عذاب اليم » ورسم ان يستمروا ابنـاء السبيل فى السمسرة والترجمة . وملعون ابن ملعون من يغيره او يبدله او يسعى فى ابطاله او اعادته او يشا عنه كان عليه لعنة الله و الملائكة والناس اجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم »

ان الملك الظاهر خشقدم من ملوك المماليك حكم من سنة (٨٦٥) الى (٨٧٢ هـ) وكان والى طرابلس يومئذٍ من العرب لا من الترك خلافاً للعادة . وهـذا المنشور يبحث عن التجار والسماسرة ، وهاتان المهنتان كانتا فى الشرق الادنى منذ امـد بعيد . وكان التجار الافرنج الذين يأتون من اوروبا . ومن سورية فى زمن اهل الصليب يحتاجون الى ترجمان لعدم وقوفهم على اللغة العربية .

(١٥) — كتابة السلطان قايتباى فى جامع آرغون شاه (٨٨٠ هـ) . — حفر هذه الكتابة السلطان قايتبـاى فوق مدخل هذا الجامع الكائن على الضفة اليسرى من نهر ابو على بين جامع السكركية ، وباب جامع طايلان :

« الحمد لله . لما كان بتاريخ خامس عشر جمادى الاخرة سنة ثمانين وثمانماية ورد مرسوم شريف مربع جيشى من الابواب الشريفـة السلطان الملك الاشرف قائتبـاى خلد الله ملكه ، بان جهات وقف المرحوم ارغون شاه بالسقى بطرابلس المحروسة لا تؤجر لا لمتجوه ولا ذى شوكة واجهار الندى لزراع الاراضى بالحماية والرعاية ومنع من يعارضهم حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وتسليم الاراضى للسيد الحسيب النسيب السيد نور الدين محمود الحسينى الادهمى الناظر والشيخ بها بالزاوية المذكورة فاشار به المقر الاشرف العالى المولوى السيفى ازدمير الاشرفى مولانا ملك الامراء كافل المملكة الطرابلسية اعز الله انصاره ورسم بنقش ذلك على باب المدرسة حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وملعون من يغـير ذلك ويسعى فى تجديده . . »

يظهر من الكتابة انها خطت فى زمن السلطان قايتبـاى (٨٧٢—٩٠١ هـ) وفى ابان ولاية ازدمير الاشرفى الذى ترجمنا عنه فى الكتابة الخامسة . وهذه الكتابة حفرهـا جيد وخطها واضح ومقروء .

(١٦) — مرسوم السلطان قايتبـاى فى جامع الدباغين (٨٨٢ هـ) . — ان هذا الجامع هو على الجانب الايسر من نهر ابو على قريب من الجسر الجديد ، فى جوار جامع الطوبا. ومحفورة هذه الكتابة على حجرين فوق الباب :

الحمد لله . لما كان بتاريخ ثالث وعشرين جمادى الآخرة من شهور سنة اثنين وثمانين وثمانمائة برز المرسوم المولوى السلطانى الملكى الاشرفى ابو النصر قائتباى خلد الله ملكه الشريف عند حلول ركابه بطرابلس المحروسة بابطال ما على جماعة الدباغين بطرابلس من المكس المقرر لديوان المواقف الشريفة وان لا يكلفوا الى الدرهم الفرد وان ينقش ذلك فى بلاطة على المسلخ بطرابلس لتسطر هذه المثوبة فى الصحائف الشريفة وملعون بن ملعون من يجدد ذلك او يغيره » .

وليس اليوم من اثر للمدبغة التى يجب ان تكون على الضفة اليسرى من نهر ابو على . تجول السلطان قايتبـاى سنة (٨٨٢ هـ — ١٤٧٧ م) فى سورية لاجل المشارفـة على الاعمال ، والغى المكوس التى كانت تؤخذ من الدباغين باسم الخزينة الخاصة :

وفى محل آخر من هذا الجامع ، توجد هذه الكتابة :

(١٧) — « جدد هذا المسجد المبارك (...) بن يوسف شيخ الدباغـين بطرابلس المحروسة بتاريخ عشر شوال سنة ٩١٣ واوقف عليه بعد وفاته دكان وولد [*] ومخزن...»

(*) هكذا فى الاصل

اصلح هذا الجامع . . . بن يوسف رئيس الدباغين فى ايام الملك الاشرف قانصوالغورى الذى قهره السلطان سليم ياوز العثمانى وسلبه سلطنته وبلاده (٩٠٩—٩٢٢)

جامع المعلقه .— يصعد الى هذا الجامع بسلم ، ولذلك سمى بهذا الاسم . وهو فى موقع مرتفع عن طرابلس . وهذه الكتابة تدل على انه أنشأ فى زمن العثمانيين :

(١٨) — « البسملة . . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . انشأ هذا الجامع المبارك العبد الفقير محمود بن المرحوم لطفى الزعيم رحمه الله وكان تمام انشائه فى شهر ربيع الأول من شهور سنة سبع وستين وتسعماية . »

ومحمود بن لطفى الزعيم هذا ، كان فى زمن السلطان سليمان القانونى العثمانى (٩٢٦—٩٧٤ هـ) . ورغماً عن هذا فان الجامع ، وما حفر عليه من الكتابة هو على الطراز السابق فى دور المماليك .

جامع الطوبا — هو قريب من جامع الدباغين ، وقد شيد سنة (١٠٢١) هجرية ، وهذه كتابته :

(١٩) — « الحمد لله الذى من على عبده من جريان فيض فضله ويسر هذا الخير على يده وهداه الى العمل بقوله سبحانه وتعالى ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله ، فحل وجدد هذا الجامع الشريف لوجه الله الكريم بعد هدم جداره ومنبره ومحرابه ، وسبيل مائه من الفيضة الكبرى فى سادس عشر ذى القعدة سنة عشرين بعد الالف ، الواثق بالملك البارى احمد بن محمد الشرابدارى الانصارى كتخداى حضرة حسين باشا بن يوسف باشا السيفى امير الامراء بطرابلس ايد الله تعالى الدولة والسعادة عليهم وعفا عنهم وعن المسلمين اجمعين آمين ، وتم بنائه فى شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين والف ختمت بالخير » .

يتميز هذا الجامع العثمانى عن المؤسسات الدينية التى كانت فى دور المماليك بوضوح كتابته وسهولة قرائتها . والفيضة التى ذكرت فى الكتابة كانت فى زمن السلطان احمد الاول (١٠١٢—١٠٢٦) ، وقد نسفت كثيراً من الابنية ، وهدمت جدار جامع الطوبا ومنبره ومحرابه وسبيله ثم اصلحه احمد بن محمد شربتدار عمدة حسين باشا بن يوسف باشا والى طرابلس وهذا كان معروفاً بالطمع والحرص ، والانهماك فى الحرب والجدال . وقد افنى عمره وهو فى جدال مع الحكومة ، ولاسيما مع فخر الدين امير الدروز المعروف .

مدرسة خيرية حسن — قريبة من جامع السكرية والخاتونية . ولا يوجد تاريخ فى هذه الكتابة .

(٢٠) — « وقفت جهة المرحوم قطلو المصبنه والمعصرة ، والربع فوق المعصرة وخمس

قراريط ، وربع بطاحون الداودية والسندمريه بارض كفرقاهل وبستان ظاهر طرابلس وثلاث قراريط ونصف بسوق اسندمير ، وثلث الدير يعرف بارض اصنون ، ومسكبة زيتون والقاعة والبحرة ، والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون الجديدة بعردات وكرم زيتون فى بطرام وطبنة ومخزن بقيسارية الافرنج » .

لم يذكر اسم صاحبة الوقف فى هذه الكتابة ولذلك لم تمكن الترجمة عنها : ويظهر من هذه الكتابة ان الوقف غنى وافر الغلة . وايضاً لم تنطق الوقفية عن غاية هذا الوقف ، ولكن لا بد ان يكون مخصصاً الى مصارف المدرسة ورواتب معلميها .

جامع البرطاسى — هو فى جانب الجسر العتيق الكائن على نهر ابو على . وها هى كتابته التى يدل اسلوبها على انتمائها الى دور الملوك البحرية ، وان خلت عن التاريخ :

(٢١) — « البسملة ، . . اوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسى عفا الله عنه على المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعى واقامة الجمع والصلواة المكتوبة وشرط ان لا يرسم فيها على احد ولا يسكنه من لا له الحق فى ذلك » .

جامع عكار العتيقة — كان يوجد فى قضاء عكار التابع للواء طرابلس حصن مبنى فى موقع هو على جانب عظيم من المكانة والجدارة الموقعية بالنظر للدفع عن البلاد ، وذلك لسبب اطلاله على طريق طرابلس — حمص — بعلبك .

وقد اخذ هذا الحصن المسمى بحصن (فرسان سن جان) دوراً مهماً اثناء حروب الصليبيين . وبازائه خرابة جامع عكار العتيقة ، حفر على مدخله السلطان قلاوون هذه الكتابة :

(٢٣) — « البسملة . . . جدد هذا الجامع المبارك فى ايام مولانا السلطان العالم العادل الغازى المجاهد المؤيد المظفر المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى قسيم امير المؤمنين خلد الله ملكه بمرسوم المقر العالى المولوى الاميرى الكبيرى السيفى اعز الله نصره بلبان السلاح دار ، كافل الممالك الشريفه باشارة الجناب العالى الاميرى الكبيرى العامى ادام الله عزه سنجار الجماق دار نائب السلطنة المعظمة بحصن عكار المحروس وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ست وثمانين وستماية بولاية العبد الفقير بكجرى » .

بنى هذا الجامع فى ايام السلطان قلاوون بامر والى المماالك المفتوحة سيف الدين بلبان السلاحدار فى شهر ذى الحجة سنة (٦٨٦) . وقد بناه من يدعى بكجرى برعاية الامير الكبير سنجار الجمقدار يقول ابو المحاسن فى كتابه المنهل الصافى أثناء البحث عن « بلبان بن عبدالله الطباخى المنصورى الامير سيف الدين » ، ان مولاه السلطان قلاوون ولاه ولاية طرابلس اولاً ، ثم ولاية حلب ، ثم دعى سنة (٦٩١) الى القاهرة حيث احل

فى منصب سام ، وبعد تسع سنين نصب قائداً على احد الفيالق . وسير الى سورية فتوفى على الطريق فى رملة اوغزة ، وقد حاز على الشهرة الرنانة بين الامراء بشجاعته وبسالته وكرمه وتقواه ،

وجمقدار تتركب من كلمة (جمق) التركية ومن ادات (دار) الفارسية ومعناها « ذو المقمعة » . ويشترط فيمن ينال هذه الرتبة ان يكون مهندماً ذا هيبة . وكان الجمقدار يقف فى الايام الرسمية على يمين السلطان وفى يده مقمعة من ذهب . وسنجر الجمقدار هذا هو من رجالى محمد الناصر ، واسم (بكجرى) مركب من كلمة (بك) ومعناها الرئيس ومن (جرى) ومعناه العسكر . فيكون معنى التركيب رئيس العسكر ،

كتابات حصن الاكراد . — ان هذه القلعة مبنية فوق الجبال التى تفصل وادى العاصى عن ايالة طرابلس . فى موقع يهدد الطريق الواصلة حماوحمص بطرابلس وطرطوس وكانت فى زمن الصليبيين من اهم القلاع الموجودة فى حوزة فرسان سن جان . وقد استولى عليها سنة «٥٠٣ هـ ١١١٠م » تنكريد *Tancrede* امير انطاكية بعد ان غلب مسلمى حمص عليها . وبقيت هذه القلعة فى ايديهم الى سنة « ٦٦٩ هـ — ١٢٧١ م » وذلك باستماتة فرسان سن جان فى الدفاع عنها . وفى هذا التاريخ هاجمها السلطان بيبرس من الملوك البحرية ، وحاصرها مقدار سبعة اسابيع ثم سخرها عنوة ، وطرد الصليبيين عنها واصلح شعثها ورأب صدوعها . وبرهاننا على صحة هذا الادعاء ، هى هذه الكتابة المنقوشة على مدخلها :

(٢٣) « البسملة ... « صورة اسد » [*] امر بتجديد هذا الحصن المبارك فى دولة مولانا السلطان الملك الظاهر العالم « صورة اسد » العادل المجاهد المرابط المؤيد ، المظفر المنصور ركن الدنيا والدين ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين وذلك بتاريخ نهار يوم الثلاثاء خامس وعشرين من شعبان سنة « ٦٦٩ » ،

والكتابة الثانية محفورة فوق البرج الاسطوانى الذى بنى باسم السلطان بيبرس وولى عهده بركه خان فى الزاوية الغربية من السور الخارجى وهى :

(٢٤) — « البسملة » . . . « صورة اسد » امر بتجديد هذا الحصن المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين وذلك بتاريخ نهار الثلاثا خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ هـ « صورة اسد ».

*) ان كل الكتابات التى كتبت فى ايام السلطان بيبرس يصور عليها صورة الاسد التى كانت شعاراً له .

ومكتوب باسم السلطان بيبرس وولى عهده ايضاً ، على البرج الاسطوانى الواقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية للسور الخارجى هذه الكتابة :

(٢٥) — « صورة اسد » البسملة . . . امر بتجديد هذا الحصن المبارك فى دولة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس اعز الله نصره وولى عهده السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين وذلك بتاريخ نهار الثلاثا خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ « صورة اسد » .

وهذه الكتابات الثلاث التى تنطق على ان قلعة حصن الاكراد اصلحت فى زمن السلطان بيبرس حفرت كما جاء فيها سنة ٦٦٩ يوم الثلاثا .

كتابة السلطان قلاوون — هذه الكتابة خطت على البرج المربع الكائن بين جدارى الحصن من الجهة الجنوبية :

(٢٦) — « البسملة . . . جدد هذا البرج السعيد فى ايام مولانا السلطان الاعظم السيد العالم العادل المؤيد المجاهد الغازى المرابط المثاغر المظفر الملك المنصور سيف الدولة والدين قلاوون الصالحى قسيم امير المؤمنين خلد الله ايامه ونصر اعوانه وكانت عمارته فى سنة ٦٨٤ » (١٢٨٥ م) .

اشتدت ثورة الصليبيين سنة ١٢٨٤ . وبلغت الى درجة جعلت حصن الاكراد تحت خطرها وتهديدها . ثم عمدت امارة طرابلس ، وجماعة « سن جان » واشهروا الحرب على السلطان قلاوون رغماً عن الهدنة التى عقدت بينهم فى السنة التى تسلطن فيها قلاوون (١٢٨٠ م) وعليه اراد السلطان ان ينزع من ايديهم حصن مرقب الذى هو اكبر معقل لهم مهما كلفه الامر . فحشد الجنود وولى امر قيادتها الى (بالابان الطباخ) (*) . ثم تفقد صدوع القلعة قبل ارسال الجيش فاصلحها وحفر عليها هذه الكتابة .

وكتب محمد بن قلاوون هذه الكتابة فى الزاوية الجنوبية الشرقية من السور الخارجى على ارتفاع عشرة امتار :

(٢٧) — « جددت هذه البدنة المباركة فى ايام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الشهيد المنصور قلاون الصالحى قسيم امير المؤمنين وذلك فى ايام الجناب العالى الاميرى الكبيرى البدرى بيليك السديدى نائب حصن الاكراد المحروس فى شهور سنة ٧٠١ »

ويوجد فى حصن الاكراد من الآثار الاسلامية ما عدا هذه تربة بدر الدين البيدارى من مماليك بالابان الطباخ ، وكنيسة مهدومة حولها بيبرس الى جامع ، وتوجد انقاض

(*) راجع عدد « ٢١ » من الكتابات

المدرسة والزاوية التى انشأهما « بكتمر بن عبدالله الحر الاشرفى » نائب السلطان فى حصن الاكراد وخصص لهما الدخل الوافر سنة « ٧١٩ » . وانشأ بكتمر ما عدا هؤلاء مستشفى وخصص له اوقافاً كثيرة . وهذه الكتابة الموجودة فى احد البيوت القديمة فى حصن الاكراد تبرهن على وجود ذلك المستشفى :

(٢٨) — « البسملة . . . انشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى بكتمر بن عبدالله الاشرفى نائب السلطنة المعظمة بحصن الاكراد اثابه الله تعالى واوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك فى شهور سنة تسع عشرة وسبعماية » .

وقد عدد وقف هذه المؤسسة الخيرية فى كتابة منقوشة فى كوخ يسكنه اليوم شخص يدعى محمد عثمانى .



المباحث المحلية

— ١ —

ربوع لبنان

١ — من بيروت الى البترون

سفر طويل ، فى حمارة الصيف . . .

لا مناص من هذا ، فانه واجبنا المحتم فى هذه السنة : وقد كنا على بصيرة مما تكبدناه العام الغابر من المشقة المبرحة اثناء التجوال فى الانحاء الجنوبية من الولاية ، ولا تزال قلوبنا واجفة من ذكراها لا من الرجوع اليها ، ولكن لا ندرى لماذا هششنا لاقتحام هذه الشقة واقدمنا على هذا المأزق الصعب ؛ لما قيل لنا :

— هلم الى القسم الشمالى من الولاية فادرسوه ، ونقبوا عنه !

من اعظم واجباتنا تصفح صحائف هذا الوطن العزيز ، وتعقب سطوره الكريمة قراءة ودرساً ؛ وان لنا لسعادة برشف هذا الرحيق الطيب من تلك الاكواب الفاخرة. فذلك الواجب الحق ، وهذه السعادة العظمى ، جعلت فى عزائمنا من القدرة ما تلاشت لعظمتها تلك العقبات ، وخرت امامها تلك الجبال الراسيات .

علمنا ان قد آن ان نرمق آفاق بيروت الهادئة بنظرة الوداع ، ونقطع ربوع لبنان الى الاصقاع الشمالية . فتناولنا كتاب « دليل سورية وفلسطين » لبدكر الذى لا يزال يتداول فى الايدى ، وفتحناه :

— ستون . . . من بيروت الى البترون؛ وثلاثون . . . من البترون الى طرابلس !

اذاً ، علينا لاول وهلة قطع مسافة تسعين كيلومتراً . ولو لم يكن الحجر على طريق البحر ؛ لتسنت لنا باخرة توصلنا الى وجهتنا بثلاث ساعات . ولكن اولى لنا من ان ننغمس فى لجة البحر ، ونرمق جمال ملاك لبنان على شاسع البعد ؛ ان نعتنق تلك الآلهة البديعة التى ما زالت يعبدها كثير من الاقوام منذ زمن الفنيقيين.

الآن تدرج مركبتنا بضجاتها على الجسر الهرم فوق نهر بيروت الذى سماه القدماء (ماغوراس Magoras) ، الفاصل حدود بيروت عن لبنان من الجهة الشرقية ، ولا نكاد نحس لهذه الرحلة الخيرية بوطئة ما .

بزغت الشمس ، وتسنمت ذرى الفضاء فوق هامات تلك الربى الخضراء ؛ ربى « برمانا » و« بعبدات » ، كانها عين من مذاب الذهب ، واخذت تعسجد بشعاعها الابريزى سطوح النهر والبحر عن شمالنا ، واحراج الصنوبر التى التفت من البعد بدثار الابهام فى انحاء « رستم باشا » عن يميننا ؛ وكان نسيم الصبح كالمروحة القدسية ، ينفحنا بهبة بليلة ، تحف الارواح بنكهة ملاك الجبل العاطرة .

كانت مركبتنا على شفا الدخول بين اجمات القصب فى الطريق ، والتفتنا نتزود من بيروت بآخر نظرة ، فتجلت وهى معكس للانوار الخافقة ، كانها صيغت من قوارير .

فكنا نقول ، ودمعة انبعثت من اعماق عيوننا تتدحرج على صحيفتنا كانها شرارة من نار :

— بيروت ! ايتها العزيزة ، هل لنا ان نرجع اليك . . . ؟

ثم تغلغلت المركبة بين هاتيك الاجمات ، وانطمس علينا ذلك المنظر النضير ، فانقطعت مراسم الوداع لذاتها . ولم نلبث برهة ، الا ودخلنا فى بحر من العجاج . . . ها نحن نمر على قرى لبنان ، بل نمشى فى داخل بيوت لبنان . ما الطفها من قرى ؛ روضة صغيرة ، وبضع شجرات ، ويسير من خضرة ثم البيوت المستطيلة المبنية بالاحجار ، بفسح عن وسطها بقنطرة كبيرة ، منضدة سطوحها بالقرمد الاحمر ، او مطلية بالتراب ، وكثيراً ما يكون الطابق الاسفل من هذه البيوت حانوتاً كبيراً ، آخذاً نصيبه من انور ؛ او مخزناً . ويكون البيت حينئذ متعدد لطوابق . اما البيوت التى هى عبارة عن طابق واحد ، فلا بد ان يوجد فى جانبها سلم من الخشب ثخين الدرجات وربما وجد تحت ظلال الاشجار بضع بقرات ، او شياه ثم الدجاج ، والاقواب مبعثرون هنا وهناك .

ترون امام البيوت ، غادات لبنان سفعت وجوههن الشمس ، والعجائز والرجال كل له مشغلة يثابر عليها . فالبنات فى ايديهن المخرمات او قطعة من نسيج ، والعجائز قبضة من صوف ، والرجال فى ايديهم المرور او المعاول ، وربما ترونهم وهم منتدون باسمى المحيا . وان المحبة والوفاء والاخلاص والوقار لهى من الاوصاف الطبيعية لهؤلاء القوم لا تنفك عنهم . لا تمالكون انفسكم أن تقولوا وانتم مارون بهم :

— يا للسعادة ما احبهم لبعضهم ؟

جل ما ترون من المناظر ، نظرة محشوة بالابهام والود من شاب ، وصوتاً يتدفق سروراً من فتى ؛ وسكوناً دون اكتراث من شيخ يعالج جمع قواه لينهض ، وثم قهقهة الآنسات الرنانة . . . وهذا دائم ومطرد . . .

اذا وجد حانوت تحت البيوت ، فيعرض المنظر اوصافاً اظهر وابرز. لان تلك الحوانيت مشهر الاضداد ، او مجمع كل متاع ؛ يجتمع فيها بصورة غريبة كل ما ليس له علاقة بغيره.

فترى هنا عنقوداً من عنب كانه اجراس الذهب ، ثم مكنسة ، وهناك سرج ، ويليه قطعة من نسيج . ثم الاحذية وبقربها ربطة المخرم معلقين جنباً لجنب . ولو امعنتم فى داخل هذا المحشر لوجدتم فيه الحبوب والحرير والاحجار والحديد ، والمشربات والنعال ... والخضر، والواح الخشب ، وكل شئ . . . .

فى اللبنانيين الى وكونهم الحجرية المبعثرة فى انحاء الرياض، والحقول انجذاب قوى وميل لايرد . ولو تحادثتم مع ابسط الناس ممن يقطن الجبل لايلبث ان يطلعكم على سريرته ويقول :

لو تعلمون ما اشد ولوعنا فى بنيان البيوت ، لا نبالى بصرف جميع ما فى ايدينا لهذا الغرض . ولا نهتم للنقود كافية كانت او لم تكن . ولهذا ترون هنا نصف سلم ، وهناك بيتاً بلا سقف ، وبضع غرف غير مطلية . . . وعلى الأكثر اكواماً من الحجارة والتراب ، وغيرها من لوازم البناء . . . نهجر اوطاننا لنحصل على نفقة البنيان ونرضى حتى بالذهاب الى اميركا لهذه الغاية ، فنسعى هناك جهد الطاقة ، ونمضى السنين ثم نرجع ولدينا بضع مآت ، او الوف من الذهب . ونعلم ان من واجبنا اعمار بقعة من هذا الوطن العزيز ، فنعمد الى الارض ونجلى عنها الاحجار ، ونغرس البساتين والكروم على الدكك والمصاطب ، ونبنى البيوت . وهكذا الى ان تنضب الجيوب ، ونبذل كل ما فى اليد. ويومئذ نستأنف الكرة الى اميركا بلاد الذهب ونتوخى ان نجلب لبلادنا الوفر والحياة والراحة . واولادنا ونساؤنا لا ينقطعون ههنا عن العمل . بل يكسبون اقواتهم بمساعيهم... لا نرى مساغاً للحفظ على النقود والثراء ، بل نرجح كومة من حجارة ، على جراب من ذهب ، ورقعة من ارض ، على كدس القوائم .

ان هذه الاعترافات التى ينطق بها كل جبلى ، لا جرم هى عين الحقيقة . وها نحن الآن نسير على الطرق المعبدة فى هذا الجبل ، ونرى بلا انقطاع تسلسل البيوت التى شيدتها دنانير مهاجرى اميركا على عرض الدروب ، ونسمع الاسماء الرنانة لتلك القرى التى تتألف من اجتماع بضع بيوت : مثل بوشريه . . . دوره . . . جديده . . .

وربما رأينا على قارعة الطريق صيدلية لوحدها ، او كنيسة صغيرة .

سرنا فى المقصبة مقدار نصف ساعة ، وقد كاد الطريق يتضح بسبب تزحزح العجاج.. فكنا نرى عن شمالنا البحر كصحيفة الاطلس الزرقاء ، وعن يمينا جبال لبنان الخضراء التى تكل الطرف ، ويرجع عن اختراق شواهقها البصر خاسئاً ؛ وابناء السبيل الذين كانوا يقفون اثرنا ، ثم يتحولون عن سبيلنا الى انحاء متعاكسة . وكلهم يرمقنا بنظرة ملؤها الاستكناه والاستفسار . يقصدون بيروت وعلى كواهلهم صناديق البقول ، او قراطل الاثمار ، وكنا ننظر اليهم نظر الحيرة والعجب . ثم ما لبث رفيقى ان انهى اطراقه الذى كان عليه منذ مدة ، وقال ؛ كانه هب من سبات :

— لهؤلاء ، المنة الكبرى على حياة بيروت . . . ولو لم يكن هؤلاء الجبليون . . .

عليه التفت نحو بيروت عن غير روية فرأيتها تربعت حضن البحر كملاك الجمال ، يكاد وميضها ياخذ بالابصار ، يسورها لبنان من جهاتها الثلاث . . ثم سمعت رفيقى يتكلم فحولت وجهى نحوه . فكان يقول :

— لسرعان ماستحالت ربوع لبنان ! . . .

نعم ان هاتيك الربوع قد استحالت بطرقها ، وبيوتها وسكانها ، وحتى باصغر وريقاتها.. ما كان انظم هاتيك الطرق ، وانظف تلك البيوت واهناها ؟ اين فتيان لبنان ، بلابل هذه الربوع ؛ واين كواعبه واترابه ، بل ازهار ربيعه . ام اين اشياخه ذوو الوجوه الطلق والمحيا الباسم ؟ ام اين كان شبان هذه الديار الذين هم نموذج القدرة والسعادة بحمرة وجوههم ، وقوة اجسامهم ؟ . . . لا اثر لكل ذلك ؟

لم نزل نتحرى ما كنا نعهد فى لبنان من الحسن الطبيعى والصناعى ، وتلك الحياة التى كانت تطفح ابتهاجاً وسروراً .

هذه مركبتنا تغور وتنجد فى حفر الطريق الذى بعد عهده عن التفقد والاصلاح ، وتخترق بنا بحر العجاج الكثيف . وكنا نمعن النظر فى ما حولنا من البيوت . فنرى اكثرها موصد الابواب والنوافذ . ولاجرم انه قد اناخ عليها صرصر التخريب ، فنخر ابوابها وجدرانها . واحالها اوكاناً للبوم بعد ما كانت كنسا للظبا . واصبح اولادها سود الوجوه تحسبهم قديداً من النحول ، ممددين على عرض الطريق ، لا حراك بهم ؛ وبناتها تلك الملائك اللطيفة ، يقفن على قارعة الطريق حفاة ، باطمارهن الرثة ، وشعورهن المبددة ، ووجوههن التى غبرتها الذلة والمهانة ، ويمددن ايديهن الى ابناء السبيل ويصرخن بصوت خافت:

— يا للجوع ؛ بربكم... كسرةً من خبز...

اما الشيوخ فقد وصلوا ديار البقاء منذ امد بعيد . ان القذارة والفتور والمجاعة والفاقة نعثت على تلك القرى التى كانت موطن السعادة والرغد ريحاً عقيماً لا يبقى ولا يذر ، فيبست الاشجار واقفرت الحقول وكلحت صحيفتها ، وغارت تلك المياه الفضية عن مجارى الطواحين، وجف رى الشفاه ، وانطفى سراج الالحاظ واخذ كل شئ يركض الى قصارى بلائه .

فكنت اقول لنفسى:

ماذا على الجبليين لو كانوا حازمين ومقتصدين ؟ ما اشد البلاء بعد بذل الوجد على تشييد الابنية ونضوب الوفر؟ يا له من راى فائل ! كيف لا يلامون على التسرع بافناء ثمرة سعيهم التى نقدوها بحياتهم ، وتكبدوا لاجلها فى اميركا امر العمر ؛ كيف لا يلامون على عقد الاصابع تلقاء امانيهم السرابية فى اميركا واتكالهم عليها ورضائهم بذميم العيش ، واعتناق البطالة والكسل ، كيف لا يلامون على خلودهم فى الجهالة المظلمة ، ثم امرار الحياة على

خبط عشواء؟ الا يرون ان هذا التراب يتطلب العمل؟ هلا يعلمون ان جبلهم يحتاج لكدح مرتب وكد مثمر، لا تسعد الا الايدي العاملة التي تجعل لبنان مثالاً لاسويسرة. ام يحسب اللبنانيون الناشطون عن كل قيد ومعرفة، البعيدون عن الحزم والتبصر ان ميزان الذهب لا يزال خالداً بينهم وبين امريكا؟

ها هي «الحرب»؛ تلك الطامة الكبرى، ما لبثت ان مزقت سراب امانيهم المذهبة. وها هي اطفالهم ونساؤهم وكهولهم اصبحوا يتامى، ايامى لا كافل لهم رازحين تحت اعباء الرزايا.

ما عادت تعدهم امواج بحر الابيض بالسعادة، وامسكت عن ايصال الاخبار والبشائر. ولا قبضة من ذهب، حتى ولا طيف سلام يقر العيون من اولئك الآباء والاولاد، او الاخوة والاخوات. وعجز لبنان بحجارته وصخوره عن تأمين حياة ابنائه، فاخذ الدم الفياض الذي اعدته الايام السعيدة يتدرج بالجفاف قطرةً قطرةً.

كنا نقطع تلك المسافة وقلوبنا تمض تجاه الايدي الممدودة من اولئك الاشخاص الذين اكل الجوع لحومهم وشرب دماءهم، ونتحرى على اقل وسيلة تمكننا من الفرار من امام هذا المنظر الفجيع.

اخذت اشغل نفسي بتدقيق ما على طريقنا من العوارض الطبيعية: فها نحن نجتاز جدولاً صغيراً [نهر الموت]، وهذا جدول آخر [عين برشلو]. وتراءت عن يميننا شواهق «ديك المهدي» بعد جبال «برمانا».

ما لبثت شمس حزيران، المحرقة الا وتسلقت الافق، واخذت تسلق بشعاعها الناري، ما كان على حفاف الطريق من شجر الليمون.

اجتزنا بيوت «جل الديب» ووصلنا الى موقف (آنطلياس) الكائن على السكة الحديدية بين بيروت والمعاملتين وهنا رأينا شيئاً من آثار الحياة.

ومن هنالك اطردت المنازل، فكان البحر عن يسارنا والجبال البعيدة عن يميننا وبين ايدينا الطريق الفاسد بغباره، ثم الجداول الصغيرة، وسلسلة مقطعة من كوم الاشجار.

ان هذا الاطراد في المشهودات اهاب بذكرى الماضي، فبعثها من مرقدها وتحركت في فكرتي كانها تطلب ان تحيا. ما تراءت ادغال موقع (ضبيه) من بعيد الا ونفخت في هاتيك الذكرى روح الحياة، اذ كنت اعهد:

ان هذه الربوع وهذا الطريق، ولاسيما موقع (ضبيه *Debayé*) كان من انعش مقاصف بيروت والطفها. مآت من المركبات كانت تندفع الى هذا الساحل الجاذب في كل يوم، والوف من المترفين كانت تنفض على هذه الآفاق من سرورها، وتملأ عباب جوها

قهقهةً وطرباً. اما اليوم فالساحل نخلو من نور الحياة، وها هو يتدرج بالانطفاء ولا يسمعك ركزاً ولا همساً.

قربنا من الضبيه فتراآى لنا خلال الاشجار العظيمة معمل شركة المداء المسماة — (*Beyrouth water works Company Limited*)، التي تسوق الماء العذب الى مدينة بيروت في انابيب من حديد. ثم لم نلبث ان اجتزنا شلالات الضبيه التي لا تزال تسحر ارواح البيروتيين بلطافتها. ومرت مشجرة الضبية ايضاً ثم اقفر سبيلنا فكانت الجبال الوعثة عن يميننا وعن شمالنا البحر والرمل، ثم سكة الحديد السوداء الممدة. وبعد ربع ساعة وصلنا الى (جبل مار يوسف البرج) العالي، وبعد عطفة صغيرة اتينا موقع (نهر الكلب).

ان هذا المكان هو ابدع المواقع في لبنان. تصوروا واد يتغلغل في البعد حيث تطلع الشمس ويتلوى يمنةً وشمالاً، محصوراً بين اطواد تنطح السحاب بشواهقها الخضراء، يسيل فيه سيال كمذاب النور حيث ينغمس في زرقة البحر، ويتلاشى بهدو وسكينة؛ وضعو روضةً خضراء في حضن البحر بشلالاتها، واشجارها ومروجها لتكون مصطافاً بديعاً. ثم ابغثوا من اعلى تلك الذرى نسيماً يمشط الغابات ويماشي الوادي على امتداده، واجعلوا العواصف الطائشة تنبعث من كبد البحر حيث يلتقيان في تلك الجنة البديعة، ويعتنقان نحراً لنحر.

هذا هو نهر الكلب... كان محشراً للبدايع الممتازة. وقبل بضع الآف سنة عمد قوم من عباد الجمال الى هذه الدمنة الخضراء واقاموا فيها تمثالاً عظيماً. وكانت عواصف هذه البقعة تندفع في جوف ذلك الهيكل فتصيت مثل الذئب، وعلى رواية مثل الكلب. ولكن (ليقوس *Lycos*) الذي سماه الاقدمون بنهر الذئب اوبنهر الكلب اصبح اليوم في معزل عن ذلك الصدى الذي انغمس في بحر التاريخ.

وقفت اسائل (ليقوس) عن ذكرى ماضيه فاتحف روحي بنكهة عنبرية ثم قال:

— كم من ذكرى ثمينة دفنت في هذا الوادي الذي ما زالت تعوي فيه الرياح الطائشة. وان صدى الاجيال الغابرة لا يزال يصرخ فوق هام تلك الذرى التي ترونها تخترق السحاب. اذا شئتم ان تروا آثار المصريين والاثوريين واليونانيين، والرومانيين، والصليبيين في هذا المدخر التاريخي، فانظروا في ناصية جاوي، لهذا الجبل الهرم...

حولنا النظر الى ذلك الجبل، واخذنا نمعن في نقوشه:

ما ابلغها نقوشا من عبر تاريخية نطقت بذكرى الملوك كسيزوستريس او رامسس الثاني وسالماناسار واسرحدون وامثالهم:

هذا نقش آثوري: ملك رافع يمينه. ويقربه منظر رأس فقسط، وهو الاثر الثاني

الآثوريين . وهذا آثورى ايضاً . وتلك كتابات اللاتينيين واليونانيين ، ثم هناك رسم مصرى : فرعون يقرب قرباناً لرا آلهة الشمس ، وعلى غلوة منه ذكرى آثورية وثم فرعون وآله آخر، ثم صحيفة ذكرى حرب المصريين مع الآثوريين ... الخ [*]

مشيت على الطريق الذى مهده (قاراقاللا *Caracalla*) امبراطور الرومانيين بعد الميلاد بقرنين ، ومررت على تلك النقوش والكتابات الذى يناهز عددها الاحدى عشر ، وكان دماغى يطأطأ تجاه هذه الخاطرات الخالدة تعظيماً واجلالاً لقدرها .وكأنى اسمع التاريخ يهتف بهذه الاسماء السامية التى اختارتها حافظة الكون من مشهر الاقوام الحالية . وهذا جسر قديم ايضاً يتحفنا بذكرى ايام السلطان سليم ياوز .

وقد سكرت فكرتى من تصفح تلك الآثار القديمة واصبحت تأبى ان تشتف ولو قطرة تاريخية فقط ،

ثم سادت مركبتنا على الجسر الجديد الذى شيده السلطان السابق (عبد الحميد) وامعنت فى الاسراع فكنا نرى على يميننا فوق قمة الجبل قرية (سوق مصبح *Souk Misbeh*) وبضعة بيوت بعدها وما كان اكثر من ساعة الا ومرت علينا جبال [دكان الصنوبره ، ذوق حريصا] وقرى « درعون ، غستا » وموقف (قاسليق) وجبال (سوق ميكائيل *Souk Mikail*) من ورائها موقع (بكركه) الذى فيه البطريركية المارونية ... ثم قرية (صربا *Sarba*)

وبعد برهة . اشرفنا على مينا « جونية » مصدر الحركة النصرانية فى لبنان وموردها وتراآى لنا تمثال « سيدة لبنان » فوق قمة الجبل .

لا جرم ان هذا التمثال الذى يمثل محيا العذراء ، هو رمز النصرانية فى هذا الجبل . كانهم يريدون ان يقولوا بهذا الهيكل المطل على المرآة الزرقاء فى جونيــة التى هى اصلح مدخل بحرى فى لبنان ؛ وعلى بيوتها الرخامية البيضاء التى تجملت بالطف الذوق الصناعى وعلى جميع لبنان وحتى على بيروت ايضاً :

— ان فى لبنان روحاً مسيحية .

ونحن ايضاً قد الهانا الامعان فى هذا الرمز النصرانى ، فما كنا نشعر بمن يساور مركبتنا من مطاعين الجوع ، ولم نكد نسمع صراخهم الموجع .

---

[*] يقال ان الكتابة التى حفرت هناك تذكاراً لدخول الجنود الفرنساوية هذه الديار (١٨٦٠ — ١٨٦١) قد محيت بعد الحرب العام .

ما زلنا نتبع الساحل بعد ان بارحنا شوارع جونيه المنتظمة ، وبعد برهة وجيزة وصلنا موقع « المعاملتين » التى هى آخر محطة للسكة الساحلية . ورأينا على يميننا من بعيد قرية (شنين نعير) ، ثم على غلوة منها قرية (غذير) . ومن هناك كان على يسارنا ساحات الرمل ، يعقبها البحر ، ومن اليمين مررنا على جسر قديم رومانى ، ثم صعدنا المرتفع وجزنا (رأس الرامية) الى وادى الرامية ، ثم وصلنا قريتها . وهناك قرية « وطأسبلان » على الساحل، و « فرسيللان» على اعلى الجبل ، وبعد ان بارحنا « البرجه » او « طبرجه » التى كانت ملجأً لسفن الفينيقيين بمدة وصلنا الى وعثاء « بلاطة الغربه » وبعد منحدر قليل الى « مرصوفة » ثم الى قرية « بوار » الكائنة على الطريق ، ومن اليمين الى قرية « صفره » التى هى فى ذيل الهضبة ، ثم الى مغارة « عين ماحوز » وبئرها ، وآخر الامر وصلنا الى موقع « نهر ابراهيم » .

* * *

هذا النهر هو الذى سماه الفينيقيون « آدونيس » . وكان لهم آله يتصورونه على هيئة شاب ويدعونه بهذا الاسم ايضاً . وبينما كان آدونيس يتجول فى انحاء لبنان اعترضه آله حسود فقتله ، وقد كانت زوجته « عشتروت » تحبه محبة عظيمة ، وقامت تطلبه فى الجبال . فرأته يتخبط فى دمه ، فرمت بنفسها عليه واخذت بالبكاء والعويل ، ولم يلبث الا آه بضعة شهور الا وردت روحه اليه . وقد كان من تقاليدهم ان يرتبوا فى موسم الصيف من كل سنة احتفالاً يحيوا فيه ذكرى تلك الحادثة . لا سيما فى اواخر ايام الخريف حينما تهطل الامطار على تلك الانحاء فتجرف التراب الاحمر وتلقيه فى النهر حيث تخضب الماء بالحمرة ، او على زعم الفنيقيين بدم « آدونيس » . وهنالك يجددون المأتم ، ويثابرون على النحيب سبعة ايام ، وفى اليوم الثامن ينقلب العزاء سروراً فيحتفلون به ايضاً . كنت امتع النظر بنهر « آدونيس » المسمى بنهر ابراهيم نسبة الى الامير ابراهيم احد امراء لبنان الذى بنى عليه الجسر ، واشاهد كيف يجرى محاذياً لساحل البحر ، ثم ينعطف على ارض بيضاء حيث يقطعها ويمتزج فى البحر . فلمعت فى فكرى ذكرى الشاعر الانكليزى « ميليتون » عاشق القرون الخالية . يحكى ميليتون فى مؤلفه « الجنة المفقودة *La Paradie perdu* » الذى هو اجمل مؤلفاته عن غانيات سورية كيف كانوا يأتون الى ضفاف « آدونيس » فى حلل ارجوانية ، ويصف بكل ما يملك من القدرة الشاعرية هذا المأتم ، وبكاء تلك الآنسات .

بارحنا تلك البقعة ولا يزال صدى ذلك الشاعر الاعمى يتموج فى صماخى بجميع بدايعه .

* * *

مررنا بعد برهة بـ « مغارة العصفورية » وغادرناها عن يميننا ، ثم جاوزنا قرية « حالات »

وبعدها « بيت البوق » و « حروف الفيدار » ؛ وعن الشمال انقاض قلعة « برج محاج » ، ثم نهر « فيدار » وجسره ، ثم عن اليمين قرية « مستيتا » على الربوة ، قريبا من«حروف» وبعد ان قطعنا عقبةً وعرة ، رأينـا عن اليمين سلسلة من القرى . ثم حرج الصنوبر ، وقرية « ارطبون » ووراءهـا قرية « بلاط » . وها نحن داخلون بين بيوت جبيل ذات القرميد الاحمر .

سمى التاريخ قصبة « جبيل *Djébeil* » باسما مختلفة . ويروى [*] ان هـذه البلدة القديمة الفنيقية التى كان اسمها « افايا » ، يسميها العبرانيون « جبـال — *Gébal* » ، واليونانيون « بيبلوس — *Byblos*» والصليبيون « جبله — *Giblet* » ثم عربت فكانت « جبيل » . ولأول نظرة الى هذه القصبة يعلم الانسان انها غنية بالآثار التاريخية بما فيها من البروج القديمة ، وغيرها من آثار الأدوار الاولى . ولا سيما « قلعة جبيل » التى هى من آثار الصليبيين ، فأنها موجودة بأ كثر اقسامها فى حجر البحر .

فارقنا جبيل ، وقطعنا واد صغير ، ثم « جسر الجبيج » ثم مرتقى قطعناه فى سـاعة . ومررنا من قرب عمشيت التى هى اغنى بلاد الجبل ، وسرنا بجانب كروم التين برهـة ، ومن هنا اصبحت القرى منفصلة عن بعضها . وبعد نصف ساعة ترائت لنا قرية«حصرائل» و«ريحانه » من بعيد . وبعد مرورنا بجسر الترو وقرية «بعشته » ونهرهـا ، وجسره ، مرت علينا قرية « حلوه » و« برباره *Berbara* » » وبالنهاية شاهدنا « البترون »من بعيد على رأس الشاطئ . وكان يلزمنا سير ساعة حتى نصل اليها .

وبما اننا كنا نتوقف لأجل الراحة فى اكثر المواقع التى نمر عليها ، ما كـدنا نصل لهذا المحل الا وكادت الشمس تغرب . والآن كانت شمس آفاق الفنيقيين المحرقة متأهبة للانغماس فى مغربها ، وتنثر انوارها الذهبية على تلك الاصقاع وغـدت اعشاب الطريق تصفر ، ثم شرعت تحمر ، ثم طبق ظل العشى واخذ يتسرب الى منتهى الآفاق رويداً رويداً وبهذه البرهة كانت قريه « طحوم — *Pehoum* » و«جسر المدفون»و «نبع طحوم »تفر من امام انظارنا . ثم قطعنا قرية « فدعوس » كفرعبيتا — *Kafr Abita* ومشجرة الزيتون التى هى على يميننا ، ووصلنا البترون — *Batroun* » وقـد هدات عليهـا استار الظلمة .

٢ — من بترون الى طرابلس

مابخل لبنان على ارواحنا ببدايعه ، ولا بآثاره التاريخية ، فى هـذا اليوم الذى مر بعجره وبجره ريثما وصلنا الى البترون . ولكن لم يزل صماخنا يطن بصدى اصوات النساء والاطفال الجبليين التى اخفتها الجوع ، وخنقتها الفاقة . ولا سيما ان تدحرج المركبة زلزل

قوانا ، وجعلنا لانبغى حراكاً من الونى .

اما نزلنا الذى يمثل بيتاً كبيراً من بيوت بيروت ، فكان يعدنا براحة ثمينة . ورغماً عن هذا فقد ازمعنا على ان نلبث هنيهة فى البهو المطل على بيوت البترون البيضاء التى عامت فى بحر من نور القمر ، وعزمنا على التمتع بهذه المناظر الشعرية ، ولكن لم تمهلنا ربة النزل العجوز ، بل جائتنا واخذت تشكوا لنا ما ألم بها بصوت مرشح للانطفـاء فأضرمت فى افئدتنا ناراً حامية . كانت تلك البائسة تكفكف دمعها وتقول :

— اناشدكم الله ، نبئونى ، متى تنتهى هذه الحرب الطاحنة ؟ ايجدر بأصابعى هذه التى كانت تلعب بمآت ، بل بالوف من الدنانير ، ان تبحث فى فضـالات البيوت على قارعـة الطريق . ام اكون مثل العود اليابس كهؤلاء الذين عرقتهم الرزايا ثم اسقط ممددة فى الشارع واودع الحياة ؟ كانت هذه البائسة تجهد للافصاح عن دائها ، وقبضتها مدفوعة الى الامام تشير بأصبعها اشارة اليأس الى ماوراء الآفاق ، كأنها تريد اميركا ، وتقول :

— اولادى هناك .... لو كانو لدى ...

اما نحن فكنا نستعيض عن جمال ليل البترون ، بتهطال الدموع ، ثم اضطررنا للانسحاب الى غرفتنا وقلوبنا كادت تنفطر . ذهب اكثر من نصف الليل ، ولم نزل نسمع فى الخارج صوتاً يقول بلهجة جبلية :

— جيعان ، جيعان ....

وكان هذا النـداء من صغار الفقراء يمزق احشاء ذلك الليل المقمر ، ويملؤ بذلك الصدى الفجيع ، انحاء الآفاق .

*
* *

هببنا من النوم بعد مااغرقت الشمس بضيائها هاتيك البيوت الناصعة ، فى تلك البلدة الفنيقية التى سماها اليونانيون ببلدة « بوتريس — *Botrys* ». وما كان الطف منظر هذه البلدة القديمة التى يعزى تأسيسها الى « ايتوبعل » ملك صور وذلك قبل الميلاد بزهـاء خمسة عشر قرناً .

كان نظرنا يزلق بين تلك البيوت البيضاء ، البسامة ، ويتغلغل فى البعد الى ان يصل الى الشاطئ ، ثم يقف ويرمق ماهناك من الآثار القديمة . وفكرنا مازال باهتا بمـا رآه من آثار القرون الخالية .

ثم عدنا الى مركبتنا بعد ماجاملنا ربة النزل بما يسل عن فوأدها شيئاً من الاكـدار . وها نحن الآن نسير بين اشجار التوت ، واجمات القصب ، وبعد ربع ساعة مررنا بقرية « كبه *Kobbé* » ومن ورائها قرية « مسيلحه *Mseilha* » على راس قمة الجبـل . ثم واصلنا السير فى ارض مرملة قفراء واتبعنا شاطئ البحر ، وصرنا عن اليمين الى « برج

العتيق » وعن الشمال الى « حنوش » التى تتألف من بضعة بيوت. وهناك تراآى لنا « رأس الشقعه » على بعد ، بكامل سموه وعلوه .

شرعنا الآن بقطع الاقواس القصيرة ، والمشي على السكة المحدودبة ، واخذنا نتسلق في جبل شاهق وعر : وكانت المركبة تسير بصعوبة فى هذا الطريق ، ثم بعد نصف ساعة وصلنا الى سفح منحدر .وهذا الموقع هو « رأس الشقعة »

لاريب فى ان « رأس الشقعة » هو ارهب موقع فى سورية على شاطئ البحر الابيض. وهذا الموقع يماثل فى الارهاب والادهاش الفضالة الجبلية الكائنة بين عكا وصور ، المسماة بـ « رأس الناقور »[*]

تصوروا فوقكم شاهقاً يخترق السحاب ويكاد يهوى عليكم من علوه ، وتحتكم على عمق « ٣٠٠ » مترا خضماً رهيبا تضطرب وتقصف امواجه الهائلة ، وانتم تسيرون فى نقب « طريق الجبل » كلسى مائل ، لايكاد يستوعب المركبة من ضيقه . ولا جرم ان مجرد تصور العثور هناك يبعث الدوار فى الدماغ :

مكثنا برهة من الزمن نقابل العيوق وجها لوجه على ذلك المنبر المعلى الذى لازالت تنطحه الخافقات الطائشة . وهذه الفضالة الجبلية التى سماها الاقدمون ، وابن السمعانى المؤرخ بـ « وجه الحجر » وسماها الادريسى المؤرخ بـ « انف الحجر » من العظمة فى درجة يصغر لديها الانسان الذى انطوى فيه العالم الاكبر . ولم يخطئ قدامى اليونانيين فى تسميتهم له بـ « تثوبروسوبون *Tyoouprosopon* » اى « وجه الله » .

ها نحن الآن نطل على ساحة واسعة شحنت بأبهى البدائع تنتهى من الجنوب فى بيروت ، ومن الشمال على ازيال « رأس الناطور » و « رأس المينه » . ونرسل الطرف يرتاد كل ناحية من هذا الموقع الذى ما زال يسحر مخيلتنا بلياليه النيرة ، وعشاياه المعندمة. فارقنا هذا المنبر السامى ونسيمه المعطر بنكهة الآس لا يزال يسكر البابنا ، وقد تراآى لنا على هام الجبل دير (سيدة حنوش) المارونى ، وفى جانبه دير « النورية » للروم الاورتودوكس .

دخلنا فى بضعة انفاق ، ثم اتبعنا منحدراً يرمى الى ساحل البحر فقطعناه بنصف ساعة وكان امامنا قوس ساحلى يمتد الى موقع « انفه » . وكنا نمشى قريباً من ماء البحر لدرجة لم تكد مركبتنا تخطو الا على كسارة الامواج بين الرمال البيضاء .

وصلنا الى (الهرى) وهى قرية للمسلمين بعد ان اجتزنا مشجرة من الزيتون على شاطئ البحر . ثم قطعنا جسر الهرى ، فكانت على يميننا اشجار الزيتون والتوت وبعض اشجار

---

[*] راجع (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) صحيفه ٢٨٢ .

السماق ، وما لبثنا ان وصلنا الى قرية « شكا *Chakkha* » . وكان لها منظر لطيف بقصبها الاصفر . رأينا ان نمكث هناك هنيهة ريثما نستريح . لاننا لا نلبث بعد هذه السياحة اللطيفة ان ندخل فى اوعر الطرق الجبلية ، لا سيما ان الطريق الساحلية بين (شكا) وطرابلس كانت فاسدة لا سبيل لسير المركبة فيها . ولذلك كنا مضطرين الى التحول عن طريق [انفه — زكرون — رأس الناطور — فالامونه] الى طريق اطول منه بضعفين :

ومع هذا ما كدنا نلبث الا وغادرنا شكا وانعطفنا نحو الشرق ، واخذنا نتسلق الجبل وكنا كلما اوغلنا فى التسلق نزداد انشراحاً ونشاطاً بدلاً عما توقعناه من المشقة والالم . كنا نرتقى معارج الجبل ومنعطفاته المقوسة ونرى تحتنا فى حضن البحر ، شكا ، وقريباً منها انفه ، ونتمتع بتلك المناظر التى لا تتيسر رؤيتها الا لحائمات الجو . ووددنا ان لو طالت هذه المنعطفات زمناً مديداً:

امتد هذا المرتقى بعد خرابة « شكا العتيقة » اكثر من ساعة ونصف ، وكانت الشمس فوق هاماتنا ترج على الافاق سهاماً من نار بشعاعها . على ان النسيم العليل فى ذلك الجبل العالى كان يخفف وطأتها ، ولم نستوحش اليوم من هذه الجبال المسماة بجبال « عين كمين » رغماً عن اطراد منظرها الذى هو عبارة عن سلاسل متتابعة من الطبقات الكلسية . ولكن لم يطل الامر الا وانقلب ذلك المنظر القاحل الى منظر خصب منذ اشرفنا على قرية « فرحه زير » .

تراءت لنا عن اليمين من بعيد قرى « آميون *Amioun* » و « كسبه *Kesba* » ثم المشجرات الزيتونية فى انحاء الكورة ، وعلى غلوة منها قرى « كفرعكا *Kafr Akka* » و « كفرسالون » ، وعلى يمينهم من بعيد قرى « كفرحوتا ومقبورا ، وكفتتون . او قد لمع وراء هؤلاء جبال « ارز لبنان » . ثم اخذنا بالانحدار ، فتتابعت على انظارنا اشجار الزيتون الخضراء ، واشجار التين والحقول والمشجرات . وبعد ان جاوزنا عن اليمين قرية « بشمزين *Bchemzin* » شاهدنا على يسارنا من بعيد قرى « عفصديق » و « فيع » و « الحاد » .

وبعد يسير وصلنا الى « البتورون *Btourran* » . ويوجد هناك الخصاص لدود القز تخص اغنياء طرابلس الشام . سرنا بين شجر الزيتون مقدار نصف ساعة ، وأخذت تبدو لانظارنا عن الشمال قرى « طراطيش وغابه » وعن اليمين « بصرما » وبعدها قرى « دير سيدة النجا و كفرقاهل وبشنين وعول » فوق هضبة عالية ، ثم « داريه و كفرفو ورأس كيفه و كرم سده ، وسبعيل ، غيطو » ثم « جبال الاربعين » التى حشرت فيها هذه القرى الظريفة اللبنانية الخضراء . وكان بين طريقنا وبين هذه القرى

« نهر ابو على » الذى ينبع من « وادى اهاب » و « بشرى » الذى وراءه ، ثم ينصب عليه جدول « نهر رشعين » و « نهر جوعيت » ويجرى ميمماً طرابلس الشام . ولهذا كان منظر هذه البقعة لطيفاً جداً .

قطعنا مكان « دكانة خضر » التى يتألف من بضعة بيوت ووصلنا الى قرية « كفتين *Keftin* » . وهناك ظهر لاعيننا البحر بلونه الازرق بعد ان فقدناه منذ بضع ساعات .

لم يبق بيننا وبين طرابلس الا مسافة ساعة واحدة . فاخذت مركبتنا تسير على التراب الاحمر الى ان وصلنا الى قرية « ظهر العين » . ولم يبق لنا من الطريق الا مسافة ربع ساعة . ومع ذلك لم نزل فى ارض لبنان وكانت هضبة « ابو سمره » لا تزال حائلة بيننا وبين البلدة . فما كنا نراها رغماً عن قربنا منها .

كنا نمعن النظر فى « جبل تربل » الذى كان قريباً منا ، وذهننا لا يزال مشغولاً بخيال الجسور والوديان ، والنجود والاغوار ، والكبير والصغير من القرى التى شاهدناها فى الطريق . ثم هرولنا فى منحدر ووصلنا الى « جسر البحصاص » الذى تنتهى على ازياله حدود لبنان . وبدأ من هنالك مشجر الزيتون الطرابلسى .

ثم بعد برهة كنا امام بيوت طرابلس البيضاء حاملة النجم والهلال وكانت الشمس بعيدةً عن الغروب بعد .

—٢—

لواء طرابلس الشام

١ — الموقع والحدود

ان لواء طرابلس الشام الكائن فى القسم الشمالى من ولاية بيروت يحيطه من الجنوب لواء جبل لبنان ، ومن الشرق لواء حما ومن الشمال لواء اللاذقية ، ومن الغرب البحر المتوسط . ومساحته ٥٩٦٩ كيلومتراً مربعاً .

٢ — الاحوال الطبيعية

[١] — **الجبال والانهار** — يتكون لواء طرابلس الشام من سهول « جون عرقا » الخصبة ، التى تمتد على طول الساحل . ومن مرتفعات صغار تتسلسل متقطعة ، واراضى ذات عوارض فى الداخل . وجبال النصيرية التى تفصل هذا اللواء عن ولاية سورية من

الشرق تمتد من الشمال الى الجنوب حتى تكون قريباً من مركز قضاء عكار فينقلب اسمها الى « جبال عكار » ثم تنغمس فى سلسلة لبنان . ويفترق هاتان السلسلتان عن بعضهما بوادى النهر الكبير .

اما الجبال الموجودة وراء بلدة طرابلس تتعالى حتى تبلغ بارتفاعها عن سطح البحر (٣٠٥٠) متراً ، وارتفاع « ظهر السودا » من « جبال ضنيه » يبلغ (٣٠٤٧) متراً ، وارتفاع العقدة التى تتصل فيها جبال عكار بجبال لبنان هو (٢٠٩٠) متراً . وتتألف هذه الجبال من الصخور البرمعية المنتمية الى الدور الثالث . اما جبال حذور التى هى من اعمال مركز القضاء فهى مركبة من الطبقات البركانية الحديثة .

وانهار [ابو على ، البارود ، العميق ، العرقا ، العويق ، الشيخ زناد ، النهر الكبير ، الشلالات ، الابرش ، الصاروت ، الغمقه ، الحصين] كلها تنبع من جبال عكار وحصن الاكراد وتصب فى البحر المتوسط .

فمنهم نهر ابو على والنهر الكبير هما من الانهار الدائمة فى الجريان . اما الانهار الاخرى فهى تفيض وتغيض . ان نهر ابو على المذكور فى التوراة باسم « كاديشه » ينبع من جبل « ماكمال » الواقع فى ناحية « بشرى » التابعة لقضاء « البترون » ، ويمر بجوار قرى « اهدن وزغرتا » ويدخل فى لواء طرابلس ، ثم يسقى اراضى قضاء طرابلس المخصبة . وطوله من منبعه الى مصبه يناهز (٣٨) كيلومتراً . اما (النهر الكبير — *Eleftéri*) الذى يصب فى حوض « عرقا » فهو كما ذكرنا سابقاً اصلح مدخل يدخل فيه من الساحل الى داخل سورية .

[٢] — **الاقليم** — ان اقليم هذا اللواء الذى نبحث عنه هو معتدل وحار ورطب . ولكن ناحية الضنية التابعة للمركز التى هى على ارتفاع ٢٠٠٠—٣٠٠٠ متراً وقراها الكائنة على السفح الغربى فى « جبل القضيب » من سلسلة لبنان فهى باردة الاقليم بسبب ترفعها عن سطح البحر . والحرارة فى الدرجة الوسطى فى هذا اللواء هى ١٦٫٥ درجة « سانتيغراد » وتكون فى الصيف (٢٥) وفى الشتاء (٩) . والحرارة فى الربيع والخريف لا تنخفض عن (١٦) درجة . وفى كانون الثانى حيث تشتد سورة البرد تكون الحرارة (—١٫٥) درجة . ولا يندر بلوغ الحرارة الى (٣٦) درجة فى شهر اغستوس .

[٣] — **العواصف والرياح والامطار** — يوجد فى طرابلس الريح الشرقى الشمالى ، والغربى الجنوبى بصورة دائمة . اما رياح الجنوب والشمال والشرق والغرب الشمالى تهب بندرة . وفى اواخر الربيع يهب من الغرب الجنوبى ريح السموم وهو حار مخنق ، ولربما يكون العواصف والزوابع .

ان جبل القضيب الكائن فى الجهة الشرقية من بلدة طرابلس والمنقسم بين ولاية بيروت ولواء لبنان هو على ارتفاع (٣٠٣٥) متراً. ويدوم عليه الثلج ثلاثة او اربعة اشهر فى السنة ولهذا السبب لا ينقطع هبوب الريح هناك تارة من الجبل الى البحر واخرى من البحر الى الجبل. يسخن هواء البحر فى ليال الصيف فيصعد الى فوق بسبب خفته وفقاً لقانون التوازن، وقبل بزوغ الشمس بساعة ونصف تهب من جانب الجبل ريح باردة كثيفة وتسمى عند المحليين «بريح الجبل» ثم يعقبها الغربى ويهب نحو الجبل.

يزعم ان مقدار الامطار السنوية فى طرابلس هو (٥٥٠) مليمتراً. وقد تشتد سورة الشتاء فى شهر كانون الثانى وشباط حيث تهطل الامطار متوالية دون انقطاع. ويسقط الثلج على اكثر انحاء اللواء ويكون ثخن (١٠—١٥) سانتيمتراً، على انه يبلغ فى ناحية ضنية ولاسيما فى الانحاء العالية منها الى اكثر من ثلاثة امتار. وهنا يسقط الثلج منذ تشرين الثانى الى غاية شباط.

٣ — عدد نفوس اللواء

اثبتت القيود الرسمية لسنة (١٣٣١) ان مجموع عدد نفوس لواء طرابلس الشام من ذكور واناث نحو (١٧٦٥٢٥) نسمة، منهم ١١٩٠٣٧ من المسلمين والنصيريين وما بقى (٥٩٤٨٨) من غير المسلمين. وان هذا اللواء بالنسبة لالوية الولاية يأتى فى الدرجة الثانية عن بيروت بالنظر لازدحام خلقه، وكثرة غير المسلمين فيه. ويكاد ان يكون ثلثان السكان المسيحيين هناك من الروم الاورتودوكس. اما المارونيون فيقرب عددهم من (١٥) الفاً. وبما ان مجموع مساحة اللواء يبلغ (٥٩٦٩) كيلومتراً مربعاً، يكون نصيب كل كيلومتر (٢٩٫٦) من النسمات اما تقسيمات اللواء الادارية فهى على ما يأتى:

النفوس		عدد القرى والمزارع	النواحى
٦٦٥٤٨	مركز قضاء طرابلس الشام	٩٦	اسكله، طرطوس، ارواد
٤٢٣٦٣	« « عكار	١٧٥	ضنيه، منيه، حذور
٢٩٧٠١	« « حصن الاكراد	١٧٦	—
٣٧٩١٣	« « صافيتا	٣٥٥	—
١٧٦٥٢٥		٨٠٢	

٤ — المعارف فى اللواء

«ان حياة الاقوام، وخلود البلاد ودوام الامم فى هذا العالم البشرى يتبع عزائمهم وهممهم فى الاقبال على امر المعارف. اذا امعنا النظر فى ولايتنا التى اشتهرت بين الولايات

العثمانية بغزارة مادتها من العلم والمعارف نجد ويا للاسف تلك الشهرة معكوسة. وما ذلك الرقى العلمى الذى نرمقه اليوم بنظر السرور ونباهى به الا مفاسد اخلاق اجنبية يحتم علينا ان نعاجلها بالهدم والتخريب وعيوننا تقطر الدم لا الدمع، وما التربية الاخلاقية التى نتلقاها من الاعداء، الا سكينا مذهبة مسمومة النصل، اهديت الينا لنقتل انفسنا بها، اوشكت فى اوردتنا لهذه الغاية. ان الانقلاب الفكرى والتربيوى الذى نتوخاه لرقى العثمانية واعلاء كلمتها، او بالاجدر للاحتفاظ بهذه الهيئة التى اربت سنيها على ستة قرون لا يكون بهذه الوسائل القتالة. اننا اذا لم نخلق المعارف التى ترتكز على اسس عمومية ملية لا قومية، لا جرم لا يكون لنا حظ من الحياة الاجتماعية.

اذا نظرنا فى حالة معارف الولاية قبل ما تأسست الادارة الخصوصية اى قبل سنتين، نجد مخصصات جميع المدارس المربوطة بادارة المعارف، والمدرسة السلطانية ايضاً لا تتجاوز عشرة آلاف ليرة. وعدد المدارس قليلة ودرجتهم منحطة جداً. لم تغرب هذه المسائل عن نظر حكومتنا الحاضرة، ولذلك اسست اصول الادارة الخصوصية لكى تتمكن من ازالة هذه النواقص ورفعها.

كان الاهتمام بميزانية المعارف سنة ١٣٣٠—١٣٣١ على قدر ما يستطاع، وفى هذه السنة خصص لها (٣٩٥٠٨٢٥) غرشاً. ورغماً عن هذا فان النقص فى المعارف لا يزال ظاهراً ليس بخاف.

وبهذه المخصصات التى وضعت فى ميزانية السنة الحالية تمكنا من ادارة قسم واحداث قسم آخر من المدارس التى بينا اسماءها هنا.

المدارس الاعدادية — يوجد فى مركز الولاية من هذه المدارس ثلاث خارجية، وفى مركز كل لواء واحدة ما عدا مدرسة طرابلس الشام الذى قلبت الى سلطانية.

المدارس النموذجية «نمونه» — يوجد من هذا النوع مدرسة واحدة فى بيروت مركز الولاية ولم يتم ترتيبها.

المدارس ذات الستة صفوف — عندنا منها عشرة مدارس سبع للذكور، وثلاث للاناث.

ذات الخمسة صفوف — عندنا منها ثلاث عشرة مدرسة كلها للاناث.

ذات الاربعة صفوف — عندنا منها ثمانى عشرة مدرسة، اثنى عشرة للذكور وست للاناث.

ذات الثلاثة صفوف — لدينا منها اثنى عشرة، ثمانى للصبيان واربع للبنات.

ذات الصفين — لدينا منها واحد واربعون مدرسة (٣٣) للذكور و (٨) للاناث.

وحيدة الصف — لدينا منها (١١٨) مدرسة منها (١١١) للذكور و (٧) للاناث.

فاذا ضفنا المدارس التى اسست منذ عشرين سنة فى قرى لواء نابلس بنفقة الاهلين . ثم الحقتها الحكومة حديثاً بادارة المعارف وعددها (١٤٣) مدرسة للذكور يكون مجموع وحيدة الصف من المدارس فى الولاية (٢٦١) مدرسة ، ومجموع المدارس التالية والابتدائية ٣٥٩ مدرسة [*]

وبما ان عدد الذكور فى الولاية (٤٠٤٦٦٠) وعدد الاناث (٤١٤٠١٠) يكون لكل (١١٢٠) [**] من النفوس مدرسة واحدة [***] »

اقتبسنا هذه المعلومات لنتمكن من اعطاء فكر اجمالى فى مدارس الولاية الحالية . وبما ان عدد نفوس لواء طرابلس (١٧٦٥٢٥) . وعدد مدارسها الحالية (٩٦) . يكون لكل (١٨٣٨) من النسمات مدرسة واحدة

اول ما يراجعه العلماء الباحثون عن التكامل الفكرى فى اى امة كانت . هو الاطلاع على عدد المدارس ثم على عدد السكان ثم النظر فى النسبة التى تقوم بين هذين المجموعين ليكونوا فى بحثهم على بصيرة , نعم ان الوطنية وحسن الخلق ومتانة العزم وغيرها من المزايا الاخلاقية والاجتماعية التى يناط بها الرقى البشرى لا تكون الا بنشر المعارف الحقيقية . ولا جرم ان درجة العلم تزيد وتنقص بنسبة عدد المدارس . وعليه نرى جميع الامم الراقية تتقصد تزييد هذه النسبة حين ترتيب ميزانية معارفها . ولا يقصدون من هذه المدارس الا ان تكون دوراً للتربية الاخلاقية والصحية تهذب ، اخلاق الامة وتبث فى نفوسها الافكار المتينة والضمائر الحية . ان المدرسة فى نظر الالمانى والانكليزى او السويسرى هى كناية عن مؤسسة تضم المعلمين الذين تخرجوا فى دور المعلمين واخذوا نصيبهم من التربية الفكرية والوطنية ، واختاروا مسلك التعليم براتب واف ، ثم ما جعل فى ادارتهم من البنايات المنتظمة التى جمعت كل شرائط التدريس ، وتالفت من الغرف الكافية . ولا ادرى هل يكون صحيحاً اطلاق اسم المدرسة على مؤسسات لا حظ لها من هذه الشرائط .

نحن معشر العثمانيين لم نزل نحمل معنى المدرسة على غير حقيقتها فى جميع انحاء بلادنا لا فى ولايتنا فقط ، ولا نزال نتوسع فى ميزانيتنا العمومية والخصوصية على غير جدوى ، وذلك بتاثير هذا التفسير الواهى . اول ما يلاحظه الاقوام حين وضع التخصيصات

(*) نتيجة تنقيض لها نفوس انصار النساء : اذ من هذه المدارس « ٣١٨ » للذكور و « ٤١ » فقط للاناث

(***) ان هذا الحساب غلط : يجب ان يكون « ٢٢٨٠ » لا « ١١٢٠ »

(**) جريدة ضبط المجلس العمومى سنة ١٣٣١ ص : ١٦ — ١٨

المدرسية فى الميزانيات العمومية هى البنايات التى تكون على اتم الشرائط الصحية وغيرها ثم المعلمون الذين جهزوا بالتربية الفكرية والوطنية . ومرنوا على التمسك فى الواجب ؛ اما نحن فلا نزال ناخذ بالنقيض . ولدينا ان تاسيس المدرسة الابتدائية ؛ يكون بوضع مائتين او ثلاثمائة غرشاً فى ميزانية الولاية لتكون راتباً لمعلم او معلمين . ما زلنا لا نقدر على تأسيس مؤسسة تربيوية تضم جميع لوازم التدريس ، وتكفل راحة المعلمين فى قرانا التى لا يعثر فيها على الراحة . ثم تضمن لنا حياة فتيان الوطن بالتعليم والتربية . فما بالنا نصدع فى المجالس العامة ، او بالاجدر امام الامة ونقول : كان عدد مدارسنا بالامس كذا ، واليوم زدناها كذا ؛ ونزعم بهذا التصريح اننا نركض وراء الرقى بخطى واسعة :

تجولنا فى الولاية من باير وبوجاق . . . الى جماعين ، فكم مدرسة رأينا يا ترى من اللاتى كملت فيها الشرائط المؤملة ؟ اولى بنا من ان نزيد فى عدد مدارسنا التربيوية الزيادات القشرية التى لا تجدى نفعاً ، ان نلغى بعضها ونعمد لما بقى منها فنعطيه حقه من الترتيب والانتظام بمعلميه ومبانيه ولوازم تدريسه . وهذا انسب التدابير التى تتطلبها حاجة الامة الى العلم والعرفان . ولا بأس ان يكون عدد المدارس قليلاً لمدة قصيرة ولان اتى الامر متأخراً خير من ان يكون صعباً .

٥ — الزراعة فى اللواء

[١] — **معلومات اجمالية** — ان سيف البحر فى لواء طرابلس صالح لزرع الحبوب بانواعها ، وغرس الاشجار المثمرة . لان ذلك الصقع يضم من الحرارة ما يبلغ «٣٩٨٠» درجة . وهذا المقدار يكفى لنمو الاشجار واقتدارها على حمل الثمر ، ويساعد ايضاً على انضاج الاثمار بعد دور الازهار . وتغرس هذه الاشجار فى اسياف البحر الابيض ابان اليبوسة اى ايام الربيع والصيف . وقد سمى بعض علماء النبات هذه الاصقاع بارض الزيتون . يمكن غرس شجر الزيتون فى لبنان فى الانحاء التى لا يزيد ارتفاعها عن «٤٨٠» متراً .

اما شجر التوت الذى تقطف اوراقه فى شهر مايس وحزيران ، يشترط فى غرسه وامكان الاستفادة منه ، ان لا تقل درجة الحرارة فى اقليمه عن ١٢٠٥ درجة فى ثلاثة شهور . اما الكروم فانها تحتاج الى حرارة كثيرة ولكنها لا تبالى بالبرد الشديد . ولذلك نرى اكثر من مائة كرم فى قرية «اهدن» اللبنانية التى لا يقل علوها عن (١٤٤٣) متراً . على ان هذه الانواع من المغروسات تصير لذيذة الاثمار فى الاقاليم التى يكون ربيعها يابساً وحاراً .

وقد توفرت جميع هذه الشروط فى القسم الشمالى من الولاية .

احسن ما يكون فى الاشجار المثمرة ان تغرس فى ارض كلسية *Calcaire* . لاسيما ذوات النوى من الاشجار فان ثمرها يكون فى هكذا اقاليم يابسة على الغاية من الجودة . وان معظم الاراضى السهلية والجبلية فى لوائى طرابلس واللاذقية هى من هذا النوع . واذا زرع شجر الزيتون فى الاراضى المنحدرة تكون حباته اوفر زيتاً واقبل. اما شجر السهول فيكون زيته قليلاً .

يختلف تأثير موقع الاراضى ، وما حوته من المواد العضوية والمعدنية على النبات باختلاف جنس ذلك النبات ، فشجر الليمون ينمو نمواً تاماً فى الاراضى المنحطة التى يمكن سقيها كما هى عليه سهول طرابلس . اما الكروم فانها اقل ارتباطاً بطبيعة التراب . ولهذا فان فرانسة اقامت فى كثير من اراضيها المتنوعة فى موادها كروماً على غاية فى الكمال .

اذا روعيت القواعد الفنية التى يقضى بها علم الزراعة فالنجاح محتم سواء كانت الارض طينية او كلسية . وان لمواقع الاشجار تأثيراً عظيماً على كمية المحصول . فاذا غرست اشجار الزيتون فى السفوح اليسرى من المرتفعات بحيث تكون قادرة على استنشاق ريح البحر كما هو الحال فى سورية ، لا بد ان نرى عظيم الفرق فى المحصول . ولو كانت جبال هذه الانحاء تقطع البلاد عرضاً لا طولاً ، اى لو كانت سفوحها تطل على الشمال والجنوب لا على البحر ، لا جرم تكون عرضة للريح الشمالى البارد والجنوبى الحار ، وحينئذ لا يتسنى لسورية ان تستحوذ على هذا الاستعداد الخاص باصقاع البحر الابيض ، وكنا نحرم من انفس اثمارنا العنب والزيتون والليمون .

[٢] — **الاحوال والمحصولات الزراعيه** — بما أن الاراضى فى مركز قضاء طرابلس خصبة منبتة، قسمت الى اقسام صغيرة ، وغرس فى اكثرها شجر الزيتون والليمون .اما معظم الاراضى فى النواحى المربوطة بالمركز فهى منقسمة الى مزارع تزرع اما من قبل اصحابها ، او بطريق الايجار واما بشركة المناصفة . وللشركة شكل آخر ، وهو ان صاحب الملك يدفع اراضيه للشريك ، وهذا عليه البذر والعمل ؛ ويكون لصاحب الملك من الوارد ثلثه او ربعه اما العشر فيكون من المجموع .

ولهذه الشركة شكل آخر ايضاً وهو ان صاحب الملك يضع البذر والآلات والحيوانات ويكون على المزارع العمل فقط ، ويأخذ ربع الوارد لقاء عمله وهذا الشكل معروف من القديم وهو الشايع فى هذه الانحاء .

تتراوح الاجرة اليومية التى يدفعها صاحب الملك لمن يستخدمهم فى الحصاد بين خمسة غروش وعشرة ، اما فى الايام العادية فاجرة العامل او الحارس ، او الراعى تكون مقطوعة وسنوية ، ومقدارها الوسطى ثمانية شنابل (١٨٠ اقه) من القمح وكيلان (١٤٥ اقه) من البرغل ، ويعطى لرئيس العمال والشحنة فى السنة (١٠—١٥) شنبلاً من القمح .

اما الاراضى التى تستعمل لزرع البقول فقد تثمر مرتين فى السنة بفضل الاعتناء والهمة التى تصرف عليها . اما السماد فانه يستعمل فى مشجر الليمون وبعضاً فى الزيتون ، اما الاراضى التى خصصت للزرع الخفيف فلا تسمد الا مرة فى كل ثلاثة سنين .

اما الآلات الحراثية التى تستعمل فى اللواء فهى على حالة بدائية جداً . ومع هذا فقد شرع ارباب الزراعة يستعملون الآن آلة الغربلة و آلة الحراثة ذات السكك العديدة واخذوا يدركون فائدتها . ولم يكن فى جميع اللواء قبل خمسة عشر عاماً ولا آلة واحدة للحصاد . وفى سنة ١٣٢٩ مالية ابتاع الاهالى اكثر من مائة واحدة منها .

ان زرع المحصولات الصيفية « الذرة الصفراء والبيضاء والسمسم» يكون فى شهر نيسان ومايس، وموسم المزروعات الشتوية يكون فى شهرى تشرين . اما الحصاد فى اللواء يكون فى اول مايس للشعير وفى اواخره للقمح والسمسم والذرة الصفراء تنضج فى اغستوس وايلول .

ان مستغلات اللواء السنوية هى على ما يأتى :

جنس المحصول	الاراضى المزروعة	الغلال
	دونم	كيله
القمح	٢٩٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠٠
الشعير	١٣٠٠٠٠	٩١٠٠٠٠
الذرة البيضاء	٩٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠
الذرة الصفراء	٤٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
الحمص	٢٥٠٠	١٥٠٠٠
الفول	١٩٠٠	١٥٢٠٠
السمسم	٣٠٠٠٠	٦٠٠٠٠
العدس	١٣٥٠٠	٣٧٥٠٠
الجلبان	٢٧٥٠٠	٥٣٥٠٠

جنس المحصول	الاراضى المزروعة	الغلال
	دونم	كيلوغرام
التنباك	؟	؟
الدخان « التبغ »	؟	؟
البطاطة	؟	؟
الكروم	١٢٧٩١	٢١٠٠٠٠٠ العنب
		١٠٨٠٠ العرق

ثم ما عدا هذه المحصولات يوجد فى اللواء (١٩٠٠٠٠) شجرة زيتون يعصر منها فى كل سنة (٩٥٠٠٠٠٠) اقة من الزيت ، و ٦٦٠٠٠ كيلوغرام من الشرانق القاء تربية ٢٢٠٠٠ علبة بذر .

٦ — الاحراج والمعادن

ان اهم الاحراج فى لواء طرابلس الشام هى احراج عكار وضنيه . تبتدأ هذه الاحراج التى تشغل قريباً من (٢٥٠) الف دونم من قرى (غابات وتحمت) وتمتد الى اواخر حدود الضنيه . وتوجد على السفوح التى لا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠٠ متراً . وان احراج قبائات عنعنت ، ارمون ، عرض الحريق ، روبر ، جورديرى ، وادى جهنم ، قاطع فريم ، ضنيه هى من فروع هذه السلسلة .

اما الاشجار التى توجد فى الازيال ، والسفوح القريبة من الأذيال فهى من نوع السنديان ، والصنوبر والعرعر وهى تصلح لاعمال الألواح والاخشاب القصيرة التى يمكن استعمالها فى الابنية البسيطة ، ثم يوجد فى الذرى وفوق مقاسم المياه من شجر الصنوبر ، والارز مايبلغ ارتفاعه عشرة امتار وقطره متراً ونصف ، وهى صالحة لان يستفاد منها فى جميع الصنايع . ويقطع من هذه الاحراج فى كل سنة مقدار «١٠٢٤٠» قنطاراً من الفحم و«٥٢٠٠» قنطار من الحطب . وقد يدخل ميناء طرابلس الشام على طريق البحر مقدار «٧٠٠٠» متر مكعب من اخشاب الاناطول والواحها فى كل سنة .

ولا اثر للمعادن الثمينة فى هذا اللواء ، وتوجد فى قضاء صافيتا وعكار مناجم الجبس ، والحجر الرملى . ويستعمل الطرابلسيون فى ابنيتهم هذه الاحجار ويعثر فى انحاء متعددة من هذا اللواء على المغرة الحمراء *Ocre rouge* والمغرة الصفراء *Ocre jaune*

— ٣ —

مركز قضاء طرابلس الشام

١ — الموقع والحدود

ان هذا القضاء قائم فى القسم الغربى الشمالى من اللواء وهو محاط بلواء اللاذقية من الشمال ، وبقضاء صافيتا وحصن الاكراد وعكار من الشرق ، وبلواء لبنان من الجنوب ، وبالبحر الابيض من الغرب .

ويوجد فى هذا القضاء ستة نواحى منها ناحية ارواد وحذور الحقت بهذا المركز فى الدور الحميدى ، ولكن لا يزال الاهلون غير مرتاحين لهذا الالحاق بسبب بعدهم عن هذا المركز وعدم توافق موقعهم الجغرافى تجاهه ، اذ ليس بالهين على احد الحذوريين ان يغادر ناحيته ويتكبد اشق الالم فى قطع المسافة التى لا تنقص عن اربع عشرة ساعة ، على ذلك الطريق الفاسد ، ويأتى الى طرابلس لامر مالى او حقوقى . ومن الامور المحتمة ان يلتفت الى هذه التقسيمات السقيمة الى لا نرى لواء فى الولاية يخلو منها .

٢ — المساحة والنفوس

ان مساحة هذا القضاء هى على التخمين الرسمى « ٦٢٠٠٠٠٠٠ » مربعاً بالذراع القديم . منها « ٥٠٠٠٠٠٠٠ » من الاراضى الاميرية و « ١٠٠٠٠٠٠٠ » من الاراضى المملوكة و « ٢٠٠٠٠٠٠ » من الاراضى الموقوفة . اما عدد نفوسه فقد كان سنة ١٣٣١ : « ٦٦٥٤٨ » من النسمات ذكوراً واناثاً . منها « ٣٥٤٧٠ » من الذكور و « ٣٢٠٧٨ » من الاناث وانقسام هذا العدد على النواحى هو على ما يأتى :

الاسماء	النفوس	عدد البيوت	عدد القرى
بلدة طرابلس	٢٤٠٣٦	٤٢١٤	.
ناحية الميناء	٨٥٣٠	١٦١٢	.
ناحية طرطوس	٥١٦٩	٨٦٩	١١
« ارواد	٤٠٥٣	٨١٠	.

« منيه	٣٦٩٣	١٤٦٧	٢
« ضنيه	٩٨٠٧	٦٨٢	٣٦
« حذور	٤٧٣٦	٣٤٦	٣٧
القرى العشرة	٦٥١٩	١٤٧٥	١٧
يكون	٦٦٥٤٨		١٠٥

وعدد المسلمين في هذا المجموع (٤٩٥٦٠) ، وفيه يسير من النصيريين . اما النصارى فهم الروميون في الدرجة الاولى من الكثرة لان عددهم ١١١٢٤ والمارونيون ٥٦٥٧ واللاتينيــون (٢٠) والكاثوليك (٤٦) والبروتستانت (٦٩) واليهــود (٧٢) نسمة .

وقد كانت تولدات القضاء سنة ١٣٣٢ مقدار ١١٥٨ ووفياته ٣١٢٨ نسمــة . وفي تلك السنة كانت الحمى النمشية «تيفوس» تفعل افاعيلها في ذلك القضاء ، وقد جرمت القرى والقصبات الامرين وباد فيها خلق كثير . وكانت الوفيات «٦٣٤» نسمة في سنة ١٣٢٧ و «٣١٨» نسمة سنة (١٣٢٩) . اما الولادات فكانت (١٢٠٢) سنة ١٣٢٧ و (٤٤٩) سنة ١٣٢٩ .

٣ — المعارف

يوجد في مركز قضاء طرابلس (٧٦) مدرسة . منها (٣١) على نفقة الحكومة . وما بقي من المدارس الخصوصية تتفقدها المحاسبة الخصوصية بيسير من المعونة النقدية . وهذا جدول يحتوي على مفردات تلك المدارس :

المدارس الموجود	الاجمال	يكون ذكور	يكون اناث	قصبة طرابلس ذكور	قصبة طرابلس اناث	ناحية الميناء ذكور	ناحية الميناء اناث	ناحية منيه ذكور	ناحية منيه اناث	ناحية ضنيه ذكور	ناحية ضنيه اناث	القرى العشرة ذكور	القرى العشرة اناث	ناحية طرسوس ذكور	ناحية طرسوس اناث	جريرة ارواد ذكور	جريرة ارواد اناث	ناحية حذور ذكور	ناحية حذور اناث
المدرسة السلطانية الداخلية الرسمية	١	١		١															
المدارس الاعدادية	١	١	١																
الاميركانية الداخلية	١	١	١																
دار المعلمين الخارجي الرسمى	٢	١	١		١													١	
المدارس الابتدائية الداخلية الخصوصية مارونية واميركانية	٢٩	٢١	٨	١٠	٥	٢	٢	٢		٢		٢		١	١	١		١	
المدارس الابتدائية الخارجية الرسمية	٥	٤	١	٢	١	٢													
المدارس الابتدائية الخارجية لغير المسلمين الخصوصية	٣٧	٣٢	٥	٣٠	٥	١								١					
مدارس الصبيان للمسلمين	٧٦	٦١	١٥	٤٥	١٢	٥	٢	٢		٢		٢		٢	١	١		٢	
يكون جدل الطلاب	٣٧٤٥	٢٧٤٠	١٠٠٥	٢١٢٠	٨٨٠	٢٥٠	٩٥	٣٠		٥٠		٨٠		٧٠	٣٠	٨٠		٦٠	

يتضح من هـذا الجدول ان مجموع الطلاب فى قضاء المركز هو (٣٧٤٥) منهم «٣٠٠٠» — ٢١٢٠ ذكور و٨٨٠ اناث — فى نفس طرابلس والباقى اى ٧٤٥ طالب فى النواحى .

لا ادرى هل يجوز ان نسمى هؤلاء الفتيان الوطنيين طلاباً . ان النتائج التى ما زلنا نحصل عليها من مساعى المعلمين المتخرجين فى مدارس دور المعلمين — مع قلتهم — هى غير متناسبة مع ما تتكبده الامة من المفاداة فى طريق تعليمهم وارشادهم . وليس اكثرهم بقادر على ادارة مدرسة ابتدائية . اما المعلمون المتخرجون فى المدارس الرشدية اوالمدارس الدينية فابقاؤهم فى تلك المؤسسات التربيوية حرام . لانهم بعيدون عن ادراك آمال الامة التى لم تزل فى اشد الحاجة الى العلم والرقى . لا زلت اقول ان المدارس الابتدائية لا تقوم بنفقة ثلاثمائة او خمسماية غرش . بل الواجب ان نعتنى باعداد المعلمين الاذكياء الذين لا يعرفون الكلل فى سعيهم من المتشربين حب الواجب . لم يمكنا الاطلاع على حقيقة مدرسة دار المعلمين فى طرابلس الشام بسبب العطلة الصيفية وقد استطلعنا عن حياتها التدريسية فالفيناها بعيدة عن الغاية الشريفة التى اسست لاجلها . وان فى مركز الولاية ولاسيما فى البيئة الطرابلسية اندفاعاً محسوساً لتزييد عدد المدارس فى طرابلس . على ان الاولى بهذه القوة ان تدأب لاصلاح المدارس الموجودة لا لتزييد عددها ، فان ذلك انفع للوطن .

٤ — المستغلات الزراعية

هذه مستغلات مركز القضاء فى لواء طرابلس نثبتها فى هذا الجدول

جنس المحصول	الاراضى المزروعة دونم	الغلال كيلة
القمح	٥٠،٠٠٠	٥٠٠٠،٠٠٠
الشعير	٢٠،٠٠٠	١٤٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	١٠،٠٠٠	٣٠،٠٠٠
الذرة الصفراء	٠٠	٠٠
الحمص	٠٠	٠٠
الفول	٥٠٠	٤،٠٠٠
السمسم	٣٠٠٠	٦٠٠٠
العدس	٠٠	٠٠
الجلبان	٤،٠٠٠	٨،٠٠٠
الزيتون	١٢،٥٠٠	١،٥٠٠،٠٠٠ كيلوغرام
الشرانق		١٥،٠٠٠
التبغ « الدخان »	؟	؟
التنباك	؟	؟

٥ — الاثار القديمة والمواقع المشهورة

[١] — **فى طرابلس والمينا** — من العبث ان نرتاد الآثار القديمة فى هـذه المينا ان المرفأ محفوظ من الجانب الشمالى الغربى بحاجز قديم للموج يمتد مسافة ميلين. وان الريح الشمالية اليوم توقع السفائن التى تحط فى هذا المرفأ فى اعظم الخطر . وهذا السبب كثيراً ما يجر السفائن الشراعية فيحطها على الرمال . وتوجد سلسلة صخرية قبالة المرفأ . واقربها صخر « بكار » الذى يمتد مقدار (٣٠٠) متراً . وقد كان فى ايام الفنيقيين حاجزاً طبيعياً يحفظ مرفأ « مشتا » الفنيقى من سورة الزوابع وهناك ثغرة خاصة للسفائن والقوارب تسمى (فايلون) .

وتوجد جزيرة « بيلام » بمسافة «٤٠٠» متر من بكار . ولا تزال آثار المخازن والمساكن القديمة مشاهدةً عليها الى الآن .

لا يوجد فى طرابلس من الاثار القديمة ما يستحق الذكر ، ما عدا القلاع العالية التى ذكرناها فى المبحث الخاص (*) . وهناك ستة حصون مبنية اعتباراً من قصبة المينا الى مصب نهر ابو على لم يبق الان الا انقاضها ويعثر فى بعض انحاء الساحل على اعمـدة من الصوان الاخضر ، يحتمل ان تكون مجلوبةً يومئذٍ من انحاء مصر. يوجد فى المينا من هذه البروج انقاض برج المشته وبرج المغاربه وبرج الشيخ عفان ، وعلى ثمانى دقايق منهم برج القناطير ، وعلى سبع دقايق برج السبع(**) الذى لا يزال محافظاً عليه . وفى الشمال اى عند مصب نهر ابو على يوجد برج رأس النهر . وهذا البرج يبعد عن طرابلس مسافة عشرين دقيقـة بطريق وادى ابو على . وقد بنيت هذه الحصون فى زمن المسلمين .

[٢] — **ناحية ارواد وآثارها** — ان جزيرة ارواد ، او بالتعبير القديم «آراد» التابعة الى قضاء المركز ، هى فى الجهة الشمالية على بعد خمسين كيلومتراً عن طرابلس ، وثلاثـة

(*) راجع ص: ١٥٥ — ١٥٦

(**) كان يوجد فى مدخل هذا الحصن اسدان امكن الاحتفاظ عليهما الى بداية القرن الحالى ، ولهذا سمى هذا البرج ببرج السبع .

كيلومترات عن طرطوس . والارواديون الذين هم من اعظم القبائل الفنيقية كانوا من رقباء صيدا وقد ظهروا عليها وتمكنوا من الاستحواذ على السواحل السورية الشمالية ، واسسوا بين طرطوس الحالية وأمريت القديمة مستعمرات بالتوس *Paltus* وبالانه آ *Balanea* وقارن *Carne* وايندرا *Endra* وامريت *Amrit* . وقد كان منهم ان اتفقوا مع القبائل القاطنة فى الانحاء الشمالية من سورية ، وتحاربوا مع طوطميس الثالث ورعمسيس الثانى والثالث من فراعنة الاسرة الثامنة عشر . ولما تحارب الاشوريون والمصريون حربهم الطويلة كان هؤلاء تارةً يطيعون الغالب ويظاهرونه واخرى يخرجون عليه ويعصونه .

ولما استولى الايرانيون والاسكندر الكبير على البلاد السورية كان الارواديون يتمتعون بما منحوا به من الادارة الشبيهة بالاستقلال . وقد ظلت التجارة البحرية فى القسم الشمالى من سورية مدة وافرة فى ايديهم . ولكن ورود الرومانيين صد الارواديين واخرهم لاسيما سكان انتارادوس او آنتى آرادوس « طرطوس الحالية » التى اسستها جالية الارواديين ما لبثوا ان زاحموا اوطانهم الاصلية فى التجارة ، واحرزوا فيها قصب السبق عليهم .

ان جزيرة ارواد التى طولها ٨٠٠ متراً وعرضها « ٥٠٠ » فيها اليوم « ٨١٠ » بيوت و٤٠٥٣ نسمة . والقصبة التى اسست فى الجهة الجنوبية منها كانت مسورةً بجدار عريض ليس فيه الا ثغرة واحدة من الجانب الشرقى توخى فيها ان تكون بمثابة المينا لهذه القصبة ولا يزال قسم من هذا السد موجود فى الناحية الشرقية على ارتفاع ٩—١٢ متراً وهناك مخازن محفورة فى الصخور ، وايضاً انقاض القلعة التى شيدها العرب فى ارفع محل من الجزيرة وما عدا هؤلاء توجد مخازن للماء لم تزل محافظة على كيانها الى الآن . وايضاً توجد فى الجهة الجنوبية منها بنايات تحت الارض معلقة على جدرانها الكتابات .

ومن لغرائب الطبيعية انه توجد بين قصبة المينا وقرية طامون الكائنة فى الجهة الجنوبية بمسافة ساعة ونصف ينابيع الماء العذب تفور فى عباب البحر على بعد ٥٠—٦٠ متراً من الساحل . وايضاً يوجد هكذا ينبوع بين طرطوس وجزيرة ارواد على عمق ثمانية امتار من سطح البحر . وكان الارواديون يستقون ابان حروبهم من هذا الينبوع بواسطة انابيب من جلد يمدونها الى جزيرتهم . ولا يستكبر هذا الحال لان الماء يأتى من هضبة على الساحل يبلغ ارتفاعها (٢٥) متراً . وان قانون الموازنة فى الاجسام السيالة يقضى بترفع هذا الماء الى ان يبلغ سطح البحر .

ان مهنة الارواديين الذين معظم عددهم من المسلمين ، هى الملاحة واستخراج الاسفنج من البحر .

[٣] — **ناحية طرطوس . وآثارها القديمة** — يحد هذه الناحية من الشمال نهر الحصين وناحية خوابى ، ومن الشرق والجنوب قضاء صافيتا ويفصلها عن هذا القضاء نهر غمقه . وطولها اربع ساعات من نهر الحصين الى قرية عين الزرقه التابعة الى قضاء صافيتا وعرضها ساعة واحدة . اما مساحتها فتقرب من (١٦) كيلومتراً مربعاً .

ويوجد فى هذه الناحية التى غربيها الشمالى عبارة عن سهول ، وجنوبيها من الاراضى الرملية ، انهار حصين وغمقه وقبله . وجبال الشيخ سعد والدوير والخريبات فى الجهة الشرقية منها . وينبع نهر الحصين من ناحية خوابى الكائنة فى الجانب الجنوب الشرقى من قضاء مرقب ، ثم يقطع مسافة ثمانى ساعات حيث يصب فى البحر شمال طرطوس بساعة. اما جدول الغمقة الذى يصب فى البحر على نصف ساعة من العقبة فهو ليس بدائم الجريان . وطوله يبلغ خمس ساعات وينبع من جنوب قصبة برج صافيتا . ثم جدول القبلة فقد ينبع بمسافة ثلاثة ارباع الساعة من الساحل ويسقى زهاء «٢٠٠٠» دونم من الاراضى ويصب فى البحر عند خرابة امريت . وان هضاب الخريبات التى هى اهم مرتفعات هناك يبلغ ارتفاعها «١٥٠٠» متراً .

ان الناحية تتألف من «٦٥٫٠٠٠» دونم . ولا يستفاد الا من «٤٠٫٠٠٠» دونم وما بقى منها فهى اما اراضى رملية ، او اراضى موات . مع ان مؤرخى الصليبيين يذكرون ان انحاء طرطوس كانت محشوةً بالاحراج الكثيفة .

ها نحن نبين المحصولات العمومية السنوية لتلك الناحية

جدول سنة ١٣٣١

جنس المحصول	كيلوغرام
القمح	٥٠٠٠٠٠٠
الشعير	١٥٠٠٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠٫٠٠٠
الفول	٣٫٠٠٠
الحمص	٣٫٠٠٠
الترمس	١٫٤٠٠

وتخمن الاراضى المغروسة باشجار الزيتون والتين فيها بمقدار ٢٥٫٠٠٠ دونم . وغرس فيها قبل الحرب ثلاثة بساتين من الليمون ، ويستغل الآن من كل واحد منها «٥٠٠ — ٦٠٠» ليرة فى السنة .

ان ناحية طرطوس هى فى الجانب الشمالى بمسافة خمسين كيلومتراً من مركز اللواء ،

وتتألف من مركزها الكائن على الشاطئ والمسمى باسمها ومن اربع قرى وست مزارع. ومجموع نفوسها ذكوراً واناثا (٥١٦٩) نسمة منهم «٣٨١٦» مسلمون و(٨٠٨) من الروم الاورتودكس و(٥٢٧) من المارونيين و(١٨) من البروتستانت. وبناءً على الفقر المدقع السائد فى هذه الناحية، ما فتئ سكانها يهاجرون الى اميركا منذ خمسة عشر عاماً. فذهب اولاً المسيحيون، ثم المسلمون والنصيريون. وقد بلغ عدد المهاجرين الى الآن، زهاء «٣٠٠٠» نسمةً. ويرسل هؤلاء الى عائلاتهم فى كل سنة مقدار (٥٠٠٠) ليرة.

ان قصبة طرطوس، مركز الناحية هى من آثار الفنيقيين، اسسها جالية الجزيرة المذكورة تجاه الجزيرة ولهذا سميت باليونانية (انتارادوس) اى قبالة ارواد وكلمة طرطوس محرفة منها.

ولما حل الرومانيون فى سورية اخذت هذه القصبة تسرع فى الرقى وزاحمت جزيرة ارواد. ثم ان قسطنطين ايمپراطور الروم شيد جميع ابنيتها سنة «٣٤٦» ميلادية ولهذا سميت قسطنطينا برهة من الزمن. وقد حصلت هذه القصبة التى ردت الى اسم *Tortos* فى القرون الوسطى على موقع خطير والحقت بمقاطعة «قونتية» طرابلس. وفى سنة ١١٨٣ شيدها فرسان تامپليه وجعلوها فى الدرجة الاولى من التحصين. وفى سنة ١١٨٨ اضطر الفرسان «شواليه» لان يسلموا قسماً من قلعتها الى صلاح الدين الايوبى، بعد ان دافعوا عنها جهد الطاقة. ولم يلبثوا ان استردوها بعد وفاة ذلك البطل المجاهد ودامت سلطتهم فيها الى سنة ١٢٩١.

وفى هذه السنة قهر صلاح الدين خليل من الملوك البحرية فرسان طرطوس وغلبهم واستولى على هذه القصبة وجميع مشتملاتها وسلمها الى المسلمين، واضطر سكانها الى مبارحتها والانجلاء الى جزيرة قبرص. وهذا كان آخر حصن اضطر فرسان تامپليه الى تسليمه للمسلمين فى المحاربات الصليبية

تتألف هذه القصبة من الحصن، وسوره الذى شق خندقه فى الصخر. وان معظم هذا السور الذى كان على شكل رباعى غير منتظم مجهز بالبروج قد قضى عليه كر الادوار بالخراب ولم يبق منه الا الباب فى الجهة الشمالية. ويوجد فى داخل السور كثير من البساتين ودير طرطوس ايضاً «هو الان جامع». وهذا المعبد الذى هو اجمل نموذج لطرز البناء فى القرن الثانى عشر يمتد من الشرق الى الغرب على طول اربعين متراً، وعرضه (٢٧) متراً. وبابه الظريف الذى فتح فى الجانب الغربى هو على الطراز القوطى وفوقه ثلاث منافذ، وتوجد فى جبهته دائرتان صغيرتان فيهما محراب. وداخل هذا المعبد عبارة عن مدخل يتخلله عمد متوجة تزدان جناحاها بالاوراق. ويزعم ان بانى هذا المعبد هو «سن بيير» ولذلك كان حجاج النصارى يخفون اليه من كل الجهات.

اما الحصن الكائن فى الجانب الشمالى الغربى من القصبة القديمة فهو ينفصل عنها بخندق واسع، وعليه كان لا يمكن المرور اليه الا على جسر نصب فوق هذا الخندق. يدخل اولاً من البرج الكبير الى دهليز ذى قبة؛ ومنه يوصل الى سور القلعة. ثم يقطع السور الثانى من خندق مملوء الآن بالتراب الى ثغرة قائمة مكان الباب القديم، ومنها يدخل الى صحن القلعة ويوجد على يسار الباب بهو فسيح. وهذا البهو الذى هو اجمل وافسح من جميع البنايات التى بناها الصليبيون على هذا الطراز لم يبق منه الآن الا قسم يسير. وطوله ٤٤ متراً وعرضه «١٥» مترا.

وتوجد فى الجهة الجنوبية الشرقية كنيسة. وفى منتصف صحنها باب. وكان يوجد فى موقع القصبة اليوم بيوت خاصة للفرسان. ويروى ابن الاثير ان برج القلعة المشاهد فى الجانب الغربى كان مجهزاً بمعاقل مربعة الشكل منها كان الفرسان يدافعون عن القلعة فى قيادة رؤسائهم لما هاجمتهم جنود صلاح الدين الايوبى. وقد كان يدخل الى المخازن الفارغة التى لا تزال اليوم موجودة من باب مطل على البحر، ومنه كانت تدخل الذخائر التى تقلها اليهم السفائن.

[٤] — **خرائب امريت** — ان هذه الخرائب موجودة فى الناحية الجنوبية من طرطوس على مسافة خمسين دقيقة. وتسمى عند الافرنج «ماراتوس *Marthus*» ولربما تكون هذه الكلمة مقابل امريت فى اللاتينية.

ان هذه البلدة التى اسسها الارواديون كانت غنيةً ومعمورةً جداً اثناء تسلط الاسكندر الكبير على هذه البلاد. وفى سنة ٢١٩ الميلادية قطع اهلوها العلائق السياسية مع الاروادبين. وقد نشبت بينهم حرب قبل هذا التاريخ فى سنة ١٤٨ والقت بينهم العداوة والضغائن. ثم ان هذه القصبة فقدت قيمتها فى زمن الرومانيين.

ان هذه الخرائب توجد الآن على ضفاف جدولى (امريت وقبله) وكانت قصبتها مبنية على هضبة صخرية، ثم اخذت تتسع حتى امتدت الى السهل. واول خربة من هذه الخرائب تسمى المعبد وهى فى الشمال على مسافة كيلومتر واحد من مصب امريت. وهذه البناية عبارت عن صحن منحوت فى الصخر طوله ٥٥ متراً وعرضه ٤٨ وجداره فى الجهة الجنوبية لا يزال قائماً على ارتفاع خمسة امتار ويظن ان الجهة المطلة على الجانب الشمالى كانت محاطةً بجدار فيه بضعة ابواب. وتوجد فى منتصف الصحن صخرة مربعة يبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار، شقت من الشمال بشق يحاذى الوادى، وضربت عليها قبة. وترى آثار السلم فى جانبيها. يقول آرنست رونان فى بحثه عن هذه الخربة [هذه هى اقدم معابد الساميين. ولا يمكن العثور على بنيان غيرها يشف عن التقاليد الدينية لدى اولئك

الاقوام. وهـذا المعبد يمثل بصورته « تابوت العهـد» الذى يحفـظ العبرانيون فيه مقدساتهم] .

وفى الجانب الشمال الشرقى عن هذا المعبد ، على ضفاف جدول امريت توجد خربة تعرف عند الاهلين باسم « المقلعة » محاطة من اربعة اطرافها بسلالم يتالف كل منهـا من عشرة درجات يبلغ ارتفاع الدرجة «٦٠» سانتيمتراً . وجانبها الغربى عبـارة عن صحن على شكل نصف دائرة يبلغ اتساعه «١٢٥» متراً . ثم على غلوة منها صخرة فوقها كثير من الاجداث والدهاليز . ويوجد فى الجهة الغربية ثلاث فسحات تشاهد عليهـا آثار بنايات كثيرة .

والاجـداث الموجودة قريباً من منبع « عين الحيـاة » المعروفة عند الاهلين باسم « المغازيل » يوجد فى الناحية الشمالية منها جدث عبارة عن هرم مخمس قائم على اسطوانة من حجر واحد وتحتها قاعدة مدورة . ثم على ستة امتار منه جدث آخر وهو عبارة عن اسطوانة يبلغ ارتفاعها مترين ، قائمة على قاعدة تتألف من اربع احجار منقوش عليها صور اربعة اسود تدل على عدم مهارة الناقش . ثم فى جانبها اسطوانة اخرى على هذه الوتيرة . ولكنها على غاية من البساطة . ثم تحتها مغارة لدفن الاموات مسدود بابهـا بصخرة كبيرة منتظمة النحت .

وترى فى الجانب الشمالى من هذه الخربة الصغيرة بين الاحجار دار كبيرة طول جبهتها الغربية (٣٠) متراً وارتفاع جدرانها ستة امتار وعرضهم (٨٠) سانتيمتراً . وكان داخلها منقسماً الى ثلاثة اقسام . وقد اقيم فى ناحيتها الشمالية حائط بنى من الاحجـار المنحوتة .

— ٤ —

طرابلس الشام

١ — منظر طرابلس ، وضواحيها

ان طرابلس هى ابهى بلدة فى ساحل سورية ...

لم تهمل يد الطبيعة الكريمة طرابلس حينما قسمت المحاسن بـين البلدان ، بل جادت عليها بقبضة من ابدع الالوان .. فالحمرة والبياض ، والخضرة ، والزرقة ، ... وغيرهـا من الالوان اوجدت فى هذه البقعة ساحات تمور فيها امواج البدايع ، وتسود عليهـا القدسية .

ولهذا يمكننا ان نقول: ان طراباس معرض فخم للبدايع والمحاسن. وللاحجار الكريمة التى تجذب معجب الانظار ترصيع لطيف ، فى تلك الارض الزاهرة ، وتنسيق باهر .

اقترن فيها الياقوت والمرجان ، والزمرد والزبرجد اقتراناً سعيدا ، فكان ذلك المنظر البهيج الذى هامت ببهجته الانظار . وما اصدق الشاعر السورى [*] الذى اسكره رحيق هذا الانجذاب ، حيث قال مترنماً بالوان طرابلس :

فالبحر والمرج الشهير ورملها
فيروزج وزبرجد ، مرجان

وهذا الفيض اللونى المشهور فى طرابلس ما زال منذ القدم يحرك اوتار الشعراء بوصفه وقد قال ابن مامية الرومى:

باربعة سادت وساد مقامهـا
على سائر الامصار فى البحر والبر
بابيض ثلج واحمرار كثيبها
وخضرة مرج قد جلا زرقة البحر ...

نعم ان طرابلس، كما قال مؤلف « تاريخ سورية» الفاضل [**] بيوتها المطلية سطوحها وجدرانها بالكلس ، هى كالحمامة البيضاء المرفرفة على نهر « قاديشا » القديم الذى يخترق تلك الديار من الشرق الجنوبى ، الى الشمال الغربى

ان هذا النهر الذى يسمى الآن بنهر ابو على ، ينبع من الجبال الجنوبية ثم يدخل بلدة طرابلس فيخترقها حيث يكون ربعها عن يمينه وثلاثة ارباعها عن شماله . وبعـد ان يتلوى بين بساتين الليمون مقدار نصف ساعة ، يسير الى الجانب الشمال الغربى من طرابلس وينغمس فى زرقة البحر .

اما الناحية الجنوبية والشرقية من البلدة فهما بشكل هضبتين ويمر النهر ماساً بحفافهما فاذا اضربنا عن هذه البيوت التى يعلو بعضها بعضاً ، تكون البلدة عبارة عن شكل (قطع ناقص) يمتد من الشمال الى الجنوب فى ساحة مستوية . فاذا فكرنا فى اشجار الزيتون الخضراء التى اشغلت فسحة عظيمة على امتـداد طرفى قطر هذا الشكل الهندسى العظيم ، وتلك البقعة الخضراء المكونة من اشجار الليمون وغيرهـا التى احاطت بالبلدة من الجانب الغربى ، والشمال الغربى فى ساحة لا تقل مساحتها عن كيلومترين او ثلاثة تنتهى على رووس الامواج البيضاء من البحر الابيض، نعلم بداهة ان طرابلس ممنطقة بهالة من الرياض الخضراء

(*) عبد الغنى النابلسى .
(**) تاريخ سورية — جرجى ينى

لاسيما وقد قام فى جانب هاتيك الساحة الزبرجدية او الاكليل الزمردى لمحيا طرابلس الالماسى ، بحر يتغلغل فى البعد الى ما وراء مرامى البصر ، فكان كهالة من فيروزج لذلك التاج البهيج يزيده نوراً على نور .

وقصارى القول ان ضواحى طرابلس هى البقعة التى فاضت بالبدايع الحية ، ثم ان الرمال الصفراء والحمراء التى غشيت هذه البلدة الفريدة من الجانب الشرقى والجنوبى لا يزال تلمع فيها ذكرى الكهرباء والياقوت . ولا بد للابصار ان تقمر حينما تبزغ الشمس من اعالى جبال « البعل » ، وتزج بنورها الفضى على تلك البلدة البهيجة . وما الطف مساء طرابلس ايضا . ما اجمل ما يراه الناظر الذى يتصفح تلك الانحاء من سنام الهضبة الشرقية او الجنوبية يرى عيناً من نور معلقة باهداب الزرقة الملتهبة فى الافق الاقصى، يندلق منها سيال ذهبى ينساب على اطلسة البحر ، وتتلاشى خيوطه النورية عليها. ثم يجعل « مينا » طرابلس القائمة فى حجر البحر كانها صيغت من مينا غريقة فى لج من نور ، ثم يجوس خلال هاتيك الرمال المرجانية ، ويتخطاها الى الرياض الزمردية ثم يندفق على البلدة حيث ينغمس بالماسها الساطع ، فيتموج بنوره الفضفاض والوانه الجوالة برهة وينتشر فى تلك الافاق الزاهرة من طرابلس العطرة ، وينقلب الى رقدة قدسية . فترقد طرابلس تحت ظلال ذلك اللحاف المفروش فى قبة السماء فوق تلك الساحة الفردوسية المرصع بلآلئ لماعة: هنالك تتعطر جميع هاتيك الانحاء بما تبعثه تلك المبخرة الصمدانية من النكهة المسكرة الى ان تودع الديجور مترقبة انفجار بركان النور من فوق هضاب « بعل » السامية .

يا للعجب ما اجمل طرابلس ، وما الطفها !! ان كانت سورية فى ديوان جمال الكون ابدع قصيدة ، فلا جرم ان طرابلس هى بيت القصيد لتلك المنظومة الجمالية . لم يخطئ الذين يعتقدون بوحدة الحسن على اختلاف انواعه ؛ وعلى هذا المذهب ، ان طرابلس هى ابلغ نموزج للجمال .

لا بلدة فى سورية تستطيع ان تفاخر بمناظرها الوافرة كطرابلس، ولا تكون غنية مثلها اما دمشق فوا اسفاه ليس لديها بحر . وبيروت ايضاً التى هى ملكة سواحل سورية لم تكن غنية بالبدايع بهذه النسبة .

اما الامصار الاخرى السورية ، فلا ارى ان ابحث عنها . وعلى كل حال ان طرابلس بهضابها الخضراء ، ورمالها الحمراء ، وبنهرها المقدس (*) الذى هو كحنية من سيال الجوهر وبابنيتها الدرية ، وبخضرتها التى لا تتناهى ، ثم بحرها الذى كأنه من مذاب الفيروزج ، وبلياليها الفضية ، وبلآلئ نجومها المبتسمة فى كبد سمائها ، وبمحاسنها المتنوعة هى اجمل بلدة فى سورية . وعليه فليقصر سكانها عابدى التواضع عن تسمية ذلك المشهر الجمالى بدمشق الصغرى .

(*) ان نهر قاديشا معناه « النهر المقدس »

حتى ان الفنيقيين ارادوا ان يقيموا فى هذه الساحة الزاهرة نموذجاً للبلدان ، فمزجوا اذواق الصوريين والصيداويين والارواديين واوجدوا هذه البلدة الكاملة المؤلفة من ثلاثة بلاد. وايضاً ان اليونانيين يعتبرون هذه البلدة التى يسمونها « تريبوليس *Tripolis* » معادلة لبضعة بلاد . وعليه يحق للطرابلسيين ان يفاخروا ببلدتهم التى جلت عن المثيل بين البلاد .

٢ — الخطوط الداخلية فى طرابلس

[١] — **سعة القصبة وبنيانها** — كانت الساحة التى اشغلتها طرابلس فى زمن الفنيقيين عظيمة جداً . وكانت البلاد الثلاث المجتمعة التى اسسها الصوريون ، والصيداويون ، والارواديون تفترق عن بعضها بفراغ يسمونه مرحلة (ستاد) يمتد مسافة فرسخ . وحدود هذه البلاد كانت تبتدأ فى الشرق من موقع مقبرة الروم الارتودوكس القريبة من البلدة الآن فى حدود الجبل وتمتد فى الغرب حتى شاطئ البحر وتشمل مساحة بضعة كيلومترات . فاول هذه البلاد الثلاثة كانت على شاطئ البحر فى موقع « المينا » الحالية التى تبعد عن طرابلس مسافة نصف ساعة ، والثانية كانت فى محل السلفتانية ، وهو محل مقبرة الروم الاورتودوكس اليوم ، والثالثة كانت فى موقع « البحصاص» وهو فى الجنوب الغربى من طرابلس .

اما قصبة طرابلس اليوم فهى تشغل السهل الكائن فى حفاف هضبة « جبل ابو سمره » وهى كما بينا اثناء البحث عن ضواحيها مطوقة باشجار الزيتون والليمون . وتكاد تكون على شكل « قطع ناقص » . وطولها من الشمال الى الجنوب يقرب من كيلومترين وعرضها من الشرق الى الغرب يزيد عن كيلومتر . اما ناحية قصبة المينا المربوطة بطرابلس والكائنة على شاطئ البحر ، فى نهاية البساتين التى تشغل بضعة كيلومترات هى فرضة البلدة ، وبمثابة فضالة لها . واذ ان خط الترام الذى يسير بين طرابلس والمينا يقطع تلك المسافة بظرف عشرين دقيقة اصبحت هذه الناحية من مشتملات تلك البلدة . لاسيما وان العمران على طريق الترام لا يزال يمتد فى طرابلس من الشرق الى الغرب ، وفى المينا من الغرب الى الشرق ، ولهذا السبب لا تلبث طرابلس ان تصل الى الشاطئ ، وتمتزج بميناها فى القريب العاجل .

ولنذكر انه لا يعثر الآن على شئ من آثار البلاد الثلاثة القديمة الا على بقايا من مجارى المياه التى لا تزال تشاهد فى خارج البلدة . اما البروج الموجودة على شاطئ البحر اعتباراً من مصب نهر ابو على الى داخل المينا وهى بروج « رأس النهر ، والاربعين ، السباع ،

المغاربه والمشتى ، الشيخ » هم من الآثار التاريخية التى كانت بعد الفنيقيين . واننا نتكلم عنهم حين البحث عن احوال القصبة التاريخية .

يتضح لنا من الابحاث المتقدمة ان طرابلس والمينا لا يفترقان ، ولذلك فان الاراء التى سنبديها على خطوط طرابلس الداخلية ، ولاسيما على بنيانها فهى تتناول عين الاحوال فى المينا .

لا يصعب علينا ان نقسم البنيان فى طرابلس والمينا الى قسمين ، ونفرق بين الذوق القديم فى الانشاء ، وبين الحديث منه . ففى القسم الاول يغلب فى الابنية تقليد طراز الشام وطراز بنيانها ، والثانى يغلب فيه الطراز البيروتى .

ولنفصح عن هذه النقطة : من المعلوم ان بيوت الشام قائمة على ضفاف (بردى) وتوابعه من الانهار ، ولهذا كان من السهل ادخال المياه الى اكثر المساكن . وكثرة المياه هناك حدت بالشاميين لاعداد الرياض الصغيرة والسواقى والاحواض فى البيوت ، وكثرة الاحجار هناك مكنتهم من اتخاذ الصحون فى دورهم ، وتبليطها بالرخام او الاحجار ، واعداد الاحواض فيها . ويبنون اكثر اقسام تلك البيوت فى الطابق الارضى ليتسنى لهم التمتع بالمياه ومناظرها ، يتفننون فى ذلك فيشيدون الابهاء ، وفى منتصفها الاحواض والفوارات الرخامية .

والطرابلسيون ايضا اقبلوا على الاستفادة من مياه نهر ابو على ، واخذوا يقلدون الشاميين حذو القذة بالقذة ، ونراهم يفخرون بتسمية بلدتهم بالشام الصغرى . ولهذا السبب فان جميع البيوت القديمة فى طرابلس مبنية على هذا الطراز .

اما اليوم فنرى الطرابلسيين يحذون حذو بيروت فى البنيان ، ويشيدون بيوتهم على الطراز الحديث اى مسقوفة الدار ، ويمكن تفريق هذين الشكلين من الابنية بنظرة بسيطة فالطراز القديم منهاله سطوح مستوية مطلية ومرشوشة بالكلس الابيض ، اما بيوت الطراز الحديث فهى مستورة بسطوح محدبة من القرميد الاحمر : وان اكثر بيوت طرابلس مبنية بحجارة سمراء تضرب بلونها الى الصفره ويؤتى بتلك الاحجار من المقالع الكائنة على الساحل قريبا من المينا . وقد اخذ الطرابلسيون منذ خمس عشرة سنة يطلون جدار البيوت بالملاط الابيض « سمينتو » لكى لا تنفذ الرطوبة من خلال الاحجار ويخددونها بخطوط شطرنجية ، ثم تركز على اعاليها اشارة النجم والهلال .

وقصارى القول ان بيوت طرابلس يغلب فيها الطراز البيروتى تارة ، والطراز الشامى اخرى ، او يمتزج هذان الطرازان فى بعضهما ، وكلها تبنى بالحجارة ، ولا يصنع من الخشب الا سقوفها ونوافذها وغيرها من فروع البناء . وبعض البيوت من الطراز القديم ، واكثرها من الطراز الحديث تكون على طابقين .

وان ثلثى البيوت فى طرابلس التى يبلغ عددها عشرة لاف بيتاً هما من الطرازالقديم وثلثها من الطراز الحديث . فالقسم الذى يبدأ من يسار نهر ابو على ويمتد الى الجانب الغربى من البلدة المسمى بالتل ، او طرابلس القديمة . هى عين دمشق القديمة . والبيوت فى هذا القسم وان وجد فى بعضها رياض صغيرة ، وبينها دروب ضيقة ولكنها متصلة ببعضها ومستورة بالجدران الطويلة المجتمعة . وان هذه الدروب فى القصبة هى على درجة من الضيق تذكرنا بالقرون الوسطى ، وعقدت فوقها الخنايا والقباب الراطبة المطحلبة [*] فزادتها ضيقاً على ضيق .

ثم ان الرطوبة التى احدثها رشح المياه من المجارى المارة فى اسفل الجدران ، والعفونة القذرة التى تنبعث من مجارى المراحيض تحت الطرق جعلت ممر هاتيك البيوت لا يسلك . وداخل تلك البيوت ايضاً هو على آخر ما يكون من الرطوبة وعدم تجدد الهواء . ومهما ادعى بعض مدافعى طرابلس بان بيوتهم الوسخة ، التى يظنها الانسان مهيأة للسقوط على رأسه ، هى نظيفة نقية من الداخل . فعندى لها الرأى الذى لا يتزلزل . وهو انها لمن الشوائب المدنية والصحية فى طرابلس . وعليه يجب ان تختم حياتها ، ولا يجعل لها نصيب بعمر اكثر من هذا .

اما البيوت من الذوق الحديث فهى تشاهد فى موقع « القبة » العالى المتصل بالمحلات الكائنة على يمين ساحل نهر ابو على ، ثم فى انحاء « التل » من غربى البلدة .

ان موقع « القبة » فى طرابلس يطل على منظر متناه فى اللطافة والحسن ، يستقبل الهواء الطلق الذى يهب من الغرب ولهذا كان ارغب المحلات فى نظر الطرابلسيين ، واذا نظرنا الى البيوت التى شيدت فى اعالى هذا الموقع ورأينا تباعدها عن بعضها بصورة تفسح الى الهواء ان يسترسل فيها ، ثم الى ابنيتها حيث تطل على جميع البدائع الطبيعية فى طرابلس . يسهل علينا ان نطلع على درجة رجحان تلك المساكن وتفوقها .

ثم ان نظارة موقع القبة من جهة البلدة لطيف ايضا . اذ يرى الناظر البيوت البيضاء تتدرج بالترفع بعضها فوق بعض بصورة تكون جبلاً من العمران ، ثم ان القسم الآخر من الابنية الحديثة هو فى الساحة التى عرفت باسم « التل » . وكان هذا الموقع من قبل ، عبارة عن سهل رملى . اما الآن فقد شيدت فيه كل البنايات الفخمة التى تفتخر بها طرابلس ثم ان دار الحكومة ، وبرج الساعة ، وروضة البلدة ودار البريد والقنصليات والمصارف والفنادق ، ومركز الترام ، واغنى المخازن كلها حشدت فى تلك الناحية ، ولهذا اصبح موقع التل له الوقع العظيم فى تلك البلدة . بما فيه من الشوارع الواسعة والمبانى الرصينة

[*] الطحلب خضرة تعلو الماء المزمن .م

ومازال يتدرج في الرقى . ويمكن ان نقول ان طرابلس الجديدة عبارة عن هذا الموقع . ولا يفتأ الطرابلسيون يترنمون بامتداح ما كان من حسن هذا الموقع قبل نشوب الحرب العامة يزعمون انه كان يلتطم نهاراً بازدحام هائل من الناس والمركبات حتى لقد يعسر المرور منه . وان المركبات كانت تضطر كثيراً الى التوقف في الطريق الموصلة الى الميناء حتى تتمكن من المرور . اما في الليل فكان ينار فيه اكثر من ستين مصباحاً تجعله غريقاً في لجة من نور . ولا يمكن تصوير تلك الضجات وجلبة الطرب والسرور من الناس الذين حشدوا في تلك المسارح ومحلات اللهو المتعددة .

نعم لم تزل تبنى على حفافي شارع الترام الابنية المنتظمة ، التي تناهت في الظرافة والمتانة فاذا ثوبر على هذا الاعمار ، وكثر عدد تلك المباني ، تترشح طرابلس ان تكون اول بلدة في سورية بخطوطها الداخلية ايضاً كما كانت في مناظرها الخارجية .

ومع ذلك فان طرابلس بجوامعها العظيمة ، وكنائسها الكبيرة تشعر بانها بلدة «شرقية» ويوجد في طرابلس مقدار اربع عشرة جامع منبثة في انحاء البلدة بمنارات ظريفة ناصعة ، رفيعة الذرى ، وقباب بيضاء . منها «الجامع الكبير المنصوري ، التوبه ، العطار ، الطحام ، ارغونشاه ، المعلق ، طيلان ، عبد الواحد المغربي ، الاويسية ، البرطاس ، محمود بك السنجق التقاص — الحميدى»

ثم اذا علمنا انه يوجد فيها ما عدا هؤلاء الجوامع مقدار عشرين مسجداً ، ومدارس قريبة من هذا العدد ، واربع تكايا ومولوية (درويشية) . نعلم ان طرابلس بلدة اسلامية دون شك . ولكن يا للاسف ان اكثر هذه الآثار الاسلامية مهملة لا يعبأ بها ، مشرفة على الخراب لدرجة توجب العار والخجل . ثم ان الملة النصرانية اوجدت هناك كثيراً من المعابد الخطيرة . مثل كنيسة «ملاك ميخائيل ، السيدة العذرا» للمارونيين ، و«جاورجيوس» للروم الكاثوليك و«مار جرجس ، مار نيقولا ، مار ميخائيل» للروم الاورتودوكس . ومجموع عددهن اربع عشرة كنيسة . ثلاث منها للروم الاورتودكس وخمس للاتينيين [ومن هؤلاء الخمس اثنتان للفرنسيسكان والواحدة تخص «*Filles de la charité*» وواحدة الى اللازاريين ، وواحدة تخص «*Carmes*»] واربع للمارونيين ، وواحدة للروم الكاثوليك وواحدة للبروتستانيين . وكنيسة لليهود ، وتوجد دار للايتام ومدرسة للبنات تخص «الاخوات *Sœurs*» الفرنساوية . ولجماعة «*Les frères des écoles chrétiennes*» دير ومدرسة (*) ويوجد مسكن يسكن فيه المبشرون الاميركانيون ، ومدرسة للبنات تخصهم وهذا يدلنا على درجة غناء طرابلس بالابنية .

(*) تسكنه اليوم المدرسة السلطانية .

نريد قبل اتمام هذا البحث ان نتكلم على بعض المباني التاريخية ، والرسمية والمخازن وما يماثلها . ولا مراء في ان اهم بناء تاريخي في طرابلس هي القلعة الكائنة في الجانب الشرقي من البلدة . وبما اننا سنتكلم عنها اثناء البحث عن تاريخ طرابلس ، نضرب الان عن الدخول في هذا الموضوع . ومع ذلك فان تلك القلعة التي جعلت اليوم سجناً للمحكومين هي على جانب عظيم من اللطافة . وقد كانت مشهورةً بمناعتها وحصانتها . ولما فتحها السلطان قلاون هنأه بهذا الفتح «مجد الدين الحيمى» لشاعر بقصيدة غراء مطلعها :

هنيئاً ايها الملك الهمام
بنصر لا يريم ولا يرام

ثم بعد ان هنأه بهذا الفتح العظيم ، انتقل الى بيت القصيد فقال واجاد :

وظنوا انهم قوم عظام
فها هم في جوانبها عظام

والآن فان تلك القلعة المسيطرة على موقع طرابلس تشمخ كانها تريد نطح السحاب بما تحتويه من رميم العظام .

اما المباني الرسمية فمنها دار الحكومة ، ودائرة البلدية ، وخان العسكر الذي كان ثكنة للجنود ، ثم خان الماء ، والمستودع العسكري ، وبضع بنايات للمدارس . وكلها ليست من المكانة والرصانة بدرجة تليق بعظمة موقع طرابلس . ثم يوجد برج الساعة تجاه دار الحكومة ، وهو خلو عن كل مهارة وصنعة .

ولكن «مستشفى عزمى بك» الذي شيد العام الماضي في الجنوب الشرقي من القصبة على هضبة عالية هو اثر عمراني ثمين جداً ، نتعزى به الآن .

اما المخازن والحوانيت والخانات وما اشبهها فهي كثيرة في هذه البلدة ، ويمكن ان يبلغ عددها الى الفين . ولا بأس بمخازن الامتعة والاقمشة الحريرية في طرابلس . ولاسيما ابهاء الحلاقين فانها متناهية في الزينة والترتيب وفيها سبعة او ثمانية حمامات وهي تماثل حمامات الشام . ويوجد بين خانات طرابلس التي يبلغ عددها الثلاثين ما هو حري بان يسمى مجمع التجارات . اما الحوانيت الموجودة خارج هذه المحلات فانها عبارة عن زوايا للاوساخ .

هذا ولننقل البحث ، بعد ما اجملنا الخطوط العمرانية في طرابلس الى الميناء التي بينا سابقاً انها تتمة لهذه البلدة :

ان هذه القصبة التي تحتوي على قريب من الفي مسكن ، وثمانية آلاف من النسمة هي فرضة متوسطة في الجسامة .

ما زالت هذه القصبة تمعن في الرقى والعمران بفضل اهتمامها في الامور البحرية ،

حتى دهمتها الحرب ، فسقطت عن مركزها وغدت تتجرع اليم الاضمحلال وياللاسف . فالجمرك ، والرصيف ، ووكالات البواخر والمستودعات وبيوت التجارة والفنادق واشالها من المؤسسات التى كانت معرضاً للبيع والشراء البالغ ، اصبحت اليوم وهى خراب ينعب فيها البوم والغراب ، واغلقت الحوانيت وفرغت البيوت واقفرت الشوارع ، وفقدت القصبة جميع حياتها ما عدا بضعة بيوت كبيرة لمتمولى طرابلس فى الجهة الشرقية من القصبة .

اصبحت هذه القصبة التى لا يزيد عدد نسماتها اليوم عن الالف تتجرع غصص الاحتضار الهائل ببيوتها التى كانت ميدان الهمة والعزم ، او معاهد الذوق والطرب . وانها تنتظر زوال هذه الحرب اكثر من كل البلاد . ويتمنى القلب ان لا يطول انتظارها والافالدمار محتم على هذه الفرضة الطرابلسية اللطيفة .

[٢] — **محلات طرابلس ، وطرقها ، وجسورها** — يجب علينا قبل البحث عن محلات طرابلس ان نعين التقسيمات التى اوجدتها العوارض الطبيعية. نعم ان نهر ابو على من جهة والهضبة الكائنة فى الشرق الشمالى من البلدة من جهة اخرى قسمت طرابلس الى ثلاثة اقسام :

فالقسم الاول ، هى الساحة الكائنة على الجانب الايسر من النهر ، وهى تضم ثلاثة ارباع البلدة ، والقسم الثانى الذى على الضفة اليمنى من عين النهر ، (القسم الثالث هو انحاء القبة » .

توجد على الضفة اليسرى من النهر ثمانى محلات . تمتد من الجنوب الى الشمالى على شكل نطع ناقص ، وهى « بوابة الحدادين والمهاترة » النورية » التربيعه » باب الحديد » العدسه » ثم فى الجهة الغربية من هؤلاء محلة (الرمانة) وبعدها (تل الرمل) ،

وان احدث هذه المحلات واجدرها بالبحث هى محلة (تل الرمل) التى مر ذكرها. وان توسع هذه المحلة واقبال الطرابلسيين عليها حيث يتخذون مساكنهم فيها وينقذون انفسهم من رطوبة البيوت القديمة وعفونتها، هو من الامال التى يجب الركض وراء تحقيقها.

اما فى الجانب الايمن من النهر فتوجد محلة « الجسرين » و« باب التبانة » وفى الجهة الشرقية الشمالية توجد بيوت « قبة النصر» .

ولا جرم ان احسن محلة بين هؤلاء المحلات من حيث جودة الهواء وجمال النظارة هى « القبة » . ولكن « التل » هى الارجح من حيث العمران وانتظام البنيان.

لم تتعين المحلات فى طرابلس على طريق الاختصاص بأحدى الملل المختلفة ؛ بل ان النصارى الذين هم خمس السكان يقطنون فى محلات المسلمين ، ولا يزالون محافظين على هذه العادة . على ان عددهم فى محلة التربيعة والرمانة والنورية كثير بالنسبة لغيرها .

اما الطرق فى طرابلس ، فهى تنقسم الى قسمين . لأن بين الطرق فى داخل البلدة وبين الخارج منها بون عظيم.ان الطرق الكائنة فى خارج البلدة وان تكن على غير كفاية من الاتساع ، لكنها تصلح للمرور . ولكن الطرق الموجودة فى الداخل فهى من القذارة، والعفونة بدرجة لايتصور اكره منها . وهذه الطرق بطحلب مقاسم المياه، وقذارة مجارى المراحيض المارة من تحتها،ثم المياه الوسخة التى تندفع من البيوت ، وبالاوساخ التى يطوح بهاالسكان ، هى لامراء بمثابة الامعاء المحمومةفى جسم تلك البلده . اما الاقسام الموصلة الى النهر التى تصعد وتهبط فهى احط وادنى من اقتاب الجبل . لاسيما وان المرورمن الطرق التى تباع فيهاالمواد الغدائية فهو ممالايتحمله ارباب الذوق السليم ،ومن اعظم خطأ الطرابلسيين الذى لايجوز الاغضاء عنه ، هو افراز اوساخهم ، وقذفها على الطرق . فهذا الاهمال لاينطبق على مايؤثر عنهم من نظافة بيوتهم .

لا يمكن تعداد هذا النوع من تلك الازقة التى تعقدت فى بعضها وليس بنافع ايضاً ولذلك اننا نذكر الطرق الموجودة فى خارج البلدة ، ثم الطريق الوحيد فى الداخل :

فالطريق الاساسى فى الداخل يبدأ من جنوب البلدة من مقبرة المسلمين القريبة من محلة بوابة الحدادين ويقطع القصبة من مبدأها الى منتهاها . وله رصيف ، وهو معوج الوجهة وليس له اسم لانه يتسمى باسم المحلات التى يمر عليها . كبوابة الحدادين والحته وسندمر والعطارين والصاغة والبزركان ، والملاحة والجسر والتبانة . ومعظم ازقة طرابلس تتصل بهذا الطريق .

اما الطرق الموجودة فى خارج البلدة ؛ فأولها طريق الاسكلة . وهو طريق معبد يبدأ من تل الرمل وينتهى فى المينا . وطوله كيلومتران ونصف . اما عرضه فخمسة وعشرون متراً . و الترام الذى يجر بالخيل ويصل البلدة بالميناء يمشى على هذا الطريق

اما الطريق المعروف (بطريق البحصاص) ؛ فهو يبدأ من دار الحكومة ويمتد الى منتهى الجنوب من البلدة . وله فرع يمتد من تل الرمل الى محلة التبانة ، ثم يتصل بطريق حمص .

ويوجد الطريق المسمى « طريق عزمى بك » وهو يمتد من منتهى تل الرمل الى ساحل البحر . وطوله يقرب من كيلومترين وعرضه خمسة وعشرون متراً وكان يسمى قبل التوسيع والتعبيد بطريق الوزان .

ثم يوجد خارج البلدة — ما عدا هذه الطرق — الطريق الذى يبتدأ من البحصاص وينتهى فى بيروت وطريق طرابلس — حمص ، وطرابلس — ضنيه ، وطرابلس — طرطوس. ثم هناك فرع لطريق طرابلس — حمص يصل الى « حلبا » مركز قضاء عكار .

اما جسور طرابلس فهى قائمة على نهر ابو على . فمنهم « الجسر الجديد » الكائن فى محلة

« الجسرين » ثم « جسر العتيق » فى محلة التبانة ، والثالث « جسر الترامواى » الكائن فى اقصى الشمال من البلدة . والجسران الاولان هما على غاية من الوهن والتداعى.

[٣] — **ماء طرابلس** — يمكن ان يقال ان طرابلس غنية بالمياه غناً كاملاً . لان نهر ابو على الذى يقطعها من مبدأها الى منتهاها ، وماء رشعين — مع محاذيره التى سنتكلم عنها حين البحث عن الاحوال الصحية — الموزع على اكثر انحاء البلدة بانابيب الفخار لا زالا يفيضان الحياة الخضراء على تلك البقعة . ونهر ابو على هذا كان الاقدمون يسمونه « قاديشا Kadicha » كما بينا سابقاً . ويزعم الطرابلسيون انه كان على ضفاف هذا النهر مستشفى اسم صاحبه « ابو على » ، فنسب نهر قاديشا الجارى من هناك لاسمه : وكان نهر ابو على .

ينبع هذا النهر من موقع يعرف بالدواليب الكائن تحت « ارز لبنان » الشهير وفى جوار قصبة بشرى فى لبنان. فيتجه الى الجنوب الغربى ، ثم يصب عليه جدول «رشعين» و«المخاضه» ويمر من طرابلس متجهاً من الشرق الجنوبى الى الغرب الشمالى ويصب فى البحر بعد ان يقطع مسافة كيلومترين منها .

يكون هذا النهر عرضة لكل وساخة حين مروره من طرابلس. وعليه فالذين لا تمكنهم الاستفادة من ماء رشعين لسبب علو بيوتهم يستعملون مائه ، ولا جرم انهم ليضرون بها انفسهم على ان هذا النهر يروى بمائه بعد ان يفارق طرابلس ساحة عظيمة من الحدائق التى جعلت الحياة الفياضة فى طرابلس. وهو الذى اتحف تلك البلدة بجناتها الزمردية .

ان مياه طرابلس الاساسية تأتى من « رشعين» . وهذا الجدول ينبع من موقع فى جبل لبنان يسمى بهذا الاسم ، ثم بعد ان يصل الى قصبة (زغرته) يفترق عنه القسم الذى يقوم بحاجة طرابلس . ويؤتى به الى « تحت القلعة » حيث يوجد مدخر الماء ، ومقاسم التوزيع .

وقد يزعم ان القناة التى يجرى فيها الماء اليوم هى من زمان الصليبيين . وان تسمية بعض اقسامها بقناطر البرنس يدل على صدق هذا الزعم .

بعد ان يرتكم ماء رشعين فى مدخر تحت القلعة يسيل فى انابيب الفخار الى جميع اطراف البلدة . وهذا الماء ينقسم بعرف البلدة الى اثنين وسبعين مقسما « قرية » ، ثم ان كل قرية تنقسم الى اثنى عشرة شاهية « مقسم صغير » . وعلى هذا الترتيب توزع المياه على بيوت طرابلس حسب الاستحقاق المعروف فى البلدة ، والمسجل فى دائرة البلدية . ويوجد لهذه المقاسم مقاسم اخرى فى داخل البلدة تنقسم فيها المياه مرةً ثانية .

ان اصل ماء رشعين هو صاف ونظيف ، ولكن اساءته فى انابيب الفخار التى لا تمنع ترشح الماء

وتحلبه اوجبت تعكير صفوه وتلوثه بعد ان دخل البلد ، ولو كانت انابيبه مصونة صحية لافاض ماء الحياة الحقيق على هذه البلدة . فيجب على الطرابلسيين ان يفكروا بهذا الامر الحياتى قبل كل شىء . وما عدا هذا يوجد فى بعض البيوت الكبيرة آبار من الماء العذب . ولكن عددهم قليل لا يستحق الذكر . ثم يوجد اكثر من مائة صهريج اكثرها فى محلة القبة ، تخزن فيها مياه المطر ، ولا جرم لنها انظف ، واطيب المياه الموجودة فى طرابلس .

[٤] — **المنتزهات والمقاصف** — ان ما مر علينا من البحث عن ضواحى طرابلس عرفنا بان جميع انحاء هذه البلدة الزاهية هى منتزهات ومقاصف .

نعم ان طرابلس الجديرة بان تفتخر على معظم البلاد بمناظرها البديعة الوافرة ، فيها منتزهات عديدة ومقاصف شتى . فالقبة التى حازت بارتفاعها على ابهى المناظر ، وهضبة « ابو سمره » هما بالنظر الى طرابلس من اجمل المواقع الشعرية التى تسل الهموم من القلوب ثم ان هالة الرياض التى توشحت بها تلك البلدة الطيبة فيها اهنأ الاندية الزمردية لاولى الاذواق والطرب . لاسيما تلك الساحة الخضراء ، اللطيفة القائمة بين طرابلس والمينا لا يكون ابدع منها عند المساء او فى الليالى المقمرة ، وان تل الرمل وما فى جواره ، بنسيمه الذى يتاقى الارواح بابتساماته المنعشة ، لا جرم هو من اهنأ البقاع وارغدها .

وان موقع الدرويشية فى الناحية الجنوبية المطل على الوادى وما حوله هو لطيف ايضاً ثم « البداوى » فى الشمال ، و « برج رأس النهر » مصب نهر ابو على فى الجانب الغربى ، وغيرها من البقاع هى على ما لا مثيل له بالجمال واللطافة .

يود القلب ان لو كانت الآثار الصناعية والمدنية فى طرابلس موفرة وراقية تجاه تلك الثروة الطبيعية الممتازة . فتتمتع بالسعادة والعمران . نعم لو كان لها نصيب من البدائع المدنية ، وقامت فيها الشوارع الواسعة النظيفة ، ووسائط الجر الكهربائية والجسور المنتظمة والمياه النظيفة والمعامل الجسيمة والمدارس العظيمة ، والمؤسسات الخيرية العمومية ، واستعد نهرها لسير السفن ، وشيدت فيها التماثيل وحنايا الظفر ، ودور التمثيل ، ومعارض البدايع والمنتديات الحية ، والمطابع الضخمة وكان لها امة حية ، وادمغة كبيرة محترمة . لارتنا اتقان الانسان معززاً بابداع الخالق . ولكانت يومئذٍ جديرة بان تنحنى امامها الرؤس اجلالاً .

٣ — الاحوال العمومية

[١] — **قصبة طرابلس الشام** — ان هذه القصبة كائنة على ٣٤،٢٦ درجة من

العرض الشمالى و٣٣،٣٠ درجة من الطول الشرقى على شعبة من سلاسل لبنان تبعد عن شاطئ البحر مسافة عشرين دقيقة ، وهى فى الشمال الشرقى عن بيروت بمسافة (٨٠) كيلومتراً ، وفى الجهة الجنوبية من اللاذقية بمسافة (١٣٥) من الكيلومترات وان نهر ابو على الذى سمى فى التوراة «كاديشه» اى المقدس، يجرى فى وسط تلك البلدة ويقسمها الى قسمين . وينبع هذا النهر من محل «الدواليب» حيث يوجد ارز لبنان فوق قرية البشرى ، ويتجه الى الجنوب الغربى فيصب عليه جدول رشعين والمخاضة ، ثم يدخل طرابلس فيقطعها من الشرق الى الغرب ، ويصب على البحر عند برج رأس النهر.

تتألف هذه البلدة من قسمين، كما هو الحال فى بعض المرافئ السورية . فقصبة الاسكلة القائمة على الشاطئ ، تبعد عن البلدة مسافة ثلاثة كيلومترات ، وهى مركز الناحية التى تدعى باسمها ، وهى مربوطة بالبلدة بخط ترام انشأ فى زمن مدحت باشا .

[٢] — **عدد السطانه** — كان عدد السكان فى بلدة طرابلس سنة ١٣٣٢ (٢٤٠٣٦) نسمة وفى قصبة المينا (٨٥٣٥) نسمة هذه مفرداتها :

	بلدة طرابلس		قصبة المينا	
	الذكور	الاناث	الذكور	الاناث
المسلمون	١٠٢٥٠	٩٧٠٤	٢١٣٦	٢٠٢٠
الروم الاورتودوكس	١٥٠٠	١١٤٣	٢٣٨٩	١٧٥٩
المارونيون	٦٢٨	٦١٤	١٢٤	١١٠
اللاتينيون	٩	١١		
الكاثوليك	٢٤	٢٢		
پروتستانت	٢٤	٢٧		
اليهود	٣٥	٣٧		
يكون	١٢٤٧٨	١١٥٥٨	٤٦٤٩	٣٣٨٨٦
	٢٤٠٣٦		٨٥٣٥	

كان عدد سكان طرابلس سنة ١٣٢٣ (٢٣٤٣٦) نسمة وعليه يكون مقدار الزيادة فى عشر سنين قليلاً جداً .

اما الولادات فيها فكانت سنة ١٣٢٧ (٤٥٥) وسنة ١٣٢٩ (١٩٠) وسنة ١٣٣٢ (٤٤٨) نسمة . والوفيات سنة ١٣٢٧ كانت (١٧١) وسنة ١٣٢٩ (١٢٦) وسنة ١٣٣٢ بلغت الى (١٢٣١) نسمة .

ان الجدول الاخير يرينا مقدار بعد ارقامنا عن الحقيقة ، لان الحمى التيفوئية التى انشبت مخالبها القتالة فى طرابلس وفتكت بسكانها فتكاً ذريعاً سنة ١٣٣٢ ، لم تهلك ١٢٣١ نسمة فقط ، بل افنت خمسة او ستة امثالها . ان البحث عن ولادات البلاد ووفياتها هى بمثابة الاستطلاع على حالتها الصحية ، او بالاجدر هى وزن قدرتها وعظمتها ، بيد ان الميزان الذى استعملناه مصنوع بايد بعيدة عن الحس ولا تعرف قدر الوظيفة ترانا لا نعبأ بجداول الاعداد زراعية كانت او صحية او اجتماعية . فالارقام الرسمية التى حررناها فى كتابنا الاول وفى هذا الكتاب ايضاً ، لا ننكر انها خطأ . لانها ضبطت على غير علم وروية . يود القلب ان لو كانت لدينا ارقام واضحة وصحيحة فنطلع منها على هل ان طرابلس الشام احسن حالاً من بيروت ، وعكا ونابلس ، فى الامور الصحية والزراعية وغيرها ام لا ؟ ماذا علينا لو اعتنينا فى انتقاء الارقام الصحيحة كباقى الدول الراقية ، او على الاقل كبلغاريا وصربيه ويونان الذين لم يطل عهدهم بالرقى . ولكن من العبث ان نتطلب الانتظام فى قيود النفوس بأسنا الحالية ، وبهؤلاء المأمورين الذين لا يزيد راتبهم عن خمس ليرات ، ولا سيما المخاتره الجاهلون الذين لا يعرفون معنى الوظيفة . فهل نحصل يا ترى فى الآتى على دواء لهذا الداء العضال ؟ ! ...

[٣] — **مجمل تاريخ طرابلس** — كانت هذه البلدة موجودة فى القرون الاولى . ويزعم قدامى المؤرخين ان فنيقيو صور وصيدا وارواد اسسوا مجلساً دائماً يلتئم فى طرابلس لاجل الاشتغال بالامور الخطيرة وقد كانت كل بلدة من هذه الثلاث ترسل مأة عضو الى هذا المجلس ، وقد كان اولئك المفوضون يسكنون فى محلات متفرقة ولهذا سميت (تريبوليس *Tripolis*) ومعناها ثلاثة بلاد . وكانت هذه البلاد فى موقع الاسكلة اليوم ، والسلفتانية التى هى اليوم مقبرة للروم الارثودوكس وموقع البحصاص .

ويظن ان الهياج العام الذى اقامه الفنيقيون تجاه الايرانيين سنة ٣٥١ قبل الميلاد كان بقرار من هذا المجلس . والفنيقيون الذين كانت حياتهم فى التجارة كانوا يبنون جميع بلادهم على السواحل ، ولذلك كانت بلدة طرابلس مبنية فى شبه الجزيرة الموجودة عليها اليوم قصبة المينا . وقد كانت كل واحدة من هذه البلاد الثلاثة محاطة بخندق يعصمها من كيد الاعداء وتجاوزهم .

والعرب الذين نهضت بهم قوة الايمان من مكة والمدينة ودفعتهم الى افتتاح سورية تمكنوا من تسخير طرابلس وقضوا فيها بالدمار على سلطة البيزانطيين، التى لم تكن عبارة الا عن قدرة عمياء ملطخة بكل سفاهة ورزيلة . وهذا الفتح كان سببا لتأسيس حركة علمية واقتصادية فى تلك البلدة . فنهض المسلمون بذكائهم الوقاد ، ومشاريعهم العلمية والمدنية . واخذوا

يستفيدون من استعداد هذه البقعة ، وسلكوا بها سبيل الرقى المدنى والعمران . فكانت الزراعة والصناعة والتجارة فى آن واحد آخذة فى الرقى بنسبة متزايدة . وكان المسلمون لا يألون جهداً بنشر العلوم والسعى لانارة افكار السكان . ويشيدون الجوامع والتكايا والمدارس ، واسست فى اكثر انحاء القصبة المكتبات التى كانت تعمل لتحرير الافكار من اسارة الفلسفة القديمة المضرة . وان المكتبة الجسيمة التى اسسها آل عمار فى طرابلس فى القرن العاشر للميلاد كانت كعبة للعلوم يحج اليها العلماء من كل فج ويحصلون فيها على ما يشتهون من المصنفات المفيدة . وقد تردد ابو العلاء المعرى شيخ الفلاسفة الاولين على هذه المكتبة زمناً طويلاً ، واستفاد منها ما شاء له ذكائه .

ولكن لم يطل زمن هذا الفيض العلمى ، بل رمت اوروبا هذه البلاد بشرذمة من جهلائها الصليبيين الذين هم اعداء العلم والمعرفة ، فكانوا المانعين لبقاء تلك النعمة العظمى . وقد كان موجوداً فى طرابلس ابان هجومهم زهاء اربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف ، فلم يدرك اولئك الافرنجيون قيمة تلك الثروة البشرية والطبيعية . بل كانوا يخربون كل ماوصلت ايديهم السوداء اليه من آثار العمران . فقلعوا اشجار الزيتون بقصد نكاية المسلمين ؛ ثم عمدوا الى الرياض المحيطة بالبلدة على مسافة بضعة كيلومترات فأبادوها قطعاً وقلعاً وجعلوها خاوية على عروشها . ولذلك فأن الزراعة والصناعة تقهقرت بعد استيلائهم على البلدة حتى اشفت على العدم .

سارع امير طولوز « قونت » [سن جيل *Reymond de Ss Gilles*] الى محاصرة طرابلس ، فاستبسل المسلمون فى الذب عن حياضها . ولكنه لم يفتر ، بل ثابر على ادامة الحصار وعمد الى هضبة الحاج *Mans Pelleginus* المسيطرة بموقعها على القصبة وشيد عليها قلعة لتشديد الحصار . ولكن عاجلته المنية ، فهلك وهو مشغول بالحصار (١١٠٥ م) . ثم قام الجدال على ساق وقدم بين ابن اخيه كيوم دوجوردون *Guillaumede jourdain* » وبين دعيه براتران *Bertrand* الطولوزى الذى جاء من فرانسه الى سورية لمجرد الاستفادة من الميراث ، وبعد وقايع دموية ، حصل بينهما اتفاق على ان يأخذ كيوم انحاء عرقا وطرطوس ؛ وبرتر ان يأخذ هضبة الحاج ، وطرابلس بشرط ان يسخرها وقصبة جبيل ايضاً (١١٠٩) .

لم يلبث كيوم ان قتل فى الحرب وانحصر الارث فى برتران . فقام هذا وفتح جبيل وطرطوس بمعونة الاسطول الذى ارسلته له جمهورية جنوه . وقبل هذا بمدة يسيرة فتحت بلدة طرابلس على يد «بودوين — *Baudouin*» . ويجب ان نعتبر هذه الحادثة التاريخية مبدأ لسلسلة الظلم والتجاوز المشؤمة التى ارتكبها الصليبيون فى الديار الاسلامية . وانحى جهل اولئك الافرنجيون الضالون على مكتبة آل عمار الثمينة فجعلوها ضحية لجهنم انتقامهم .

فأكلت نارهم السوداء آلافاً من الكتب الفلسفية والعلمية الثمينة ، واحالتها الى رماد تذروه الرياح !!

هذا ولينكر الجزويتيون . ومتصلبوا الكاثوليك هذه الجناية التى استهدف فيها دماغ لعلم وقلب الفضيلة . ماشاؤا ان ينكروا . فنحن نقابلهم على التهمة فى مكتبة الاسكندرية الموهومة التى انكرها عليهم اصدق مؤرخى الغرب ، بهذه الحقيقة الناصعة التى يحمر لها وجه الفضل ، وينفطر منها كبد العلم . ولا نستشهد لهم بأقوال مؤرخى الاسلام اذ لابد ان يلصقوهم بالتحامل والافتراء . وهذه براهين تكفى لاقناع عشاق الحقيقة الذين يرون بياض الابيض ، وسواد الاسود :

« ان الافرنج تسببوا لضياع كنز ثمين باحراقهم المؤلفات التى كانت فى مكتبات طرابلس . وقد كان يوجد فى هذا المدخر العلمى كثير من كتب العجم والعرب ويونان وكان هناك كثير ممن يثابرون على استنساخ المصنفات الثمينة . ويروى ابن طى ، المؤرخ العربى ان عدد هؤلاء الكتب كان اكثر من ثلاثة ملايين ، وعلى رواية اخرى انها كانت مائة الف وصاحب هذه المكتبة ؛ القاضى ابو الحسن طالب ، كان المتولى على طرابلس ، وقد الف كثيراً من الكتب النفيسة . وكان يرسل المراسلات الى اقطار البلاد ، ويبذل الاثمان الباهظة ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة . وما من مؤرخ عربى الا وكتب وبحث بملئ الاسف عن ضياع تلك المكتبة الفظيع . اما متصلبو الكاتوليكيين الذين كتبوا تاريخ الصليبيين ، لم نرهم يبحثون عن مكتبة طرابلس البتة ، ذلك ليستروا على الافرنج ذنب التجاوز الذى لايمكن تلافيه » (*)

وقد جاء فى كتاب لغة التاريخ والجغرافية الذى نشره موسيو بويه — *Boulleh* ان الصليبيين احرقوا تلك المكتبة الثمينة ؛ وذكر المستشرق الشهير رونه دوسسوفى مقالته التى كتبها برسم « انسيقلوپەدى الكبير *Grande Enciloqedie* » وبحث فيها عن احوال طرابلس الشام العمومية ، ان مستخلصى القدس من النصارى احرقوا تلك المكتبة العربية الطائرة الصيت .

انتقلت امارة طرابلس بعد الاسرة الطولوزية الى بوهموند السادس والسابع الذى قهره المسلمون فى انطاكيه وطردوه منها . وحاصر هذه البلدة صلاح الدين الايوبى سنة (١٢٨٨م) ثم بيبرس سنة (١٢٦٦م) ، وتيسر للسلطان المنصور قلاوون فتحها وارجاعها الى الحكم الاسلامى (٢٦ نيسان سنه ١٢٨٩) ، ثم ضمت الى البلاد العثمانية فى زمن السلطان سليم ياوز مع غيرها من بلاد الشام وبقيت مدة طويلة وهى مركز ايالة :

(*) راجع تاريخ سورية لجرجى ينى

[٤] **بلدية طرابلس** — قلنا فى الصحيفة (٢٣٥) من كتابنا الذى نشر العام الماضى [وللاهلين الحق بأن يطالبوا بزيادة الهمة والعمل من البلدية التى تميل نحو رؤية الاعمال سواءً كانت سيئة او قبيحة . وجدير بمدينة حيفا التى تزيد فى كل عام لااقل من خمسين داراً بالحساب المتوسط ان ترى بلديتها اكثر مدنية ، واوفر ثروة . واعظم اهتماماً بوظائفها بنسبة الاهمية الموقعية] .

تنطبق هذه الآراء على بلدية طرابلس ايضاً ، بدرجة اشد واوسع . ان فى طرابلس من الاسر التى ليست كالاسر الحورانية والجليلية فى البعد عن الوطنية ، بل هى لم تزل تتمتع من خير بلادها منذ مآت من السنين حتى تسنى لها الحصول على الثروة الطائلة ولهذا كانت طرابلس اغنى بلاد الولاية بلديةً بعد بلدة بيروت . لان دخل البلدية فى حيفا التى يعدها المستقبل بموقع تجارى خطير ؛ هى ٢٠٠،٠٠٠ غرشاً . وفى قصبة نابلس «٢٨٧١٢٠» ، وفى صيدا «١٥٩٧٠٠» غرشاً . اما دخل بلدية طرابلس كان «٧٣٧،٢٨٤» سنة ١٣٣٣ . فمنها «١٥٠،٠٠٠» من مكوس وسائط النقل ، و«١٣٣٩٢٥» من دخل تمهيد الطرق الذى يسمى « شرفية » و«٣٧،٠٠٠» من الرسوم التى تتقاضاها البلدية بنسبة الضرائب على بدل مجار الاملاك و«١٠٦٠٠٠» من المكوس المختلفة فيها «٤٥٠٠» غرشاً من دخل بلدية الميناء والباقى من المكوس وبدلات الايجار .

اما خرجها السنوى فهو يبلغ مقدار «٧٥٦٢٨٤» غرشاً ينفق منه «١٢٤٥٢٨» غرشاً على الرواتب و«٢٢٥٠٠٠» على الطرق العمومية و«٩٦٠٠٠» على التنظيف والتنوير . ثم ينفق مما بقى منه على المستشفيات واعانة الفقراء وتجهيز امواتهم وتكفينهم ، وعلى حديقة البلدة وغيرها من النفقات المختلفة . وما عدا هذه النفقات تدفع بلدية طرابلس كل سنة مقدار ١٥٢٢٥٦ غرشاً لاجل القيام بامور البلدية فى قصبة الميناء .

ونعلم من هذا ان بلدية طرابلس هى قادرة على القيام بالعمل اكثر من غيرها فى القصبات الاخر . ان هذا الدخل الذى ينوف عن سبعماية الف من القروش ، لو كان له رئيس مدرب ذكى ، عنده فكرة علمية وفنية ، لاقتحم فيها اعمالاً فى طريق اصلاح البلدة وتنسيق احوالها الصحية ، تقتضى ميليوناً من القروش . فاذا كانت الاعمال عن بصيرة وحزم ، لاجرم يكون نجاحها محتماً .

ان محلة التل فى طرابلس هى اظرف والطف بقعة فيها . ولها منظر زاه جداً بمبانيها المتينة ودار حكومتها وملاهيها ، ولاسيما بمحلتها الجديدة المطلة على فسحتها وبرج ساعتها . وشارع البلدة لا يزال موقع الاستحسان والتقدير باشجاره المعمرة . اما داخل البلدة فهو فى اشد الحاجة الى الاصلاح والمبالغة فى السعى . وان الصحة العامة تتطلب عظيم الاهتمام وعاجله

فى اصلاح مجارى المراحيض التى نراها تماشى كل طرق البلدة وليس عليها حاجز . ثم ان الطرق الضيقة والاسواق المسقوفة التى لا تكاد تنطبق على الخير الصحى ولا على النسق المدنى ، ولا يمكن تنظيفها ؛ ولاسيما السبلان التى تنفث عفونتها السم القاتل ؛ وكل ما هنالك من مشينات البلدة هى من المؤثرات التى تدعو دائرة البلدية الى النهوض والنشاط الى العمل الاصلاحى .

[٥] — **بساتين الليمون** — ان الارض المحيطة ببلدة طرابلس تتالف من الترب الذى يجرفه نهر ابو على من الربوع اللبنانية ، وهى على جانب عظيم من قوة الانبات بسبب ما يرتكم فيها من فتات الاحجار الكلسية والصوانية وذرات الصلصال التى تنهال عليها من اصقاع لبنان . فاذا وقف المرأ على الهضبة المرتفعة حيث يوجد «مستشفى عزمى بك» الذى جرى تدشينه منذ زمن يسير يرى بساتين الليمون التى تمتد حتى ساحل البحر ، ويرى ان جميع المرتفعات هناك مستورة باشجار الزيتون . يبلغ اتساع بساتين الليمون مقدار « ٢٥٠٠ » فدان [كل فدان يشغل خمسة دونمات] ، وقيمة كل فدان تتراوح بين ٢٠ و٢٥ الف غرش . وقد كان يصدر من طرابلس قبل نشوب الحرب الى استانبول ، ورومانيا . والى روسيه ايضاً « ٤٠٠،٠٠٠ » صندوق من الليمون فى كل سنة . فاذا اعتبرنا ثمن الصندوق ريالاً مجيدياً على الاقل نعلم ان طرابلس تربح من الخارج فى كل سنة ثمانين الف ليرة . وقيمة ما يصرف من الليمون فى بيروت وحما وحمص وغيرها من البلاد المزدحمة بالسكان تقرب من (٢٥ — ٣٥) الف ليرة ايضاً . وعلى هذا يكون ربح ارباب البساتين فى طرابلس مقدار (١٠٠ — ١٣٠) الف ليرة كل سنة .

[٦] — **اشجار الزيتون وطبخ الصابون** — ان مساحة مشجرات الزيتون فى طرابلس تقرب من « ٢٥٠٠ » فدان ، وقيمة كل فدان مقدار « ٥٠٠٠ » غرش ويستغل فى كل سنة من هذه الاشجار التى يناهز عددها ثلاثين الفاً مقدار «١،٥٠٠٠٠٠» اقة من الزيت . [*] وهذا المحصول الفياض من الزيت حدى بالطرابلسيين للاقبال على طبخ الصابون منذ امد بعيد . وكل سنة يطبخ من الصابون مقدار (١٢٠٠) قدراً (طبخة) . تنهى تلك القدور بالنطرون وقاربونات الصوده فى ظرف اربع وعشرين ساعة ، لا فى ثمانية او ثلاثة ايام كما هو الحال فى نابلس . وقيمة كل طبخة على الحساب المتوسط (١٢٠) ليرة ووزنها يقرب من عشرين قنطاراً . اما فى نابلس فان قيمة الطبخة (٢٨٧) ليرة ووزنها (٢٠ — ٢٢) قنطاراً . فاذا بيع القنطار بالف وخمسماية غرشاً وهو سعره المعتاد فى ايام

(*) عثرنا على جدول رأينا فيه ان حاصل الزيت فى مركز قضاء نابلس هو (١٥) مليون اقة ، لا (١٥٠) الف اقة كما بينا فى الصحيفة (١١٩) من كتابنا الاول . فايهما اصدق يا ترى ؟

السلم تبلغ قيمة الطبخه ٣٤٠٠٠ — ٣٥٠٠٠ غرشاً .ويكون ربحها المتوسط مقدار ٥٠— ٧٠ ليرة [*] اما طبخة طرابلس ، فيزعم تجارها انها لا تربح اكثر من (٢٠—٢٥) ليرة [**] . وان ربع تلك الطبخات التى تبلغ فى عددها مقدار (١٢٠٠) واحدة يخص آل الذوق . والربع الآخر لاسرة عدره ، والربع الثالث لاسرة عويضة ، ثم ينقسم الباقى بين من يشتغل بتلك المهنة من التجار [***] .

وهنا ايضاً لا نرى اقبالاً على عمل الصابون المعطر ، كما هو الحال فى نابلس . لو تجاسر التجار الطرابلسيون الذين يسوقون الصابون الى مصر ، والاناطول ، وديار العجم والعراق ويحصلون على الارباح الجسيمة ؛ وجلبوا من اوروبا آلات تمكنهم من اعمال صابون الزينة باشكاله الظريفة لكانوا يربحون ضعف ربحهم اليوم .

[٧] — **تجارة الحرير** — ان صنعة الحرير هى من اهم منابع ثروة هذه البلدة وما زالت هذه المهنة معروفة فى طرابلس ولبنان منذ القدم . ويروى انه كان موجوداً فى طرابلس قبل هجوم الصليبيين مقدار (٤٠٠٠) مصنعاً لنسج الحرير . اما اليوم فقد هبط هذا العدد الى (٢٠٠) .

تنسج هنا من الحرير المناطق الزرقاء الظريفة على تقليد الشال ، واقمشة القمصان والحبرات الحريرية والمناديل والكلل (****) وغيرها من النسيج الحريرى . ومع ذلك فان مصنوعات الشام هى اظرف وامتن من هذه .

يحصل فى لواء طرابلس الشام والقسم الشمالى من لبنان كل سنة مقدار (٣٠٠) رزمة « بالية » من الحرير و(٢٧٠٠٠٠) كيلو من الشرانق . وكانت هذه البضاعة ترسل مباشرة الى معامل ليون . وقبل الحرب بسنتين شرع تجار الحرير ببيع عشر حاصلهم الى معامل ايتاليا . وتباع فى فرنسة رزمة الحرير الطرابلسى الذى هو اقل ظرافة ومتانة من الحرير اليابانى والصينى بثمن يتراوح بين (٤٥) و(٦٠) فرنك .

وثمن الاقة من الشرانق يتراوح بين (١٨—٢٨) غرشاً . وتجارة الحرير فى طرابلس هى فى ايدى الاسرتين الذوقية والعدرية . هذا وان اشتغل الطرابلسيون فى استحصال الشرانق ؛ فان هذه الصنعة دانت لعادات لبنان وكادت تنحصر لهن . لان الفرنساويين الذين ادخلوا هذه الصنعة الى سورية ، اسسوا اكثر معاملهم فى لبنان وعلموا اهليها

(*) راجع القسم الجنوبى ؛ ص : ١٢٠

(**) لا ننسى ان هذه الارقام تخص ايام السلم

(***) يزعم ويتال كينه ان مقدار الزيت فى طرابلس « ٢،٦٠٠،٠٠٠ » اقه ، ومقدار الصابون « ٤٠٠٠٠٠ » قنطارا فى كل سنة .

(****) جمع كلة ؛ وهى الستر الدقيق . م

تلك الصنعة . وان الصناعة الحريرية فى طرابلس اصيبت فى الزمن الاخير بالتقهقر والاهمال فاصبحت اليوم وهى على شفا التلاشى . وحماية هذه الصنعة التى تربح منها البلاد الارباح الوافرة ، هى من الوظائف المحتمة على الحكومة اليوم .

[٨] — **خط الترام بين طرابلس والمينا** — من المعلوم ان بلدة طرابلس تبعد عن فرضتها مقدار ثلاثة كيلومترات وكثرة المناقلات بين هاتين القصبتين قضت بلزوم تعبيد الطريق بينهما ليسهل النقل وعليه اسس هذا الطريق منذ نيف واربعين سنة . ثم ان مدحت باشا الذى كان وال فى الشام سنة ١٨٧٩ اراد ان يجعل نصيباً لطرابلس من آثاره العمرانية التى اوجدها فى عدة انحاء من سورية . ورأى لما مر بطرابلس اثناء تجواله كثرة الازدحام ، ووفرة المنقولات التجارية بين البلدة والمينا فشعر بضرورة تأسيس ترام يصل هاتين البلدتين . وعليه جمع اغنياء البلدة ، وجعلهم يؤسسون شركة لهذا المشروع رأس مالها عشرة آلاف ليرة . فاصدرت تلك الشركة الفى سهم كل واحد بخمس ليرات . ومنحتها الحكومة امتيازاً بلا مدة . وان اغنياء المسلمين الذين وافقوا مدحت باشا على اقتراحه يومئذ لمجرد الاطاعة ، وكانوا على ريب من نجاح هذا المشروع ؛ ما لبثوا ان رأوا تلك المنافع العظيمة التى كانت لهم ولبلدتها ، فشهدوا بالفضل لذلك المصلح الشهير وقبل اشهار الحرب بمدة وجيزة كان يباع السهم من هذه الشركة بمبلغ (٣٧٠) فرنكاً . وكانت الشركة توزع على اعضائها كل سنة مقدار تسعة فى المأة من التمتع . وقد جلبت مهماتها ولوازمها حين التأسيس من بلاد انكلترة ، وبناءً على متانتها لم تزل تستعمل الى الآن .

نهض حضرة عزمى بك افندى والى الولاية العالى الذى هو تمثال العزم والهمة ، وعمد حينما كان متصرفاً فى هذه البلدة قبل خمس سنين الى توسيع نطاق هذه الشركة وقلبها الى ترام كهربائى . ثم ابلغ اسهامها من (٢٠٠٠) الى (٣٠٠٠) سهماً . واعلى قيمة السهم من مائة فرنك الى مائتين .

منحت ولاية بيروت تلك الشركة امتياز الكهرباء . وما لبثت ان عهدت بارسال آلات الجر الى معامل المانيا ودفعت نصف القيمة . ثم حملت تلك الآلات من مركبات على الطراز الحديث والاسلاك وقضبان الحديد على باخرة مخصوصة وسيرت من المانيا . ولكن ما كادت تصل تلك الباخرة الى الاسكندرية الا واشهر الحرب . فعطلت اسباب النقل البحرى ، ولم يتيسر لطرابلس ان تظفر بمشروعها الكهربائى . اما الاحوال المالية فى الشركة اليوم فهى على غير ما يرضى .

[٩] — **مستشفى عزمى بك** — ان طرابلس التى هى من ارقى البلاد السورية بلطافتها الطبيعية ، وبسعة تجارتها وصناعتها وكثرة حدائقها ورياضها كانت خلواً من مستشفى بلدى تتوفر فيه الشرائط الصحية ، وكان هذا نقصاً عظيماً فى تلك البلدة الكاملة . وعليه نهض حضرة ملاذ الولاية لما كان متصرفاً فى تلك البلدة لاكمال هذا النقص ، فرتب سباقين جمع فيهما مقدار ستماية ليرة واعدها لنفقة تشييد ذلك المستشفى ولكن لم يلبث ان استقال من منصبه وغادر البلدة وعليه ادخل المبلغ المذكور فى ميزانية البلدية . ثم شرف حضرته بعد برهة الى طرابلس على سبيل الزيارة ، وآزر هذه المشروع بصورة غير رسمية حتى تمكن من طرح اساسه . ولكن ما كاد حضرته يغادر البلدة الا ووقف العمل على ما كان عليه ولم يشرع بتشييد هذه المؤسسة بصورة جدية الا قبل سنتين ونصف وقد امدت المحاسبة الخصوصية هذا المشروع الجديد بمقدار الف ليرة ، واشتركت بلدية طرابلس بهذا العمل على قدر وسعها المالى . فكان ذلك المستشفى اللطيف المنتظم ، ولم ينفق عليه الا «٤٥٠٠» ورقة نقدية . لا يمكن ان تزار تلك المؤسسة الخيرية التى اوجدها العزم المتين الجدير بالاجلال والتبجيل ، الا ويشعر القلب باحساس الامتنان والشكر الخالص لذلك الموجد المحترم ، ولمن آزر حضرته على القيام بذلك المشروع .

[١٠] — **المشاريع الماليه والصناعيه** — ما كان اصدق اقتصاديينا الفاضل اذ قال : اذا قنع اهل البلاد من فيض اراضيهم المنبتة بان يحصلوا بسعى يسير ونفقة طفيفة على ما يقوم سنة باحتياجهم الحياتى فلن يكونوا قادرين على الغنى بذاتهم ، ولن يغنوا بلادهم باعتبار المجموع ، ولا يستطيعون انقاذ انفسهم من الفقر والعجز ولا يرقون . وانهم لا جرم يعيشون ولكن عيش الذلة والمهانة . ولن يقدروا على تأمين الرفاهية لانفسهم ، ويكونوا على ضعف دائم ، وفى خسران وبيل بين من هو اقوى منهم من الاقوام الآخرين .

اما اذا استعمل اولئك القوم جميع وسائط الاستحصال ، وحصلوا على كل ما يمكن لهم الحصول عليه ، وخصوا انفسهم بما يقوم بحاجاتهم منه ، وبدلوا الباقى بما لم تحصله غيرهم من الاقوام ، فحصلوا على كمالياتهم فلا يلبث وفرهم ان يتدرج بالازدياد وتكون لهم السعادة التامة فى الاقتصاديات .

ان المسلمين عموماً ، ومواطنينا خصوصاً . لم يزالوا مستسلمين الى العطالة الدائمة والكسل الاعمى منذ اربعة او خمسة قرون . ولا اثر اليوم لتلك المساعى البيضاء التى حفظها لهم التاريخ فى صدر الاسلام .

كل منا يرزح تحت اعباء ذلك الجهل الاسود الذى اخلده الى الارض وجعله لا يبغى حراكاً من الكسل . فما شأننا الا الاستهلاك فقط . اذهبوا الى اى بلدة اسلامية تشاؤنها .

فترون سكانها يعيشون عيشة الطير ، ارزاقهم تجد بتجدد الايام ، لا يفكرون بالغد مطلقاً ولو رمتم انذارهم يجيبونكم بان الله كريم ويلوون اعناقهم ، ويهزون اكتافهم كانهم يريدون اطلاعكم على وجوب التوكل . ولهذا لا ترون فى المحلات الاسلامية اثراً للعزم والنشاط . كلهم منغضون رؤوسهم فى جيوبهم كانهم يعدون دقائق حياتهم وان هذا الا بلاء عظيم . لان عصرنا بعيد عن المعنويات . هذه الحرب العامة التى ضمت حومتها العالم باسره واخذ فيها كل يحرص على الظفر بتضحية الحياة ، لم تحمل بطون التاريخ الى الان مثيلها . وما كانت هذه المذبحة الانسانية الا لتأمين الظفر الاقتصادى وهذا صوت القيصر الالمانى يهتف بما قاله بعد نشوب الحرب ببضعة شهور ، بتلك الصواعق الحقة :

— الويل ، الويل لمن غلب ! !

يريد بهاتين الكلمتين ان يطلع ابناء وطنه على هول الموقف فى هذا الجدال الطاحن . تجولنا فى انحاء الولاية العام الماضى ، وهذا تجوالنا الثانى ايضاً . فابكانا ما رأينا فى ابناء اوطاننا وجنسنا من الكسل وانفطرت افئدتنا لما رأيناهم ساهين عن الوظائف التى رمى بها هذا العصر الكادح كاهل البشرية اليوم . صعب على قومنا ما اظهرناه فى كتابنا الاول من التأثر الذى كان ناشئاً عن تلك الانطباعات المرة . وما كنا فى تلك الكرة الا منذرين لهؤلاء الذين اخذتهم غفوة الجهل وموقظين . وما اردنا بتلك الصيحة الشديدة الا تمزيق غشاء العطالة والمسكنة ، والصدع بتشريح ما حملنا اياه هذا العصر من الوظائف المعضلة الوافرة . لكنها لم تُرق فى عين بعض المستبدين ، ولم يستحسنها بضعة من المتغلبين الذين لا حظ لهم من الحق والحقيقة . لانها كانت عامة تنصر الضعيف ، وتأخذ بضبع القرويين الذين هضمت حقوقهم وليس لهم من قوة ولا ناصر . دعهم يغضبون ويفعلون ما يشاؤن ، فنحن دستورنا «قل كلمتك وامش» . نعم حملنا على العادات السخيفة حملة شعواء ، وطعنا السيئات فى نحرها ، ولكننا لم نضرب عن قيد المآثر الجليلة التى ثلجت لها افئدتنا وما زلنا نفرح بها ونفتخر .

ان الطرابلسيين مع انهم لم يخلصوا من تلك العطالة العقيمة ، لم يفتهم النجاح فى كثير من صفحات الحيات الاقتصادية فى بلدتهم . بل ان تجارة الحرير واعمال الصابون واستخراج السفنج ، وحتى ان المعاملات الصرافية ايضاً هى عندهم على ما يوجب الفخر والمباهات من الوسعة . ولا بأس ان نفصل نبذة من هذا الاجمال :

[١١] — **مصرف الذوق وعبد الواحد** — تأسس هذا المصرف سنة ١٨٩٣ برأس مال مقداره (١٠٠٠) ليرة فقط على شكل شركة متضامنة «قوللكتيف» . ولم يكن يومئذ غيره من المصارف فى طرابلس . فمشى المؤسسون بالصدق والامانة ، ولم يطل عليهم الامد حتى

توسعوا فى المعاملات الصرافية واحرزوا وكالة المصرف العثمانى وقره دى ليونه وقونتوار ناسيونال ده سقونت دوپارى ، ومصرف سلانيك وغيرهم من المؤسسات المالية ، وعهدت اليهم الخزينة المالية وادارة الدخان وادارة المنارات (فنار) بنقل نقودها ايضاً .

تدرج هذا المصرف بالاتساع حتى اصبح وهو يدخل المشاريع التى تبلغ اضعاف رأس ماله . فكانت معاملاته سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ تبلغ فى كل شهر الى (٥٠) الف ليرة . وقد هبط هذا المقدار الى (٢٠) الف ليرة بعد ان اسس المصرف العثمانى ومصرف سلانيك فرعيهما فى طرابلس ، ولكن ما زال ذلك المصرف مثابراً على عمله بتلك الهمة العالية وخادماً لمؤسسيه والتجار الوطنية معا .

كان مقدار القطع «اسقونطو» الوسطى فى هذا المصرف ثلاثة من المأة ، ومقدار الفائض فى الاقراض تسعة منها . ويمكننا ان نقول ان ثلاثة ارباع ثروة الاسرتين الدوقية والواحدية ، منقولةً كانت او غير منقولة هى من ارباح هذه المؤسسة المالية وريعها . وبما ان المصارف هى من المؤسسات الاعتمادية ، يجب فيها ان تكون محلاً للاعتماد بكل معنى الكلمة . والا فلا حياة للمصارف التى لا تكون حائزة على هذا الشرط . فالجدية والامانة والصدق هى بمثابة الروح لهاتيك المؤسسات . واقل شبهة توجب الشك ، او الاخلال بالقيام بالعهود يقضى عليها بالفناء العاجل . ان مؤسسى هذا المصرف كانوا على بصيرة من هذه النقاط . وعليه لم يألوا جهداً فى القيام بوجائبهم حتى فى احرج الظروف ولما استولى الارمنيون على المصرف العثمانى فى دار السعادة وذلك سنة ١٨٩٤ تنحى مصرف الدوق ودفع جميع ديون فرع المصرف العثمانى فى بيروت بظرف احد عشر يوماً رغماً عن البحران الهائل الذى كان سائداً يومئذ لسبب تلك الحادثة . وهذه الهمة التى تكللت بالنجاح كانت سبباً لسمو مقام هذا المصرف فى نظر التجار والاهالى ، ولاسيما المصرف العثمانى فانه ما فتئ منذ ذلك اليوم مجازفاً باعتماده على هذا المصرف وامنيته له .

[١٢] — **معمل الاثاث** — ان هذا المعمل الذى اسسه الشاب رفيق افندى الفتال للتنجيد والتجارة . فيه آلة تتحرك بالكاز بقوة عشرين حصاناً تتألف من محرك ، وعشرين آلة غيره . وقد جلبت هذه الآلات من اشهر المعامل الاوروبية وهى صالحة لعمل كل ما يلزم البيوت من الاثاث والفرش على اتقن وامتن طراز . ولهذا المعمل دوائر اخرى تشتغل بصنع الكراسى وصناديق الليمون . اسس هذا المعمل سنة ١٩١٠ برأس مال قدره (٢٠٠) الف غرش ، ثم ضوعف هذا المبلغ وكان (٤٠٠) الف ووسع نطاق المشروع . ولكن لم يلبث ان اوقف عمله فى اول سنة اشهر فيها الحرب .

كان يوجد فى هذا المعمل اكثر من ستين عاملاً تتراوح اجوراتهم اليومية بين الخمسة

والعشرة غروش ومعظمهم كان من المحليين الذين تعلموا الصنعة بدوامهم على العمل . ولكن لم يكن ذلك الا بعد سنتين من افتتاحه ، اذ ما كان يومئذ فى طرابلس عمال يحسنون القيام بتلك المهنة ، فاضطر صاحب المشروع الى جلب العمال الذين تخرجوا فى معامل مصر وبيروت من اللبنانيين والبيروتيين .

بدأ صاحب المعمل ببيع مصنوعاته فى طرابلس ولبنان . ثم توفق لسوقها الى اللاذقية قبل الحرب بسنة وحصل بذلك على ارباح لا باس بها . ثم شرع بتأسيس فرع فى حمص وبوشر بالعمل فيه . ثم ترك لما وقف المركز عن العمل

وقد خدم هذا المعمل خدمة مبرورة فى بلدة طرابلس لان جميع صناديق الليمون كانت تصنع فيه ، والاثاث البيتية هناك ايضاً كانت تصنع فيه على احدث الطراز ، وبنصف القيمة بالنسبة الى مصنوعات البلاد الاجنبية . وبهذا دخل الذوق الملهم فى فرش البيوت فى طرابلس ، ثم سرى هذا الانتظام الى المخازن ايضاً فكانت منه على حظ عظيم . فالمفروشات وخزانات البللور الموجودة فى اعظم المخازن كانت من مصنوعات هذا المعمل . وخدم هذا المعمل لرواج الصنعة لانه اقتنى كثيراً من العمال الذين كانوا محرومين من كل مهنة ، وعلمهم هذه الصنعة التى تكفل لهم الحصول على اسباب التعيش ، وتخلصهم من البطالة والفقر . فيجب علينا جميعاً ان نحبذ على هكذا مشاريع صناعية . ويجب ايضاً ان نقبل على هذه المؤسسات ونفرش الدوائر والابهاء الرسمية من مصنوعاتها . لان الوطن لا يرقى الا بقيام ابنائه فى هكذا مشاريع وتمتعهم بالربح الوافر .

*
* *

يوجد فى طرابلس ما عدا هذا المعمل معمل آخر للاثاث وآخر للثلج وواحد لصنع الكازوز . فمنها الاول يتألف من محرك بقوة اثنى عشر حصاناً ، ومن ثمانى آلات مختلفة . وقد اسسه الشيخ محمد افندى الشهال سنة ١٩١٠ ، وكان رأس ماله فى بادئ امره ٤٠٠٠٠ غرش ثم ما لبث ان صار (١٠٠) الف . وان محمد افندى صاحب هذا المعمل لا يزال معروفاً باتقان صنعة الآلات والادوات الدقيقة وقد صنع بيده بعض آلات تفيد لتربية دود القز ، ومنح بالوسام الذهبى لاجل تلك المهارة . وله اليد الطولى بعمل الاشكال المتعددة من الصابون ، وصنع الآلات الدقيقة التى يحتاج اليها العمل . وما زال معمله مثابراً على العمل الى بعد اشهار الحرب بسنة ثم اضطرته الاسباب الاقتصادية على توقيف العمل .

اما معمل الثلج والكازوز فقد اسسهما رجل لبنانى يدعى راجى افندى دانيال سنة (١٩٠١) ولم يزالا فى العمل الى اعلان النفير العام . ثم ابتاعهما منه رفيق افندى صاحب معمل الاثاث . وكان هذا المعمل يتألف من محرك ابتاعته الادارة العسكرية قوته اثنى عشر حصاناً

ومن آلتين لعمل الثلج والكازوز وكل آلاته كانت كاملة وهى على اكمل واحدث نسق. وكان يصنع كل يوم مقدار اربعة آلاف كيلو من الثلج . وبناءً على فقدان الآمونياق (النشادر) والكاز اصبح اليوم معطلاً عن العمل .

٤ — الاحوال الاجتماعية فى طرابلس

[١] — **طبقات الاهالى ، ونسق المعيشة** — يمكن ارجاع الطرابلسيين الذين يبلغ عددهم ثلاثين الفاً ؛ الى ثلاثة اقسام من الوجهة الدينية ، الاسلام والنصارى واليهود . وبما ان اليهود لا يتجاوزون السبعين فى عددهم ، فلا يكون لهم موقع فى ذلك المجموع الضخم ، والنصيريون المعدودون فى القيود الرسمية من المسلمين لا يتجاوزون العشرات فى عددهم . ولهذا لا نجد لزوماً لاعتبارهم قسماً منفرداً .

وعليه نضطر فى تدقيق الطرابلسيين الى ان نرجعهم الى قسمين كبيرين، المسلمين السنيين والنصارى الذين يتالفون من مختلف الطوائف .

ان المسلمين فى طرابلس ، كما مر علينا فى جدول النفوس هم اربعة امثال النصارى فى العدد او بالاوضح ؛ ان اربعة اخماس الطرابلسيين مسلمون ، وخمسهم نصارى .

ويمكننا تقسيم المسلمين الذين يتجاوزون فى عددهم عشرين الفاً الى ثلاث طبقات مستقلة ؛ ولقد يمكن تقسيمهم باعتبار الغنى الى اغنياء ومتوسطين وفقراء ، على ان الاوصاف الاساسية الظاهرة المستبينة تسوغ لنا مع قليل من التسامح لان نقسمهم الى تجار ، وزراع ، وصناع .

فالاغنياء الذين تتألف منهم الطبقة الاولى او قسم التجار ، وان كان لاسرهم عنوان لم تزل تتوارثه منذ احقاب وقرون ونسب طوق بهالة من الاصالة والشرف ، بيد انهم ليسوا على تصلب فى السؤدد كتصلب سكان البلاد المتحادة عن اقصى العمران بما انتقل اليهم من الرياسة التى مزجت بالظلم والجور . ولا بد لنا من البحث عن هذه النقاط وايضاحها مع بيان مؤثراتها .

نعم يوجد فى طرابلس بضع عشرة من الاسر العريقة فى القدم ، والمعروفة بالثراء الحقيقى . ويمكن ايصال سلسلة النسب فى اقدم هذه الاسر الى خمسة او ستة قرون — كما يزعمون — . ويوجد منهم مقدار اسرتين او ثلاث . ثم توجد ثلاث او اربع اسر من اللاتى اربت سنيهم على ثلاثة او اربعة قرون . ثم يأتى بعد هؤلاء من يرجع بنسبه الى قرنين ، ثم الى قرن واحد وبعدهم من لم يتجاوز عمر اصالتهم خمسين او ستين عاماً ويوجد بينهم بضعة اشخاص ممن لم تعرف لهم ذكرى الاصالة فى الماضى ، ولكنهم سعوا

بانفسهم وحصلوا على الثروة الطائلة فى هذه الايام ، وها هم مرشحون اسماءهم لتكون لاخلافهم عنوان اصالة وشرف .

من هؤلاء المثرين الذين ابلغنا عددهم الى خمسة عشر، من تتراوح ثروته بين (١٠٠) و(٢٠٠) الف ليرة ، ومنهم من لا تتجاوز ثروته بضع آلاف من الليرات وعلى هذا يمكننا ان نقدر ثروة اغنياء طرابلس ببضع مآة الف من الليرات.

ثم ان الاموال غير المنقولة التى يملكها منتسبو هذه الطبقة ليست بقليلة . فمنهم من تقدر املاكه بمائة الف ليرة ، واقلهم ملكاً لا تنقص املاكه عن قيمة بضع آلاف من الليرات . وان مجموع قيمة هذه الاملاك هو لا جرم اعظم بكثير من مجموع الثروة النقدية .

وقصارى القول ان من الاسر الغنية فى طرابلس من يكون دخلهم السنوى بمقدار عشرين الف ليرة ، ومنهم من له مبلغ الف او الفين .

ثم ان جميع هذه الاسر الغنية تشتغل بالتجارة والزراعة ، ولاسيما بالفائض . ولذلك يمكن ان نسميهم تجارا بالمعنى العمومى . لان الارباح التى تحصل من الصابون والزيت والحرير والغنم والحبوب وامثالها من المواضيع التجارية هى اعظم بكثير من ارباح الزراعة ودخل الاراضى . حتى انه يوجد فى طرابلس من اسس مصرفا ، واخذ يصطاد به الارباح الجسيمة .

ان هذه الثروة التى حصل عليها اغنياء طرابلس ، لم تكن ناتجة — كما يفهم مما اجملنا فى هذا البحث — الا عن المساعى البالغة التى اشغلت السنين الوفيرة . وليس من دليل يدل على انهم طغوا وبغوا على مساكين الفقراء ، وهضموا حقوقهم كدأب بعض الظالمين الذين تغالوا بالاعتساف والعتو ، ومثلوا ادوار القرون الوسطى حيث شيدوا بنيان عزهم وشرفهم على رفات المظلومين وبحياتهم . هذا وان شفت الرواية على اندماج عنصر الحرام فى رشم تلك الثروة ، وذلك بالتهام الاوقاف الطرابلسية التى ذهبت ايدى سبا ، فلا نكران لما كان من المساعى البالغة لتوسيعها وتزييد مقدارها اضعافاً مضاعفة .

ان طرابلس بموقعها الطبيعى والجغرافى ، هى بلدة خلقت للتجارة . ولذلك فقد سلك اكثر اسرها هذا السبيل . واذ ان التجارة هى اسهل من الزراعة ، يكون اصطفاء الطرابلسيين لها امراً طبيعياً ايضاً .

وبما ان اكثر المتنفذين فى بلادنا يكونون من ارباب الارضى ، ومنسوبى الزراعة . فلم تخلق فى طرابلس هكذا طبقة بالنسبة الى البلاد الداخلية . لاسيما وان طرابلس بلدة ساحلية تختلط جميع طبقاتها ببعض ، ويخدم هذا الاختلاط لتنوير الافكار اكثر مما عليها البلاد الداخلية . وبه لم نكد نجد فيها اولئك المتسلطين النافذين .

وهنالك بعض اسباب اخر تصد ارباب الاراضى والزراعة فى طرابلس عن التسلط والاستبداد ، فمنها شدة الطبع التى فطر عليها اهالى الملحقات ولاسيما زراعهم . ثم وجود من يقتدر على التسلط والنفوذ فى الملحقات اكثر من الطرابلسيين ، واننا سنبين رأينا فى هؤلاء الزمر اثناء البحث عن قضاء عكار وحصن الاكراد .

وقصارى القول ان هذه الطبقة الاولى تختار الحياة الهادئة ، والعيشة الساكنة فى المنازل الفخيمة البديعة ، وتبتعد عن كل ضجة وجلبة . وان لاكثرهم الرياض الغناء والحدائق اللطيفة فى جوار البلدة يمضون فيها سويعات اللهو والطرب . فيذهبون اليها حينما يشأون ويحصلون منها على بعض حاجاتهم البيتية ايضاً . وعليه فان علاقتهم بالتراب لا تزيد عن هذه الدرجة .

ان اكثر الاغنياء الطرابلسيين اقاموا لانفسهم القصور المشمخرة ، او المنازل الظريفة ، المشيدة على احدث نسق فى الطف البقاع من البلدة او المينا . ومنهم من لا يزال مقيماً فى القسم القديم من البلدة ، لاتؤلمه تلك البيوت الشامية بطرقها المعقدة . وبعفونتها المزعجة ، وبخلوها عن الهواء النقى .

وعلى الاجمال ان طرابلس بسبب وجودها فى الساحل ، وقربها من بيروت ، وكثرة الاختلاط ، لم تكد حياة اسرها الكبيرة تخلو من تحول محسوس — ولو كان قشرياً — وتجدد منظور . ويشاهد هذا التجدد فى مبانيهم وفى ترتيب داخل بيوتهم ، وفى لباس رجالهم ونسائهم . هذا وان يكن ليس لاكثر هؤلاء الاغنياء شىء من الانتباه الفكرى الذى يستند على العلم ، ولم يتمكن نور العلم من انارة طائفة نسائهم ؛ فلا ينكر على اولئك العريقين ميلهم فى الظاهر الى التجدد ، وبعضاً نجاحهم فى الوصول اليه .

ومن جهة اخرى — كما سنفصل بعد — وان لم يكن الشبان الذين تخرجوا فى المدارس وكونوا الحزب المنور فى تلك البلدة ؛ من منسوبى الطبقة الاولى — ما عدا بضعة اشخاص — فهذا لا يسوغ ان يكون دليلاً على رغبة الاغنياء عن تعليم اولادهم وتنوير افكارهم . يمكننا التسليم بانهم ميالون الى التجدد والتعلم . ونضطر الى الاعتراف بوجود الامساك والاقتصاد التجاري فى كمية ذلك الميل . ولا جرم لو شاء اركان هذه الطبقة ، لكان لهم النجاح الاعلى فى العيش المرتب والحياة العمومية الداخلية ، ولم يلبثوا ان يقبضوا على محور العلم والعرفان وينالوا الحياة المدنية الحقيقية ، كما بسطوا ايديهم الى محور التجارة منذ نصف قرن ، واستطاعوا الاستحواذ عليه بالجد والاهتمام . ولكن مع الاسف ان ذلك النور الذي ما زال يحوم فى آفاق طرابلس . ويرفرف على سنام قصورها . لم يستطع بعد ان يلج هاتيك القصور ، او ينفذ الى تلك الادمغة . واننا لنرجو حصول هذه الامنية فى القريب العاجل .

*

اما الطبقة الثانية : ويمكن ان نسميها « المتوسطة » او مع قليل من الاغضاء — كما بينا سابقاً — نطلق عليها « طبقة الزراع » .

ثم ان منسوبى هذه الطبقة هم الاوساط بالمعنى الحقيقى . ودخلهم السنوى اقله مأة ليرة ، واعظمه خمس او ستمائة ليرة ، وهم السواد الاعظم فى هذه البلدة . وان لهذا الدخل مصادر مختلفة ، فمنهم من يشتغل بطبخ يسير من الصابون وبيعه . ومنهم من يتاجر فى الحب او الحرير وغيره ، ومنهم من له مخزن يبيع فيه الاقمشة ، ثم الذين يشتغلون فى بساتين الليمون ، او بالاحرى فى الزراعة . وكلهم من المتوسطين .

ولا يفهم من تعبير المتوسط فى طرابلس ، الا هؤلاء الزراع ، اصحاب البساتين وتجار الليمون .

وهذا يدلنا على ان الطبقة المتوسطة تفترق عن الطبقة الاولى بان عنوان اسرها اقل اشتهاراً ، وهى اقل مالاً ، ومشاغلها التجارية متنوعة ومختلفة بصورة تستلزم السعى الشخصى . ولا جرم ان هذه الطبقة احط من الطبقة الاولى بمنازلها وكسوتها ، وبنسق معيشتها . واكثرهم يلبس فى رأسه طربوشاً قصيراً ويتعمم بعمامة بيضاء خالصة او منقوشة بالحرير . ولهم سراويل من الجوخ الرصاصى ، فوقه صدار من قماش ثم جبة من جوخ .

ومن العجب ان هذه الزمر المسرولة المتعممة ، هى ادنى واحط من ارباب الطبقة الاولى فى العلم والمعرفة ، ولكن الشبان الطرابلسيين المتخرجين فى المدارس ، وارباب الفكرة العلمية هم من اولاد هذه الطبقة . ولا جرم ان هذه الحركة العامة فى الناس ، وميلهم الى العلم هى جديرة بالاستحسان .

*
* *

اما الطبقة الدنيا التى تتألف من الصناع والعمال ، فهى صنف الفقراء . وهؤلاء يشتغلون فى النوتية وصيد السمك والحمل ، او يكونوا عمالاً فى الانشاآت ، او اعداد البساتين ، او يشتغلون ببيع البقول او غيرها من الاعمال التافهة التى يحصلون منها على اقواتهم اليومية بشق الانفس . ويبلغ عددهم الى قريب من ثلاثة آلاف .

وهؤلاء يسكنون فى اسوأ المحلات الطرابلسية . ويكونون فى حالة السعى الدائم ليتيسر لهم تأمين العيش . ويلبسون فى رؤسهم قبعات من صوف طويلة ترابية اللون ، وسرابيل باليات ثم السراويل ، وفى ارجلهم العراة حذاء ممزق . اما نساؤهم فانهن فى الحد الاقصى من سوء الحال والمذلة .

ومع هذا فان الفقير لا يعدم هناك تأمين معاشه ببذل بدل يسير ، لان البلدة ذات

فيض عميم وخير وافر. ولا بد ان يجد كل واحد منهم شغلاً يشتغل فيه، ولهذا لا نرى منهم احداً يسقط فى الذل والمهانة مهما كان فقيراً. وان الحرب التى حطمت بصولتها البلاد فى هذه السنين الاخيرة لم تدهمهم الا بقليل من ويلها.

اذا اردنا ان نجمل ما فصلنا الى الآن نقول ان فى حياة طرابلس الاجتماعية لطبقات المسلمين، بعض آثار تطمن القلب، وتعد اولئك السكان الذين اكثرهم من المتوسطين، بآت ينطوى على آمال عالية مفيدة.

*
* *

بعد ان بينا رأينا فى الطائفة الاسلامية فى طرابلس، نرى من الواجب نقل البحث الى الطائفة المسيحية. ان ثلثى المسيحيين الذين هم خمس السكان فى طرابلس، هما من الروم الاورتودوكس، اما الثلث الآخر فهو من المارونيين والكاثوليك واللاتين والبروتستانت. ويزعم بعض افراد الطبقة المنورة منهم ان تاريخ الطائفة النصرانية فى طرابلس قديم جداً. ويروى عن بعض الاسر النصرانية المعروفة انها من احفاد الغسانيين. ومع ذلك فان فى طرابلس من النصارى الذين جاؤها من الخارج وتوطنوا فيها، ثم يوجد بينهم جالية اليونانيين الذين اختاروا الاقامة فيها، وكادوا يكونون من الوطنيين.

يقيس بعض الباحثين الحالة الاجتماعية والتجارية فى نصارى طرابلس قبل خمسين سنة بحالتهم اليوم ويزعمون انهم اصيبوا بانحطاط محسوس. ويفيضون بتعليل هذا الانحطاط وتشريح اسبابه:

كانت التجارة قبل نصف قرن فى ايدى النصارى. وكانت ثروتهم فى ذلك الزمن بالغة جداً. اما المسلمون فكانوا ارباب حقول ومستغلات. ولم يكن لديهم شئ من النقد. ثم شرعوا باستقراض النقود من النصارى واخذوا يتعاطون التجارة. وما لبث اغنياء النصارى ان اهملوا التجارة مستندين على ثروتهم النقدية الطائلة وربحها الوافر، وامعنوا فى اقراض النقود بالفائض الفاحش، وانغمسوا فى مسائل الصرافة، حتى غشيهم البحران المالى سنة ١٨٧٢ ودام خمس سنين؛ ثم انضمت عليه اسباب أخر حتى خسر المسيحيون اموالهم ولم يبق لديهم طول للنهوض من هذه العثرة. وكان عددهم قليلاً، وغادر بعضهم طرابلس مهاجراً الى مصر. وبهذا خلى الجو للمسلمين وخلصت لهم امور التجارة فانفردوا فيها، ومن ثم كانت فى ايديهم ولم تزل.

والان لا يزال بعض الاسر المسيحية من الطرابلسيين فى مصر يتعاطون التجارة، ولديهم من النقد ما يفيض عن بضع مآة الف من الليرات. وان ما يرى اليوم من الثروة فى ايدى الاسر المسيحية فى طرابلس هو من الثروة التى تكتسب فى الخارج وتدخل الى طرابلس. والا فان عالم الصرافة الاسكندرية قد اباد ثروة نصارى طرابلس منذ امد بعيد.

يمكننا هنا ان ندقق ما يملكه المسلمون والمسيحيون فى طرابلس من الاموال المنقولة وغير المنقولة، ونستنبط منهما اجمالاً، او بالاجدر نعدل بينهما قياسا.

اذا كان مقدار الثروة النقدية مليوناً من الليرات على التخمين فان عشرها اى مائة الف ليرة منها فى ايدى المسيحيين. على اننا لو نظرنا الى مقدار النفوس لرأينا من الواجب ان تكون تلك الثروة ضعف ما هى عليه. ولهذا السبب نعلم ان المسيحيين على تأخر.

اما الاموال غير المنقولة يجب ان تقسم الى ثلاثة اقسام: القسم الاول زيتون طرابلس، والثانى البساتين، والثالث العقارات والمسقفات.

اذا قدرنا قيمة الزيتون فى طرابلس بثلاثماية الف ليرة، يكون منها مقدار ثلاثين الف ليرة، اى عشرها فى ايدى المسيحيين. وهذا قليل ايضاً. اما قيمة البساتين فانها تقدر باكثر من نصف مليون ليرة. وحظ المسيحيين منها مقدار عشرة آلاف ليرة فقط. وعليه تكون نسبتهم الى المسلمين واحداً من ستين. ولا حاجة للاشارة على قلة هذا العدد.

اما العقارات والمسقفات، فان قيمتها بالنظر الى القيود الرسمية، هى نصف مليون من الليرات، ولكن حقيقتها تربو على مليون ونصف. والذى فى حوزة النصارى منها يقرب من الخمس، اى مقدار مائتين، او مائتين وخمسين الف ليرة. وهذا يدلنا على وجود التوازن فى هذا القسم من الاموال بين المسلمين والنصارى.

*
* *

وبعد هذا الاجمال فى الحالة المالية بين المسلمين والنصارى ننقل البحث الى طبقات النصارى وحالتهم الاجتماعية.

نستطيع تفريق النصارى ايضاً الى ثلاث طبقات، كالمسلمين، الاغنياء، والمتوسطين والفقراء.

ان اغنياء النصارى عبارة عن ثلاث او اربع اسر. وتقدر ثروة كل منها بخمسين او ستين الف ليرة. اما حياتهم الاجتماعية والعائلية هى ارقى بكثير من حياة امثالهم، وحتى من فوقهم بالغنى من المسلمين ولربما يكون اطلاعهم على اللغات الاجنبية هو الذى قربهم الى المدنية، وربطهم بها.

اما موقعهم الاجتماعى فانه مكين وسعيد لان الرجال والنساء من منسوبى هذه الطبقة كل له نصيب من نور العلم والمعرفة.

اما الطبقة المتوسطة المسيحية، فيكاد يدخل فيها جميع المسيحيين هناك. وهم يدأبون لتأمين معاشهم بتعاطى التجارة او معانات الحرف وغيرها من وسائط المعيشة. وهؤلاء ايضاً يرجحون على غيرهم من المتوسطين، ان لم يكن بالعلم فبانتظام العيش.

وكسوتهم ميالة لان تكون غربية الشكل . على ان الغرائز الشرقية ما زالت مستأصلة فى طباعهم . وما كان نساؤهم يدخلن الاسواق الا بازر يسمونها الحبرات ، حتى العهد القريب والان ايضاً يعثر على بقية لهذه العادة . وهم مربوطون برجال دينهم ومعابدهم ربطاً وثيقاً .

ويمكننا ان نصف طبقة الفقراء منهم بهذه الاوصاف العمومية التى لا يشذ عنها نصرانى . على ان طبقة الفقراء بين النصارى محدودة . وفقراؤها قليلون جداً . وهم عبارة عن بضعة اشخاص من المارونيين وما زالوا يتدرجون فى التناقص .

ونفهم مما شرحنا ان نصارى طرابلس ايضا ليسوا على شئ من آلام الحياة والمعيشة . فعليهم ان لا يكونوا فى ريب من الآتى .

[٢] — الارقام الاجتماعية — نريد ان نثبت ما عثرنا عليه من الارقام الاجتماعية قبل ان نختم كلامنا فى البحث عن احوال طرابلس الاجتماعية والعمومية .

يجب فى هكذا ارقام ، يستند عليها فى القياس وابداء الرأى ، ان تكون ذات قيمة علمية ، او بالاوضح ؛ ان تكون محرزة بالوسائط الكاملة والصحيحة المستندة على المعلومات الصادقة وتتناول مختلف الازمنة لتكون اساساً للمقايسات الاجتماعية . واننا نرى جميع ما عثرنا عليه من هذه الارقام لا يخلو من ان ينقصه شرط او شرطان ، او كثير من هذه الشروط المحتمة . ما جال فى خاطرنا الى الآن احصاء الحادثات الاجتماعية بالارقام . وما اثبتنا هذه الارقام — مع اعتقادنا بعدم صحتها — الا لسببين :

الاول — اطلاع القراء على بعض الارقام الاجتماعية ، ولو كانت ناقصة .

الثانى — ايجاد جريان احصائى يكون وسيلة لدفع هذا النقص فى المستقبل ، وتمهيد السبيل له . وبهذين السائقين الذين يتناول احدهما المبدأ ، والثانى الغاية ، آثرنا ان نثبت هذه الارقام التى هى جزء من الاحصائيات الاجتماعية . على علاتها :

[القتل والقاتلون] — رأينا فى جدول حصلنا عليه انه قد حدث فى طرابلس وتوابعها من هذه الجرائم (٢٢) ، سنة (٣٣٠) و (٩) ، سنة (٣٣١) و (٢٦) ، سنة (٣٣٢) . وان سقوط عدد هذه الجرائم من (٢٢) الى (٩) سنة (٣٣١) يمكن ان يفسر بالارتباك الحياتى الذى حصل فوريا بسبب اعلان النفير العام . ورجوع هذا العدد الى نسبته القديمة سنة (٣٣٢) يؤيد رأينا .

لم يمكن ايضاح اسباب حدوث هذه الجرائم . ولكن كان بالنظر لمجموعها فى السنين الثلاث ، وهو (٥٧) حادثة ؛ منها (٢٦) ناشىء عن العداوة و (٣١) عن اسباب متنوعة . ونرى ان هذين العددين مخنوقين بالابهام ، والبكم .

اما شخصية القاتلين فيمكن تعيينها . انه (١٧) من (٥٧) فى السنين الثلاث كانوا من العزاب و (٣٦) من المتأهلين و (٤) من الارامل . ثم من جهة المهنة ؛ منهم (٤٢) من الزراع و (٧) من العمال و (٨) من ارباب الحرف . ثم الذين يحسنون القراءة والكتابة بينهم (١٠) والاميون (٤٧) .

(الجنايات والجنح) — حدث فى لواء طرابلس سنة (٣٣٠) ، (١٤٤) وسنة (٣٣١) (١٦٠) وسنة (٣٣٢) ؛ (١٦٦) جناية . ونرى ان هذه الجرائم محافظة على نسبتها ، وهذا يدلنا على ان الجنايات تقع فى هذا اللواء فى كل يومين مرة .

اما الجنح — فعددها (٨٢٣) ، سنة (٣٣٠) و (٩٤٠) سنة (٣٣١) و (٩٤٧) سنة ٣٣٢ وازدياد العدد على تداول السنين يجب حمله على كثرة السرقات بسبب ضنك المعيشة . وعلى هذا الحساب يكون عدد هذه الجرائم فى طرابلس كل يوم (٢-٣) . ولذا نسبنا هذا العدد الى مجموع السكان نجد ان كل واحد من ثلاثين تصيبه جنحة فى السنة .

[النكاح والطلاق] — ان المسلمين فى مركز طرابلس الذين تزوجوا بعد استحصال الاذن من المحكمة الشرعية وفقاً للقانون كان عددهم سنة «٣٢٨» «٨٤» وسنة «٣٢٩» «١٠٢» وسنة «٣٣٠» ، «٢٩» وسنة «٣٣١» ، «٢٧» ، وسنة «٣٣٢» ، «١٢» . ونرى من هذه الارقام ان الزواج فى السنين الثلاث الاخيرة ؛ انخفض الى عشر ما كان عليه من قبل . ولا جرم ان هذا التخفض ناشئ عن وجود الشبان فى الخدمة العسكرية . اما الطلاق ، فقد حدث منه «١٩» حادثة فى سنة «٣٣٢» ، ولم يمكنا الاطلاع على حادثات السنين الاخرى ، ولذلك لا نجد مجالاً للتكلم عنه .

[السجناء] — يوجد فى طرابلس «٢٦٠» سجيناً و «١٠» من النسوة السجنى . ثم لم يمكن الاطلاع على عدد السجناء فى السنين الاخرى . وهؤلاء السجناء يمكثون فى السجن ، ويأخذون نصيبهم من البطالة والكسل .

[المتأهلون والعزاب] — لم نستطع ان نطلع على كمية المتأهلين ، ولا العزاب . ولكن يزعم ان «٤٠» فى المائة من الذين يتراوح سنهم بين «٢٥» و «٥٥» ؛ هم متأهلون و «٦٠» فى المائة منهم عزاب .

[العائلات] — يظن ان سكان طرابلس تتألف من «٥٠٠٠» عائلة ، وربع هذه العائلات تتألف من سبعة اشخاص او كثر ، وافراد الباقى اقل من هذا العدد .

[ما يتعلق بالولادات] — وجد بين الولادات التى حصلت فى ظرف خمسة سنين «١٣» توأماً من الذكور و «٥» من الاناث .

اما عـدد اللدات المجهولى الوالدين فهو «١٠» من الذكور و«١٥» من الاناث اثنـاء خمس سنين .

[مايتعلق بالنفوس] — لم يمكنا الاطلاع على عـدد التجار والزراع ، والعمال وغيرهم من الصنوف الاجتماعية بين سكان طرابلس ، ولكن يزعم ان عد ارباب الاملاك هو « ٢٥٨٠ » وبهذا يكون عشر السكان من ارباب الاملاك .

[ذوو العاهة] — يوجـد فى طرابلس من العمى والصم والبكم ، عشرة من كل صنف

[اشياع الطرائق] — يروى عن وثوق ان فى طرابلس كثير من اشيـاع الطرائق المختلفة . فاتباع الطريقة « الخلوتية » [٤٠٠٠ — ٥٠٠٠] شخصاً ، واتباع الطريقـة القادرية مثلهم واتباع الرفاعية «١٠٠» ، والشاذلية « ٣٠ — ٤٠ » والنقشبندية «١٠ — ١٥» شخصاً . فاذا سلمنا بصدق هـذا الحساب ، يكون جميع الرجال فى طرابلس منتسبين الى الطرائق .

[٣] — العادات الاجتماعيه — ان لكل من الطائفتين ، الاسلامية والنصرانية فى طرابلس عوائد ، وتقاليد اجتماعية تختص بها ، وهى منفصلة عن بعضها . وان هذه العـادات والتقاليد فى الفريقين مقتبسة عن غيرهم ؛ مثلا ان طرز المعاشرة ، وغيرها من المناهج الاجتماعية عندهم ، هى على عين ماهو معروف عند اسلام بيروت ، ونصارى القسم الشمالى من جبل لبنان المجاور لطرابلس ، او هى قريبة منها . وان المناهج الاجتماعيـة فى مسلمي سورية تنقسم الى ثلاثة اقسـام ، الاول يختص بسكان السواحل والمدن ، والثانى بسكان الداخل والقرى ، والثالث بالعشائر . ولهذا السبب فان العادات ، والتقاليد الموجودة فى بيروت وصيدا مثلاً . توجد مع يسير من الفرق فى طرابلس واللاذقية ، وحتى فى الشام ايضاً . وفى القرى الداخلية ايضاً يسود عين الدستور ، فترون العادات الموجودة فى احدها متفشية فى سائر القرى بفرق يسير بصورة تحصل من هذه المماثلة وحدة يمكننا ان نسميها « الخلال القروية » .

على اننا نجد العادات الاسلامية فى سورية مدنية كانت او قروية كلها تستمد اساسها من الشام ، تلك البلدة القديمة التى هى ام عوائد هذه البلدان . فاذا شئنـا استقصاء العوائد الاجتماعية فى سورية لانجد لها مصدراً اساسياً الا الشام . اما البـلاد الاخر فتكون بمثابة الفروع الكبيرة والصغيرة . وحتى ان عوائد القرى والقرويين كلها ملهمة من هذا المركز الحافل . واما الفروق التى يعثر عليها هناك فى هذا الخصوص هى من تأثير تقالـيد العشائر البدوية وعوائدهم لان عوائد تلك العشائر هى على بون شاسع عن العوائد العريقة فى المدنية . وخلاصة القول ان بين البلديين المدنيين ، وعشائر البدو من سكان سورية فروق اساسية

بالنظر الى العوائد الاجتماعية اما عادات القرويين فهى قائمة بين هاتين الطـائفتين وهى الحد الفاصل بينهما ولهذا يكون لها نصيب من كلتى الجهتين .

لهذا السبب يجب حين البحث عن العادات الاسلامية فى طرابلس الشام ان نلتفت الى عادات الشام ، او على الاقل بيروت ؛ وننظر الى عادات بيروت ايضاً ، ولا سيما لبنان فى البحث عن عادات النصارى وتقاليدهم الاجتماعية . واننا الآن نرجئ التكلم عن هذه النقاط الى بحثنا عن عوائد بيروت الاجتماعية . ونكتفى الآن بقيد النقاط الخصوصية التى عثرنا عليها فى طرابلس .

*
* *

لا اثر فى طرابلس للاشكال بخصوص انتقاء الازواج . ولا تصلب بين طبقات الاهالى على بعضهم فى مسائل النكاح . وان وجد بضعة اسر لاتنكح الا من افرادهـا ، ولم يزل بعضهم يعتنى بمماثلة الطرفين و كفائتهما لبعضهما فى النسب ودرجة الموقع الاجتماعى ، ولكن كون الطرفين من ارباب اليسر والغنى هو المرجح عندهم على الجميع . وعليه فان السن والصفة الاجتماعية ، وغيرهما من اوصاف الكفائة محكوم عليها بالسكوت تجاه هـذا المقصد الاساسى .

ان من قصـد الزواج فى طرابلس معرض — كما هو الحال فى اكثر بلادنا — للمفادات بوجده ، وتكبد النفقة الباهظة فى المهر ، وتقـاليد النكاح والازدواج ، وربمـا اوقعه سوء التدبير تحت الديون الجسيمة التى ترزحه السنين الطوال . يمكن ان يغضى عن الاغنياء ببذل تلك الثروة الطائلة فى هذا السبيل ، ولكن لايغضى عن قصور ذوى الثروة المحدودة باستسلامهم لتلك المظاهر الواهيـة ، وتكبدهم من النفقات ماهو فوق طاقتهم ، واحراجهم انفسهم . وايضاً ان حملهم على صرف النفقات خطأ اعظم .

اذا علمنا ان مقدار المهر فى طرابلس ربما يبلغ الى مائتى ليرة او ثلاثمـاية نطلع على عظم مايجب انفاقه فى طريق الاحتفال ، وتقديم الهدايا وغيرها من موجبات البذل . ونرى من الضرورى ان نوسع هذا البحث ، ونفيض يسيراً فى شرحه :

ان الاحتفال بالعقد فى طرابلس جرت العادت فيه ان يكون فى بيت المخطوبة ، اما مايجب صرفه من المشروبات ، والهدايا وغيرها يكون من جانب الخاطب . ثم على الخاطب ان يرسل يوم العقد ، العربون الذى يسمونه « العلامة » وهو اما خاتم ، او قطعة من الحليات . ثم يدفع المهر بعد العقد ، ويجب على العريس ان يقدم هدية حين اعداد الجهاز تبلغ قيمتها ربع المهر ، او يرسل نقوداً بهذه القيمة .

بعد ان يتم الجهاز وينقل الى بيت العريس ، يجب عليه ان يجامل احمائه بارسال مقدار من السكر ، والقهوة والتبغ وغيره مما جرت العادت بتقديمه . ثم تكون وليمة العرس

فى بيت العروس . وبعد ان يأخذوا نصيبهم من اللهو والطرب على حساب العريس ، تنتقل تلك الوليمة الى بيت العريس ، باعظم مما كانت عليه قبل . ولا حد لمقدار النفقة التى تصرف هناك على المآكل والمشارب ، وعلى المطربين ، والهدايا .

يدعى العريس ليلة الزفاف الى بيت احد اصدقائه ويمكث هناك الى بعد العشاء . وقد كانت عندهم عادة تقضى بان يقدم صاحب البيت الى العريس خلعة . وبعد صلاة العشاء ينعقد موكب الزفاف، فتتقدم الموكب الشموع والمصابيح ، ثم آلات الطرب ويلتف حول العريس قرباؤه واصدقائه ومعارفه ، ويوصلونه الى بيت الزفاف . واذا مر الموكب على احد الملاهى « القهوة » . ينثر امامه حب القهوة ، فيقابلهم بالعطايا ، وهكذا الى ان يوصل به الى البيت ، وهناك يختم نثر النقود ايضاً .

ثم فى الغد يجب تقديم هدية الى العروس يسمونها « الصباحية » ، وهى قطعة من الحليات وهكذا تتوالى سلسلة البذل ، والانفاق ...

وقصارى القول ان احتفال الازدواج يكون على غاية من البذخ والاسراف ، ويعرض الرجال فيه الى تكبد ماهو فوق طاقتهم المالية من النفقات فعلينا ان نؤمل ازالة هذه العقبات ، او تخفيفها على الاقل . والا فان هذا السبب يقضى بتقليل الازدواج ، فيمتنع النسل الذى فيه حياة الامة ، على ان لهذه الصعوبات فوائد غريبة ، بمنع تعدد الزوجات، وتقليل كمية الطلاق . اذ يندر تعدد الزوجات فى طرابلس ، والطلاق قليل جداً . هذا وان يكن لطرابلس بعض خصوصيات تقف امام تعدد الزوجات ، ولكن لاينكر تأثير تلك النفقات الطائلة التى يجب بذلها حين الزواج . اما قلة الطلاق فيجب تأويلها بخضوع النساء الطرابلسيات لازواجهن وخنوعهن لهم من جهة ، ووفرة مقدار المهر المؤجل من جهة اخرى . لان كثر هذا المبلغ لاجرم يردع الرجال عن ايقاع الطلاق بلا سبب، ويكون اكبر مانع له .

*
* *

يتأخر الطرابلسيون فى ختان اطفالهم، ولايكون ذلك الا بين السنة السادسة والعاشرة من عمر الاطفال ، ومن عاداتهم الاحتفال بهذه العادة ايضاً وعوامهم يكون احتفالهم عبارة عن اركاب الاطفال على الجياد المزينة ، والاغنياء يكتفون بايلام الولائم . فتعزف آلات الطرب ، وتجرى الالعاب المختلفة التى من شأنها تسلية الطفل . والعادة تقضى على المدعوين بتقديم الهدايا .

*
* *

اما فى مسائل الوفات ؛ فمن عوائدهم اعلان وفات العلماء ، والمشايخ ، او احد افراد الاسر الاصيلة ، على المنارات بوجه مخصوص ، ولكن تشييع الجنائز عندهم يكون على

اتم السكينة والهدو ، والخشوع الدينى اما اذا كان المتوفى من اتباع الطرائق ، فقد يشيع مشايخ طريقته جنازته بنقر الدفوف ، او يكتفون بترتيل كلمة التوحيد امام الجنازة حتى يصلون بها الى المقبرة .

يوجد فى طرابلس اربع مقابر عمومية ، وخمسة عشر مدفناً خصوصياً للمسلمين: فأول المقابر العمومية هى مقبرة « باب الرمل » الكائنة فى جنوب طرابلس . والثانية « الزعبية » وهى فى الشرق قريبة من القلعة . ثم مقبرة « الشهداء » الكائنة فى محلة الحديد وهى الآن معطلة لايدفن فيها . وان لكل من الطوائف المسيحية مقبرة فى خارج البلدة ، واليهود ايضاً لهم مدفن يختص بهم .

يعتنى فى طرابلس بتزيين القبور ، وزخرفتها بصورة عمومية . ولقد يوجد فى المقابر مواقع تختص ببعض العائلات مشيدة بالرخام على طبقات متعددة ، اخذت الزينة فيها مبلغها ، مسورة بقضبان معدنية .

يهتم الطرابلسيون بقرائة القرآن فى الجوامع من الظهر الى العصر ، ومن المغرب الى العشاء كل يوم اعتباراً من يوم وفات الشخص الى سبعة ايام بعده . ويذهب اقاربه واصدقائه ايضا لزيارة جدثه .

ثم لانجد نساء طرابلس يركضن وراء الجنازة بالصياح والعويل، وتخميش الوجوه، بيد انهن يخرجن الى البرية بعد العصر ، ويسمونها بالعصرية .

٥ — الاحوال الروحية

[١] — **المزاج والاخلاق والطباع** — الطرابلسيون ؛ بصحافتهم المشربة بالسمرة ، الضاربة بلونها الى البياض وبعيونهم الشهل المبرقة ، وباجسامهم النحيفة ،وقد ودهم الربعة؛ يمكن ان يقال انهم باعتبار الامزجة اربعة او خمسة فى المائة دمويون ، تجاه خمسة واربعين من العصبيين وخمسين فيها من العصبيين اللنفاويين .

ان المحيط الريان فى طرابلس اوجد هذا المزاج الاساسى من جهة ، واقليمها المتحول ومناظرها البديعة ، وسخاء الطبيعة مع رخاء العيش فيها من جهة اخرى اوجدوا فى الطباع الروحية والسجايا الاخلاقية خلالاً ملونة ، واوصافاً غير مستقرة .

لا جرم ان السعى لضبط تلك الاوصاف الابية المتموجة ، لاجل الحصول على مفهوم كلى والوصول الى كنه المؤثر الحقيقى ، والاطلاع على اوصافه الفرعية هو صعب ، بل مستحيل لدرجة تقضى بالحكم على ان الحالة الروحية العمومية هناك هى على عدم اطراد محسوس .

ولذلك لا يصح ان يوصف الطرابلسيون بالاصرار الجامد ، او العناد المفرط ، ولا يسوغ رميهم بحب النفع ولا خشونة الطبع ؛ بل هم اناس فخر ولهو ، واخدان اذواق ونشوة .

نعم انهم اناس فخر ولهو ، اكثر من كونهم ارباب حرص وطمع ، او اضلال وافساد . حتى ان هذه الاوصاف الخاصة تظهر على عنوان الاصالة فى الاسر الطرابلسية .

وقصارى القول ان الحالة الروحية فى طرابلس تمثل كتاباً ملوناً ؛ على غاية من الظرافة والتذهيب ؛ وكل صحيفة بل كل سطر من هذا الكتاب النادر الغزير الصحائف ، مملوء بالرموز المتنوعة . ولذلك هو جدير بالدرس والتدقيق .

ان عنوان هذا السفر الروحى . هى كلمة « الانس والانسانية » الفصحى . تجدون كل من تعاشرون من الطرابلسيين على اختلاف طبقاتهم انيساً متقرباً يتبسم بوجه مسرور ، وتبرق عيناه عن اطمئنان ونشاط ، يقابلكم من رقة العواطف والتواضع بما يجعلكم تحترزون منه خشية ايصاله الى التملق والرياء ؛ وتعجبون لما ترون انفسكم دانت للتشبه بقرينكم عن غير اختيار منها .

يسحركم هذا المخاطب بطلاقة لسانه ، وبلاغة بيانه ثم لا ينفك يعدكم ولو بما يستحيل تحققه ولا يبعد عنه ان يستسلم لكم بجسمه وروحه ليظفر بآمال سرابية تكسبه فخراً وميزة هو على يقين انها فوق لياقته واعلى من استطاعته .

اما اذا علم بعد برهة اشكال الامر ، يتحفز بكامل الحلم والسكينة الى الدفاع والاقناع بعين تلك الطلعة البسامة ، وهاتيك العيون البراقة . فتشعرون وتتأثرون بلزوم تخفيف الوطأة عن مخاطبكم هذا المتواضع بصفاء قلب وانسية .

ومع هذا فان لتلك الشخصيات اللينة المطبوعة الانيسة بعض اوضاع غريبة ومعكوسة ، وارواح عصبية متهورة تجعلكم على غاية من الحيرة والعجب . على انه لا يقنطكم هذا المظهر ولا يقلقكم . لان هذا العناد القاسى وقتى واضطرارى . وكونوا على يقين ان مخاطبكم هو ابن الحس واسير الاهواء . فاذا اطلعتم على المهيج الحسى ، المدير ملكوت روحه فى تلك اللحظة واستطعتم نقله الى غير هذا المحرك ، لا يلبث ذلك الهياج ان يخمد وينقطع اثره . ولا يبعد عن هؤلاء المخاطبين المجبولين بالعصبية ان يبقوا صادقين معكم . ولعين الاسباب لا يسوغ لكم ان تستسلموا الى الشكوك والشبهات مفكرين ان هذه الروح الجزلة ستنقلب بعد برهة الى روح مستائة فهى تابعة لكم قبل كل شئ . فاذا عجزتم عن ربطها بكم فاعلموا ان القصور منكم فقط .

ان الفكرة جيدة كانت او سيئة ، نيرة او محلولكة ، لا يكون لها صدى فى آفاق طرابلس ما لم تدخل اليها من باب الحس ، وتستحوذ منها على الطف برج تستقر فيه .

ثم تكون بعد ذلك اعتقاداً راسخا ، فتجوس خلال الارواح وتمكث هنلك الى ان تزاحمها فكرة اخرى تنتزع منها ما استحوذت عليه من عرش الحس ، وتقذف بها من حالق. ولذلك كثيراً ما نرى المتمسكين بتلك القناعات والمعتقدات ، وحتى المتصلبين بخصوصها يعيفونها بعد برهة ويكونون منها احراراً برآء فتتلاشى بسرور مخلفةً على تلك الانظار والوجوه الابتسامة المعهودة .

لا ننسى ان الطرابلسيين الذين هم اصدق ، واعشق اسرى للحس ؛ يهشون الى المكارم ويميلون الى المعالى ، فيوجدون من المآثر الجليلة والآثار الانسانية ما يكون بالعلو كالشواهق ينطح السحاب .

ان للطرابلسيين الذين لا يغادرون فرصة الا ويبرهنون فيها على انهم ذوو كرم وقرى بعض ذوات طاهرى النفوس يطعمون لوجه الله كل يوم مآة من الفقراء والمساكين حبا بالانسانية . ولهم بعض مآثر مدنية واجتماعية كالمصرف الاهلى ، وشركة الرصيف ... الخ مما يدل على ان ثروتهم المادية معززة بالثروة الروحية ايضا .

ولكن يا للاسف ؛ ان اقل تبدل فى العواطف يقوض تلك الشواهق فيذرها قاعاً صفصفاً ، ويحدث مكانها مهاو ووديان من الاهمال والنسيان متسعة الارجاء بعيدة الاغوار .

بسبب تلك العصبية الروحية ، والتقلب النفسى المحسوس فى طرابلس بصورة واضحة كانت الطباع كالفراش . ترفرف كل آن فى ساحة ، ثم تقف ؛ وربما تزج بنفسها وتذهب فى ميادين غريبة ، وراء الآفاق الطبيعية المعهودة . توجد فى طرابلس مودات ومعارفات محسوسة ، وموالاة وصداقة غريبة . ان بعض الطرابلسيين يأبى الا ان يعيش مشفوعاً بقرين . ويلفت النظر عدم المماثلة فى السن بين هؤلاء القرناء الذين يتجولون ويمشون ويقعدون ازواجاً . ويكونون من الالغاز المطاسمة فى نظر الغير لشدة ارتباطهم ببعضهم . لا يحتاج الانسان لذكاء حاد وبصيرة نافذة ليكشف ان الحدث من هذين الصديقين هو صاحب الكلمة العليا ، والسلطة النافذة . لان الانجلاب المفرط المشهود فى الرجال هناك يتجاوز حد المجاملة والخلوص .

ان هذه الالفة والرابطة المشهودة بين بعض الاشخاص فى طرابلس تدوم على ما يروى مدة طويلة . ويقال ان سبب ذلك هى الروح القنوعة والنفوس الهادئة المنكبة على المحافظة فى بعض الطرابلسيين . فانهم لا يرضون بفراق صديقهم بعد ان يتيقنوا بحبه وخلوصه . ولذلك يريدون ان يكون معهم اينما كانوا وحيثما حلوا . وتعيين هوية الشخصين ودرجة اختصاصهما ببعضهما تتجلى فى خواطر الطرابلسيين ، فى تلك الصحيفة الحية . وهذه الموالاة المعروفة قد تصل من المتانة والتأصل الى درجة يشاهد فيها بذل الاموال الطائلة . الا وان ذكرى هذه الزمر فى الخارج لا تزال تلقى فى قلوب الغرباء ، وحتى فى قلوب

الطرابلسيين انفسهم ، آذماً ممضة .

وبالنتيجة نقول ان مريدى الصلاح ، لا يشتهون وجود هكذا صحائف فى كتاب اخلاق الطرابلسيين . وعليه يكون تمنى سعى الطرابلسيين لطى تلك الصحائف وازالتها وبذل الجهد والاستطاعة لامحائها ضرورياً .

[٢] — **الحالة الروحية** — اذا اردنا ان نطلع على درجة الرقى الفكرى فى طرابلس ونقف على مقدار نصيبها من العلم. يجب علينا ان نمعن النظر فى افراد طبقاتها الاجتماعية.

سبق ان بينا اثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية ، ان بعض اولاد منسوبى الطبقة الاولى المعروفين باسم الاغنياء فى طرابلس ، درسوا اما فى مدارس بيروت ، او استانبول ، او غيرها وكان لهم نصيب من العلم على ما امكن . ولكن المتقدمين فى السن من اولاد عين الاغنياء لا نصيب لهم من هذا البتة ، ولا يتطلب هذا الادعاء اقامة البرهان لانه بديهى. انهم وان يكونوا على شئ من المكتسبات التقليدية ، ولكن لا تكون المكتسبات التقليدية من الجهاز الكافى للادمغة فى هذا العصر . اما الذين لهم المام بالعلوم الصرفية والشرعية فلا جرم انهم يشعرون بخطأهم ونقصهم لسبب اكتفائهم بهذه الاجهزة الحياتية اليسيرة ولهذا فان الثروة الفكرية القديمة فى هذه الطبقة لا تستطيع ان تستغل لطرابلس دخلاً توفرت فيه اسباب الكفاية والاستفادة .

اما منسوبو الطبقة الثانية ، فان عددهم كثير . يشمل السواد الاعظم من سكان طرابلس ، وبما ان الاكثرية فى طرفهم فان جميع الشبان الذين اتموا دروسهم فى مدارس مختلفة ، هم اولاد منسوبى هذه الطبقة . من الضرورى ان نعترف بان التعلم يوجب التنور ولكن يلزمنا ان نحكم فى الامر بالنسبة الى درجة ذلك التعلم. واذا شئنا ان نضع جدولاً نحصى فيه عدد الشبيبة الطرابلسية المتعلمة نرى ان عدد الذين تخرجوا فى مدارس اوروبا من مسلمين ونصارى ، هو « ٩٥ » . ومتخرجى المدارس العالية فى قاعدة الملك ، « ٧٠ » ومتخرجى المدارس التالية « ٣٠٠ » شاباً . اما الذين درسوا فى المكاتب الابتدائية فقد آثرنا ان نعتبرهم من الذين يعرفون الكتابة والقرائة فقط ، لا من صنف المتعلمين .

وعليه ان زمرة المتعلمين الذين يبلغ عددهم الى «٤٠٠» كادوا ان يكونوا كلهم من الطبقة الثانية . واذا فكرنا بان ارباب الطبقة الثالثة ليسوا بقادرين على تعليم اولادهم ، يظهر لنا الدليل الكافى على صدق رأينا .

ويمكننا الان ان نمعن فى التدقيق ونطلع على عدد المسلمين والنصارى من هؤلاء المتعلمين ونفرقهم عن بعضهم ونستنبط النسبة فى العلم بين هاتين الطائفتين :

ان ادعاء كل من متنورى المسلمين والنصارى واتفاقهم ، يمكننا من ايجاد هذا الجدول :

	المسلمون	النصارى	يكون
المتخرجون فى مدارس اوروبا	١١	٤	١٥
« فى المدارس العالية	٥٥	١٥	٧٠
« « « السلطانية	١٠	٥	١٥
« « « الاعدادية	٢٣٠	٧٠	٣٠٠
يكون الجميع	٣٠٦	٩٤	٤٠٠

اذا امعنا فى هذا الجدول ، وعلمنا ان مقدار النصارى هو خمس مقدار المسلمين ، نجد ان درجة المسيحيين فى العلم كادت ان تكون معادلة للمسلمين ، وحتى راجحة فى بعض النقاط . ولذلك فان زعم بعض الطرابلسيين بان عدد المتورين فى المسلمين اكثر من عدد المسيحيين لا يخلو من المبالغة . والاصح فى ذلك هو الاعتراف بوجود التوازن بين هاتين الطائفتين .

بعد ان ذكرنا المتخرجين فى المدارس الرسمية ، نريد ان نبحث نبذة عن المشايخ الذين تخرجوا فى المدارس الدينية ايضاً :

يوجد فى طرابلس خمس عشرة مدرسة رافقت القرون بقدمها فمنها : السقرقية والخاتونية والطواشية ، ومدرسة العطار والقرطائية] . وقد كان عدد هذه المدارس التى خصصت لها الاوقاف الوافرة كثيراً جداً . ويروى انه كان فى طرابلس مقدار (٣٦٦) من المدارس ، وكان لها اوقاف غنية . فما زالت تلعب بها الايدى حتى لم يبق منها الآن الا خمس عشرة مدرسة مشرفة على الخراب . اما البقية فلا يعثر لها على اثر .

ولو بحث عن هذه الاوقاف وانتزعت من ايدى الغاصبين ثم اسس بتلك المبالغ الجسيمة فى طرابلس بضع مدارس علمية ومدنية منتظمة تنطبق على المصلحة العصرية ، واصلحت بها المدارس المحلية ، لكان بها لطرابلس من المؤسسات العلمية ما يجعل لها الحظ الاوفر من العلم والمعرفة .

ولا ينكر ان طرابلس قد استفادت من هذه المدارس العامرة ، وان معظم ذوى الكسوة العلمية فى هذه البلدة له انتماء اليها . وقد سبق ان وجد فيها معلمون من فحول العلماء واعاظمها .

فاذا علمنا ان عدد الطلاب التى تنال الاجازات من هذه المدارس خمسة عشر فى كل سنة نعلم ان تلاميذها يتجاوزون المائتين فى عددهم . واكثر هؤلاء يستخدم الآن بوظيفة

القضاء فى اكثر انحاء الولايات العثمانية . ويوجد بينهم مقدار خمسة عشر من العلماء المتضلعين فى العلوم الشرعية ، ولا جرم ان اطلاعهم على العلوم العربية واسع ايضاً .

ولا يفوتنا ان هذه المدارس وان خدمت لتنوير الاذهان بالقرائة والكتابة خدمة لا تنكر ، غير ان دروسها تحصر فى العلوم الشرعية والعربية فقط ، ولا تتعرض للعلوم والفنون الحديثة ، ولهذا فان متخرجيها يميلون بالافكار الطرابلسية الى ما هم مختصون به من العلوم ويهملون الجهات الاخرى ، ومنها كانت هذه النتيجة التى خالفت المصلحة العصريه .

ومع هذا فان هذه النتيجة لا تزال تخفض بتاثير همة الشبان المتخرجين فى المدارس الرسمية ، الذين يزداد عددهم على تداول الايام . ثم ان كثرة المناسبات والمعاشرات التى اوجبها قرب طرابلس الى بيروت ، ووجودها على ساحل البحر ، وسهولة الطبع والاخلاق فى الطرابلسيين ، الناتجة عن المؤثرات الطبعية المحلية ما زالت تعدل تأثير تلك النتائج ، وتخفف وطئتها .

لا جرم ، تنقبض نفوس الشبان الطرابلسيين لما يرجعون الى بلدتهم واهليهم ، من الجاهلين ، او غير المنورين من مواطنيهم ، على انهم يتعزون بما عند اولئك الزمرة من لين العريكة والتلون الروحى والحياة النشيطة ؛ وبما فى طرابلس من البدايع الطبعية والفيض العميم ، ولا يشعرون بلزوم مبارحة اوطانهم لهذا السبب .

نرى من الواجب قبل اتمام هذا البحث ان ندرس تجار الطبقة الاولى والثانية فى طرابلس ونستطلع كيف امكنهم النجاح بغير علم ومعرفة ، وننظر الى ما يرمى اليه الطرابلسيون بان هذا النجاح هو دليل على المزية العلمية والنور الفكرى ، ونصحح ذلك الاعتقاد والادعاء .

لو سلمنا بنجاح الطرابلسيين فى مشاريعهم ، ولكن يجب ان يحمل هذا النجاح على ذكائهم المعلوم واستعدادهم الطبيعى اكثر ما يحمل على علمهم ؛ وعلى تجاربهم العملية ، اكثر من نظرياتهم العلمية . وهم يعملون على ما كان يعمل اسلافهم — دون ادنى تأثير علمى — فنجاحهم بتأييد الموجود وادامته لا يكون نجاحاً يفسح لهم عن طريق الرقى والكمال . ولو انهم اضافوا لهذا الاستعداد الفطرى ، مدبراً علمياً لكان نجاحهم اوفى واغنى ، ولاقتطفوا اثمار الرقى ، عوضاً عن احتفاظهم بالموجود .

بعد ان بحثنا عن الحالة الفكرية فى طرابلس يجدر بنا ان نطلع على مقدار من يحسن القرائة والكتابة من المسلمين والنصارى فيهم ، ونقارن بين هاتين الطائفتين من هذه الوجهة .

ان الربع من رجال المسلمين ، وخمس فى المأة من نسائهم — على التخمين — يحسنون

القرائة والكتابة . وعلى هذا الحساب يكون مقدار الرجال من هذا الصنف (٢٠٠٠ — ٢٥٠٠) ومقدار النساء (٥٠٠) فقط وباقل نفكر نعلم قلة هذا المقدار ولاسيما درجة الانحطاط الفكرى فى النساء ، وضعف الحالة الروحية فيهم . واذا اطلعنا على ان مقدار المتخرجين فى المدارس الابتدائية لا يزيد عن (٤٠٠ — ٥٠٠) فى السنة ، نحصل على العلم القطعى بدرجة تعلم الذين يحسنون القرائة والكتابة فى طرابلس .

اما الطائفة المسيحية ، فعلى زعم المتعلمين منهم ، ان تسعين فى المأة من الرجال اى (٢٠٠٠) ، وثمانين فيها من النساء اى (١٥٠٠) يحسنون الكتابة والقرائة . وان ستين فى المأة من هؤلاء النساء متخرجات فى المدارس الاجنبية . لاجرم ان هذا الحساب مبالغ فيه . على اننا لو اخذنا نصف هذا المقدار على علاته ، بشرط مراعاة النسبة فى النفوس لرأينا ان الطائفة المسيحية ارجح وارقى من اختها الاسلامية ، وبما ان المسيحيين اميل الى اللغات الاجنبية واعرف بها ، وانهم غير مقيدين فى معيشتهم ببعض القيود الاجتماعية كانوا اعلق بالآثار الحديثة الاجنبية واوفر وسائلاً للتنور بسبب اختلاطهم وعشرتهم . وعليه فان سويتهم الفكرية ارقى درجة من سوية المسلمين .

[٣] — **مناقب الشيخ العمرى** — نرى ان نعزز هذا البحث بالتكلم عن « الشيخ على العمرى » الذى ما زالت شخصيته تشغل الاذهان الطرابلسية منذ السنين الطوال ، ثم تحول هذا الاشغال الى اطمئنان ، ثم الى عقيدة ، ولم يلبث ان كان تنشئة راسخة . ونروى شيئاً من مناقبه التى تتناقلها الالسن والافواه فى طرابلس .

يجب علينا ان نعلم اولاً ، ان تعبير « الشيخ » فى سورية يدل — فى نظر الناس — على من يلبسون الكسوة العلمية . ولذلك لا يشترط العلم لاجل احراز هذا العنوان .

اتفقت الروايات على ان الشيخ العمرى كان امياً حتى آخر نفس من حياته ، ولكنه استطاع جلب قلوب الناس اليه ، واكتسب حبهم واحترامهم .

وان امعانه فى الصلاح والتقوى ، واطمئنان الناس بشئ من قدسيته واعتقادهم ببعض مناقبه وسيره التى يتلقونها من قبيل الكرامة ، جعل له المكانة العظمى ، والسلطة التامة فى قلوب الناس .

اجمع القوم على ن الشيخ العمرى كان معدن الخير والانسانية . وان شخصيته التى هى تمثال الحسنى كانت محترمة وموقرة عند الكبير والصغير من طبقات الناس والمأمورين وحتى عند جميع الطوائف غير المسلمة ايضاً .

اعتاد الشيخ على عدم الخروج من بيته فاذا صدف وخرج مرة فى السنة لا يلبث ان تخف اليه الزمر من مسلمين ونصارى وغيرهم ، ويشبعون ايديه تقبيلاً :

لم يضق الشيخ ذرعاً بامر حياته بل كانت الاعانات التى يضعها الزائرون تحت سجادته

تكفى لنفقته وتزيد ، وانه كان جواداً على الفقراء ولهذا لم يترك شيئاً يذكر من الوفر بعد وفاته رغماً عما كان له من العطايا البالغة .

توفى الشيخ سنة (١٣١٩) ومشى وراء جنازته جميع الطرابلسيين يودعونها بالدمع السواكب ، ودفن فى مقبره الخاص فى التربة القريبة من باب التبانة ويزعم اولاده انه عاش قريباً من مائة سنة .

وقصارى القول ان الشيخ العمرى على ما يروون عنه من حب الخير ، والطلعة الباشة وبحركاته القدسية الخارقة للطبيعة وكراماته ، كان معتقداً عظيماً فى نظر الطرابلسيين . ولا بد لكل من الطرابلسيين اذا حادثتموه ان يطلعكم على كثير من مناقب الشيخ التى لا تنتهى ويقول لكم باطمئنان كامل :

— انى مطمئن على ان « الشيخ العمرى » « ولى » بكراماته . وانا اعتقد بذلك .

لاسيما اذا وجدتم فى ناد يضم بعض افراد ممن يدينون بهذا الاعتقاد . تسمعون كثيراً من هذه المناقب . وتتسلسل الروايات بمآثر الشيخ . فتعلمون بتلك المنقولات التى تجعل الانسان فى حيرة . انكم تشاهدون الاحوال الروحية قائمة على سوقها .

رمتنا الصدفة ذات يوم فى مجلس ؛ حشد ارباب المناقب ، وحفاظ الروايات . فتقاطرت علينا جميع منقولات الشيخ ومآثره . وكان احدهم يقول :

— ركب الشيخ مركبة فى احد الايام ، واتى الى امام دار الحكومة فى طرابلس فرآه شرطيان ؛ وارادوا ان يأخذوا بيده اجلالاً لقدره ، وينزلوه من المركبة . فاعطاهم يده وقال : اسحبوا ماشئتم ، وابذلوا جهدكم . فأنحى الشرطيان على يده جراً بجميع قدرتهم . ولكن لم يقدروا ان يحركوه .

ثم قال الآخر :

— كان الشيخ امياً ؛ ولكن كان اذا شاء اخذ عوداً وغمسه فى فيه فكتب بمداد اسود خطاً كامل المعنى .

ثم ان احد المسيحيين قال :

— نقل لى رفيق هذه الحكاية : كان يساير الشيخ العمرى فجلسوا فى محل لأجل الراحة . وصدف ان قدم لهما قدحان من قهوة . فشرعا يشربان . ثم قدم الشيخ قدحه الى رفيقه قائلاً

— الا تشرب منه : فشرب الرفيق وشعر ان القدح يتضوع منه المسك .

ثم قال الآخر:

— اعلم روايتين عن الشيخ ، ولم اكد انساها . وها انا اتلوها عليكم :

— صدف الشيخ احد معارفه وهو سائر فى الطريق . وسأله الى اين يذهب ، فأجابه

انه دعى هذا المساء الى مأدبة . فقال له الشيخ اياك ان تتأخر الى بعد الساعة السادسة «غروبية». ثم اخذ الشيخ سبيله وسمع وهو يقول لنفسه « حرق الله لحية من يغتا بك » و«ربما يقتل الله جملاً ليطعم بعوضة » . ثم ان ذلك الرجل رجع الى بيته فى الوقت الذى حده الشيخ ولم يلبث نصف ساعة حتى مات . وقد قصد الشيخ فى كلامه الآية القرآنية « ولا يغتب بعضكم بعضاً » وانه قصد فى الجملة الثانية ايضاح معنى هذه الآية ، واخبر سلفاً ان ذلك الرجل سيموت .

ثم يروى عن الشيخ انه دعى لعيادة مريض وقرائته . وكان المريض مشرفاً على التلف فدخل الشيخ الى البيت وقال للحاضرين « اذا وهبتمونى فرساً ، شفيت عليلكم » فرضوا بالشرط . ولم يلبثوا ان سمعوا فى الاصطبل صوتاً هائلاً . فاسرعوا اليه واذا باحد الافراس قد انفطرت . ثم شفى المريض .

ثم اجمل احد الحاضرين مناقب الشيخ العمرى وقال :

— ان اهم مناقب الشيخ انه يغمس القدح فى البحيرة فيكون الماء فيه شراباً ، ويأخذ عودا ، او ورقة ثم يبلها بريقه ويمسح بها العين الرمداء فيشفيها ، واعظم من هذا انه يأخذ عوداً فيذبح به شاة ويسلخها ....

ان هذه المناقب التى تؤثر فى طرابلس عن الشيخ العمرى لاتزال تكررها الالسن فى كل يوم.

وقصارى القول ان عقيدة الشيخ العمرى المؤيدة بهذه المناقب وامثالها ، هى على غاية من الاستقرار والتأصل فى النفوس . واننا لا نرى حاجة للتكلم عن هذه الروايات الخارقة او بالأحرى عن تلك الحالات الروحية الملموسة . ولهذا السبب اكتفينا بنقلها وتحريرها على علاتها .

٦ — الاحوال الصحية فى طرابلس

[١] — **الحالة الصحية** — بينا آنفاً ان طرابلس الشام ، هى بلدة لها اقليم معتدل ولطيف ، كباقى البلاد فى سورية . وبما انها محاطة بالرياض الواسعة التى تسقى من ماء النهر تكون الرطوبة فيها على ازدياد دائم . ولهذا كان هواؤها ارطب واثقل من هواء بيروت . ويزعم اطباؤها ان حرارتها فى الصيف لاتزيد عن ٣٠–٣٣ درجة سانتيغراد وفى الشتاء لاتنقص عن سبع درجات ولهذا تكون حرارتها الوسطى ٢٨,٢٧ درجة فى الصيف و١٤–١٥ درجة فى الشتاء .

بينا حين البحث عن الخطوط الداخلية فى طرابلس ، ان بيوتها القديمة متصلة ببعضها وان الطرق بين تلك البيوت ضيقة ، واكثرها مستور بالحنايا المسقوفة ولهذا كانت البيوت والطرق محرومة من الشمس ، ومن جريان الهواء . ومع هذا فان الطرق التى فتحت

حديثاً هى واسعة ، والبيوت الحديثة — كبيوت القبة والتل — آخذة نصيبها من الهواء والشمس .

اما ماء طرابلس فهو كما قدمنا يفرق من جدول « رشعين » وهذا الماء باوصافه الخارجية . اى بصفائه ونظافته وطعمه هو صالح للشرب غير انه مكشوف المجرى اعتباراً من منبعه حتى يدخل البلدة . ويمر على بضع قرى من اعمال لبنان ولهذا اصبح ماءه معروضاً للكدورة والاوساخ بنسبة ابتعاده عن منبعه . وعليه فان هذا الماء له التأثير العظيم بانتشار مرض القوليرا ، وامثالها من الامراض التى تمكن سرايتها بواسطة الماء . لاسيما وان المجارى، فى وسط البلدة تمر ماسة بمجارى المياه القذرة وغيرها فتتلوث بما يرشح من هاتيك المجارى وتفسد ، ولهذا يجب على الذين تهمهم صيانة هذه البلدة وحفظها من الامراض القتالة ان يسعوا لاسالة هذا الماء بانابيب من حديد محفوظة من كل مدنث .

ويجب علينا حين البحث عن المسائل الصحية ان نعلم ان كثيراً من الناس فى طرابلس لا يقدرون قدر الصحة ، ولا يعلمون من التدابير الصحية شيئاً . هذا وان كان يؤثر عن الطرابلسيين ان داخل بيوتهم نظيف ، ولكن الشكل الخارجى غير منطبق على القواعد الصحية البتة . لاسيما وان السواد الاعظم من الطبقة الثانية ، وعموم افراد الطبقة الثالثة هم من الجهالة العمياء فى درجة جعلتهم يغضون عن التدابير الصحية بصورة واضحة . ثم ان اعتياد بعضهم على اكل بعض البقول او الاثمار دون ان يطبخوها ؛ والمستنقعات التى تحصل فى الرياض والبساتين ، بسبب السقى هى من الاسباب الضارة التى لا تزال الصحة العمومية فى طرابلس تحت خطرها وتهديدها .

[٢] — *امراض البلدة ، والامراض الطارئة* — ان اكثر ما يرى فى طرابلس من الامراض الموقعية هى « الحمى المرزغية » ولا يخلو بيت فيها من تسلط هذه الحمى على افراده بضع مرات فى السنة . واكبر داع لتأصل هذا المرض هى المستنقعات التى توجد فى البساتين ، ثم عدم انتظام مجارى المياه ، وعدم حفظها وصيانتها . ويقول اطباء البلدة ان هذا المرض يبتدأ فى اواخر الصيف ، وتشتد سورته فى فصل الخريف لدرجة هائلة . ومع ان هذا المرض ليس بقاتل ، ولكن اكثر الممروضين به يصابون بفقر الدم وبامراض الكبد والطحال .

اذا شئنا ان نرتب جدولاً لهذا المرض فلا نبالغ ان قلنا ان عدد المصابين به فى اليوم يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين . ثم اذا علمنا انه يوجد من يصاب بعين المرض مرات متعددة فى السنة ؛ نطلع على ضرورة التذرع بالتدابير والوسائل الفنية التى يمكن بها تخليص حياة هذه البلدة من هذا الداء العمومى .

وباعتبار الكمية يأتى فى الدرجة الثانية مرض « ديزانتەرى » . ولربما يعثر فى طرابلس ايام الصيف على بضعة اشخاص من مصابى هذا الداء فى كل يوم . ويشاهد تصاعد هذا المقدار الى ثلاثين او اربعين ايضاً .

وسبب تفشى هذا المرض وتأصله هناك يحمل على عدم صون الماء من جانب ، وانهماك الطرابلسيين باكل الاثمار والبقول بلا طبخ من جانب آخر . وهذا المرض يفتك بهذه البلدة فتكاً ذريعاً . والجداول الرسمية (*) تنطق بان عدد الوفيات من هذا الداء كان سنة (١٣٣٢) مقدار (٢٥٢) شخصاً . فاذا نظرنا الى هذه الكثرة فى الوفيات نعلم ان الذين يصابون به هم اكثر من هذا المقدار واعظم . حتى ان عدد الوفيات من هذا المرض كان فى الشهور الاربعة الاولى من سنة ١٣٣٢ اى قبل حلوله الصيف ، (٢٣) شخصاً . وعليه يجب التذرع بالتدابير العاجلة لدرأ هذا الخطر الحياتى عن طرابلس .

ثم ان اعم مرض فى طرابلس بعد مرض « ديزانتەرى » هى الحمى التيفوئيدية . وسبب سرايتها وتفشيها هو الماء ايضاً . ومجموع الوفيات السنوية منها تقرب من مقدار وفيات ديزانتەرى .

ويعثر فى طرابلس على امراض « ذات الرئة » ، و« الروماتزمه » وذلك لانها بلدة رطبة . اما مرض « السل » فقد كان فيها كثيراً قبل بضع سنين . ولكن تناقص مقداره فى هذه الايام لاعتناء السكان بالامور الصحية لدرجة . وارتنا الجداول الصحية ان الوفيات من سل الرئة كان مقدارها (٣٨) ، سنة ١٣٣٢ . اما فى الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ فلم يتوف بهذا الداء الا شخص واحد .

ثم ان الامراض الكليوية والقلبية والمعدوية كثيرة جداً . ونرى فى عين الجدول انه توفى سنة ١٣٣٢ من الامراض القلبية (٥٦) ومن الامراض الكليوية (٤٨) ومن الامراض المعدوية (٧٦) شخصاً . وفى الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ توفى بعين الامراض (٨) و(٢) و(٤١) شخصاً .

يجب ان لا ننسى حين البحث عن امراض طرابلس ، امراض الجرب ، والامراض الافرنجية . ان مرض الجرب قد تفشى فى الايام الاخيرة بصورة هائلة ، حتى انه شمل جميع الطبقات الاجتماعية هناك . ويخمن مقدار المصابين به اليوم يتراوح بين (٢٠٠) و(٣٠٠) شخصا .

اما الافرنجى فهو على اضعاف امثال الجرب فى مقدار المصابين وان هذا المرض الذى لم

(*) لم نتمكن من الحصول على شئ من الجداول الصحية ، الا على جدول وفيات سنة (١٣٣٢) ، وجدول اربعة شهور من سنة (١٣٣٣) فقط .

يكن له اثر قبل بضع عشرة سنة اصبح اليوم متفشياً بنسبة عظيمة، وعلى التخمين الموثوق ان نسبته تجاوز واحداً من ثلاثين بالنظر لمجموع السكان. ويوجد غير هذا من الامراض السمية الاخرى. ولكن لا تبلغ درجتها الى مقدار مرض الافرنجي. ثم يوجد المرض الذى حاولت افهامه حين البحث عن الاحوال الروحية، وهو يتناول اكثر من نصف السكان. ومما يوجب المسرة ان مقداره لا يزال في نقص متوال.

* * *

اما الامراض الطارئة التي انتكت بالطرابلسيين بهذه الايام. فهي «الحمى النمشية» و«القوليره».

توفي من مصابي الحمى النمشية سنة ١٣٣٢ مقدار ثمانية من المائة، وفي الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ لم تجاوز الوفيات اربعة من المائة. ومجموع هؤلاء الوفيات سنة ١٣٣٢ (٥٧)، وفي هذه السنة (٥٤) شخصا.

اما القوليره فما كانت شديدة الوطئة في هذه السنين. وقد كان يتوقع منها ان تكون اشد مما كانت، ذلك بسبب سوء الحالة الصحية في طرابلس. سبق ان دخل ذلك المرض هذا البلدة قبل خمسة عشر عاماً. فكان عدد الوفيات يتراوح بين الخمسين والمائة في كل يوم. على ان جميع الوفيات التي كانت سنة ١٣٣٢ من القوليرة لم تجاوز (٦٥) شخصاً. اما المصابون فعددهم اكثر من هذا بعشرين مرة. اما في الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ فلم يحدث اصابات من القوليرة البتة.

ثم يجب علينا قبل اتمام هذا البحث ان نتكلم عن الذين يميتهم سؤ التغذى، او بالاوضح الذين افناهم الجوع. ومقدار هؤلاء بموجب الجدول الرسمي (٢٤٠) شخصاً سنة ١٣٣٢ ثم ازداد المقدار في الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ فكان «٢٨٨» شخصاً فاذا دام هذا الحال فان طرابلس ستفقد في السنة واحداً من عشرين من سكانها.

واذا اضفنا الى الوفيات التي بحثنا عنها مقدار الوفيات التي تكون بسبب الجدري، والامراض التنفسية والدماغية فيكون المجموع سنة ١٣٣٢ مقدار (١٤٥٤) وفي الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ مقدار «١٥٤٣» من النسمات. ثم اذا علمنا ان معظم الشبان منخرطون اليوم في سلك الجندية، واطلعنا على ان هذه الوفيات كانت من القسم الباقي ندرك خطورة هذا المقدار على حياة البلدة؛ لاسيما في هذا الزمن الذى تندر فيه اللدات. فلا ريب ان طرابلس اضاعت ربع، او على الاقل خمس سكانها في هذه الثلاث سنين. وجسامة هذا المقدار جديرة بأن تدعونا الى التفكر والامعان.

[٣] — **الاسس الصحية** — من الضروري ان نحكم على عدم كفاية الاسس الصحية.

بعد ان رأينا جدول الامراض على هذا النمط. اذ لا يوجد الآن سوى طبيبين رسميين الواحد في بلدية البلدة، والثاني في بلدية الميناء. والاطباء الخصوصية لم يبق منهم الا خمسة او ستة. وبالنظر الى طرابلس التي كان فيها قبل الحرب، مع قلة الامراض اكثر من ثلاثين طبيباً. لاجرم ان هذا العدد من الاطباء قليل جداً.

ويجب ايجاد المستشفيات، ودور التجريد في هذا البلدة ذلك لأن التوسل بالتدابير الجبرية تلقاء هؤلاء الاهالي الذين لايدرون معنى الصحة، ضروري وبديهي. وقد تأسس مستشفى للبلدية في بناء العذرية، وشرع في تجريد مصابي الحمى النمشية. على ان هذه التدابير الوقتية لاتقوم بهذا الواجب الحياتي.

وان المستشفى البلدي الذي شيد في الطف بقعة في طرابلس، واعد فيه خمسين سريراً، وسمي «مستشفى عزمي بك» هو بالرغم عن ضيقه اثر خطير جداً، لانه يقوم بدفع قسم من هذا الاحتياج الحياتي العظيم. وان تأسس هكذا آثار فيها الخير العميم لحياة العموم هو من الآمال التي يرام تحققها.

اما «مستشفى يسار» الخصوصي المبني في مكان لطيف من البلدة، هو بمثابة مستشفى جراحي، وقد كان يوجد فيه اكثر من ثلاثين مريضاً. اما اليوم فموجوده لايزيد عن اثنين او ثلاث.

فاذا اضفنا لهذه المؤسسات الصحية خمس، او ست صيدليات في البلدة، وثلاث في الميناء، ومأموراً للتطعيم، وعلمنا ان تلك الاسس مع نقصها محرومة من كل الوسائط الصحية، الفنية، نطلع على نسبة احتياجنا الى تنظيم تلك الدائرة واتمامها، ونعلم ان الانتظار لتحقيق هذه الاماني شديد جدا.

٧ — اللغة والادبيات، والفنون الجميلة

[١] — **اللغة** — ان اللغة المستعملة بين الطوائف، والطبقات المختلفة في طرابلس، هي لاجرم اللغة العجمى، ومع هذا فان لهذه اللغة هنا بعض شذوذ. وهذا الشذوذ، او تبدل اللهجة لا يظهر تماماً في مسيحيي طرابلس ولكن المسلمين وخصوصا الطبقة الثالثة منهم، لا تزال تنهج سبيله.

وبما ان طرابلس هي بلدة تميل باوصافها لتمثيل بيروت والشام معاً، كانت لهجتها ايضاً منقسمة بين هذين المركزين السوريين. وغدت لغتها في متوسط اللغتين ترمي بتضخيم الالفاظ الى البيروتية، وبتخفيفها الى اللغة الشامية. ثم انها تميل تارة لهذه واخرى لتلك وآونة تبتعد عن كلتيهما. فاذا اردنا ان نفصح عن هذه اللغة، يجب علينا ان نطلع على

الفروق الظاهرة التى تفرق اللهجة الطرابلسية عن البيروتية .

اولاً — ان الطرابلسيين يخففون الالفاظ ويرققونها ، مع ان البيروتيين يفخمون الكلامت وينطقون بها بصوت مفخم .

ثانياً — يقصر الطرابلسيون مد الحروف الصوتية ، والبيروتيون يطيلون مدها .

ثالثاً — ان البيروتيين يفرقون بين كلامهم ويفصلونه بايراد لفظة « نهْنه » ويقصدون بها الاستفهام . اما الطرابلسيون فهم يصلون كلماتهم ببعضها ، ولا يستعملون هكذا استفهام .

رابعاً — يلفظ البيروتيون حرف (أ) كالياء ، او يميلون بها الى الكسرة اما الطرابلسيون فيجعلونها كحرف « و » . مثلاً يلفظون كلمة (نار) بصورة « نور » .

خامساً — يبدل الطرابلسيون حرف « القاف » الى همزة .

ورغماً عن هذا الشذوذ الخصوصى ، فاللغة الطرابلسية ليست بلغة غليظة . بل هى لهجة رقيقة ، لطيفة الوقع على السمع .

لا سيما وان فى طرابلس استعداد واضح للادب — كما ذكرنا ؛ وسنذكر — ولهذا نرى الطرابلسيين لا يألون جهداً بالسعى لتقريب لغتهم الى حدود الفصاحة ، ويوجد بينهم اكثر من مأة شخص يتكلمون بالعربية الفصحى . واكثر منسوبى الطبقة المنورة لهم نصيب من هذه القدرة . ولا بد من التسليم بان للمدارس الطرابلسية اليد البيضاء فى ايجاد هذا الميل .

ولا ينكر فى هذا الخصوص تأثير المدارس الرسمية ايضاً . وما كان الاطلاع على اللغة التركية فى طرابلس اكثر من غيرها الا بفضل هذه المدارس ثم وان لم يوجد بين خمسة آلاف من المسيحيين الا بضعة اشخاص لهم المام باللغة التركية ، غير ان اكثر المسلمين يتقنونها ، او يتكلمون بها . ويسهل علينا بيان السبب فى ذلك . لان المسلمين ما زالوا لا يرغبون بوضع ابنائهم فى المدارس المسيحية الخصوصية ، او فى المدارس الاجنبية ، بل انهم يختارون المدارس الرسمية . ولهذا السبب فاننا نرى ما عدا مأذونى المدارس العالية والتالية ، ماذونى المدارس الابتدائية ايضاً الذين يتجاوزون فى عددهم خمسمائة شخصاً كلهم يتكلم باللغة التركية على قدر الامكان .

اما المسيحيون فانهم يضعون ابناءهم فى كل مدرسة ، ما عدا المدارس الرسمية ولهذا فان اللغة الفرانساوية والانكليزية متفشية بينهم . ويدعى منورو هذه الطائفة ان خمسة وسبعين فى المأة من الرجال الذين يحسنون القرائة ، يتقنون اللغة الفرنساوية ، وخمسة وعشرين فى المائة منهم يحسنون اللغة الانكليزية . اما نساؤهم فمنهن خمس وسبعون فى المائة يعلمن اللغة الانكليزية ، وخمس وعشرون منهن يتكلم بالافرنسية .

فاذا كان هذا الادعاء خال عن المبالغة يكون فى المسيحيين عدد العالمين باللغة الافرنسية «١٥٠٠» وباللغة الانكليزية «٥٠٠» من الرجال ، ومن النساء «١١٢٥» ممن يحسن الانكليزية و«٣٧٥» ممن يتقن الافرنسية . وهذا المقدار يجب ان يلفت نظرنا الى مساعى المؤسسات الفرنساوية والانكليزية بتعميم لغاتهم ، وحلولهم فى الطوائف المسيحية الطرابلسية .

*
* *

[٢] — **الادبيات والفنون الجميلة** — نريد بعد ان رسمنا خريطة اللغة الطرابلسية ، وبينا خطوطها على وجه الاجمال ، ان ننقل الكلام الى ما لديها من الثروت الادبية ونصور خطوطها على صحيفة مجملة .

ان السكان ذوى الذوق السالم ، وعاشقى الجمال من طرابلس التى شحنت بالبدايع الطبيعية ، يظهر فيهم استعداد الادب منذ حداثتهم ، وما زلنا نقول ان لهؤلاء المغرمين بالاذواق البديعة ، ثروة روحية من نكهة تلك الحدائق العاطرة ، ولهم خيوط حريرية من نور قمرهم المنير . وان الالحان الموسيقية التى تسخر الارواح ، والنفثات الشعرية التى تسحر الالباب هى عندهم على اعظم قيمة بديعية . ولهذا فلا بد للطرابلسيين ان تحدو بهم تلك المنح الطبيعية لابداع فسطاط من الادب منسوج بالاصوات والالفاظ . وعليه فان الشعر والموسيقة يعتبران فى طرابلس بتجليهما الساحر الخالب مصدرى وجد ثمين للقلوب المغرمة . ثم ان بقية الفنون الجميلة هى على استعداد لان تكون ذات فيض محسوس لدرجة . ولا نكر ان الفنون الجميلة الاخرى هى كالفدفد الساكن بالنسبة الى ما شيده الطرابلسيون من شواهق الادب ، لدرجة لو اوجدت يد الطبيعة فى ذلك المهمه شيئاً من كثبان البدايع فلا يمكن اعتبارها تمثالاً للصنعة .

وقصارى القول ان الشعر فى طرابلس ، مستحوذ على جميع الديار الروحية . ولاجرم ان الذوق الادبى لم يبلغ رشده لدى الناس ، ولهذا كثيراً ما نراهم يترنمون بالغناء الذى تتغنى به المتبرجات على مسارح الشام وبيروت . بيد ان هذا الخطأ عمومى . وسنذكر اثناء البحث عن مدينة (بيروت) ان الاغانى [*] التى تتردد على السن الناس فى سورية . ولاسيما فى بلاد الساحل ومدائن الداخل ، مرتبة على نسق يناسب شأن الرقاصات اليهودية ، والنصرانية . وهى خلو عن المعنى ، والذوق ، والشعور البديعى ، ولهذا لا يسوغ اعتبارها معكساً للبدايع السورية ، ولا نموذج ابداع منبعث من روح سورية .

لانرى لزوماً للاسهاب فى ايضاح تأثير تلك الاهازيج التى تشبه الاهازيج القديمة فى

[*] اننا سنبحث عن ماهية هذه الاغانى فى المجلد الثالث ، المصمم على تاليفه

استانبول ، والتي لايتغنى بها الا اثناء الرقص ، ومنافاتها للاذواق السليمة . على ان هذه القطع تجلب النظر من حيث كونها شعوراً انامياً يشف عن سوية اذواق الناس .

ولو قنعت طرابلس بهذه الاغاني المبرجة التي هي مصدر اذواق ، وطرب لطبقة كثيفة من الناس لما كان لمحيطها نصيب من الشعر ، والصفة الادبية البتة . ولكن لها رجال يهيمون بمحاسن الشعر ، ويعالجون ان يكون لهم انجاح بالتعبير عن شعورهم الذكية الطاهرة ، بالفاظ نزهت عن كل شائبة وشين . ويجب الاعتراف بأن الطبقة المنورة في طرابلس مشغوفة بحب تلك الآثار وعندها لها الاقبال المعظم .

اذا تنقبنا عن ماضي طرابلس في الادب نرى ان شعرائها ، ومن انتمى الى الشعر فيها كلهم من منسوبي الطبقة العلمية . ولو صرفنا النظر عمن ضاعت اسماؤهم في طي الاجيال الغابرة ، وبدأنا من القرن الخامس للهجرة ؛ من « ابن المنير الطرابلسي » حتى نصل الى القرن الثاني عشر وفيه « يوسف افندي الذوق » ثم شعراء القرن الحديث ، « الشيخ عبد الغني افندي الرافعي » و« الشيخ حسين افندي الجسر » . وحتى شعراء اليوم نراهم جميعاً من رجال العلم :

فاذا علمنا ان هؤلاء الرجال تخرجوا في المدارس العلمية ، وكان بعضهم يعد من فحول العلماء في عصره ، نطلع على مايجب ان تختص به آثارهم من الاوصاف المميزة ، بنظرة بسيطة . وها نحن نتصفح كتاب « البدر التمام في مولد خير الانام » الذي نظمه المرحوم الشيخ حسين افندي الجسر ، ونتخذه ذريعة لايضاح المقام . ونكتفي بتحليل موضوعه واظهاره .

ان هذا المؤلف الذي الفه افحل علماء طرابلس ونشره سنة (١٣١٥) ، هو كما يدل عليه اسمه يتضمن قصة المولد النبوي بعبارة منظومة ، وله قيمة عالية من حيث الشعر لانه منبعث عن انجلاب وجد ديني .

مهما كان موضوع الشعر معلوماً وعمومياً ، فان النجاح باتقان الافادة والتعبير هو الذي يكسبه الميزة والحسن . لاسيما وان النجاح في هكذا مواضيع فكرية يتوقف على توفيق الموضوع بعواطف حازة وشعور حية . ويمكننا ان نسلم بنجاح « الشيخ حسين افندي الجسر » اذا نظرنا في مؤلفه من هذه الوجهة : ان فاتحة مقال هذا المصنف ؛ هي :

حمداً لمن بعث النبي رحيما
بالمؤمنين وزاده تكريما
أنشاه من اصل زها تفخيما
وانار فيه الكائنات عموما
صلوا عليه وسلموا تسليما

وهذا التأليف المخمس الذي بدأ بهذه القطعة ؛ لا يزال يتسلسل حتى النهاية على هذا النمط من الاسترسال ، وسهولة الاداء .

ان هذه المنظومة التي تتألف من مائة وخمسين قطعة لا جرم صدرت عن شعور حي يتدفق بالوجد والهياج .

ثم حكى عن المشهودات التي تجلت أثناء الولادة النبوية وقال :

ورأت كأن جناح طير ابيضا
مسح الفوآد لهابمسى مرتضى

وقد ابدع الناظم في هذه القطعة التي جعل مطلعها هذين البيتين ، فبينما كان يترجم عن شعور « آمنه » رضي الله عنها ؛ نفثت الروح الحقيقيا في هاتيك الاذمنة الحالية ، واحياها بسلسبيل رحيقها ، وبهيف نسائها . وبملائكتها المنتظرين قدوم النبي وفي ايديهم اكواب الفضة وبطيورها التي تخفق باجنحة من الياقوت والزمرد .

ثم قال بعد الولادة :

اهلاً بشمس الكائنات وبدرها
اهلاً ببهجتها وغرة فجرها
اهلاً بحكمتها ونقطة سرها
اهلاً بختم المرسلين عموما

ما اوضح قناعته الدينية التي بينها وهو يرحب بقدوم النبي، ويعرف انه شمس الكائنات وبدرها ، وحكمتها وسرها .

وقصارى القول ؛ ان « الشيخ حسين افندي الجسر » بتأليفه هذا طرق موضوعاً فكرياً لم يزل يطرقه الشعراء منذ الف ثلاثةعشر قرناً ، فشحنه بالشعور الحي الحار مع انه مستعد لان لايهيج الحس لاعتياد الاذهان عليه . ولهذا ترى الناس في طرابلس وغيرها مقبلين على هذا المؤلف اقبالاً عظيماً ، ويحبونه محبة شديدة .

وقد اضاف المؤلف الى مصنفه قدوداً اعدها لتنشد اثناء تلاوة المولد . ويوجد بين هذه القطع الصغيرة ، ما هو جدير بالاستحسان : ولاسيما خطابه لآل النبي ، حيث يقول فيه :

اضائتم شموسا بافق الحجاز
وفيكم انارت قلوب العباد
هداكم دعانا لخير المجاز
ففزنا جميعاً ونلنا المراد
اليكم شكونا صروف الزمان
وجور الرزايا وظلم الطغام

وفيكم رجونا بلوغ الأمان
ونيل الامانى بدار السلام
فيا آل طه اغيثو الدخيل
ومنوا بوصل شفاء القلوب
بجاه التهامى العظيم الجليل
شفيع البرايا بيوم الكروب

وهذه الابيات تمتاز عن غيرها، من حيث الوقع والمضمون . والمسحة الشعرية .

ويروى ان للمرحوم مؤلفات لم تطبع ، غير هذه القطع ، وعليه لم نر مساغاً لابداء الراى دون ان نطلع عليها . ولكن لا بد ان تكون مشحونة بالحسيات الدينية كبقية مصنفاته .

ولا ريب ان الوصف الدينى والعلمى له نصيب فى « الشيخ حسين افندى » اكثر من السجية الشعرية .

ونرى هذا الوصف الخاص يتجلى فى اشعار جميع العلماء الطرابلسيين ، ممن يضاهى الشيخ المرحوم ، او يقاربه فى الوصف.

اما شعراء اليوم فاننا نخص بالبحث منهم « عبد الحميد افندى الرافعى » ، وهو اشهرهم واعرفهم :

ولد عبد الحميد افندى فى طرابلس سنة (١٢٧٨) . ووالده « عبد الغنى افندى الرافعى » كان من اشهر علماء الثغر وشعرائه . وينتهى نسبه الى « عمر الفاروق » رضى الله عنه. وكان يتلقى علومه عن الشيخ حسين افندى الجسر منذ حداثته، وكان الشيخ لا يخلو من الاعجاب بذكائه الحاد لانه كان يحفظ القصيدة المؤلفة من عشرات البيوت بتكرارها مرة او مرتين . ويبرهن عن قوة حافظته وفرط ذكائه . وان السليقة الشعرية التى ورثها عبد الحميد افندى عن ابيه الشاعر كانت تنمو بتأثير البدايع الطرابلسيه من جهة ؛ وتنكشف بما يتلقنه من الارشادات الادبية من والده وشيخه من جهة اخرى . ثم ان اشتغاله بالتحصيل المدرسى مقدار اربع او خمس سنين احدث له علاقة فى العلوم الشرعية واللغوية . ثم سافر الى مصر ودرس العلوم فى الكلية الازهرية مقدار اربع سنين ، ثم قفل الى وطنه . وقد صقل المحيط المصرى سجيته العلمية والشعرية .

وبعد رجوعه الى طرابلس استخدم فى بعض الوظائف العدلية، ولم يلبث ان سافر الى دار السعادة سنة (١٣١٥)، فالف كتابه (مدح السيد الرفاعى) وقدمه الى ابى الهدى افندى الذى كان من مقربى السلطان عبد الحميد . وعليه نال القائمقامية ورجع الى سورية . وكانت مأموريته فى قضاء عجلون والناصرة والحصن . ثم احيل على التقاعد .

برهن عبد الحميد افندى عن ذكائه ودرايته فى كل وظيفة تقلدها ، ومع ذلك فانه كان محكوماً لسجيته الشعرية . وقد بدل اللباس العلمى بعد تقلده القائمقامية . ولكنه لم يزل متمسكاً باوصافه العلمية . وهو على غاية من حسن الخلق والتقوى ، وله الميزة الحقيقية بفضله وعلمه ، وهو شاعر قبل كل شئ ، ويعرف لدى منتسبى الادب بشاعر الفيحاء . وهو اليوم لا جرم اعظم شاعر عصرى فى سورية . وقد كان فى الدور السابق ينشر اشعاره بواسطة ابى الهدى افندى ، اما بعد الدستور فشرع ينشرها فى مجلات مختلفة . وانه لم يجمع اشعاره المتفرقة ، ويطبعها فى ديوان آخر .

لقد ابدع عبد الحميد افندى كل الابداع ، واقتدر على اظهار براعته ورقته الشعرية فى ديوانه الذى اتحف به ابا الهدى افندى ، ومع ذلك فان انفس اشعاره ، هى التى نشرت فى مجلة الزهور المصرية . ومنها قصيدة « المشيب » التى مطلعها :

يا شيب عجلت على لمتى
ظلماً فيابن النور ما اظلمك
بدلت بالكافور مسكى وما
اضواه فى عينى وما اعتمك

ان هذين البيتين الناطقين بتألم الشاعر من معاجلة الشيب له، فيهما الدلالة الكافية على رقة شعوره ، ونزاهة خياله . ثم قال بعد هذين البيتين :

من يقبل الفاضح من ساتر
فهات ليلاى وخذ مريمك

وهنا ايضاً قد نفخ من روحه فى خياله حتى جعله حياً محسوساً .
ثم قال فى آخر القصيدة :

يا رب ما طال زمان الصبى
كانه طيف سرى وانهمك
وهكذا الايام تطوى بنا
سبحانك اللهم ما اعظمك
رضيت يا ربى بما ترتضى
فلا تخيب مذنباً يممك
وانت ياشيبى خذ بى الى الـ
تقوى عسى الرحمن ان يرحمك

وهنا تسلطت القوة الدينية على الشاعر فنقلته الى الديار الفكرية ، ولكنها لم تسقطه عن عرش شاعريته .

وله قصيدة عنوانها «دعاء الحبيب» نشرتها مجلة الزهور ايضاً، وهى من قصائده الغراء. وقد قال فى مطلعها :

سلوها لماذا غير السقم حالها
ترى شغفت حبا والا فما لها

ثم شرع يبث الى محبوبته، ارق شعوره، وانزهها. فقال :

وكم غربة قاسيت من اجل حبها
اجوب الفيافى سهلها وجبالها
ولولا الهوى ما هام فى الكون واحد
ولا فارقت اسد العرين دحالها

ويمكن ان يقال ان الشاعر توفق فى هذه القصيدة الى التعبير عن جميع اضطرباته الغرامية، بلسان رقيق ومؤنس.

وله قصيدة اخرى نشرها فى المجلة عينها وسماها (سجن الهوى)، ومطلعها :

اصل سقمى من العيون السقيمه
وانحنائى من القدود القويمه

وقصيدته التى عنوانها «الى شاعر الامير». وقد خاطب بها احمد شوقى، اشهر شعراء العصر فى مصر. ومطلعها :

حلق فكرى فى سماء الخيال
وساح فى سوح المعانى وجال

وهما من غرر قصائده.

لا بد ان اذكر بضعة ابيات لعبد الحميد افندى قالهم متحمساً كبقية الطرابلسيين فى خال بين حاجبين :

الخال

قلت لخال بين حاجبيها
انت الذى تلعب بالسيفين
فقال لا لكننى عنبرة
تمد من دخانها قوسين
اصون بالبخور حسن وجهها
خوفاً عليه من سهام العين

وهذه القطعة هى نموذج للشعر الشرقى بحثها عن اللعب بالسيف، واستعمال البخور، ونظرة العين، من العوائد الشرقية وقصارى القول ان الصفة الخاصة فى شعر عبد الحميد

افندى، هى الرقة والانسية. ولا حرج على الطرابلسيين مهما افتخروا بهذا الشاعر الفرد. ولهذا فان اشعاره لا تزال تهفوا اليها القلوب فى طرابلس وسائر الاقطار والامصار.

واسرة «الرافعى» التى ينتمى اليها عبد الحميد افندى لم تزل مصدراً للشعراء المجيدين، ولهذه الاسرة شعبة فى مصر، نبغ فيها مصطفى افندى صادق الرافعى ابن عبد الرزاق افندى الرافعى، المولود سنة ١٢٩٨ فى قرية بهيتم من اعمال مصر، وهو اليوم من الطبقة الاولى بين شعراء القطر، وله ديوان اشعار جمعه فى ثلاثة مجلدات. وله تأليف آخر سماه «النظرات». (*)

*
* *

علمنا من هذا الاجمال فى ادبيات طرابلس ان محيطها البديع نال على الحظ الاوفى من هذا الفن الجميل. ولها اليوم عدة شعراء من الشبان، ينتظر الآتى منهم النجاح الكامل. وعليه فان القلب مطمئن من آتى الادبيات فى هذا الثغر، ولكن فن الموسيقى لم تنجلى عنه الغشاوة الاهالية هناك وياللاسف.

هذا وان كان اكثر من نصف الطرابلسيين رجالاً ونساءً يحنون الى اعوادهم، ويحبون انين اراغنهم «بيانو» واكثرهم يستمد سروره من صوته المطرب. ولكن لم نعثر على دليل يبرهن لنا عن ابداعهم شيئاً فى هذا الفن الجميل. والرقص ايضاً لا يزال مهملاً كالموسيقى، وهو على حال ابتدائى. اما الفنون الجميلة الاخرى، فلا اثر لها فى ذلك القطر ولو ان الطرابلسيين غمسوا مرسمهم «فورشاية رسم» فى الوان محيطهم البديع لتسنى لهم ابداع صحائف لا مثيل لها. اما الفنون الباقية، كنحت الهياكل والتماثيل، وفن المعمارى فلا ادرى باى حق نستطيع ان نتحرى عليهم، وانه اولى لنا واسلم ان نسكت على مضض ونكتفى بالموجود ونقنع به.

٨ — النهضة العلمية، وحياة الطباعة

[١] — **النهضة العلمية** — اذا اردنا الاطلاع على درجة النهضة العلمية فى طرابلس يجب علينا اولاً ان نلتفت لفحص المؤسسات التى هى مصدر العلوم، ثم ندقق المؤلفات الموجودة، اى نضطر للاقبال على تدقيق النتائج المادية والمعنوية.

سبق لنا ان بحثنا عن المؤسسات العلمية التى هى اقوى المؤثرات فى النهضة العلمية. فاذا اجملنا ما فصلنا هناك، نصل الى اساسين :

(*) شعراء العصر — محمد صبرى.

(١) — المدارس العلمية ؛ (٢) — المدارس الرسمية .

ان قيام المدارس العلمية فى طرابلس بنهضة علمية ، هو مما لاينكر . ولكن يجب علينا ان نختبر ماهية تلك النهضة . من المعلوم ان العلوم التى تدرس فى هذه المدارس هى العلوم الشرعية واللغوية فقط ، ولهذا تكون ماهية النهضة منحصرة فى تعلم التفسير والحديث والفقه . وعلم الكلام من العلوم الشرعية ؛ واللغة والصرف والنحو ، والبديع والبيان وغيرهم من العلوم اللغوية والادبية .

ثم اذا علمنا ان اكثر المتخرجين فى مدارس طرابلس ممن ايد النهضة العلمية باشتغاله بالتدريس ، وتأليف الكتب ، كان من المتخرجين فى كلية الازهر ، نعلم ان المؤثر الحقيقى فى النهضة الشرعية والادبية ، هى المدارس المصرية .

ولا يدور فى خلدنا ان نؤمن بلا ترو بان هذه النهضة على شكلها المعلوم خلقت الانتباه، والرقى الفكرى ، بل نجد من الضرورى ان ندقق الزمان ، وننظر الى ماهية العلوم التى كانت الروح الاساسية لتلك المدارس .

كانت اصول التعليم قبل العصر الحاضر الذى توجهت فيه العلوم والفلسفة الى غايتها الكمالية ، مبنيةً على النظريات القديمة ،وعليه فان النقائص والخطيئات التى غشيت اصول التدريس فى ذلك الدور ،هى جديرة بالعفو والاغضاء ، اما بعد الآن. او بالاحرى فى هذا العصر الحديث ،فلا يسوغ للمدارس ان تحافظ على نقائصها القديمة . لاسيما اذا علمنا ان العلوم الدخيلة والآلية كانت تلعب الادوار الخطيرة فى المدارس القديمة الراقية ، فبماذا نفسر اليوم عدم تمكين العلوم العصرية من انارة هذه الحجرات التى خنقتها الظلمة ، ام كيف يمكن الانتباه والرقى ، اذا اكتفينا بالعلوم الشرعية ، ودراسة الادبيات على شكلها المدفون فى بطون القرون الخالية ، وأهملنا العلوم المثبتة والتجريبية ، واغضينا عن الاصول الحديث وهم من امهات المؤثرات فى حصول اليقظة ، وتطرق منهاج الكمال . . ؟

ولهذه الاسباب لا يجوز لنا ان نلوم العلماء الذين سجلت اسماؤهم فى تاريخ العلم الطرابلسى قبل هذا الدور اما منتسبو المدارس فى هذا العصر فلا يعذرون على ابتعادهم عن الرقى العصرى ، ولا يجدر بهم ان يكثوا واقفين على علوم بلغت كمالها فى القرون الماضية ، ويجهدوا انفسهم لتأليف كتب لا يمكنهم ان يبلغوا بها كعب الفطاحل من العلماء الاقدمين، ان سعيهم هذا لمردود فى الحافرة . وانهم عليه لملومون

هذا وان يكن وجد بينهم علماء تضلعوا فى علومهم التى اختصرا بها ، ونالوا الشهرة العظيمة بتدريسهم العلوم فى المدارس ، وبمؤلفاتهم المطبوعة وغير المطبوعة ، مثل « الشيخ درويش التدمرى » و « الشيخ عبدالله الصفدى » و « الشيخ عرابى » و « الشيخ محمود النشابه » و « الشيخ عبد الغنى الرافعى » وغيرهم من العلماء الاجلاء . على ان النهضة

العلمية التى قام بها هؤلاء العلماء فى طرابلس ، كانت ناقصة النتيجة لانها لم تستهدف \ لغ العصرية ، حياتية او علمية ، ولم يمازجها شيء من فلسفة العصر الحديثة . ولهذا فان هذه النهضة لم تكد تحدث شيئاً من الانتباه واليقظة التى تناسب هذا العصر .

نريد قبل ان نتم بحثنا عن المدارس ؛ ان نبحث عمن ادرك هذه النقائص ، وحاول تلافى الامر ، بمزج الاحكام الدينية ، بالاحكام الفنية والفلسفية .

ما لبث هؤلاء ان نهضوا وشرعوا بالسعى لتحقيق امانيهم ، ولكن عدم اطلاعهم على الفلسفة ، والعلوم العصرية اوقعهم فى أعسر الاشكال. ومع هذا فاننا لا ننكر انهم توفقوا الى تبديل الحركة القديمة — وان لم يستطيعوا توجيهها الى هدفها الحقيقى — واوجدوا فى محيطهم استعداد التوجه فى الآتى الى هذه الغاية المثبتة .

نخص بالذكر منهم « الشيخ حسين افندى الجسر » الذى بحثنا سابقاً عن منظوماته .

ولد هذا العالم فى طرابلس سنة (١٢٦١) هجرية . ومنذ حداثته اخذ يتلقى مبادئ العلوم من «الشيخ عرابى» الذى كان من اشهر العلماء فى عصره ، ومن صهره « الشيخ عبد القادر افندى الرافعى » . ثم سافر الى مصر سنة (١٢٨١) واقام هناك الى سنة (١٢٨٥) يتلقى علومه فى الكلية الازهرية من « الشيخ الانبابى » ومن « الشيخ عبد القادر افندى الرافعى » مفتى الديار المصرية . وبعد ان اتم الدراسة قفل الى وطنه فى هذا التاريخ . وشرع يشتغل بالتدريس فى المدرسة « الرجبية » ، وخف اليه كثير من التلاميذ . وكان يدرس العلوم الشرعية ، والآلية ، والدخيلة ، وعلم الكلام . ويلقن مسلك الامام « فخر الدين الرازى » ايضاً .

اسس الرهبان « فرەر » مدرسةً فى طرابلس سنة (١٢٩٧) فرأى الشيخ حسين افندى ضرورة تأسيس مدرسة اسلامية فى هذه البلدة ، ونهض فأسس « المدرسة الوطنية » وكانت تدرس فيها العلوم الشرعية وغيرها ، واللغة الفرنساوية . وقد حصلت هذه المدرسة على الرغبة العمومية لانها كانت تقبل التلاميذ من غير المسلمين ايضاً . حتى انها حصلت على تقدير مدحت باشا الشهير ، واعجابه . ولكن لم يطل امر هذه المدرسة ، بل عطلت سنة (١٢٩٩) ثم بعد سنة اسست المدرسة السلطانية فى بيروت ونصب الشيخ حسين افندى مديراً لها . ولكنه لم يلبث فيها الا مدة وجيزة ، ثم استقال منها ورجع الى طرابلس وعاد الى تدريساته المدرسية . ثم نشر رسالته الدينية المشهورة المسماة بالرسالة الحميدية التى ترجمها اسماعيل حقى افندى المناسترلى الى التركية ، وفسر مضمونها احمد مدحت افندى . ويروى ان هذا الكتاب نقل الى الفرنساوية ، ولغة « اردو » ايضاً .

ان هذا المؤلف اظهر الى الناس علو مقام الشيخ حسين افندى ، واعلى رفعته . ثم دعاه السلطان عبد الحميد سنة (١٣٠٩) الى العاصمة ، فذهب اليها والف كتاب التوحيد

الذي سماه « الحصون الحميدية » في قصر يبلديز . وقد بحث الشيخ فى هـذا الكتاب عن الشبهات الدينية ، وتوخى فيه التأليف بينها وبين الاسس الفلسفية والفنية الحديثة . ونقل هذا الكتاب الى التركية بقلم « يابان زاده مصطفى ذهني باشا » .

اقام الشيخ حسين افندى فى العاصمة مقدار تسعةاشهر ، ثم رجع الى طرابلس ،وعاود الكرة الى العاصمـة مراراً عديدة ولكن كان يمضى اكثر ايامه فى طرابلس وكان يشتغـل بتدريس العلوم في جامع (طينال) [*] ، ونور كثيراً من الطلاب بهذه الواسطـة . ولم يزل منكباً على هذه المهنة حتى عاجلته المنية سنة (١٣٢٧) هجرية .

والف الشيخ حسين افندى كتاباً سماه « مهذب الدين » بحث فيه عن ازاحةالشبهات الدينية بلسان عامى ، وله فى جريدة (طرابلس) مقالات عديدة ، دينية واجتماعية .وقد جمعت ادارة الجريدة جميع هذه المقالات ودونتهـا فى كتاب مخصوص ، وسمته « رياض طرابلس » .

ومن مصنفات الشيخ المطبوعة منظومته المولدية المسماة بالبدر التمام فى خير الانام ،التى مر علينا بحثها فى فصل الادبيات . ويروى ان له ديوان اشعار غـير مطبوع حشد فيـه اكثر من ستـة آلاف بيت من الشعر وتأليف آخر فى البديع والبيان اسمه « الجوهر المكنون » وهو لم يطبع بعد .

فاذا امعنا فى مصنفات الشيخ حسين افندى ، بصرف النظر عن قيمتها الادبية التى مر ذكرها فى البحث الخاص ؛ نجدها مبنيةً على فكرة دينية . وعليـه فان الافكار ، والاسس الاجتماعية والفلسفيـة التى وجدت فى تلك المصنفات ، ما هى الا واسطة لاظهـار تلك الغاية الاساسية . ولهذا نرى من الضرورى ان نضرب عن ابداء الرأى ، وبيـان الفكر عليها :

ولا بد لنا ان نعترف بعلو مدارك الشيخ حسين افندى الذى اطلع على احتياج الناس، واطلق العنان لقلمه على ما يناسب المقام مع شدة تمسكه بمحافظة القديم . ونجح بان القى بمقالاته فى المحيط ، وعالم الطباعة حركة محسوسةً . ونسلم بمزيته العلمية وفضله .

*
* *

ها نحن ننقل البحث الى المدارس الرسمية او الحديثة، بعد ان بحثنا عن النهضة العلمية فى المدارس الشرعية او القديمة .

نعلم ان هذه المدارس خلقت لاجل افهام الناس ضروريات المدنية ، وتعليمهم الفنون الحديثة واللغات الغربية ، واخذت على عهدتها اكمال نواقص المدارس القديمـة ، واعداد

(*) يعرف عند الطرابلسيين باسم (طيلان)

نهضة علمية ، وتكوين محيط منور يضم الحرية والمدنية . ولهذا فاننا سندرس هنا المدارس الحديثة التى اسست فى طرابلس ، ونسعى لنطلع على درجة انطباقهـا على هذه الغايات .

ذكرنا سابقاً ان المدارس الحديثة الرسمية او الخصوصية تنقسم الى ابتدائي وتال ، ثم رتبنا جدولاً حررنا فيه عدد الذين تخرجوا فى هذه المدارس ، والحقنا بهم المتخرجين فى مدارس بيروت واستانبول واوروبا . ومن هـذا نعلم ان قد وجدت فى طرابلس طبقـة منورة ، عندها المام بالفنون الحديثة ، ومعرفة بالمدنية واسباب الرقى ، وانها لا تزال تتدرج بالازدياد والتكاثر .

ولكن ما رأينا الى الان احداً من هذه الطبقة التى تقلد اكثرها بوظـائف الدولة ، اوجد مصنفاً مادياً يخدم به العلم والعرفان . وهذا يدلنا على ان هذه الحركة العلمية التى كان الواجب فيهـا ان تستهدف النور المحض ، لم تجد قدرةً للمثابرة على سيرها فى هـذا الزمن ، ولهـذا السبب لم ينضج لهـا ثمر . ومع هذا فلا بد ان يأتى يوم ينبغ فيـه ذوو الاختصاص من ابناء هذه الطبقة ، وهنالك يكون للعلم ما يشاء من الحـظ الاعلى فى مساعيهم وخدماتهم .

لا بد لنا ان نستثنى من اجمالنا هذا رجلين جديرين باحسن الذكر من رجال طرابلس . وهذان الركنان هما من متخرجي المدارس الحديثة ، وهما بمثابة مبشرين للنهضة العلميـة فى طرابلس . وهما « نوفل افندى نوفل » و« جرجي افندى يني » .

اما نوفل افندى (*) فقد ولد فى طرابلس سنة (١٨١٢) ميلادية . وهو ينتمي الى اسرة مسيحية عرف بقدمها . وابوه « نعمة الله » وجده « جرجس نوفل » . وقد اشتهرت هذه الاسرة بخدمتها فى الدولة العثمانية منذ اكثر من ثلاثة قرون .

درس نوفل افندى العلوم الابتدائية فى طرابلس ، وتعلم مبادئ اللغـة العربية ، وتلقى عن والده الخط والانشاء . ثم سافر والده الى مصرسنة (١٨٢٠) واخذه معه ، فدخل هناك المدارس الحديثة التى اسسها محمد على باشا . وبعد ان اتم تحصيله انتسب الى قلم التحريرات فى الديوان الخاص الذى كان ابوه مستخدما فيه ومكث هناك مدة .

رجع نوفل افندى الى طرابلس سنة (١٨٢٨) ورغمـاً عن حداثة سنه استخـدم فى مأمورية المحاسبة فى طرابلس واللاذقية مقدار سبع سنين . ولما قدم ابراهيم باشا المصري — الذى قتل ابا المترجم نعمة الله افندى سنة (١٨٣٠)— الى سورية اراد ان يكفر السيئة التى اقترفها فدعى نوفل افندى اليه واحسن صلته .

تقلب نوفل افندى فى عدة مناصب ادارية ومالية فى انحاء سوريـة الى تاريخ (١٨٦٣)

(*) مشاهير الشرق -- جرجى زيدان ج ٢ ؛ ص ١٣٦— ١٣٩ .

ثم جاء الى بيروت ونصب ترجماناً فى القنصلية الالمانية ، ثم فى القنصلية الاميركانية . ثم أدركته المنية سنة (١٨٨٧) ميلادية .

امضى نوفل افندى عشرين سنة من اواخر حياته فى سعى متصل . وكان يشتغل بمطالعة الكتب . وكان له مكتبة فيها مآة من الكتب التركية والعربية . وقد وقف هذه المكتبة الى المكتب الاميركانية ، وعليه فقد سلمت بعد وفاته الى هذه المكتبة .

كان نوفل افندى يتصفح المصنفات من جهة ، ويحرر المقالات والرسالات والكتب من جهة اخرى . وكان ينشر مقالاته فى مجلة « الجنان » وجريدة لسان الحال .

وكان يترجم فى بعض الاحايين كتباً عن التركية . وقد نقل الى العربية عن التركية « قانون المجالس البلدية » و« واصل الجراكس ومعتقدهم » و« الدستور العثمانى » و« حقوق الدول » .

ولا جرم ان مصنفات نوفل افندى هى البرهان الناطق فى الدلالة على غزارة علمه ، وسعة اطلاعه . اما مصنفاته فهذه اسماؤها :

١ — (زبدة الصحائف فى اصول المعارف) . طبع هذا المصنف فى بيروت سنة (١٨٧٣) . بحث نوفل افندى فى هذا الكتاب الضخم عن تاريخ العلوم القديم والحديث عند الامم المتمدنة . ثم عن تاريخ فلسفة الكلدانيين والفنيقيين والايرانيين والهنديين والصينيين والمصريين واليونانيين وعن فرق الفلاسفة ، وبالنهاية عن فلسفة العرب . ثم نقل البحث الى اصول العلوم وتاريخها ، وبحث عن المنطق واللغة وغيرها . وبعد ان بحث عن اصول العلوم الرياضية والطبيعية والطبية والتاريخية والجغرافية ، انتقل الى العلوم الحديثة وبين الآراء الفلسفية والتاريخية فى علم الطبقات الارضية والكيميا والمعادن والنباتات .

٢ — (زبدة الصحائف فى سياحة المعارف) . وهذا الكتاب يبحث عن استحالات الفلسفة والعلم وتداولهما .

٣ — (سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان) . وهذا المؤلف عبارة عن تاريخ مفصل فى الاديان .

٤ — (صناجة الطرب فى تقدمات العرب) . وهذا الكتاب يشهد لمؤلفه بتضلعه فى الادبيات العربية ، وسعة اطلاعه عن اخلاق القوم وعاداتهم .

بحث فى مقدمة هذا الكتابة عن الاحوال الجغرافية فى جزيرة العرب ، ثم انتقل الى العرب فبحث عن اقسامهم واديانهم ومعابدهم واخلاقهم وشجعانهم وفصحائهم ، ثم ذكر اسلحتهم وحروبهم وتكلم عن الادبيات العربية . وذيل هذا الكتاب بفذلكة تاريخية بحث فيها عن الحكومات العربية منذ الخلفاء الراشدين الى العباسيين .

٥ — (الرد على الغضنفرى) . وهو كتاب انتقادى .

وقصارى القول ان نوفل افندى من الذين لهم الموقع الاسمى فى تاريخ العلم السورى لا فى النهضة العلمية الطرابلسية فقط . وعليه فليفتخر الكيان العلمى فى طرابلس بما خلفه هذا المبشر المبجل من الآثار النفيسة .

*
* *

ان المبشر الثانى للنهضة العلميــة فى طرابلس هو « جرجى افندى يني » كما ذكرنا سابقاً :

درس جرجى افندى مبادئ العلوم فى طرابلس ، ثم دخل الكلية الاميركانية فى بيروت واتم تحصيله فيها ، ثم انكب على مطالعة الكتب الفلسفية والاجتماعية والتاريخية ؛ واخذ يدأب لتأليف الكتب . وبعد اعلان الدستور اتفق جرجى افندى مع اخيه « سموئيل افندى يني » واسس مطبعة « الحضارة » . وانشأ مجلةً شهرية سماها « المباحث » . وقد كانت هذه المجلة تضم المقالات التاريخية والاجتماعية ، والادبية والفنية . ودامت هذه المجلة الى اوائل ايام الحرب العامة . ان « لجرجى افندى يني » مؤلفات عديدة نكتفى بان نذكر من مطبوعها « تاريخ سورية » . طبع هذا التاريخ سنة «١٨٨١» فى بيروت . وهو زبدة اتعاب جدية ، ونتيجة تدقيقات عميقة ؛ ويناهز ستماية صحيفة ، ويتألف من مقدمة تبحث عن الاحوال العمومية فى سورية ، ثم من مجمل تاريخ الامم السورية منذ الفنيقيين الى يومنا هذا ، ثم يتبعه اجمال تاريخى عن اشهر البلاد السورية ، وان الجدية التى تجلت فى هذا الكتاب هى جديرة بالذكر .

وقصارى القول ان جرجى افندى الذى اربى سنه اليوم على الخمسين ، يعتبر من اركان النهضة العلمية فى طرابلس بمؤلفاته وسعة اطلاعه .

[٢] — **حيات الطباعة** — ان النهضة المدنية التى شوهدت فى طرابلس فى السنين الاخيرة ، كانت سبباً لايجاد الحياة فى الصناعة النشرية .

نعم اذا نظرنا الى ازدياد عدد المطابع والجرائد فى طرابلس على مر الايام ، وعلمنا ان النشريات الطرابلسية وغيرها تنفق فى ربوع طرابلس وتروج نحكم بأن للطباعة فى ذلك المحيط مستقبلاً حسناً . هذا وان كان اكثر الجرائد الموقوتة التى تنشر فى طرابلس بعيدة عن المزية النشرية التى يمكن التعبير عنها — كما يقول الصحافيون — ، وعاملة لغاية التجارة التى يجب ان تكون من الدرجة الثانية ؛ مع الاغماض عن الغاية الاساسية فى الصحافة ، ولكن لا يسوغ لنا ان نطالب طفل الطباعة الحديث بهذا الكمال الذى يشترط فيه مرور الايام الطوال . ولا بد من هكذا ادوار ابتدائية يمر عليها هذا الطفل بجسمه ، فى اى محل كان . وعليه فان طرابلس معذورة على هذا النقص .

ولنتكلم بعد هذه المقدمة المجملة عن المطابع الموجودة فى طرابلس ثم عن الجرائد التى فيها .

يوجد فى طرابلس ثلاثة مطابع الاولى مطبعة «البلاغة» التى اسسها « محمد كامل افندى البحيرى » سنة «٣١٠» ، والثانية مطبعة « الحضارة » التى اسسها « جرجى افندى نى » بعد اعلان الدستور . والثالثة مطبعة « ناصيف افندى طوربای » التى اسسها صاحبها وسماها باسمه . اما الجرائد ؛ فها هى :

— جريدة « طرابلس » اسس هذه الجريدة محمد كامل افندى البحيرى صاحب مطبعة البلاغ سنة «١٣١٠» . وهذه الجريدة التى تصدر تارة يومية ، واخرى اسبوعية ناهزت فى عددها «١٥٠٠» . وهى جريدة دينية ، اجتماعية ، سياسية ، تاريخية وادبية .

٢ — مجلة « المباحث» اسسها جرجى افندى نى بعد المشروطية ودامت حتى اشهار الحرب ، وهذه المجلة الشهرية ، تاريخية واجتماعية وادبية .

٣ — « الوجدان » . هى جريدة اسبوعية ، سياسية اجتماعية ، اسسها « شامى افندى صادق » بعد اعلان الدستور .

٤ — « الحوادث » ، وهذه جريدة دينية تاريخية واجتماعية تصدر فى الاسبوع مرة واسسها « لطف الله افندى خلاط » .

٥ — « البرهان » ، هى اسبوعية اسسها « عبد القادر افندى المغربى » .

٦ — « البيان » ، هى مجلة دينية واجتماعية ، اسسها « جميل افندى عدره » لتنشر فى كل شهر مرة .

٧ — « الرغائب » هى اسبوعية اسسها « حكمت بك شريف » .

٨ — « المدلل » ، هى جريدة مزاحية ، اسسها « الشيخ منير افندى الملك » .

٩ — « الاجيال » ، اسسها « توفيق افندى اليازجى » .

١٠ — « السعدان » هى مزاحية واسبوعية ، اسسها « صلاح الدين افندى مراد.

٣١ — « شمس الاتحاد » ، اسسها « عبد الرحمن افندى عز الدين » .

يتضح لنا من هذا الجدول انه كان فى طرابلس اكثر من عشرة جرائد قبل ابتداء الحرب مع ان طرابلس لاتكفى سويتها لدوام حياة هذا العدد ، ويخطر للذهن امكان حياة الجرائد بقرائها فى الخارج ، ولكن هـذا يتوقف على الظفر فى المزاحمة الذمرية . وليت شعرى اى الجرائد فى طرابلس تستطيع احراز هذا الظفر . حتى ان قلة النسخ التى تطبع تدل على هذه الحقيقة . ولهذا يكون من الضرورى على طرابلس فى المستقبل ان تلتزم القناعة فى هذه المهنة ، وتمشى فيها بخطوات امينة ونافعة .

— ٥ —

الى حلبـا

مازلنا فى طرابلس منذ اكثر من اسبوع وان لهذه البلدة البديعة السورية من الحسن الفاتن مايمكننا من الهائنا زمناً طويلاً ، ولا سيما ان امامنا ساحة غشيها الخفاء ، وكنت وراء الغموض والابهام بجبالها ، وانهارها ، وسهولها ، ورمالها ، وزد على ذلك المسافة التى لابد ان تأكل من عمرنا شهرين كاملين. كل هذه الدواعى كانت تقرب طرابلس من قلوبنا، وتربطنا بتلك البلدة الساحرة ربطاً محكماً . هب رفيقى يوماً من تفكير متعب؛ وقال .

— الا يجب ان نستعد ؟

نعم ؛ يجب ان نستعد لنعوم فى هذا البحر الذى لانعرف قراره ، ونجهل مقدار امتداده وسعته . وما كنا مرتاحين للسياحة فى هذه السنة لاننـا ماكدنا نعين من اى جهة نزج بنفسنا على هذا البحر المجهول . وكانت قلوبنا تهتز بهذا التمنى .

— الا من مرشد يهدينا السبيل ...!

كنا نفهم بتداول الايام ، اننا نتمنى المحال . اذ لا كتاب فى ايدينا ، ولا دليل امامنا يرشدنا الى سواء السبيل . وكنا نعلم ان قلم التدقيق والبحث سيكون لنا عصا نسبر به مواقع خطواتنا العمى فى تلك البهماء [*]

سألنا من اشتهر بكثرة التجوال ، وعرف كثيراً ، من منورى طرابلس ؛

— من اين نبدأ بالتجوال ، وكيف نثابر عليه ؟

ولكن الاراء والاجوبة التى فهمناها ما كانت ترينا نوراً نهتدى به . بل كانوا يقولون:

— يجب ان تذهبوا اولاً الى « ضنيه » مركز الناحيه . هذا وان كان طريقها يمتد بضع ساعات . ولكن مصطافاً يزاحم اعلى نقاط لبنان بموقعه ، لا يستكثر فيه تعب الطريق لاسيما ماء ضنيه العذب ، وانمارها اللذيذة و ...

— ثم ... ومن هناك ؟

— تعودون الى طرابلس ، وتاخذون حظكم من الراحة .

لا ننكر ، اننا استكثرنا ان نصرف ثلاثة ايام ، لنحظى برؤية مصطاف . ثم يقول المقتصدون فى الفكر :

— احرى بكم ان تتبعوا الساحل ، وتقطعون الرمال ، الى الشمال ...

(*) الارض التى لا يهتدى فيها لطريق . م

هذا رأى لا يهمل . على اننا لا نقوى على قطع مرحلة تمتد اثنى عشر ساعة ، من طرابلس الى طرطوس . لا سيما على ظهور الخيل :

ولو سلمنا بوصولنا الى الشمال :

— وبعد . . . متى نتجول فى الداخل ؟

مع اننا كنا نهفوا الى تسلق الجبال ، واجتياز الانهار ، وقطع السهول ، او بتعبيرنا المشترك الى الانغماس فى عمان المجهولات .

— فاذاً الى حلبا . . . سفر فى المركبة لا يتجاوز بضع ساعات ، ثم من ورائه الداخل لبحث . . .

وهذا الاقتراح الذى لا يخطر لى الآن من هو صاحبه، كان فى نظرنا مناسباً ومقنعاً ، حتى لم نتردد بشأن قبوله البتة .

— المركبة ؛ ثم حلبا ، مركز قضاء عكار :

تربعنا فى الغد على مركبتنا ، والشمس كانت ناهضةً فى الافق ، قريبةً من الزوال.

كنا نسير على الطريق المحاذى لبقية الخطوط الحديدية المتروكة فى الجهة الشمالية من طرابلس ، ونمر على الجسر الجديد فوق نهر ابو على ، ونرى المنازل الجديدة فى طرفى الشارع تبتسم لنا . ثم بعد برهة تركنا طريق القبة على يميننا واخذنا نطوى المراحل الى الشمال . ها نحن نسير بين اشجار الزيتون الخضراء . ودام طريقنا على هذا النمط مقدار نصف ساعة .

وصلنا الى موقع « البداوى » الذى هو من الطف مقاصف طرابلس . وكان هذا الموقع عبارة عن بضعة بيوت واكواخ ، ثم يسير من الاشجار . ثم على يسار الطريق جامعٌ صغير ، وصحن مبلط بالحجارة ، وبحيرة ينبع منها ماء كعين الديك ، ياخذ البصر ببريقه . وهذا الموقع الذى ضم مزارا لاحد الاولياء هو على غاية من القدسية فى اعتقاد القوم . واسماكه الكثيرة التى رافقت الاعوام لا تزال مصونة عن التعرض بتسلط ذلك الاعتقاد المتين .

ذكرتنا هذه الاسماك بمعتقد الاقوام القديمة . لانهم كانوا يتخذون الاحواض قريباً من تماثيل آلهتهم ، وان الحوض الذى اعد امام هيكل « عشتروت » كان فيه اسماك لا تعد ولا تحصى [*] .

بعد ان فارقنا موقع البداوى ، تحونت وجهة الطريق من الشمال الى الشمال الغربى .

(*) مجلة المشرق نقلا عن الصحيفة ٥٧٢ من المجلد الرابع من (Reveu de l'Orient Chrétien) لمؤلفه ، په (هانرى لامنس) .

وكانت الرياض تترآى عن يسارنا من بعيد على امتداد الساحل . وعلى يميننا ربى « التربل » وكنا نسلك طريقاً صعداً ، وما لبث ان هب من جهة الغرب ريح زعزع ، خلق بحراً من العجاج تلتطم امواجه على امتداد الطريق . وكانت الشمس قريبة من الزوال ، وسلط علينا ذلك اليوم التموزى ثلة من ناره شوت اجسادنا ، وكبدتنا اشد العذاب .

مررنا الآن على الحقول المزروعة بالذرة ، وها هو البحر الازرق تتدفق امواجه وراء تلك الحدائق الخضراء .

انتهى منظر الرياض عن يسارنا بعد نصف ساعة ؛ وكنا لا نفتأ نطوى المسافات فى سكة طرابلس — حمص . وكانت على يسارنا كسارة الاحجار فى السكة الحديدة التى تمتد الى حمص كانها انقاض عمرانية ، وطريقنا ايضا كان مفعماً بها . ولهذا كانت مركبتنا تسير بصعوبة .

ثم بعد برهة تركنا مخفر (تعتور) على يميننا ، وابصرنا على يسارنا رأس (عبده) وكان بعيداً . ثم طفقت تترآى عن يميننا القرى المتقطعة . فمررنا بقرية « دير عمار » القائمة فى جانب جبل التربل ثم بقرية « البرج » و« برج اليهودى » وغابت عن انظارنا بسرعة .

كانت وجهتنا دائماً الى الشمال . وكنا نقرب من قصبة (مينيه) التى احيطت بشجر الزيتون وكانت تترآى لنا كميدان محشو بالخضار ، لا على شكل مركز لناحية .

لا تزال مركبتنا على سير متواصل وانقلب الطريق الصعد الى منحدر سهل ، والمنظر امامنا عبارة عن شئ من جبل ، وبضع حدائق مزروعة وطريق فاسد ، وانقاض السكة الحديدية ثم البحر . . . لم يدم هذا المنظر الا قليلاً ، ثم اجتزنا « نهر المخاضة » على جسر صغير . وها نحن بين البساتين المحيطة بمينيه .

استحال طريقنا بعد ان غادرنا بيوت القصبة الى ادغال خضراء . وكنا نرى بائعى الاثمار من رجال ونساء امام جميع ابواب البساتين التى افناها القدم، مرتكمة امامهم على التراب اكوام الاثمار من ليمون وكمثرى وتفاح وبطيخ وخوخ وغيرها : وكل افراد العائلة يشتغلون بالبيع . ونساء المسلمين هنا يلفتون النظر بازرهم . مع ان نساء القرى فى القسم الجنوبى لا يعبئون بهذه الدثر .

مازلنا نسير على طريق طرابلس — حمص . وعلى يسارنا البحر وسكة الحديد ، وعلى يميننا الربى الصغيرة . غادرنا قرية « المحمرة » وبعد مدة اجتزنا جدول « النهر البارد » على جسر حجرى ، ورأينا عن يميننا خرابة كانت محطةً لمركبات الجر الكبيرة « دەليژانس » ، ثم مررنا باراضى خالية ، ووصلنا الى محطة « عبده » الكائنة على الساحل الشرقى من مرفأ صغير . وهى عبارة عن خانين متداعيين ، وكوخ صغير للمحطة .

*
* *

لبثنا قريباً من ساعة فى هذا الظل الحزين من عبده ، تلك الروضة الخضراء الساحلية؛ ثم عدنا الى السير على الطريق . وبعد قليل تركنا سكة حمص ، ولوينا العنان الى الشمال الشرقى ، وسرنا فى طريق حلبا .

هذه سلسلة من القرى تراءت لنا عن اليمين . وهى تمتد من قرية « تبنين » ، من « وادى الجاموس » متسلسلة الى حلبا .

كانت تلك القرى تظهر متوالية ، وكنا نحيد بسيرنا عن البحر الذى يعشى البصر ، ونركض نحو الداخل .

سرنا مدة بين الحقول ، ثم ابصرنا عن يسارنا من بعيد قرية « القليعات » ، وكانت الجداول الصغيرة التى تنحلب من الجبال تركض عن يميننا لتقطع علينا الطريق ، ثم تراءت على بعد قرى « القبة ، وادى السليم ، كفرمالكه ، ميرليا ، تل الحياة » عن يسارنا وانجلت عن يميننا قرية « بيت جداره » و « طنيطره » .

وبينما كنا نمر على اليمين بقرى « ذوق الحصينه ، الحباصه ، الجرد ، المشالحه والحاكور » كانت الفسحة بين الجبال عن يمننا وبين البحر المرئى على بعد تتسع بحقولها المزروعة .

تسود السكينة اليوم على هذه الربوع التى استخدمها الفنيقيون السنين الطوال فى زرع حبوبهم . وما من شىء يخل بهذا السكون الا ما يمر بنا من المكارية ارباب الجمال والحمير، ثم على البعد فى بعض الحقول المحصودة يوجد بضعة جمال واقفين ترجمهم شمس تموز بشررها المحرق ؛ يستظل بهم قروى ملق بنفسه على الارض ، او واقف يستريح وعصاه من وراء رقبته على كتفيه . قابض على طرفيها

ثم بعد الزوال بساعتين ، مررنا من « نهر العزقا » وهو يجرى فى واد بين هضبتى « الحاكوره » و « الميناذا » .

بعد ان اجتزنا جسر العرقاء انعطف طريقنا الى الغرب وبدأنا نسير فى مرتقى وها نحن نتسلق جبل « ميريللا » .

عن يسارنا مرج لا تحيطه مرامى النظر من الاتساع ، يمتد حتى ساحل البحر وعن يميننا قرى « دارد للوم ، كرم العصفور ، منياره » تتسلسل وراء بعضها .

ثم بعد ان تراءت قرية « الجديده » اصبحنا فى سهل مستو ، نطوى المسافات على يسار المرج . ثم بعد ثلاث ساعات من الزوال قربنا من حلبا الممتدة بهدوها فى جانب هضبة صغيرة . وهذه القرية الصغيرة المؤلفة من بضعة بيوت كانت تشعرنا لأول نظرة بانها بعيدة عن ان تكون مركزاً لقضاء.

—٦—

عكار

١ — موقع قضاء عكار وحدوده

ان هذا القضاء عبارة عن اراض جبلية تمتد من الجهة الشرقية الى الشمال من مركز لواء طرابلس الشام . ويحده من الشمال قضاء صافيتا وحصن الاكراد ، ومن الشرق قضاء حمص ، ومن الجنوب لواء لبنان ثم البحر الابيض من الغرب . وطوله سبع ساعات ونصف من قرية « عدوه » الكائنة على حدود ناحية ضنية الى قرية « خربة الغزال » القريبة من قضاء صافيتا ؛ وعرضه من مرعى جردميرى الى قرية شيخ زناد الكائنة على الساحل يقرب من تسع ساعات .

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ان مساحة قضاء عكار تبلغ «٣٧٦٨٤١» دونماً . منها (٢٨٥١٦٣) دونماً من الحقول و(٩٠٢٨) من مشجرات التوت والزيتون ثم (٢٥٦٢) من الكروم والبساتين . اما الباقى وهو (٣٠٠٨٢) دونما هو مخصوص لرعى الحيوانات .

اما عدد السكان فهو على ما يأتى :

جدول سنة ١٣٣٢

	الذكور	الاناث
المسلمون	٩٧٧٠	١٠٥٣٧
الروم الاورتودوكس	٦٩٦٧	٥٨٥٢
المارونيون	٤١٨٩	٤٠١٩
الكاتوليك	٣٥٦	٣١٣
البروتستانت	١٨٥	١٧٥
يكون	٢١٤٦٧	٢٠٨٩٦
	٤٢٣٦٣	

كان عدد عموم السكان سنة ١٣٢٣ (٣٠٩١٢) نسمة . فتكون الزيادة فى مدة عشر سنين «١١٤٥١» نسمة ومن العبث ان نحاول الاطلاع على اسباب هذه الزيادة . لان قيود

النفوس فى هذا القضاء الذى تكون اكثر انحائه من جبال عكار لم يعتنى بها كما يجب ، والاحوال الصحية ايضاً لم تعطى حقها من الدرس والتنقيب. ولهذا نرى ان اسهل الطرائق لحل هذا المعمى ، هو حمل هذه الزيادة على سقامة القيود الرسمية . اما المدات والوفيات فى القضاء فهى على ما يأتى :

كانت المدات فى هذا القضاء سنة ١٣٢٧ (٢٦٣)، وسنة ١٣٢٩ (٥٢٥) ، وسنة ١٣٣٠ (١٨٠) . والوفيات (٩٥) و(١٦٤) و(١٥٧) فى السنين الثلاث .ويجب ان لا نعتقد بقيام القرويين المبعثرين فى انحاء جبال عكار ، بوظيفة الاخبار عن حادثات النفوس . ومن المحقق ان هذه الارقام حررت فى سجلات النفوس بحسب الاهواء ورجم الظنون .

٣ — الاحوال العمومية فى القضاء

يمكن تقسيم القضاء الى ثلاثة اقسام حسب طبيعة التكون . فالقسم الاول عبارة عن السهول ، وطوله ست ساعات ونصف وعرضه ثلاث ساعات فقط ، واراضيه عبارة عن الاتربة اللحقية كما هو الحال فى سهول طرابلس وهو على غاية فى الانبات ، ولا سيما الانحاء الريانة منه . ويوجد على الساحل سلسلة من الهضاب تبعد عن بعضها مقدار ساعة ، وتوجد فوق كل واحدة منها آثار لقلاع منهدمة .

اما القسم الثانى فيسمونه « الوسط» ، والثالث « الجرد » وارتفاع الاول عن سطح البحر يتراوح بين (٣٠٠) و (٦٠٠) متراً . اما ارتفاع الجرد فهو يتداور بين (١٠٠٠— ١٥٠٠) متراً على التخمين . وهذا القسم الثالث الذى هو اعلى نقاط هذا القضاء لم يزل مستوراً بالاحراج الكثيفة حتى العهد القريب . وشجر الزيتون والتوت لم يزرع الا فى قسم « الوسط » على سفوح الجبال . ولذلك فان قرويو تلك الناحية يشتغلون بالحرير ثم باستحصال الزيت .

ليس لهذا القضاء نواح رسمية ولكن السكان وحتى الحكومة نفسها يعتبرون اطراف (قيطع) التى تضم قرى (برقايل وفنيدق) واطراف « الجومة » التى تحتوى على قرى (منياره ورحبه وبينو) اللاتى يسكنها النصارى ،نوعاً من النواحى . ثم ان سكان هذا القضاء المؤلف من (١٦٨) قرية فيهم المسلمون ، والنصارى وثالثهم النصيريون . فالنصيريون يسكنون قرى (مصلى . عين الزيت عين تنتا ، خربة الرمان) وقرية الزاهده فى الساحل . واكثرهم مزارعون فى تلك القرى .

وقرى [قبيات ، عندقيب ، بينو ، قبولا ، برج عيات ، عين يعقوب ، بزبينه ، العيون

بيت ملات ، تل الشطاحة ، الرحبة ، عكار العتيقه ، جبرائيل ، الحريبة ، الكوشه ، البالدة مزرعة البلدة ، الهد ، دير جنين ، كفرحاره ، حيزون ، الفنيدق ، القريبات ، الحرار ، المشمش ، المنجز] فى ناحية الوسط كاد يكون جميع سكانها من النصارى . وصنعة الحرير ارقى من غيرها فى هذه الناحية . وان ثمانية اعشار الواردات التى تحصل من هذه الناحية هى من تلك الصنعة . ويوجد فى قرية قبيات وعندقيب ستة مصانع للحرير . وكادت هذه الصنعة ان تنحصر فى مارونى عكار .

ومن الصنايع الراقية فى هذا القضاء ، صنعة السجاد ايضاً . وتاريخ دخول هذه الصنعة الى البلاد السورية لا يزال مجهولاً . ومن المحقق انها انتقلت من الاتراك الذين يسكنون بضعة قرى من هذا القضاء الى من فى جوارهم من القرويين . وقد كان السجاد الذى يصنع فى هذه الانحاء مرغوباً كثيراً لدى السوريين . وسبب هذه الرغبة كان عن متانة المواد الابتدائية واستقرار الالوان على بهجتها مدة طويلة .

ثم ان السجاد الخفيف الرخيص الذى اخذت تسوقه اوروبا الى بلادنا اضر بمصالح هذه الصنعة اضراراً عظيماً ، وحكم عليها بالعقامة الدائمة . وكانت هذه الصنعة منحصرة فى اتراك عيدمون ، ولكن ما لبث نصارى عكار ان اقتبسوها وتعممت بينهم . واسست عدة مصانع لهذه الصنعة فى المغراقة والجديده والنهريه والرماح ، وكانت تصنع قطع السجاد من قبل على شكل مربع اى طولها مساو لعرضها . اما الآن فيجعلون العرض ذراعاً او ذراعين ، ويجعلون الطول على ما يشأون . والالوان اما قديمة او جديدة . وقد كان الاحمر والازرق من الالوان القديمة ثابتاً لا يتبدل ، ولكنه اهمل اليوم وندر استعماله . واكثر ما يستعملون اليوم اللون الاحمر الخفيف ، من عمل اوروبا وهو يتبدل سريعاً . ولهذا فان استعماله فى هذه الصنعة لمما يوجب الاسف . كان يباع الذراع من السجاد المصنوع بالالوان الثابتة باحد عشر فرانق ، اما الجنس الخفيف فكان يباع ذراعه بستة فرنكات .

اما شجر الزيتون فيوجد فى الوسط ، واكثره فوق السفوح المشرفة على قرية حلبا اما فى الساحل والجرد فلا اثر له . واحسن نوع من الزيت يكون فى قرى (الحاكوره ، برقايل ، الشيخ طابه . ومعظم اشجار الزيتون والتوت مغروس فى الاراضى التى اعدت لزرع الحبوب واكثرها فى حوزة النصارى . واشجار التوت تشغل عشر اراضى القضاء على التقريب . اما زرع الحبوب فهو شايع فى انحاء السواحل ، ويعثر على هذا المحصول فى انحاء الوسط والجرد ايضاً .

٤ — معارف القضاء

يوجد بين المسلمين خمسة فى الماة ، وبين النصارى خمسين فى المأة ممن يعرف القرائة والكتابة . وان مدارس البنات فى هذا القضاء ليس لها رواج ، بسبب غلو المسلمين فى التضييق على حرية البنات . ويوجد فى مركز القضاء مدرستان الواحدة للذكور والاخرى للاناث . وعدد الطالبين فى الاولى (١٠٠) وفى الثانية (٥٠—٦٠) . على ان ثمانين فى المأة من هؤلاء البنات لسن من المحليات ولا توجد المدارس الرسمية الا فى ست قرى بين (١٦٨) قرية . ولكل من هذه المدارس مقدار (٤٠—٧٠) طالباً . وان وظيفة التعليم و لادارة فى هذه المدارس ليست فى ايد قادرة على القيام بها كما هو الحال فى سائر الانحاء اما المعلم الموجود فى مركز القضاء فهو نبيه ، قادر على ادارة التحصيل الابتدائى ، ولكن يؤثر عنه انه يشتغل بهذه الوظيفة بصورة وقتية . ولا يلبث متى زال مانعه ان يترك المدرسة ويرجع الى مسلكه الاساسى .

اما النصارى الذين لم يسبق لهم وضع اولادهم فى احد المدارس الرسمية لهم فى منيار. مدرسة واحدة للذكور والاناث . وقبل نشوب الحرب كان عندهم بضع مدارس اجنبية ومن الجملة انه كان للروسيين مدارس الذكور والاناث فى قرى « ديردلوم ، منيارة ، جبرائيل ، الرحبه ، بينو ، حاكور » . وكانت الجمعية الفلسطينية الروسية ترسل الى هذه المدارس المعلمين ، وتهيئ للطلاب الكتب والدفاتر والاقلام وباقى لوازم التدريس بلا عوض ولاتكلف الاهالى الا باعداد مبانى المدارس . وقد كان يوجد فى كل واحدة من هذه المدارس خمسة او ستة من المعلمين و(١٥٠—٢٠٠) طالبا .

وقد اسس المبشرون الاميركانيون فى منياره والحاكوره وبينو وجبرائيل وتل عباس، مدارس تضم الذكور والاناث معاً. وهى الآن معطلة لانها اسست بدون اذن الحكومة..

ويوجد ما عدا هذه المدارس مدرسة خارجية فى عندقيت للذكور والاناث ، وفى دير منجز مدرسة داخلية ، وفى قرية «بيت» مدرسة خارجية وهؤلاء للجزويت. ثم توجد مدرسة ايتالية فى قرية قبيات . فالاورتودوكسيون من السكان يدخلون المدارس الروسية ، والمارونيون يرجحون المدارس الفرنساوية والايتالية . اما الاغنياء فيرسلون اولادهم الى المدارس الاميركانية التى يعتقدون انها ارقى من غيرها من حيث العلم والتربية .

والروسيون لم يتيسر لهم تعميم لغتهم البتة ، ولو لم تكن العلاقة الدينية لما وجدت مدارسهم الخالية عن كل مزية علمية حتى ولا طالبا .

أما اللغة الانكليزية فانها متفشية بين جميع السكان بسبب رغبتهم فى المهاجرة واقبالهم عليها .

٥ — الغلال الزراعية فى القضاء

ان اكثر انحاء هذا القضاء جبلية التكون ، ولكن يوجد قريباً من الساحل سهول جيدة ، تجرى فيها الانهار وهى منبتة خصبة . اما غلال القضاء فهى على ما يأتى :

جنس الغلال	الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيله
القمح	٧٠,٠٠٠	٤٩٠،٠٠٠
الشعير	٤٠,٠٠٠	٢٨٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠
الذرة الصفراء	١٥,٠٠٠	٧٥,٠٠٠
الحمص	١,٠٠٠	٦،٠٠٠
الفول	٤٠٠	٣،٢٠٠
العدس	٦،٠٠٠	١٢،٠٠٠
الجلبان	٨,٠٠٠	١٦,٠٠٠
السمسم	٢٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠
الزيت	٧٠,٠٠٠ شجرة	٣,٥٠٠,٠٠٠ اقه
البصل	؟	٤٢٥,٩٥٣ كيلوغرام
الفاصولية	؟	١٦,٤٣٢ »
الكروم	٤١١	١٠٠٠,٠٠٠ » عنب
		٢٠,٠٠٠ » عرق

وما عدا هذا ، يعتنى فى كل سنة بتربية ٦٠٠٠ علبة من بذر الحرير ، ويستغل منها ١٨٠٠٠ كيلو من الشرانق .

٦ — الآثار القديمة فى القضاء

توجد اليوم على هضبة امام قرية عكار العتيقه ، انقاض حصن عكار الذى كان يسكنه فرسان سن جان فى ايام الصليبيين . ويروى ان مؤسس هذه القلعة هو رجل يدعى «محرز بن عكار » . وان قد ظلت فى حوزة احفاده الى سنة (٤١٤) هجرية . واستولى عليها فى هذا لتاريخ « صالح بن مرداس » حاكم حلب ، ثم بعد عشرة سنين ضمت الى السلطنة المصرية فى زمن « الزاهر » من الخلفاء الفاطميين .

وانتقل هذا الحصن سنة ٤٨٧ الى السلجوقيين فى زمن « تاج الدولة توتوش » وبعد

ذلك استولى عليه الافرنج بعد ان غلبوا صاحبه «اتابك طوغتكين».

لما استولى الصليبيون على طرابلس فى ١٢ تموز سنة ١١٠٩ عاهدوا اتابك على ان يحتفظوا على قسم من سهل البقيعة، وحصون منيتره وعكار. وان يتركوا مصياد وحصن الوادى وحصن الاكراد الى المسلمين ويتقاضوا منهم لقاء ذلك فى كل سنة مبلغاً معيناً ولكن لم يلبث «طانقرەد — Tancred» امير «قونت» انطاكيه ان اخل بهذا العهد، وحصر حصن الاكراد وفتحه.

ويغلب فى الظن ان المسلمين استردوا حصن عكار فى زمن نور الدين. على ان هذا الظفر لم يتمادى لان الصليبيين استردوه مرةً ثانية سنة ١١٧٠. ثم ان السلطان بيبرس الذى كان عالماً بمكانة هذا الحصن الحاكم على طريق طرابلس — حمص — بعلبك وقيمته الحربية، لم يلبث ان هاجمه بعد ان فتح حصن الاكراد واستولى عليه (١٢٧١م) وبعد ان فتحت طرابلس فى ايام السلطان قلاوون، نقل والى تلك الانحاء مركزه من حصن الاكراد الى حصن عكار.

وكان هذا الحصن فى زمن العثمانيين فى ايدى آل «بيت سيفا». ولما سخره فخر الدين امير الدروز، هدم جامعه وتكيته. ثم انشئت التكية من جديد سنة (١٦١١). وقد نقلنا عين الكتابة التى كتبها السلطان قلاون على مدخل جامع عكار العتيقه فى المبحث الخاص [*].

ويوجد فى قضاء عكار ما عدا هذا الأثر التاريخى ثلاثة خرب تسمى «عروبه» و «مرجحين» و «قلتعات» هى من بقية اثار الفنيقيين والرومانيين. وانقاض قصبة «عرقا» القديمة. وهذه القصبة هى على مسافة ساعة من «نهر البارد» القديم، وعلى الجانب الايمن من طريق طرابلس اليها؛ مبنية على هضبة تدعى باسمها، وكانت معروفة فى ايام الصليبيين وحاصر قلعتها رەيمون، ثم سخرها الفرسان المعبديون

بنيت هذه القصبة على بلدة قديمة من بلاد الفنيقيين. ويوجد الآن بعض آثار من هيكل الزهراء الذى شيده الاسكندر الكبير فى هذه القصبة التى كانت تسمى قبل دخول الرومانيين بقصبة «سەزار ليبانى Caesarea Libani». و«اسكندر سەوەروس» من الملوك الرومانيين ولد فى عرقا (**).

(*) راجع ص ؛ ١٦٥

(**) ولد سنة (٢٠٩) ميلادية. وتسلطن فى الرابعة عشر من عمره. وقد اصلح البلاد، واقبل على حماية العلوم والصنايع وقد اشهر الحرب عليه، اردشير من الاكاسرة الايرانيين ولم يحصل على فائدة منه. ثم عمد الى اصلاح جنوده وتربيتهم ليتسنى له اخضاع الجرمانيين. ولكن قتله اولئك الجنود بدسائس ماقسيمين؛ وصار الملك الى رقيبه من بعده (٢٣٥).

اما حصار القليعات فقد كان يسمى فى القرون المتوسطة «قوليات Cuallth» ثم سلم
«يونس» امير طرابلس هذا الحصار الصغير الى «Hopital du Mont-Pelerin»
ولم يطل الامر حتى فتحه السلطان بيبرس عنوةً (١٢٦٦). وقد كانت سهول القليعات التى
يوجد فيها هذا الحصار مسماة فى القرون الوسطى بملك الخليفة. وهذه السهول تسقى من ماء
نهر عرقا.

ويوجد فى قرية عين يعقوب التى تبعد ثلاث ساعات عن مركز القضاء مقام يعقوب
عليه السلام، وفى قرية عياش التى هى على عين البعد من المركز مقام الخضر عليه السلام.
وفى عكار القديمة التى تبعد مسافة خمس ساعات، ضريح الشيخ جنيد، ثم على ساعة منها
فى اراضى ميناره ضريح الشيخ بدر، وعلى ساعة ونصف منها ضريح الشيخ زعبى.

٧ — موقع حلبا، ومنظر ضواحيها

ان قصبة حلبا، مركز قضاء عكار من اعمال لواء طرابلس الشام مبنية فى السفح الغربى
من احد الهضاب الصغيرة المتسلسلة من الشمال الى الجنوب. وهذه القصبة التى لم تتجاوز
بيوتها، او بالتعبير الاوضح اكوام حجارتها المائتين فى عددها. محاطة بما يماثلها من القرى،
ففى شمالها قرية «الشيخ محمد» مبنية على السفح الغربى من هضبة صغيرة، ثم فى الجنوب على
عين الوضع قرية «الشيخ طابه والزويره والجديدة».

وهذه القرى الكامنة فى احضان تلك السلسلة الصغيرة، هى مختصر انموذج لصيفيات
(لبنان) او بالتعبير الحقيقى، هى صورة لتلك الربوع خالية عن الاتقان والتهذيب.
على ان لتلك القرى الجبلية منظراً زمردياً، مملوءً بالانس واللطافة ولو لم تكن تلك
الحجارة السوداء مطوقةً باشجار التوت والتين والزيتون، وبالخضرة المتنوعة ثم بصفائح
الصبار بتلك الخضرة الخالدة، لكانت عبارة عن ركام صخرى وسلسلة احجار مصفوفة.
ما الطف واجمل ما ترون اذا صعدتم من الجانب الشرقى على «ظهر حلبا» وقربتم
من قرية «عديل»، وطوحتم بنظركم الى تلك الهالة الزمردية التى طوقت حلبا واحاطت
بها. هذا مستطيل منتظم يمتد من الشمال الى الجنوب؛ حشدت فيه الطبيعة صبرةً من الالوان
تحسباً عن خلقها يد الصنعة والعمران، وجعلته مشهراً للنضارة والحسن.
يحسب هذا المستطيل الاخضر المائل من الشرق الى الغرب، انه قد اعد ليكون فاصلاً
بين تلك الهضاب الصغيرة فى الشرق وبين الفضاء الواسع فى الغرب. وهذا الفضاء الذى
امتد فى الجانب الغربى من القصبة على مسافة بضع ساعات، وانتهى على اذيال الساحل
جعل حلبا تحكم على محيط فضفاض، اما فى الجانب الشمالى فتلوح جبال طرطوس من

وراء ذلك البعد الشاسع مغشاة بالإبهام كانها خطوط من ظل . ثم هناك القرى الرابضة فى اكناف ذلك الفضاء ، والتلال الصناعية تلوح كانها اشباح ظلية .

لله هاتيك الربوع ما اغناها بالبدايع الفياضة ! وما اجملها من ساحة تتجلى فى عشاياها الطف المحاسن وازهى البدايع ! هنالك تتجرعين من نور فوق هام البحر المصفر الذى ينساب وراء الافاق المرئية ، وتبعث سيالاً من النور الذهبي يغسل « القليعات » فى حضن البحر ، ثم « كفرملكه » و « ميرليا » . فتتمتع حلبا بمشاهدة ذلك المنظر البهيج ، او اساطير الذهب التي تمثل بالحور الصفر . ويدوم هذا المسرح المذهب حتى تذوب نتف النور فوق ذلك المرج الاخضر .

ثم الشروق في حلبا لا يقل اطافة عن الغروب . تتأخر الشمس فى البزوغ بسبب قيام الهضاب الصغيرة فى الشرق ثم تنهض فتهرق ذلك السيال الذهبي وترد لتلك الساحة فى الشروق ما اغتصبته من نورها ابان الغروب ويتمشى النقص فى الظلال حتى يذوب وتنغمس تلك الميادين الزمردية فى بحر فضى . وقصارى القول ان حلبا اخذت نصيبها من جميع المحاسن المختصة بالسواحل السورية بتلك البقعة الفنيقية .

ويمكن ان يقال ان هذه القصبة — مهما كانت صغيرة — هى فى جمال المنظر ، حيفا او طول كرم ، وحتى انها جديدة ومرجعيون ، وصفد ايضاً . ولهذا لا يسوغ لها ان تتألم من فقرها بالعمران . لانها سورية ، نعم سورية حسناء

٨ — الخطوط الداخلية فى حلبا

من العبث ان نسهب فى ايضاح خطوط حلبا الداخلية ، من حيث انها مركز القضاء . لانها — كما بينا سابقا — قرية صغيرة تمكن الاحاطة بها بنظرة واحدة . اذا اغضينا عن المحاسن الطبيعية فى مستطيل حلبا المائل ، نجده عبارة عن ركام من الحجارة ، لا طلاء ولا كلس .

والبيوت التى رمى بها نحر الصخور المقورة فى الجانب الغربى من التل ، كل منها يتالف من قسم او قسمين . ولا يسوغ ان تسمى هذه الاقسام بغرفة ولا حجرة . وهى مرصوصة بالحجارة من فوقها وعن ايمانها وشمائلها ؛ وارضها من التراب . ويندر فيها الطلاء او الرش بالكلس . فاذا كان فهو البيت المفتخر فى حلبا . والحلباويون يسكنون هذه الاوكان الحجرية مع الآلات الزراعية الحية جنباً لجنب ... ولولا رحمة الاقليم بهم لصدأت تلك الآلات فى مقبرها ، ويبست تلك الايدى التى تديرها وتدبرها .

ويوجد بين ذلك الرديم الحجرى بضعة عمارات قرميدية تشبه البيوت ، ثم دار الحكومة

ودائرة البلدية ودار القائمقام بالمنافذ المصفحة بالبلور ، وليت شعرى هل هؤلاء بيوت ؟ ام ماذا اقول ؟ . وعلى كل حال يتحتم علينا ان نسجل على اسم حلبا فقراً مدقعاً من العمران والانتظام . هذا وان كانت الاشجار الخضراء التى تتخلل تلك الركام الحجرى توجب تسلية الفؤاد وترينا حلبا بشكل محبوب ، بيد اننا نعترف بوجوب عدم الدخول الى بيوتها وعدم السير فى دروبها . وكيف يسوغ للانسان ان يطلق على تلك الانقاب الجبلة او المزلقات الصخرية الضيقة المعوجة ، اسم الطريق . ومن الغرائب ان الحلباويين يغضون ابصارهم عن الاصقاع المعمورة ، ثم تاخذهم غفلة الطفل فيزعمون ان بلدتهم العاجزة فيها اربع شوارع ! يسمون الطريق الممتد من الغرب الى الشرق « طريق الجومة » . ومرحى لهم اذ لم يتكبدوا مشقة الافتكار لانتقاء الاسماء للطرق الممتدة من الشمال الى الشرق ، ثم من الغرب الى الشرق . ولا ادرى هل يستطيع شخصان ان يمشيا مرتاحين فى هاتيك الشوارع ! ! .

واغرب من هذا انهم قسموا هذه القرية التى لا تتجزى الى خمس محلات وسموها « حارة الذوق » و « حارة الاسلام » و « حارة المسيحية » و « حارة الظهر » و « حارة الوسطانية » . ولا يستكبر على الحلباويين هذا الفكر ، لان كثيراً من المخلوقات تكون لديهم قطرة الماء بحراً خضماً .

هذا ولكى لا ينقصنا من تعريف حلبا شيئ ، يجب ان نذكر بضعة حوانيتها المتداعية وجامعها الوحيد الابتر (لا منارة له) .

ولا ننسى ان ليس فى حلبا كنيسة مع ان اكثر سكانها نصارى . وهم يذهبون الى كنيسة قرية « الشيخ محمد » ليقوموا بواجب العبادة . ويجب ان لا نعجب من هذه القرية التى لا ذنب لها الا كونها مركز للقضاء . لعدم تقربها من مرقاة العمران .

فالى متى يا ترى تحتفظ هذه القرية بمركز القضاء ؟ وهذه هى النقطة التى ما زالت تشغل فكرى ، وتقضى بعجبى .

٩ — الاموال العمومية فى حلبا

ان مركز عكار هى قرية حلبا الكائنة بين (٣٤—٣٥) درجة من العرض الشمالى و٣٣و٤٥ من الطول الشرقى . المرتفعة عن سطح البحر بمقدار ثلاثين متراً . ومجموع عدد سكانها من ذكور واناث (١,١٧٠) نسمة منهم (٥١٧) من المسلمين و(٥٢٥) من الروم الاورتودوكس و(١٢٨) من المارونيين . وان الطريق الذى فتح من « خان الايده » الكائنة على طريق طرابلس — حمص والبعيدة عن طرابلس بمقدار خمسة عشر كيلومتراً ،

الى قرية حلبا ، كان واصلاً ذلك القضاء بمركز اللواء ، وسبباً لسوق كثير من الشرانق والحبوبات الى الخارج .

توجد دائرة بلدية في هذا القضاء . لها ملهى « قهوة » لم يكمل ودائرة مخصصة بها ودخلها السنوي عبارة عن (٤٥٠٠) غرشاً .

كان مركز القضاء قبل ثلاثين سنة في قرية « البرج » . ثم قدم محمد باشا والد علي باشا احد متنفذي حلبا قائمقاماً لهذا القضاء ، فنقل المركز الى قريته . مع ان قرية برقايل ، فنيدق ، ميناره ، رحبه ، بينو كلها تفوق على حلبا بعدد السكان .

ومن اشهر قرى القضاء بسهولة العيش هي قرية بينو التي سكانها نصارى ، ثم اعظمها بكثرة السكان هي قرية قبيات التي سكانها مارونيون . وترى الافكار متضاربة بخصوص بقاء المركز في حلبا او نقله لمحل آخر . ومن رأينا ان حلبا لا تصلح ان تكون مركزاً البتة . ويمكن نقل المأمورين الى قرية الشيخ زناد القائمة على الساحل ، او الى قرية الشيخ جابر الكائنة على حدود صافيتا .

١٠ — الاحوال الاجتماعية

[١] — الحياة الاجتماعية في حلبا — اذا ذكرنا بقلة عدد السكان في حلبا بحيث لا تجوزون الالف الا بقليل ، نعلم عدم امكان وجود الطبقات المختلفة ، المتفاوتة بالاوصاف في تلك الفئة القليلة . نعم ان الحلباويين هم على وتيرة واحدة من وجهة السجايا الاجتماعية ولا يمكن تفريقهم ، وبيان الرأي فيهم الا باعتبار الدين فقط .

نطقت قيود النفوس بان اقل من نصف الحلباويين مسلمون ، والباقي من المسيحيين . ولكن المسلمين اليوم في حلبا لا يزيدون في عددهم عن ربع السكان .

ويوجد بين المقيدين باسم الاسلام عائلتان من الاسماعيليين يضمون بضع نسمات ، ثم الباقون كلهم من السنيين .

والآن بسبب وجود الشبان في الخدمة العسكرية ، لا يوجد في حلبا اكثر من عشرين او ثلاثين رجلاً من المسلمين . اما النساء ، فقد يصيب كل رجل اربع او خمس منهن .

ان حياة المسلمين وعيشهم في حلبا هو على غاية من الفقر والحاجة ويندر فيهم من يكون دخله السنوي سبعة او ثمانية آلاف غرش . ثم ما بقي منهم اما يشتغلون في الزراعة بصورة محدودة ، واما يتخذون الحوانيت ويتعاطون البيع والشراء ويحصلون على اقواتهم اليومية بكل مشقة وعسر .

وربما يعالجون صناعة الحرير ، ويحاولون دفع عسرهم الحياتي بهذه الواسطة ولكن نجاحهم يكون محدوداً ايضاً . اما نساء حلبا فقد كان بعضهن لا يشتغلن قبل نشوب الحرب . اما اليوم فقد دخلن الحياة الاجتماعية واصبحن يعاون الرجال يداً بيد في الاعمال الزراعية وغيرها .

اما الاسماعيليون في حلبا فهم عبارة عن بضعة افراد ، وهم ينتمون الى شعبة « السويدانية » من الاسماعيليين (*) . ويزعم مسلمو حلبا ان هؤلاء يقومون ببعض المناسك الدينية ، ويشتركون في الصلوات الخمس ، وفي صلاة الاعياد . ويدعون انهم يصومون ايضاً . اما المسيحيون في حلبا فهم عبارة عن الروم الاورتودوكس والطائفة المارونية . وعدد رجال الاروام مائة او مائة وعشرون ، ونساؤهم على ضعف هذا العدد ، والمارونيون هم عشرون او ثلاثون رجلاً ، وثلاثون او اربعون امرأة .

فاذا قارنا بين هاتين الطائفتين المسيحيتين نجد الاروام اغنياء بالنسبة الى المارونيين وحتى بالنسبة الى المسلمين ايضاً . ويعثر بينهم على من تربو وارداته على خمسة عشر الف غرش في السنة . والباقون يعيشون كالمسلمين بحالة يرثى لها . وقسم من المسيحيين يشتغل بالحراثة والزراعة ثم منهم من يشتغل بمهنة المكاراة .

نفهم من هذا ان حياة الحلباويين الاجتماعية من مسلمين ونصارى هي على الغاية من الضنك . وهذا الحال يتضح بصورة ملموسة اذا ابصرنا داخل بيوتهم التي يأوون اليها . وقليل من هذه البيوت — كما قدمنا — مطلي الداخل بالطلاء الكلس ، ثم معظمها اما ملطخ بالطين ، او متروك على حاله بحجارته التي بني فيها . ومن العبث ان ترتاد في حجراتهم الاثاث او سائر اسباب الزينة . بل اثاثهم عبارة عن حصير او سجادة او فراش . وكلهم على هذا النمط ، اما ضنك عيشهم فهو محسوس جداً . وان العائلات اللاتي لم ترزح تحت الديون الباهظة تعد هذا من الموفقية التي من واجبها الشكر عليها . لاسيما اذا كان الموسم غير مساعد في احد السنين فيكون الضنك العيشي على امر النتائج . ولنعترف بان الحلباويين على درجة عظيمة من القناعة ، وبما انهم معتادون على الترمق بخبز الذره والاكتفاء به ، اقتدروا على ادامة حياتهم بالاقتصاد .

ولباس الحلباويين ايضاً وضيع وبسيط . فاعظم من فيهم يلبس جبة يسمونها « بالطو » ثم سروال ، وصدار . وبعضهم يكتسي الاعبئة ، ويسترون رؤسهم بالعصابات السود « حطه » ويضعون فوقها العقل « بريم » ، وبعضهم يلبس في راسه القبعات الطوال ويسمونها « لبادة » ويسترها بعصابة سوداء ثم يجعل العقال فوقها . ويتخذون النعال « تاسومه » او الامواق

(*) سنبحث عن الاسماعيليين بحثاً مفصلا .

(جزمات) العربية . اما النساء فيمشين حفاة . ولباسهن من البز المصبوغ . والنساء المسلمات هناك لا يرين لزوماً للازر والاردية . وقصارى القول ان الحلباويين فى معيشتهم ولباسهم ليسوا الا من القرويين الفقراء .

[٢] — **العادات الاجتماعية فى حلبا** — ليس للحلباويين من عوائد محسوسة يختصون بها . وحلبا ليست من القيمة التاريخية على شيء ، وهي خلو من المزايا الاجتماعية فمن العبث ان نرتاد فيها الخلال الخاصة من حيث العادات . ومع هذا يمكننا ان نلحظ بعض النقاط ونشير اليها .

فمن عاداتهم فى الزواج ، ان يتكلم اهل الخاطب مع ذوى المخطوبة ، ويحصلون على رضاهم ، ويتفقون على بعض الشرائط الاولية، ثم يذهب شيوخ القرية ووجوهها الى بيت المخطوبة ويخاطبون اهلها فى هذه المسئلة جهاراً ويتفقون على المهر ايضاً . وحالة الفقر فى هذه القرية لا تمكنهم من الغلو فى المهر . بل ان الالف غرش في هذا الامر تكون قيمة لا ترد وربما يعطون قطعة من الاراضى عوضاً عن المهر .

وتقضى عليهم العادة قبل المباشرة بالعقد بارسال التبغ والتنباك وغيره من المواد التى يجب صرفها فى هكذا نواد . والتقاليد عندهم فى العقد كادت ان تكون عبارة عن شرب الشراب فقط . ثم يدفع القسم المعجل من المهر ، او بالاصح ثلثاه . فيشتري اولياء البنات به للعروس بعض حوائجها . والثلث الاخر من المهر يبقى فى ذمة الزوج . وبعد اجراء النكاح بشهر او شهرين يشرع باعداد لوازم العرس . والاحتفال بالزفاف فى حلبا يكون ذا جلبة عظيمة . تركب العروس على جواد اخذ مبلغه من الزينة على النسق البداوى . ويمشى امام الجواد رجل في يده قصبة طويلة معقود فى رأسها منشفة كبيرة . او بالتعبير الاوضح ، يرفع ذلك الرجل لواء الزفاف ، وتحيط بالعروس الاقارب والاصدقاء ويزمرون بزمارة من قصب ، او يدقون بالطبول ، ويضربون في الابواق ويرقصون ، ويتسابقون على خيولهم ويلعبون بالسلاح حتى يصلوا بها الى بيت العريس .

تنزل العروس عن جوادها امام بيتها الجديد . ويناولونها قطعة من عجين تلصقها على جبهة الباب ، وتدخل الى البيت .

ثم يؤتى بالعريس على هذه الوتيرة . ولما يدخل البيت تكون العروس قاعدة فيأخذ بيدها ويذهب بها الى حجرة اخرى . وبهذا ينتهي الاحتفال .

*
* *

وان للتبريك فى الاعياد عند الحلباويين تقاليد خاصة ايضاً يشترك فيها سكان القرى المتجاورة ، فيركبون الخيل نساءً ورجالاً ويطوفون بالقرى وهم طافحون بالمسرة والنشاط

ويتعايدون على هذا المنوال . ويكرمون بعضهم بانواع الطعام .

[٣] — **الاحوال الاجتماعية فى قضاء عكار** — لا جرم ان الآراء التى ابديناها على مركز قضاء عكار لا تكون مقياساً للقضاء جميعه . ويمكن ان نقول بان لا يعثر على قصبة كحلبا ، بعيدة عن تمثيل حال قضائها . ولا يمكن فى قضاء كبير مثل عكار يضم اربعين الفا من السكان ومأة وستين قرية ان يخلو من الخلال الاجتماعية الخاصة . وعليه فاننا نجهد الان لايضاح هذه النقاط وتفصيلها :

يرى من السهل لاول وهلة ان يقسم السكان فى هذا القضاء من حيث الدين الى مسلمين ونصارى . ونرى هذا التقسيم يكاد يكون طبيعياً لان المسلمين يقطنون فى الجهة الشمالية الشرقية من القضاء . والنصارى فى الجانب الشرقى، فى بقاع « الجرد » وفى الجهة الجنوبية منه . على ان لهذين القسمين الكبيرين اقساماً من الفروع الثانوية يجب تفريقها ويتحتم علينا ذكرها :

مثلاً : ان مسلمى عكار ، عبارة عن « العكاكرة » . امراء عكار « بك » . والعرب البادين م[ن] التركمان ، والمسلمين من القرويين الاهليين . ويجب علينا فى البحث ان نذكر هؤلاء على الانفراد :

(امراء عكار « بك ») — يزعمون انهم جاؤا الى هذه الربوع من انحاء حكارى قبل مائتين ، او مائتين وخمسين سنة . وانهم من الاكراد ولكنهم اليوم مستعربون . اما عددهم ، فليس عليه اتفاق ، ويخمن ببضعة الاف من رجال ونساء . ويعثر بين هذه الثلة على اسماء اسر مختلفة . وكلهم قائلون بانهم من اسرة « مرعب » ثم تشعبوا وتفخذوا على مرور الايام . ورجال العكاكرة حائزون على عنوان (بك) وهو سمة الاصالة ولهؤلاء الامراء احاديث فى الفروسية والشجاعة لا تزال تدور على السنة القوم من كبير وصغير ، وهذه الشهرة التى لا تزال تتكرر على مسامعهم زادتهم غروراً ، وخلقت فيهم ارواحاً متغلبة ، شأن كل من رنحته الشهرة . وبين هؤلاء المتغلبة مقدار خمسة عشر ركناً هم على الدرجة القصوى فى السلطة والتحكم . ولهم لباس يتبعون فيه اسلافهم من قبعة طويلة فوقها عصابة مسورة بالعقال ، وجبة ، ثم سروال قصير ، والاحذية الطويلة السوداء فى ارجلهم . ويوجد بين هؤلاء المتغلبين من تمكن من الحصول على « الباشوية » فى الدور البائد .

وهؤلاء الذين تسلطوا على محيط عكار ، واخذوا نصيبهم من الاشتهار فيه بالتغلب والتحكم . جعلوا مراكز سطوتهم فى قرى « برقايل ، بجدلة ، ببنين ، بيرى ، حوشيت ، عياد » واعظمهم غناً يقطن فى « برقايل » . ويوجد بينهم من تقدر امواله المنقولة وغير المنقولة بمائتين او مائتين وخمسين الف ليرة . واقنعهم فى المعيشة لا يقل دخله السنوى عن الفين

او ثلاثة آلاف ليرة . ويوجد فى قرى الاسلام من هؤلاء مقدار اربعين متغلباً تقاسموا حكم هاتيك الانحاء بخطوط معينة لديهم . واخذ كل منهم يجهد لنفسه فى داخل دائرته .

لو سألم احد القرويين عن تحكم هؤلاء الامراء ، لا يلبث ان يبثكم آلامه القلبية ويقول :

[لكل من هؤلاء المتغلبين الذين يناهزون الخمسماية فى عددهم رجال واعوان مجهزون بالسلاح الكامل . رهينون اشارتهم وامرهم . وقد يتفق بضعة منهم على آخرين فتتكاثف قوتهم وتقوم بينهم الحرب على سوقها . فيكتسحون اشجار الزيتون ويقتلون بعضهم ويدسون اعوانهم فيسرقون الاموال ولا يدعون فرصة لاضرار بعضهم الا وينتهزونها ، وان كيد هؤلاء الاقارب لا ينحصر ببعضهم ، بل يتجاوزون على من حولهم ويرتكبون انواع الظلم والجور .

يرى احد هؤلاء المتغلبين جواداً يعجبه فيطلبه من صاحبه . فان ابى او تعلل ، لا يلبث ان ياتيه الموت من رجال ذلك المتغلب ، او يقطعون عنه الماء ، او يخربون امواله واملاكه . ولا ننسى ان الذين يطلعون على هذه الجنايات لا يتجاسرون على اداء الشهادة فى المحاكم اذا مست الحاجة ؛ والا فانهم يذوقون انكر العذاب .

ان الفقراء المزارعين الموجودين تحت رحمة اولئك المتغلبين هم فى حالة يرثى لها . لانهم يجهدون انفسهم سنة كاملة ، ثم لا يكون نصيبهم من ذلك السعى المبرح الا الخسران والحرمان . واذا اردنا ان نطلع على كيفية تطاول هؤلاء المتغلبين على المزارعين وكيف يغتصبون ثمرة مساعيهم ، فلننظر الى هذه الضرائب التى يتقاضونها من هؤلاء المساكين :

اولا — يأخذون ثلث المحصول من حيث انهم اصحاب الارض ، وعلى جرى العادة.

ثانياً — يأخذون عشر مجموع المحصول ، من حصة المزارع فقط.

ثالثاً — يتقاضون منهم مبلغاً معيناً فى السنة باسم « الدخانية » و « ثلث الضرائب » و « اجرة المسكن » .

رابعاً — يأخذون رباسم (الشكاره) شنبلاً عن كل (جفت) من حصة المزارع.

خامساً — يقرضون المزارعين شيئاً من الحب ، ويحسبون عليهم ثمن الشنبل بستماية غرش ، مثلاً . ثم يتقاضونه عند وجود الحب فيشترون منهم الشنبل بمائتى غرش ، وبهذا يكون ربحهم ثلاثة اضعاف الدين .

وقصارى القول اذا اضفنا الى ضرائب هؤلاء المتغلبين حصة من هم اقدر منهم واقوى فى التغلب ، ثم حصة بعض المأمورين الذين نبذوا الوظيفة والوجدان وراء ظهورهم ثم سهم المحصلين . وافراد الدرك (ژاندارمه) تتضح لنا حالة المزارع ، ونطلع على حقيقة امره . ولهذا يجب التسليم بان القرويين فى عكار لا يزالون يرزحون تحت اعباء

هذه القوة الغاشمة »

ما اجدر هذه الصارخة المبكية بمغيث يضرب على ايدى اولئك الظالمين وينتصف لهؤلاء المظلومين !

لاسيما اذا فكرنا بنفقة تلك القصور المشيدة ، واولئك الحواشى والاعوان المحشدة ، ثم بتبذير هؤلاء المتغلبين الذين يقدمون الى بيروت وطرابلس لمجرد الاهواء والاذواق ، وباسرافاتهم المفرطة ينكشف لنا الغطاء عن المؤثر الحقيقى الذى يضطرهم لاتباع هذه الخطة فى ديار عكار .

ولا ننسى ان هؤلاء المتغلبين وان كانوا على الدرجة القصوى من البذخ والترف فى منازلهم ، ولكنهم يهملون كثيراً من الاحتياجات الاجتماعية . ومن العبث ان نتحرى فى ترتيب منازلهم نظاماً يرتاح له الذوق ؛ اما حياتهم العائلية فهى محشوة بكل نقص .

ومع هذا فلا يسوغ تطلب غير هذه الاوصاف من تلك الزمرة الطائشة لان الجهل الاسود لا يخلق فى هكذا محيط الا هكذا نتائج .

*
* *

ثم يوجد فى هذا القضاء — ما عدا العكاكرة — سكان الخيام من عرب البدو ؛ وهم يقطنون السهول من هذا القضاء وهم عبارة عن خمس قبائل :

١ — « عرب الهيب » . يسكنون قريباً من الجانب الشرقى من تل عباس وعددهم (١٠٠—١٥٠) ، وعدد بيوتهم (١٥—٢٠) .

٢ — (عرب الزريقات) ، يسكنون فى الانحاء الكائنة بين نهرى « العرقا » و « البارد » ولهم (٧٠—٨٠) من البيوت ، ويبلغ عددهم الى (٣٠٠—٤٠٠) نسمة

٣ — « عرب معاقل » ، يسكنون فى جوار « خان العبودية » ولهم « ٨—١٠ » بيوت وعددهم « ٥٠—٦٠ » نسمة .

٤ — « عرب الموالى » ، يسكنون فى انحاء « ديرين » و « سعدين » ولهم بضعة بيوت وعددهم « ٣٠—٤٠ » نسمة .

٥ — قبائل « نعيم الخير » و « الحديديين » و « الكعبين » ، يسكنون بين « الحريبة » و « نهر الكبير » ولهم « ٧٠— ٨٠ » بيتاً وعددهم « ٣٠٠—٤٠٠ » نسمة .

ولا نحسب ان لهؤلاء الاعراب فرقاً فى الاوصاف والخلال عن غيرهم من العرب البائدة . لان ارواحهم المتشردة لا تزال مشربة بحب الخيام ولا ننسى ان هؤلاء كثيرا ما يتعرضون لاخلال الراحة العامة فى الانحاء التى يقطنونها .

*
* *

اما تركمان عكار فهم يسكنون — كما قدمنا فى البحث الخاص — فى قرى [الكواشره

وعيدمون والجديده والدوسه] وعددهم يناهز « ٦٠٠ نسمة »

وبما اننا سنبحث عن شيق حياة هؤلاء التركمان ، واحوالهم الاجتماعية اثناء التكلم عن تجوالنا في « جبال عكار » فلا نرى لزوماً لتكرار البحث هنا .

* * *

ثم ان بقية المسلمين في عكار — ما عدا الذين بحثنا عنهم — يكونون طبقة القرويين. وهؤلاء لا يزالون تعساء رغماً عن استعداد اراضيهم ، وابلاغهم بالكد والكدح ، وذلك بتاثير الاسباب التي تقدم البحث عنها . ويشتغل ثلثا هذه الطبقة الكثيفة بالزراعة ، وسدسهم بالحرير ، اما السدس الآخر فهم لا مهنة ولا عمل ، يعيشون بالنقود التي ترسل اليهم من اميركا .

* * *

اما النصارى الذين هم اكثر سكان القضاء عدداً ؛ هم في الحياة الاجتماعية ارقى واسعد من القرويين المسلمين . فقراهم اكثر اعماراً ، ومنازلهم اوفر انتظاماً ، وانظم ترتيباً واوفر اثاثاً . واغنى قرى النصارى قرية « منيارا » ؛ اما اعظمها عمراناً وارجحها مدنية هي قرية « بينو » . وافقر العائلات المسيحية في هذه القرية لها بيت مفروش بصورة منتظمة على قدر ما يمكنها .

ويعتز في « منياره » و« القبيات » على بضعة اشخاص يتذرعون بمصاهرة بعض الاجنبيين ويتكئون على قدرتهم ، ويسعون لجلب المغانم بمختلف الوسائط . على ان سلطة هؤلاء لا تذكر في جانب سلطة غيرهم ممن ذكرنا .

ثم ان للمهاجرة على نفوس هؤلاء المسيحيين سلطة عجيبة ، ونتيجة اقبالهم عليها جعلت اكثر من خمس سكان هذا القضاء في الديار الاميركية . ويقولون ان نصف المسيحيين في هذا القضاء كان يعيش بما يصل اليه من النقود الاميركية . ولذلك سقط ذوو هذه الطبقة الى حضيض الذل والفاقة منذ اشهار الحرب ولاسيما منذ انقطاع العلائق بين الدولة وحكومة اميركا .

اما افراد النصف الآخر من المسيحيين فهم ارباب مشاغل ومهن . ويشتغل ثلثاهم بصناعة الحرير ، والثلث الآخر بالزراعة . ولقد تطلعنا الابحاث التي قدمناها ، عن سبب اقبال النصارى على الزراعة واهتمامهم بها . ولهذا لا نرى لزوماً لتكرار هذا البحث .

ولنذكر قبل اتمام هذا البحث ان الثروة النقدية في هذا القضاء تقدر بمليونين ، والاموال غير المنقولة بمليون من الليرات . بيد ان هذه الثروة ليست عميمة النفع لانها منحصرة في اشخاص معدودة ، ولهذا السبب لا تكاد تنتج بسعادة اجتماعية البتة .

[٤] — **الارقام الاجتماعية** — لاجرم اننا لا ندعي صدق هذه الارقام التي سنثبتها في هذا البحث . ولا بانها حائزة على الشروط التي يمكن اتخاذها ركناً للقياس. بل رجحنا درج ما حصلنا عليه منها على علاته لانه لا يخلو من فائدة.

[القتل والجنح] — احيل على الهيئة الاتهامية سنة (٣٣٢) اوراق (١٤) من المظنون عليهم بالقتل في هذا القضاء . منهم (١١) من الذكور و(٣) من الاناث اما الجنح ؛ فقد حكم على (٩٠) شخصاً في هذه السنة بجرائم مختلفة . منهم (٢٦) حكم عليهم بالسرقة و(٢١) بالضرب والجرح . ومن هؤلاء التسعين (٤٢) شخصاً من الزراع و(٢٢) من اصحاب الاملاك و(٨) من العمال و(١٧) من العطال الذين لا عمل لهم . و(٦) من هذا العدد اناث و(٨٤) ذكور . ثم ان (٦٠) من الذكور عزاب ، والباقون من المتأهلين. ومن التسعين (١٧) شخصاً ممن يحسنون القراءة والكتابة . اما سنهم ؛ فمنهم (٨) فقط بين الخمسين والسبعين والباقون بين العشرين والاربعين ومنهم (٣) سنهم اقل من العشرين .

(مقدار الكسب) — يزعم انه يوجد في حلبا (٣٥) شخصاً يربو دخلهم السنوي عن (١٠٠٠) غرش وبينهم اربعة يربو دخلهم على (٥٠٠٠) غرشاً .

اما في القضاء ؛ فان خمس النفوس دخلهم اقل من (١٠٠٠) ، ثم ان (٨٠) في المائة منهم يزيد دخلهم عن هذا المبلغ .

(الصنوف الاجتماعية) — يزعم ان (١٣٧٩٠) شخصاً من مجموع سكان القضاء يشتغلون بالزراعة ، ومقابلاً لهذا يوجد «١٣٠» شخصاً يتعاطون التجارة ، و «١٨٥٧» شخصاً يعيشون عطالاً بلا عمل ولا مهنة ولم ينبغ من عكار الى الان الا خمسة اطباء .

وعدد اصحاب الاملاك هناك «٦٨٧٦» على التخمين. وهذا المقدار يقرب من خمس مجموع السكان وقد تجند من قضاء عكار في هذه الحرب «٧١٥١» شخصاً . ويروى انه يوجد فيها «٢٠٠» من الرهبان.

١١ — الاحوال الروحية

يجب ان نلقي على سكان حلبا من حيث الاحوال الروحية كالظل . لان هؤلاء الناس محرومون من السجايا النفسية التي يشعر بها لدرجة تجعل الحكم على تبرأهم من السجايا ضرورياً . ولا نحتاج للاسهاب في اقامة البراهين على ان هؤلاء المساكين المحرومين من كل نور ومدنية ، عبارة عن اجسام عضوية فقط . حتى ولا لزوم للامعان في حياتهم الاجتماعية وتدقيقها وتحليلها ، وحسبنا نظرة واحدة في تلك الوجوه والانظار لنطلع على بساطة ارواحهم وخلوها من كل معنى . وعليه ما لنا الا ان نعتبرهم اجساماً ناشفة بلا

من كل علم وتجربة .

ولا جرم ان رأينا هذا يشمل جميع الطوائف الموجودة فى حلبا . وان ادرى هل الذين يحسنون القراءة والكتابة فى حلبا من مسلمين ونصارى يبلغون الى عشرة من مأة؟ وهذه القروية الشرقية البحتة يندر العثور عليها فى مراكز الاقضية . ولو صرفنا النظر عن مراكز الاقضية الممتازة فى القسم الجنوبى من ولاية بيروت كصيدا وحيفا ، ونظرنا الى جنين وامثالها نجد لها شخصية تناسبها . ولكن ليس كحلبا موقع مبرأ عن الشخصية. هذا ولنعترف ان تلك الثلة البشرية الهادئة ، المطيعة الخاضعة هى مستعدة للسوق والادارة أكثر من غيرها. فلو كان لها قليل من الهمة لأثمرت بالنتائج الحسنة . وعليه فالتذرع بالوسائل التى تنفخ فى هؤلاء الاجسام العضوية قوى نفسية ضرورى ومحتم .

* * *

اما الحالة الروحية فى قضاء عكار فليست على هذه الدرجة من الصفوة والفراغ . لان لكل من امراء عكار والتركمان والعرب البادين، ثم القرويين المسلمين . والطائفة المسيحية اوصافاً روحية متخالفة .

ان معظم الامراء « بك » العكاريين ، اكسبتهم الشرائط الاجتماعية ارواحاً عصبية خشنة . وانهم بنسبة سرعة انفعالهم وشدة تأثرهم ، تشرأب ارواحهم الى الاصالة القصصية. فالحصول على السلطة النافذة ، وامتطاء الجياد الصافنات ، واقتناء الاتباع المسلحين ، ثم امتلاك الاراضى واستعباد القرويين ، والتمكن من الحصول على جميع الامال ، ثم الاحراز على لقب « بك » او « باشا » ، هى من امانيهم العالية ؛ وهى حالتهم الروحية الحقة .

لو تصفحتم جميع صفحات حياتهم لوجدتم هذه الآمال مسيطرة عليهم ، فالذى يفتح ابوابهم للشارد والوارد ، ويوجد على موائدهم تلك الانواع المحيرة ، والذى يسلطهم على القروى والذى يغضبهم ويهيجهم ، والذى املأ منازلهم بالنفائس المختلفة ، هى تلك الاوصاف وهاتيك السوائق.

ويجب ان نعترف بان اصعاد هؤلاء على سلم الترقى سهل . وهذه السهولة ناشئة عن خضوعهم لحسياتهم . فكلمة « بك » او « باشا » ممزوجة بشىء من التواضع ، تنزل بشخصية هؤلاء الطبقة من الخشونة والعصبية الى اللين والانسية . وما عاش هؤلا القوم مربوطين بتلك الشنشنة الهرمة الا لانهم لم يجدوا النور الذى يحتاجون اليه . هذا وان يكن حصل فى الايام الاخيرة لدى اركان هذه الطبقة يقظة واضحة ، وكان منها ان جملت فهم بضعة اشخاص تخرجوا فى المدارس العالية ومثلهم فى المدارس التالية ، بيد ان هذا المقدار لا يكفى، بل يجب الافتكار بالاسراع فى تنوير هذه الفئة التى لا يزيد مقدار من يحسنون القراءة والكتابة فيها عن نصفها . فاذا تنورت هذه الطبقة مع ما هى عليه من

الغنى فلا جرم انها تنجح ، ويكون لها فى محيط عكار الغنى بشرائطه الطبيعية انفع الاعمال.

* * *

ان الروح الطائشة المنكبة على محافظة القديم فى التركمان والعرب الرحالة ، هى معروفة عند كل احد . ولذلك اننا نصرف النظر عنهم ، ونتكلم عن القرويين المسلمين وعن السكان المسيحيين فى عكار .

ان القرويين بسبب ما ينالهم من الظلم والتضييق الشديد ، ثم بتاثير الانحرام من وسائل التمدن والرقى ، كانوا فى الاوصاف الروحية اشبه الناس بالحلباويين . ومع هذا يجب علينا ان نفرق سكان السهول الساحلية عن سكان الجبال وانحاء « الجرد » . لان سكان القسم الاول مفطورون على الاطاعة والمسالمة ، اما سكان القسم الثانى فهم معروفون بخشونة الطبع وشدة الاصرار والعناد . وقد خرج منهم فى الايام الاخيرة شرذمة من اللصوص فى انحاء « الجومه وخربة الرمان وقيطع » وارهبوا سكان القرى الساحلية المسالمة . ولهذا فان اهالى « حلبا ومينارا والجديده والشيخ طابة » معروفون بالجبانة عند العكاريين .

اما السكان المسيحيون فى عكار ؛ فقد اضلتهم تلقينات الرهبان الذين هم اكثر من مائتين فى هذا القضاء ، وهم بالرغم عن تأخرهم بالرقى الفكرى ، ارقى من المسلمين من حيث العمل والحياة الاجتماعية . وان يكن فكر الهجرة الفت نظرهم عن وطنهم الى الخارج ، ولكن النقود التى ترسل من اميركا لا تزال تحدث العمران والانتظام فى القرى المسيحية ، لاسيما فى قرية « قبيات وبهنو » فانهما يزدادان عمراناً وانتظاماً على الدوام .

ولنعلم ان لو عالجنا تحويل تلك المساعى التى تصرف فى اميركا وارجاعها الى سورية ، وحصرها فيها فلا جرم ان بلادنا تستفيد استفادة اساسية لا قشرية .

ويزعم ان «٣٥—٤٠» فى المائة من نصارى عكار يحسنون القراءة والكتابة . وتصعد هذه النسبة فى قرية بهنو الى (٧٠) فى المائة . ويوجد بين جميع المسيحيين هناك مقدار (١٠٠) شخص من دارسى العلوم التالية .

اما الذين يعودون من اميركا فلا يبعدان يستصحبوا معهم بعض الخصائل الحسنة التى اكسبهم اياها التقليد ، ولكنهم يأتون مثقلة اعناقهم باحمال البطالة والكسل . ولاسيما ان المبالغ التى كانوا يرسلونها من اميركا تكون لهم ذريعة لتأمين معاشهم مع العطلة. وهذا السبب خلق فى محيط عكار طبقة من كسالى الناس . ولا ريب فى ان هؤلاء كانوا اشد الناس ضرراً وبلاء من هذه الحرب العامة.

١٢ — الاحوال الصحية

نريد قبل التكلم عن الاحوال الصحية فى قضاء عكار ، ان نبحث نبذة عن الحالة الصحية فى (حلبا) . ان هذه القصبة مشهورة بعذوبة الماء ولطافة الهواء . فماؤها صاف من اصله، وهو يجرى فى انابيب الحديد من منبع « عين الجرن » التى تبعد عن حلبا مقدار ربع ساعة الى حوض فى داخل القصبة . ولهذا لا يكون سبيل لترشح الماء وتحلبه . وتوجد فى الناحية الجنوبية قريباً من القرية « عين المملول » ثم فى الشمال « عين الوادى » . ويوجد فى اكثر البيوت الآبار المصونة . وعليه لا يكون للحلباويين هم بخصوص الماء ، لانهم يجدون الماء النظيف اينما طلبوه .

ولكن يا للاسف ان بيوت حلبا ، بالرغم عن طيب مائها وجيادة هوائها ، ليست على شئ من الخير الصحى . والخطأ الذى لا يعفى ، هو عدم وجود المحلات الضرورية فى تلك البيوت .

اما القضاء فقد يفرق من حيث الحالة الصحية الى قسمين :

الاولى يشمل الاراضى الساحلية ، والثانى يضم انحاء الجرد . والاراضى فى الساحل تكون مستوية ، غنية بالمياه الجارية ، وتسقى منها تلك الاراضى ولهذا السبب تتكون المستنقعات ، وتجعل ذلك الانحاء مرزغة .

اما اطراف « الجرد » اى انحاء الجبال فهى يابسة الهواء . وان جبال عكار التى لا ريب فى انها الطف جبال سورية ، لم توجد فيها الدروب ولم تنتظم فيها القرى . ولذلك فلا يستفاد الآن من هذا المصطاف البديع .

ثم ان البيوت فى تلك القرى كلها على نسق بيوت حلبا بعيدة عن الخير الصحى .

اما الامراض المحلية فى حلبا وفى الانحاء الاخرى من القضاء ، هى « الحمى المرزغية وذات الرئة ، وذات الجنب » وامثالها .

فى سنة (٣٣٢) اصابت الحمى المرزغية (٧٠—٨٠) شخصاً . وبه يكون هذا المرض تسلط على عشر السكان . اما الامراض الاخرى فى حلبا فقد اصيب بكل منها اربعة او خمسة اشخاص . وفى عموم القضاء يصاب كل سنة مقدار (٥٠٠٠—٦٠٠٠) شخص بالحمى المرزغية ، وهذا المرض يكون على الاكثر فى القرى الساحلية . وايضاً يصاب « بالتهاب القصبات» مقدار (٤٠—٥٠) وبذات الرئة (٢٠) وبذات الجنب (٥—١٠) اشخاص . وعموم المصابين بمرض السل عبارة عن عشرة اشخاص فى جميع القضاء .

لا اثر للمرض الافرنجى هنا ، ولكن اصيب بالاخف منه مقدار (١٠٠) من الاشخاص .

اما الامراض الطارئة، فقد اصيب فى حلبا سنة (٣٣٢) (٧—٨) اشخاص بالقوليرة ، ومات خمسة منهم . واصيب بالحمى النمشية (١٠—١٢) شخصاً توفى منهم خمسة . ولم يدخلها مرض الجدرى فى هذه السنة .

وفى القضاء كانت الحمى النمشية والجدرى متفشية فى قرية « فنيدق » وقد اصيب بالاولى «٦٠» شخصاً مات منهم «٤٠» وبالثانية «٤٠» مات منهم (١٠) اشخاص .

وفى جميع القضاء اصيب بالحمى النمشية سنة (٣٣٢) ، « ٥٠٠—٦٠٠ » شخصاً مات منهم « ١٠٠—١٢٠ » واصيب بالقوليره (٣٥) مات منهم (٢٥) وبالجدرى (٣٠٠) مات منهم «٥٠» شخصاً . وعلى هذا الحساب يكون مجموع عدد الوفيات بهذه الامراض قريباً من مأتى نسمة .

وفى الثلث الاول من سنة « ٣٣٣ » لم يظهر مرض الجدرى البتة بسبب التلقيح الذى شمل اكثر من « ٢٠٠٠٠ » من الاشخاص . ولم يوجد اثر للحمى النمشية ولا للقوليرة لعدم ورود الافراد المأذونة من القطعات العسكرية

*
* *

ان المؤسسات الصحية فى قضاء عكار ناقصة جداً . وطبيب البلدية المكفل بالمشارفة على امور الصحة فى القضاء من جانب ، ومعالجة المرضى من جهة اخرى — مهما كان جلداً متحملاً — لا يقتدر على الاحاطة بهذا الامر العظيم والقيام به . ويقول انه امضى فى السنة الماضية اكثر من الف ساعة على ظهر الجواد حتى استطاع تفقد القضاء غربه وشرقه . ثم ان فقدان الوسائط الصحية ، والشرائط الحياتية تشعرنا بلزوم الاهتمام اكثر من هذا بحياة تلك القرى المظلومة .

ولا صيدلية فى جميع القضاء الا صيدلية البلدية الموجودة فى حلبا . وعليه اذا اوجب الامر لحضور طبيب ، او لزم شئ من العلاج يضطر المريض لان يتربص الايام العديدة .

وقد كان يوجد قبل الحرب اطباء خصوصية فى قرى (به نو) و « قبيات » . وصيدلية فى حلبا والقبيات ؛ ثم جراح ايطالى فى القبيات ايضاً . والآن فقد اقفلت تلك الصيدليات واجلى الاطباء . وفى هذه السنة نقل مأمور التلقيح الى محل آخر .

١٣ — اللغة والادبيات

ان اللغة العامة فى قضاء عكار هى العربية العجمى . وان الذين يحسنون القرائة والكتابة قليلون جداً ، وان علمهم بها ناقص . ولهذا السبب يندر هناك وجود من

يعلمون العربية الفصحى . اما اللغاة الاخرى ، فان التركية شايعة بين التركمان ، ولكن لا يوجد فى حلبا ولا فى بقية اقسام القضاء واحد من الف ممن يعلمون هذه اللغة . بيد ان من تخرج فى مدرسة العشائر التى كانت فى الدور البائد من الامراء العكاريين يعلمون قليلاً منها

اما اللغاة الاجنبية فقد يوجد فى القضاء ممن يعرف اللغة الفرانساوية « ٢٠ » وممن يعرف الانكليزية « ٣٠—٤٠ » شخصاً ، ويوجد بين الذين عادوا من اميركا « ١٠٠٠ » شخص يعرفون اللغة الاسبانيولية .

فاذاً ؛ ان اعم لغة فى قضاء عكار واروجها هى العربية العجمى . وان تسلط هذه اللغة على الطبايع بلغ لدرجة انسى الامراء العكاريين اللغة الكردية ، ودخل اللغة التركمانية فاشغل موقع اكثر الكلمات التركية ، وكاد ينسخ اللغة التركمانية بتاتاً ويشغل مكانها .

ان اللهجة فى هذه العربية العجمى هناك لا تختلف عن اللهجة الطرابلسية . ويوجد فى هذه اللغة اناشيد كثيرة ، منها ما يتغنى به اثناء الرقص « الدبكة » من نوع الميجانه ، او العتابه [*] ، ثم التهميم ، وهو ضرب من الحداء [١] . وادبيات الناس فى عكار عبارة عن هذه الاناشيد والاغانى :

ونرى ان ليس فى هذه الاناشيد ما يشف عن حياة عكار . ويبحث عن تلك المناظر الطبيعية . ولكن ترديد عبارات الحب فيها يجعلها حرية بالذكر . وها نحن نأتى ببضع قطع من هذه الاناشيد :

— اغنية —

هلا بالورد يا يمى هلابا
تعذبنى وما طيق العذابا
ورميت سلام ما ردوا على
يا شوف الزين من تله لتله
هويت اثنين واحد ما حصللى ...

فاذا فكرنا بالتلال الموجودة فى السهل الكائن على الجانب الغربى من حلبا التى اقيمت لاجل المحافظة على بعض الآثار نعلم ان هذه الاغنية ليست بعيدة عن الحالة الروحية العكارية .

---

[*] راجع « ولاية بيروت — القسم الجنوبى » ، مبحث ادبيات الجديدة ض ؛ (٣٣٤)
(١) هممت المرأة فى راس الصبى ؛ نومته بصوت ترققه له . م

ثم يوجد فى عكار غير هذه الأغانى من الاهازيج التى يسمونها الميجانه ؛ والعتابه. وها نحن نأتى لكل واحدة بمثال :

— الميجانه —

يا ميجانه ، يا ميجانا ، يا ميجانه
ضحكت حجار الدار لفيو احبابنا
يا ميجانه ، يا ميجانه ، يا ميجانه
ما بوس خدك ما تبوس يدنا
يا ميجانه ، يا ميجانه ، يا ميجانه
من بعد حقى شولفتنى بمحرما ...

وهذا النوع من الاهازيج يردد على نقرات « يا ميجانه ... الخ » .
اما العتابه :

— عتابه —

يا هل تجذع دلولك خذ معناى
سلام لا ريمة النيت معناى
وحق البيت يا عابد معاناى
غبت عن فراقهم والنوم طاب...

ثم يوجد ما عدا هذه العتابات ، ما يتغنون به اثناء الرقص « الدبكة » من الاغانى الترديدية ويتغنى بها مع التصفيق .

اغنية « الدبكة »

بين السمره والبيضه فى قصه بدها ديوان
واللى بياخد النشميه بضل مقضى كيفيه
لقمتو بتضل هنيه لو كان تلتينه زيوان
واللى بياخود السمره عينو بتضل لبرا
والقعده معها مره لو عملت اكل الحكام ..

فما اوضحها من شكاية تتأفف من محيط عكار الذى يندر فى اهليه الجمال !

— اغنية اخرى —

مانى يا حبيب مانى
تولف والحق خلانى
مانى مدور طمايع
وعقلى من راسى ضايع

وشْرْنى محمل ياباييع
خوخ وعنب ورمانى ...

ان هذه الاغانى وغيرها من الاهازيج العكارية ناقصة من حيث المعنى؛ بيد ان لهاوزناً ينطبق على الرقص ، وقافية كاملة ، ولهذه المزية قيها اوجبت كثرة استعمالها اثناء الرقص.

— الحداء —

هى وهى وهليه
وشال الله يا رفاعيه
حطيتو بالمرجوحه
خفت عليه من الشوحه
والله عليك صلوحه
وهزى للبيو حتى ينام
هى وهى وهليتو
شيخ المحمد يبريتو
يا ربى يكبر ويصير
انا بربى وليداتو ...

ينطق هذا الحداء بالحالة الروحية فى عكار من وجوه عديدة . لان طريقة « الرفاعية » آخذة مبلغها من التفشى فى تلك الانحاء ، ولها فى كل من قرى « حيزوق وفنيدق وقرنه » تكية خاصة . ومن جهة اخرى ان العكاريين يعتقدون بكرامات بعض المشايخ ، وها هم يبحثون لاولادهم فى هذا الحداء عن شيخ مدفون فى سهل عكار ، ويستمدون من روحانيته التى يتصورونها .

*
* *

نرى قبل ان نتم ابحث عن ادبيات عكار ، ان نتكلم على طريق الاستطراد فى ما كتب بشان « ضروب الامثال » هناك . كتب « انطون جميل » مجموعة تتضمن الامثال المتداولة فى سورية ، فى نسخة حزيران سنة (١٩٠٦) من مجلة المشرق الشهرية التى يصدرها « الآباء اليسوعيون » فى بيروت . ثم ذيلها « سليمان غانم اليسوعى » بمقالة طويلة تكلم فيها عن الامثال المتداولة فى عكار .

ذكر فى هذه المقالة مآة من الامثال التى تناسب الشهور والمواسم والايام والحادثات الطبيعية ، ونسبها الى قضاء عكار . مع ان اكثرها معروف فى الانحاء الاخرى ، ومستعمل. نذكر منها :

« النار فاكهة الشتاء — القرش الابيض ليوم الاسود — الولد ان ما بكى ما بترضعه

امه » . وهذه الامثال موجودة فى كل محل ، وحتى فى كل لسان . مثلاً يقوله التركى :
« مانقال كنارى ، قيش كونتك لاله زاريدر . — آق آقچه قارا كون ايچوندر — اغلامايان چوجغه مه ويرمزلر » :

وهذه الامثال هى عين العربية لا تختلف عنها شيئاً . ولا جرم ان الصاقها بالعكاريين وحصرها فيهم خطأ . يمكن ان تكون هذه الامثال معروفة لدى العكاريين ، ولكن لا يمكن ان تكون من مخلوقاتهم . ثم ان عدم ادخال هكذا امثال شايعة فى جميع الانحاء السورية ، ولاسيما فى مجموعة رشحت نفسها لجمع تلك الامثال هو من النقص الفاحش ، ومن الضرورى على القراء ان لا تعزب عن انظارهم هكذا نقاط مهمة .

— ٧ —

فى جبال عكار

١ — من حلبا الى كواشره

علينا الآن ان نعين اول مرحلة لسفرنا من حلبا الى الانحاء الداخلية ... ولا شك ، ان هذا جدير بالاهتمام . لان حالة حلبا التى لا تبعد عن اقصى العمران جعلتنا فى ريب من المراكز الاخرى التى سنمر بها . كنا نقول :

— اذا كانت الاقضية الاخرى ، هكذا ...

ما كنا نريد ان نتم هذه الجملة . وكنا نرجح ان نرتاح لكل شئ ، لاننا نعلم ان التطير فى اول خطوة نحو الشمال ، يقضى على ارواحنا بعذاب دائم .

ولو ان لنا من الزمن متسعاً لكنا نتجول برهة فى قرى عكار ، ولو تجرعنا الحرمان المادى والمعنوى فيها . لاسيما وقد قيل لنا ان لها مواقع تقصد وكان المرغبون يقولون:

— ان انحاء الجرد ، هى الطف الاصقاع فى سورية من حيث المنظر ، فتلك الشواهق وهاتيك المشجرات ، وذلك الماء السلسل ، ثم النسيم العليل . كلها لا مثيل لها فاولى لكم ان تقصدوها . اما الذين يؤثرون المحاسن الصناعية على البدايع الطبيعية ، كانوا يدعوننا لان نسلك سبيل (عكار العتيقة) ، ونرى قرى (ببنو) و « القبيات » .

كنا من الارتياح فى درجة نتمنى ان لو يسعدنا الوقت فنصل الى جميع تلك الاصقاع ، ومع هذا فاننا آثرنا ان نتجول برهة فى جبال عكار ، ونمر على قريتى « كواشره وعيدمون » اللتين يقطنهما التركمان وتجوالنا هذا رغماً عن قصره سيمتد اربع ساعات او خمس على

ظهور الجياد ، ثم اذا لم نضطر لنمكث بين التركمان ، نسير بضع ساعات اخرى ونصل الى « تاكلخ » مركز قضاء حصن الاكراد .

كنا نرى هذه السفرة التي تشغل يوماً كاملاً ، في اول مرحلة اجمعنا عليها ، مؤنسةً ونافعة .

*
* *

كانت الشمس تبعث بنورها الفضي من اعالي ذرى حلبا ، على تلك السهول الواسعة ؛ وجيادنا التي لم نستحوذ عليها الا بشق الانفس ، قائمة تجلد على الوقوف ولا تكاد... امتطينا ظهور تلك العظام المصفوفة ، واخذنا تزلق على الصخور الصلداء . ومررنا من جانب البساتين ، ثم بالبيادر في الناحية الشمالية من حلبا.

ذكرتنا تلك الجياد الجياع ؛ وهذه المزلقات الصخرية ، وذلك العدم المطلق بالادوار الآدمية ؛ وكنا منقبضي النفوس لما توقعناه من العسر والمشقة التي لا بد لنا من تكبدها .

مزقت يد الصبح خيوط الظلمة عن تلك الربى المتسلسلة ورأينا على هام ربوة « الشيخ محمد » كنيسة كأن بنيانها يبعث بابتسامات ملؤها التهكم والاستهزاء !

كنا نسير متوجهين نحو الشمال ، في طريق محاذ لحلبا ورباها . وبعد قليل غادرنا الطريق الموصل الى قرية « الحريبه » على يميننا ، ثم اجتزنا جدولاً صغيراً من فروع (نهر الخريبة) وهبطنا في واد عميق . فتراءت قبالتنا من بعيد قرية « تل عباش » ثم اجتزنا نهر الخريبة وانهينا الوادي ، هنالك قامت امامنا الجبال ، وكنا نريد ان نتسلق تلك الشوامخ ونسير الى حيث تطلع الشمس . وكانت عن يميننا بعد الوادي الجبال المتتابعة ، التي قامت امامنا والتفت حوالينا . اما وراءنا فكانت السهول والحقول السمراء التي يحسبها الانسان بحراً .

ثم بعد برهة تراءت عن يميننا من بعيد قرية « قته » . وكنا نجتاز ذروة صغيرة ، فرأينا امامنا قرية «حوشب » ، وعن يميننا من بعيد قرية « الريحانية » ، وعن شمالنا « قرنى » « سعدين » و« ديرين » . وما لبثنا مدة الا وانقلب طريقنا الى منحدر ، وقام في جانبنا واديان ، ثم عنت لنا ذروة ارفع من الاولى فتسلقنا فيها . وهناك اشمخر امامنا عن اليمين «ظهر القضيب» من جبال لبنان بذراه المجللة بالثلوج ، فصغرت نفوسنا لدينا تجاه عظمة هذا الطود الشامخ . والان تراءت حوالينا القرى التي لا تحصى .

كنا نودع عن يميننا قرية الريحانية التي كمنت وراء الوادي ، وتشيعنا عن شمالنا قرية « الغزالية » التي ظهرت من وراء الوادي ايضاً . وهكذا توالى الصعود ، والهبوط ، واطرد المنظر .

ثم انجلى لنا عن يسارنا سهل المرج الذي يبدأ من الساحل ، ويتخلل بين سلسلة الربى ويفصل جبال لبنان عن جبال النصيرية .

الآن طريقنا ، نقب في نحر تلك الصخور ، وصدر هاتيك الجبال محفور بمعول الاعوام ، ووطئ الاقدام . وكنا نطوي تلك المسافة ونحن على ارتفاع عظيم عن سطح البحر . ولو لم يكن ذلك الهواء الطلق ، في اعالي تلك الذرى القرعاء ، لما كان يطاق شعاع الشمس المتلهب في ذلك اليوم التموزي .

نمر باصقاع لا حياة فيها ، وكيف يمكن الزرع على صفائح الصخر . ومع ذلك فقد تفقد خلال الصخور وزرع بالذرة الصفراء ، وهذه اوراقها العريضة الخضراء تلمق بذلك اللهيب التموزي . اما نحن فلا ندري ، هل كنا معذبين ، ام غير ذلك ؟ بيد ان الذباب ذلك البلاء الطنان الذي لا يدفع ؛ ما كانت مناديلنا ولا ايدينا حتى ولا عصينا كافية لرد تسلطه ، والوقوف امام تياره . كنا نسير ونرى تلك الطيور التي دفعتها حاجة الارتزاق من انحاء لا نعلمها تتطاير حولنا . ونسمع أصواتها المغردة التي تترشح من ارواحها الساكنة . يا للسرور ، ما اصفاها من رفاق . وان ادري هل جاؤا في هذا اليوم التموزي ليكونوا لنا رموزاً طبيعيةً ؟

وبينما كنا نرى عن شمالنا قرية « شربيل » وراء الوادي ، دخلنا قرية « تلال » . عن غير علم ، ولو لم نصلها على هذه الصورة الفجائية لكنا نتعب فكرتنا كثير بانتظارها . وكيف يمكن للانسان ان يخلص من الافتكار بين هذه التلال ؟ ها نحن لم نزل على ظهور الخيل منذ اربع ساعات ، وما كدنا نصل الى وجهتنا المقصودة . وتوالى علينا النسق من صعود ، وذروة ثم هبوط ، ثم تتعاقب تلك التلال ولا تنتهي ، ونحن لا نزال في الطريق .

سرنا اكثر من ساعة تارة نصعد بخيولنا ، واخرى نهبط والصخور اليابسة المتعبة ما زالت تتوالى وتتعاقب . وعلى هذا النسق كانت القرى المطردة تذوب بين ذلك الضياء الاسمر المغبر ، على اتم السكون .

وصلت الشمس الى نقطة الزوال . وتراءت عن يميننا قرية « الدوسه » التركمانية وهذه كانت لنا بشرى ثمينة . وهنالك عطفنا عن الشرق الى الشمال وتركنا الوعر ، واخذنا نمشي في الحقول المحصودة . وسرنا تحت ظلال شجر الخرنوب الاسمر الذي رأيناه ملجأً لكل روح وحياة . ثم لم نلبث ان رأينا انفسنا في قرية سوداء محلولكة . وهذه هي « كواشره » قرية التركمان .

٢ — ديار التركمن

كان دخولنا الى كواشره (*) في هاجرة ذلك النهار التموزي المخنق ، حادثاً غريباً

(*) يحتمل ان يكون هذا التعبير مأخوذاً من كلمة (كوچر) التركية التي معناها الانسان الراحل . وجمعت غلطا بجمع التكسير العربي.

وغير منتظر . رأينا بضع غادات اسندن اكواعهن الى ركبهن ؛ وجعلن وجوههن بين راحاتهن ، قاعدات فى ساحة البيادر المرتفعة ، قريباً من اكوام سنابل القمح الذهبية يتربص ان يرين بقراتهن يأتين على آخر ساق ، وآخر حبة من الحشيش الذى يلتهمنه . ويتشوفن لان يحصلن على ارتشاف الماء العذب ، من الجرار السوداء المحمولة بايدى الفتيان الذين لاحت اشباحهم من خلال القرية التى كانت تنفث الدخان من بيوت سوداء كانها كدس من الفحم الحجرى .

رأينا تحت ظل السنديانة الهرمة التى رافقت الدهور ، وهى مركوزة كانها علامة للدلالة على تلك القرية السوداء ؛ المطلة بتاجها المرتفع على تلك القرى الداجية ، وعلى هاتيك الذرى المثلجة ؛ حصيرةً كبيرة لا يرى لها لون كانها انتزعت من لهيب النار . متربع عليها شرطى التبغ « قولجى الرژى » بطمورة سحنته بالشعر لطول عهده بالحلاقة ، وفى جانبه مأمور الضرائب « الويركو » السمين الذى انغمس فى الوساخة ، وفارسان من افراد الدرك الذين يتعقبون الفارين من الجندية . وهؤلاء من الزوار الدائمة فى هذه القرية . ثم يقربهم بضعة شيوخ تركمانية ، متحازين عنهم ، قاعدين مقعد العبودية بثيابهم البالية وصحائفهم التى شوتها الشمس ، واوداجهم الزرقاء . لو رأيتهم حسبتهم قديداً ؛ ثم بضع عجائز ايضاً ؛ يتربصون ما يتوقع ان يأتيهم من البلاء على ايدى هؤلاء الزائرين . مخلدين فى تلك الهجيرة التموزية لا يحيرون كلاماً ، كانهم حمامة مستنفرة لبدت فى عشها .

تقربنا بجيادنا من ظل الشجرة ، ولمحنا على تلك الصحائف السفع من الشيوخ خطوط الاضطراب تتوتر وتتسع ، كانها دوائر فى ماء ساكن رمى بحجر .

وكنا نرى غادات التركمان جافلات ، ضربن بخمرهن على وجوههن ، وتهيأن للهزيمة نحو القرية ، والفتيان نكصوا على اعقابهم بجرارهم السوداء ، واخذوا يسابقون الريح بالجرى الى حيث اتوا .

ان دخولنا بغتة وامامنا دليل من فرسان الدرك ، الى « كواشره » فى هذا اليوم المحرق ارهب جميع اهل القرية ، وارعب زوارهم ايضاً . وقد شعرنا بهذا الاستياء . ورأينا من الواجب ان نطمن قلوبهم . فافهمناهم اننا لم نأت لتتقاضى ضرائبهم ، ولا لنقبض على فاريهم ولا لنأخذ منهم جعلاً ، ولا جملاً ولا هدية ولا تبغاً ولا شيئاً ؛ بل ان لنا وظيفةً لا تريبهم ولا تؤذيهم . وما كادوا يعلمون بهذا الا وردت ارواحهم اليهم ، وتبدل اصفرار وجوههم باحمرار ، وابرقت تلك العيون بالبشرى بعد ما كادت تنطفى من الزعب .

ها هم يركضون شيوخاً وفتياناً ، بكل ارتياح ومسرة ؛ فهذا يأتى بسجادة وذاك بفراش ، والغادات اقبلن يكرمننا بالوسائد والنمارق . ولم يخل الاحداث علينا بجرارهم السوداء .

كان لنا ظل هذه السنديانة الضافى روضةً ونعيماً ؛ بعد تكبد الاتعاب بضع ساعات ، والانشواء بتلك الشمس المسعرة . ونصبت امامنا عجوز نشيطة علمنا منها انها ارملة الدهقان (المختار) الذى اغتالته المنية منذ سنة ، واخذت تتكلم بلغة تقرب من العربية تارة ، ومن التركية اخرى ، وتمعن فى اعيننا لتقرأ ما تكنه صدورنا ، وتنظر الى افواهنا لتلتقط كلاماً فتفهم دخيلة الامر ، ثم تتقرب الينا فكنا نعجب من شأنها . وتقول :

— ما اذكى هذه المرأة ، وما انفذها ! ..

ولاسيما لما رأيناها تتقلد ادارة جميع القرية شعرنا نحوها بافتتان واعجاب زائد . ثم ازداد ميلنا اليها لرقة عواطفها ، وحسن اهتمامها بنا .

هدأ روع الغادات التركمانية . ثم عدن الى المثابرة على العمل واخذن يحدن وراء بقراتهن ، ويدوسن سنابل القمح الذهبى .

وهذه القرية ايضاً تلوح عن بعد بمنظر حجارتها السوداء كانها انقاض حريق تأوى اليها الغربان . وانها لتحتاج الى اقامة البراهين الناصعة لتبرهن على كونها موطناً لهؤلاء السقاة الناشطين ، ولتلك الغادات الآنسات ؛ ثم لهذه العجوز الذكية .

ومع هذا فان لهذه البقعة منظراً نضيرا . لان ذروة « الكواشرة » تطل على انحاء متناهية فى البعد من الشمال والشرق والجنوب ، فترى الوديان الخضراء ، والجبال السمراء وتلك القرى التى لا تحصى .

كان لنا هذا الموقع العالى كمنبر سام نلتقط من فوقه الهامات الشعر ، وبدايع الخيال . وكنا نرى امامنا (العامرية) و « عين الزيت » من قرى العكاريين و « الدوسه » ، وعلى البعد « عيدمون » ثم على بعد شاحط « حالات » من قرى التركمان ، كل هذه القرى كانت تلوح على البعد كانها اشباح ظلية تخط تخوم آفاق تلك الانحاء . وبعد ان رشفنا بانظارنا ما شئنا ان نرشف من رحيق هذه البدايع الطبيعية . التفتنا الى من حولنا ، وقلنا :

— ما اجمل منظر قريتكم !!

كان هذا الاستحسان ، وسيلة لاندفاق سيل من الكلام دهقت فيه صدور الحاضرين فهذا الشيخ الشاخص ببصره الينا ، وذلك الفتى القائم امامنا ينتظر امراً يخف الى انفاذه وذاك الحدث التركمانى المبتسم ، كلهم يريدون ان يتكلموا :

— ان قريتنا جميلة . . . ، ولكن لا ماء فيها .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة اندفعت الالسن تفصح لنا عن عطش القرية ، وقلة مائها . نعم لا يوجد فى هذه القرية لا بئر ولا منبع . وتوجد خارجها عين تتحلب بماء قليل لا يكاد يملئ الجرة الا ببضع ساعات . وتوجد قرى الامراء العكاريين التى اخذت نصيبها من الرى ، قريبة من هذه القرية واهلوها يضنون ولو بقطرة من مائهم على هؤلاء

المساكين التى احرق الظماء قلوبهم . ولهذا السبب كان من الطبيعى لهذه القرية التركمانية البائسة ان تغرق فى الحداد على هذا الاحتراق الفاحش .

ولا زلنا نعجب من هؤلاء الناس الذين اهمل امرهم كيف يستطيعون ان يحيوا فى هذه القرية السوداء التى تتأجج من العطش . وسألنا منهم :

— منذ كم سنة وانتم فى هذه الديار ؟

لا جرم ان سوآلنا هذا حرك عليهم اشجانهم واحزانهم . فكانوا يجاوبون وفكرتهم مشغولة . وكنا نصغى بصماخ ارواحنا ، الى تلك الاحاديث السوداء من هاتيك الارواح الكئيبة . ونريد ان نتحفهم بما يسلى افئدتهم :

— جاء اسلافنا مع عائلاتهم الى هذه الديار ، من انحاء جولان التابعة للقنيطره من اعمال الشام . وذلك قبل قرن ، او قرن ونصف . ونحن لا علم لنا بصدق هذه الرواية بيد ان العائلة التى تسمى « بيت الصوفى » فى حمص هى من اقاربنا . فاولئك يعلمون من اين اتينا .

ثم اخذوا بعد هذه المقدمة الوجيزة ، يترجمون عن افكارهم بهكذا عبارات متقطعة دون ان يحتاجوا الى سوآل :

— نحن نعيش اليوم فى هذه القرية التى ترونها ، وهى عبارة عن ستين بيتا وعددنا « ١٥٠—١٦٠ » نسمة . وقد كنا قبلاً اكثر من ذلك فذهب منا خمسون شاباً للقيام بالخدمة العسكرية . « والتركمانى لا يهرب من الجندية » ولهذا لا تجدون عندنا هارب . وها نحن نسعى لزرع حقولنا التى تستوعب مقدار عشرين شنبلاً ، وننتظر عودة شباننا الينا . سألناهم بعد هذا الافصاح الوجيز :

— هل انتم مستريحون فى قريتكم ؟

لعل سوآلنا هذا دعاهم للافتكار . لانهم سكتوا برهة . ونحن كنا نفتكر بهم هل هم مستريحون يا ترى ؛ هل هؤلاء الفقراء المساكين يرون انفسهم مستريحةً بين هذه الحجارة السوداء لا يسيغون قطرة من ماء ، هل هم سعداء ؟ و كنا ننتظر جوابهم على مثل جمر الغضا .

ما لبثت ارملة الدهقان « المختار » ان فتحت عينيها كانها هبت من سبات وقالت

— ما كنا نرى وجه الراحة من قبل ، اى قبل بضع سنين . وكان الامراء العكاريون يستخدموننا كما تشاء اهواؤهم . وكنا نضطر لاخفاء بناتنا منهم . ثم بادت تلك الايام . « واليوم يوم سلطاننا » . فلا يستطيع العكاريون ان يمسونا بسؤ . فالان نحن مستريحون .

ان هذا الاعتراف الذى انبعث عن روح تركمان الكواشرة ، المعصومة الغافلة ذكرنا بيتين للشاعر المرحوم توفيق فكرت :

« اينان خلوق ! ازلى بر شفادر ، آلدانمق... »

اى : اعتقد يا خلوق ، ان الانخداع شفاء ازلى .

ثم هؤلاء من شعره ايضاً :

بو كون حياتى مسلسل بر احتياج سياه
بو كون سعادتى غافل بر اشتياق تباه
بو كون تنفسى يورغون قديد بر سوروآه
اولان بو جمعيت... »

اى : [هذه الجمعية التى حياتها عبارة عن سلسلة من الاحتياج الاسود ، وسعادتها فى الحنين الى الفناء بغفلة وانفاسها عبارة عن ثلة من الحسرات المنهوكة ...]

اليست هذه من تلك الجمعيات التى دأب ذلك الشاعر للافصاح عن حرمانها بمعجز بيانه ؟

ها قد اتضح لنا ان لهؤلاء القرويين البعيدين عن كل نور ومدنية ، حاجات لا تعد . فهل تنصف الاقدار يا ترى فتسعد هؤلاء التعساء المحكومين بالتناقص على كر الايام ، فى هذه القرية المقفرة ؟

من العبث ، نعم من العبث ان نرتاد الراحة والسكون عند اولئك الاجسام العضوية الذين هم اوهى وايبس من القديد .

كنا ننظر بتألم الى سحنائهم التى لا نعلم كم مرةً سفعتها الشمس ، ثم الى قريتهم التى كانت كقطعة من الليل البهيم ، ونمعن فى الافتكار .

لم يطل الامر حتى اقبل علينا شيخ فى زناره دواة من نحاس ، معمم بعمامة منقوشة ؛ وهو امام القرية . ثم اسند ظهره الى جذع الشجرة الهرمة ووضع يمينه على صدغه وصاح بصوت راجف من فوق هذه المنارة التى تطل على الاصقاع البعيدة « الله اكبر » . وكان التركمان حوله يصغون الى هذا الاذان المحمدى بخشوع وخضوع عميق ، وبعضاً يقولون « الله يموتنا على دين الاسلام ... » . ويدأبون ان ينسوا بهذه النقرات هجيرة هذا اليوم التموزى ، والحياة ، وحتى كل شئ .

وها قد غسلت الارواح بكوثر السعادة الذى افاضته على القلوب صلاة الظهر فى جماعة وجيزة تحت تلك الشجرة الهرمة .

كان النسيم يزورنا من بعيد وينفخ علينا من روحه هبة ملؤها الانس ، وكان كملاك قدسى يلمس وجوهنا بريش من حرير . وكنا حينئذٍ نتجاذب اطراف الحديث مع هؤلاء القوم الذين صرنا اصدقاء لارواحهم الطاهرة الخالصة . وهم قد استأنسوا بنا ايضاً . وبلغوا

من الاستيناس بنا لدرجة ، لم يروا بأساً باطلاعنا على عاداتهم فى الزواج ، بل كانوا يقصون علينا قصصهم بلهجة تركمانية ممزوجة بالعربية ويقولون :

— يطلب المختار البنت ، ثم يوكلون من يقرر على المهر ، فيعين المهر ويدفعون السفى غرش وبعد القبض يعقد العقد . ويحضر فى هذا العقد جميع نسوة القرية ، ثم تذبح الذبيحة ويهيء الطعام ويجرى العرس . ويوقدون فى العرس مصباحاً ، ثم يزينون العروس ويرقصون ويهلهلون ثم يكون الزفاف .

ان هذا التعريف الموجز لاعراس التركمان كانت قيمته من حيث تعبيرهم عن افكارهم ومقاصدهم ، واطلاعنا على لهجتهم الحالية ولغتهم اكبر من ايضاحه كيفية العرس . ثم اردنا ان نستطلع على اغانيهم بهذه الفرصة . فسألناهم :

— هل تتغنون بالاغانى التركية فى اعراسكم ؟

فتبسموا باستغراب وقالوا .

— كيف يكون الغناء التركى فى ديار عربية ؟ اننا نتغنى بالغناء العربى على عزف الزمور .

ثم قالوا :

اذا تغنى احد امامنا فاننا نفهم :

ثم ابتسموا ، وتجلت عين الابتسامة على صحيفة الغادات اللاتى كن فى فجوة منا . هذا ولم نرد ان نحرجهم اكثر من ذلك . وقد كاد يمر الميعاد الذى ضربناه : وآنست تلك المرأة الذكية اننا نتحفز لنستأذنهم بالفراق فقالت :

— على رسلكم ، الى اين تذهبون الآن ، انى اخاف ان تلفحكم الشمس فى الطريق .

ولما ثبتنا على قرارنا نهض الجميع قائمين وكان بعضهم يطير الى اعداد الخيل ، والبعض قائم يرمقنا بنظراته الحزينة . ثم رمقنا هؤلاء المساكين الذين اضاعوا لغتهم بنظرة رحيمة وداعية ، وسرنا واخلينا الجو الى شرطى التبغ ، ومأمور التحصيل السمين ، ثم الى افراد الدرك الذين ما زالوا ينظرون الينا نظر الاستكناه ولم يتيسر لهم ادراك المعنى منا .

٣ — من كواشره الى تلكلخ

لما غادرنا حجارة الكواشرة البركانية ، كان بيننا وبين الغروب مقدار اربع ساعات . ولا نتمكن فى هذه المدة من ان نمر على قرية (عيدمون) التركمانية ، ثم نذهب الى تلكلخ . ولهذا رأينا ان نسير مباشرة الى تلكلخ ، ومسحنا بيدنا سطراً آخر من جدول سياحتنا الذى اجمعنا على العمل به .

ها نحن نطوى المسافات فى تلك الصخور الصلداء ، ونتبع الشيخ التركمانى الذى ارتاح ليكون دليلنا فى الطريق ، واختار لنفسه هذه المشقة .

وبعد مدة لاح لنا عن بعد « دير المنجز » وهو عبارة عن بيتين مستورين بالقرميد . وعلى ما فهمنا ان هذا البناء لم يهيء ليكون معبداً حقيقياً ، بل هو ملجأ اسس ليأوى اليه الذين يتحرون على الآثار القديمة . ثم تراءت على جانب هذا الدير قرية « الدبابية الشرقية » ووراءها قرية « حذير » وعن شمالنا على البعد قرية « الدبابية الغربية » ثم امامنا من بعيد قرية « حالات » وقصبة تلكلخ هى وراء تلك الهضبة . فاذا هبطنا فى هذا الوادى وتسلقنا الجبل ، نصل الى وجهتنا المقصودة . ولكن ما اشكل هذا واخطره علينا ؟

انحدرنا فى سفح نفنف [١] ودخلنا قرية « الدبابية الغربية » ، وكان امامنا منحدر آخر ، ثم الاجتياز من النهر الكبير الذى سماه الاقدمون *Eleutherus* . وهاقد استطعنا اجتياز النهر الكبير . ولكن تجرعنا من المشقة والالم ما لا يخطر على بال . وكنا نطوى الطريق منهوكى القوى ، ونفكر فى الكتاب الاجانب الذين انتخبوا للتجوال اسهل واجمل وآنس المواقع السورية وحرروا مؤلفاتهم . وكنا نقول :

— هل مروا بهذه الوعثاء الصخرية يا ترى ؟

ونتحرى هدية تليق بهم لنتحفهم بها . ولا اكتم اننى لا يخطر لى مكان اعظم واجل من هذا الوادى ، بالرغم من منعته وصعوبته . ماء رقراق يتسلسل من تلك الشواهق التى شمخت الى السحاب ، ويسيل فوق تلك الصخور المرمرية البيضاء وضفاف النهر مزدانة بالاشجار المزهرة ، التى املئت طيات النسيم نكهة عطرة انتشرت فى جميع تلك الانحاء .

كنا نخوض بجيادنا فى الماء ورفقاؤنا منغمسين فيه الى صدورهم ، يعالجون ان يصلوا الى الضفة الاخرى . ثم لم نلبث ان دخلنا فى غابة كانها من غابات الهند مرعبة ، ومررنا بين تلك الاشجار المزهرة الكثيفة وغصونها لا تزال تخمش وجوهنا . وهنا انتهت حدود قضاء عكار .

ثم بعد برهة قليلة وصلنا الى قرية مهجورة تسمى « عيون » من اعمال قضاء (حصن الاكراد) وكانت مداخنها منهدمة وسطوحها متدلية وهى بالتعبير الاوضح كومة من احجار مظلمة . وفيها شيخ قوى وبنتان وكانوا هم سكان هذه القرية فسألناهم عن شأنهم ، فخطت نحونا غادة سمراء تشبه الارجوان بلباسها الاحمر ، وقالت بصوت اغن :

— مات بعض رجالنا ، ودخل بعضهم الجندية ، والنساء تركن هذه القرية ، والآن لم

---

(١) صقع الجبل الذى كانه حائط مبنى مستو :

يبق فيها الا نحن .

ثم وضعت المنديل على وجهها واجهشت فى البكاء ، وقد علمنا ان هذه القرية النصرانية كانت من اغنى القرى قبل الحرب . ثم اقبلنا نسير الى الجهة التى اومت اليها باصبعها التى لمعت فى ضياء الشمس واطلعتنا على انها مرطبة بالدمع . وتسلقنا صعدة اخرى ، ولم يتيسر لنا ان نرى انتهاء هذا الطريق ولم تزل الهضاب تتوالى بعناد مفرط . وبالنهاية تراءت لنا بضع اشجار كبيرة على ذروة الجبل ، وبهذا نالت انظارنا بشرى السعادة بالوصول الى اقصى العمران . وبعد مدة لاحت لنا قرية محلولكة (حالات) فى الناحية الغربية من الاشجار ، وهذه الانحاء ايضا كانت كسائر الاصقاع تتركب من الاحجار البركانية السوداء .

قطعنا هذه القرية بقليل ، ورأينا امامنا واد ، فاعترتنا الحيرة والدهشة . لاننا مضطرون لان نقطع هذا الوادى ، ثم نستطيع الوصول الى « تلكلخ » . ولكن لم يكن ظننا مصيباً . فقد قطعنا الوادى . والهضبة ايضا ولم نر لهذه القصبة اثراً . وبعد منحدر يسير وصلنا الى قرية (مخيبه) وهى قرية سوداء مبعثرة . وهنالك حل العشى ، واخذت الشمس فى الغروب .

هذه اسراب الغنم ترجع لمرابضها ، وتهمم باصواتها لتنيم تلك السهول المقفرة ، والجبال الرهيبة .

ثم بعد واد ، ومسافة يسيرة ، من الصخر ، وصلنا الى سهل مستو ، فيه ركام الحجارة السوداء ، بينها بضعة بيوت قرميدية . وهذه كانت تلكلخ التى مازلنا منذ الصباح ونحن نزجى مطينا اليها .

— ٨ —

حصن الاكراد

١ — موقع القضاء وحدوده واحواله الطبيعية

ان هذا القضاء كائن فى الشمال الشرقى من قضاء مركز طرابلس الشام ويحده من الشمال والشرق قضاء حمص ، ومن الجنوب قضاء عكار ، ومن الغرب قضاء صافيتا .

وان الانحاء الشرقية والشمالية والجنوبية من هذا القضاء عبارة عن اصقاع جبلية ، وليس فيه سهل الا قسم « البقيعة » المشهور .

وان اعلى نقطة فى هذا القضاء هو جبل (الصبح) الذى يبلغ ارتفاعه (٥٥٠) متراً .

و« نبع الناصرية ، ونبع فريشلو ، ونبع عين فراش » هى جداول تمر على الارض المنبتة فتسقيها ثم تصب على النهر الكبير . ولم ير هذا القضاء ثلجاً منذ سنة (١٣٢٩) ، وتصعد الحرارة فيه ايام الصيف الى (٣٢) درجة . والحرارة الوسطى فى موسم الشتاء هى (٦—٨) درجات .

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ان مساحة هذا القضاء تخمن بمقدار (٥١٣) كيلومتراً مربعاً . اما عدد سكانه فكان سنة (١٣٣٢) ، (٢٩٧٠١) نسمة منها (١٦٤٢٣) من المسلمين و (١٢١٧٦) من الروم الاورتودوكس و(٧٨٠) من المارونيين و(١٧٨) من البروتستانت ثم(١٤٤)من الكاثوليك. ومجموع اللدات فى هذا القضاء سنة (١٣٢٧و٢٩و٣٢) كان (٥٩٣) نسمة وعدد الوفيات (٣٠٢) من النسمات.

٣ — احوال القضاء العمومية

يتألف هذا القضاء من (١٧٦) قرية منقسمة بصورة غير رسمية الى نواح « الشعرا ووادى النصارى وجبل الحلو والوعر » . واشهر القصبات والقرى فى هذا القضاء من حيث كثرة النفوس هى « تلكلخ » فى ناحية الشعرا و« مرمريته » فى وادى النصارى و« شين » فى جبل الحلو « والحديده » فى ناحية الوعر . ويوجد فى كل من هذه القرى بالحساب المتوسط (٥٠٠) نسمة . بيد ان سكان قرية « شين » التى يقطنها النصيريون يبلغ عددهم (١٥٠٠ — ٢٠٠٠) نسمة . وتوجد فى كل من « تلكلخ وقلعة الحصن وحالات ومشتى حمود والشين وزارا ومشتى حسن » مدرسة ابتدائية . والمدرسة الابتدائية فى مركز القضاء التى تتألف من ستة صفوف ، موجودة فى منزل ما فيه الا حجرة واحدة ورغماً عن هذا فان لها ستة من المعلمين واثنان من هؤلاء متخرجون فى دار المعلمين ولكن يقال عنهم انهم لا يرجحون من حيث الاقتدار والسعى والاهتمام على رفقائهم المحرومين من كل همة ونشاط وتوجد مدرسة للاناث فيها زهاء من ثلاثين طالبة . ويروى ان المعلمة الوحيدة فيهاهى مسلمة تحسن اللغة الانكليزية ولا باس باقتدارها العلمى . ولا رغبة عند السكان الى المدارس القروية. وللنصارى مدرسة ابتدائية فى قرية مرمريتة يوجد فيها (٥٠) تلميذاً . وقد اسس الروسيون قبل اشهار الحرب مدرسة فى قرية « كيما » اما الآن فهى معطلة كامثالها من المدارس الاجنبية .

٤ — الاحوال الزرعية فى القضاء

ان ثلثى الأراضى الصالحة للزرع هى فى ايدى اسرة « الدندشلى » ، ثم ما بقى فهو فى ايدى النصارى والنصيريين . ومجموع الغلال السنوية فى هذا القضاء هو على ما يأتى :

جنس الغلال	الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
القمح	٧٠،٠٠٠	٩٤٠،٠٠٠
الشعير	٢٠،٠٠٠	١٤٠٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٤٠،٠٠٠	١٢٠،٠٠٠
الذرة الصفراء	٢٥،٠٠٠	١٢٥،٠٠٠
الحمص	١٠٠٠	٦٠٠٠
الفول	٥٠٠	٤٠٠٠
السمسم	١٠٠٠	٢،٠٠٠
العدس	٧٠٠٠	١٤٠٠٠
الجلبان	١٤،٠٠٠	٣٠،٠٠٠
اشجار الزيتون	٤٠،٠٠٠ عدد	٢٠٠،٠٠٠ كيلو غرام
الكروم	١٢٣٨٠	٢،٠٠٠،٠٠٠ عنب ٨٨،٠٠٠ عرق
الشرانق		١٨٠٠٠

اما تجارة القضاء فهى تنحصر بالحبوب ، والحرير والزيتون ، ثم بنسيج السجاد فى قرية (زارا) . وينعقد سوق سنوى فى قلعة الحصن فى (٢٠) نيسان ، وفى جانب دير الخضر فى (١٥ ايلول) ويقصدها القرويون فيشترون حوائجهم او يتبادلون . وان السكة الحديدية من طرابلس الشام الى حمص تقطع هذا القضاء على امتداده . وسيكون للسكان من هذا الخط اعظم النفع .

٥ — الاثار القديمة فى القضاء

ان قلعة حصن الاكراد التى تبعد مسافة ساعتين من قصبة تلكلخ ، الكائنة فى جانب سهل « البقيعة » ، كانت تعرف عند الصليبيين باسم (*Krak de Chevaliers*) (*) .

(*) ظهر لدى البحث الحديث ان قلعة حصن الاكراد كانت موجودة فى القرون الاولى وكان اسمها (شبتون) او (سبته) ويروى ان قد بنى هذا الحصن فى أيام السلالة الثامنة عشر من الفراعنة . واصلحه رعمسيس الثانى وسماه (ماريامون) . وبقى هذا الاسم الى بعد وفاة الاسكندر الكبير . وعليه لا يكون عمل الصليبيين فى هذه القلعة الا عبارة عن تبديل شكلها فقط .

وقد جاء فى كتاب برق الشام لمؤلفه ابن شداد المؤرخ العربى . ان والى حمص « شبل الدوله نصر ابن مرداس » ارسل سنة (٤٢٤) هجرية فرقة من الأكراد لاجل القيام بالدفاع عن هذه القلعة ولذلك اضيف اسمها لاولئك المدافعين . وكانت تعرف قبل هذه الحادثة باسم قلعة الصفح . وفى سنة (١١٠٢) حاصرها قونت سن جيل ، واكتفى بحصارها ولكن بعد ثمانى سنين هجم عليها طانقرهد حاكم انطاكية بشدة وتوفق لتسخيرها ، وفى سنة ١٢٤٥ اقطعها ريمون حاكم طرابلس الى فرسان هوسپيتاليه . ثم حوصرت فى ايام نور الدين حاكم حلب ، وصلاح الدين الايوبى بطل حطين ولكن لم يتيسر لهما فتحها . ولم تذكر هذه القلعة فى نص المعاهدة التى عقدت بين الملك الكامل وفردريق الامبراطور الثانى .

وفى العصر الثالث عشر للميلاد توجهت انظار مسلمى حما الى هذا الحصن ولكن لم يتيسر فتحه الا للسلطان بيبرس فى ٨ نيسان سنة (١٢٧١) وذلك بمعونة الملك المنصور صاحب حما وسيف الدين امير صهيون ونجم الدين رئيس الاسماعيليين . وقد اذن لفرسان هذا الحصن ان يخرجوا منه سالمين ، بشرط انجلائهم عن سورية وعودتهم الى بلادهم .

وهذه القلعة احتفظت — الا قليلاً — بهيئتها التى كانت عليها فى زمن الصليبيين وحصن مسور بخندق يمكن املاؤه بالماء اذا اوجب الامر ، ومحاط بسورين ايضاً . فالسور الاول اعلى من الثانى وفيه بروج متعددة . ويدخل الى القلعة من باب مطل على الغرب والكتابة التى نقشها الملك الظاهر مكتوبة بعينها فى الصحيفة « ١٦٦ » من هذا الكتاب . والدهليز الذى يبدأ من الباب الخارجى ينقسم الى قسمين ، فالقسم الاول يوصل الى بروج السور الاول ، والثانى الى الاستحكام الصغير . وهذا الدهليز الذى بنى بدون قبة ينعطف عند انتهاء السور الاول الى غير وجهته . ويتصل بدهليز آخر . ومنه يمر على السور الثانى ويدخل الى القسم العلوى من الحصن ، والدهليز الذى وضع عليه رقم (٤) على يمين الرسم هو المدخل الذى يصل الى الكنيسة ، وطول هذا المعبد ٢١ وعرضه ٤،٤٠ متراً .

وفى الطرف الآخر من ساحة الحصن الكبيرة تجاه الكنيسة ، يوجد بهو لطيف يحتمل ان يكون من آثار العصر الثالث عشر ، وطوله (٢٥) متراً وعرضه (٧) مترات والحنايا التى بنيت على الطراز الغوتى مركوزة على تيجان العواميد المزينة بالاوراق النباتية وبالصور المخيلة . ويوجد على جانب الرواق امام مدخل البهو شعر باللغة اللاتينية حفر فى القرن الثالث عشر ايضاً ، ثم فى الجهة الشمالية منه توجد انقاض كان بناؤها يستعمل كالاصطبل . ويبتدأ من هناك سلم يصعد الى الصحن الاعلى وتحت هذا السلم كان مخزناً ، اما البروج الموجودة فى منتهى الجنوب من الحصن ، هى من امتن اقسام الحصار وهذه البروج مقسومة لعدة طبقات وخصص منها لوضع الذخائر والمهمات ، واسكان

العساكر طبقات مختلفة .

ثم يوجد بين البرج الاول والثاني بنيان ، يفهم من نسق انشائه انه كان معدا لوضع الآلات الحربية الجسيمة . اما البنيان ذو الزوايا الخمس الذى اشير اليه برقم (١٢) فمن المحقق انه بني بعد الحصن ، والحق به .

٦ — موقع تلكلخ ومنظرها وخطوطها الداخلية

ان قصبة (تل — كلخ) ، مركز قضاء حصن الأكراد التابع للواء طرابلس الشام هي — كما يفهم من مدلولها اللفظي — مبنية في ساحة مستوية قفراء في السفح الشمالي من هضبة جرداء خالية من الشجر . وتوجد في هـذه الهضبة جنوباً من القصبة قرية « برج الدنادشة » ، وراء عين الهضبة توجد قرية «عين الحرامية» . ويوجد في الجانب الشرقي من هذه القصبة ، الطريق الذى يبدأ من طرابلس ويمتد الى حمص، ثم ورائه قرية(مجنه محلي) وعلى غلوة منها قرية (قنوته) في جانب المنبع المسمى بعين الجرد وفي الجهة الشمالية بعد قليل من السهل ، يوجد واد يفيض في الشتاء ، وفي جانبه هضبة صغيرة تدعى «تل الشمالي» ، ثم في الجهة الغربية منها توجد فسحة مستوية وبعدها « عين المضاربة » وعلى غلوة منها مجرى الوادي الذى يفيض في الستاء . وعليه فان القصبة عبارة عن سطح مستو محاطة من جهتها بهضاب متقاربة او متباعدة .

ولهذا السبب كانت انحاء القصبة من حيث المنظر كصحيفة ترابية كبيرة ملونة بلون بني قاتم ، نثر في انحائها مقدار مائة من البيوت جاءت عفواً على شكل ركام من صغير الحجر الاسود ، اما داخل القصبة فهو كخربة محروقة او كساحة اعدت لعرض الفحم الحجري وقصارى القول ان الاسود والاغبر من الالوان لها في تلكلخ امتزاج ينقبض له الفؤاد ، ويدع الفكر يغرق في ظلمات من الخواطر .

هي صبرة ركام ، او رداء حالك ، او ليل دجوجي ، او سحابة سوداء ، او حشرة كبيرة سوداء قائمة على مائة رجل .

ولو لم يكن فيها بضع منازل بالقرميد الاحمر ، والجامع الابيض لاشبهت هذه القصبة الجرداء المحرومة من الالوان . اشياء كثيرة منغمسة في هذا اللون الحدادي .

على ان الهضبة الكائنة في الجانب الجنوبي من القصبة هي بمثابة شاطئ لبحر هـذه

(*) تلكلخ — تقرأ بفتح التاء وسكون اللام ، ثم بفتح الكاف واللام وسكون الخاء . فالتل معناه الهضبة وكلمة (الكلخ) معناها العريانة . فيكون معنى التركيب (الهضبة الجرداء) ويروى ان الكلخ ضرب من الشجر كان مغروساً في تلك الهضبة . واليه اضيف الاسم والاقوى صدق التعليل الاول .

الظلمات فعلى من رام ان يتملص بفكره ونظره من تلك الظلمة الداخلية ان يقصد هاتيك الربوة . ولابد لمن يرتقي الى هام تلك الذروة ويشاهد بدايع الطبيعة المحيطة ، ان ينسى سواد وجه تلكلخ الممسوخة ، ويعتاض عن ذلك الليل البهيم ، بانوار صبح بهيج .

ثم ان منظر هذه الربوة الذى لاينكسر على ابعاده خط البصر ، هو جدير بان يرى . واول خط في هذه الساحة البديعة تخطه قرية « باروحه » بمنازلها البيضاء التي تبتسم بوجه الناظر ، ثم يتبعها فضاء اسمر ، وبعده هضبة « القلمة » ثم فوقها « قلعة الحصن» الشهيرة ، تلوح كالظل القاتم . ثم في الجانب الايمن تتراآى منازل قرية « مجته » عن بعد ، ثم تشاهد بعيداً عنها شواهق جبال لبنان مستورةً بالثلج الابيض ومن جهة اليسار سفوح الربى المتسلسلة السمراء ، او القاتمة ، ثم في عين الجهة قلعة « برج زاره » البيضاء وبعدها قرية « الحجر الابيض » ، وورائها فوق الجبال العالية « برج صافيتا » يلوح بعظمته ، وسموه وبهذه المناظر الجاذبة ، وبما تبعثه على القلب من التسلية يمكن ستر اقفار تلكلخ ، واخفاء سحنتها البقعاء القاتمة التي تنقبض من منظرها النفوس .

ان هذه القصبة — رغماً عن صغر حجمها — لم تنتظم بعد فترون اكواماً من حجارة سود ، ثم بضعة منازل قرميدية ، في جانبها الشرقي بضع خيام من شعر لعرب البدو بمحلة بحصائر سود ، وبضع كومات من الحجارة سميت حوانيت وهي من عدم الانتظام في درجة يظنها الانسان كانت في قبضة ثم حذف بها على هذا السهل وبقي كل منها في محل سقوطه . فاختلطت الطرق والساحات والبساتين ، والابنية وصارت ساحتها كرأس الزنجي مجمعا للاخلاط . وتحتاج في تنسيقها وتنظيمها الى آله قوى متين ، او الى مشط من حديد في قبضة هكذا قوة .

٧ — الاحوال العمومية في تلكلخ

كان مركز القضاء من قبل في « قلعة الحصن » الكائنة على ٤٥ و ٣٤ درجة من العرض الشمالي وفي ٣٣،٥٦ درجة من الطول الشرقي والبعيدة عن طرابلس بمسافة (١٢) ساعة . ثم نقلت الحكومة هـذا المركز قبل بضع سنين الى تلكلخ الكائنة على الخط الحديدي من طرابلس الى حمص .

وعدد سكان هذه القرية ذكوراً واناثاً (٩٤٩) نسمة ، وكلهم مسلمون ولا تختلف في المنظر عن بقية القرى . وقد اسست فيها اليوم دائرة للبلدية وكان دخلها سنة (١٣٣٢) ، (٤٧٩٤١) غرشاً وخرجها (٤٦٢٠٣) وبما ان دخل بلدية قصبة جنين (٢٦٤٥٨) ، ودخل قصبة الجديدة ، مركز قضاء مرجعيون (٣٤٨٨٥) غرشاً ، فتكون ميزانية تلكلخ بمقدارها هذا جديرة بالنظر .

اما قصبة الحصن فان عدد سكانها يربو على ستة آلاف ، وهى كائنة فى جانب القلعة المسماة باسمها . وكانت فى القرون الوسطى على جانب عظيم من الخطورة . وهى محاطة بسور متين له بابان ببروج الواحد فى الجهة الشرقية ، والثانى فى الجهة الغربية ، ولهذه القصبة جامعان . بنى اعظمهما الملك الناصر . ويوجد فى القلعة جدث الامير صارم الدين الكفروري الذى كان اول وال فى هذه القلعة بعد مافتحها المسلمون . ثم قريب منه جدث الامير نور الدين ، والامير بهاء الدين من اصحاب السلطان بيبرس .

٨ — الاحوال الاجتماعية

[١]— **الحيات الاجتماعيه فى تلكلخ** — لاقيمة اجتماعية ولا مزية تاريخية لهذه القصبة الا انها قرية صغيرة فيها مأة مسكن ؛قائمة على سكة طرابلس — حمص الحديدية . ولهذا لاسبيل لها ان تمثل قضاء « حصن الاكراد » وتكون مركزاً له .

لاسيما وان مائتين من سكان هذه القصبة التى لايتجاوز عدد سكانها (٣٠٠) نسمةهم من اسرة « الدندشلى » بالتعبير التركمانى ، او « الدنادشة » بالتعبير العربى الذى خلقته الاستحالة الثانية فى هذا الاسم ، ثم من الزنج ؛ واما مابقى منهم فهم من البدويين ، او النصيريين الذين هم من حواشى الدنادشة واتباعهم . فاذا اطلعنا على هذه الحقيقة نعلم ان تلكلخ لاتكون معكساً تاماً لاجتماعيات القضاء البتة .

وسيمر بنا اثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية فى القضاء انه يوجد افراد من هذه الاسرة فى انحاء القضاء ، ولكن بما ان البقعة التى قطنها هؤلاء القوم منذ القدم ، او بالتعبير الاوضح ، مركزهم الطبيعى المسمى « برج الدنادشة » كائن على ربوة فى الجهة الجنوبية من تلكلخ ، يكون البحث عن احوالهم فى هذا الفصل ضرورياً .

يزعم الدنادشة (*) ان جدهم هاجر من اليمن قبل ثلاثة قرون ، ولبث مدة فى حوران ثم جاء الى هذا المكان المسمى « برج الدنادشة » وان بعضهم يوغل فى امر نسبهم ويدعى انهم من اخلاف الحميريين . والقول الحق ، هو انه كان لهؤلاء المهاجرين رئيس يسمى « الشيخ اسماعيل » وكان يزين سرج جواده بهداب (**) فسماه جيرانه التركمان «دندشلى» وسموا ذويه باسم «دندشليلر» اضافة لصفته ثم عرب الجمع فكان «دنادشة» وهو اسمهم منذ قرون..

وبعد ان اتوا لهذا المكان ، رجع احد اخوة الرئيس « الشيخ اسماعيل » مع قسم من العشيرة الى انحاء حوران واقام فيها . واخلافهم اليوم تدعى هناك باسم « الفحيليين»

(*) راجع « الرحلة الشامية » تأليف محمد على باشا شقيق عباس حلمى باشا خديوى مصر
(**) دندش، دناهش : هدابة، هداب

اما الدنادشة المقيمون اليوم فى تلكلخ ، فيقرب عددهم من مائتين وكلهم مسلمون وسنيون . وجميعهم يشتغلون بالزراعة فى هذا القضاء . ودخلهم السنوى عظيم جداً . ويوجد بينهم من يبلغ دخله السنوى الى « ٥٠٠٠ » ليرة ، واقلهم غناءً لا يقل دخله عن « ٢٠٠ » ليرة فى السنة . ولهذا يمكننا ان نعتبر قصبة تلكلخ بمثابة مستعمرة لتلك الاسرة الغنية . وتنحصر هناك السلطة والقدرة وكل شئ فى تلك القوة المنفردة . ثم ما بقى من السكان وهم ثلاثون او اربعون نسمة ينتمون الى الاسرة « الزعبية » وسنتكلم عن هذه الاسرة فى المبحث الخاص .

اما البدو من سكان هذه القصبة فهم بالمعنى الكامل خدام للدنادشة ، ولهذا لا يمكن ان تكون لهم قيمة اجتماعية . والنصيريون ايضاً مثلهم . ولا نرى حاجة للافصاح عن عبودية هؤلاء المتحركين بارادة اولئك الاغوات [*] المسيطرين ولا مقام لاولئك البدويين الرحالة ،ولا للنصريين الفقراء فى تلكلخ اذا لم يرض عنهم اسيادهم . ولهذا فالحياة فى تلكلخ هى حياة الدنادشة فقط . وسنتكلم عن هذه النقطة أثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية فى القضاء .

[٢]— **الحياة الاجتماعية فى حصن الاكراد** — يمكننا ان نقسم سكان هذا القضاء الذين يبلغ عددهم الى (٣٠،٠٠٠) نسمة . الى طائفتين كبيرتين ، الطائفة الاسلامية والطائفة المسيحية .

ان عدد المسلمين فى هذا القضاء — ان صدقت القيود الرسمية — يشمل ثلثى مجموع السكان ، ومن الخطاء الظن بهذا الجمع الذى يبلغ بعدده زهاء (٢٠،٠٠٠) نسمة ، انه متجانس . لان من هؤلاء (٢٠٠٠—٣٠٠٠) سنيون ، والباقون كلهم نصيريون . ثم يفترق السنيون الى « دنادشة » و « زعبية » و « تركمان » . وعشيرة « الدنادشة » التى بحثنا آنفاً عن منشأها واصلها تضم قريباً من (١٥٠٠) نسمة من ذكور واناث . وهم منتشرون فى الانحاء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا القضاء ، واكثرهم فى الجهة الجنوبية . واهم القرى اتى يسكنونها هى « تلكلخ » و « مجته حسن » و « مجته حمود » وكلهم يشتغلون بالزراعة ويزعم القرويون « ان هؤلاء متصفون بالسلطة والتغلب ولا يزالون يغصبون اموال القرويين واملاكهم ويشددون الظلم عليهم . وربما يضربونهم ويهينونهم ، ويسخرونهم باشغالهم قسراً وبلا اجرة » .

ولهذا لا يعثر على فقير بين افراد هذه الاسرة . وليس بينهم من ينقص دخله السنوى عن مائة ليرة الا مائة شخص . ثم (٥٠٠) منهم لا يقل دخلهم عن (٥٠٠) ليرة، وخمسون

[*] جرت العادة باضافه لفظ « آغا » الى اسماء الدنادشة . ويطلق على بعضهم (بك) ايضاً

منهم لا يقل دخلهم عن (١٠٠٠) ليرة وواحد منهم فقط له مقدار (٥٠٠٠) ليرة من الدخل فى كل سنة

ومن الواجب ان نعترف لهؤلاء الاغوات بسخائهم وكرمهم كما يروى عنهم ، ولهذا السبب لا تزيد ثروة القضاء عن خمسين الف ليرة بالرغم عن كثرة الاغنياء فيه . فاذا فكرنا بقلة هذا المبلغ نحكم ضرورة بان ليس عند الدنادشة امساك ولا بخل ،

وهكذا فان لهؤلاء الاغوات منازل فخمة ، فيها اثاث ثمين . ثم ان انشغافهم باظهار آثار النعم والثراء بمعيشتهم ولباسهم اكسبهم فى الخارج شكلاً زاهيا . وسنرى فى الابحاث الآتية ان انهماك هؤلاء بحب الخيل واقتناء عتاقها وكرائمها ، حدى بهم الى الفروسية . ولهذا فانهم بركبهم الجياد الكريمة وتتوجهم بالعقل والعصائب الحريرية واكتسائهم بالحرير وتقلدهم بالسيوف وحملهم بنادقهم على اكتافهم وتجولهم فى انحاء حصن الاكراد يرهقون سكان القرى طغياناً وعسراً . لا جرم يكونون كمتغلبي قضاء عكار فى الاوصاف الاجتماعية . وهم مثلهم فى السلطة والتغلب ايضاً .

*
* *

والقسم الآخر من السنيين يعرف باسم « الزعبية » ويزعم افراد هذه الطبقة الذين يبلغ عددهم الى المائتين ، انهم من اخلاف « عبد القادر الكيلانى » من السادات الزعبية واكثرهم يسكن فى « قلعة الحصن » ، ولا فرق بينهم وبين الدنادشة من حيث اضطهادهم القرويين وظلمهم . على ان هذه الفئة تتسم بصفة علمية ايضاً ، ولا مساغ للحكم على راحة هؤلاء بحياتهم الاجتماعية رغماً عن ثرائهم المعتدل ، لان اكثرهم عنده ثلاث واربع زوجات وليس لهم نصيب من النور الفكرى النافع ، وعليه يجب ان لانعبأ بهذا الادعاء.

*
* *

ثم القسم الثالث من السنيين هم « التركمان » ، وهؤلاء يسكنون فى قرى « زاره ، حكيه ، حصرجية » . ومجموع عددهم (٤٠٠—٥٠٠) نسمة . ويزعمون انهم توطنوا هذه الديار منذ زمن السلطان سليم الاول . ولكن ليس لديهم برهان يؤيد هذا الادعاء . وهؤلاء يشتغلون بنسج السجاد كما هو الحال فى تركمان عكار ، ويعالجون تأمين معيشتهم بهذه الصناعة ومع هذا فانهم فقراء مدقعون ، محرومون من كل شئ . حتى ان القسم الذى يشتغل بالزراعة منهم لم ينج من تسلط الاغوات ومداخلاتهم .

*
* *

اما غير السنيين من المسلمين ، فهم النصيريون الذين تجاوز عددهم (١٥٠٠٠) نسمة وهم يشتغلون بالزراعة اما بصفة مزارعين فى قرى الدنادشة والزعبية ، واما فى بضعة قرى خلصت لهم فى انحاء « جبل الحلو » . وهؤلاء الذين يسكنون الاصقاع الشمالية الشرقية

والجنوبية والغربية من هذا القضاء كلهم على غاية من الفقر . هذا وان كان بين النصيريين فى قضاء صافيتا وغيرها — كما سنذكر بعد — اناس اغنياء اقوياء ذوو سلطة وكلمة . ولكن بما ان قضاء حصن الاكراد هو مبدأ الربوع النصيرية ، وفيه من ذوى السلطة والتغلب من لا يقوى النصيريون على مقاومته ، لم يكن لهم مجال للقوة فيه واصبحوا تحت سيطرة تلك السلطة التى زجت بهم فى الفقر المدقع . وان هذه الطبقة التى تسكن فى اوكان كانها صبراً من الاحجار هى فى دركة منحطة جداً .

*
* *

اما النصارى فى حصن الاكراد فيسكنون القرى الكائنة فى انحاء « وادى النصارى » وعددهم يقرب من (١٠,٠٠٠) نسمة وهم يشتغلون بالزراعة ايضاً . وهم من حيث المعيشة ارقى من النصيريين بدرجة او درجتين ، ومع ذلك فان شرائط الرخاء والراحة فى العيش ليست متوفرة لديهم .

*
* *

فاذا اردنا اجمال ما فصلنا الآن ، نقول ان قضاء حصن الاكراد منحصر فى ايدى بضعة طبقات من الاعيان يستفيدون منه . ولذلك فلا يجب ان نعجب من عدم وجود غيرهم من الطبقات الاجتماعية .

[٣] — **العادات الاجتماعية** — للمسلمين فى حصن الاكراد بعض عادات اجتماعية مشهورة تلفت النظر . واهمها التقاليد فى الزواج . فعلى طالب الزواج هناك اولاً تقديم عربون يسمونه « العلامة » . وتكون هذه العلامة خاتماً او دراهماً . ويرسل معها بعض مواد كالقهوة وغيرها .

ومقدار المهر المعجل والمؤجل فى هذا القضاء كادا ان يكونا على تساو . ويتراوح المعجل بين (٣٠٠٠) و(١٠,٠٠٠) وكذلك المؤجل يتراوح بين (٥٠٠٠) و(١٠,٠٠٠) من القروش .

وربما تتلى قصة المولد الشريف يوم عقد النكاح . وبعضاً يحتفلون به سبعة ايام ويسمونه « الفرح » . ويكون على هذا النسق :

يؤتى بمطربين من النور الى بيت الخاطب . ويضربون بالطبول وينفخون فى الابواق ويهيئون اجمال المزينة بازهى الزينة ويركب عليها البدويون ، ويمتطى السكان ظهور الجياد ثم يمشى الموكب بين ضرب الطبول والزمور ، وينهض راكبو اجمال فيرقصون وبايديهم

المناديل او السيوف ، ويغنون (*) ويملؤن الانحاء جلبة وضجيجاً . ويسمون هذه الاغانى « ىلالاه » .

وهذا الموكب لايفتأ يتجول فى تلك الانحاء سبعة ايام . وبهذا يذوع خبر النكاح ويطلع عليه كل الناس . وبعضاً تكون هذه الاحتفالات بعد العقد ، او قبل اجراء الزفاف بسبعة ايام . وبهذا الشكل تكون ليلة الزفاف هى خاتمة ذلك الاحتفال ويتنحون بهذه الاحتفالات الى خارج القصبة ويوقدون النار ويطلقون السلاح ويتغالون بالمظاهرات . ويسمون هذه الالعاب « مرسحا » .

ويحتفلون بولادة الذكور ، ويطلقون السلاح ويفرحون . اما ولادة الاناث فلا يهتمون لها . ويروى ان الدنادشة يحرمون بناتهم من الارث ، ولكن يجزلون لهن الجهاز عوضاً عن هذا .

وهاتين العائلتين فى حصن الأكراد « الدنادشة والزعبية » لا يزوجون بناتهم الا لاقاربهم . وحتى ان الدنادشة لا يتزوجون من الخارج البتة . اما الزعبية فلم يبلغ بها التصلب الى هذه الدرجة .

ومن عادات حصن الاكراد تلاوة الموالد حينما يختم اولادهم القرآن وتوزيع السكر فى تلك الحفلة :

والاحتفال بالختان عند السنيين يكون على هذا النمط ايضاً . واعتادوا على اجرائه قبل اكمال الاطفال السنة الثالثة من عمرهم . ولا يرغبون خرق هذه العادة . ويقيمون « المراسح » احتفاءً بتلك العادة .

لا يستعمل نساء البدو ، ولا نساء النصيريين الآزر . اما الدنادشة والزعبية فهم من الانفة والعصبية على درجة ، لا يذكرون اسماء نسائهم حتى ولا على احجار القبور .

تشيع هنا جنائز الزعبيين باحتفال عظيم . وبما انهم ينتمون الى الطريقة القادرية تنشر امام جنائزهم اعلام تلك الطريقة ، ويمشى امامها المشايخ القادرية بطبولهم الصغيرة ودفوفهم وصنوجهم وترتيلاتهم الى ان يصلوا بها الى مقرها الابدى .

اما الدنادشة فانهم يؤثرون تشييع الجنائز بالسكينة والهدوء .

ومع هذا فان السنيين يضربون الخيام على اجداث الميتين ويقرؤن فيها القرآن ثلاثة ايام . وفى كل يوم من هذه الثلاثة يزورون القبر صباحاً ومساءً . ويعتنى سكان حصن الاكراد بالمقامات والمزارات اعتناءً خاصاً . ولهذا فان مقام ابى هريرة فى قرية ساعود والبحترى الشاعر فى حارة التركمان ، والسقا فى قرية قلعة السقا ، هم من الاماكن التى

(*) راجع فى هذه الاغانى مبحث ادبيات القضاء .

يزورها السنيون . ثم ان مقام الشيخ مرجه فى قرية ام الدوالى يعتبر مزار عند النصريين :

*
* *

وقبل ان نتم هذا البحث نرى ان نذكر على قبيل الاستطراد السوق الذى يقام كل سنة فى يوم النوروز عند « دير الخضر » الكائن فى انحاء وادى النصارى . ويقصد هذا السوق كثير من تجار حمص وحما واللاذقية وجم غفير من الناس لاجل البيع والشراء . حتى ان الدير يربح من الحوانيت التى اعدها هناك الى التجار مقدار خمسين الف غرش . ويزعمون ان ارباب الدير قصدوا بتأسيس هذا السوق امراً دينياً اكثر من التجارة والربح . ونحن نكتفى هنا بالاشارة لهذه الرواية فقط .

[٤] — **الارقام الاجتماعية** — هذه بعض الارقام البكماء التى حصلنا عليها فى مركز حصن الاكراد :

— دخل الى سجن تلكلخ فى السنين الخمس الاخيرة (١٤٠) شخصاً . وعليه يكون عدد المحبوسين فى كل سنة (٢٨) شخصاً .

— لم نحصل على الجداول العدلية للسنين السابقة . اما فى الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ حدث ثلاث جرائم من القتل ، وحكم على (٣٥) شخصاً بالجنح والقباحات . وكلهم من الزراع .

— ويزعم ان قد حدث فى السنين الخمس الاخيرة فى جميع القضاء (١٥) ازدواجاً . وبهذا يصيب كل سنة ثلاثة . وان خطاء هذا الجدول بارز . ولو صرفنا النظر عن النصارى والنصيريين ، فى القضاء لوجدنا الازدواج بين السنيين اكثر من هذا العدد بكثير .

ثم يروى ان الطلاق هنا قليل جداً . ويقال انه لم يحدث بين السنيين فى هذه السنين الخمسة الا طلاق واحد . وهذا الرقم يدلنا على ان الدنادشة لم يعتادوا الطلاق .

— يوجد فى كل قرية من قرى السنيين جامع . والقرى التى يسكنها النصيريون فهى خلو من الجوامع . اما القرى النصرانية فيوجد فى كل واحدة منها كنيسة وراهب .

٩ — الاحوال الروحية والسوية الفكرية

يجب علينا فى تعيين الاحوال الروحية والسوية الفكرية فى هذا القضاء ان ندقق الطبقات الاجتماعية فيه على الانفراد . وقد تبين مما فصلنا الى الآن ان اقدم طبقة فى هذا القضاء هى اسرة « الدنادشة » .

ان هذه الطبقة هى صاحبة هذه الاصقاع بالحول والطول ، وحاكمتها . ولهذا كان افرادها على غاية من العصبية ، والقوة الغضبية ، وحب الفروسية . وجمعوا فى انفسهم

اخشن طباع البدو واوصافهم . ولهذا كانوا لا يعرفون السماح ، ولا يغضون عن زلة ،لاسيما موقفهم تجاه القرويين ، فهو موقف المتغلب الذى لا تخونه سلطته وقدرته . وهم يتمرنون منذ حداثتهم على ركوب الخيل واستعمال السلاح ، واجراء السباق . ومعاناة الصيد . وسبر القوة وامثالها من وسائل الفروسية . ولهذا خلقت فيهم تلك الحياة سجية تشبه سجية حكام القرون الوسطى « دره بكى » ملؤها الانفة والاباء ، والنخوة والفروسية ، فالجسارة المشهودة فى هذه الفئة اساسها من هذه التربية ، ولهم شغف عظيم باقتناء عتاق الخيل ، ولاسيما انهما كهم باقتناء الجنس « الصقلاوى » يتجاوز الحد المعروف . وهذا ايضاً ناشىء عن انطباعات تلك التلقينات وتأثيرها فيهم بكر الادرار .

وارتباط هذه الاسرة بالدين جدير بالذكر ايضاً . وهم بحياتهم الاجتماعية اهل قرى وكرم ويبرهنون فى كل اعمالهم عن نجابة وطيب ارومة .

وهذا الاجمال يدلنا على ان لهذه الاسرة اوصافاً وخصالاً ثمينة رغماً عما اوجدت فيهم افاعيل حياتهم من القسوة وجفاء الطبع وانى اريد ان افصل هذه النقطة المهمة مستنداً على مؤلف جدير بالاهتمام فى هذا الباب. وهذا المؤلف هو كتاب الفه محمد على باشا المصرى احد اركان الاسرة الخديوية سنة (١٩١١) بعد ان تجول فى انحاء سورية وضمنه مشهوداته فى تلك الاصقاع . وسماه « الرحلة الشامية » .

يحتوى هذا الكتاب فى صحائفه (١٨١—١٨٨) معلومات عن الدنادشة تشخص لنا احوالهم الروحية ، وتلمسنا حياتهم الاجتماعية . وها نحن نقتبس هذه النقاط التى لها عظيم الارتباط بموضوعنا . حكى محمد على باشا فى تلك الصحائف من كتابه عن صورة مفارقته حمص ، ووصوله الى تلكلخ ، وعما رتبه الدنادشة لاكرامه من السباق وغيره فقال :

[وما برحنا نواصل السير فى ذلك الطريق حتى وصلنا الى سرادق جميل كان قد اعده لاجلنا بالخصوص حضرة المفضال (محمود بك) احد زعماء مشايخ الدنادشة وكانت مسافة مسيرنا منذ خرجنا من حمص حتى وصلنا الى هذه النقطة لا تبلغ اكثر من نصف الساعة

فى الطريق

وهناك كان ينتظرنا حضرة البك المذكور مع لفيف من اسرته الكريمة بينما كان نحو مائة وخمسين فارساً مصطفين على خيلهم امام تلك الخيمة بغاية النظام وقد كان بين ظهرانيهم فتاتان من بنات العرب مثقلتين بالحلى على لبوسهما العربى اللطيف وفى احدى يدى كل واحدة منهما سيف وفى الاخرى منديل ثم ها كانتا تغنيان بين هؤلاء الفرسان لاجل تشجيعهم وتهييج عاطفة الفروسية فيهم وقد نزلنا من العربات ودخلنا ذلك الصيوان وبعد ان اخذنا منه مجالسنا قدمت لنا القهوة ثم الشراب ، ولم نلبث بعد ان شربناهما الا

مسافة عشر دقائق ثم قمنا فمررنا امام اولئك الفرسان الذين كان يركب اغلبهم افراساً تتبعها اولادها المهارة ، واذ ذاك اخذ العرب الخيالة يتبارون فى اللعب ويتغالبون على الخيل وفى ايديهم بنادقهم على نحو ما يرى فى الملاعب والميادين مما يسمى فى عرف العامة بالبرجاس وقد خفت حينئذ ان ينفلت رصاصهم على غير عمد فيصيب احداً لان بنادقهم كانت من الطراز الحديث وهى من النوع الذى لابد لاطلاق عبوته الهوائية من وجود الظروف الرصاص فيها اولاً ، ولذلك طلبت اليهم ان يكفوا عن الضرب فى ذلك اللعب وفى تلك الاثناء كانت البنتان تدوران حول الخيالة من هنا ومن هناك وتترنمان باناشيد الحرب ونغمات الطعن والضرب فكانتا تنبهان بذلك الغنا المؤثر عواطف الفوارس وتحركان فيهم غريزة الحمية والشجاعة حتى اخذت الحماسة من نفوسهم مأخذا عظيماً وما زالوا كذلك حتى ركبنا العربات وركب حضرة محمود بك فرساً وسار بجانب عربتنا وتبعه جميع الخيالة من خلفنا وامامنا وعلى جانبينا ايضاً ، وهم بين ان يعدوا سراعاً ويعودو بطاء ويتنوعوا فى العابهم الحماسية جرياً ووقوفاً ودفاعاً وهجوماً الى غير ذلك مما لا يدرك وصفه الا بالرؤية والمعاينة وقد كنت حين ذاك اعجب بشجاعة اولئك القوم ومهارتهم فوق ما كنت اعجب ، واعجب ايضاً من ابناء الافراس الصغار التى كان عمرها فى الغالب لا يزيد عن اسبوعين ومع ذلك كنت اشاهدها تتبع امهاتها فى تلك المسافات البعيدة على هذا السير الحثيث وتتحمل مشقة السفر والجرى ، وقد اخذتنى بها من اجل ذلك رأفة شديدة فطلبت من اولئك الراكضين ان يخففوا السير ويتئدوا لكيلا يشقوا على تلك المهرات المساكين وهى فى ذلك السن الصغير ، ثم ما فتئوا يركضون على طول المسير ويلعبون باعظم مهارة واكبر حذق ، وكان فيهم فارس كبير السن يلبس ملابس دندشية قديمة يسمى عثمان آغا وهو يمتاز عن اخوانه بحب الظهور عليهم فى الفروسية وخفة الحركة ، وحقيقةً كان هذا الفارس العجيب يبدى امامنا من ضروب المهارة فى الغدو والرواح والصعود والهبوط على الصخور الجبلية ما كنا نعجب منه غاية العجب ؛ وكذلك كان له حذق غريب فى عبور النهر وهو فوق حصانه الذى كان يعدو تارة فى الارض واخرى فى الماء اسرع من الطير واخف من الهواء حتى استغربنا اى استغراب من جسارة هذا الفارس وجرائته المدهشة على ركوب الخيل بتلك الكيفية التى كانت فوق التصور وما زلنا كذلك حتى دخل بنا الطريق فى مضايق بين جبلين فكنا بين ان نصعد مسافة الى فوق ، ونهبط اخرى الى تحت ، وكان لا يزال على جانب عربتنا حضرة « محمود بك » وهو ممتلىء رجولية وشهامة لاسيما وانه طويل القامة عظيم الشارب كبير الاهداب تتجلى فيه الفروسية باخص اوصافها واجلى معانيها وهو مع ذلك مهيب وقور ،

حادثة فى الطريق

وقد حدث فى اثناء السير ان فرساً من افراس الركب لاادرى لمن كان ضرب فرس ذلك البك فى ذراعه الايمن فجرحه جرحاً بليغاً، ما زال يشخب دما حتى صبغ ساق ذلك الفرس المجروح بالدم فاحمر بعد ان كان ازرق اللون وقد خفت على هذا الفرس المصاب ان يهلك تحت راكبه لان الجرح كان خطراً حيث كان النزيف مسترسلاً بقوة ومن ثم طلبت الى محمود بك ان ينزل عنه اشفاقاً عليه ورحمة به . اما هو فما كان ليهمه اصلاً ان يموت الفرس اويعيش ما دام فى صحبتنا وضمن رفاقنا حتى قال حفظه الله ما معناه انى لأجعل فدائك نفسى وما فرسى بأعز على منها ، ثم تأخرعنا نحو دقيقة وقد كنا حسبنا انه نزل عن الفرس ولكنه مالبث ان جاء الى جانبنا كماكان ورأينا ان ليس على فرسه اثرالجرح، ولا ذلك الدم الذى رأيناه وقت الحادثة وكان ينزف نزيفاً ففهمنا انه كان فى تلك المسافة الصغيرة يعالج الفرس، ولكن لست ادرى بماذا عالجها واى دواء يصل مفعوله من السرعة الى هذا الحد وقد عرفت ان بعض الفرسان المهاجين كانوا من ابناء البكاوات الدنادشة وهم احداث تتراوح اعمارهم بين السابعة والعاشرة ومع ذلك فأنهم كانوا يحسنون الركبة مثل ما يحسنها اباؤهم وكبارهم كما كانوا يتقنون اللعب ويتفنون فيه كأنهم مارسوه من زمان كبير ولا بدع ان يكونوا كذلك اذ قد تربوا على الشجاعة منذ نشأتهم واعتادوا على الفروسية وركوب الخيل بكثرة التدرب والتمرين . ثم دخلنا فى ميدان فسيح وكان لم يمض على سيرنا اكثر من ثلاثة ارباع الساعة وهناك كان ينتظرنا عدد كبير من الخيالة ومعهم البكوات الباقون من عشائر الدنادشة فاجتمع الفريقان وصاروا ركباً واحداً ونحن لا نفتا نتابع السير حتى وصلنا الى تل كلخ وهو واقع فى الحدود الفاصلة بين ولايتى بيروت ودمشق وفى آخر حدود الدنادشة واذ ذاك كنا قد دخلنا فى وقت الظهر وحان ميعاد الغداء فذهبنا الى بيت الزعيم « محمد بك محمد » وهو زعيم مشايخ عربان الدنادشة ونزلنا عليه ضيوفاً بعد ان طلب الينا ذلك بالحاح الكرماء وكان ينتظرنا هناك بعض مستخدمى الحكومة وقد قدم الينا الطعام على مائدة كبيرة تسع عشرين نفساً وكانت على النمط الاوروبى وفيها الوان عديدة واصناف كثيرة متنوعة فاكلنا متلذذين من حسن الطعام واجادته اما الركب الذى كان معنا وقد عرفت كثرتهم فقد كانوا ياكلون جميعاً موزعين على عدة موائد وطعامهم كان قاصراً على الارز واللحم ولم يكن ذلك ليدهشنى لانى لا استغرب ان يجتمع على موائد هؤلاء العرب عدد كبير كالذى رأيناه او اكثر وانا اعلم ان العرب قوم جبلوا على الكرم وطبعوا على البذل والسخاء وانما الذى كنت اعجب منه عجباً شديداً هو تجهيز مائدة على الطراز الغربى الصرف وان القوم عرب شرقيون من سكان

الجبال ثم بعد ان تهيأنا للسير شكرنا لحضرة محمد بك محمد تلك العناية العظمى واثنينا كذلك على عشائره الكرام لما بذلوه من الهمة والمعروف وقد اجتذبنى الى هؤلاء العرب جمال هندامهم وحسن بزتهم وكان بودى ان لو تطول عشرتى بينهم لاتمتع كثيراً برؤية منظرهم الجميل لولا ان الوقت قصير محدود .]

ولا جرم ان هذه السطور التى نقلناها عن محمد على باشا تفصح عن الاحوال الروحية فى الدنادشة . ولذلك لا نرى لزوماً لزيادة شئ عليها.

اما الزعبيون ؛ فهم ايضاً معروفون بالشجاعة والفروسية ، والانهماك بحب الخيل ، والسيطرة على القرويين ولكنهم ليسوا من العصبية فى درجة الدنادشة ، بل هم حليمون وطباعهم هادئة . ومع هذا فقد تكون لهم هبة عصبية ، ولكنها لا تدوم وليست بعصبية المنتقم . وهم متمسكون بالدين وحتى متعصبون اكثر من الدنادشة . ويروى ان لبعضهم ميلاً للتصوف ايضاً .

اما تركمان حصن الاكراد ، فهم على غاية من الحلم والسكينة . ولقد يبلغ بهم هذا الهدؤ الى درجة الفتور . ولهذا لا يعثر لديهم على الحركة والنشاط البتة .

اما النصيريون ، فهم مطيعون وهادؤن بالنسبة لابناء جلدتهم فى الاقضية الاخرى ، بيد ان منهم عشرة فى المائة ممن الف الشقاوة ، وامضى حياته عليها . وهم يقطعون الطريق ، ويتعاطون اللصوصية ، وربما يؤلفون العصابات فتقتحم القرى وتنهبها . هذا وان يكن اليوم لا اثر لهذه الاحوال عندهم ، فلا يجب ان ننسى ان للروح النصيرية نشنشة فى هكذا امور تكمن وتظهر ، وتغيب وتحضر .

والنصارى هم على نقيض من هؤلاء فانهم متمسكون بالراحة والسكون . ولكنهم بلغ ارتباطهم بالدين الى درجة التعصب .

*
* *

اما السوية الفكرية فى القضاء ؛ فمن العبث ان نرتاد فيه العلم والعرفان والذين يحسنون القرائة والكتابة فيه قليلون باعتبار الكمية . وليسوا على شئ بالكيفية ايضاً . وهم فى الرجال من الدنادشة (٦٠) فى المائة . وتحصيلهم طفيف جداً ، وليس بينهم الا (٢٠) ممن اتموا التحصيل الثانى .

اما الزعبيون فمقدار الذين يحسنون القرائة والكتابة فيهم يقرب من (٥٠) فى المائة . وليس لديهم الا ثمانية ممن تخرجوا فى المدارس التالية .

ومقدار هؤلاء فى التركمان لا يزيد عن اثنين فى المائة . ولهذا لا يوجد فيهم الا بضعة اشخاص يعرفون القرائة والكتابة ، وليس فيهم احد ممن تخرج فى احدى المدارس .

والنصيريون مثلهم ايضاً. ولا يوجد بين عددهم الكثيف الذى يجاوز (١٥٠٠٠) نسمة اكثر من مائة شخص يعلمون القرائة والكتابة على غاية من البساطة. ولهذا لا تتجاوز نسبتهم خمسة فى المائة.

وعدد هؤلاء عند المسيحيين اكثر، ونسبتهم فى الرجال تصعد الى الستين والسبعين فى المائة. اما درجة هذا التحصيل فهى بدائية بسيطة.

وعلى هذا الحساب المخمن، يكون من سكان هذا القضاء عشرة فى المائة ممن يحسنون القرائة والكتابة بدرجة بسيطة. ولا شك ان هذه النسبة تفصح عن السوية الفكرية فى هذا القضاء بصورة واضحة.

١٠ — الاحوال الصحية

يجب علينا قبل الافاضة فى البحث عن الحالة الصحية فى قضاء حصن الاكراد ان نطلع على هوائه ومائه، ونسق بنائه. وبما ان القضاء ينقسم الى «جرد» اى وعث، والى «سهل» يمكن تدقيقه من حيث الهواء باعتبار هذين القسمين ايضاً. فالحرارة تبلغ فى الانحاء السهلية ابان الصيف الى اربعين درجة، وتقرب من الصفر ايام الشتاء، وربما ينزل الثلج فى تلك الربوع فيكسيها بلونه الناصع. ومع هذا فان هواء انحاء الجرد ارجح من هواء السهل ولاسيما ماء الجرد فانه عذب شهى.

وان اقحل موقع من الماء فى هذا القضاء هى تلكلخ. فلا توجد فيها الينابيع، او المياه الجارية، بل هم يرجعون باحتياجهم فى ذلك الى بضعة آبار موجودة هناك، ويمتاحون الماء من هذه الآبار بدلاء وسخة، ولذلك يكون الماء كدراً. ويمكننا ان نقول ان كل قرية فى هذا القضاء اياً كانت هى اسعد وانعم من تلكلخ من حيث الماء اذ لا بد ان يوجد فيها منبع، او جدول يقوم باحتياج سكانها. هذا وان كان بعض القرى يتكبد المشقة والتعب فى جلبه، ولكن عذوبة الماء ونظافته تنسيهم تلك الاتعاب.

اما ابنية القضاء، فان اكثر القرى تشبه فى مساكنها قرية تلكلخ فى بيوتها التى لا تصلح للسكن، ولكن يعثر فى بيوت علية القوم على شئ من الرقى والانتظام. وعلى كل حال ان السواد الاعظم من سكان هذا القضاء الذى يربو عددهم على ثلاثين الفاً، هم فى غاية من ضيق اليد، وضنك العيش البيتى لسبب حرمانهم من الثروة جزلة كانت او نزوراً.

وان حال سكان هذا القضاء فى السنة الثانية، ولاسيما الثالثة من هذه الحرب، اصبح من الفقر والحرمان فى درجة لا درجة فوقها، ولهذا نرى من الواجب ان نمعن النظر فى ما

اطلعنا عليه طبيب الموقع من المعلومات ونشرح الحالة الصحية فى هذا القضاء.

تجرع سكان هذا القضاء سنة ١٣٣٢ امر العذاب بسبب حرمانهم من المواد الغذائية. ففقدان الخبز واللحم والسكر وما اشبههم من الاغذية جعل الاجسام ضئيلة لا تستطيع مغالبة الامراض، ثم ان فقد الملح، تلك المادة الحياتية اوقعهم فى اشد الارتباك الحياتى. واضطر اغلب العائلات الى طبخ الطعام بلا ملح. وقصارى القول ان هؤلاء السكان الذين حرموا من اهم وسائل الحياة اضطروا الى الاقبال على تناول النبات الذى لم تألفه اجسامهم من قبل، وما كان ليقوم بهم، فتدرجت اجسامهم بالانحطاط، وعرقها الجوع حتى صاروا اقفاصاً من عظام، او اشباحاً جبلت من فحم. ثم اقتحمتهم الحميات كالنمشية وغيرها فجعلتهم حصيداً؛ واعانها عليهم جهلهم وجوعهم فاستفحلت فيهم وكثر تفشيها فاصيب بها سنة «١٣٣٢»، «٢٥٠٠» نسمة هلك منها «١٥٠٠».

ثم ان مرض فقر الدم، والتورم البدنى العمومى، والاستسقاء، والانحلال التدريجى وامثالها من الامراض الطاحنة لم تأل فتكاً بأولئك المساكين ايضاً.

وقد ظهر هناك ابان الصيف مرض اشبه باعراضه بـ «القوليرة»، ولكن ما كان هذا الاعبارة عن هيضة نشأت من اقبال الذين تخلصوا من الامراض الشتوية، وابتلوا بالهزال لسبب عدم التغذى، على اكل الاثمار ليتلافوا نقصهم من الفحم «قاربون» فوقعوا فى سؤ الهضم ثم انقلب فيهم الى اسهال. وقد نتج عنه بعض وفيات. ولكنها تستند فى الحقيقة على الانحلال الطبى.

اما فى صيف سنة ١٣٣٣ فقد توقف سيرهاتيك الامراض ولا بأس ان نبحث عن اسباب هذا التوقف. يمكن ان يحمل هذا الحال على زيادة المحصول فى هذه السنة عن مقدار السنة السابقة ثم على انفراج الازدحام بسبب ما كان من الوفيات ثم على خروج الاهالى ابان الصيف من تلك الحجرات القذرة التى كانوا يسكنونها فى الشتاء، الى البرية حيث الهواء النقى الطلق؛ وعلى الوقاية التى تحدثها الحمى النمشية فى الذين نشطوا بعد ان اصيبوا بها. ولكن اهم هذه الاسباب، هى ما احدثته الادارة العسكرية من دور التجريد والنقاهة، ولاسيما عدم ترخيص الافراد المريضة وارسالهم الى اهليهم، ولهذا لم يحدث فى الاشهر الاخيرة [*] من الحمى النمشية الا (١٥) مصاباً. والامراض الاخرى ايضاً هبطت عن نسبتها الاولى، ثم انقطع اثر الحميات الاخرى التى كانت تفتك بالسكان اثناء وجود الحمى النمشية، اما مرض الجدرى فقد كان متفشياً فى قرية «عيون» وظهر فى

[*] ٧ تموز سنة ١٣٣٣

قرية (مرمريتا) واستؤصلت شافته فى كلتى القريتين ، واعتنى بالعمليات التلقيحية فى باقى انحاء القضاء .

اما مرض « ديزانتهرى » فلم يصب به فى الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ الا خمسة اشخاص والامراض المحلية الاخرى مثل الحمى المرزغية وغيرها لم يصب بها الا الطفيف ، ويعتبر على اقل من القليل من اصابات السل وذات الرئة وذات الجنب .

*
* *

ان ادارة الصحة فى هذا القضاء ناقصة باسسها كما هو الحال فى باقى الانحاء ، ولا يوجد اليوم الا طبيب واحد يحمل اعباء جميع القضاء . وزيادة عن هذا فانه ملزم بتفقد شؤن ناحية حذور الواقعة على تخوم القضاء والتابعة بالادارة الى طرابلس الشام . ثم ان وظيفة التلقيح انيطت به ايضاً لعدم وجود مأمور لهذه الوظيفة . فاذا فكرنا بان انتقال الطبيب من قرية الى قرية اخرى يقتضى صرف زمن غير يسير ، نعلم استحالة تجوله فى جميع القضاء ، وهذا يطلعنا على مقدار الاستفادة المحدودة التى ينالها القضاء من هـذا الطبيب . ثم اذا اضفنا فقدان الوسائط الصحية الى هذه الوظائف الكثيفة يتضح لنا ما عسى ان تكون الفائدة من هذه الادارة . وليس من صيدلية فى القضاء كله . ومما يستلزم الشكر ان للطبيب صيدلية خصوصيه فى قرية « مجنايه » التى تبعد مسافة ساعتين من تلكلخ ، وهى لا جرم تخدم لتأمين او بالاجدر لتخدير شئ من الاحتياج الصحى . وهذه هى الحالة الصحية فى قضاء الحصن .

١١ — اللغة والادبيات

ان اللغة العامة فى قضأ الحصن — حتى لدى التركمان ايضاً — العربية العجمى . هذا ولا ينكر وجود بعض من يتقنون العربية الفصحى ولكن عددهم قليل جداً بالنسبة الى الاقضية الاخرى . وهكذا الامر فى من يعلمون شيأ من اللغاة الاجنبية . اما فى الادبيات فقد يوجـد من يميل الى المؤلفات العربيـة ، ولـكن المؤثر الحقيقى الذى يدير الاذواق الادبية فيهم هو الشعور العامى . وهنا ايضاً تتداول « الميجانيات » التى كادت ان تكون من الاغانى العمومية فى جميع القرى السورية . ولكننا نخص بالذكر منها ماينطبق على مرامى الحصنين فقط .

تكلمنا حين البحث عن الاحوال الاجتماعيه ، عن مواكب الاعراس وقلنا انهم يزينون الجمال فى تلك المواكـب ويركـب عليها اناس ينشـدون الاناشيد ، ويتغنون بالاهازيج وهذه

الاهازيج تسمى عندهم « ملالاة » .

وليست هذه الاهازيج من القصائد الطويلة ، بل اكثرها عبارة عن فقر مقطعة تنتهى بجلبة عمومية مبهمة ترسمها الاصوات بشكل « لو ، لو ، لوش » . واكثرها يرتجل على ما يناسب المقام — بزعمهم — وها نحن ناتى ببضعة قطعات منها على سبيل التمثيل :

—ملالاة—

دزوا لابو محمد خيول جيبوا
زرقا حامه ، مصنعه بالريش لاجل الشهامه

اخرى

حبيى شوشح الرمح والدبوس بيدو

ايضاً

حبيى واقف على البير والبير ناشف
ابو قضيمة الحمرا والمنديل شاطف

ايضاً

يا حويدري على الشام درع نقلك
كتر الحنـه وطيـاب الروايح

ثم يشرع بعد اتمام القطعة بترديدها بهياج عمومى وتضج الاصوات بصدى « لو ، لو ، لوش » . ثم لديهم اناشيد اخر يسمونها « الهجانة » . وينشدونها فى مواكب الاعراس ايضاً وها نحن نذكر شيئاً منها :

« هجانه »

حطيت عينى بعينو يا رب يا معبود
لاصبر على حكم الله بركه الزمان يعود

اخرى

ونى لارقى رأس التله وان البقاعه قبالى
وهنيه مربط الزرقا وهنيه منام الغـالى

وقصارى القول ان هذه الاغانى والاناشيد والاهازيج جديرة بالاهتمام لانها تشف عن حياة القوم الاجتماعية ، وحالتهم الروحية ، بالرغم عن نقصها وخللها .

—٩—

بين تلكلخ وبرمانه

١ — يومنا الاخير فى تلكلخ

كان يومنا الاخير فى تلكلخ يوماً ثقيلاً عصيباً ؛ وما اشد وطئة ذلك الاضطرار الذى قضى علينا بافناء يوم آخر من عمرنا فى هذه القرية الداجية المقفرة ، وذلك لعدم تهيء وسائط النقل ، لاسيما اذا لم توجد فى كتاب المحيط آيات بينة يرغبها الذوق . . . . ولا جرم ان هذا اليوم الكامل كان مستعداً لان يرمى كاهل حياتنا بثقل لا تستطيع ايجاده الايام ، ولا الشهور ، حتى ولا الاعوام . ونور الشمس الذى ما زال يزلق على ذلك التراب القاتم حتى وصل الى تلك البيوت المحلولكة كان مغبر المنظر كانه مستاء من سقوطه على هذه البقعة المظلمة ، فغشى بدخانه الكثيف ابصارنا التى كانت تحاول ان تتسلى باشرافها على ما حولنا .

— يوم طويل . . . ، بماذا نتلهى فيه يا ترى ؟

ما اعسر جواب هذا السؤال الذى وجهناه الى انفسنا . وقد كنا مزمعين على التلهى بقرائة شئ من الروايات ، لكى لا تلبث عطلاً ولكن اناخ هواء هذه القرية بكلكله على ادمغتنا فجعلها لا تبغى حراكاً ، وعليه لم نستطع امضاء هذا العزم . فتمددنا على سرير سفرنا ونمنا ثم انتبهنا ، ثم نمنا ، ثم استيقظنا . . . والوقت على ما هو ، كأن الارض لا تدور ، والفلك عطل حركته .

نصبنا انظارنا الى حجرتنا التى خنقها الغبار واخذنا نمعن فيها ، وكانت تحمل آثاراً تشف عن سالف زاهر ، ثم اخنى عليها الحظ ، وزلت بها القدم فاجهز عليها الدهر بتخريبه وتلاشت ؛ وها هى تودع بقية تلك الحياة . هذا سقفها المزخرف بالنقوش الذهبية انهال على الارض ، وبرزت من ورائه اقفاص السطح ، تلك العظام النخرة ؛ وتلك الجدران نفضت طلائها ، وظهرت عليها الاثقاب كانها قروح الفناء .

وهذه المرآة المنصوبة قبالتنا نقضت من اطرافها وها هى كسارتها لا تزال على الارض وقد غشيها من الغبار ما جعل وجهها صحيفة ترابية . اما المقاعد فقد مزقت وجوهها ، وارجل الكراسى المذهبة ، ثم اطراف المائدة الرخامية وشباك تلك المنافذ الفخمة وبللورها كلها كانت هشيماً محطمة .

لم يبق فى هذه الحجرة وصف يدل على ما كان لها من الزخرف ، وما عهد فيها من الضيافات . وهى الآن بجراذينها المتراكضة وحشراتها السوداء ثم بما يكنه سقفها من الهنوات الصائتة مأوى لكل ماصات وصوى . ونحن لم يجلبنا الى هذه الحجرة ، او ذلك الوكن الا صيته السائف .

ان هذا المنزل الضخم الذى شيده وفرشه محمد بك محمد [*] لم يكن مسكناً بل كان مربضاً للابطال ، او قصراً يشار اليه ببنان العز والشرف بين تلك الركام الحجرية فى تلكلخ .

ولكن لا نعلم كيف جرى ، حتى اصبح متروكاً وصار على هرمه فندقاً ممتازاً لتلكلخ التى لا تزل تفاخر بشهرته الماضية . وها هو اليوم لنا بتمامه .

فتحنا الباب الآخر ، وخرجنا الى الصفة ، واخذنا نتجول فى باقى غرف هذا القصر بين نسيج العناكب . ويمكن ان نلخص ما رأينا فيه ببضع كلمات : سقوف مدلاة ، وجدران جرباء ، وكثير من الاثاث البال ، وخزانات مخرقة فارغة ، ثم التراب والغبار الوافر ... والعناكب واخواتها من الحشرات ... كنا نتجول فى داخل هذا القصر الرهيب ونفكر بما كان له من ادوار السعادة والعز وتلك العظمة والسلطة ، ونأسف لذكرى هاتيك الادوار الاقبالية .

ولكن لم يكن الوقت ليمضى ... ونرى ان ليس من الامكان املاء هذا الفضاء العظيم الذى كان طوله اربع وعشرون ساعة ... هلا نخوض فى تراب القرية القاتم تحت ما تلفظه الشمس من الشعاع المحرق ، وننغمس فى دخان تلكلخ الاسود ... كنا نروح ونغدو على غير جدوى فى تلك الطرق التى كانها لم تدمثها الخطى ...

وكان لنا هذا التجول القسرى امراً طبيعياً ، وما زلنا عليه حتى بعدنا عن الظهر بضع ساعات... ونحن على هذا الاطراد الممل ؛ النوم واليقظة والمعاودة الى تصفح الغرف والتجول فى انحاء القصبة ، ثم الملل الدائم ... وهكذا امضينا يومنا الاخير فى تلكلخ.

وعند المساء لقينا ذلك المامور الاصيل ، الذى هو تمثال الرقة والنزاهة ، ولعله اطلع على انقباضنا فاخذ يؤآنسنا بدعابته اللطيفة برهة ثم قال :

— هل لكم ان نخرج الى النزهة ؟

واخذ يحث لنا عن منتزهات تلكلخ ، وكان يشير بيده الى الشرق ويقول:

— هناك ؛ على بعد ساعة ونصف يوجد منتزه « وادى خالد » وهو لطيف جداً بمائه وخضرته .

---

[*] راجع مبحث الاحوال الروحية ، ص (٣١٤)

ثم قال :

— او اذا شئتم نذهب الى «عين الدلبة» التى تبعد منا مسافة نصف الساعة .

رضينا بهذا الاقتراح الاخير، وسرنا نقطع التل الجنوبى ، ونركض الى حضن تلك الارض الخضراء الظليلة . وهنالك تيسر لنا ان نشرب شيئاً من الماء البارد فى ذلك المساء التموزى ، ونريح فكرنا الذى كاد يضنيه الملل. لاسيما وقد متعنا النظر ونحن قافلون بغروب مذهب، حببنا به تلك التلعة المشرفة على فضاء فسيح . وكانت تلك المسافات التى سنقطعها فى الغد ؛ مموهةً بشعاع اصفر ، يمتد الى (برج صافيتا) الذى كان يلوح عن بعد فى الجانب الغربى.

وكنا نقول :

— ان هذه الاصقاع جميلة من بعيد ؛ اما من قريب...

لم نر لزوماً لاتمام الجملة . لاننا كنا هابطين على البيوت السوداء فى تلكلخ وكانت ارواحنا تشمئز من رؤية داخل هذه القصبة التى لا يبعد ان يكون منظرها جميلاً على البعد .

وصلنا الى قصرنا المعهود ، وكان الظلام مخيماً ، ففتحنا الباب بطرقة شديدة ودخلنا . واخذت الحشرات تتراكض امامنا كما نعهد . وبعد مدة كانت ابصارنا تمتص الشعاع الضئيل، من قنديل الزيت الموضوع على مائدة الرخام المكسرة ، والسنتنا تتلوا المراثى المحزنة على افلاس تلكلخ من الحياة . ولا ندرى ما تكبدت ارواحنا من الضجر المؤلم ، حتى حصلت على غفوة مزعجة ممزقة . وما لبثنا ان نهضنا ونجوم السماء لا تزال تبرق فى مراكزها ، واخذنا نتهيئ للسفر وقلوبنا تخفق ارتياحاً لمبارحة هذا القصر الرهيب وتلك القصبة الموحشة .

٢ — نحو انحاء حذور

لا نحتاج لترتيب جدول سفرى حين الانفكاك من تلكلخ . اذ ربما يضطرنا هذا التنظيم الى تجرع عذاب يوم آخر . ركبنا صباحاً يتقدمنا فارس الدرك ومررنا بدار الحكومة الكائنة فى الشمال الغربى التى تبعد خمس دقائق من تلكلخ ، وما كنا ندرى الى اين نذهب وكنا نستدل من اتجاهنا الى الشمال الغربى اننا نقصد انحاء صافيتا .

ولم نستطع ان نرجع الى وعينا الا بعد ان تقدمنا فى المسير فى نقب وعث ، على ظهور تلك الجياد التى يدل مشيها على عجزها وهزالها . وتسنى لنا ان نسعد بغياب تلكلخ عن انظارنا ؛ وشرعنا نعلم بالتدريج :

— الى اين نذهب ، ومن اين طريقنا ، وكم المسافة التى يجب علينا قطعها ؟

يجب علينا قطع مسافة (٤٠) كيلومتراً حتى نصل الى (برمانه) مركز قضاء صافيتا ، اما طريقنا فكان متجهاً نحو انحاء « حذور » . وحسبنا الآن هذا المقدار من المعلومات .

غادرنا عن يميننا قرية « باروحه » ووصلنا بمدة وجيزة الى وادى « الحجر الابيض » وكانت على يسارنا قرية « الحجر الابيض » . ثم بعد ان اتبعنا الوادى الذى يتطاول الى الغرب ، انعطف طريقنا الى الشمال الغربى . وكنا نمر على طريق حفت به اشجار الدفلى بازهارها الحمراء . وبعد برهة وصلنا الى واد آخر ، وادى « عين التينة » . ولديه جدول صغير . ثم شرعنا نتسلق هضبة « عين التينة » . ولاحت عن يسارنا قرية « جوبوق » ثم قامت وراءها جبال عكار ، وجبال الضنية التى سورت الانحاء الجنوبية . وها قد وصلنا الى قرية (عين التينه) الكائنة على هام الربوة . وكانت عن يميننا جبال « زاره » و « برج زارة » . ثم مررنا بقرية « زاره » وهى عبارة عن ساحة صغيرة للبيادر ، وبضع شجرات ، واكوام من الحجارة السوداء ، والقرويين بثيابهم البالية . وكانت حقولها مزروعة بالذرة الصفراء . وبعد ان قطعنا مشجرة من التين صغيرة . دخلنا فى ساحة معطرة . وكنا نسير بين سلسلة الازهار العطرة من تلك الاشجار الصغيرة التى يسميها القرويون « شراحب » ولها زهر ازرق لطيف النشر يشبه قنو الذرة بشكله. ثم صرنا الى سهل عال ؛ وكنا نسير نحو الشمال، وتراءت لنا فى الغرب قلعة صافيتا القديمة ، وبرج صافيتا ثم عن اليمين فى الشرق قلعة « زاره » وامامها قرى « الحصرجية ومرمريتا وعين الراهب ودوار العفص » وجبالها . ووراء الحصرجية فوق ذروة الجبل قرية « شويهد ». وكل هؤلاء كانوا من اعمال حصن الاكراد . وكان لهم منظر فسيح جداً، وبعد مدة تراءت لنا قرية « نعره » وفى الجانب الغربى « صافيتا » ولاحت لنا عن بعد زرقة البحر كانها سراب اسمر فبرقت ابصارنا لمنظره وقد كنا محرومين من رؤيته منذ مدة طويلة . وبعد ان قطعنا واد طويل كانه مضيق اشرفنا على البحر وانشرحت صدورنا لمنظره اللطيف . ثم هبت نسمة بليلة من جهة البحر وجمعت من وجه الحقول المزروعة كل نشر طيب ، ونفحتنا به فانعشت ارواحنا واهدتنا حياة نشيطة فى تلك الهجيرة التموزية . وها قد انجلت امامنا الحقول الخضراء . وهذه الفسحة التى غردت اطيارها لم تكن مستوية ولكنها ليست متعبة بدرجة يشتكى منها ،

ثم بعد برهة تراآى لنا قصر من قصور الدنادشة فى (نعره) وكان منظر هذ القصر من بعيد يشبه منظر الحصن ، او برج الحصن . على اننا ما كدنا نقرب من هذه القرية الا ورأينا ذلك البرج شيئاً مجللاً بالحصائر . ودخلنا فى قرية نعرة ، ومررنا من غربها بواديها ثم اتينا « عين نعره » واجتزناها .

كنا نقطع المسافات بسيرنا ولكن المناظر المحيطة ولاسيما البعيدة كانت كانها ثابتة .

واطردت حوالينا مناظر الحقول المزروعة . وبعد برهة لاحت عن يميننا قرية (شلوح) ، ومررنا من داخل قرية « تل الحوش » وترائت لنا عن بعد قرية (طليعى) فوق ربوة فى الغرب .

والآن انعطف بنا الطريق من الشمال الغربى الى الغرب . وكنا نمر بين القرى النصيرية . وها نحن نرى البنات النصيرية تثابر على عملها فى الحقول . وبعد ان قطعنا وادي « تل الحوش » الذى امتد مقدار بضع دقائق . اخذنا نتبع الضفة اليسرى من جدول « تل الخليفة » ، ثم اجتزنا النهر بخيلنا الى حقول واسعة خضراء تسقى من ماء هذا الجدول وشرعنا نسير فيها .

وما لبثنا ان رأينا فى الجانب الغربى ربوةً ؛ وفى ناحية الجنوب الغربى منها برجاً . وهذه كانت قرية (برج العرب) التابعة الى قضاء حصن الاكراد .

*
* *

لبثنا برهة نستريح فى هذه القرية وكانت الشمس زاولت نقطة الزوال منذ مدة وكنا على وشك اتمام الانحاء الغربية من قضاء حصن الاكراد وقد ترائت لنا فى الشمال قرية « متراس » من اعمال ناحية حذور ، ثم قصبة « كفرون » مركز تلك الناحية الكائنة وراء جبل صغير ، اما فى الجنوب فكانت ترى جبال « ضنية » من بعيد بشواهقها البيضاء التى كانها صبر من قطن . وهنالك كنا داخلين فى الانحاء الجنوبية من ناحية (حذور) .

٣ — تركمان ناحية حذور

[١] — ***ناحية حذور*** — يحد هذه الناحية قضاء حصن الاكراد من الشرق والغرب والجنوب ؛ وقضاء صافيتا من الغرب والشمال ، وهى عبارة عن قطعة ارض طويلة ممدودة من الشمال الى الجنوب وهى مربوطة مباشرة بلواء طرابلس الشام وعدد سكانها يناهز خمسة الاف نسمة . ونصف هؤلاء السكان على التقريب من التركمان السنيين ومن النصيريين ، والنصف الآخر من الروم الاورتودوكس والمارونيين .

وتتالف هذه الناحية من ثلاثين قرية ومركز الناحيةهى الآن قصبة « كفرون » . وهذه القصبة عبارة عن ثلاثماية مسكن وعدد سكانها (١٢٠٠) نسمة من المارونيين والروم الاورتودوكس . وهى اعظم قرية فى الناحية . اما باقى القرى فمنها ما يتالف من بضعة بيوت ومنها ما يربو عدد منازلها على الستين والسبعين . وعليه تتراوح نفوس تلك القرى بين (١٥) و(٣٥٠) نسمة . ومن هذه القرى ما يسكنها الروميون فقط مثل قرى « نبع الكركر الزعفرانة ، خربة الجب ، تين السبيل » ومنها ما يسكنها المارونيون مثل قرى « وادى

المجاوى ، تقبو ، حابه ، قلعة النمر ، مجيدل ، عين عفان » وبعض هذه القرى مسكون بالنصيريين فقط مثل « الدوير والجديده ودره كيش » .

اما باقى القرى ما عدا قرى (بساتين ، بيت رسلان (*) متراس ، عين دابشى) اللاتى يسكنها التركمان . فهى مقطونة بالسكان المختلفة بصورة مختلطة .

اما الحيات العمومية والاجتماعية فى النصيريين والروم والمارونيين فهى على عين الحالة فى الاقوام المجاورة لها ولذلك لا نرى لزوماً لتكرار البحث وعليه ننقل الكلام الى تركمان حذور :

[٢] — ***تركمان حذور*** — ان التركمان فى حذور يشغلون فى هذه الناحية اربع قرى فقط — كما ذكرنا سابقاً — وهى قرية بساتين وفيها (١٠٠) نسمة ثم قرية بيت رسلان وفيها (٢٥٠) وقرية متراس وفيها (٢٥٠) وقرية (عين دابش) وفيها (٣٠٠) نسمة من التركمان . وعليه يكون مجموع تركمان حذور عبارة عن (٩٠٠) نسمة يزعم هؤلاء التركمان انهم جاؤا الى هذه البقعة منذ اربعماية سنة من انحاء اطنه ويزعم بعضهم ان زمان مجيئهم كان اقدم من هذا التاريخ وانهم من عشيرة قاى خان . ولكن ليس لديهم من برهان تاريخى يؤيد الدعى الاول ولا الثانى .

ان تركمان حذور هم من قبيلة واحدة ولكنهم الآن عشيرتان . الاولى عشيرة « المتراس وعين دابش » ورئيسهم امير المتراس . والثانية عشيرة البساتين وبيت رسلان ، وهؤلاء رئيسهم حاكم تركمان البساتين .

وقد كانت ناحية حذور جميعها تابعة لهاتين العشيرتين من قبل . ولهذا كانت بعض القرى مربوطة بمتراس ، والاخرى ببساتين . ويروى ان قد كان مركزهم العمومى فى « خربة حذور » . وانهم كانوا يسكنون حذور الشرقية اى الجرد فى الصيف ، وحذور الغربية فى الشتاء .

يتراوح عدد اعضاء اسرة الرئيس فى متراس بين (٢٠——٣٠) نسمة اما اسرة الرئيس الذى فى بساتين فانها قليلة الاعضاء . وليس لاحدهما اسم عائلهوى ما عدا اسمهما الذاتى .

وكان لهؤلاء الرؤساء سيطرة وسلطة قوية فى تلك الانحاء قبل تشكيل ادارة الناحية . ثم سقطت درجة تلك السلطة والقدرة بعد تشكيلها ، ولكن غنائهم ، وثرائهم لم يزل على ما هو . وان لرئيس متراس دخلاً سنوياً يناهز الف ليرة . ورئيس بساتين ايضاً له مبلغ وافر من الدخل السنوى .

(*) يوجد فى هذه القرية مقدار من الروم الاورتودوكس ايضاً .

وهؤلاء الرؤساء يكادون ان يكونوا بلا نصيب من التحصيل وحياتهم الاجتماعية ليست على مايرغب . ومنازلهم عبارة عن طابقين مستورة سطوحها بالقرميد ، وهي صغيرة الحجم. اما اذا قسنا حياتهم بحياة غيرهم من التركمان الذين يسكنون بين تلك الردم الحجرية لاحرم تظهر علائم الرياسة عليهم . ولباسهم عبارة عن رداء « قنباز » طويل عليه جبة « سا كو » طويلة. اما عوامهم فلا فرق بين لباسهم ولباس بقية القرويين . ثم ان عيشة التركمان هي انظف واحسن من عيشة النصيريين ، ولكن ليست احسن من عيشة النصارى . واكثرهم يشتغل بالزراعة ، وبعضهم ينسج السجاد كغيرهم من التركمان وهم ابطال شجعان ، وبهذه المتانة تسنى لهم ان يخلصوا من تسلط النصيريين عليهم . وقبل اعلان النفير العام ، كان بعضهم يتسلط على من في جوارهم من القرى ، ولذلك ترون تلك القرى ، والقرويين يرهبون جانبهم .

ان جميع التركمان من السنيين ، وهم متمسكون بدينهم الى درجة التعصب . ونساؤهم يسترن رؤسهن بقناع ابيض ، ولا يظهرن شعرهن .

اما لغتهم فقد امتزجت بالعربية العجمي ، وكان لها شكل غريب . وهم متبعون محيطهم في اذواقهم ومعيشتهم . وعليه فان اوصاف المحيط تتراآى فيهم اكثر من خصائصهم النسلية . ثم انهم مشوا مع المحيط ايضاً بعاداتهم وبحياتهم العمومية .

٤ — نحو برمانه

بعد ان فارقنا ديار حذور ببرهة وجيزة اجتزنا (نهر العروس) ودخلنا حدود قضاء « صافيتا » . ثم هبطنا في منحدر وصعدنا في مرتقى ، ثم هبطنا في منحدر آخر ووصلنا الى وادى « عين الجرد » وبعد مرتقى طفيف تسلقنا في الربوة الى قرية « عين الجرد » ، ثم بعد « وادى سرايا » المزروع بالذرة ترائت عن يسارنا قرية « احمد ونوس » .

ولم يلبث طريقنا ان انقلب الى وعث محض ، وبعد ان غادرنا عن يسارنا قرية « ام الحوش » وصلنا الى وادى « ساسينه » . ثم اجتزنا مشجرة الزيتون وتركنا قرية « ساسينا » على يميننا ، ولاحت لنا قرية « بيادر » على رأس الهضبة . وقلعة « صافيتا » لم تزل امامنا على بعد.

كنا نتقدم منذ مدة في الوادى ، قاصدين « نهر الابرش » حتى وصلنا اليه . وهذه الفسحة كانت خضراء على امتداد النهر . وبعد ان مررنا بين اشجار الزيتون والتين والتوت ، شرعنا ثانياً في تسلق الهضاب والربى ، وكانت فسحة النظر تتسع امامنا كلما ازددنا صعودا في تلك المرتفعات . ثم بعد ان اجتزنا ذروةً عاليةً ، انجلت قلعة صافيتا امامنا بصورة واضحة . وما لبثنا ان شاهدنا الهضبتين اللتين بنيت على سفحيهما قصبة صافيتا

مرتكمةً بيوتها فوق بعضها ومسورة ببرج صافيتا (*)

وكان هاتان الهضبتان يظهران عن بعد على هيئة سنامين . وقد تحرى لهما رفيقي على مثل مناسب وشبههما بسلحفتين رابضتين على هاتين السنامين . وكنا كلما قربنا من هذه القصبة نراها اشبه بصفد من البلاد السورية . وحتى ان اسم « صفد » منحوت من « صافت » (**)

ويحتمل ان تكون كلة صفد وصافيتا لفظين عبرانيين معناهما البلدة المحصنة وعلى كل حال فان قصبة صافيتا لها منظر فسيح كقصبة صفد . ولاسيما ناحيتها الشرقية فانها تطل على فضاء فسيح ، وتشرف على الساحة التى ما زلنا منذ ثماني ساعات ندأب اقطعها برباها ووديانها وقراها وسهولها . ثم ترمى من جهة الغرب الى البحر ، وتطل من الشمال الغربي على انحاء دره كيش ، ومن الجنوب على اصقاع عكار .

ان الجانب الشرقى من صافيتا محاط بقوس ، والانحاء المنحطة التى تكون في منتصف القوس هي مغروسة باشجار الزيتون

كنا نتقرب من البرج الكائن في مركز صافيتا ، ونمر بين اشجار الزيتون في داخل القصبة ، ونصعد في هضاب ترابية . ثم دخلنا لنستريح في بناء قريب من القلعة يطل على جميع الانحاء . واخذنا ههنا نمتع النظر في تلك المناظر اللطيفة الفسيحة مدة وافرة . ونجهد لننس وعثاء السفر .

*
* *

خرجنا من مدخل برج صافيتا الواسع ، واخذنا نسير بين اشجار الزيتون وكنا نشعر بما حل بنا من التعب المبرح . وان هذه السفرة التى ما زلنا منذ الصباح ونحن فيها كانت تودى بقوانا كلما تمادى زمنها حتى كادت تكون غير محمولة ، وها نحن نهبط في منحدر اضطررنا فيه لان نستسلم الى جيادنا التى فقدت قواها . وكانت تتراآى عن يميننا على البعد قرية « كرم مغازى » و « وبيت طبون » . وكنا نهبط في تلك المهواة المتجهة الى الشمال ، والتفتنا الى ورائنا ، فادهشنا ذلك السبيل فاغضينا عنه واخذنا نتابع السير ، وقد ظهرت قريباً منا قرية « الخويخة » ثم عن يسارنا قرية « بيت الموعه » و « جروياد » .

وبعد ان اجتزنا عدة ربى اخذنا نتجه نحو قصبة « برمانه *Broummana* » التى لاحت لنا عن بعد فوق ذروة الربوة . ثم سرنا برهة في واد ووصلنا الى فسحة سهلة . وكانت هذه الفسحة محاطة بهضاب بعيدة على شكل قوس . وهنالك تتابعت على انظارنا من الغرب قرى « رويسة المندرة ، بيت الوحى ، جرويه ، بجمعاش ، بيت حمود زهيره » وعن اليمين

(*) الذى سماه الصليبيون Castel Blanc

(**) (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) ص ٣٥٣

[كفر ريحه ، الصومعة ، الجديدة] وغيرها من القرى .

ثم انقلب سبيلنا الى واد واسع طويل ، يسمى « عين المشمسه » . وكان هـذا الوادى يمتد بمنعطفاته حتى يصل الى قصبة « برمانه » . والآن حل العشى ، وترطب الهواء . وكان هذا الوادى على غاية من بداعة المنظر بما على حفافـه من اشجار الزيتون ، والسنديان ، وبازهاره وكلاءه واشواكه ، وبخضرة ذرته ، وبجميع خضرته . وها قد خيم عليه ظل العشى واقتم لونه ، بيد ان الربى عن يميننا لم تزل مذهبة بنور الشمس.

هذه هضبة « ظهر الشويهد » امامنا ، وكنا نتسلق فيها ونرى عن يميننا من بعيد فوق ربوة اخرى مزار « النبى زاهر » الذى يجله النصيريون . وها نحن نجتاز ربى جبال النصيرية المتسلسلة . وقد تهيئت الشمس لتجمع نورها الذهبى من آفاقنا المرئية . وهذا واد آخر قائم امامنا وورائه هضبة ، ثم فوق هذه الهضبة قصبة « برمانه » كامنة بين ظل الخضرة تتشرب سمرة العشى على هدو تحت لمعان كواكب المساء . ثم انحدرنا فى وادى « عين التفاحة » وبعد ان سرنا مدة بين اشجار الزيتون والتوت ، اخذنا نتسلق الجانب الآخر ، ثم اجتزنا قرية « القصيبة » وهنالك وصلنا الى قصبة « برمانه » بعد ما افلت الشمس .

— ١٠ —

صافيتا

١ — موقعها وحدودها

ان قضاء صافيتا الكائن فى الجانب الشمالى من مركز قضاء طرابلس الشام يحاط شمالاً بلواء اللاذقية ، وشرقاً بقضاء حصن الأكراد ، وجنوباً بقضاء عكار ، وغرباً بالبحر الابيض.

٢ — مساحته وعدد سكانه واحواله الادارية

تقرب مساحة القضاء من «٦٦٧٢٠٨» دونمات ، منها «٤٠٤٧٠٨» من الاراضى الاميرية و(٢٦٠٠٠٠) من الاراضى المملوكة ، و(٢٥٠٠) من الاراضى المتروكة . اما احراجها فيبلغ اتساعها مقدار (٥٠٠٠) دونم . اما عدد سكان القضاء فكان فى سنة ١٣٣٢ على ما يأتى :

	ذكور	اناث
المسلمون	١٣٥٩١	١٩١٥٦
الروم الاورتودوكس	٢١٨١	٢٤٢١
« الكاثوليك	٧٦	٢٦
المارونيون	٩٢	١٤٣
پروتستانت	٦٣	١٦٤
يكون	١٦٠٠٣	٢١٩١٠
	٣٧٩١٣	

ان جميع المسلمين فى قضاء صافيتا ينتمون الى مذهب النصيرية. وكان مقدار الوفيات فى هذا القضاء سنة ١٣٢٩ و ١٣٣٠ و ١٣٣١ ، [١٤٤ و ٨٧ و ١٦٦] نسمة ؛ اما الولادات فكان مقدارها فى عين السنين (٢٠٦ و ١٠٢ و ٢٢٢) نسمة . وقد تفشت فى السنين الاخيرة فكرة المهاجرة الى اميركا بين سكان هذا القضاء ، ويدعى بوثوق انه اضاع من سكانه ما يناهز (١٠ — ١٥) الفاً الى الآن . وان نصف هؤلاء المهاجرين هم من النصيريين والنصف الآخر من المسيحيين . فالنصيريون يقصدون اميركا الجنوبية والمسيحيون يذهبون الى القسم الشمالى منها ، ويرسلون فى كل سنة مقدار (١٥٠٠٠٠٠) ليرة الى عائلاتهم . وان فكرة المهاجرة لم تسر الى النساء بعد .

لم يشرع بتشكيل النواحى بعد فى هذا القضاء ، اما عدد القرى فيه فيبلغ الى ٥٣٦ قرية ولكن لا ننسى ان اكثرها خرباً تضم بضعة بيوت لاقيمة لها . ونرى ان من لواجب الذى لا بد منه تشكيل النواحى فى هذا القضاء الواسع ، والذى عرف سكانه بخشونة الطبع وصعوبة المراس ، ونجد ان القسم الجنوبى والشمالى والغربى ، والشمال الشرقى فيه كلهم كائن فى حالة ناحية طبيعية . ويمكن اتخاذ قرى ام الحوش ومجدلون والبستان ودوير وسلان مراكزاً لهاتيك النواحى . ثم ان ربط ناحية حذور بمركز قضاء طرابلس لا خير فيه . فاذا قسمت هذه الناحية بين قضائى حصن الاكراد وصافيتا لا جرم يكون انفع لسكانها وانسب .

لا اثر للعمران فى هذا القضاء ، ومن العبث ان نبحث عن العمران فى هكذا قضاء محروم من نور العلم ومن جميع وسائط النقل ، ولو فتح طريق من موقف « عكارى » الكائن على سكة طرابلس — حمص الحديدية الى برمانه مركز القضاء ، ثم طريق آخر من طرطوس الى قرية « مشتى الروم » الكائنة فى اقصى الشرق ، بشرط ان يمر بمركز القضاء ايضاً لا جرم يكون وسيلة لحياة هذا القضاء الاقتصادية

اما معارف القضاء ؛ فلا يعثر فيه على مؤسسة علمية ترتاح لها النفس . ولا يوجد بين الذكور من سكان هذا القضاء الا اثنان فى المأة ممن يقرأون ويكتبون، ولكن بشق الانفس ولم يباشر بتعليم الاناث الا قبل سنتين ، وقد فتحت لهن مدرسة فى مركز القضاء عبارة عن صف واحد وبوشر فيها بالتدريس — بحول الله — . وعدد الطلاب فى مدرسة الذكور مقدار (٤٥) ، وفى مدرسة الاناث (٢٥) . وتوجد مدرسة ابتدائية فى قرية طايبى ، واخرى فى قرية الصفصافة والمعلم فى الاولى لا باس به ، ولكن معلم الثانية يؤثر عنه انه غير اهل لها ، وليس بنشيط .

٣ — الاحوال العمومية فى القضاء

ان هذا القضاء يشغل القسم الجنوبى من جبال النصيرية ، ويتألف من اراض مملؤة بالعوارض . ونهر الابرش يقطع هذا القضاء على امتداده ويصب فى بحر الابيض ،ويوجد غير هذا الجدول هناك نهر العروس ونهر قيس وهما دائمان فى الجريان ،ثم جدول ابو يابس وابو ذكرى والغمقه وهم يفيضون ويغيضون .

ونهر العروس ينبع من قرب حصن الاكراد ويصب فى النهر الكبير . وينبع جدول الابرش ، من قرية كفرون التابعة الى ناحية حذور . اما جدول قيس فينبع من قرية بريخية التابعة الى قضاء صافيتا وهذا الجدول يصب فى البحر فى المحل المدعو بحصان البحر من اعمال قضاء المرقب .

ان اقليم هذا القضاء معتدل ، ومطرد بوجه عمومى . وهواؤه فى المواقع المرتفعة نقى ، اما فى السهول المحاذية الى ساحل البحر فهو مرزغى بسبب كثرة المستنقعات ويمتد فيه موسم الربيع من نصف شباط الى نصف مايس ، ويدوم صيفه الى اواخر تشرين الاول وحينئذٍ يبرد الطقس وتبتدأ الامطار ، والامطار التى تسوقها الارياح الجنوبية والجنوبية الغربية لا تدوم اكثر من يوم . اما التى تسوقها ارياح الشمال اوالشرق تدوم بضعة ايام . وتهب فى كانون الاول العواصف ، وتكثر فيه الانواء ، وينزل الثلج فيه على المواقع المرتفعة .واعظم درجة حرارته فى شهر تموز (٢٨) درجة واصغرها فى شهرى كوانين (— ٤) درجات . اما حرارته على الحساب الوسطى فهى لا تربو على (٢١) درجة . والارياح التى تهب منذ ابتداء نيسان الى اواخر تشرين الاول تكون غربية على الاكثر . والارياح الباردة التى تهب من الشرق تبتدأ من اواخر تشرين الاول وتدوم الى اواخر مارت .

٤ — الغلول الزراعية

تزرع فى هذا القضاء المحصولات الصيفية من (٢٠) ايلول الى (٢٠) كانون الاول والشتوية من (١٠) شباط الى (٢٠) نيسان .وموسم الحصاد يكون من ابتداء مايس الى اواخر حزيران ، ثم من (٢٠) اغستوس الى منتصف ايلول . ويعقد القرويون فى كل سنة سوقاً فى دير مار الياس يدوم من (١٠) تموز الى (٢٠) منه . ويتعاطون فيه البيع والشراء ، ويحصلون منه على حاجياتهم .

ان محصولات القضاء بالدرجة الوسطى هى على ما ياتى :

جنس الغلال	مقدار الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيله
القمح	١٠٠،٠٠٠	٧٠٠،٠٠٠
الشعير	٥٠،٠٠٠	٣٥٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
الحمص	٥٠٠	٣،٠٠٠
الفول	٥٠٠	٤،٠٠٠
السمسم	١،٠٠٠	٢،٠٠٠
العدس	٥٠٠	١،٥٠٠
الجلبان	١،٥٠٠	٣،٥٠٠
مشجرات التوت	٦٧٠،٠٠٠	
اشجار الزيتون	٥٠،٠٠٠ عدد	٢٥٠،٠٠٠ اوقه
علب بذر الحرير	٥،٠٠٠ عدد	١٥،٠٠٠ كيلو شرانق

ويوجد فى قرية مشتى مصنع حرير يخص حبيب بك فرعون احد اغنياء بيروت .

٥ — الاثار القديمه

يوجد فى قضاء صافيتا قلعة « برج صافيتا » وفى الجهة الشرقية (حصن سليمان) من آثار الرومانيين . و(خرب آمربت) الكائنة قبالة جزيرة ارواد ،وقد تكلمنا عنها اثناء البحث عن ناحية طرطوس . ويوجد فيه ايضاً ثلاثة بروج قديمة ، وهم « برج النخلة ، وبرج الميعاد ، وبرج العرب ».

فهم «برج صافيتا» كان يسمى فى زمن الفرسان المعبديين باسم Castel-Blanc .

وهو مبنى على فرع من فروع جبال النصيرية. ولم يعرف بانيه بعد. ويذكر المؤرخ ابو الفداء ان نور الدين فتح هذا الحصن مع قلعة اريمه *Areymeh* الكائنة بين خرب امريت وطرابلس الشام وذلك سنة ١١٦٧ ميلادية. ولكن لم يلبث النصارى ان استردوه، واقطعوه الى الفرسان المعبديين. ولم تدخل هذه القلعة فى ايدى المسلمين الا فى زمن الملك الظاهر بيبرس.

واليوم فقد بنيت المنازل حول هذه القلعة وحتى فى داخل سورها. وهذه الربوة يبلغ ارتفاعها من الشمال والجنوب الى (٣٢٠) متراً. اما فى الجهة الشرقية والغربية فهى تتصل بجبال النصيرية بهضبات صغيرة قليلة الارتفاع.

ويحيط بهذه القلعة سوران؛ الاول بشكل ذى كثير الاضلاع غير منتظم، وهو مجهز بعدة بروج. وتوجد فى اقصى الشرق والغرب من هذا البناء ربوتان اشرنا اليهما برقم (٨) فى خريطتنا.

ومن المظنون ان قد بنيت عليهما البروج الصغيرة، وترى امام الباب المشار اليه برقم (٢) خربة تعرف عند الاهلين بقصر بنت الملك، وطراز بنائها يماثل بناء قلعة طرطوس مماثلة تامة. ويحتمل ان يكون هذا البناء اضيف الى الحصن من بعد. لانه لو كان من اصل الحصن لما بنى البرج المشار اليه برقم (١) لاجل الدفاع عن الباب المرقم برقم (٢). وكان موجوداً بين السورين مخازن مقبوة، واسطبلات وبما ان القصبة اليوم مبنية ههنا يعسر الآن التحرى على هذه الآثار وتحقيقها.

اما الباب فى السور الثانى المرقم برقم (٣) هو بمثابة مدخل عمومى الى داخل الصحن والقسم الجنوبى من هذا السور، ثم برجه الذى اشير اليه برقم (٦) لا يزال قائماً على حاله الاصلى. والاحرى بالتدقيق فى هذا الحصن هى كنيسته المشار اليها فى الخريطة برقم (٩) والتى كانت بمثابة برج له ايضاً. وهى مبنية فوق بئر محفور فى الصخر، وتنسب الى «سن ميشهل» من الاعزة وهى اليوم معبد الروم الاورتودوكس وهى بشكل متوازى الاضلاع وطولها (٣١) متراً، وعرضها (١٨) ومحفور على بابها رسم الصليب كما هو الحال فى قلعة طرطوس. وهذه القلعة باقسامها وحالتها الداخلية تشبه قلعة حصن الاكراد او حصن مرقب.

اما طول المعبد الذى يتألف منه هذا البناء هو (٢٥) متراً وعرضه (١٠٫٥)وتوجد غرفتان فى جانبى محرابه يدخلهما النور من نوافذ صغيرة وضيقة. اما منافذ البناء فيظهر من نمط انشائها انها اعدت لتصلح للمدافعة ايضا اذا اوجب الامر. وعلو سقفه يبلغ ١٧٫٣٠ متراً.

يصعد من سلم بنى داخل جدار الحصن الجنوبى، الى الطابق الثانى، وطول هذا

القسم الذى هو عبارة عن ردهة فسيحة (٢٦) متراً وعرضه (١٦). ثم يصعد من السلم القائم فى الزاوية الجنوبية الشرقية الى اعلى القلعة. ويمكن للراصد اذا وقف فى هذه النقطة ان يتعاطى الاشارات مع قلعة حصن الاكراد واريمة او مع برج زارا، او برج العرب الكائنات بمسافة ساعتين عن برج صافيتا.

ثم توجد فى هذا القضاء خرب حصن سليمان على ربوة مستورة بالاشجار فى جانب جبل النبى صالح الذى يبلغ ارتفاعه (١١٤٠)متراً. وطول هذا الاثر التاريخى الذى سماه الاقدمون (بائوتوسهسه *Baëtocéce*)(١٤٤)متراً وعرضه(٩٠) متراً وهو بشكل مستطيل. ويزعم موسيو دى *M. Bey* الذى فحص الآثار القديمة السورية فحصاً دقيقاً ان هذا من احسن الاسوار المقدسة الموجودة فى بلادنا. وهو يشبه بشكله الحاضر الى رسم الحرم الشريف الموجود فى بلدة القدس. وهذا السور مبنى بحجارة طول كل واحدة منها (٦—٩) امتار وعرضها (٢—٣) وثخنها متر واحد. ومحفورة صورة اسد فى كل زاوية من الزوايا الموجودة فى الجهة الشمالية. والزاوية الكائنة فى الشمال الغربى مزينة بشجرة من السرو محفورة فى حجر كبير. ولهذا السور اربعة ابواب، وتوجد فوق الباب الكبير المطل على الناحية الشمالية كتابات مسهبة باللاتينية والرومية. وفى الكتابة اللاتينية التى يظن انها كتبت سنة (٢٥٣—٢٥٩) ميلادية مذكورة اسماء بعض القياصرة الرومانيين كسهزار وبوبليوس ليسينيوس ووالهريوس. اما الكتابات المحفورة فوق المدخل العام، او فوق الابواب القديمة فهى مزينة بصورة عقاب يكتنفه صورتان مخيلتان *Génies* وتوجد بين مخالب هذا العقاب عصاً ملتفة عليها حية، وهى اشارة لعطارد آلهة التجارة. تشعر معنى الصلح. ويجب ان لا يكون تاريخ هذه الكتابات قبل القرن الاول للميلاد بمدة وافرة. وفى منتصف المستطيل المحاط بالسور يوجد معبد ناقص، مبنى على الطراز الايونى، ومذبح ايضاً ملاصق للجبهة الشمالية. والآن لم يبق من البناء الاول الا الجدران، وبضعة اعمدة

ثم يوجد فى الشمال الغربى من السور بعض بنايات قديمة تسمى بالدير. ويمكن ان تكون هذه البنايات بمثابة مدرسة للرؤساء الروحيين الذين كانوا يقدسون معبود بائهتوسهس. وهى تتألف من معبد صغير، ومن بقية بنيان واسع.

٦ — حالة برمانه ومناظر ضواحيها

ان قصبة (برمانه *Broummena* التى هى مركز قضاء صافيتا مبنية فى الجانب الغربى، من ربوة (تليجه) التى يبلغ ارتفاعها مقدار (٨٥٠) متراً، قريبا من رأس تلك الربوة. وهى مستورة بشجر الزنزلخت والتوت والزيتون والجوز، ولذلك فان لها منظر

ناضر . وبيوت هذه القصبة التى تربو بعددها على (٢٥٠) بيتاً مبنية بحجر الكلس الابيض وسطوحها مطلية بالتراب الابيض ايضاً ، وهى منتثرة بهذا اللون الناصع فى انحاء تلك الربوة بالطف ما يكون من نضرة المنظر . وقرية « بيت تلیجه » الكائنة فى الجهة الشرقية من الربوة قريباً من القصبة هى غير منظورة لانها كامنة فى سفح الربوة ، وبما ان جميع الجهات فى تلك القصبة ما غدا الناحية الشرقية مشرفة على فضاء فسيح ، يكون منظرها واسعاً جداً .

ثم ان الجهات الثلاث لقصبة برمانه واسعة ومملوءة بانواع الالوان . ولهذا هى غنية بالمنظر الطبيعى . ويوجد فى الناحية الغربية الشمالية منها «وادى الفزرة» ، ثم وراءه هضبة « دره كيش » الصغيرة ، وفوق ذروتها الخضراء قرية « دره كيش *Drekich* » وهى عبارة عن بضعة عشرة بيتاً . وهذه القرية تعتبر من الاقسام الملحقة بقصبة برمانه ولهذا يكون وادى الفزرة مفرقاً هذه القصبة التى قامت على رأس هضبتين الى قسمين .

ومنظر هذه القصبة من الناحية الجنوبية لطيف ايضاً . وهى تطل على (برج صافيتا) الملتحف بالالوان الزاهية ، ثم على قرية (صافيتا) وعلى الربى القائمة فى تلك الفسحة مثل ربوة (عين الجيش) القريبة ، ومن ورائها ربوة « فتاح النصار » وتشاهد على رأسيهما قرية « الشويهدات » وقرية « فتاح النصار » ، ثم من وراء هاتيك الربى الخضراء تلوح جبال لبنان كالظل البعيد .

والجانب الغربى من برمانه لطيف ايضاً . وتشاهد من هناك بعد الوادى القريب منها ربوة « الولى زاهر » التى يبلغ ارتفاعها مقدار الف متر كانها صبرة من خضار ، ويرى فوق ذروتها مرقد « الولى زاهر » الذى يجله النصيريون . ثم يلوح من ورائها البحر ويرسم بزرقته على صفحات الافق خطوطاً ظلية . ثم توجد قرية « النخلة » عن يمين ربوة الولى زاهر فى الجانب الغرب الشمالى من برمانا ، و« قلعة النخلة » وكثير من القرى .

وفى الجهة الشرقية الجنوبية منها توجد قرى « بيت شباط ، وفسقين وجباب وبيت المرج » يتسلسلن الى اقصى المسافات ، ثم واد يتغلغل فى البعد بين هاتيك القرى وهذا يطلعنا على ما للقصبة من المنظر اللطيف الفسيح .

٧ — خطوط برمانه الداخلية

ان جميع البيوت فى برمانه قائمة على ذروة « تايجة » الخضراء ، كأنها اكواخ بيضاء مبنية فى رياض . ولا يعثر فى هذه القصبة على بيوت قيرميدية . وجميع سطوحها مرصوصة بالحجارة ومن فوقها التراب . ولهذا كانت القصبة عبارة عن لونين ، الاخضر من الاشجار

والابيض من البيوت . وامتزاج هذين اللونين سائد فى هذه القصبة لدرجة لا يرى فيها بيت الا ومحاط بالرياض .

ومع هذا فلا نظن ان تلك البيوت حصلت على شئ من الصنعة والترتيب ، بل هى عبارة عن ركام حجرية يشغل كل واحد منها ساحة لا تجاوز بضعة عشر متراً مربعاً لاسيما البيوت التى تكون مجتمعة ومتصلة ببعضها مثنى وثلاث ، فهى انموذج للسقامة والعقامة التى تجلت فى منازل هذه القصبة . ومن العبث ان نتحرى خطة منظمة فى وضع هذه القصبة لان بيوتها جائت كالمحذوفة حذفاً فوق تلك الهضبة . ويوجد فى مركز هذه القصبة ميدان صغير محاط ببضعة بنايات كدار الحكومة والجامع والمدرسة وهى تلفت النظر باتساعها النسبى . وهذه الابنية مطلية الداخل ، مع ان اكثر بيوت القصبة لا طلاء على جدرانها . ولا نرى لزوماً للاسهاب فى تعريف سقامة تلك البيوت التى اكثرها خال عن المنافذ واذ فكرنا بالجذوع التى سقفت بها ، وبجدرانها التى لا تتجاوز مترين او ثلاثة امتار ثم بارضها المفروشة بالتراب وبساحاتها المستورة بالسرقين نعلم نسبة سقامة الداخل فى هذه القصبة التى كادت ان تكون جنة بشكلها الخارجى .

ولا ندرى كيف يمكن اطلاق اسم مساكن على تلك الاكواخ الوسخة التى لا تصلح لان تكون مأوى للدجاج . ويوجد فى متوسط القصبة بضعة اكواخ لا تتسع ابوابها عن متر واحد ويزعمون انها حوانيت .

وقصارى القول ان داخل برمانه فى حالة يرثى لها . على انه يجب ان تكون لها ميزة عن بقية القرى لانها مركز القضاء . وان اكبر قصبة فى هذا القضاء هى « برج صافيتا » ولكن اكثر بيوتها لا تفرق شيئاً عن تلك الاكوام الحجرية الموجودة فى برمانه ثم اذا فكرنا فى القرى الاخرى التى لا يزيد عدد بيوتها عن عشرة او عشرين تتضح لنا حالة هذه الثلة البشرية التى تقطن هذا القضاء بعيشها ومساكنها .

وطرق هذه القصبة تنطبق على حالة ابنيتها . وهى عبارة عن خطوط تنساب بين البساتين على غاية من الضيق ، او انقاب معوجة حفرت فى قلب الصخور . وقد يكون منها ما هو متوازى الحفاف واكثرها لا شكل ولا استقامة .

واذا اردنا ان نطلع على هذه القصبة من الداخل فلا نحتاج الا لنسلك احد هذه الطرق ونرمى بنظرنا الى داخل هاتيك المساكن ، وهذه النظرة البسيطة تكشف لنا الغطاء عن قيمة الحياة التى يعيشها البرمانيون وحقيقتها .

ورغماً عن خلو هذه القصبة من الانتظام العمرانى ، لم تبخل عليها الطبيعة بشئ من النضارة واللطافة . ثم يوجد داخل القصبة منبعان كانهما يبعثان مذاب الالماس لا ماء ، لاسيما هواؤها فهو لا يقل جيادة ولطافة عن مائها الذى كانه مادة الحياة . وقصارى القول لولا

ان لبرمانة تلك المزايا الطبيعية لكانت كسائر اخواتها لا تستحق ان يذكر اسمها فى خريطة الولاية . ولكن ماذا على سكانها لو عرفوا طريق التنعم من هذه النعم الطبيعية ، ولم يتركوا اوطانهم على هذه الدرجة من الانحطاط والخراب ، وتخلصوا من هذه الحالة التى تحمر لها الوجوه . . . نعم ماذا عليهم ؟

٨ — الاحوال العمومية فى برمانه

ان مركز قضاء صافيتا هو قرية برمانه الكائنة فى ٣٤,٤٨ درجة من العرض الشمالى و٣٣,٤٧ من الطول الشرقى ، والبعيدة عن طرابلس الشام مسافة (١٢) ساعة . وعدد سكان هذه القرية التى ترتفع عن البحر مقدار (٣٨٠) متراً (١٥٩٦) نسمة ذكوراً واناثاً . وكانت اللدات فيها سنة ٣٣٢ (١١) نسمة والوفيات (١٠٥) من النسمات . وتوجد فيها دائرة للبلدية دخلها (٤٥١٠) غروش فى السنة وخرجها يقرب من هذا المقدار .

ثم ان قصبة « برج صافيتا » تمتاز فى هذا القضاء عن سائر القرى المحرومة من الرقى والعمران ، بمبانيها التى يمكن اعتبارها منتظمة بالنسبة لهاتيك الانحاء ، وبحسن بزة اهليها ونظافتهم . وعدد سكانها يقرب من (٢٥٠٠) نسمة ذكورا واناثا . وهذه الميزة فى تلك القصبة حدت ببعضهم لان يروا لزوم نقل مركز الحكومة اليها . ويقول مخالفوهم اذا كان المركز فى دريكيش التى هى اقرب الى قرى النصيرية يكون انسب لاظهار سطوة الحكومة وسيطرتها . وتأمين الراحة العامة والامنية لا يسوغ انفكاك الحكومة من تلك القرية الصغيرة .

٩ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحياة الاجتماعية فى قضاء صافيتا** — بينا سابقاً ان قصبة برمانا التى هى مركز القضاء تحتوى على اكثر من الف وخمسمائة نسمة من السكان وفيهم الطبقات الاجتماعية والعشائر المختلفة ، ولكن بما ان هذه القصبة جزؤ من كلية القضاء لا يمكن ان تكون لها اوصاف تشذ عن اوصاف كلها ، فافرادها بالبحث فى الاحوال الاجتماعية لا جرم يوجب التكرر . ولهذا فاننا نصرف النظر عن تدقيقها لوحدها وننقل الكلام الى البحث عن احوال القضاء كله :

يمكننا ان نقسم السكان الموجودة فى هذا القضاء الذى تكاثفت فيه الجبال ، الى زمرتين اجتماعيتين . النصيريين ، والنصارى . اما السنيون ، والدروز واليهود ، فلا يعثر فيه على احد منهم .

ان النصيريين فى هذا القضاء يشغلون بضع مآة من القرى ، والسواد الاعظم فيه يتكون منهم — كما يتضح من جدول السكان وهم ينقسمون الى عشائر متعددة نرى من الواجب ان نبين اسماءها . وهذه العشائر لا تعيش تحت الخيام فى حالة البداوة ، وعليه يكون هذا الانقسام بمثابة تفريق العائلات الى صنوف ، او زمر . وهذه التقسيمات هى على ما يأتى :

اسماء العشائر	عدد النسمات
الحدادون	١٠,٠٠٠
الخياطون	١٠,٠٠٠
المتاورة	٣,٠٠٠
النواصره	٣,٠٠٠
الرسالنة	٢,٠٠٠
الشمسيون	٣,٠٠٠
يكون	٣١,٠٠٠

يتضح لنا من هذا الجدول ان النصيريين الذين بلغ عددهم (٣١,٠٠٠) من النسمات ينقسمون الى ستة اقسام . وعشيرتا الحدادين والخياطين يشغلان ثلث هذا العدد وهما يزعمان انهما اتيا هذه الديار من انحاء حلب . اما العشائر الاخرى فهم يزعمون بانهم هاجروا الى هذه البلاد من قضاء العمرانية التابع للواء « حما » . ولكن لم نعثر على وثائق تاريخية تؤيد مدعا هاتين الزمرتين ، او على الاقل مدعى احداهما .

وهذه العشائر المختلفة وان تكن على تخالف محسوس فيما بينها من حيث المذهب — كما بينا فى القسم العمومى من كتابنا — ولكنهم يتحدون من حيث المعيشة والزى والحياة الاجتماعية ايضاً . وليس هناك شيء تفترق به عشائر النصيريين عن بعضها لا فى الزى ولا فى غيرها من الشارات المميزة .

يلبس الرجال من النصيريين سروالاً وكساءً ، وفى رؤوسهم العصائب (حطة والعقل ، او يلبسون رداءً وفوقه جبة قصيرة او طويلة . ولباس الرؤساء لا يختلف عن لباس غيرهم . ولكن يكون قماش ارديتهم من الحرير وربما لبسوا فى رؤوسهم الطرابيش ثم ان مشايخهم يكتسون اللباس العلمى المتعارف عند السنيين . على ان عماماتهم تكون قصيرة ، وكروية ، ومحدودبة . اما نساء النصيريين فهن يلبسن رداءً ضافياً كسائر نساء القرى المسلمات ، ولا يشعرن باحتياج الى الملاحف ولكن نساء المشايخ منهن لا يتجولن الا متأزرات بالمآزر . وتكون اردياتهن قصيرة مشرطة الجانبين ، يظهر من تحتها السروال .

ثم يلبسن فى رؤسهن الطرابيش الحمر الصغيرة ، وينطن به هدابة كبيرة لاتقل عن نصف متر فى الطول ، اما سوداء او زرقاء . ويفرقنها الى ثلاث ذوآبات الاولى تسبل على الكتف الايمن ، والاخرى على الايسر والثالثة ترسل على الظهر فتكون بمثابة الضفيرة . ويضع بعضهن قناعاً فوق الطرابيش ، فأذا رأين اجنبياً — غير نصيرى — فيسارعن لاهدال ذلك القناع على وجوههن ، ويسترنها عنه . حتى انهن يلفتن وجوههن ان لم يمكنهن سترها بقناع .

ينقسم النصيريون من حيث الحياة الاجتماعية الى ثلاثة اقسام : ١ — صنف الرؤساء ، ٢ — صنف المشايخ ، — ٣ صنف العوام .

ان صنف الرؤساء بينهم هو الارجح اعتباراً وميزة . وكل عشيرة منهم بيت انحصرت فيه الرياسة وانتقلت لافراده بالارث كابراً عن كابر ولا تزال تتسلسل . ولهؤلاء الرؤساء سلطة عظيمة ، وسيطرة قوية . ولكل من الرؤساء اقارب من اسرته كلهم مربوطون به . وعليه تكون رياسته على اسرته وعلى عشيرته معاً . ورياسة عشيرتى الحدادين والخياطين اللتين هما اعظم عشائر النصيريين منحصرة فى بيتين . فالاولى رياستها فى « بنى حامد » ورياسة الثانية فى « بنى جابر » . والاسرة الاولى لها مقدار مأة من الاعضاء ، والثانية لايقل عدد افرادها عن (١٥٠) نسمة . فاذا امعنا فى هذه السلطة لاجرم يتضح لنا معنى الرياسة التى تشمل الآلاف من العشيرة والمآة من افراد العائلة . ان مجموع افراد الاسر التى احرزت الرياسة على عشائر النصيريين يقرب من ثلاثمائة فرد . وان الاملاك الموجودة فى ايدى هؤلاء الافراد تشغل نصف القضاء . هذا وان لم يؤثر الغنى والثراء عن هؤلاء الرؤساء . ولكن دخلهم السنوى وافر جداً .

فرؤساء الحدادين والخياطين منهم يتراوح دخلهم بين (١٠٠٠) و(١٥٠٠) ليرة فى السنة ، ودخل كل من رؤساء المتاورة ، والنواصرة والرسالنة والشمسيين لا يقل عن (٧٠٠—٨٠٠) ليرة ومع هذا فان هؤلاء الرؤساء[*] مطبوعون على السخاء والكرم . واغاثة الفقراء والمساكين ولذلك ترون منازلهم مفتحة الابواب لكل ذى حاجة ، واعتادوا على بذل الاموال والعطايا على قدر ماتصل ايديهم اليه واصبحت هذه العادة سجية مستقرة فيهم . وهذا هو السبب الوحيد لعدم تراكم الثروة النقدية لديهم .

قلنا ان لرؤساء النصيريين سلطة عظيمة ، وسيطرة قوية . وهذه السلطة جعلتهم مرجعاً للخلق فى جميع الشؤن . وهم يولجون بحل النزاع والخلاف الذى يحدث بين اناسهم

[*] ان رؤساء الحدادين والخياطين تطلق عليهم صفة (افندى) اما رؤساء العشائر الاخر فهم (اغوات)

— بحسب العرف والعادات — وهذه القدرة جعلتهم على درجة عظيمة من المكانة ، وهم مع ذلك ينهجون سبيل المجاملة ، ويتوسلون بما يربحون به قلوب افراد عشيرتهم ولايألون جهداً باكرام الناس واعزازهم ، وبهذا تسنى لهم توسيع دائرة السلطة حتى كانت لهم هذه المكانة . وهذا يدلنا على ما لهؤلاء الرؤساء من التضلع فى ادارة الناس ، وامتلاك مقاليدهم . ولا يبعد عنهم ايضاً التقرب الى مأمورى الحكومة ، والحلول بهم ليتمكنوا من تثبيت سلطتهم بموآزرة القدرة العمومية .

*
* *

ثم يأتى صنف المشايخ بعد الرؤساء . وهؤلاء ايضاً لهم سلطة مكينة ولكن من حيث الدين فقط . ومن المعلوم ان دين النصيريين مبنى على الباطنية والتكتم ، ويحتوى على اسرار وغوامض توجب وجود المرشد والدليل ، ولا يكون هذا الهادى الا من الطبقة التى استطاعت ادراك تلك الاسرار ولهذا كان من الضرورى على الناس فى صافيتا — كما فى غيرها — ان يرجعوا للمشايخ ويهتدوا بهديهم . وان الرؤساء لايفتأون يجزلون العطايا لهؤلاء المشايخ لأجل ارضائهم ، والناس ايضاً يدفعون لهم الضرائب التى يسمونها « الزكاة » لعين المقصد ولهذا فان هذه الطائفة بين النصيريين لاتزال فى عيشة راضية وعيش رغد .

ونرى ان هذه الطائفة الدينية متفقة مع القدرة الادارية يتبادلان المودة والحسنى . ثم هناك طبقة اخرى لم تخلق الا لتعمل لتزييد قدرة هاتين الطبقتين ، وتأمين رفاهيتهما ، ورخاء عيشهما . وهذه الطبقة رغماً عن كونها اليد العاملة والقدرة التى تدير جميع شؤن الاستحصال لا تزال مطمورة فى القرى لا اسم ولا ذكر . وهؤلاء هم القرويون الذين يدأبون ويتعبون ويكدحون ؛ ولا ينالهم من ثمرة مساعيهم شئ .

*
* *

وهذا الصنف ، صنف العامة ؛ هو الصنف الذى يجدر ان يلتفت اليه ، وهو صنف الاكثرية ايضاً . وهؤلاء الذين تفيض عليهم الصناديد الدنيوية لطفاً وانعاماً ، هم اشقى الناس واتعسهم . فاذا فكرنا بان نصف القضاء فى ايدى ثلاثمائة شخص من الرؤساء ، والنصف الآخر منقسم بين ثلاثين الفاً من هؤلاء المساكين يتضح لنا مقدار ما هو مغصوب من حقوق هؤلاء الذين يراهم الرؤساء جديرين بالاحسان والانعام .

يمكننا ان نقسم هذه الطبقة الانامية الى بضعة اقسام من حيث منابع عيشهم ورزقهم . فمنهم من يرتزق بالاشتغال بالزراعة ، ومنهم من يشتغل بالحرير ، والقسم الثالث الذى يشرأب دائماً الى اميركا منبع رزقه ومورد حياته . لانه اعتاد ان يعيش بما تفيضه عليه الايدى العاملة هناك . وان ثلثى السكان النصيريين فى صافيتا يشتغلون بالزراعة . فمنهم من تكون الاراضى

التى يشتغل فيها له ، ومنهم من ليس له منها شئ بل يشتغل مزارعاً عند الغير وبالاخص عند الرؤساء .

اما الثلث الآخر فان نصفه يشتغل بتربية دود القز واستحصال الحرير والصنف الثانى يعيش بالنفقات التى ترسل اليه من اميركا . فاذا علمنا ان النقود التى تدخل الى صافيتا من اميركا تبلغ الى (٢٥٠) الف ليرة فى السنة يحصل لدينا فكر اجمالى بعدد المهاجرين الذين تأتى هذه النقود من عندهم . وهذه المبالغ قد احدثت تبدلاً فى قرى النصارى محسوساً وكانت واسطة عمران ، ولكن النصيريين لم يستفيدوا منها بشئ بل هم ينفقونها على اذواقهم ومشتهياتهم .

ويمكننا ان نقول ان نساء النصيريين فى صافيتا داخلات فى الحياة الاجتماعية . لان اكثرهن يشتغلن بالزراعة . ومن البديهى ان النساء لا قيمة لهن عند النصيريين ، ولا قدر (*)

وقصارى القول ان قرى النصيريين بعيدة عن كل سعادة ورقى . وان منازلهم وادمغتهم مقفرة فارغة . وسنعلم اثناء البحث عن الاحوال الروحية ان رجالهم لا يفتأون يركضون وراء عقيدة حقيقتها الخيال ، ونسائهم يتخبطن فى العمه المطلق والعمى الاسود . وعليه فالحالة الاجتماعية فى هذه الطائفة التى نافت على ثلاثين الفاً بعددها ، ساقطة مادة ومعنى سقوطاً هائلاً يفوق التصور .

*
* *

اما السكان المسيحيون الذين يبلغون بعددهم الى (٥٠٠٠—٦٠٠٠) نسمة فهم يعيشون مختلطين بالنصيريين فى (١٧) قرية . ولهم ثلاث قرى خالصة لهم لا يشاركهم فيها النصيريون .

وخمس هؤلاء يشتغل باستحصال الشرانق ، وبيع الاقمشة او بصنعة الحدادة ، او الحياطة والبناء ، وخمس آخر منهم يشتغل بالفلاحة والزراعة ، اما الباقون فهم يعيشون بالنقود التى ترسل اليهم من اميركا .

والمسيحيون — كدأبهم فى سائر الانحاء — يفوقون بحسن المعيشة جميع من يجاورهم من الطوائف . ولهذا انهم فى هذا القضاء ارفع وارقى من النصيريين من حيث الحياة والعائلات . ويوجد لديهم شئ من الثروة النقدية ايضاً . فاذا علمنا ان هناك (١٠—١٥) من الاسر اللاتى تملك كل واحدة منها مقدار عشرة آلاف ليرة نعلم ان مجموع الثروة النقدية لدى المسيحيين فى صافيتا يبلغ مقدار (١٠٠—١٥٠) الف ليرة ،

(*) . راجع المبحث العمومى عن النصيريين ص ١١٦

ان هؤلاء المسيحيين عبارة عن الاروام والمارونيين والبروتستانتيين ولكن الاروام اكثر عدداً ، وارجح فى حياتهم ومعيشتهم من غيرهم . وانظف واميز طائفة بينهم هى الطائفة البروتستانتية . اما المارونيون فهم على غاية من القذارة والوساخة ،

وليس للطبقة الغنية فى المسيحيين تلك السلطة المعنوية والسيطرة التى عليها اغنياء النصيريين . وموقعهم لا يكبر عن ما اكسبتهم اياه ثروتهم من الاعتبار والوجاهة .

ويلفت النظر عدم رواج استعمال المسكرات بين النصارى من رجال ونساء لدرجة نراهم فى هذا الخصوص دون النصيريين بدرجات . ولا جرم ان لكل قرية من قراهم كنيسة وراهب ، وكلهم مربوطون برابطة قوية فى تلك المؤسسات واولئك الاشخاص الروحانية .

[٢] — **العادات الاجتماعية** — ان للنصيريين فى هذا القضاء بعض عادات اجتماعية نرى من الواجب ان نذكرها بصورة مجملة :

(عادة القسم) — لا يعبأ النصيريون بايمانهم التى يحلفونها امام القاضى ، او فى الخارج واضعى ايديهم على المصحف الشريف ، ولكن لا يعثر على واحد منهم يحلف كاذباً امام مزار « الشيخ منصور » الذى يجلونه .

وايمانهم غريبة جداً . لانهم يحلفون « بحق الخضر » اذا ارادوا تأييد كلامهم . ويوجد فى القضاء مقام « الخضر » فى قرية « تل الخضر » ولهم ايام مخصوصة يزورونه فيها .

(الوراثة) — لا ينتقل ارث من مات بلا ولد من النصيريين ، الى زوجته . وهذا يدلنا على درجة مكانة المرأة وموقعها فى نظر القوم . ولدى وجود هكذا حال يفوض رئيس العشيرة تلك الاموال والاملاك الى من يشاء . ولا يعطى للزوجة منه شئ .

(الالواح) — اعتاد النصيريون على تعليق بعض الالواح فى داخل بيوتهم التى تطلى بالكلس الابيض . ويكتب على تلك الالواح عبارات نذكر منها :

(سبوح قدوس رب الملائكة والروح) ، او :

نحن بالله عزنا — لا بمال وولد
كل من رام ذلنا — خصمه الله الصمد

او :

لى خمسة اطفى بها — حر الوباء الحاطمة
المصطفى والمرتضى — وابناها والفاطمة

(الاعياد) — سبق ان بحثنا فى القسم العمومى من كتابتا عن اعياد النصيريين بحثاً ضافياً ، منقولاً عن كتاب الباكورة . ولهذا فاننا نصرف النظر الآن عن اعادته .

ونذكر انهم يعقدون الاجتماعات الخفيـة فى تلك الاعياد . ويروى انهم اعتادوا على عقد هكذا اجتماع قبل حلول عيد المسلمين بيوم . ويزعم البعض ان النصيريين يصومون قبل المسلمين بيوم ايضاً .

(اسماء النصيريين) — لا يستعمل النصيريون اسماء « ابى بكر ، عمر ، عثمان » البتة . واكثر ما يستعملون من الاسماء ، اسماء (سليمان ، سليم ، على)

(القرآن الشريف) — يدعى بوثوق انه يوجـد فى كل بيت من بيوت النصيريين مصحف . وانهم لا ينقطعون عن تلاوته .

(القبلة عندى النصيريين) — يدعى الذين طال مكثهم بين النصيريين فى صافيتـا ، انهم يولون وجوههم فى عباداتهم شطر المشرق .

(المسكرات) — يستعمل النصيريون جميع المشروبات الكحولية ، ولاسيما النبيذ . ولكنهم لا يتظاهرون بشربهم امام غير ابناء مذهبهم .

(كبار المشايخ) — يتخذ النصيريون قبور اعاظم مشايخهم مزاراً ويلصقون بها صفـة قدسية . ولهذا كان لهم فى هذا القضاء مزارات لا يحصى لها عدد . اشهرهـا : [الولى زاهر والنبى متى والنبى صالح ، ومقام الخضر ، ومقام الشيخ عبد الوهاب المصرى] .

(جنائز النصيريين) — يروى عنهم انهم لا يبكون اذا مات عندهم ميت بل يكررون كلمة [الحمد لله ، الحمد لله] ثم يغسلون الميت ويلبسونه افخر ثيابه ، ثم يدرجونه بالكفن ويضعونه فى التابوت ، ويسيرون به بالتكبير والتهليل . وقد توجـد النسـاء فى جنائز الاعاظم منهم . وقبورهم على نسق قبور السنيين . وليس من عاداتهـم تلقين الميت ، ويكتفون بزيارة القبر فى بعض الاحيان .

(اصولهم فى الزواج) — لا يتستر النصيريون ورجالهم تعرف بناتهم ولهذا لا لزوم عندهم لارسال من يرى المخطوبة ، فاذا حصل الوفاق بين الطرفين يدفع الخاطب الى المخطوبة مهراً يتراوح مقداره بين (٥ — ١٠٠) ليرة ، ويرسل لها هدية كخاتم او غيره مما يناسب ارساله وبعد مرور سنة يعقد النكاح ، ويحتفلون به . فيجتمع النسـاء فى محل ويفرحن . ويظهر الرجال سرورهم برمى السلاح . وتقام الولائم . ثم يشرعون بالاحتفال بالزفاف ويسيرون بالعروس الى منزل العريس . وقد كانت عندهم عادة تقضى على المدعوين بتقديم الهدايا . وعلى المهدى لهم بالمقابلة ، اما الآن فهى متروكة .

وهذا يدلنا على ان ليس فى اعراس النصيريين شئ يجلب النظر . ويزعمون انه يعطى الى العروس قبل دخولها بيت الزوج قدح من زجاج فتضرب به جهة الباب وتكسره .

(الزوجات عند النصيريين) — لم يؤثر عن النصيريين استفراش الجوار ولكن يوجد بينهم من يتزوج بعدة زوجات كما هو الحال عند السنيين . والاغنياء من هؤلاء يضعون كل زوجة

من ازواجهم فى منزل مستقل .

(الختان عند النصيريين) — يختن النصيريون اطفالهم بين السنة الحادية والعاشرة من عمرهم وقد كانوا يحتفلون بالختان كغيرهم احتفالاً عظيماً . على ان هذه العادات لاتزال تتدرج بالانطفاء ، والاندراس .

(مشايخ النصيريين) — يزعم بعضهم ان اشايخ النصيريين حق الدخول إلى اى بيت ارادوه . ويباح لهم كل شئ . ولكن لم نظفر بدليل يؤيد هذا الزعم المجرد .

*
* *

بما اننا بحثنا فى القسم العمومى من كتابنا عن عادات النصيريين القديمة المنبعثة عن اسس دينهم ، اثرنا هنا الاكتفاء بذكر بعض العادات المحلية فقط .

[٣] — **الارقام الاجتماعية** — ها نحن نذكر بعض الارقام التى حصلنا عليها فى قضاء صافيتا :

(مهاجرو النصيريين) — يخمن عدد المهاجرين الذين هاجروا من هذا القضاء الى اميركا بعشرة آلاف او خمسة عشر الفاً من النسمات .

(المؤسسات ، والرؤساء الروحيون) — يوجد فى مركز القضاء جامع ومفتى وامام وفى جميع القرى جامعان او ثلاث وفى كل واحد امام . اما المسيحيون فلهم (١٧) قريـة فى كل واحدة منها توجد كنيسة ولكل كنيسة راهبان او ثلاثة .

(المساكين فى مركز القضاء) — ان عدد المساكين الذين قام باطعامهم بضع عائلات فى المركز يتراوح بين (٥٠٠ — ٨٠٠) شخصاً . ويوجد هناك مقدار « ٦٠ » من ايتام الاطفال الذين لا كافل لهم .

(حالة السكان) — ان عدد المتأهلين فى هذا القضاء يخمن بمقدار « ٦٣٢٥ » من الذكور ، و « ٦٩٢٥ » من الاناث . وبهذا يكون ثلث السكان من المتأهلين . ثم يقابل هذا المقدار « ٨٩٣٤ » ذكوراً ، و « ١٣٠٨٨ » اناثاً من العزاب ؛ ثم يوجد « ٤٣٤ » من الارامل و « ١٠٥٥ » من الايامى . و « ٣٤٨ » من المطلقات . وعلى هذا الحساب يكون مجموع هؤلاء ثلثى جميع السكان .

ويوجد فى القضاء من البكم والصم والعمى (١٣٢) من الذكور ، و (٨٢) من الاناث و(٨) من المجانين الذكور و(٢) من الاناث .

وعدد المأمورين من الصافيتيين عبارة عن «٩٠» شخصاً .

(الصنوف الاجتماعية) — يوجد فى هذا القضاء على التخمين « ٥٥٧٧ » شخصاً من الزراع و « ١٢٥ » من ارباب المهن و « ٢٥٠ » من التجار و « ١٠٠ » من العمال و «٢»

من الاطباء و «٣٠» من معلمى البنيان . و « ٣ » من المعلمين وطبيب للاسنان . وعلى هذا يكون عدد ارباب الحرف « ٦٠٠٠ » ، ثم ان عدد اصحاب الاملاك « ٩٠٠٠ » شخصاً

(مقدار الكسب) — يتراوح بين « ١٠٠ » و « ٢٠٠ » شخصاً عدد الذين كسبهم اقل من الف غرش فى السنة . وعدد الذين يربحون اقل من خمسة آلاف يتراوح بين « ٣٠ — ٤٠ » شخصاً . ثم الباقون فدخلهم السنوى يزيد على هذا المقدار .

(افراد العائلة) يوجد فى هذا القضاء « ٢١٦ » من العائلات التى يبلغ عدد افرادها الى « ٧ » و « ٩٢٢ » منها لا تتجاوز افرادها الثلاثة . وهذا يدلنا على ان اكثرية القضاء تتألف من العائلات الصغار .

(مقدار النكاح والطلاق) — يزعم ان قد حدث « ٢٢٣ » نكاحاً فى ظرف خمس سنين ، اى من سنة « ٣٢٣ » الى سنة « ٣٢٨ . فنهم «٢٠٨» لمسلمين و « ١٠ » للاروام و « ٥ » للمارونيين ، واكثر المتأهلين كان سنهم بين « ١٥ — ٢٥ » . ولم يقع من الطلاق الا « ٣ » فى السنة .

اما فى السنين الخمس الاخيرة فكان عدد الزواج « ٦١ » سنة « ١٣٢٩ » و « ١١ » سنة « ١٣٣١ » و « ٦ » سنة « ١٣٣٢ » ولم يحدث فى سنة « ١٣٣١ » منه شئ . اما الطلاق فلم يزدد عن واحد فى السنة .

« دور الحبس » — يوجد فى هذا القضاء سجن واحد لا يستوعب اكثر من «٣٠» شخصاً .

(القاتلون) — حدث فى القضاء (٤) جرائم من القتل سنة (١٣٣١) و(٩) منه سنة (١٣٣٢) وكلهم من الزراع .

(الجنح) — حدث فى القضاء (١٠٥) جرائم من الجنح سنة (١٣٣١) و٥٣ منها سنة (١٣٣٢) واكثرها على التدريج الضرب والجرح ثم السرقة . اذ حدث سنة (١٣٣١) ٣٥ جرماً من نوع الضرب والجرح و٢٣ من السرقة وفى سنة (١٣٣٢) حدث ١٢ جرماً من الضرب والجرح و١٥ من السرقة . وعلى هذا الحساب يصيب كل ستة ايام فى السنة جرم واحد .

١٠ — الحالة الروحية والسوية الفكرية

اننا سنشرح الخلال الروحية التى كونتها المعتقدات الدينية فى النصيريين اثناء البحث عن ادبياتهم . وعليه نكتفى هنا بالاشارة الى بعض الاوصاف الخاصة التى يتصف بها نصيريو قضاء صافيتا .

ان النصيريين فى هذا القضاء ليسوا من الخشونة على درجة غيرهم من النصيريين فى الاقضية الاخرى . بل هم يتوخون فى مناسباتهم الاجتماعية طريقة اللين والسكينة. ولهذا السبب لا يمكن العثور فى هذا القضاء على من سلك سبيل الشقاوة او اللصوصية . ولقد برهنت الجداول الرسمية على ان الاشقياء الذين خرجوا فى السنين الاخيرة لم يكونوا من اهالى صافيتا ، حتى ان الاشقياء الذين كانوا وافرى العدد فى هذا القضاء قبل السنين الاخيرة لم يكونوا ايضاً من سكان القضاء .

ويجب ان لا نحسب هذا اللين فى هؤلاء السكان من السجايا الروحية الثابتة . بل لا ريب فى ان تحت تلك الرياش الطاووسية شخصية تتدفق فساداً وغشاً . وكم لهذه الشخصيات الحليمة من فورة ، وكثيراً ما تنقلب العشائر المتحابة اعداء ألداء لبعضها ، فكل فرد من هذه العشائر يحمل بين جنبيه روحاً غايتها الاحتفاظ بمنافع عشيرته بالوسائط المطلقة مشروعة كانت او لم تكن . ولهذا السبب لن توجد بين النصيريين انفسهم محبة صادقة ، او اخوة حقيقية ، ناهيك عن المودة بينهم وبين النصارى . وان المودة والحسنى التى يتظاهرون بها هى جعلية ووقتية . وان آثار تلك الارواح المتقلبة ، والوانها لا تستقر ولو برهة قليلة . بل هى على تحول دائم ، ومع هذا فان هذه المنافرات ، وعدم التحاب لا يسوقهم الى الانتقام الاعمى ، ويندر ان ينقلب الى خصام تسفك فيه الدماء .

وقصارى القول ان طبيعة اللين والسكينة فى هؤلاء القوم ممزوجة بغريزة الافتراس التى لا تزال على صورة دائمة كالبركان وهم لا يتوخون بهذه المفاسد ، والمفتريات مصلحة العشيرة بصورة دائمة . ولا جرم انهم من الانانية بدرجة غيرهم من بنى جلدتهم ، ولربما يرجحونهم فيها ، فمن الخطأ ان نحسبهم عاملين مطلقاً لمصلحة العشيرة ، ونعتبر حركاتهم وسكناتهم كائنة لتأمين هذه الغاية . اذ لا يبعد عن احدهم اذا فاته النفع الذاتى ان يضرب بنصيرتيه عرض الحائط . ويفتدى مصلحته بعشيرته وذويه وحتى بوالدته وابيه ولهذا تجدونهم قاعدين لبعضهم فى المرصاد ، مستعدين فى مكمنهم لكل ما يحتمل حدوثه كانهم من الجنود المحاربة . هذا وان كانوا لا يتسارعون بلا سبب لاهراق الدماء على غير جدوى ، ولكنهم اذا حرموا من اخس آمالهم لا يوقفهم شئ عن ان يرتكبوا اليوم ما كانوا يتحاشونه بالامس . وبهذا يسوغ لنا ان نعتبر كل واحد منهم هيكلاً للسلم المسلح .

*
* *

ان السائق الذى يدير هذه الفئة التى تريد ان تشرب دماء بعضها باللين والسكينة ، لاجرم هو حب النفع والانانية . ثم اذا فكرنا بما هم عليه من البعد عن العلم والمدنية يتضح لنا سبب تأصل هذه الحالة الروحية فى طباعهم واستقرارهم عليها . وان رجوعهم لتأمين

صالحهم الذاتى بطريقة سلمية ؟ او خفية نشأ عن احتكاكهم وامتزاجهم بالناس. والا فلا نجد لهذه الطبيعة الساكنة اثراً فى اخوتهم الذين انقطعوا عن الناس وكنوا فى طى تلك الجبال الموحشة. واولئك هم اشد بعداً من هؤلاء عن الانس واللين.

يبلغ عدد الذين يعلمون الكتابة والقراءة بدرجة بسيطة من النصيريين الى (١٥) فى المائة. ويصعد هذا المقدار فى المسيحيين الى «٥٠» فى المائة. وهذه النسبة لا يتيسر لنا العثور عليها فى الاقضية الاخرى. فيجب ان لا نعجب من خشونة طباعهم. لان الخشونة ضرب من البعد عن المدنية، او نوع من الجهل.

١١ — الاحوال الصحية

يمكننا ان نقسم قضاء صافيتا الى قسمين، الاول سيف البحر، والثانى الانحاء الجبلية الوعرة التى يسمونها «الجرد». هذا وان يكن هواء القضاء جداً لطيفاً ومعتدلاً بصورة عمومية ولكن القرى الموجودة فى القسم الثانى ارجح من غيرها مناخاً وهواءً بسبب ارتفاعها، وتنحيها عن المستنقعات الموجودة فى الاصقاع الساحلية.

اما ماء هذا القضاء فمنه المنبع الموجود فى برمانه مركز القضاء الذى ينبع من ربوة «تليجه»، وهو ماء سلسال، على غاية من النظافة والصفاء، ويزيده ميزةً ورجحاناً كونه كلسياً ينفع المصابين بالامراض الكليوية. ويعثر فى سائر انحاء القضاء ولاسيما فى ناحية الجرد على هكذا مياه نقية صافية.

وتوجد فى اكثر القرى آبار تقوم بسد العوز. ولكن سكان الاصقاع الساحلية لا يزالون فى ضيق شديد لندرة الماء فى انحائهم. وبعض سكان القرى هناك يضطرون الى جلبه فى الجرار على كواهلهم فيتكبدون تلك المشقة، ثم لا يكون الماء نقياً، بل يتدنس اثناء النقل. ولهذا فان مسئلة الماء اصبحت عندهم من المسائل الخطيرة، لاسيما وقد تكون واسطة لتسرب الامراض اليهم وانتشارها بينهم.

اما بيوت هذا القضاء فانها لا تنطبق على القواعد الصحية كما ذكرنا عنها اثناء البحث عن المركز. واكثرها مرتكمة حوله اكوام الزبل. فاذا علمنا ان حيوانات الزراعة تبيت فى داخل تلك البيوت، وفكرنا بعدم اعتناء القرويين بالنظافة نعلم ان هذه المساكن، وتلك العيشة هى قبر غير محسوس معد لتلك الاجسام التى لا يزال الاضمحلال يدب بها ويستدرجها الى ان يصل بها الى الفناء.

ولو لم تكن تلك الجيادة فى الهواء، وهاتيك النظافة والنقاوة فى الماء لزجت تلك المعيشة السيئة بالصحة العامة فى مهاوى الردى. واننا لم نقصد بهذه العبارة مدح الحالة

الصحية ولا الاغضاء عن ذكر ما ينتابها من الامراض. لان الحمى المرزغية والامراض العينية وغيرها من الامراض العمومية لا تنفك تهدد صحة هذا القضاء بخطرها.

ان الانهار الجارية فى هذا القضاء وعلى الاخص نهر الابرش يجري قريباً من الساحل فى مجرى غير منتظم فتتسرب منه المياه الى خارجه حيث تكون احواضاً صغيرة تستقر فيها جراثيم المرض، وهذه المستنقعات اوجبت استفحال الحمى المرزغية واستقرارها فى ذلك القضاء بصورة شاملة. هذا وان كان يعثر على هذا المرض فى الانحاء الجبلية بنسبة ما هى عليه فى الساحل، مع انها خالية من المستنقعات ولكن لم يكن هذا الا عن كثرة اختلاط السكان ببعضهم، ثم من الاستعداد الذى اوجدته فيهم السنون الطويلة. ولهذا فان امواج الحمى المرزغية التى تتدفق من الساحل الى الداخل لا تزال تكتسح السكان وتلتهم حياتهم. ويروى الاطباء هناك ان قد يصاب بهذا المرض مآة من الناس فى كل سنة.

ثم ان مرض العيون هناك لا يزال على وطئة شديدة، والرطوبة من جهة، وعدم النظافة من جهة اخرى جعلا لهذا الداء مجالاً واسعاً فى الانتشار والتفشى. فيصاب به كل سنة اكثر من الف، وخمسة فى المائة منهم لا بد ان ينقلب معهم الى العمى.

ثم يوجد فى القضاء غير هذه الامراض داء (سل الرئة). ويوجد فى القرى الكائنة فى المشرق الجنوبى من القضاء، ولاسيما فى (برج صافيتا) كثير من الاشخاص المصابين بالسل:

ويعدى وجود كثير ممن اصيبوا بمرض الكبد المزمن واحتقان الطحال. ويقول طبيب القضاء ان عشرة فى المائة ممن ينشط من مرض الحمى المرزغية يصابون فى هذه الامراض. ويروى ان الامراض السمية قليلة جداً فى هذا القضاء. ويقول طبيب القضاء انه لم يعثر الا على شخص واحد من المصابين بمرض الافرنجى و(١٠—١٥) ممن اصيب بمرض حرقة البول.

*
* *

دخلت امراض الحمى النمشية والقوليرة الى هذا القضاء سنة ١٣٣٢ ولكنها لم تحدث اضراراً مهمة. ثم يروى ان قد حدث منها بضع حادثات فى الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ ولكنها كانت محدودة ايضاً. ولهذا فان مجموع عدد الذين اصيبوا بهذه الامراض لا يتجاوز العشرات.

*
* *

ثم ان الادارة الصحية فى هذا القضاء ناقصة الترتيب. لان طبيب واحد لجميع القضاء لا يستطيع ان ينهض باعباء الامور الصحية، لاسيما اذا كان محروماً من كافة

الوسائل والوسائط. وزاه يتألم قبل كل شئ من عدم وجود العقاقير الطبية بدرجة كافية.

ثم لا توجد صيدلية فى جميع انحاء القضاء. ولولا ما يجلبه الطبيب من بعض العقاقير بصورة خصوصية، لكان امر القضاء موكولاً الى القضاء. ومما يجدر بالذكر ويستلزم الشكر وجود قابلة متفننة فى هذا القضاء تفيض على نسائه الشفاء. ويجب على هؤلاء السكان ان يعرفوا فضل هذه السعادة التى رمتهم بها الصدفة. ولكن لا ادرى هل يسلم بهذه الحقيقة اولئك النصيريون الذين غايتهم التخلص من هذه الحياة التى يعتبرونها كرداء وسخ، والتعالى الى الانخراط بسلك العالم النور، عالم الكواكب (*).

— ١١ —

الادبيات النصيرية

١ — الحالة الروحية فى النصيريين

بحث رفيقى — فى القسم العمومى — عن معتقد ومذهب النصيريين القاطنين السلسلة الجبلية الواسعة المسماة باسمهم والكائنة فى الناحية الشمالية من سورية، والممتدة الى داخل آطنه. ولا جرم ان ذلك البحث الضافى كشف الغطاء عن الخطوط التاريخية لهذه الفئة التى هى من غلاة الشيعة، وبين خصائصها القومية، واسسها الدينية، وشنشنتها المذهبية. ثم انى تكلمت عن احوالهم الاجتماعية، واوصاف حياتهم العمومية حين البحث عن قضاء صافيتا. ولهذا فقد حصل لدينا فكر اجمالى فى خصائص هذه الفئة، وفى افاعيل محيطها المتنوعة.

على اننا نرى قبل الافاضة فى البحث عن ادبياتهم، ان نقبل على تحليل حالتهم الروحية وتشريحها، مستندين على «الدين» الذى كان لهم بمثابة السجية القومية الموروثة بتسلسل الانسال، ثم على «المحيط» الذى هو عبارة عن مجموع الافاعيل الطبيعية والاجتماعية.

ان تأثير العرق والاقليم، والوسط جعل النصيريين (فئة خيالية) لا تستقر على لون ولهذا فان حالتهم الروحية عبارة عن كونهم خياليين محضاً.

واذا ارجعنا النظر الى ديانتهم نراها (مخلوقة الخيال) بعجرها وبجرها. وما كاد

[*] راجع اول سورة فى كتاب «الباكورة — لسليمان الاذنى»

يتأسس دين هؤلاء القوم الذين انتزعوا لهم من شخصية على بن ابى طالب آلها ملفقاً، الا ودخلوا فى معتقدهم الى فضاء فسيح من الخيال، وزعموا ان تلك الشخصية المجسدة اوقفت دور الشمس، وكلمت الموتى كالمسيح.

وقال «نصير النمرى»، مؤسس هذه الديانة فى كتاب له: «ان المسيح او جبرائيل سماه بالقارئ، والصادق والجمل والبقر والروح ... الخ». وسعى لان يؤلف بين هذه الاضداد المادية والمعنوية باغرب ما يكون من الافكار الخيالية. ثم ان «حسين بن حمدان الخصيبى» احد صناديد هذه الطائفة، خلق لنفسه مسيحاً انقذه من سجن بغداد، واخذ يتبجح بهذين البيتين:

قال لى فى المنام اب شفيق   انت يابن الخصيب حر عتيق
انت بالحجب آل احمد ماعشـ   ـت طليق بحبهم مرزوق

لا جرم ان النصيريين لا يعتقدون بوفاة على. وعليه اخذوا يرتادون لهذا الآله الابدى عرشاً خالداً، ورفعوا بابصارهم الى السماء فارتهم ليال سورية قمراً جليلاً كانه منصة من نور تحف به الكواكب الدرية، فاتخذوه عرشاً، بل سكناً لآلههم — كما فعل قدامى الكلدانيين والآثوريين —. ويزعمون ان الغشاوة السوداء فى القمر هى، هو قائلين:

— ها هو، وما تلك الغشاوة الداجية الا هو. متوج بالنور وفى قبضته الصارم المعهود، ذو الفقار....

ومع هذا فان هؤلاء الذين شربوا من رحيق المجوسية المعجوز، عين ذلك الكاس المتدفق بالخيال، لم ينسوا بعد القمر هاتيك الجنود النورية المنتثرة فى فضاء السماء، تلك الثوابت والسيارات، ثم ملكة النور، ولاسيما المجرة.

وقد برهن النصيريون ابناء السماء على انهم مسورين بنطاق الخيال، منذ تأسيسهم «نظرية الهبوط» المعهودة.

كانوا — على زعمهم — يبصرون علياً وهم كواكب لامعة بل انوار ساطعة؛ وحوله محمد وسلمان يرمقانه بنظراتهما النورانية.

هكذا ما زال النصيريون يمدون خطواتهم وراء طير خيالهم الطائش حتى عثروا على اقانيم النصرانية «الاب والابن وروح القدس» الثلاثة. فمثلوها بالمعنى والحجاب والباب، واوجدوا سراً للنصيرية يتألف من «ع، م، س».

عمون انهم ظلوا سبعين قرناً وهم كواكب نورانية؛ ثم كان ذلك الخطاء الخيالى، وكرت بعده الادوار، وعقبت ببضع تجليات. ثم ان ذلك المعبود الذى يترآى على هيئة شيخ ذى لحية بيضاء، او شاب راكب على اسد، او طفل؛ اهوى بهم من السماء الى

عشر مدلول جسماني .

وقصارى القول ان النصيريين انقلبوا الى حالة روحية غريبة بضغط تلك العقائد التي ولدها الخيال المجرد عن كل عقل وادراك . وتملصوا من العظمية واللحمية الى شخصية مؤلفة من الوهم والخيال . ونهذا لامندوحة لهؤلاء الذين اصبحت اسسهم الدينية ومعتقداتهم في الكون ، وآراؤهم في الحياة ، ونسق عيشهم ، واعيادهم ، وحالتهم لدى الاغيار وماهية محيطهم ، كلها مسربلة بالخيال ، من ان تكون حالتهم الروحية مشربة به ايضاً .

وهذه الحالة الروحية ، هي التي جعلتهم سماويين كالمجوس ، ومن معتقدي التناسخ كالدروز ، وربطتهم بالتثليث كالنصارى وهي التي حببتهم بأدوار القمر المنير ، وبعلوية السماء العالية ، وبحمرة شروق الشمس ، وصفرة غروبها ، ثم بلطافة النسيم ورقته .

ولنعلم ان خيال النصيريين هذا الذي لايزال يخدعهم بسعادة العروج الى السماء وعالم المجرة ، والوصول الى انوار الشمس الساطعة ، والتمتع برؤية الآله الواحد . ابعدهم عن ان يكونوا امة تستطيع ان تعيش في هذا العصر .

وليعلم بنو هذه الفئة الخيالية التي ترى الحياة لباساً مدنساً ، وتظن ان لاقيمة لهذا الكيان العضوي ، وتعتقد ان سائر الاديان والطرائق الحياتية لباس ، والنصيرية جسم ، وتهوى لان تتحكم على كل دين وشخص ، وتقدس في دينها الكذب والرياء ، والنفاق؛ نعم ليعلم ابناؤها انهم ان لم يهجروا هذا الغلو في الحالة الروحية ، فلن يكون لهم نصيب من السعادة الحقيقية في هذا المعترك الحياتي الذي يتطلب سواعد من حديد ولدمغة تدك بعزمها الأطواد .

فليرتادوا النور في النجوم ، ولينظروا ما شاؤا الى انوار القمر ، ولكن لا بد لهم ان يهووا في مهاو من الذل والخسران بعيدة عن معنى الإنسانية ، بسبب تلك الحالة الروحية التي تقوض الواجبات المدنية وتهدم اسس الحب الاجتماعي المتبادل .

ولن يعرجوا الى عليين السماوات ما زالوا بعيدين عن التعقل والاذعان والعلم والمدنية بل انهم ليسقطون في دركات الاضمحلال او يطوح بهم القضاء الى الفناء الخالد اذ لا حياة في هذا المعترك العصري الا للقوي الشديد ، والعاجز الضعيف محكوم بالموت المحتم وليسمع النصيريون هذه الحقيقة المرة من هذا البيت لعلي (د . ع):

يعيش قوم ويموت قوم
والدهر قاض ما عليه لوم

فما اجدر هؤلاء الخياليين بان يفتكروا بان لا لوم على الدهر بإماتة قوم واحياء آخرين ويتنبهوا بهذه الصيحة من سباتهم الجامد !! .

الارض ، وسيمنحهم الجنان ثمرية ليبلو اعمالهم . ولن يدوم هذا الاغتراب ، بل لا يلبث آلهتهم ان يتجلى عليهم بالمعنى والحجاب والباب ، ويعيدهم شموساً ساطعة كما كانوا من قبل .

وهذا النسق الغريب في التخيل يدلنا على ما طبعت عليه اهواؤهم من الافراط . وهم يزعمون على هذه الوتيرة : ان لاقيمة لحياة الدنيا . ولا تكون السعادة الا بالايمان بهذا التثليث . ولهذا يكون التعلق باهداب هذا الاعتقاد والاكتفاء به ، ثم الانقطاع عن جميع اسباب الدنيا ، وعن العلم والجهد والاقدام امراً طبيعياً . فاذا اتبع هذا الصراط السوي – بزعمهم – واحتفظ بذلك المعتقد فلا بد للانسان ان يدخل في زمرة تلك الشموس النيرة . ولا جرم ان هذا الدين هو الذي يسعد ابناء البشر ، وهو الحقيقة الناصعة . فالذين لا يؤمنون به لا بد لارواحهم ان تمسخ وتنقلب الى بهيمية سافلة . وقصارى القول لا يستكبر على النصيريين الذين يتبعون عنقاء الخيال ، اهمالهم امر الحياة ، وانصرافهم عن الجد والسعي ، ثم بغضهم جميع الناس واستحقارهم اياهم ؛ لانهم يباهون بهذه المعتقدات التي يدعوهم اليها دينهم ويفاخرون بها .

ثم انهم يزعمون ان لا احد غيرهم يفهم سر الوجود وحقيقة الكون . فما اضل هؤلاء الطائشين الذين ختم العمه على قلوبهم فجاؤا بما خلقه خيالهم وجعلوه حقيقة ، بل عقيدة !

ثم انهم يموهون هذا الاعتقاد المخلوق ، بنقوش وزخرف مكذوب ويقولون : خالق سلمان الفارسي الايتام الخمسة . فمقداد يتعهد الرعود والصواعق والزلازل ؛ وابو الدر مولج بالنجوم والكواكب ؛ وعبد الله بن رواحه ملزم بادارة العواصف والرياح ؛ وعثمان مأمور بتفقد الحرارة والاجسام ؛ ثم على قنبر التصرف بالارواح . وبعقيدتهم هذه التي تذكرنا بآلهة اليونان ، يبرهنون على انهم اصدق الاخلاف لأولئك الاسلاف الخياليين ، ثم لابد من ان يعجب الانسان لادخارهم هذا المعتقد ، واحتفاظهم به حتى في القرن العشرين المتمدن . ولا جرم انهم لم يتمكنوا من هذا النجاح الا بتلك الارواح الكاتمة . لانه لايسوغ في دينهم افشاء السر حتى ولا لنسائهم . ويعتقدون ان معنى الجهاد الذي جاءت به الديانة المحمدية هو عبارة عن هذا .

وهكذا غلف دينهم طمس المعاني الظاهرة بغواش خيالية ، ثم يرجعون فيها الى التأويل على حسب الاهواء . فيقولون ان حقيقة الحج هي معرفة بعض اشخاص معلومة ويقلبون الاركان المادية كالبيت والسقف والارض والقباب والباب والحلقة الى اشخاص معنوية كمحمد وابي طالب وفاطمة والحسن والحسين وجعفر الصادق .

وعندهم للاعداد رموز خاصة ، وعليه فلكل من الاعداد الموجودة بين الخمسة والاثنى

٢ – الحالة الادبية فى النصيريين

ان النصيريين الذين لا يزال دينهم وعرقهم يسقيهم من رقيق الخيال كاساً دهاقاً فى هذا الوسط السورى الذى يتدفق بالبدايع والمحاسن يعترف لهم باستحواذهم على عناصر الشعر والصنعة الادبية كما يجب ان لا ينكر تجردهم من جهاز الجدال الحيوى .

يولد النصيريون مفطورين على حب الخيال بسبب موروثاتهم العرقية ، ثم يقبل المحيط الخارجى فيكشف عن تلك الملكة الفطرية وينشأها نشئاً نامياً وناجحاً .

هذا وان لم يطلع احداث النصيريين على ديانة آبائهم الخيالية ما لم يبلغوا اشدهم ، ولكن المحيط الخارجى . وشرائط الحياة هناك تاخذ تلك الخاصة الموروثة بالهوينا وتتدرج بها الى غاية كمالها .

لاحظ للاحداث النصيريين قبل اتمامهم السنة الثامنة عشر من عمرهم ، الا التمتع ببدايع المحيط الطبيعية والاكتفاء بها . فيشعرون بوجد عميق حينما يبصرون على هامات جبالهم الشامخة ، ذلك الشروق السورى الزاهر ، والغروب العسجدى الساحر ، فتارة يرون ملكة النور كعين فضية ، وآونة كنافذة ذهبية تمج النور الساطع .

وما الطف مناظر هاتيك الآفاق السورية ، لا جرم انهم ينغمسون فى وجد خيالى تجاه تلك الالوان والبدايع حينما يمتعون النظر بتلك القرى الكثيرة التى وفاها نصيبها من الوان المحاسن الفجر المندم ، او الشفق الذهبى الارجوانى الذى يقوم كل يوم على رؤس تلك الربى الزمردية . ثم لما ينسحب نور النهار مودعاً تلك الاصقاع المرئية ، وترسم فى فضاء السماء تلك النقوش الباهرة بالوان عندمية ، وصهبية ، او ارجوانية ، ثم تنقلب الى سمرة ، واحلولاك ، فتلمع الكواكب الدرية . هنالك يكون اولئك الاحداث الخياليون من بنى سورية منتظرين انفجار عين السماء ، وافاضتها النور الدافق من وراء تلك الربى القائمة امامهم كالظل القاتم . ولا يلبثون قليلاً الا وينجلى لهم ملك الضياء ، ذلك الطائر الميمون ويحلق فى الفضاء ؛ ويخترق موكب الكواكب ، ويرسل من نوره الفضى ما يغمر السماء والارض والجبال والقرى . وهنالك تخفق قلوب اولئك الاحداث احتراماً لهذا المخلوق السماوى ، ويتراكضون الى رؤس الهضاب ويمدون ايديهم لتصل اليه ، او يثبون لعلهم يصيدون ذلك الطائر الآلهى .

يا للسعادة ... ما الطف هذا القمر وما ابهجه ... ولله شروقه كل مساء من حفاف تلك القبة الزرقاء ، باشكال مختلفة ... يكون هلالاً فى بضع ليال ، ثم نصف دائرة ، ثم بدراً تاماً ، وهكذا لما يراه احداث النصيريين فى ليال سورية المذهبة على هذا التقلب

المحسوس ، فلا يملكون انفسهم من الانشغاف به اكثر من كل كوكب سماوى . لاسيما اذا كان بدراً كاملاً ، فانهم يرون فى صحيفته حاجبين وفماً . ثم باقى الخطوط الوجهية ، فيحسبونه وجهاً نورانياً يطل على هذه الدنيا من سمو مقامه .

ثم انهم يبصرون المجرة التى تشغل تلك القبة المكوكبة ، فيفكرون الى اين يذهب هذا الطريق النورانى . ويرون انفسهم تصغر تحت عظمة تلك السماء الرفيعة ، ديار النور والضياء . ويغشاهم من سحرها وجد ينسيهم انفسهم .

ثم تاتيهم المواسم الاربع تباعاً ، وتهدى الى آفاقهم افخر الهدايا والطفها . يشاهدون سماء زرقاء مرصعة بفتات من سحاب كالعهن المنفوش ، ثم يلوح لهم البحر المبهم عن بعد كانه صحيفة سمراء ، ثم مناظر تلك الربى الزبرجدية ، ويسمعون تغريد الطيور الساجعة ؛ ثم ينقلب الحال الى سكون سائد ، ويرون حينئذ نوراً فياضاً يزج على المحيط بسبات عميق .... ثم ينتهى الصيف الذى كان يغرق تلك الاصقاع بطوفان ذهبى . ويبدأ الشتاء فيرون الربى مجللة بالثلج الابيض ، ثم تهاجمهم العواصف الصرصرية ، وتتكاثف عليهم الامطار الدائمة ، وتتلبد آفاقهم بالغمام القاتم ، فتحملهم عصبية روحية تجعلهم ينتظرون ملاك الربيع على مثل جمر الغضا .

وقصارى القول ان فتيان النصيريين يشبون وهم بين تلك المؤثرات الطبيعية التى تفيض عليهم بالبدايع والمحاسن ، وبهذا تكون احدى ملكاتهم الذهنية نامية متفيضة فتنكشف بهذا الوسط الصالح . اما ملكاتهم الاخرى فانها تبقى معطلة عقيمة ، مضحاة فى سبيل اختها النابغة . ولهذا فان الدور الاول من حياة النصيريين يبعث الروح فى طبعهم الخيالى الذى فطروا عليه . ويميت فيهم سائر الملكات الذهنية ويبيدها .

لا حاجة الى اعمال الذهن للاطلاع على ان احداث النصيريين الجاهلين لا يعرفون شيئاً غير التراب اليابس ، ومهنة الزراعة على النسق القديم ، وانهم لا علاقة لهم بالعلم . ولذلك كانوا غير قادرين على المحاكمة الذهنية ، وظلت قواهم العقلية محرومة من كل فيض ونمو .

ثم ان الحياة عندهم التى لا نصيب لها من القصبات المنتظمة ، ولا من الطرق الواسعة ولا من النظافة ، والشرائط الصحية فى المعيشة ، ولا من المدارس والمصانع ، ولا من المؤسسات العمرانية والعرفانية ولا من كل ما تتطلبه المدنية والرقى ، جعلتهم محرومين من العلم العملى الذى يستند على النظر والتقليد .

وهكذا فان النصيريين الذين يشبون بادمغة بعيدة عن كل فكر ، مجردة عن كل عزم وارادة ، لا يكون لهم نصيب من الشعور البشرى والاجتماعى ، ولاحظ من الميل الى المعالى والكمال . لانهم يرون آباءهم وكبراءهم لا يحبون بعضهم ، ويشاهدون تباعد النصيريين عن

ذويهم ولاسيما يطلعون على عدوانهم وبغضهم لمن لم يكن نصيرياً .

ولهذا لا امكان لان يتجلى فيهم الشعور البشرى ، او ترقى لديهم الاحساسات الاجتماعية ولا يشعرون بمعنى الوطن ولا قدسية العلم، حتى يوجد عندهم ميل لاعلاء شانهما . ولهذا فان هذه المعالى التى لم يعثر عليها فكرهم لا تدخل لهم قلباً .

ساقتهم الطبيعة لان يتحروا الوسائل لاملاء ما اوجدته المحرومية فى انفسهم من الفراغ فهبت لامدادهم طبيعة المحيط ، واندفقت على فراغهم المطلق واملئته بفجرها وشفقها ، وشمسها وقمرها ، وارضها وسمائها ونجومها وطيورها ، وسهولها ونجودها ، وغيرها من العناصر البديعية .

لاسيما « الحقيقة المكتومة » او « السر الخفى » الذى لا يزالون يسمعون صداه من آبائهم ، كان لهم وكناً يأوى اليه خيالهم ، ذلك الطير الحر النورانى وهدفاً مرتفعاً يعرج اليه .

ثم بعد ذلك الانتظار المديد لا يلبث كبراؤهم ان يجتمعوا ويكشفوا لهم الغطاء عن سر (ع ، م ، س) . ويشرعوا بتلقيحهم بكثير من الخيالات الغامضة ، ويومئذ تقبل تلك الادمغة التى جعلها المحيط والعرق الموروث مهيأة لتلقى كل خيال ، وتعتنق هذا الدين الخيالى المجرد عن كل خصيصة حسية او عقلية ، والموافق لما قام فى اذهانها من الافتتان بالخيال . وكلما عالجوا الاطلاع على نقاطه الغامضة باعمال الذهن ، يزج بهم فى الاضلال ويبعدهم عن كل حقيقة وعلم .

هنالك يعلمون ان للحياة وللطبيعة التى تحيطهم معان باطنة . وهنالك تكون السماء والقمر ، والشفق ، والشمس ، وكل ما كانوا يشعرون به من العناصر البديعية الخيالية فى نظرهم اركاناً لمؤسسة خيالية اعظم من الاولى واعلى . ثم يشرعون بارتياد الموادوالكلمات او الاشارات للتعبير عن تلك المقاصد الخيالية التى يعجزون عن ابرازها . فيكون البدر والهلال والسماء والخمر فى نظرهم اشكالاً ظاهرية ، ثم المذاهب والاديان التى تحيطهم حجباً خارجية . وهنالك يستحوذ ذلك الخيال الذى نشط من عقال العقل ، وبعد عن المحاكمة المنطقية على ارواحهم بعد ان يستفز الادمغة بهياج اعمى . ويومئذ تشعر تلك الارواح التى شغفت باظهار هياجها المرافق لذلك الخيال الفياض بانها مجبورة على ان تستر المعانى المقصودة باشكال ظاهرية ، فتعالج افهام تقلبات (على) ، آلههم الاساسى على وجه القمر ؛ وتضع للقباب السبع اسماء سعدى وزينب وغيرها ، ثم تسمى محمداً وسلمان ومقداد الذين هم اركان الديانة باسم البطريرك والراهب وغيرها . وهكذا يملؤن الآثار التى ابدعوها بالرموز والمبهمات العديدة .

وقصارى القول يمكننا ان نجمل ما فصلنا الى الآن ونقول : ان للنصيريين حالة ادبية

خيالية محرومة من الحس والعقل بتأثير تلك الاسباب والافاعيل ثم لهم ادبيات رمزية *Symbolique* مشحونة بالرموز الملونة .

٣ — تاريخ ادبيات النصيريين

اذا فكرنا ان للنصيريين الذين ملكوا على اهم عناصر الادب ، ماض يربو على عشرة قرون . نعلم ان لهذه الامة القديمة ثروة عظيمة من الادب ، وتاريخاً ممتازاً فيه . على ان افراط هذه الامة وانهماكها باخفاء اسرارها الدينية اوجب بقاء احكام مذهبها وحقيقته تحت غشاء المجهولية حقباً طوالاً ، وهكذا كان الحال فى آثارها واشعارها فان ما تثابر عليه من التعصب فى التقيد لاخفاء آثارها الشعرية والادبية اوجب مجهولية تلك الآثار ، وابعد تاريخ ادبياتهم عن البحث والتدقيق . هذا وان يكن لا لزوم لتدقيق جذور واسس اللغة العربية — لانها معلومة — التى ابدع بها النصيريون اشعارهم ؛ ولكن كان من الضرورى تدقيق الادوار الادبية التى مر عليها هؤلاء القوم منذ تأسست هيئتهم باسم النصيرية الى الآن ، وشرح ما تحتويه آثارهم الادبية من السجايا والخصائص الخاصة . اذ لا بد لهؤلاء الذين نشأوا فى اصقاع تختص باوصاف متنوعة من سورية التى كانت مسرحاً لمتنوع الحادثات السياسية والاجتماعية ، ان يرسموا تطورهم وتقلبهم فى اشعارهم التى يبدعونها . ولكن من اصعب ما يكون نيل ولو بعض ما يطلعنا على اوصافهم الروحية وسجاياهم الادبية التى يجب ان يكونها فيهم تأثير العرق والاقليم، والمحيط والحصول على بعض اشعار تناسب المقام نستشهد بها على تأييد الآراء التى نستنبطها ، ناهيك عن التحفز للاستحواذ على الوسائل التى تمكننا من ايجاد تاريخ مفصل لادبيات هؤلاء القوم .

حتى ان المستشرق المعروف (قله مان هوآر *Clement Huart*) يقول [*] بعد ان تألم من تعصب النصيريين المفرط بخصوص كتم دينهم ، وآثارهم : لم يعرف شىء عن الديانة النصيرية الا بعد ان نشر سليمان افندى الاذنى كتابه المشهور المسمى بالباكورة واشعارهم ايضاً لم يطلع عليها احد الا بعد تلك القطع التى ضمها الكتاب المذكور . . .

فاذا علمت ان الاشعار التى تنتمى الى النصيريين ، هى عبارة عن ما حواه كتاب الباكورة وست عشرة منظومة سنبحث عنها ، واربع قصائد استنسخها « قله مان هوآر » من الكتابات النصيرية الموجودة فى مكتبة باريز ، ونشرها فى مجموعة (ژورنال آزياتيك) .

(*) راجع مقالة (Clement Huart) التى عنوانها (la poesie Religieuse des Nosairis) فى نسخة ايلول سنة ١٨٧٩ من مجموعة (Journal-Asiatique).

ينكشف لك الغطاء عن سبب عدم تمكننا من تعميق البحث فى تاريخ ادبيات النصيريين وتحرى ادوارهم وآثارهم الادبية .

وانا لم نظفر من شعرهم وشعرائهم الا بما كتب فى التآليف المذكورة من القصائد واسماء اصحابها فقط ، ثم بالرغم عن ما توسلنا به من الوسائط الممكنة للحصول على هذه الامنية اثناء تجوالنا فى ديارهم ، لم نحصل ايضاً على ما يستحق الذكر ولهذا فاننا مضطرون لنستميض عن البحث فى تاريخ ادبياتهم بتدقيق بعض اشعارهم الدينية ، ونقارن بينها وبين ما ذكرناه من المؤثرات ونكتفى بايضاح ما بينهما من العلائق والروابط . وقبل ان نختم هذا البحث رأينا ان ندرج بعض الآثار الخطية (*manuscrit*) النصيرية التى يمكن ان تكون دليلاً لمن اراد تعميق هذه الابحاث فى الآتى . هذا وان يكن بعض هذه المؤلفات مطبوعاً — كما يبن رفيق — ولكن اكثرهم مجهول لا يعلم اين يوجد الآن .

كتب (*Joseph Catafago*) فى عدد تشرين الثانى وكانون الاول سنة ١٨٧٦ من مجموعة (*Journal Asiatique*) مقالة عدد فيها الآثار الخطية النصيرية على الوجه الآتى :

١ — كتاب الهفت الكبير للامام جعفر الصادق .
٢ — كتاب المراتب والدراج .
٣ — كتاب الطاعة من كلام صاحب الساعة .
٤ — كتاب حجة العارف .
٥ — كتاب الدلايل فى معرفة الرسايل لابن قاسم الطابرانى .
٦ — كتاب التجويد للشيخ حاتم الطوبانى الجديلى .
٧ — كتاب التوحيد للشيخ محمد بن سنان الزاهرى .
٨ — كتاب الاسوس .
٩ — كتاب الحقائق لابن شعبه الحرانى .
١٠ — كتاب الاكوار والادوار النورانية .
١١ — كتاب الطالقات .
١٢ — كتاب البحث والدلالة فى مشاكل العلم والرسالة .
١٣ — كتاب الجدول النورانى .
١٤ — كتاب الحجب والانوار للشيخ محمد بن سنان .
١٥ — كتاب التكليف للشيخ محمد بن سنان .
١٦ — كتاب الصراط .
١٧ — كتاب المصرية .

١٨ — كتاب الايضاح .
١٩ — كتاب مجموع الاعياد لميمون بن قاسم الطبرانى .
٢٠ — كتاب المجموع .
٢١ — كتاب اليونان « لاهل الشمال » .
٢٢ — كتاب الحاوى فى واجبات التلاميذ .
٢٣ — كتاب الباطن .
٢٤ — كتاب التأييد للشيخ محمد الكلازى .
٢٥ — « ديوان سيدنا ومولانا الحصيبى .
٢٦ — ديوان الشيخ على الصوبرى .
٢٧ — ديوان الشيخ خليل التملى .
٢٨ — ديوان الشيخ ابراهيم الطوسى .
٢٩ — عينية الشيخ ابراهيم الطوسى .
٣٠ — ديوان الشيخ يوسف ابو ترخان « الشمالى » .
٣١ — ديوان الشيخ محمد بن كلازو .
٣٢ — ديوان الشيخ حسن بن مكزون السنجارى .
٣٣ — ديوان الشيخ صارم .
٣٤ — ديوان الشيخ يوسف الخطيب .
٣٥ — ديوان الشيخ ابراهيم شيخ العيدية .
٣٦ — رسالة باطن الصلاة .
٣٧ — رسالة الزردباشية .
٣٨ — رسالة الجوهرية .
٣٩ — رسالة المرشد .
٤٠ — رسالة الجنانية ،

واذا امعنا النظر فى هذه المؤلفات نجد اكثرها يبحث عن الديانة النصيرية ، ويتكلم عن مناسكها المتبعة . والمؤلفات من نمرة (٢٥) الى (٣٦) هى عبارة عن دواوين اشعار و [حسين بن حمدان الخصيبى وعلى الصوبرى ، خليل النميلى ، ابراهيم الطوسى ، يوسف ابو ترخان ، محمد بن كلازو ، حسين بن مكزون السنجارى ، صارم ، يوسف الخطيب ابراهيم] ثم [على بن صارم ، الشيخ حسن الاجرود] الذين سنذكرهم فى المبحث الخاص كلهم من شعراء النصيريين .

وما لنا علم بحياة اكثر هؤلاء الشعراء . ولكننا نعرف منهم حسين الخصيبى الذى سبق لنا

التكلم عن شخصيته . ويعرف عن حسن بن مكزون انه كان اميراً حلبياً وجد قبل هـذا التـاريخ بسبعة قرون . ويزعم النصيريون ان لهم شعراء غـير هؤلاء مثل « محمد بن شعبى الحرانى والمعز بن صـالح ، ومحمد بن حسن التلافرى » . ثم بعد هذه المقدمة المجملة ننقل الكلام الى اشعار هؤلاء الشعراء التى هى دينيـة بحتة .

٤ — اشعار النصيريين الدينية

١ — **الاناشيد الثلاث** — ان الحسين بن حمـدان الخصيبي اكبر مؤسسى الديانـة النصيرية ، ثـلاث اناشيد درجت فى كتاب الباكورة يـسميهـا النصيريون « ترنيمه » وهذه الترنيمات تتلى اثناء تقاليد الدخول فى الديانة النصيرية ، وفى الاعياد المعروفة ، وتقرأ على سبيل التفاخر والمباهاة من قبل شخص واحد ثم يشترك بترتيلها الآخرون.. وهذه هى :

— الترنيمة الاولى —

يا ظاهراً لم تغب عنا   وباطنـاً لم تزل فردا
صفاتك الخالقات حسبي   وبابك السـلسلى حمدا
اجب لداعيك واعف عنا   وارحم ما مضى قبلاً وبعدا
نحمد الله بالحق حمداً   واختم صلاتى بالعين فردا

— الترنيمة الثانية —

منك بدى ظاهر الصفات   وكل خير منك ياتى
يا احد لم يحط منـه   لا بصفات ولا بذات
وجهك لى قبلة اصلى   اليه من سائر الجهات
يا كل كلى وانت كلى   ياعلياً وفيك اختم صلاتى

— الترنيمة الثالثة —

كلما نابنى من الدهر خطب   صحت يا جعفـر اله الانام
انت ربى وخـالقى ومليكى   وانت ذو الكبريا ولى النعام
وانت فوق السما على العرش تعلو   وانت فى الارض حاضر على الكلام
وانت اسماؤك الحسين وموسى   وعلياً وانت محى العظـام

ان هذه الابيات تشف عن اعتقاد النصيريين بصورة واضحة . ولهذا لا نرى حاجة لزيادة شئ عليها . ويجب ان يكون لهذا الشاعر قصائد كثيرة من هـذا النوع ولكن لم نظفر بشئ منها . والقصيدة التى مطلعها :

حكم ساقهـا اليكم اخيكم
عبد عبدٍ لثانى عشر بدور

هى له .

[٢] — **قصيدة الهبوط** — بينا سابقاً اعتقاد النصيريين فى كيفية تكوين الكون وقلنا انهم يزعمون ان قد كانوا كواكب فى السماء ثم هبطوا الى الارض . وهذه العقيـدة الاساسية كانت محوراً يدور عليه كثير من اشعارهم . وقصيدة (الشيخ محمـد بن كلازو) من شعراء النصيريين هى من هذا النوع . وهى تتركب من خمسة وعشرين بيتاً . ومطلعها :

ذكرت زماناً كان لى قبل هبطتى
ففاضت عبرتى وزادت حسرتى..

ثم بعد ان افصح هذا الشاعر عن ما عنده من الحسرات على حادثة الهبوط ، نقـل الكلام الى ذكرى ذلك الزمن الزاهر فقال :

فكنا بدار العز فى اوج العلى
تسير مع الاملاك فى كل روضة

وبعد ان تكلم عن تلك الذكرى الناضرة ، اخذ يفصل عقيدته الاساسية ويقص قصصها فقـال :

الى ان اراد الله يتم حكمه   فقال ساهبطكم الى دار الدنية
واظهر ذاتى فى حجاب كجنسكم   واريكم حجبى كسراب البقيعة
ويحسبه الظمآن ماءً اذا اتى   اليه فلم يوجد شىء حقيقـة
فمن قد عرفنى حين اظهر بينكم   حجاباً ويفردنى عن البشرية
فذاك آمنه من الخوف والعنا   واخلصه من كل هول وشدة
ويرجع الى ما منه ابدى مسارعاً   واسكنه فى ظل روضات جنتى
رددنا على الرحمن ما قاله لنا   هبطنا لدار الذل من بعد رفعـة

ثم ينتقل الشاعر بعد هذه الابيات الى ذكر القمر الذى يتجلى « على » فيـه بصورة رمزية ويقول :

سألتك يا هبق بذات اظهرتها
لنوجدها كجنس بين البريـة

ويقصد من كلمة (هبق) مدلولات حروفها . فالهـاء مدلولها « الهلال » والباء « البدر » والقاف « القمر » . وما سبب ذكره للايتام الخمس برمز « نحاآت » ، واشارته الى القمر بكلمة « رمق » اى بعكس الكلمة الا الاحتفاظ بالسر المكتوم الذى يحرص على كتمه .

[٣] — **عرائس الديوان** — ان للنصيريين اشعاراً دينية يكتبونها فى آخر دواوينهم ويسمونها « عرائس الديوان » . وموضوع هذه الاشعار القباب السبع التى يزعمون ان آلههم « على بن ابى طالب » تجلى فيها فى ازمنة مختلفة . ويكنون عن كل واحد باحد هذه الاسماء النسائية :

(١) سعدى (٢) مى (٣) رباب (٤) زينب (٥) عليا (٦) ابنى (٧) ليلى . ويكون عنوان شعرهم مقروناً باحد هذه الاسماء، ثم لا بد ان يتكرر ذكر الاسم فى الشعر ايضاً

ونرى ان اشعارهم هذه ارجح من غيرها واقبح . ومع هذا فان اشعار النصيريين — كما قال مؤلف الباكورة — لا وزن ولا اعراب ، كما هو الحال فى سودهم وادعيتهم .

ويوجد فى كتاب الباكورة اثنى عشر قصيدة من نوع هذا الشعر ، تسع منها للكلازيين وخمس للشماليين . وقد اثبتها « قله مان هوآر » فى مقالة له نشرها فى مجلة « ژورنال آسياتيك » ثم اضاف اليها اربع قصائد اخرى استنبطها من الكتابات النصيرية الموجودة فى مكتبة باريز . وها نحن نذكر على وجه الاجمال اللاتى كتبت فى « الباكورة» ثم ننقل الكلام الى الاربع الاخرى:

١ . اشعار الكلازيين الدينية

ان اول شعر من التسعة التى ذكرت فى كتاب الباكورة هو للشيخ ابراهيم الطوسى يتغزل فيه بزينب . وها نحن نذكر هذه القصيدة برمتها لتكون نموذجاً نطلع به على نسق هذه الاشعار :

— شعر للشيخ ابراهيم الطوسى يمدح به الست زينب —

اسقيانى احبتى واطربانى   فى هوى زينب [*] زين المعانى
اسقيانى من الصبوح رحيقاً   عتقت فى دنانها الارجوانى
هام وجدى بحبها يا نديمى   حرت فى وصفها وكل لسانى
بنت بكر لها من العمر عشر   واربع فاق نورها النيران
شعرها اسجف الضيا فحجبنا   تحت اكليل تاجها الكسروانى
حاجباها جبينها نور زاه   طرفها غنجه سحر (**) دهانى
وجهها كالهلال يشرق نوراً   خالها عنبر على الوجنتان

[*] يرى (قله مان هوآر) زيادة (و) بعد كلمة زينب لاجل استقامة الوزن .
[**] ويقول بلزوم الحاق (ف) فى اول كلمة سحر . لاجل عين الغرض .

واذا ما تبسمت فاح عطر   وبدا بارق الوميض اليمانى
صدرها ناعم كلمس حرير   فيه رمان احمر شهربانى
فطلبت الوصال منها فقالت   ما لنا رغبة بمن كان زانى
قلت حاشا متيم فى هواك   مغرم ان يكون نسل الزوانى
نسبتى احمدية من حسين   جنبلانى جندب نمروانى . .

وهذه القصيدة تشف عن خيال بهيج واسع . ويقول مؤلف الباكورة ان المراد من « اربع عشر » هو الليلة الرابعة عشر من الشهر ، ويفسر كلمة « الرحيق » بالاطلاع على (المعرفة) .

* * *

اما القصيدة الثانية من الباكورة فهى لحسن بن مكزون السنجارى وتتألف من عشرة ابيات. وهى تشبب فى « سعدى » . وهذا مطلعها :

لبانتنا هواك وما لبينا   سوى اسم به عنه كنينا

* * *

والقصيدة الثالثة للشيخ صارم فى مدح القمر ، مطلعها :

انحرف يا نون يا حاجب المقرون   تنظرك بعيون من فوق عليون

ولعل المقصود من النون هنا . هو القمر ، او الهلال لتقاربهما فى الشكل . ثم مدلول « ع » فى هذه القصيدة التى تتألف من سبعة عشر بيتاً ، هو على بن ابى طالب . وفيها عدة حروف اخر لكل واحد منها مدلول باطنى .

* * *

والقصيدة الرابعة هى للشيخ محمد بن كلازو يمدح فيها القمر ايضاً ، وهى تتألف من عشرة بيوت . ومطلعها :

قد شفانى ابريق عذباً (*) لماكا   يا غزال بوادى الاراكا

وقد اعتنى صاحب الباكورة بتفسير هذا البيت اعتناءً خاصاً . وقال ان معنى الغزال بالنظر « للظاهر الباطن » هو « القمر » ، ومعنى الوادى « السماء » ومعنى « الاراك » « الكواكب » ؛ اما بالنظر « للباطن الخفى » فالمقصد من الوادى هى « هالة القمر » ومن الغزال « الغشاوة التى ترى فى منتصف القمر » ، ثم الاراك كناية عن الكواكب والندامى .

* * *

وكل اشعار الكلازيين على هذا النسق . ثم ان القصيدة الخامسة هى لهذا الشاعر ايضا

[*] استبعد (قله مان هوآر) معنى هذه الكلمة وقال انه حولها الى كلمة « ماء » .

يمدح فيها (الخمر) او « القمر » . وقد ضمنها رموزاً كثيرة . فقولة «خمر مزاجها زنجبيل» يقصد به الهلال الممزوج بدائرة سمراء . والمقصد من الكؤس « دورة القمر » .

وبما ان الاشعار الدينية النصيرية كلها على نسق واحد فى المعنى والتبليغ اضربنا عن ذكر قصيدة الشيخ محمد كلازو التى تتألف من عشرة بيوت فى مدح القمر وقصيدة الشيخ خليل التميلى المأخوذة من ديوانه المسمى «ديوان التضريع» وهى عبارة عن ثلاث وعشرين بيتاً . وثمانى ابيات له يتشبب فيها بـ « زينب» . وقصيدة الشيخ يوسف الخطيب فى مدح القمر المؤلفة من اثنى عشر بيتاً ، ولهذا فاننا نحيل من شاء التوسع فى هذه الابحاث الى مطالعة الكتب التى ذكرنا اسماءها .

٢ ٠ اشعار الشماليين الدينية

ذكر فى كتاب الباكورة ثلاث قصائد من عرائس لديوان للشماليين. فاولها قصيدة الشيخ يوسف ابو ترخان مدح فيها السماء وهى عبارة عن احد عشر بيتاً. والثانية هى لهذا الشاعر ايضاً سماها بالمعراج وهى عبارة عن ستة عشر بيتاً. والثالثة هى للشيخ ابراهم شيخ العيدية من نسل الشيخ يوسف ابو ترخان ، وهى عبارة عن اثنى عشر بيتاً .

فالثانية من هؤلاء الثلاث تلفت النظر لما طبع عليه خيالهم من المبالغة والاغراق . اما الاولى والثانية ، فهما يشفان عن التشبه بالنصرانية اعتقاداً واصطلاحاً . فانظروا الشاعر ماذا يقول فى القصيدة الثانية المسماة بالمعراج :

سريت مجداً فى طلب السرور لنفسى بالتنزه والحبور
الى ان طفت لاسبع الاراضى وجلت سهولها ثم الوعور
رأيت من العجائب ليس تحصى وقد عاينت للسبع البحور
وقد شاهدت قافاً فى عيانى مع البحر المحيط به الزخور
ظفرت بلمره منه وانى بلغت بها الظلال وكل نور
وسد اسكندر فى رأى عينى لقد شاهدته ياذا الخبير
ويأجوج ومأجوج جميعاً رأيت طويلهم ثم القصير
وشمس الافق مغربها فانى بلغت اليه فى جدى وسيرى
بعين حامية تغرب وتخفى بماء اسود صعب خطير
ويونس بحره ايضاً عيان ونون حوته ياذا الخبير
وايضاً قد رأيت الخضر جهراً وهو انزع ليس له نظير ... الخ

وهذا الشاعر بهذا الخيال المطلق يبرهن عن روح نصيرية كاملة . وقد تسنى له فى تجواله

الخيالى ان يرى الاراضى السبع ، والبحار السبع ، وكل ما هنالك من الغرائب ، وسد الاسكندر ، ويأجوج ومأجوج ومغرب الشمس .. . الى آخر ما شاهد من الاضداد المتنوعة .

والشيخ ابراهيم هذا كاد ان يكون نصرانياً بفكرته ، وبيانه . ومن اشعاره فى هذا الباب قوله :

تنادى راهب الرهبا ن هات الخمر واسقينى

وقوله :

ندين بدين مريمة ونبغى سر آمين
نطيع الروح ايسوع ونحبو بالشعانين

فما اغرب بيان هذا الشاعر بخلطه العقائد النصيرية بالرموز النصرانية . فاذا اردنا ان نطلع على درجة هذه الغرابة ، علينا ان نقرأ السطور المفسرة لهذه الرموز فى كتاب الباكورة .

يقول صاحب الباكورة :

« يقصد النصيريون « على بن ابى طالب » بكلمة « بطرك » ، و« محمداً » بكلمة « راهب الرهبان » او « مطران » ، ويرمزون عن سلمان الفارسى بكلمة « خورى » ويسمون مقداداً باسم « قسيس » او « شماس » . ثم يكنون عن الكواكب والمراتب السبع بكلمتى « رهبان » و« هيفات » ويقصدون من كلمة « صيوان » الفضاء ومجمع الكواكب . اما « الملاعين » فهى « الطائفة الاسلامية » .

وهذه الاشعار تدلنا على ان خيال النصيريين المتشرد يحتاج الى ضابطة عقلية .

٣ ٠ الاشعار التى رواها قلهمان هوآر

يجب علينا قبل اتمام هذا البحث ، ان نذكر القصائد الاربع التى نقلها قلهمان هوآر عن الكتابات النصيرية الموجودة فى مكتبة بارز .

فالاولى للشيخ على بن صارم وهى عبارة عن ثلاثين بيتاً . ومطلعها :

سألتك يا الهى بالنبيا
باحمد اسمك النور الجليا
بفاطر فطرة الرحمن حقا
وبالحائين والاسم الخفيا... الخ

يستمد هذا الشاعر من (على بن ابى طالب) اله النصيريين ، ومن (احمد) نوره الجلى ثم من فاطر « فاطمة » ومن الحائين اى « الحسن والحسين » ثم من الاسم الخفى

اى (محسن سر الحنى) . ثم يتسلسل هذا الاستمداد الى ان ياتى على اسماء جميع اعزة النصيريين .

والقصيدة الثانية هى لهذ الشاعر ايضاً . وتتالف من أثنين وعشرين بيتا ، وكادت ان تكون عين هذه القصيدة . ومطلعها هذا يدلك على انها شكل مكرر للقصيدة الاولى :

سألتك يا الاهى يا عليا
باحمد اسمك (الميم) الرضيا

اما القصيدة الثالثة فطلعها :

بدر اضا متجلياً لماحا
بالنور كالمشكاة والمصباحا

وهى للشيخ محمد الكلازى وتتالف من خمسة عشر بيتاً

والقصيدة الرابعة للشيخ حسن الاجرود ، تتالف من مائة واربعة مصاريع .وهى غرامية مجونية . وهذا مطلعها :

قم الى الراح بانشراح فوق بسط من زهور
فى فصول نيسان
واجعل جلوسك من صباحك واستقبل الديجور
اياك تكن نعسان
وان كان جليسك سيدالملاح تحضا بذاك النور
وتذهب الاحزان... الخ

وهذه الادوار وان لم تخل من الرموز والكنايات هى اطرب اشعار النصيريين وارقها. وهذه هى الآثار التى وصلت ايدينا اليها من ادبيات النصيريين . ولا بد للزمان ان يكشف الخفاء عن مكتوماتها .

—١٢—

من برمانه الى طرطوس

كانت شمس تموز كالنار المحرقة لا تقوى النفوس على تحملها . وهذه حقيقة ما فتأت تؤيدها تجاربنا فى الاسفار التى امضيناها الى الآن .

وان ادرى ما كنا صانعين ؟ اذ ما زالت تتعاقب هذه التجاريب الجهنمية ، وترهقنا

اشق العذاب ، ثم لم نستطع التملص من ذلك التنور التموزى . وما كدنا نزمع على مبارحة نسيم برمانه البليل ، فى الغد الا ولمع فى خاطرنا هذا الانشواء ، فكنا نقول بعناد نصيرى :

— من المحتم ان نعمل على التخلص من سعير هذه الشمس المحرقة باى واسطة كانت .

ولما عقدنا الراى على انتقاء الطريق المريح بثبات متين او بالاصح بعناد جامد لا زلنا نعجب من ميل طباعنا اليه . حتى وطنا انفسنا للسرى غير هيابين ظلام الليل الحالك . وبلغ برفيقى التحبيذ على هذا الاقتراح لدرجة اصبح فيها يقول :

— كم يكون السرى لطيفاً فى الليل الرطيب ؟ والانسياب فى طيات الظل ، بحالة الظل ؟

ومع هذا ، فقد تضاعف ابتهاجنا لما قيل لنا ان وجهتنا قريبة لا تتطلب هكذا مفاداة ولا جرم ان قطع هذه المسافة فى زمن مضيء ، بليل النسيم هو انفع لنا واولى . واننا سنهب غداً قبل بزوغ الشمس بساعتين حينما يكون كل شيء تأهب لتشييع السبات ،ونركب الطريق . وهكذا لا نزال نسير فى ظل الغدوة حتى نصل الى (طرطوس) قبل الزوال بمدة . لا انكر انى لا اعلم ليلة عالجت فيها اصطياد النوم بفكر مستريح ، وبال مطمئن كهذه الليلة .

*
* *

لما فتحنا اعيننا بعد ما سمعنا صرير الباب . كنا نرى الكواكب تتقد فى كبد سماء هذه الديار النصيرية التى حشيت بالاسرار الغامضة . وكان حينئذ لا اثر للنور وراء ربوة « تليجه » التى كانت قائمة امامنا كانها ظل مجسد وكان الهدوء مخيماً على القصبة ، والسكون سائداً فيها . ولا من ممزق لتلك السكينة الصامتة الا ماء القصبة بخريره . وكنا نغادر برمانه على متون الجياد ، ونسيم الصبح ينفحنا بهبة عليلة كانها ايد من حرير ،وكنا مستيقنين بان لنا فى هذا اليوم سعادة هنية .

لم يزل الظلام مخيماً ، فاخذنا نهبط فى منحدر من عقبة صخرية ، وكانت ظلال اشجار الزيتون حوالينا كانها تتراكض من امام نظرنا وتنتشر فى السهول حتى تملئ ذلك الفضاء . اخذنا نخوض فى تلك الظلال، ومرت علينا قرية « القصيبة » كالطيف . ولم نزل حتى وصلنا الى وادى « ابو ذكرا » المشرف على الناحية الغربية ونظرنا الى خلفنا . فرأينا ربوة تليجه كانها بناية من ظل تتساقط وراءها نجوم السماء وتغيب عن الانظار ، وكنا نشعر بدبيب النور فى ذلك الديجور ، ونرى انكشاف السواد بالبياض رويداً رويداً ، ها نحن نتبع الضفة اليسرى من وادى ابو ذكره. وحصباءه البيضاء اخذت تشع بلمعة كابية ، وتحاول ان تطلعنا على وجودها . ثم طليت السماء بنور يخاله الانسان من محلول ما غاب عن النظر من الكواكب

او جذابها . كل هذا كان يبشرنا بموكب ملكة النور وقرب بزوغها .

لم تمض برهة الا وشرع النور يمد بطلائه على هامات الربى التى كانت قائمة حوالينا وانجلت غشاوة الدغشة . واخذت الالوان تنقلب من تلك السمرة الكابية الى خضرة وحمرة وصفرة . وانجلت لاعيننا الاشجار والازهار والرمال . لاسيما لما اجتزنا الى الضفة اليسرى من الوادى . كانت آثار السيل الشتوى تشاهد على ضفافه بوضوح .

هذه امواج النور تندفق من اعالى الربى الخضراء التى قامت عن ايماننا وشمائلنا على امتداد الوادى . وها هو نسيم الصبح التموزى يهب بنعومته المنعشة فيملئ قلوبنا نشاطاً ورغبةً . وبعد ان مررت عن يميننا ربوة (المحتضية) وعن شمالنا ربوتا « عين عرفته وبيت الناصرة » ولاحت لنا قرية « بيت الناصرة » ، هنالك تمكنت الشمس من الوصول بشعاعها الذهبي الى طريقنا فى داخل الوادى .

وبعد برهة كنا على الضفة اليمنى من الوادى ، وبعد ان سرنا بين ظل الاشجار مدة وقطعنا مقام « الشيخ محمد جروف » من مزارات النصيريين ، وبعده ربوة « وادى الغورا » ، وعن اليسار ربوتى « الصناع والصلوح » وعن اليمين ربوة « الباطورة » ، ثم عن اليسار هضبة « قلعة الشمال » . وصلنا الى ربوة « حمين » عن اليمين وربوة « المشرفة » عن الشمال .

والآن نرى على يسار طريقنا الحقول المزروعة بالذرة الصفراء او البيضاء . والبنات النصيريات النشيطات واقفات فى وسط تلك الحقول باحدى ايديهن عصية وفى الاخرى لوح من تنك يقرعنه لتنفير الطيور عن تلك الحقول . وكن يتحفن الاسماع بتلك الطرقات المطردة ويتراكضن يمنةً ويسرةً ، ويقفزن ويثبن ويجعلن بنشاطهن المنظر متموجاً . وها نحن انعطفنا عن وجهتنا واخذنا نتسلق فى جبال « المشرفة » التى كانت على شمالنا .

وما كدنا نصل الى قمة الجبل حتى تراآى لنا واد آخر وورائه هضبة « رويسة حماد » وقريتها . وما زلنا آخذين فى تسلق الذروة فى انقاب حلزونية حتى وطأنا هامتها ورأينا هناك سنديانة كبيرة يتجاوز قطرها بضعة امتار ، وتحتها مقبرة صغيرة . فلبثنا هناك برهة نتصفح الآفاق من الجوانب الاربع ، وكانت جميع تلك الاصقاع مطرزة بالنور العسجدى من ذلك الغدوة التموزية .

فارقنا تلك الشجرة المعمرة وانحدر معنا الطريق ، وكنا نرى قبالتنا الهضاب صبراً صبراً ، وحينما وصلنا الى وادى (بسورى) تعالت عن يميننا ربوة « بيت الزينة » وعن شمالنا ربوة « بسورى » . اما الوادى الذى كنا نسير فيه فكان متناه فى اللطف والحسن . لاسيما الضفة اليسرى فانها كانت مملوءة بشجر الآس ، التى اشبعت نسيم ذلك المحيط نكهة عطرة . وبعد ان شممنا من ذلك العبير المسكر ما شئنا ان نشم ، وصلنا بسيرنا الى « غدير بسورى » . وكان هذا الموقع فى منتصف الطريق بين برمانه وطرطوس .

وبعد ان غادرنا الغدير اخذنا نصعد ونهبط ونغور ونجد على امتداد الطريق . ولكن كان اكثر سبيلنا مظللاً بالاشجار وساحة نظرنا مملوءة بالخضرة الناضرة .

يا للسعادة ، ما الطف هذا الطريق ؛ وما اجمل تلك الاكلة البيضاء الندية التى تتوجت بها اشجار الآس الزمردية ، وما احلى المسير على هامات الربى حيث يتعالى الانسان ويطأ رؤس الشواهق باخمصيه .

كانت مناظر هذه الاصقاع فسيحةً لطيفة . وكانت عن يمينها جبال « طيشور » و« الحويطات » وقريتاهما ، ثم جبال « مرزحين ودرميه » تلوح عن بعد . وعن شمالها ربوتا « بيت الحاج » و« ظهر البازدية » وقريتاهما ثم على غلوة منهما ربوة « كرم بيرام » وقبالتنا على بعد تلوح جبال « الكاشفانى » .

سرنا نحو ساعة على هذا النمط ووصلنا الى وادى « الغمقة » . وكان يحمل آثار السيل الذى طرقه فى الشتاء . ثم بعد برهة اخذنا نتسلق فى مرتقى نفنف ، وكانت جبال « ظهر النقيب » عن يميننا وجبال « الكاشفانى » عن شمالنا .

ولما وصلنا الى الجانب الغربى حيث يجب الهبوط الى وادى « ظهر النقيب » لمحنا البحر عن بعد وظهرت امامنا الهضاب والقرى . فكان عن يميننا جبل « القصيبات » وقرية « الحبيش » وعن شمالنا قرى « المظاهرية ، حارة هرجيش ، الشماليات » وورائنا قرية « بيت اسماعيل » و« الجديدة » وامامنا فى البعد قرية « بيت عليان » و« بيت كمون » كانهما فى حضن البحر . وكانت كلها مشاهدة بشكل واضح .

ثم بعد برهة تراأت لنا جزيرة « آرواد » كانها صدفة ترصعت بها زرقة البحر وبشرتنا بقربنا من طرطوس . وكانت منا على مسافة ساعة . وكنا كلما قربنا من البحر نرى قرى جديدة ، او تتضح لنا التى كنا نلمحها . ثم بعد ان مررنا بسهل واجتزنا بضع قرارات وكانت الشمس بعيدة عن الزوال فاخذنا نقرب من طرطوس التى كان منظرها متناه فى اللطافة ببيوتها البيضاء الناصعة ، وها نحن ندخل القصبة من بين الواح الصبار المحيطة بها .

— ١٣ —

طرطوس

١ — موقع طرطوس ومنظرها وخطوطها الداخلية

ان قصبة (طرطوس *Tartous*) مركز ناحية طرطوس التابعة الى لواء طرابلس

الشام مبنية على الساحل الشرقى من البحر . ويوجد شمالها سهل واسع ثم (نهر الحصين) ومن ورائه الحقول الفسيحة . وشرقها البساتين التى تمتد مسافة نصف الساعة واشجار التين والليمون ثم الحقول الفسيحة ومشجرات الزيتون ، اما جنوبها فهو عبارة عن السهول ومن ورائها مصب نهر (الغمقة) .

اذا نظرنا الى طول هذه القصبة من الشمال الى الجنوب وهو يربو عن الف متر ، ثم الى عرضها من الغرب الى الشرق الذى لا يتجاوز ثلاثماية متراً ، وعلمنا انها محاطة بالبساتين ، يحصل لدينا فكر اجمالى بهيئة هذه القصبة التى كانت على شكل المستطيل .

ان لهذه القصبة منظراً فسيحاً ؛ تطل من الشمال على جبال (مرقب) التى تلوح عن بعد ومن الشرق على جبال صافيتا وقرى الشيخ سعد والحريبات ومن الشمال الشرقى على قرية (الدوير) ومن الجنوب على قرية (ظهر بيت عليان) ومن الجنوب الغربى عن بعد بضعة كيلومترات على جزيرة « ارواد *Aradus* » ثم من الغرب على بحر خضم يتغلغل فى البعد وراء الآفاق . ولا جرم انها قصبة لا تنقبض فيها النفوس.

ان هذه القصبة المسورة بسورين متداعيين ، السور الشرقى ، والغربى تتألف من اربعماية ، او خمساية بيتاً ، وتنقسم الى اربع محلات . وتسمى الناحية الوسطى منها باسم « الساحة » و « الخندق » . والناحية الجنوبية باسم « الخراب » او « النصارى » ويسمى القسم الشمالى باسم « البرانية» . واحدث هذه المحلات واصغرها ، هى محلة « البرانية » .

والابنية الجديدة فى طرطوس تشبه ابنية الشام فى محلة المهاجرين . واكثر هذه البيوت عبارة عن طابقين تحتوى على غرفتين او ثلاث ، وكلها مبنية بالحجارة . اما البيوت القديمة فانها تشبه البيوت القديمة فى بيروت وصيدا وكلها مستورة بالسطوح المطلية . ويسمون هذه السطوح « عدسة » ، ولا اثر يستحق الذكر فى هذه القصبة غير جامعيها ومسجدين ، وعمارة مهمة من آثار الصليبيين ، وكنيسة ، او كنيستين للروم الاورثودوكس وبناء على وجودها فى موقع تجارى وجد فيها اكثر من ثلاثماية حانوتا . ويوجد فى داخل القصبة طريقان ؛ الواحد يمتد من الشمال الى الجنوب ، والثانى يبدأ من شرقى السور الغربى ، ويتصل بالآخر فى الناحية الجنوبية .

ثم يوجد فى خارج القصبة طريق يمتد الى طرابلس ، وآخر الى اللاذقية، وفى الجنوب الشرقى منها طريق الحريبات ، وفى الشمال الشرقى طريق صافيتا ايضاً.

اما ماء القصبة ، فانها فى ضيق عظيم بسببه . لان جميع الآبار التى فيها ، يكون ماؤها مالحاً بسبب قربها من البحر . هذا وان وجد فيها بضعة صهاريج فانها محدودة . ويوجد فيها من الآبار العامة ، بئر الخراب ، وبئر الساحة ، ثم بضعة آبار بين البساتين يمتاح منها

الماء بمحركات بخارية . [*]

٢ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحالة الاجتماعية فى طرطوس** — توجد فى هذه القصبة التى يناهز عدد سكانها (٥٠٠٠) نسمة طائفتان كبيرتان يفترقان عن بعضهما فى الدين ، وهما الطائفة الاسلامية والطائفة المسيحية . وعدد الاسلام هنا يناهز ثلاثة ارباع المجموع وكلهم من السنيين . ولا يوجد هنا نصيرى ولا اسماعيلى ولا يهودى .

ونستطيع ان نقسم الطائفة الاسلامية الى ثلاث طبقات من حيث الثروة وتوجد فى الطبقة الاولى اربع عائلات . بعضها من صيدا وبعضها من بيروت ومرقب . وعدد افرادها يناهز مأتى نسمة . ويروى ان اغناهم يملك على ثروة تناهز (١٠٠) الف ليرة . وان ربع الناحية ملك لهم . ومجموع اراضيهم يبلغ (١٠) آلاف دونم. وهم يشتغلون بالزراعة والتجارة معاً . ودخلهم السنوى يقرب من (٤٠٠٠) ليرة . وليس لهذه العائلة الوجيهة سيطرة على المزارعين ، ولا تتغلب عليهم . لان تمسكهم المفرط بالاقتصاد وحنكة الزراع الساحليين ودربتهم لم تدع لهم امكاناً للتغلب والسيطرة . اما العائلات الثلاث الاخرى ، ليسوا فى الغنى على درجة العائلة الاولى ولكن دخل اقلهم غناءً لا ينقص عن الف ليرة فى السنة . وهؤلاء ايضاً يشتغلون تارة بالزراعة واخرى بالتجارة .

وافراد هذه العائلات ليسوا من التحصيل العلمى على شئ ..

اما الطبقة الثانية فهى الطبقة الوسطى. وهم متوسطون فى الاقتدار . ولا يزيد عددهم عن بضعة افراد . وليس لهم ذلك النسب الذى رافق القرون كارباب الطبقة الاولى . ولم يحصلوا على ثروتهم هذه الا بتعاطى التجارة ، وارباء النقود . ولهم من الدخل السنوى على الدرجة المتوسطة ما يتراوح بين (٤٠٠) و (٧٠٠) ليرة اما الطبقة الثالثة فاربابها العامة والزراع وهم مفطورون على الحلم والسكينة ، ويبالغون فى الكد والكدح . ويشتغلون اما بالبيع والشراء البسيط ، او يكونون مزارعين عند اصحاب الاملاك ، واقلهم دخلاً يحصل على الفين او ثلاثة آلاف غرشاً فى السنة . ويوجد بينهم مقدار مائة شخص يربو دخلهم السنوى عن مائة ليرة . اما تحصيل افراد هذه الطبقة فهو ابتدائى بسيط . ولا يوجد فى هذه القصبة احد متخرج فى المدارس العالية ، حتى ولا فى التالية . ثم عدد الذين يوجدون فى المدارس الابتدائية لا يزيد عن ثلاثماية . ولهذا فان عدد من يعرف القرائة والكتابة لا يزيد عن عشرة فى المائة.

---

[*] تكلمنا عن الاحوال العمومية فى طرطوس اثناء البحث عن مركز قضاء طرابلس الشام ص١٩٧

ثم لا نجد وظيفة اجتماعية لنساء طرطوس البتة .

* *

اما نصارى طرطوس ، فيمكن ان نفرقهم مثل المسلمين الى ثلاث طبقات . ويوجد بينهم بضعة اشخاص من الاغنياء ، حصلوا على ثروتهم باقراض الدراهم الى الذين يزمعون السفر الى اميركا والآن لكل واحد منهم ثروة تناهز خمسة آلاف ليرة . ومع هذا فقد يروى ان دخلهم قبل الحرب كان يفيض عن بضع آلاف ليرة . ودرجة هؤلاء باعتبار التحصيل ناقصة ايضاً .

اما باقى النصارى فانهم يحصلون على معيشتهم بتعاطى البيع والشراء واذكر هنا ان التجارة فى طرطوس هى فى ايدى المسلمين . ولا يوجد بين النصارى منهم الا مقدار عشرة اشخاص فقط ، يبلغ دخلهم السنوى الى مائة ليرة .

والمسيحيون هنا ليسوا اعلى من المسلمين بكثير من حيث العلم والتحصيل . ولا يزيد عدد من يعرف القراءة والكتابة بينهم عن خمسة عشر فى المائة . ونساؤهم محرومات من التحصيل البتة . ولا جرم ان حياة عائلاتهم انظم وارجح من حياة عائلات المسلمين .

ويجب علينا قبل انهاء هذا البحث ان نشير الى عدد الذين هاجروا الى اميركا . هاجر من هذه القصبة الى اميركا مقدار (٣٠٠) شخصا . ثلثهم من النصارى وخمسون من النصيريين ، اما الباقون فهم من المسلمين السنيين . وقد كان هؤلاء المهاجرون يرسلون الى الناحية (٤٠٠٠) ليرة فى كل سنة .

[٢] — **الاحوال الاجتماعية فى الناحية** — اذا صرفنا النظر عن سكان قصبة طرطوس نجد ان عدد سكان الناحية عبارة عن (٣٠٠٠) نسمة. ثلثاهم من المسلمين والثلث من النصارى . فالمسلمون فى هذه الناحية كلهم من النصيريين . وهؤلاء النصيريون ينقسمون على التساوى الى اربع عشائر : ١— الحدادون ، ٢— الخياطون ، ٣— المتاورة ، ٤— الجردية .

وليس لهؤلاء العشائر ترتيب فى هذه الناحية ولذلك ليس لهم من رؤساء . ومع هذا يوجد فى كل عشيرة شيخ او شيخان . هذا وان كان لهؤلاء المشايخ سلطة دينية واجتماعية على النصيريين ولكن ليس لهم ملك ولا مال .

وهؤلاء النصيريون ليسوا منهمكين باقتناء الاسلحة النارية . ولذلك لم تكن فيهم تلك الطباع الموجودة فى سكان الجبال .

ان النصيريين فى طرطوس يشتغلون بالزراعة اما على عهدتهم ، واما مزارعين عند غيرهم اما قدرتهم المالية فهى على درجة بسيطة بصورة لا يتجاوز دخل اغناهم ماة ليرة فى

السنة . وهذه الدرجة فى الغنى توجد فى كل قرية من القرى . ومن العبث ان نرتاد علما او نظافة لدى هؤلاء النصيريين . وارواحهم مشربة بالرياء والكذب . ومع هذا فقد يروى عنهم انهم اجواد بالنظر لمن حولهم من النصارى .

اما نصارى الناحية ؛ فهم من المارونيين . ويقطنون قرية « الخريبات » وهم يشتغلون بالزراعة ، وخاصة بالزيتون واستحصال الزيت . ويروى انهم لا يهتمون بمآكلهم ومشاربهم ، او بالاوضح انهم يصلون من التقتير الى درجة يرون فيها كل شئ كثيراً عليهم وانهم يدفنون نقودهم فى الارض حتى لا تصل ايديهم اليها .

وهؤلاء ايضاً لا نصيب لهم من العلم والتحصيل ، وحياتهم الاجتماعية ليست بشئ ولا تفرق عن حياة مجاوريهم شيئاً .

— ١٤ —

من لواء الى آخر

بين طرطوس وبانياس

اقنا فى طرطوس مدة، وكنا نخال اننا نعيش فى احدى المحلات المهملة من بيروت . لان هذه القصبة كانت تشبه محلات الاسلام فى بيروت . وتظهر هذه المشابهة بصورة محسوسة فى منازلهم ، وحوانيتهم ، وجميع حياتهم الاجتماعية ، وفى لهجتهم ايضاً . ومع هذا فلا ننكر اننا كنا قريبين من ان نحب هذه القصبة . اذ كنا نراها متناهية فى اللطافة ببيوتها البيضاء وبحرها ، وبصفائح صبارها ، ثم بجميع اشجارها . ولاسيما انها كانت بالنظر لما شاهدناه فى الانحاء الداخلية من القصبات والقرى ، بقعة معمورة لها حظ وافر من الحياة والمدنية . ولهذا كنا نراها لطيفة لدرجة حملنا هذا الارتياح والاستحسان على ان نغضى عن جميع نقائصها .

ولو كان الوقت متسعاً لآثرنا ان نلبث فى هذه القصبة بضعة ايام ، لنزيل ما الم بنا من وعثاء السفر ، ونريح اذهاننا واجسامنا فى حضن ذلك البحر الخضم . ومع هذا فقد كنا نتعزى بان طريقنا سيتبع الساحل ونقنع بهذا التسلية ونؤثر الاسراع الى الاصقاع الشمالية.

عزمنا على مغادرة طرطوس فى صباح الغد . وقد قيض لنا الحظ نسمة بليلة هبت من وراء ابعاد البحر الابيض ، وزارت مرقدنا فى تلك الليلة التموزية واخذت تنفحنا بانفاس مؤنسة كمروحة لطيفة حتى انبلج الصباح .

هببنا من النوم صباح ذلك اليوم . وكان القمر كصحيفة فضية رصع به الجانب العربى من الافق وكنا نعالج الاسراع لمباشرة السفر كما اعتدنا فى اسفارنا الى الآن . ثم ركبنا متون الجياد واخذنا نسير نحو الجانب الشمالى من القصبة . وكانت قصبة (طورطوزا *Tortosa*) القديمة على اهدأ مايكون من السكون فى هذا الصباح تحت انوار القمر الضئيلة.

غادرنا القصبة واخذنا نسير فى طريق محاط بالصبار ، وكنا نشعر بانجلاء قتمة السماء ، ونرى خيوط النور تسرى من المشرق الاقصى الى تلك الظلال فتكشط عنها الايام . وكان السكون سائداً . والبحر ايضاً كان غارقاً فى سباته عن شمالنا . وليس من صائت الا وقع حوافر خيلنا على ذلك الطريق الترابى السهل . ولم يلبث هذا الوقع ان انقطع بدخولنا ارضاً رملية . فعاد السكون المطلق لما كان عليه .

فارقنا طرطوس منذ ساعة ولم نزل سائرين فى ارض سهلة . ثم بعد ان اجتزنا واد سيلى ببرهة وصلنا الى موقع (قارنه *Carné*) القديم المسمى الان « قرنين » . وهذه قرية (دوير الشيخ سعد) تلوح عن يميننا تحت ضياء الصبح المبهم كانها طيف ظلى .

ثم بعد ربع الساعة وصلنا الى (نهر الحصين) . وهنا انتهت حدود لواء طرابلس الشام وشرعنا ندخل فى حدود لواء اللاذقية . وبعد ان اجتزنا النهر تحول طريقنا الى مقصبة . وكنا حينئذ نشاهد اول خيوط الضياء من الشمس التى اخذت تطل من الافق الشرقى ، وآخر شعاع النور من القمر الذى كاد ينغمس وراء الافق الغربى . ولم نزل نتغلغل فى طي تلك المقصبة ، وبنات آوى التى اجفلها طلوع الشمس ، واوحشها قدومنا آخذة تفر من امامنا ، الى وراء مرامى البصر ، وكنا نسمع عواءها بتلك الاصوات الرفيعة من مكامنها الخافية .

ويروى ان لهذه المقصبة احاديث لا تسر ، يقولون ان لصوص هذه الانحاء تكمن فى هذه الغابة ، وتباغت ابناء السبيل وتسلبهم اموالهم . اما نحن فلم نعرض الى هذا المزاح البارد .

وبعد مدة بدأت جبال «عين التينه» تشاهد عن يميننا . ثم اجتزنا منبع «عين التينه ومن هنالك انقلب يسارنا الى مستنقعات ومقصبات .

وبعد ان غادرنا قرية « متن بيت عرنوق » عن يميننا مررنا بـ «خربة ناصيف» ثم وصلنا الى اراضى « يسيرة » ثم الى قريتها . وكنا نسير وعلى يميننا الحقول من ورائها الهضاب الصغيرة ، وعلى يسارنا البحر البعيد . وربما مررنا فى طريقنا بالحقول المزروعة بالذرة .

مرت ثلاث ساعات منذ مغادرتنا طرطوس ، وكنا نقرب من « نهر المارقية » . وبعد ان اجتزنا هذا النهر وصلنا الى هضاب « ضهور الصفره » وقرية « البزاق » عن اليمين وقرية

« الخراب » عن الشمال .

وبعد هذا اطرد منظر الطريق فمررنا بشجرتين كبيرتين من (الجميز *Sycomore*) . وهنالك لاحت لنا قلعة « مرقب » عن بعد . وكانت فوق ذروة عالية . ثم لاح ظل اخضر فى حضن البحر وهذه « بانياس » ايضاً .

كنا نسير نحو القلعة . وبعد ساعة او ساعتين مررنا بقلعة سوداء محلولكة تسمى «برج الصبي» ثم اجتزنا نهر « البوس *Bōs* » وعطفنا عن الصخور السوداء القائمة على الساحل ، واجتزنا « نهر بانياس» بعد مغادرتنا طرطوس بسبع ساعات ودخلنا قصبة بانياس الكائنة على ساحل البحر فى سفح ذروة « مرقب » . حينما كانت شمس الهجيرة تسلق هاتيك الانحاء بشعاع كمذاب الرصاص .

— ١٥ —

لواء اللاذقية

١ — موقع اللواء وحدوده

ان لواء اللاذقية كائن فى الشمال الاقصى من الولاية على (٣٣،٢٥ — ٣٤) درجة من الطول الشرقى و(٣٥ — ٣٥،٥٥) درجة من العرض الشمالى . محدود من الشمال بناحية الاوردو من اعمال حلب ومن الشرق بلواء حما ، ومن الجنوب بلواء طرابلس الشام ، ثم من الغرب بالبحر الابيض . ومساحته تناهز (٥٨١٠) من مربع الكيلومتر .

٢ — الاحوال الطبيعية فى اللواء

[١] — **الجبال والانهار** — توجد جبال كثيرة فى هذا اللواء غير التلال الصغيرة . وان جبل الاكراد من الجبال التى تفرق اللواء عن ولاية حلب فى الشمال ، وعن لواء حما فى الشرق ينقسم فى الشمال الى قسمين الغربى والشرقى . فالشعبة التى تمتد الى الشرق تتصل بسلسلة دزيوس وعمارة . ثم ان جبال العمارة والكلبية والشعرة والنواصرة والبودى والقراحلة وقدموس ليست الا مرتفعات لجبال النصيرية تمتد من اقصى شمال اللواء الى الجنوب . وان اسمى هذه الجبال هو جبل شعرة الذى يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر (١٥٠٠) متراً .

اما الانهار فى هذا اللواء فكلها تصب فى البحر الابيض، بسبب امتداد جبال النصيرية من الشمال الى الجنوب . واكثر هذه المياه ضيقة المجارى ، والاراضى التى تجرى فيها منحطة عن سطح البحر ، ولذلك كان نفعها محدوداً . واشهرها :

انهار [الصنوبر والمضيق والرؤس ، وعرب الملك او نهر السن والمرقية ووادى قنديل وكشيش والكبير ونبع العشرة] .

٢ — الاقليم — ان لواء اللاذقية الذى يجب ان يعتبر بالنظر لموقعه الجغرافى من البلاد المعتدلة الحارة ينقسم باعتبار الاقليم الى ثلاثة اقسام :

فالقسم الاول ، هو الاقليم الغربى ، وفيه تهب الرياح البحرية ، فتعدل طبيعة المحيط وتجعل لكل من المواسم الاربعة امكاناً لاجراء حكمه بانتظام. ومعدل الحرارة فيه (١٧—١٨) درجة ، وربما تبلغ فيه الحرارة ايام الصيف الى (٣٥) درجة ولكن تتراوح على الاكثر بين (٣٠) و (٣١) درجة . اما فى الشتاء فتكون حرارته (٧—٨) درجات فوق الصفر . ويندر ان تهبط الى (٢) تحت الصفر ابان هبوب الارياح الشرقية والشمالية .

والقسم الثانى ، هو الاقليم المتوسط . وهو كناية عن التلال والوديان التى لا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠—٤٠٠) متراً . وهذا الاقليم شديد فى حره وبرده .

والقسم الثالث ؛ الاقليم الشرقى وهو عبارة عن الجبال والتلال التى يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين (٩٠٠) و (٢٠٠٠) متراً . وتهبط الحرارة هنا الى (٥—٧) درجات تحت الصفر . ويكثر الانجماد فى هذه الاصقاع ولهذا يمكن اعتبارها من البلاد الباردة .

اما من حيث الزراعة فالاقليم الغربى والمتوسط يصلحان لغرس اشجار الليمون والتين والكروم ، ولزرع الحبوب المتنوعة ، والنباتات الصناعية والزيتية . والاقليم الشرقى يصلح للاشجار غير ذات الثمر .

[٣] — الامطار — علمنا بالبحث ان مقدار الامطار يبلغ الى (٦٠٠—٧٠٠) ميليمتر فى السنة ، وبما ان القسم الغربى من اللواء مركب من الاحجار والصخور الرملية والكلسية ، وان الرياح التى تهب من الغرب تكون راطبة على الاكثر ، فارتفاع الامطار مقدار (٣٥٠ — ٤٠٠) ميليمتراً يكون كاف لرى تلك الاصقاع . ولا يسوغ ان يحمل الجدب الذى يكون فى بعض السنين على قلة الماء والرى . بل الاصح حمله على سقامة الطريقة المتبعة فى الزراعة ، وعدم انطباقها على قواعد الفن . فاذا استعملت الآلات الحديثة ، وتهيئ لماء المطر ان ينفذ الى كبد التراب ، لا جرم يقل احتمال الظماء وتؤمن سورة الجدب . حتى ان كثرة الامطار تضر بتلك الاصقاع لان معظم سهولها منخفضة

وترابها عبارة عن الصلصال المحض .

[٤] — طبيعة التراب — ان طبقة التراب فى هذا اللواء مختلطة لان اراضى تلك الانحاء بركانية ، وهى من الاراضى الزلزالية ايضاً ويمكن ان يعثر فى بقعة صغيرة على الاتربة التى تنتمى الى ادوار مختلفة ، ويجب ان نعلم ان الاراضى ذات الاتربة الكثيفة كالصلصالية ، او الصلصالية الصوانية ، او الصلصالية الكلسية ، هى اكثر فى هذا اللواء من الاراضى الرملية الخفيفة .

اما صخور التلال المرتفعة فانها عبارة عن فلدسبات ، وقوارس ولهذا تكون كثافة التراب فى السهول الرسوبية عبارة عن ثمانين درجة فى المأة . ويكثر فيه عدد التلال التى تصلح لزرع الحبوب المتنوعة ولغرس الزيتون والليمون واللوز من الاشجار المثمرة . ولاسيما التبغ والتنباك فانهما ينبتان حتى فى رؤس الجبال العالية . والاتربة الملونة ذات حمض الحديد التى تصلح لانماء التبغ توجد فى جميع انحاء اللواء . ثم ان التراب الرسوبى المنبت الذى يكون على طرفى الانهار ، يشغل كمية وافرة فى اراضى اللاذقية ويصلح لزرع كل نوع من الزروع .

٣ — سكان اللواء

نطقت القيود الرسمية لسنة (١٣٣١) بأن مجموع سكان اللواء عبارة عن «١٤٧٦٩٨» من النسمات ذكوراً واناثاً . منهم «١١٩٦٣» من النصارى والباقون من المسلمين والنصيريين . اما النصارى فمنهم «٨٥» فى المأة من الروم الاورتودوكس والباقون من المارونيين والبروتستانت والارمن واللاتينيين . وبما ان مساحة اللواء عبارة عن «٥٨١٠» من مربع الكيلومتر ، يكون نصيب كل واحد منه « ٢٥،٢٥ » نسمة .

وهذه تقسيمات اللواء الادارية :

الاقضية	النواحى	عدد القرى	عدد السكان
مركز قضاء اللاذقية	باير وبسيط	١٨١	٥١٢٥٩
قضاء جبله	•	٣٠٦	٢٨٦٥١
قضاء صهيون	•	٤٣٤	٣٢٩٧٢
قضاء مرقب	قدموس وخوابى	٥٦٩	٣٤٨١٦
يكون		١٤٩٠	١٤٧٦٩٨

٤ — الامور الزراعية فى اللواء

[١] — **الاحوال العمومية** — جاء فى التقرير الذى حرره معلم فن الزراعة فى اللواء ان مساحة لواء اللاذقية تقرب من ثلاثة ملايين ونصف من الدونمات .

اما لقيود الرسمية فانها كانت اعتبارية ، ثم ان آكثر القرى لم تدخل اراضيها فى تلك القيود . ولهذا نرى مجموع الاراضى بالنظر للقيود الرسمية عبارة عن (١،٤٤٧،٧٠٠) من الدونمات . وتنقسم على الاقسام الاتية :

فى مركز قضاء اللاذقية	٣٧٤٨٣٤	دونم
فى قضاء جبلة	٢٥٣١٢١	«
فى « صهيون	٣٩٦٠٩٢	«
فى « مرقب	٣٨٦٩٥٣	«
المراعى	٣٦٧٠٠	«
يكون	١٤٤٧٧٠٠	

وتنقسم هذه الاراضى من حيث الزراعة الى الاقسام الاتية :

الاحراج	٢٧٠٠٠٠
انواع الاشجار المثمرة	١٢٠٠٠٠
اشجار الزيتون المطعمة	١٥٠٠٠٠
بساتين الخضرة	٤٠٠٠
الكروم	١١٠٠٠
ما خص لانواع الزرع	٨٩٢٧٠٠
يكون	١٤٤٧٧٠٠

يزرع فى هذا اللواء من الحبوب القمح والشعير والشوفان والذرة البيضاء والجلبان والشوفان الاسود . ومن البقول ؛ الحمص والفول والعدس ، ثم يزرع التبغ والتنباك فى جميع انحاء اللواء .

ومن عاداتهم فى الزرع ، ان يخصصوا ثلث الاراضى المعدة لزرع الحبوب الى القمح. وبما انهم يبدلون المزارعين فى كل سنة ، لا بد للمزارع الجديد أن ينتخب اصلح الاراضى ويترك الاخرى . وبسبب انحصار استفادته فى سنة واحدة لا يهتم بتسميد الاراضى البتة وبهذا تفقد تلك الحقول قدرتها الطبيعية فى الانبات ، ثم ان السكة التى تستعمل فى الحراثة عقيمة جداً وغير صالحة . وقبل بضع سنين جمع الاهلون مقداراً من النقد بتشويق ابراهيم

افندى مامور الزراعة ، وجلبوا بواسطة الولاية الجليلة عدة محاريث مختلفة الانواع بسكك متعددة واستحضروا من إزمير ومرسين سككاً حديدية وشرعوا يستفيدون من استعمالها. ولكن ما لبثت هاتيك المساعى ان وقفت بسبب الظروف الحالية .

لا يهتم فى هذا اللواء لاحياء الاراضى المواتية وإحضار الحقول الزراعية . وهناك كثير من الاراضى التى لا تحتاج الا للتفجير فقط ويمكن ان تزرع فيها الاشجار على اختلاف انواعها . ولكن الاهال جعلها ميتةً متروكة . ولهذا السبب اضطر اولئك السكان الى استعمال السرقين بدلاً من المحروقات الشجرية .

[٢] — **الغلال الزراعية** — تنقسم الاراضى التى يزرعها المرابعون على عدة أقسام :

اذا كانت الاراضى مقدار ١٥٠ — ٢٠٠ دونم وخصص لحراثتها فدانان تسمى « الصمد » واذا كانت مقدار (٨٠ — ١٠٠) دونم وخصص لحراثتها فدان واحد تسمى « الجوز » . ثم اذا كان مقدارها (٢٠ — ٥٠) دونماً ولو حرثت بفدان واحد تسمى « شكارة » . وبما ان عدد الاراضى معروف ، ومقدار البذر الذى يزرع فيها معلوم ايضاً ، يمكننا ان نستنبط مقدار الغلال استناداً على هذه المعلومات على وجه تقريبى .

وهذا مقدار الغلال السنوى على التخمين :

جنس الغلال	على حساب الكيل	
القمح	١،٠٠٠،٠٠٠	— ١،٥٠٠،٠٠٠
الشعير	٥٠٠،٠٠٠	— ٦٠٠،٠٠٠
الشوفان	٢٠٠،٠٠٠	— ٣٠٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠٠،٠٠٠	— ٤٠٠،٠٠٠
الجلبان	٥٠،٠٠٠	— ٦٠،٠٠٠
	على حساب الاقة	
الحمص	٧٠٠،٠٠٠	— ٨٠٠،٠٠٠
الفول	٨٠٠،٠٠٠	— ١٠٠٠،٠٠٠
العدس	٨٠،٠٠٠	— ١٠٠،٠٠٠
البطاطه	٧٠،٠٠٠	— ٩٠،٠٠٠
الفاصولية	٥٠،٠٠٠	— ٧٠،٠٠٠

النباتات الصناعية والزيتية

الزيت	٦٤٠٠،٠٠٠
السمسم	٥٠٠٠،٠٠٠
القطن	٤٠،٠٠٠
التبغ والتنباك	٢٠٠٠،٠٠٠

الاشجار المثمرة

التين اليابس	١٠٠٠٠،٠٠٠
التفاح	١٠٠٠،٠٠٠
الجوز	٦٠،٠٠٠
المشمش	٥٠،٠٠٠
اللوز	١٠،٠٠٠
الكمثرى	٤٠,٠٠٠
	عدد
الليمون	٥٠٠,٠٠٠
البرتقال	١٥٠٠,٠٠٠
الاترنج	٨٠٠,٠٠٠
متنوع	١٥٠٠,٠٠٠

هذا مقدار الحاصلات . ويصرف قسم منها فى الداخل ، ويساق القسم الآخر الى الخارج او الى الولايات والالوية العثمانية .

وهذا مقدار الصادرات التى صدرت من اللواء سنة ١٣٢٩ :

جنس المحصول	اقه
البيض	٨،٢٢٨،٤٣٤ عدد
محة البيض	١٥،٠٦٠
زلال البيض	١،٧١٠
كيس الزيتون	٥١،١٤٤
زيت الزيتون	٤٤،٠٠٨
التين اليابس	٦٢٣،١٧٣
الحمص	٥٦٩،٩٠٨
الذرة	٥٢،٢٢٤

العدس	١،٢٧٢
السمسم	٥،٩٠٤
الفول	١٠،٠٠٠

وزيادة على هذه المقادير فقد بيع فى الداخل « ٥٠ » الف كيلة من القمح و « ٩٠ » الف اقة من الذرة . واصدر من التبغ والتنباك الذى بلغ مقداره زهاء ميليونى اقة قسم عظيم الى اوروبا ، ثم الى سائر البلاد العثمانية ، بوساطة شركة التبغ ، وشركة ايمبريال . [*]

وان معظم الدخل الزراعى فى هذا اللواء يكون من التبغ والتنباك . واهم انواع التبغ الذى يستحصل هنا هو الجنس الاهلى الذى يسمونه « شك البنت » و « المهلوبى » . ثم ذو الرايحة الذى جلب بذره من صامسون ، وتكون كيفية استحصاله كاستحصال التبغ الغلوصى . ثم يستحصلون من تبغ « شك البنت » نوعاً يسميه الاهلون « ابو ريحه » يرغبه الانكليزيون . وكيفية استحصاله تكون على هذه الطريقة :

تسلك اوراق التبغ فى الاسلاك ، ثم يعلقونها فى سقوف البيوت ، الى ان يدخل موسم الشتاء . وهنالك يحرقون فى تلك البيوت حشيش « زندكين » ويبخرون اوراق التبغ بدخانه مدة . ثم يجمعونه ويكدسونه فى الاكياس . وبما ان هذه العمليات التبخيرية تكون فى داخل بيوت السكنى لا تخلو من الاضرار بصحة الاهلين . ولهذا لا يسوغ ابقاء هذا الاصول على هذه الكيفية . ومن المحتم على الحكومة ، بل على شركة الدخان التى تربح اضعاف ما تؤديه الى الحكومة من المقادير ان تلتفت الى هذا الامر وتؤسس لاستحصال « ابو ريحه » معامل خصوصية تراعى فيها القواعد والتدابير الفنية ، وتصون ثروة البلاد وحياة العباد من هذا الضرر الملموس .

ويمكن ان يكون التبغ الذى يستحصل فى اللاذقية احسن من تبغ ازمير ، وغيرها من البلاد العثمانية ، ولكنه اليوم لا يؤمن للقرويين دخلاً يستحق الذكر . لانهم محرومون من كافه الوسائط والتدابير الفنية التى يرجع اليها فى زرع هذا النبات واستحصاله . وهم يجهلون كيفية اعمال اللفائف ايضاً . ثم ان اهمال شركة الدخان من جانب ، وتحاملها على القرويين من جانب آخر جعل استحصال هذه المادة مشكلاً صعباً .

---

[*] نقلنا هذه الارقام من تقرير مأمور الزراعة عيناً ولو لم يمزج هذا المأمور الذى زعم ان هذا الجدول قريب من الحقيقة ، حساب الكيلة بالاقة ، لتمكن من اعطاء فكر صريح على مقادير غلال القضاء الزراعية . ثم ان هذه الارقام لا تخلو من الغرابة ايضاً كما هو الحال فى سائر الارقام التى درجت فى الصحائف الاخرى من كتابنا .

وقد وسعت الحكومة نظام هذه الشركة بمناسبة استقراضها منها مليونا ونصف من الليرات وذلك بعد انتهاء الحرب الطرابلسية. واصدرت قانوناً موقتاً فى ٨ نيسان سنة ٣٣٠ منعت فيه زرع جميع انواع التبغ فى لواء اللاذقية واستثنت منه نوع «ابو ريحه» فقط وقضت على القرويين باستحصال الرخصة قبل الزرع من شعبة الشركة فى اللاذقية. واعتبرت الشركة مختارة باعطاء الرخصة وعدم اعطائها. على انها تضطر لان تعلم صاحب الطلب عن سبب الرد، وان لم تجده فعليها اعلام مختار قريته بالكيفية. ولا جرم ان الواجب فى هذا الامر الاقبال على استثمار هذه الاراضى الصالحة لزرع التبغ، والتذرع بالتدابير الفنية التى تزيد استعدادها والا فان الحجر والتحديد يضر بمصلحة البلاد الاقتصادية ثم ان القدرة التى منحها هذا النظام الى الشركة بخصوص التخمين لا تنطبق على منفعة البلاد وهى تحتاج الى التخفيض. وقد جاء فى المادة «١٢» من هذا النظام ما معناه:

تتألف لجنة التخمين من مخمن تختاره شركة الانحصار، وآخر تختاره ادارة الواردات المخصوصة فى دائرة الديون العمومية، ومن آخر ايضاً يختاره مجلس ادارة القضاء ليكون مخمناً فى جميع ذلك القضاء. ويجب ان تعطى الى المخمن الذى اختارته ادارة الديون العمومية ثم الى الذى اختاره مجلس الادارة اجرة لا تزيد عن عشرين غرشاً فى كل يوم. ومجلس الادارة هو الموكل بتقدير هذه الاجرة وتعيين مقدارها.

والزراع هم المكلفون بتأدية هذه الاجرة. ويسوغ لادارة الشركة ان تدفع هذه الاجرة بشرط التعويض. وعليه فان الشركة تنظر الى مجموع الخرج بعد اتمام التحرير، وتوزعه على الزراع بنسبة مقدار اراضيهم. ثم تتقاضى من كل منهم حصته حين بيع المحصول». وهذا يدلنا على ان الشركة تدفع الاجرة ثم تتقاضاها من الزراع.

ونصت الفقرة الثالثة من هذه المادة على وجوب تحليف المخمنين قبل الشروع بالوظيفة امام مجلس الادارة بان يتوخوا الحياد فى التخمين، ولا ينقادوا الى سلطة او تأثير الا ما اوجبته عليهم الوظيفة، ولا يتقصدوا اضرار الشركة ولا الزراع.

ثم على الذين لا يرضون بتخمين هذه الهيئة ان يبينوا اعتراضهم لادارة الشركة فى ظرف خمسة ايام اعتباراً من تاريخ تسليم اوراق التخمين الى مختار القرية. ويطلبوا منها تعيين هيئة ثانية. وما من فائدة لهذا القيد الذى يشف عن مساعدة الزراع. لان القروى المحروم من وسائط النقل، والمجرد عن كل علم ومعرفة لا يطلع على طريقة هذه الاستفادة ولو ابلغ المهل الى عشرين يوماً — لاسيما سكان الجبال —.

ثم ان الفقرة الثانية من المادة (٢٦) جديرة بالنظر ايضاً. وقد جاء فيها ما معناه: يسوغ للجنة التحقيق بعد وزن التبغ الذى يقدمه الزراع، ان تحرى مسكنه وسائر اماكنه وما يجاوره من المحلات لتعلم هل يوجد هناك تبغ مكتوم ام لا؟

وبهذا النص النظامى كان لمستخدمى الشركة حق الدخول على المساكن الخصوصية ايضاً.

واذا نقص مقدار ما يسلمه الزراع من التبغ الى اللجنة الخاصة عن مقدار التخمين، يجبر الزارع على ان يدفع عن كل كيلوغرام ليرة جزاء نقدياً.

ثم ان الزيتون هو من اهم الغلال الزراعية فى هذا اللواء. وله ثلاثة انواع «الخضيرى الدرملالى، الجريصونى». ويوجد منه فى قضاء المركز (٤٦٨٧٨) شجرة وفى جبله (٣٠٠٠) وفى صهيون (٦٠٠٠) وفى مرقب (٦٥٠٠٠) شجرة. ويقول مأمور الزراعة انه يوجد (٢٠٠٠٠٠) شجرة غرست او طعمت حديثاً. ويزعم ان مقدار الزيت الذى يعصر من هذه الاشجار فى كل سنة يبلغ الى (٦٤٠٠٠٠) أقة.

ولو اختاروا قليلاً من الكلفة وقضبوا تلك الاشجار فى كل سنة، ثم تفقدوها بالسماد لكانت اغلالها اوفر واكثر من الآن باضعاف مضاعفة.

٥ — الاحراج والمعادن

تقرب مساحة الاحراج فى لواء اللاذقية من (١٧٩٠٠٠) من الدونمات. ويتراوح محيط الاشجار التى توجد فى انحاء الساحل بين (٣٠) سانتيمتراً ومتراً واحداً. اما طولها فيكون (٣—٤) مترات. وتعمل منها خشاب صغيرة للابنية، الواح لاجل القوارب الصغيرة. وتوجد فى الانحاء المرتفعة اشجار الصنوبر الاحمر والابيض، وخشبها يصلح للاستعمال فى الابنية ايضاً. واهم ما هنالك من الاحراج، هى الاحراج الموجودة فى انحاء باير وبوجاق. وتبلغ مساحتها الى (٣٢) كيلومتراً مربعاً. وتسعون فى المائة من اشجار هذه الاحراج يتراوح محيطها بين (٣٠) و(٦٠) سانتيمتراً، وطولها لا يزيد عن (٤—٥) امتار. ويندر وجود الاشجار الجسيمة فيها. ويدعى بوتوق ان مقدار تلك الاشجار الحديثة يبلغ الى (٣٠٠،٠٠٠) بشرط ادخال ما تبعثر فى الانحاء المختلفة منها. ويقطع منها ما يقوم بحاجة تلك الانحاء والقرى القريبة، من اخشاب وغيرها، ثم تعمل منها الالواح المسماة «ميريوم» وتساق الى الخارج، وقد كان يقطع منها قبل الحرب مقدار (١٥) الف قنطار من الحطب وتساق الى بلدة بيروت.

ويوجد فى منتصف هؤلاء الاحراج على حدود اسكندرون قطعة ارض تسمى «توز» تقرب مساحتها من (١٠٠٠) هكتار وهى مطوقة باحراج الصنوبر.

والاشجار الموجودة هناك هى من شجر البقس الاسود والاحمر. ويمكن ان يعمل من هذه الاحراج مقدار (٣٠٠) الف متفحمة فى كل سنة دون ان يمس تلك الاحراج ضرر

يذكر . ولكن بعد هـذه الانحاء عن اسكلة البسيط بمسافة سبع ساعات جعل هـذه الاستفادة متعذرة .

ويوجد في جبال اللاذقية معدن الحديد ، والفضة المخلوطة بالرصاص والنحاس والخشب المتفحم ، وعروق من معدن النيكل . وقد كان في انحاء باير وبوجاق منجم لمعدن القروم يستخرج منه (٢٥٠٠) طون في كل سنة ولكن لا اثر له اليوم .

—١٦—

مرقب

١ — موقع القضاء وحدوده

ان هـذا القضاء كائن في الجنوب الاقصى من لواء اللاذقية ويحده من الشمال قضاء جبله ومن الشرق لواء حما ومن الجنوب لواء طرابلس ومن الغرب البحر الابيض . ويمتد من شاطئ البحر الى جبال النصيرية وارضه تتدرج بالارتفاع اعتباراً من الساحل وهي ذات عوارض .

٢ — مساحة القضاء وسطحه واحوال الاراضي

تقرب مساحة هذا القضاء من (٧٣٠٢٥٠) دونم . منهـا (١٨٥٠٠٠) من الاراضي المزروعة ولا يسقى منهـا الا (٧٥٠) دونماً . ومنها مقدار (١٧٥٠٠) تحتاج الى عمليات لاجل السقي والارواء و(٢٥٠٠٠٠) من الاراضي الصالحة للزرع و(٢٧٧٠٠٠) دونم من الاراضي التي لا تصلح له . ومقدار الاراضي التي تركت بلا زرع يناهز (٥٢٧٠٠٠) دونم ، ونصفها يصلح لزرع كل اصناف المزروعات ولكن قلة السكان من جهة والقناعة التي يتمسك بهـا الموجودون من جهة اخرى تجت بعدم الاستفادة من تلك الاراضي الواسعة .

ان عدد السكان في هذا القضاء هو على الوجه الآتي :

جدول سنة ١٣٣٢

	الذكور	الاناث
المسلمون	٢٦٠٣	٢٥٠٥

	الذكور	الاناث
النصيريون	١٠٦٠٣	١٣٨٨٤
الروم الاورتودوكس	١٩٣٠	١٨٩٧
المارونيون	٧٥٥	٦٣٩
يكون	١٥٨٩١	١٨٩٢٥
	٣٤٨١٦	

وكانت وفيات القضاء سنة (١٣٢٨) ، «٣١» وسنة (١٣٣٠) «١٤٥٠» وسنة (١٣٣٢) «١١٥٦» نسمة . اما اللدات فكانت في عين هذه السنين (١ و ٣٧٠ و ٤٩٠) وهذه الارقام العجيبة ترينا ان دفاتر النفوس اعدت سنة (١٣٢٨) لتشغل باسم هـذا المولود الفرد ، وتصونه من الضياع ! !

وان مركز القضاء هي قصبة «بانياس» الكائنة على شاطئ البحر بين الدرجة (٣٥٫١٢) من العرض الشمالي والدرجة (٣٣٫٣٩) من الطول الشرقي . وكان مركز القضاء قبل ثلاثين سنة في قلعة مرقب التي يبلغ ارتفاعها «٣٠٠» متراً . وهذه القرية كائنة في الجنوب الشرقي على بعد ثلاثة ارباع الساعة من بانياس .

واسترابون ، من قدامى المؤرخين يستعمل اسم « بالانه *Balanea* » حين البحث عن بانيـاس . وفيها اليوم انقاض حصار قديم من آثار الفنيقيين . ويوجد بحث ضاف عن هـذا الاثر التاريخي في مجلد سنة «١٨٧٩» من مجلة « *Revue Archéologique* » .

وقد كان المسلمون يسمون هـذه القصبة قبل حروب الصليبيين باسم بولونيـاس ثم سماها الصليبيون ابان حربهم *Valonia* ، وبقيت مربوطة بايالة انطاكية برهة ، واستولى عليها المسلمون بعد تسخير قلعة مرقب . وكان نهر بانياس في زمن الصليبيين حداً فاصلاً بين ايالة طرابلس وايالة انطاكية . والآن لا يعثر في بانيـاس على شيء من الآثار النصرانية .

وتوجد بضع دعائم على يمين نهر بانياس قريباً من شاطيء البحر ، وعلى يساره بضعة اجداث قديمة . وتوجد خارج القصبة على بعد خمس دقائق منها ينابيع مياه رائقة لذيذة ، ثم انقاض الحصار الفنيقي الذي مر ذكره موجودة فوقها على تلعة صخرية . ولهـذا الحصار سور طوله «٦٠٠» متراً وعرضه «٥—٨» امتار . وله مداخل معدة للدفاع . وبنيت هـذه القصبة في اواخر القرن الحالي . ولهذا نجد بعض الانتظام في طرقها ومبانيهـا . اما عدد سكانها فكان في سنة ١٣٣٢ على الوجه الآتي :

	الذكور	الاناث
المسلمون	٣٨٨	٣٨٩
الروم	٢٢	١٦
المارونيون	٢٠	١٢
	٤٣٠	٤١٧
	٨٤٧	

ومع هذا العدد من السكان الذى لايبلغ الالف، نرى ميزانية البلدية جديرة بالذكر لان دخلها السنوي عبارة عن (٢٠،١٠٧) غروش، وخرجها يناهز هذا المقدار .

٣ — الاحوال الطبيعيه فى القضاء

ان السهول فى هذا القضاء عبارة عن اراض تمتد من الجنوب الى الشمال محاذية لساحل البحر ، وتشغل خمس مساحته العمومية ، ومعظم الفائدة الزراعية التى يحصل عليها القرويون تكون من هذه الاراضي . اما القسم الآخر منه فانه عبارة عن وعور جبلية ، ولكن توجد خلالها اراضى صالحة للزراعة ايضاً . وان ارفع نقطة من هذه الوعور التى كانت من قبل مجللة بالاحراج الكثيفة ، واصبحت اليوم جرداء ، هى ربوة النبي يونس التى يبلغ ارتفاعها «٧٠٠» متراً . وجميع هذه الاراضى الجبلية تتألف من الصخور الكلسية . ويوجد مقدار كثير من الاحجار البركانية فى انحاء زمرين وسوده والحريبة .

وتجرى فى هذا القضاء انهار «السن» وحريصوف وجوبر وبانياس ، ومارقيه والحصين» ونهر السن منها ماؤه وافر جداً رغماً عن قصر مجراه الذى لا يمتد نصف ساعة مع ما فيه من الاعوجاج والمعاطف . وهو يفصل قضاء المرقب عن قضاء جبله . وينبع من جبل «قرقيس» فى قضاء جبله . ونهرى حريصون وجوبر ينبعان من جبل شعر الواقع على حدود مرقب والعمرانية وبعد ان يقطع الاول مسافة ثمانى ساعات والثانى زهاء ست ساعات يصبان على بحر الابيض . اما منبع نهر بانياس فهو قريب من القصبة وماؤه عذب لذيذ ونهر مارقيه ينبع من ربوة النبي يونس ثم يصب فيه جدول تعنيته وجدول وادي العيون وبعد امتزاجهما به يصب فى البحر . وطوله يناهز عشر ساعات . ونهر الحصين الذى يفصل احتقطراطوس عن قضاء المرقب يتألف من فرعين منبع الواحد من وادي العيون ، والثانى من بيت سلان من اعمال قضاء صافيتا . ثم يوجد غير هذا الانهار بعض جداول تفيض فى الصيف ، مثل جدول الجلم ، والجوذية . فالاول كائن فى الجهة الشمالية من بانياس الثانى فى الجهة الجنوبية منها .

٤ — احوال القضاء العموميه

لم يتفش اصول المزارع فى هذا القضاء الذى هو فى الدرجة الوسطى من القوة الانباتية ولهذا فان ثلاثة ارباعه فى ايدى المرابعين ، وربعه فقط فى ايدى ذوى السلطة . ولا يعثر فى هذا القضاء على ذوى السلطة من ارباب الزراعة كما هو الحال فى الاقضية الاخرى . ولا يوجد بين الاغنياء المعروفين هنا احد يربو وارده السنوى عن ثلاثين الف غرش لسبب ضيق الاراضى من جهة وعدم استعدادها للانبات بدرجة كافية من جهة اخرى . واكثرهم يدفع اراضيه الى المرابعين . ويكون نصيبه من الغلال بعد طرح العشر الميرى ثلث الموجود . هذا فى الساحل ، اما فى الاراضى الجبلية فيأخذ الربع فقط .

ويكاد لا يوجد للاحراج اثر فى هذا القضاء .وتوجد قريباً من قرية القينية والمزرمدة مشجرتان من الصنوبر لا تزيد مساحة كل واحدة منهما عن ثلاثين دونماً . اما اشجار الزيتون فيوجد معظمها فى الساحل وفى انحاء خوابى . ولا يعثر فى ناحية قدموس الصالحة لغرس الكروم على شئ منها . ومجموع حاصل الزيت فى هذا القضاء يناهز (١٥٠٠) قنطاراً .

والسمن الذى يستحصل فى ناحية قدموس له شهرة ورنانة بين المحليين اما اشجار التوت التى تزدان بها الاصقاع الجبلية فهى كافية لتربية عشرة آلاف علبة من البذر . ولهذا ترون جميع القرويين يشتغلون بهذه الصنعة فى اوانها ويبيعون ما يحصلون عليه من الحرير الى المصنعين الذين اسسهما المسلمون فى بانياس . ويصنع نصارى قرية البساتين من هذه الحرائر الوطنية الجوارب ، وينسجون منها بعض الاقمشة .

وهذا القضاء لا يشذ عن بقية الاقضية بخصوص الانحرام من نعمة العلم والعرفان . ويروى ان عدد الذين يعرفون القرائة والكتابة لا يتجاوز الا اثنين فى المائة . ولم يوجد قبل الحرب فى هذا القضاء شئ من المؤسسات العلمية الاجنبيه . وقد اعدت التخصيصات لتأسيس مدرستين رسميتين للذكور والاناث فى قصبة بانياس ، وثمانى مدارس ابتدائية فى ملحقاتها . ولكن لم تؤسس الا مدرستي بانياس واثنتين فى كل من ناحيتى قدموس وخوابى ومدرسة اخرى فى احدى القرى . وتوجد مدرسة مارونية فى قرية البساتين من مضافات المركز ، وبناء مدرسة كبيرة فى قرية سوره قريب من الكنيسة ،

ثم ان الآثار النافعة فى هذا القضاء مهملة ايضاً . والطريق الموجود بين حما وبانياس التى هى الفرضة الوحيدة لوادى العاصى الذى يبلغ طوله (٨٥) كيلومتراً ، لم يمهد الا قسم منه سنة (١٣٠٩) والقسم الذى يبتدأ من حدود الولاية حتى يبلغ مركز قضاء العمرانية

على طول عشرة كيلومترات من هذا الطريق لا يصلح لسير المركبات . فلو تم هذا القسم
وأسس فى بانياس مرفأ صغير ، لا جرم يكون هذا الطريق اقصر من طريق طرابلس وعليه
لا بد أن تتجه مناقلات حما لهذه الوجهة .

ويمكن سير المركبة مع شئ من المشقة والتعب على الطريق الطبيعية الحالية من العقبات
الكائنة بين طرطوس وجبله . ولكن يتعذر المسير من هناك الى الجنوب . فانشاء
طريق معبد من بانياس الى صافيتا يمر على قرية خوابى . لا جرم يؤمن
فوائد جمة .

٥ — الغلال الزراعية فى القضاء

ان الغلال الزراعية فى قضاء مرقب هى على ما يأتى :

جنس الغلال	كيلة
القمح	١٫٢٠٠٫٠٠٠
الشعير	٤٢٠٫٠٠٠
الذرة البيضاء	١٨٠٫٠٠٠
الذرة الصفراء	٢٫٥٠٠
الحمص	١٦٢٫٠٠٠
الفول	٤٠٫٠٠٠
العدس	١٫٥٠٠
الجلبان	١١٫٣٠٠

ويستحصل هنا غير هذه الغلال من التبغ (٢٠٠٠٠٠) اقة ومن الزيت (١٠٥٠٠,٠٠٠)
اقة فى كل سنة .

٦ — الآثار القديمة فى القضاء

توجد فى هذا القضاء قلعة مرقب التى هى من اهم القلاع السورية ، ثم انقاض قلعة
الخوابى والكهف وقدموس والجرد وعليقه .

فقلعة مرقب او بالتعبير الافرنجى *Margat* كانت من اعظم القلاع التى استحوذ
عليها فرسان هوسپيتاليه فى ايام الصليبيين . ويزعم بعض المؤرخين انها شيدت فى زمن
البيزانطيين او المسلمين . ولكن لم يتضح الى الآن صدق هذا الادعاء ، ولم يؤيد ببرهان

قاطع . ويقول موسيو « رهب » ان الصليبيين سخروها عنوة سنة «١١٤٠» ميلادية ،
وظلت فى ادارة اسرة (*Mansoer*) الى سنة «١١٨٦» . وفى هذا التاريخ اقطعت الى
فرسان هوسپيتاليه بامر حاكمها « برتران دومارغات » ورضاء حاكم انطاكية « بوهه موند » .
ثم تسنى لصلاح الدين الايوبى بعد محاربة حطين . امرار جنوده من جوار هذه القلعة
رغماً عن دفاع الاسطول الذى ارسله كيليوم الثانى ملك سجليا لاجل امداد نصارى هذه
الاصقاع . ثم سخر المسلمون حصن الاكراد سنة (١٢٧٠) وكان فرسان هوسپيتاليه قد
وهنوا وضعفوا فعقدوا عهداً مع المسلمين رضوا فيه برد بعضها فى حوذتهم من الاراضى .
وقبلوا بتقسيم الضرائب التى يتقاضونها فى مرقب وما يجاورها من القرى بينهم وبين الغالبين .
ثم لم يلبث السلطان قلاون ان استخلصها من ايديهم ، واضطر مدافعيها لمبارحتها والالتحاق
بابناء دينهم فى عكا .

وهذا القلعة التى تحكم على السواحل السورية الشمالية كانت معدودة من امتن الحصون
الحائزة على اصلح الشروط للدفاع مدة وافرة . وان اضلاع الهضبة التى قامت فوقها هذه
القلعة هى عمودية من الجانب الشمالى والجنوبى . اما الجانب الشرقى فهو على شكل زاوية
مطلة على واد عميق يفصلها عن جبال النصيرية . وهى متصلة بجبال الشرق بطريق ضيق
يشاهد فى الجهة الجنوبية وبهذا كانت كشبه جزيرة . وهذا الحصن المتين الذى شيد فى
انسب بقعة محاط بسورين ، وملجأ «*Reduit*» يرى فى الجنوب الاقصى منه . وقد جهز
السور الاول بعدة بروج . اما الثانى فلا اثر له اليوم . فالذى يدخل من الباب المشار
اليه برقم (١) ، والمجهز ببرج اسطوانى يرى امامه دهليزاً واسعاً . والقناطر الموجودة على
يمين هذا الدهليز ويساره توصل الى السور الثانى . وهذا السور مجهز ببروج عديدة . ثم
ان الصخور المنحوتة فى الجهة الشمالية بشكل مستو تقوم مقام الجدار مسافة طويلة . وتنفصل
هذه القلعة عن جبال النصيرية فى الشرق بوادى صناعى عميق . وشيد اهم برج للسور
الاول فى النقطة التى اشرنا اليها برقم (٣) فى رسمنا . وهو حاكم على الطريق الضيق
الموصل الى الحصن . ولما فتح السلطان قلاون القلعة تفقد هذا البرج وشيده وحفر عليه
كتابته . اما الجامع الموجود فى يسار الصحن فقد كان كنيسة .

والبناء الموجود فى الجهة الجنوبية من المعبد (رقم ٩) يتالف من طابقين . ويدخل
اليه النور من نوافذ بيضية الشكل ، ولكلى الطابقين باب يصله ببرج القلعة الكبير المشار
اليه برقم (١١) الذى يبلغ طول قطره (٢٩) متراً . ثم اذا نظرنا الى النوافذ التى اعدت
للدفاع نطلع على ما تجلى فى نسق بنائها من المهارة لاجل صون المدافعين من بنادق
الاعداء .

٧ — موقع بانياس ومنظر ضواحيها

ان قصبة بانياس التى لم تكن مركزاً لقضاء مرقب الا منذ (٣٢)سنة هى حديثة لطيفة . وقد سماها قدامى الجغرافيين كاسترابون (بالانيا Balania) وسماها العرب (بولونياس Boulounias) وعرفت عند الافرنج باسم « والانيا Valenia » او واله نى -- Valanie » . وما كان فى الحسبان ان تظهر تلك القصبة القديمة فى هذا المظهر الجديد .

وان لهذه القصبة المطوقة من الشمال والجنوب بالرياض الناضرة ، والمرصعة فى الداخل باشجار الجميزوالحور؛ شكلاً باسماً ، لا يغادر نظراً الا ويجذبه ولا قلباً الا ويشغفه .

نعم ان بانياس ، تلك البلدة اللطيفة التى تنكسر على اذيالها من الجانب الغربي امواج البحر الابيض ، يحيطها من الشمال « نهر الجعم » مع قليل من البحر ، ومن الشرق ربوة بانياس ومن الجنوب جدول بانياس . ولهذا كانت لها الحظ الاوفى من جميع المحاسن التى تحدثها العوارض الطبيعية .

ثم من الضرورى ان نضيف لهذه المحاسن الداخلية ما ازدانت به ضواحيها من البدايع . ففى شمالها جبل « الصرامطة » وقرية « عرب الملك » التى تحاذى ساحل البحر برياضها الناضرة ، وقصبة (جبله) و(اللاذقية) التى تلوح على بعد كانها ظلل ثبت على اقاصى ذلك القوس البحري . و(جبل الاقرع) الذى قام فى منتهى الافق كانه صبرة من العهن ؛ وفى شرقيها قرية « ذلو ، برمايه ، الخربة ، المشيرفة » اللاتى كمنت وراء جبل بانياس ، ثم قلعة مرقب القديمة التى تربعت فوق هام ربوتها الخضراء كانها اكليل عمرانى ، وعلى غلوة منها (جبل العنازى) ، كل هذه العناصر البديعة جعلت لقصبة بانياس منظراً فسيحاً زاهياً .

لاسيما قلعة (مرقب) الكائنة فى اعلى نقطة من بانياس ومنظرها الذى يتدفق بامواج الالوان فى كل آن ، الجدير بان تعلقه القلوب ، ولا الطف وانضر من منظر القصبة اذا اشرفت عليها من جانب القلعة ورأيتها بشكلها المثلث المنصوب على شاطئ البحر باشجاره الخضراء كانه يتبسم بمحيا فتان .

ولا اجمل من الاطلال على ضواحى بانياس من فوق تلك القلعة الشاهقة ؛ فترى من الجنوب جبال عكار ولبنان حتى رأس الشقعة . ومن الشرق جبال قدموس ومن الشمال جبال الكلبية والنواصرة وساحل جبلة واللاذقية وجبل الاقرع ثم ظل جزيرة قبرص . ومن الغرب بحراً لا حد له ، ومن الجنوب الغربي جزيرة (ارواد) . ولا بد للذهن ان يمتلىء اعجاباً وحيرة تجاه هذا المنظر النضير الفسيح .

٨ — الخطوط الداخلية فى بانياس

ان هذه القصبة منتظمة ومرتبة الداخل كما هى لطيفة وظريفة الضواحى . وهى عبارت عن مأتى بيت ومائة حانوت ، وبما ان انحائها الشمالية والشرقية والجنوبية ، ثم قسم من داخلها مستور بالرياض الناضرة كانت كانها حديقة عظيمة انبثت فى انحائها منازل بيضاء . وعرض هذه الحديقة اعتباراً من ساحل البحر الى منبع جدول بانياس كيلومترو ونصف ، وطولها لا يزيد عن كيلومترين . ولهذا يتمكن الناظر من الاحاطة بها اذا وقف فى احد المرتفعات . وان لهذه القصبة نسقاً مرتباً ومنتظماً ، يدلنا على ان سيكون لها آت خطير . فاذا فكرنا بالشارع الذى يقطع البلدة من مبدأها الى منتهاها محاذياً لساحل البحر ، واطلعنا على الشوارع الاخرى التى معظمها يقطع هذا الطريق قطعاً عمودياً ، نعلم ان هذه القصبة منقسمة الى مربعات منتظمة . وا كثر طرقها كالغابات الخضراء ولا الطف من التجول تحت ظل تلك الاشجار ومشاهدة جدة هذه القصبة . ولها نسق فى البناء يرمى الى النسق البيروتى تارة ، والى الطراز الطرابلسى اخرى ، وهو من الانتظام فى درجة لا يمكن العثور عليه فى اكثر قصباتنا . وهى كادت ان تكون مبنية فى ساحة مستوية ، لولا ان المنازل الموجودة قريباً من منبع جدول بانياس كانت مرتفعة ، وبهذا كانت تلك البقعة ارجح واميز محلات القصبة . وهى كائنة فى الجهة الشرقية وتسمى (حارة القلعة) . ثم توجد فى الجهة الغربية المحلة المسماة « حارة الجامع » وفى الشمال « حارة الشمالية » التى يقطنها المسيحيون ، ثم فى جوار دار الحكومة توجد « حارة السرايه » . وهذه المحلات مختلطة ببعضها . والابنية فى بانياس ليست بعظيمة . وهى صغيرة ظريفة وفيها تناسب محسوس . ولا توجد فى هذه القصبة مؤسسات تلفت النظر . حتى ان بناء الجامع ودار الحكومة الكائنين على الساحل لا فرق بينهما وبين بقية المنازل . ثم لا كنيسة ، ولا فندق ، ولا مؤسسة فيها وبهذا تكون عبارة عن قرية مرتبة منتظمة . ولكنها قرية نظيفة . والنظافة فيها تلفت النظر فى كل شىء . ففيها بضعة جواد مصونة من الاوساخ التى يعثر عليها فى غيرها من القصبات ويجب حمل هذه النظافة على جدة القصبة وعلى كون سكانها حديثى العهد فيها ، لان معظمهم من الخارج . ثم على وفرة مائها ايضاً .

يوجد فى شمالها منبع الزريقات ، وفى شرقيها « عين اللبوة » و « عين الفلاحين » اللتان يتكون النهر منهما . وهذه المناهل العذبة كانت مصدر حياة لهذه القصبة بمائها النقى الصاف وهى التى خلقت فى تلك القصبة خضرتها الناضرة ، وجمالها الزاهر . ويوجد فى كل بيت منها بئر عذب الماء . فاذا فكرنا بهذا الغنى الحياتى تنكشف لنا اسباب النظافة . ثم ان القصبة

كائنة على الساحل وهى على طريق اللاذقية وطرابلس، وفرضة لانحاء قدموس وحما وعليه فمناسباتها وامتزاجها مع الناس الذى لم يزل يزداد بتوالى الايام كان اكبر سبب لرقيها .

واذا اردنا ان نجمل ما فصلنا الى الآن ،نقول ان بانياس مسيرة لطيفة . فموقع الزريقات بينا بيعه المتعددة ورأس النبع ايضاً ، ثم موقع الشيخ هلال والرياض والحدائق فى داخلها ، وشاطئ البحر وضفاف النهر ومصب الانهار كلها تحف هذه القصبة بالبدايع الزاهية . وقصارى القول انها بمائها السلسال، وبمنازلها الحديثة البيضاء وبحرها الازرق واشجارها الخضراء ، اجمل واظرف بليدة قامت على شاطئ البحر الابيض ، مرشحة لكل تعال ورقى فى المستقبل .

٩ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحالة الاجتماعية فى بانياس** — يجب علينا ان نعتبر بانياس قصبةً اسلاميةً لان النصارى فيها لا يتجاوزون بعددهم عشر المسلمين . ولكن من العبث ان نرتاد الطبقات الاجتماعية بين مسلمى بانياس . ولهذا يمكننا ان نفرقهم الى قسمين ، يوجد فى الاول من تسنى لهم الحصول على سهولة العيش . وفى الثانى من يرمقون عيشهم ترميقاً .

ولنعلم ان ليس لبانياس تلك الثروة الطائلة وليس لاغنيائها ذلك التغلب والسلطة . لان وجوه هذه القصبة لا يتجاوزون بعددهم بضع عائلات . ثم ليس لكل عائلة منهم اكثر من الفين او ثلاثة آلاف دونم من الاراضى ، واملاكهم محدودة ايضاً . ولا يربو دخل هؤلاء على خمسمائة ليرة فى السنة . وافراد هذه الاسر الذين يحصلون على هذا الدخل السنوى بواسطة الزراعة والتجارة ، كلهم ميالون للسكون والهدو . ثم انهم لعلى حياد تام تجاه بعضهم . ولا يألون جهداً بالمثابرة على اعمالهم . ولهذا فلا اثر هنا لما يوجد فى الاقضية الاخرى من تنازع السلطة ، والجدال على اشغال الواقع ولا المباراة فى التفوق . لان ارباب هذه الطبقة لا يملكون على اراضى واسعة .ولا نجد عندهم ذلك العدد الوافر من المزارعين ، ولهذا لا امكان لتوسع السلطة ووجود التغلب فيهم .

ولن يكون سكان هذه القصبة خصوماً واعداء لبعضهم لان اكثرهم غرباء من جالية اللاذقية وجبلة ومرقب . ولا جرم انهم برآء من التأثيرات الارثية التى تشحن القلوب بالعدوان ، وتغرس فيها البغضاء . ثم ان فكرة التجارة ، وكثرة المناسبات والاختلاط جعلهم فى حالة اجتماعية تتصف بالانس والمجاملة . واكثرهم يشتغل باعداد البساتين ، او بغيرها من الاعمال البسيطة . ولذلك نرى البساطة بارزة فى نسق معيشتهم . ولا تمكن الحياة فى هذه القصبة الا بالكد والكدح . ولهذا لا يسوغ ان نصف قومها بالكسل

والبطالة . ولكنهم لا يوصفون بالعزم والاقدام ورباطة الجاش فى المشاريع الاقتصادية لسبب افراطهم بالقناعة وسكون طباعهم اكثر من اللازم . حتى ان نصف رجالهم يحسنون الكتابة والقرائة ، ولكن قناعتهم اضطرتهم للاكتفاء بمعلومات ابتدائية بسيطة .

[٢] — **الاحوال الاجتماعية فى قضاء مرقب** — ينقسم سكان هذا القضاء الذين يربو عددهم على (٣٥٠٠٠) نسمة من حيث الدين الى (مسلمين) و (مسيحيين). ثم ينقسم المسلمون الذين يبلغ عدهم (٣٠٠٠٠) نسمة الى سنيين واسماعيليين ونصيريين .والمسيحيون الذين يناهزون فى عددهم (٥٠٠٠) نسمة ينقسمون الى روم اورتودوكس ، ومارونيين وهؤلاء يسكنون فى الجهة الجنوبية من بانياس فى عشرين قرية تتسلسل محاذية للساحل وتبعد منه مسافة ساعة او ساعتين . ومنهم (٣٥٠٠) نسمة من الروم الاورتودوكس والباقون من المارونيين . وللاروام (١٥) قرية خالصة لهم، وللمارونيين ثلاث فقط . ويسكن بعض المارونيين فى قرية بساتين الاسلامية ايضاً .

اما عدد السنيين من المسلمين فهو يناهز (٦٠٠٠) نسمة . ويسكن السنيون فى بانياس مركز القضاء وفى تسع قرى قريبة منها . ثم فى قلعة خوالى ، وقرية (زمرن). ويوجد فى خوابى بعض الاسماعيليين ايضاً .

اما الاسماعيليون فى هذا القضاء فعددهم «٣٦٩٨» نسمة على رواية القيود الرسمية وفرع «الحجاويين» منهم يسكن من الانحاء الجنوبية فى ناحية خوابى ، واصقاع «نهر الحصين» ، فى تلك الساحة التى تبعد مسافة ساعة عن البحر .

اما «السويدانيون» الفرع الآخر للاسماعيليين فهم يسكنون فى مركز ناحية قدموس الكائنة فى الجهة الشرقية وفى القرى الموجودة فى الجنوب منها [*].

وما بقى من سكان القضاء — غير الذين بحثنا عنهم — كلهم نصيريون . ويبلغ عددهم (٢٠,٠٠٠) نسمة . وبهذا تناهز هذه الطائفة بعددها ثلثى سكان القضاء . وان ثلثى النصيريين اى (١٤٠٠٠) نسمة منهم ينتمون الى عشيرة (الحدادين) و(الخياطين). والثلث الاخر هو من عشيرة (المتاورة)و(الجردية)و(البشاورة) .

وبما ان معظم انحاء هذا القضاء عبارة عن وعور جبلية ، كان امر الزراعة فيه مشكلاً وصعباً . وهذا الاشكال الموجود فى تأمين العيش اوجب على السكان الابلاغ فى الكد والجهد . وانهم ولاسيما النصيريين منهم محرومون من هذه السجية ، ولهذا كانت حياتهم الاجتماعية منحطةً وسافلةً . ثم اتتهم الحرب الحاضرة بويلها وصبت عليهم من حرمانها ما

(*) خصصنا الفصل الآتى للابحاث المحلية فى الاسماعيليين . ولهذا لا نرى لزوماً لاعادة البحث .

جعلهم فى اسوء الحالات وافجعها .

وان الفقراء من النصيريين يحصلون على اقواتهم بالاشتغال بالفلاحة او الاحتطاب ، او رعى المواشى وحلبها او جمع الحشيشة التى يسمونها « محموده » او بالمكاراة . وذوو الايسار منهم يشتغلون باستثمار ما فى حوذتهم من الزيتون ، او بزرع التبغ او تربية دود القز . ومنهم قسم يعيش بما يصل اليهم من النقود التى يتفقدهم بها اقاربهم المهاجرون الى اميركا . ولهذا السبب لا يعثر فى القضاء على ارباب الغنى والثروة ، وفقرهم مكن هذه الازمة من نواصيهم فوطئتهم اى وطئة .

وان النصيريين المحرومين من سجية الافتكار بالآتى ، والاستعداد له — كما بينا سابقاً — والمجردين من النزوع الى الكمال ، لا تزال روابطهم بالحياة ضعيفة ولهذا فقد بائت هيئتهم بالفشل وكانوا جمعية ممزقة .

ويمكن تفريق سكان القرى عن بعضهم من وجهة الدين لان كلاً منهم يسكن فى قرى خالصة له . ويجب الاعتراف بان ارقى القرى بالحياة الاجتماعية فى هذا القضاء هى قرى الاسماعيليين . ثم تاتى من بعدهم قرى النصارى . وبعدهم قرى السنيين .

اما قرى النصيريين فهى فى اسوء الحالات باوساخها المادية والمعنوية ، وبحرمانها من كل شئ وفقرها المدقع . ويكفى لمن اراد ان يطلع على حياة هؤلاء القوم الاجتماعية ان يزور احدى قراهم . فان حالها يفصح عن ويلها الاسود وينطق بانحطاطها الاليم .

نعم ان الشظف تلبد فى ربوع النصيريين حتى كاد يلمس باليد . فكل منهم يرزح تحت اعباء الحرمان البحت . واقوت قراهم وانطفى سراج حياتها . وهذه الاطفال ممددة امام تلك الاكواخ السوداء المتداعية قريباً من الاثافى الحجرية التى عقد عليها الدخان والسخام لا يبغون حراكاً . وها بعض الرجال منهم مخلدون الى الارض كسالى عطلاً ، خائرى القوى ، انهكهم الجوع ، وكشف غطائهم العرى . فالاجسام ضئيلة ، والزنود والسوق كالعصى الرفيعة المحروقة ، والبطون منتفخة ، والالحاظ وقفت عن حركتها ، وجف ماء الوجوه ، وتبددت الشعور . عليهم اطمار من الخرق البالية لا تستر ركبهم . واياكم ان تتحفزوا للدخول على بيوت هؤلاء القوم الذين لا يعلم هل هم احياء ، ام كانوا من جماد . ولن تستطيعوا دخول تلك الاوكان التى تقابلكم عفونتها برائحة كريهة . وهذه الاكواخ السوداء التى كانها اكداس من سخام مستورة بسقوف قاتمة مدلاة . وداخلها سجن مظلم لا ينفذ النور اليه . وتوجد فى جانب مدخلها فرجة تمج على الداخل دخاناً تمتزج رائحته مع العفونة فتزيد فى كراهيتها . ولا بد ان تروا فيها شاةً او بقرة او غيرها من الحيوانات ثم قدرةً سوداء ، ولباداً ممزقاً ولحافاً ملطخاً بالاوساخ ، والتراب المتعفن ... هذا مجمل ما يتضمنه داخل تلك الاوكان .

وهذا السقوط والتسفل الحيوى شمل كل احوال هؤلاء القوم ، حتى ارواحهم ولهذا كان كل نصيرى تمثالاً للكذب وانكار الحقيقة ، فلا يجاوبكم اذا سألتم ، ولا يصدق اذا جاوب . وهو عدو لكل فكر ، وعنده العناد الاصم . اما نساؤهم تلك البائسات فانهن على غاية من الذلة والمهانة . ولا قيمة لهن . لان المرأة فى نظر النصيرى بقرة تستثمر على قدر الاستطاعة . ولا يبعد ان تكون البقرة ارجح لديه منها .

وقصارى القول ، يجب التسليم بسوء الحالة الاجتماعية فى النصيريين الذين يمضون حياتهم فى رؤس الجبال كسالى منقطعين عن العمل ، ومنحازين عن المدنية . وقد بلغت وطئة الجهل فيهم الى درجة لا تكاد تجد امرأة بينهم تعرف القرائة والكتابة ، اما فى الرجال فلا يزيد هذا العدد عن عشرة فى المأة . ولهذا فان سكان هذا القضاء اشد حاجة من غيرهم الى العلم والمدنية .

*
* *

نرى قبل اتمام هذا البحث ان نذكر بعض الارقام الاجتماعية التى حصلنا عليها فى هذا القضاء .

نطقت قيود المحكمة الشرعية بان عدد المتأهلين فى السنين الخمس الاخيرة «٩٧» شخصاً . ولا جرم ان هذا العدد يختص بالسنيين فقط . فمنهم «٣٢» تأهلوا سنة «٣٣٠» و «٤٤» سنة «٣٣١» و «١٧» سنة «٣٣٢» و «١» سنة «٣٣٣» و «٣» سنة «٣٣٤» هجرية . وعدد الذين يتراوح سنهم بين «١٥ و٢٠» من هؤلاء «١٥» و «٦٤» ممن هم فى سن «٢٠—٢٥» و «١٩» ممن سنهم اكثر من «٢٥» سنة . وكان اكثر الزواج يتداول بين شهرى محرم وربيع .

اما الطلاق ؛ فقد حدث منه فى هذه السنين الخمس عشرة ويصيب كل سنة اثنان منه بين السنيين .

وحدث سنة «٣٣٢» فى هذا القضاء جرم واحد من القتل و «٦٩» جرماً من الجنح والقباحات . و «٢٨» من هذه الجرائم عبارة عن الضرب والجرح . و «٩» من نوع السرقة والباقون من مختلفى الانواع .

ثم ان عدد الذين يشتغلون فى القضاء بالتجارة «٢٥٧» على التقريب . وعدد الذين يتعاطون الزراعة «٤٢٥٣» ، وارباب الحرف «٥٤» شخصاً . ويوجد «٥٧٢٠» شخصاً يشتغلون تارةً بالزراعة ، وتارة يظلون بلا شغل . ويروى وجود «٦» اشخاص من طبيب ومعمار وغيرهم من ارباب الصنايع الحرة . ولا نرى حاجة للاشارة على عدم صحة هذه الارقام التى خلقها التخمين الكيفى .

١٠ — الاحوال الصحية

ان البيوت فى قصبة بانياس وان كانت منطبقة على القواعد الصحية غير ان وجود الينابيع المتعددة فى ضواحى القصبة جعلها واطبسة من حيث الموقع والهواء . هذا وان كان للماء الخدمة الحسنة فى تأمين نظافة القصبة ولكن بما انه يسيل مكشوف المجرى معرضا للتدنس والتلوث . كان بمثابة الناقل للامراض . ثم ما تحدثه تلك المياه حين سقى البساتين من القرارت ، والمستنقعات التى تتراكم على ضفاف نهر (حريصون) لم تزل سبباً قوياً لسراية الامراض وتفشيها . ولهذا فان الحمى المرزغية هناك بمثابة مرض اهلى . ولا بد ان يصاب بها نصف السكان فى كل سنة . ثم توجد هناك امراض التيفوئيد والديزانترى وقد اصيب فى السنة الماضية (٤٠٠) شخصاً بالاولى و «٥٠» شخصاً بالثانية . ويقول طبيب القضاء انه قد توفى من هؤلاء زهاء النصف . ويصاب فى السنة «١٠—١٥» شخصاً بالامراض العينية ايضاً ولا اثر لغير هذه الامراض البتة .

وفى سنة «٣٣٢» دخل مرض القوليرة فى قصبة بانياس وفتك فتكاً ذريعاً . حتى انه توفى «٣٠» شخصاً من «٥٠» مصاباً ،

اما القضاء ، فى انحاء الساحل منه لا تنقطع اصابات الحمى المرزغية ولاسيما فى «زلو ودير البشر وحريصون وقاموع وبعمرائيل ومرقب وبستان النجار» من القرى الساحلية ولا جرم ان نصف السكان فى هذه القرى يصاب بهذا المرض فى كل سنة . اما فى سائر القرى من القضا فيندر وجود هذا المرض .

وفى السنة الماضية اشتدت وطئة الحمى التمشية فى هذا القضاء . ويروى ان عدد الذين اصيبوا بها ناهز «١٠٠٠» نسمة وقد توفى منهم قريب من النصف . واصيب بالقوليرة مقدار «١٠٠» شخص توفى بعضهم .

*
* *

فاذا قارنا بين سكان القضاء من حيث الحالة الصحية ، نجد الاسماعيليين احسنهم وانعمهم . ويزعم طبيب القضاء ان السبب فى ذلك هو اعتناء الاسماعيليين بالنظافة من جهة وطيب انحائهم وقراهم التى يقطنونها من جهة اخرى . واحط طائفة فى هذا القضاء من الوجهة الصحية هم النصيريون . لان موقعهم الصحى سافل جداً . ولاسيما فان حالتهم فى السنين الاخيرة ازدادت ويلاً وتعاسة . ولا يوجد فى القضاء من مأمورى الصحة الا الطبيب ومأمور التلقيح . ولا توجد قابلة فى كل القضاء . ولهذا فان النساء يضعن حملهن وفقاً للقانون الطبيعى .

—١٧—

البحث المحلى عن الاسماعيليين

١ — اسماعيليو بيروت

ان الاسماعيليين الذين يقطنون قضاء مرقب من عمال بيروت يختصون بناحيتين من هذا القضاء ، قدموس وخوابى . ومجموع سكان الناحيتين بالنظر للقيود الرسمية يبلغ «٣٦٩٨» نسمة . منهم «٢٥٠٠» فى قدموس والباقون فى خوابى .

فالذين يقطنون قدموس يشغلون مركز الناحية واثنى عشر قريةً من اعمالها . واهمها قرى [الشعرة ، لصوراته ، كاف الحمام ، عقرزيتى ، قدموس ، زريقه ، قلعة العليقة ، حماسة العبلية] .

اما الذين يسكنون فى انحاء خوابى يشغلون (١٧) قرية . وهى [عورو ، بطاحية ، عقرزيتى ، خوابى ، برى كيه ، بيت ديبه ، جماشية ، راس تركمن ، خربة الفرس ، بيت سلهب ، مازوغا ، بيت قاسم ، بحوه ، بيت الاسمر ، برمانة رعد ، البلوعة ، النمامات ، العليبه] . وبعض هذه القرى يتالف من بضعة بيوت وبعض من (٣٠—٤٠) بيتاً .

*
* *

كنا ذكرنا ان الاسماعيليين المقيمين فى ناحيتى قدموس وخوابى ؛ هم قديمو العهد بتوطن هذه الاصقاع . نعم ذكرنا فى القسم العمومى حين البحث عن الاسماعيليين انهم قديمو العهد فى سكنى البلاد السورية [*] لاسيما وقد علمنا انهم تمزقوا ايدى سبا بعد انقراض حكومة الاسماعيلية الشرقية وتشتتوا فى الشرق الى بلاد الهند ، وفى الغرب الى بلاد سورية . فيحتمل ان يكون هؤلاء من مهاجرى الاسماعيليين فى ذلك الزمن . ويجب ان نسلم بوجودهم فى هذه الاصقاع منذ تاسس مذهبهم لانه تاسس فى قصبة السليمية . ولكن لا بد ان يكون عددهم يومئذ اكثر واوفر من عددهم اليوم . لاسيما اذ فكرنا بانهم اجهدوا صلاح الدين الايوبى مدة طويلة ، وعلى رواية حاربوا معه الصليبيين ، نعلم انهم كانوا اوفر عددا واعظم شأناً منهم اليوم .

(*) راجع صحيفة (٨٠—٨٤) .

ولا يفوتنا ان الاسماعيليين اليوم يعيشون وهم على ما يبعث العجب من السكينة والهدو. ونحتاج اليوم الى الادلة القوية، والبراهين الناصعة التاريخية حتى نبرهن على انهم من احفاد اولئك الفتاكين والفوضويين السفاحين ومع هذا فان لهم اليوم موانع تحيل بينهم وبين التشبه بالاسلاف. ولا بأس ان نجملها هنا اتماماً للفائدة:

اولاً — ان الاسماعيليين اليوم ليسوا بطائفة عظيمة، وما عدا هذا فانهم محاطون بالاقوام الذين هم اشد منهم قوةً واوفر عدداً.

ثانياً — انهم محرومون اليوم من الرؤساء الحريصين.

ثالثاً — ليس لديهم وسط مناسب تنفق فيه اسس الاسماعيلية الملومة وتروج، ويسعهم باعادة مجدهم الضايع.

رابعاً — ما زالت ترجمهم القرون بضربات الهمة شديدة حتى القت في قلوبهم رعباً تاريخياً يتسلسل فيهم مع النسل.

ولهذه الاسباب لا نرى الاسماعيليين اليوم يشدون على الملوك، ولا يتطاولون على السكان، ثم لا يتحفزون لاحياء الاديان. بل انهم يكتفون بالاحتفاظ بما يقوم باذهانهم من سراب ذلك المعتقد الذي كأنه حلم قديم ويتلهون بما يوحيه الى قلوبهم من التسلي الكاذب.

٢ — اسس الاسماعيليين الحالية

ان الاسماعيليين الذين يقطنون الاصقاع التي مر ذكرها ينقسمون الى فرقتين كبيرتين:

فالحجاويون منهم يسكنون انحاء خوابي والسويدانيون يقيمون في ناحية قدموس. واننا مرجئ التكلم عن الفروق بينهما من حيث الدين الى البحث الآتي:

بيد انه لا علم لنا بتاريخ تأسس هاتين الفرقتين، ولا بالغاية والمقاصد التي اوجبت تكونهما ولاسيما غلو الاسماعيليين وافراطهم بملازمة الكتمان في عقائدهم الدينية، كان اكبر مانع لاتضاح هذه النقاط وانكشافها، وقد كان يمكننا ان ننظر لاسم (الحجاوي) و (السويداني) ونؤول المسئلة بمدلوله نختاره مناسباً لهذين الاسمين، من شخص او محل، ونحل المسئلة بقرائن الالفاظ البحتة، ولكن لا تكون لهكذا تفسير قيمة علمية ما لم يؤيد ببراهين ناصعة.

وليس لدينا الآن عن هاتين الفرقتين اللتين افترقتا بسبب تخالفهما في المعتقد، الا حقيقة وجودهما الراهنة فقط.

ويروى عن هؤلاء الاسماعيليين المقيمين في هذه الانحاء انهم كانوا قبل خمسين سنة محرومين من الامام. ولهذا اخذوا يتحرون لانفسهم اماماً. وما لبثوا ان سمعوا سنة (١٢٨٣) بخبر شخص في بلدة حيدر آباد من اعمال الهند يدعى «علي» تؤثر عنه الاهلية الكاملة، حائز على الشروط والاوصاف التي تخوله ان يكون اماماً وقدوة لهم. وعليه سارعوا لاعداد وفد، وارسلوه الى البلدة المذكورة ليدرس احوال هذا الشخص، ويسبر هويته. ولكن لم ير الوفد المذكور في «علي» تلك الكفائة، فرفض امامته. ثم علم بان شخصاً يدعى (محمد الحسن الحسين) ادعى الامامة في بومباي. فرأى الوفد ان يقصد تلك البلدة وينظر في امر هذا الرجل ايضاً، ويسبر حقيقته. فذهب اليها. وبعد ان استقصى احواله، واطلع على كنهه الفاه حائزاً على الشروط المطلوبة فبايعه بالامامة وقفل راجعاً الى بلاده. واطلع ابناء دينه على الامر فأيدوا رأيه واخذوا منذ ذلك الزمن يرسلون زكاتهم الى «محمد الحسين». ودام الامر على هذه الكيفية حتى سنة «١٢٨٨» هجرية حيث توفي محمد الحسين وخلفه من بعده ابنه «علي شاه». وقد آمن بعض هؤلاء الاسماعيليين بامامة هذا الخليفة ايضاً. وظل «علي شاه» اماماً حتى سنة (١٣٠٨)، وفيها توفي وخلفه على الامامة ابنه «محمد شاه». وهذا ايضاً بايعه الاسماعيليون واعترفوا بامامته.

ولا يفوتنا ان الذين آمنوا بامامة هؤلاء الائمة هم «الحجاويون» فقط، اما السويدانيون فانهم يرفضونهم محتجين بانهم لا كفائة فيهم. ولهذا قام التناقش والجدال بين هاتين الطائفتين على ساق وقدم. حتى افضى الامر لاتفاقهم على الاشتراك بتشكيل هيئة من كلي الحزبين وتسييرها الى الهند لاجل استطلاع دخيلة الرجل، واستكناه حقيقته. وقصدوا بهذا التدبير قطع المشاحنات وتأمين وحدة الامة، وصونها عن الشقاق. ثم سارت تلك الهيئة سنة «١٣٢٢» الى الهند وقامت بواجبها ورجعت، فكان نتيجة ذلك ان قبل بعض السويدانيين بامامة (محمد علي شاه) وبعضهم ظل مصراً على رأيه الاول.

وقد فوض «محمد علي شاه» الى «الشيخ احمد محمد» من اعضاء الهيئة، رتبة يسمونها «مكة» وعززه بشخصين يدعى احدهما «كامريا» والثاني «باهي». ويروى ان «مكة» هو الداعي و«كامريا» هو «وزير الميمنة» او «قابض المال» و«باهي» هو وزير الميسرة.

ويروى ان قد شد عضد «الشيخ احمد» باخيه اسماعيل الذي سمي «سيف الدعوة» وقام الاخوان يدأبان لنشر الدين الاسماعيلي. واخذا يشيدان المعابد ويعلمان الناس كيفية عبادة صورة «فوطوغراف» محمد علي شاه التي احضرها الشيخ احمد معه من الهند. وشرعا يجمعان الاموال الطائلة باسم «الزكاة والنجوة».

ولا علم لنا بماهية الوظائف التى اختص بها كل واحد من هؤلاء الاشخاص الذين اتخذوا قصبة «السليمية» — مهد ديانتهم — مركزاً لهم . ولا يبعد ان يكون رؤساؤهم من «الدعاة» . واننا سنتكلم عن هذه النقطة حين البحث عن حالتهم الدينية .

وقصارى القول ان هؤلاء الاشخاص ما زالوا يتجولون فى تلك الانحاء متظاهرين بالمشيخة يجمعون الاموال والاعانات بمختلف الوسائل الى سنة (٣١٦) . ويومئذ ازمعوا على ايصال تلك المبالغ التى حصلت لهم الى «محمد على شاه» .

وعليه نهض الشيخ احمد محمد واخوه الشيخ اسماعيل وثلاثة اشخاص من حاشيتهم وحضروا الى طرابلس الشام ليذهبوا منها الى الهند . ولم تلبث الحكومة ان اطلعت على دخيلة امرهم . فقبضت عليهم وساقتهم الى سجن الشام . وقد مات الاخوان فى السجن وظل رفقاؤهم الى اعلان الدستور حيث اطلق سراحهم . وكان بينهم الاخ الثالث للشيخ احمد . واسمه «الشيخ نصر» فذهب الى الهند وحصل على المشيخة ثم رجع وأخذ يسعى لجمع النقود كما فعل اخواه من قبل حتى حصل له مبلغ وافر . واراد ان يذهب الى الهند لايصال المال الى محمد على شاه ، ولكن اطلعت الحكومة على الامر ، فصادرت قسماً من ذلك المال واعدته ليصرف على تأسيس مدرسة زراعية فى اللاذقية .

وقد توفى الشيخ نصر فى العام الماضى ، ولم يخلفه الآن احد ويروى ان ابن اخيه هو وكيله اليوم . والان يوجد بين اسماعيلي بيروت ثلاثة مشايخ ، اثنان منهم فى قرية «خربة الفرس» وواحد فى «عقرزيتى» . ويوجد فى كل قرية «وكيل الشيخ» ايضاً . وهذا يدلنا على ان لهم اليوم نظام دينى يسود فى جميع انحائهم .

٣ — شكل الاسماعيلية اليوم

[١] — استحالة الاسماعيلية — نرى من الضرورى قبل الافاضة بذكر ما حصلنا عليه من المعلومات عن الديانة الاسماعيلية ان نلخص ما طرأ عليها من التحول فى هذه المدة التى اربت على عشرة قرون .

وقد اطلعتنا المعلومات التى ذكرناها فى القسم العمومى على ان هذه الديانة لم تحتفظ بخصائصها واوصافها المميزة التى كانت عليها ابان انتشارها . بل لم تلبث مدةً وجيزة حتى طرأ عليها التبدل والتغير . وهذا الدين الذى تزيا بزى الباطنية والقرامطة والحشيشية والبابكية وغيرها من الاشكال المختلفة ، وتطور باطوار شتى لم يمكث بضعة قرون الا ووصل الى شكل لا يمكن ان يشف عن حقيقته الاصلية .

كانت هذه الفئة فرقة من الشيعة تفترق عن «الامامية» بالقول فى امامة «اسماعيل بن

جعفر» فقط . ولهذا لم تكن فى اعتقادهم بالرب ولا بالرسول نقطة توجب الاشتباه والظنة . ولم يكن «على بن ابى طالب» رضى الله عنه لديهم الا خليفة وامام . وهكذا كانت الخلافة فى اخلافه من بعده .

ولكن لم يلبث الذين ارادوا اتخاذ هذه الفرقة آلةً لتنفيذ مآربهم السياسية ، وتطمين مقاصدهم الدينية ان حوروا الديانة وقلبوا سحنتها . فدسوا اولاً مسئلة الائمة المستورة والظاهرة . ثم اتبعوها بدرجة الانبياء وجاؤا بالناطقين والاسس واشغلوا بها وبعددها الاذهان . وهكذا كان — كما فصلنا من قبل — محمد بن اسماعيل نبياً ناطقاً . ثم انتقوا من الانبياء ستةً اقروهم على النبوة ، وحذفوا الآخرين الذين لا ريب فى نبوتهم الى خارج العقيدة واسقطوهم من النبوة الى الامامة اى جعلوهم عبارة عن معاونين للانبياء .

ولم تلبث هذه الديانة ان صارت مكمنا للاسرار والغوامض واستولت فكرة «النبى الناطق» و«المهدى» على الافكار . وقام اناس يزعمون انهم من سلالة على ، وادعوا انهم ائمة فى الظاهر ولكنهم فى الباطن «النبى الناطق» السابع او «المهدى» المنتظر . وهكذا لم يألوا جهداً بتأييد سلطتهم بتلك الصفات المعنوية وبها تسنى لهم ان يقودوا اولئك الناس الغافلين الضالين ويجعلوهم تحت امرتهم وتصرفهم .

وعمدوا الى القرآن ، والآيات الفرقانية ففسروها على اهوائهم ، وموهوا النصوص الصريحة بالالوان الباطنية ومسخوا الشريعة المحمدية حتى بعدت عن اصلها او اضاعته بتاتاً ثم توالى التقلب وتتابع التحول حتى غدى مذهب الاسماعيلية عبارة عن طريقة وضعت للتملص من التكاليف الشرعية . وهنالك وضعت اسس الاشتراك فى الاموال ، ورفعت المحرمات ، وابيحت الاعراض فكانت النساء متاعاً مشتركاً .

ولم يمض على هذا المذهب قرنان الا ودخل طوراً عجيباً بتأثير المذاهب والعقائد الاخرى ونهض ذووه ، ولاسيما الائمة منهم ، فلم يكتفوا بالامامة ، ولا الخلافة وحتى ولا بالنبوة بل جعلوا انفسهم آلهة ، وزعموا ان الاله تجسد فيهم . وزعموا ان سلسلة هذا التجسد مرت بعلى بن ابى طالب فكان آلهاً ، وانتقلت بعده لبنيه وذويه حتى وصلت اليهم واستقرت فيهم ، وادعوا ان هذا التجسد كان قبل (على) يتسلسل على هذا النمط ايضاً وبعد ان وصلوا الى هذه الوقاحة لم يبق لهم رادع عن ان يدعوا بان القدرة التى وضعت الشرايع وارسلت الرسل والانبياء ، ولم تزل تدبر الاكوان وتديرها هى عبارة عن شخصهم المقدس .

وقصارى القول ان هذه الديانة بدأت من امامة اسماعيل بن جعفر ، وشرعت تتقلب وتتحول حتى استقرت على عقيدة التجسد وكانت كلما آنست وسطاً صالحاً لنموها تشب

وتجد من ضالى الناس اناساً يلتفون حولها ويعصبونها ولهذا يجب ان لا نعجب من احفاد اولئك الاسماعيليين الموجودين فى قضاء مرقب اذا رأيناهم متمسكين بهذه العقيدة كما تمسك بها غيرهم فى حما ، وبلاد العجم ، والهند . لان الجهل الاعمى الذى اهوى باسلافهم الى تلك العقيدة الوثنية ، لا بد ان يجر هذه الطائفة المحرومة من كل علم ونور الى عين تلك الاهوية ايضاً .

*
* *

ارانا البحث والتنقيب الذى عالجناه هذه المرة فى ديار الاسماعيليين ، براهين وادلة تدل على وجود عقيدتهم المذكورة التى اوجدتها استحالاتهم الاخيرة . يقول ارباب الرأى فى هذه المسئلة بوجود الفروق بين «السويدانيين» و «الحجاويين » من اقسام الاسماعيليين. ولديهم ان الحجاويين يعتقدون بضرورة وجود رئيس دينى يدعى « قطب الوقت »، اما الآن فلا يوجد هكذا شخص تتوفر فيه شروط هذه الرتبة ، ولهذا فانهم ينتظرون حتى يقيض لهم الزمن هكذا شخصاً .

ولكن لدى الحقيقة ان الحجاويين — كما بينا آنفاً — يعتقدون بالوهية « محمد على شاه » المقيم فى بومباى . وهذا الشخص الذى يعتبرونه اماماً فى الظاهر ما هو فى الحقيقة الا شكل تجلت فيه الالوهية. ويزعمون ان الالوهية التى تجسدت فى « على » لم تزل تتسلسل من نسل الى آخر حتى وصلت الى « محمد على شاه » او بتعبيرهم « آغا خان » . ويفصل الحجاويين دعواهم على هذا الوجه قائلين :

— ليس من المعقول ، الاعتقاد بآله لا يراه النظر . اذ لا بد للاله ان يظهر لاجل تلقين الشرايع . ويتجسد فى صورة شخص . فاغا خان المنسوب لعلى (ر . ع) هو شكل تجسد فيه الالوهية .

هذا وان تكن هاتان الفرقتان لا تختلفان فى العقيدة الاساسية . ولكنهما يفترقان فى تعيين كيفية التجسد . ولدينا براهين قاطعة تثبت اعتقاد الحجاويين بان « آغا خان » آله . وها نحن نذكر بعضاً منها :

اولاً — وضعهم اثناء التعبد صورة «آغا خان » على مائدة ، وتوجههم شطرها وركوعهم وسجودهم لها .

ثانياً — تسميتهم آغا خان حين قرائة الادعية [*] بالحق وروح الوجود ، والحى المعبود .

(*) سندرج هذا الدعاء بنصه فى الفصل الاتى .

ثالثاً — كتابتهم على علمهم الذى اظهروه مدة قليلة بعد اعلان الدستور عبارة «لا اله الا السلطان محمد على شاه» .

وهذه الادلة تظهر لنا شكل العقيدة الاساسية التى يعتقد بها اسماعيليو اليوم . واننا لا نعلم حقيقة الشريعة التى يمشى عليها « محمد على شاه » . ولكن يروى ان رتبة « مكه » هى عين النبوة . و« المكيون » مرسلون من قبل محمد على شاه ليصدعوا بالادعية التى رتبها . وقصارى القول ان هذه الروايات تعرفنا بان الاسماعيليين اليوم من خالص الوثنيين . والمبحث الآتى يبرهن على صدق هذا الادعاء بوضوح كامل .

[٢] — *عبادة الاسماعيليين وادعيتهم* — رغماً عن قيام بعض الاسماعيليين ببعض العبادات الاسلامية بالظاهر . فانهم فى الحقيقة يعبدون « محمد على شاه » الذى يعتقدون بربوبيته . لان القدرة على الاثابة والعقوبة منحصرة فى الشاه . ولهذا يخصونه بعبادتهم ويطيعون اوامره لينالوا الجنة التى ينزعون اليها .

ان للاسماعيليين صلاتين فى كل يوم . الاولى وقت الفجر والثانية وقت العشاء . وتمتد كل واحدة منهما ساعتين . ويؤدون هذه الصلواة فى محل يسمونه « المعبد » . وهو عبارة عن غرفة صغيرة لها بابان متقابلان ، مبيض داخلها بالكلس . معلقة صورة « محمد على شاه » فى انسب موقع فيها . ولا يوجد فيها شئ من الزينة . مفروشة بحصيرتين موضوعة فى منتصفها مائدة من الخشب ارتفاعها (٣٠ — ٤٠) سانتيمتراً وطولها متران وعرضها نصف متر . ولكل قرية من قراهم هكذا معبد .

يدخل الاسماعيليون هذه المعابد ابان العبادة ، ويؤلفون حلقة حول المائدة . وتوجد النساء فى آخر حلقة . ولا بد من وجود الشيخ او وكيل الشيخ فى تلك الصلاة .

وقبل الشروع بالصلاة يأتون بصورة (محمد شاه) من محلها باتم التعظيم والاحترام ويضعونها على المائدة . ويصرخ الشيخ « السلطان محمد على شاه » . ثم يشرعون فى العبادة ويسجدون . وبعد السجود يقول الشيخ « على الله » فيجاوبه الحاضرون بصوت واحد « صحيح الله » . وهكذا يتمون الدعاء ويؤدون الصلاة . ويكون ركوعهم او سجودهم اثناء الصلاة عبارة عن انغاض رؤسهم تجاه الصورة . ويتلون كلمات [كار ، كرم ، رك ، شرم] اثناء الصلاة ويشيرون بايديهم الى رؤسهم ويمين صدورهم ويسارها على وجه التصليب . وبعد انتهاء الصلاة يضعون نقوداً فى اثقاب المائدة .

والادعية التى تجب على الاسماعيليين تلاوتها اثناء الصلاة يتقبلها « المكيون » من محمد على شاه . وبعض هذه الادعية محررة فى لغة « اوردو » . وتوجد فيها جمل عربية

وفارسية ايضاً .

وقد آثرنا ان ندرج صورة هذا الدعاء الذى لم نحصل عليه الا بشق الانفس بعينها رغماً عما جاء فيها من الاغلاط الاستنساخية . [*]

كيفية صلاة الاسماعيلية

[بعنوان مولاهم الهندى) ، [شيخ احمد محمد] ، [قابض مال شيخ نصر] ، [وزير الميسرة]

الله مريا مكه دعا برو كامريا دعا برو پاهى دعا برو

جمله جوى دعا برو سلامة مولانا

سلطان محمد شاه على [ويسجدون وعند القيام من السجود يقول الشيخ] على الله [يجيبوه الجماعة] صحيح الله مولانا سلطان محمد شاه حاضر امام حق نام پيرشاه [عدد ١٠٠] شاهجى قبول كرى مولانا سلطان محمد شاه على [ويسجدون وعند الرفع يقولون كما مر والبسملة والحمد لله ولا اله الا الله] رحيم قسيم كريم خداوند حضرت بزرك باق پرور دغار ديلم ديس مان حاويسى بجهم ديسى خندراق سرى مولانا سلطان محمد شاه على [ويسجدون ويتكلمون الالفاظ كما سبق] حق يا شاه حضرت عاد ابيافت وسرى مشى قورب اكرى سن وسرى فريش رام ترسن بو دشيت سام بسلام ملكان اسلام حاران سامان ساقان عدنان معدنزار مضر الياس مدركه خذيمه كنانه نضر مالك فهرلوئ قيبرك مرئ قلابرهك قصى عبد مناف هاشم عبد المطلب ابوطالب وبى سرى حق مولانا مرتضى على حق مولانا شاه حسين حق مولانا شاه زين العابدين حق مولانا شاه محمد الباقر حق مولانا شاه جعفر الصادق حق مولانا شاه اسماعيل حق مولانا شاه محمد اسماعيل حق مولانا شاه وفى احمد حق مولانا شاه تقى محمد حق مولانا شاه رضى الدين عبدالله حق مولانا شاه محمد المهتدى حق مولانا شاه قايم حق مولانا شاه منصور حق مولانا شاه معز حق مولانا شاه عزيز حق مولانا شاه حاكم حق مولانا شاه ظاهر حق مولانا شاه مستنصر بالله حق مولانا شاه نزار حق مولانا شاه هادى حق مولانا شاه مهتدى حق مولانا شاه قاهر حق مولانا شاه علا ذكريا سلام حق مولانا شاه جلال الدين حسن حق مولانا شاه علاء الدين محمد حق مولانا شاه ركن الدين خير شا حق مولانا شاه شمس

(*) وضعت الاقسام التى تخص العبادات بين قوسين وكتبت بحروف رفيعة . والذين استنسخوا هذا الدعاء وضعوا ايضاحهم باللغة العربية . ونحن احتفظنا بالاصل .

الدين محمد حق مولانا شاه قاسم شاه حق مولانا شاه اسلام شاه حق مولانا شاه سلام شاه حق مولانا شاه مستنصر بالله حق مولانا شاه عبد السلام حق مولانا شاه غريب ميرزا حق مولانا شاه ابو النور على حق مولانا شاه مراد ميرزاحق مولانا شاه ذو الفقار حق مولانا شاه نور الدين على حق مولانا شاه خليل الله على حق مولانا شاه نزار على حق مولانا شاه سيد على حق مولانا شاه حسن على حق مولانا شاه قاسم على حق مولانا شاه خليل الله على حق مولانا شاه حسن على حق مولانا شاه على شاه حق مولانا سلطان محمد شاه صاحب الامر والزمان روح الوجود وحى معبود [والسجدة] اللهم يا مولانا انت السلام ومنك السلام واليك يرجع السلام وعليك الف سلام حينا ربنا بسلام وادخلنا دار السلام تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام بفضلكم ورحمتكم يا مولانا [عدد — ٥] بلطفك وكرمك يامولانا [عدد — ٥] لا حول ولا قوة الا بالله يا مولانا [عدد — ٥] ذود ذود فرياط پدمى يا مولانا اللهم ياسيدى منك مددى وعليك معتمدى اياك نعبد واياك نستعين يا ابا الغوث اغثنى ياعلى ادركنى بلطفك الخفى توابى رحمتى مرحمتى سبحو محمد مربى على محمد يك خدا حق شناس دفع بلا لا اله الا الله محمد رسول الله مولانا امير المؤمنين على صحيح الله حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير غفرانك ربنا واليك المصير دعا پنج يا جيجه ونيتى شاهجى درغامه قبول كرى مولانا سلطان محمد شاه [ويضعوا اياديهم اليمين على الارض ثم يرفعوهم الى التصليب ويقولوا] كار كرم رك شرم [وثم يضعون ايديهم بايدى بعضهم ويقولوا لبعضهم] شاه ديدار [ويسجدون ثم يرفعون ويقولوا] مولانا سلطان محمد شاه حاضر امام حق نام پيرشاه [عدد حب المسبحة] يا شاه بفصل دهيك درغايك عمر دارك ايشى كداريك بنج باهيك ديدار حوقيب كريم چيريكى چوطنى موبكى موكدى مولانا سلطان محمد شاه على على الله [سجده وحالة السجود] بر وكيل جملا معدر قدرخيش خشندر خبده مرده بنده سرتانه غنا غار ياشاه تونخيش بخشى هار مشكل واحسان مولانا سلطان محمد شاه على [ويرفعون من السجود البسمله] لا اله الا الله الحى القيوم ملك الحق المبين لا اله الا الله الملك الحق اليقين مالك يوم الدين العلى العظيم لا اله الا الله الحليم الكريم لا اله الا الله محمد رسول الله مولانا امير المؤمنين صحيح الله حقاً حقاً [يجاوبوه] صدقاً صدقاً استغفر الله العظيم وبحمده لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين لا فتى الا على لا سيف الا ذو الفقار نادى مولانا على مظهر العجائب تجده عوناً لنا فى النوائب كل هم وغم سينجلى بولايتك ياعلى يا على [وينفخوا على اكتافهم وصدورهم] على الله صحيح الله [وبالصبح تسبيح] نجيتنا فى حضرة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم حضرة مولانا مرتضى على حضرة فاطمة الزهراء حضرة امام حسن حضرة امام حسين يا مولانا سلطان محمد شاه

على [سجده] على الله پيرجى پيرنجى پير اول نبى بر محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم پير امام حسن پير شاه قاسم پير جعفر شاه پير زين العابدين پير امير احمد پير سدكور تور پير نور الدين پير محمد المنصور پير غالب الدين پير عبد المجيد پير مستنصر بالله پير احمد هادى پير هاشم شاه پير محمد شاه پير محمود شاه پير محب الدين پير خالق الدين پير عبد المؤمنين پير اسلام الدين پير صالح الدين پير صلاح الدين پير شمس الدين پير نصير الدين پير شهاب الدين پير حيدر الدين پير حسن كبير الدين پير تاج الدين پير بنديادى مردى جوامردى پير حيدر على پير علاء الدين پير بابا آغا هاشم شاه پير محمد زمان پير آغا عزيز پير آغا مهرب بيغ پير آغا على اكبر بيغ پير آغا على اصغر بيغ پير امرزا شاه على پير مولانا سلطان محمد شاه على صاحب الامر حاضر جوق يارب بحق اونده قوله قول سن بتول بخشى مراه بفاطمة تحتت الرسول « سى » غزه شهيده اوليا انبيا سنته صوصو حسين بكلك توبى هزار پير پيغمبر يا مولانا سلطان محمد شاه على [سجده] بجستنباغ قى وباغ فنا دشمان دن خابجتنباغ حق نام پيرشاه [عدد المسبحة وسجده] دعا نيت خير لاهى خير عاقبت خير همتان خير يا على حو خير اول خير آخر خير باطن خير ظاهر خير حقيقة خير كريم يا مولاى على رسمى شر ظالمك شهدكى شر شيطان شهدكى كريم يا مولاى يا على كريم خير وياتى خيرجى شاهجى درغام قبول كرى مولانا سلطان محمد شاه على الله ميريا على محمد كت جملهجى مشكل احسان كرى صاحب ستجوكان قول قبول كرى صاحب راجيه دركا بيد درشاه ديدار نصيب كرى صاحب شهيده ياركورجى اولادجى كلام مبهر سكسه وجى صاحب اون بانجى مين بهندار مين بركتهوجى وصاحب قرزينينه وزلايى قرخيجنو اكار سادكرى صاحب جاخ صاحب كت جملهجى وان مرا دون حاصل كرى صاحب سكو سو رى كرى خير بيداكرى الله ميريا على محمد كت جملهجى ونيتى قبول كرى مشكل احسان مولانا سلطان محمد شاه على آلاهى آمين شاه غريب منده بفضلكم مولانا سلطان محمد شاه حق نام پير شاه [تسبيح بعد قلب المسبحة السجده] فرمان حقكم يا مولانا يا على [عدد — ١٢ صلواة] اللهم صلى على محمد وآل محمد [عدد — ١٣ ويسجدوا] دعا نيت خير آلاهى خير عاقبت خير همتا خير يا على صو خير اول خير آخر خير باطن خير ظاهر كريم يا مولاى على كريم خير وياتى خيرجى [سجده وحالة السجود يقولوا] شاهجى درغامه قبول كرى مولانا السلطان محمد شاه العلى [ثم يقول الشيخ] على الله [يقولون الجماعة] صحيح الله . بسم الله الرحمن الرحيم مدد على شفاعت رسول اطاعت خدا حضرة قبول بر سد كورتور نيفرياد برشى شوتى نيفرياد بر آغا على اكبر بيغ نيفرياد بر على اصغر نيفرياد بر مزار محمد الباقر بيغ نيفرياد وبرسى كال معطى سلامة نيفرياد بر مولانا شاه حسن على نيفرياد بر مولانا شاه على شاه نيفرياد بر مولانا شاه حسن على نيفرياد بر مولانا شاه خليل الله على نيفرياد بر

مولانا شاه حسن على نيفرياد بر مولانا سلطان محمد شاه على نيفرياد اين ايني كلى كلى باق لا اله الا الله محمد رسول الله مولانا امير المؤمنين على صحيح الله حى حيدنده قايم [على كتف اليمين وعلى الشمال] شاهجى ودغامه قبول كرى مولانا سلطان محمد شاه على له سجودنا وهو معبودنا ، انتهى .

*
* *

لم نستطع تحليل هذه الادعية التى يقرؤها الاسماعيليون فى صلواتهم والتى تنطق بكيفية عبادتهم ولكن يتضح من تدقيقها انها تشف بمضمونها عن اسس الاسماعيلية ، ولهذا نرى ان نشير الى هذه النقاط .

اولاً — ان « محمد على شاه » الذى يسميه الاسماعيليون « الله ميريا » هو آله فى نظرهم لانهم يسجدون كلما ذكر اسمه ، ويسمونه (صاحب الامر والزمان ، روح الوجود ، وحى معبود) .

ثانياً — ان الوهية محمد على شاه انتقلت اليه من اجداده من « على » ، ومن شيث قبله . ولنا نجد عدة سلاسل من الانساب بعد ذكر السلسلة الاولى . ونرى فيها اسم « محمد المصطفى » ايضاً . ولكن السلسلة الاولى ، وما بعدها كلها تنتهى باسم محمد على شاه ثم يسجد له . وهذا يدلنا على رجحان محمد على شاه فى نظرهم على جميع من ذكر فى السلسلة . ولا بد ان يكون هذا الترجيح ناشئاً من اعتبار محمد على شاه « آلهاً مجسداً » يشغل الزمان الحالى .

ثالثاً — اذا نظرنا فى السلسلة النسبية التى تثبت ان محمد على شاه من نسل « على » ، وعلمنا شدة اهتمامهم بهذه النقطة نطلع على اهم الشروط التى يجب ارتيادها فى هكذا معبود هو امام فى الظاهر و « آله » فى الحقيقة . وهذا يدلنا على ان الاختلاف بين الحجاويين والسودانيين لم يكن فى اصل العقيدة ، بل هو فى موضع تجلى الامامة ، او بالاوضح فى شخص « محمد على شاه » .

رابعاً — يتضح من هذا ان مذهب الاسماعيليين انقلب عن حقيقته بما طرأ عليه من التحول والتقلب . واصبح بين شكله اليوم ، وحقيقته بالامس بون عظيم . وغدت قيمة اسماعيل بن جعفر ، ومحمد بن اسماعيل عبارة عن كونهم اجداداً لمحمد على شاه . ومراً تخطت عليه الالوهية الى هذا المقصود بالذات .

خامساً — لم نعثر فى هذا الدعاء على السلسلة التى مر ذكرها فى القسم العمومى كالنبى الناطق والاساس وغيرها . وهذا يدلنا على تحول العقيدة اليوم ، وعلى سقوط « الاسس والائمة » عن قيمتهم الماضية .

سادساً — ان اتجاه جميع الادعية الى صورة محمد على شاه ، وتلاوتهم كلمات « كار ، كرم ،

رك ، شرم » واخذهم بالتصليب تجاه الصورة عينها يفصح عن امتزاج هذه العقيدة بالعقيدة المسيحية . ويرينا فيها اوصافاً تدل على « الوثنية » .

وقصارى القول ان هذه الوثيقة تفصح عن ما يتمسك به الاسماعيليون اليوم من الاعتقاد المزيج ، ولو تسنى لهذه الوثيقة من يطلع على لغتها ، ودرست بامعان لا جرم نحصل على الادلة الكافية التي تطلعنا على حقيقة هذه الديانة اليوم . ولا ريب في ان الزمن سيمزق هذا الغموض عن تلك الفئة المتكتمة ويظهر اسرارها المظلمة ويفضحها .

[٣] — **التظاهرات الدينية** — يتضح من الاجمال الذي بيناه في كيفية عادة الاسماعيليين وادعيتهم ان هذه الفرقة تفترق بهذه العبادة عن السنيين ، وعن غير المتغالين من الشيعيين . وتفترق عنهما ايضاً بالعبادات الاخرى كالصوم والحج .

ويروى عنهم انهم لا يصومون في رمضان ، ولا يعبأون بغيره من الصيام الذي قضت به الشرايع الاخرى . ولا يعثر بينهم على شخص حج البيت الحرام ، ويؤثر عنهم انهم يعتبرون زيارة « محمد على شاه » الموجود في بومباي ، تنوب مكان « الحج » ويعتقدون الثواب الجزيل في تلك الزيارة .

ثم ان كلمة الشهادة عندهم ليست على حقيقتها ، بل هي محرفة . ويروى عنهم انهم يقولون (لا اله محمد رسول الله) . وهذه تشف عن مقاصدهم بصورة ظاهرة .

وهم يهتمون اهتماماً عظيماً بقرائة القرآن العظيم ، وتعليمه . ولا بد من وجود المصاحف في منازل اكثرهم . ومع هذا فقد يؤثر عنهم انهم يهتمون بمعاني القرآن الباطنية ولا يعبأون بمدلوله الظاهري اما الزكاة ؛ فانهم يتوسعون في تفسير هذه الآية القرآنية (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى) ويعتقدون بوجوب الزكاة في جميع اموالهم ، وحتى في المآكل ، ويرون تفريق الخمس من جميع نفقاتهم فرضاً محتماً من اهم من جميع الفرائض . ولذلك لا يتراخون في امره وارساله الى « الشاه » ويؤثر عنهم انهم يفرقون خمس التركة بعد الوفاة ، وخمس المهر ، ويوصلونه الى « الشاه » ايضاً . ويوجد لديهم مجالس تتألف من وكلاء المشائخ ، يرجعون اليها في حل الاختلاف في الزكاة ، ولا يألون جهداً بالاسراع في ايصال المبالغ الى « الشاه » .

ولا يفترق الاسماعيليون عن السنيين في امر الزواج . وتجرى عندهم قاعدة تعدد الزوجات . وتقاليدهم في النكاح تدلنا على عدم تباينه لما نعهد . ولكنهم لم يعتادوا الطلاق بل يكتفون بالهجر فقط .

وتجرى بينهم عادة الختان ، ويتمسكون بالعادة الاسلامية بتجهيز الميت وتكفينه ولا يعبأون بتوجيهه في جدثه الى القبلة . ولا يرون لزوماً للتلقين ايضاً .

ولهم شذوذ في الوراثة . لانهم لا يشركون النساء والبنات في الميراث . فاذا لم يكن للميت وراث من الرجال تصير التركة الى « الرب » اى الى الشاه . واذا مات احد ولم يوص بخمس امواله الى « الشاه » يكون الشيخ قادراً على توقيف قسم من امواله ، منقولة كانت او غير منقولة . ولهذا يوجد لديهم كثير من هكذا اموال موقوفة يناهز دخلها السنوى (٥٠٠) ليرة .

اما اعياد النصيريين فهي الاعياد المعروفة عند المسلمين . وعيد الاضحى عندهم اعظم شاناً من غيره . وكان لهم اعياد اقتبسوها من الفرس ، واخرى من المانويين كالنوروز . وكان من عاداتهم ايقاد النار في هذا العيد . وايضاً كان لهم اعياد اخرى ورثوها من الاقوام القديمة . وهي معروفة عند النصارى . منها « عيد الميلاد *Noël* » و« يوم الغطاس *Fête de l'Epiphanie* » و« يوم خميس العهد *Jeudi de Careire* » وكانوا يحتفلون في ايام هذه الاعياد كل سنة . ولكن لم نعثر على برهان يدلنا على تمسك الاسماعيليين اليوم بهذه الاعياد وتقديسها .

[٤] — **الطعن في الاسماعيليين وقذعهم** — كنا ذكرنا ان بعض الفرق الاسماعيلية كانت تلقن مبدأ الاباحة في النساء ، وتصل الى درجة تحليل جميع المنهيات والمنكرات [*]. فكان من المحتم علينا ان نعلم هل اخلافهم اليوم متمسكون بتلك الضلالة القديمة ام لا ؟ ولهذا عمدنا الى القرى التي في جوارهم وسالنا من اهلها ونقبنا عن هذه النقطة تنقيباً دقيقاً . ولكن لم نعثر على دليل ، او امارة تدل على ارتكابهم تلك الرزائل الاخلاقية ولا على برهان يؤيد ما جاء في بحث « الاسماعيلية » في كتاب دائرة المعارف عن شؤن ليلة « عيد البنيشة » وعن عبادتهم لما لا يذكر من اعضاء مولودة تلك الليلة الضلالية . ولهذا فقد تركنا هذا البحث ، واضربنا عن تفصيل ما جاء فيه من النقول .

٤ — الاحوال الاجتماعية في الاسماعيليين

من العبث ان نرتاد من حيث الحياة الاجتماعية اوصافاً وسجايا خاصة في الاسماعيليين القاطنين الانحاء الشرقية والجنوبية من قضاء مرقب ، ويستحيل تفريقهم عن السنيين والمارونيين والاورتودوكس ، وحتى عن النصيريين الساكنين في هاتيك الانحاء . لاننا اذا اضربنا عن شذوذهم في الدين لا نراهم من حيث الحياة الا عبارة عن قرويين خالصين

(*) راجع صحيفة ١٠٢

وجميع سكان هذه الانحاء على وتيرة واحدة فى المعيشة ونسق اللباس ، وكلهم منغمس فى جهالة عمياء .

هذا وان تكن القرى التى يسكنها الاسماعيليون طيبة المناخ ، واكواخها نظيفة ولكنها لا تشذ عن الحياة الابتدائية بشيء . ولباسهم لا يفرق عن لباس غيرهم ، وهم يلبسون سراويل وقمصان من البز وفوقها الصدار . وفى رؤسهم العمائم ، او العصائب (حطة) والعقل . ويوجد بينهم من يلبس الاردية الطويلة . ونساؤهم يلبسن السراويل الضيقة الطويلة وفوقها الاردية الضافية المذيلة بالمخرم . ويعصبن رؤسهن بعصابة ، ويضعن القنع فوقها . ولهذا لا نرى لهن فرقاً عن بقية القرويات وهكذ فى وسائل العيش لا نجد فيهم فرقاً عن سائر القرويين . لانهم اما يشتغلون بزرع الحبوب او التبغ ، او بغرس اشجار الزيتون او بتربية دود القز .

وقصارى القول انهم لا يمتازون عن غيرهم الا بصحائفهم الدموية ، واجسامهم القوية وطلعتهم الجميلة . واذا فكرنا بان قد بلغ فيهم العمى العامى والضلال الحياتى الى درجة اهوى بهم فى غيابة الوثنية ، يحصل لدينا فكر اجمالى بما يجب ان يكون لهم من الموقع فى الحياة الاجتماعية .

ثم وان كان بعض الاسماعيليين منفصلاً بعقيدته عن بعضهم ، ويتظاهر بالقيام ببعض الفرائض السنية ، ولكن لا نحتاج الى تعميق الفكر لاجل الاطلاع على الاتحاد الروحى الذى غرسته فى نسلهم تلك الشنشنة الغابرة .

وهؤلاء الذين لا يزالون يخوضون فى واد خاص بهم من الافكار والميول وانحازوا بكتمانهم الاسود عن جميع من فى جوارهم من طبقات البشر ، لا تراهم يحبون احداً ، ولا يرقبون الاً ولا ذمة . ولهذا فلا يرون من مجاوريهم الا عدم الاهتمام وعدم الرعاية .

وان هذه الطبقة الاجتماعية ، بل هذه الشرزمة البشرية الغريبة ، التى انغمس كبيرها وصغيرها فى قروية ساذجة داجية تتألف من ثلة من الاجسام ، وطبقة من العضلات بصورة يكون من العبث ان نرتاد فيها الزمر والاقسام ، والفروق والشذوذ مع ما هى فيه من الوحدة الوصفية والجسمية .

هذا وان وجد فى الحجاويين المشايخ ووكلاء المشايخ ، ومثلهم فى السويدانيين من الاغنياء الذين لا يتجاوزون فى عددهم (١٠—١٥) شخصاً ممن لا يثبطهم شئ عن المثابرة على استثمار اولئك الناس المحرومين من كل هدى ونور ، على ما تقتضيه اهواؤهم . ولكنهم ليسوا الا جزؤ قاتم ظهر فى ذلك الكل الدجوجى .

ولهذا يتحتم على هؤلاء المساكين ان يعلموا درجة انحطاطهم ، وحاجتهم الى العلم والنور بما فى ايديهم من تلك السكك القديمة الغليظة . وبما فى ادمغتهم من العقائد السقيمة الصدئة

ليتسنى لهم ان يكونوا تماثيل انسانية ، وادمغة مفكرة منارة بشموس المدنية تسعى وراء وسائل الحياة التى لا تزال تلمع فى الآفاق المذهبة . والا فليعلموا ان الطبيعة تنفذ عدلها بالظلم ، وتطوح بهم الى المهاوى التى يهوى فيها كل من لا يملك حق الحياة .

— امانك اللهم ، ما افظع ذلك السقوط . . . وما ادهشه ! ماذا عليهم لو فكروا به . . . نعم ماذا عليهم ؟ . . .

—١٨—

من بانياس الى جبله

ان ايامنا الغر فى « بانياس » التى كانها صيفية فى حضن البحر الازرق كانت زمن استراحة وسكون فى تاريخ سفرنا . ولشدة ما تكبدناه من انواع الحرمان منذ شروعنا فى السفر ، الفينا هذه القصبة النشيطة الظريفة ، متناهية فى اللطافة بمائها النقى وخضرتها الناضرة .

لاسيما وقد لقينا فيها من حسن الوفادة والقبول ما زحزح عنا الهموم واجتذبنا لحب هذه القصبة التى كشطت عن نفوسنا وعثاء السفر .

ولا جرم انها قصبة لطيفة شائقة . ولاسيما الليلة الاخيرة التى مرت علينا فيها فقد خلدت فى خاطرتنا اعذب الذكرى . وشهدنا فيها صحيفة غراء من صحائف الشرق الحية .

كنا فى ليلة من الصيف ثقيلة مسعرة ، ولا اثر فيها لما اعتاد ان يبعثه البحر الذى تغلغل فى الابعاد المجهولة من النفحة العليلة . ولا محرك لذلك السكون السائد . ولم ادر الى اى الآفاق ارسل القمر نوره فى هذه الليلة . وليس فوقنا الا السماء الرفيعة تبرق فى كبدها الكواكب النيرة . ولا من صوت يمزق ذلك السكون الهادئ الرهيب الا خرير ينابيع بانياس التى غدت تأز بصوت خنقه البعد .

وما كاد يقال لنا :

— هل لكم ، الى ان نذهب هذا المساء الى الينابيع ؟

الا وقلنا :

— نعم الرأى ، فلعلنا ننشق شمة من هواء ، او نرطب ارواحنا بما هنالك من نسيم الينابيع البليل .

ها نحن نمشى الهوينا فى طرق بانياس وامامنا المصابيح . وقامت على ايماننا وشمائلنا البساتين باشجارها ، ولم يزل خرير الماء ينطبع على صماخنا ، تمتزج به حزمة من اصوات

الصراصر الرفيعة .

كنا نطئ ذلك النور الضئيل ونمشى مستصحبين وجهاء بانياس وفحمة الليل تكم من بصرنا ، والهواء او بالاصح عدم الهواء لا يزال يتثاقل على ارواحنا .

وما لبثنا ان وصلنا الى الينبوع . ورأينا هناك اكثر رجال بانياس جالسين على الحصائر المفروشة على ضفتى الماء . وامام كل واحد منهم نارجيلة يقرقر بها ، ويجهد لان يزيح عنه وطأة تلك الليلة المسعرة . ولا يفتأون يدلون بايديهم الى الماء ويغترفون منه ويشربون .

... كنا قافلين بعد ان جرعنا شيئاً من الرطوبة تحت انوار تلك الكواكب اللامعة ، وفكرنا مشغول بهؤلاء القوم الذين قنعوا بما افاضته عليهم الطبيعة ، وكدنا نغبطهم على سعادتهم بقبول ما تيسر من الحياة .

كنا نتسرب بين نسيج الشجر فى ظل نور المصابيح ، واندفع من كبد الروضة صوت مطرب . واخذ يرتل كلمة :

— يا ليل ، يا ليل ....

وكان هذا الصوت الجهورى يمد فوق هدؤ الليل امواجاً ملؤها الانس والطرب . هذه ايامنا فى بانياس قد انتهت . وها نحن نستسلم الى سلطان النوم ولا يزال ذلك الصوت الرنان يمزق بامواجه حجب الظلام ، ويتحف صماخنا بنغمة تهيئ لنا طيب الرقاد .

*
* *

استيقظنا صباح الغد ، بعد ما خضبت الشمس تيجان الاشجار ، ومرآت البحر بضيائها الذهبى . وما كنا مسرعين فى الرحلة . لان جبلة التى قامت على اقصى ذلك القوس البحرى ، ولاحت كانها ظل اخضر . لم تكن شاسعة فى البعد . ولاسيما المسافة التى يجب قطعها ما كانت عسرة .

تريثنا مدة ثم امتطينا الجياد وغادرنا منازل بانياس البيضاء البسامة . وكان سفرنا هذا بمثابة تجوال صبحى .

وكان عن يسارنا بحر رائق ، هادئ ، وعن يميننا افق شاحط وطريقنا من رمل نقى وبلغ سرورنا بهذه الغدوة اللطيفة الى درجة جعلنا نتمنى امتداد السير مدةً طويلة . وسرنا نماشى الساحل ، فتارة ندوس بسنابك الخيل رؤس الامواج ، واخرى نعطف الى الداخل ونمعن فى الارقال متقربين من قرية « عرب الملك » التى قامت امامنا كروضة خضراء

وبعد ساعة وصلنا الى نهر « الجوبر » . وكان الوقت يمرمر السحاب ، ثم سرنا ساعة اخرى . وها نحن ندخل قرية (عرب الملك) بينما كانت بانياس تلوح وراءنا كانها ظل ممزوج بالبياض والخضار .

ووصلنا بعد هذه القصبة التى تبتسم برياضها الغناء ، الى نهر سماه المؤرخ استرابون

« باداس Bados » ويسمى الآن « نهر السن » او « نهر الملك » . وبعد ان فارقنا هذا النهر بساعة وصلنا الى هضبية تسمى « تل السوكاس » . ولم يزل طريقنا محتفظاً بنسقه ، وربما كنا نمر من بين الحقول المزروعة عن يميننا وشمالنا

وبعد ثلاث ساعات ونصف من مغادرتنا بانياس ، عرضت امام انظارنا قصبة « جبله » وما لبثنا ان قطعنا جدول « عين البرغل » الا وانجلت امامنا بوضوح كامل . وبعد مرتقى قصير قطعناه بمدة وجيزة دخلنا جبلة وفى انظارنا لمعة واضحة تشف عن ارتياحنا لهذه السفرة اللطيفة وسرورنا بها .

— ١٩ —

جبله

١ — موقع القضاء وحدوده

ان هذا القضاء الكائن فى الناحية الجنوبية من مركز اللواء ، شمال قضاء مرقب ، يحده من الشرق قضاء صهيون ومن الغرب البحر ابيض .

٢ — المساحة والسكان والاحوال الادارية

ان مساحة هذا القضاء بالنظر الى القيود الرسمية هى (٩٢٠،٠٠٠) دونم منها (٢٦٠٠٠٠) دونم من الاراضى الصالحة للزراعة . و (١٥٠٠٠) دونم من الاراضى الموات . و (١٥٠٠٠) دونم ايضاً من الاحراج ومقدار الاراضى الاميرية تبلغ (٢٤٥،٠٠٠) دونم . والمضبوط من الاراضى الموقوفة يناهز (١٤٤،٠٠٠) دونم منها (٦٠٠) مربوطة بالاجارتين .

اما عدد سكان جبله الذين اشتهروا فى جميع انحاء الولاية بخشونة الطبع . هو على ما يأتى :

المسلمون	٥٠٩٧
النصيريون	٢٣٤٥٣
الاروام	١٠١
يكون	٢٨٦٥١

وعدد لدات هذا القضاء كان (٤) سنة ١٣٢٨ و (١٩٩) سنة ١٣٣٠ و (١٠١) سنة

١٣٣٢ . اما الوفيات فكانت فى هذه السنين الثلاث (٤٠ و١٩٨ و٢٨٥) نسمة . وكان بين هذه الولادات (٢٣٨) وبين الوفيات (٣٢٢) نسمة من المسلمين . ولهذا تكون تلك القيود الرسمية منحصرة فى الطائفة الاسلامية التى تشغل خمس سكان هذا القضاء . اما عدد الولادات والوفيات فى النصيريين الذين هم فى معزل عن سيطرة الحكومة وقدرتها ، والذين يشغلون (٨٥) فى المأة بين عموم السكان ، لا جرم هو اعظم بكثير مما ضبطته القيود الرسمية وترى فى كل قضاء من اقضية الولاية زيادة فى السكان فى السنين العشر لا يقل مقدارها السنوى عن بضع آلاف من النسمات رغماً عن الاهمال ، وما هنالك من عدم الاعتناء بالشروط الصحية والاجتماعية . ولكن الامر فى قضاء جبله على عكس ذلك لان عدد سكانه سنة (١٣٢٦) كان كما حرر فى تقويم الولاية (٣٠١٩٨) نسمة ، ثم انقلب هذا العدد سنة (١٣٣٢) الى (٢٨٦٥١) نسمة . وهذا من الالغاز التى لا يستطيع حلها الرياضيون . لاسيما وان المهاجرة التى تفشت فى انحاء بانياس وطرطوس لم يكن لهذا القضاء منها نصيب يذكر .

ولا يوجد اثر للناحيات فى هذا القضاء . ولا جرم ان اهمال امر النصيريين الذين لا يفتأون يجاهرون السلطة العامة بالعصيان ، ويأبون اداء الضرائب وايفاء الجندية . لا ينطبق على حكمة الحكومة البتة .

واول ما يحتم علينا هو تأمين الامن ، وتقرير الانتظام فى تلك الاصقاع الجبلية التى تركت محرومة من الآثار النافعة ، والمعاهد العلمية والعمرانية منذ قرون متعددة . وهذا السبب الذى جعل الاحوال العمومية فى هذا القضاء بعيدة عن كل صلاح وسكينة . وان النجاح فى ما يجب التذرع به من الوسائل لتزييد لغلال الزراعية ، وتحسين نوعها يتوقف على تأمين الامن وتقرير الانتظام .

فكم من الاراضى الصالحة للزرع فى هذا القضاء لا تزال بوراً بسبب جور اولئك الاشقياء الجبليين وطغيانهم . ونرى اكثر الاغنياء فى جبلة يضطرون الى بذل العطايا الوافرة الى متغلبة النصيريين ، ويلوذون بظل قدرتهم العمياء ليتسنى لهم الحصول على مزروعاتهم ، او لكى لا يصيبهم كيد اولئك الظالمين . فهل يليق بنا اهمال هذا الامر الوبيل ، الذى يذكرنا بالاجيال المتوسطة .

ونرى الآراء متضاربة بخصوص الوسائل التى يجب التذرع بها لحل هذه المعضلة الاجتماعية . فمنهم من يقول ان هؤلاء الجبليين الذين وافقت مناعة جبالهم خشونة طباعهم فاوغلوا بالبغى والطغيان ، واصبحوا بعيدين عن قبول الانتظام والضبط يجب تبديلهم بقوم مفطورين على الهدو والسكينة . ثم يقول اناس ممن لهم رابطة بهذه الاحوال ، بوجوب تشكيل ناحيات فى بنى على والقراحلة والكلبية والسمت القبلى ، ليتسنى بها للحكومة ان تنفذ بسطوتها الى اعماق هذه الجبال وتضرب على ايدى اولئك الطغاة . ولدينا ان هذه

الوسائل لا ترضى الذين يرتادون سلامة الوطن وسعادته ، ويطلبون تعاليه ورقيه الزراعى والاقتصادى . ولا يوصلنا الى هذه الغاية السعيدة صرف بضع مئات من القروش فى كل شهر ، وتأسيس النواحى فى تلك الشعوب الجبلية التى ملئت بالشقاوة .

وقبل بضع سنين بوشر بتشكيل ناحية فى جهة الكلبية ، فثار الجبليون هنالك وابوا على الحكومة هذا العمل فاضطرت الى صرف النظر عنه بعد ما اعدت المدير وارسلته . وان الوسيلة الوحيدة لتخليص هؤلاء الجبليين من هذا المرض الاجتماعى ، هو تعبيد الطرق وتأسيس المدارس . فالطرق توصل القروى الى انحاء الساحل فيحتك بسكانه الهادئين ، ويشاهد ما لديهم من الانتظام الحياتى ، ويتمكن من بيع غلاله بقيمة عالية ، ويرى الارباح العظيمة فيشرع بتقدير قيمة الحياة . ثم اذا تذرعت الحكومة بالوسائل التى تردع افراد الدرك « ژاندارمه » عما اعتادوا على ارتكابه من الظلم والجور . فلا يلبث الجبليون برهة وجيزة الا ويتركون سلاحهم ، ويسلكون طريق الهداية والصواب . ثم ان تأسيس مدارس داخلية فى انحاء بنى على والكلبية والقراحلة ، بشرط ان تكون كافة لوازم التدريس متوفرة فيها لا جرم تاتى بفائدة عظيمة . وهكذا فعلت حكومة الروس فى تمدين القبائل الوحشية الساكنة فى الانحاء الشرقية من بلادها فانها قابلتهم بالمدارس قبل كل شئ . و قتطفت ثمرة مهمة . ويبعد عن القروى الذى يقدر منافعه ، ويعلم انه يستفيد من رقى بلاده ان يخل بانتظامها او يعبث بامنيتها وسكونها . فتأسيس المدارس فى الاصقاع التى سبلت عليها ظلمات الجهل ، هو بمثابة انارتها بمصابيح الارشاد والهداية .

ومركز القضاء هو فى قصبة جبله الواقعة على ساحل البحر فى الجنوب الشرقى من اللاذقية على بعد (٢٠) كيلومتراً ، والكائنة على (٣٥،٢١) درجة من العرض الشمالى و(٣٣،٣٧) درجة من الطول الشرقى . وهى مبنية فى مرتفع يصل البحر بسهل منبت طوله ست ساعات وعرضه ساعة ونصف . وهى طيبة الماء وجيدة الهواء .

وهذه القصبة التى قامت على انقاض بلدة (كيلا) الفنيقية وسميت لدى القدماء « غابالوم *Gabalum* » . اسسها جوستينيانوس قيصر البيزانطيين مع كثير غيرها من البلاد السورية . وفتحها « عبادة بن صامت » [*] الذى وجه ابو عبيدة بن الجراح « رضى الله عنه » بفتحها سنة (١٧) هجرية .

(*) هو ابو الوليد عبادة بن صامت الخزرجى من اعيان الصحابة ، ومن حفاظ القرآن فى عصر السعادة حضر الشام بعد ان فتحت فى عهد الفاروق ، ومعه معاذ بن جبل وابو الدرداء ليعلموا القرآن الناس . وذهب الى انحاء حمص ، ثم رجع الى فلسطين . وقد اغضبه معاوية فرجع الى المدينه ، ولكن ما لبث عمر رضى الله عنه ان رده الى الشام وارسل كتابا الى معاوية قائلاً (ليس لك من سلطان على عبادة بن صامت) ثم توفى سنة (٣٤) هجرية فى الرملة او فى القدس .

ثم استردها الاروام سنة (٣٥٧ هـ — ٩٦٩ م) . ولم يلبث ان خلعها منهم (ابن ضليعنة التنوخى) قاضى جبلة سنة (٦٨٣) . وعاود الصليبيون عليها الكرة سنة (١٠٩٩) ميلادية فدخلتها جنودهم فى قيادة « بوهه موند » حاكم تارانت ، و « ره يموند الرابع » حاكم طولوز وكانت يومئذ تسمى « Zibel » . ولما فتحها صلاح الدين الايوبى سنة (١١٨٩ م) كانت فى ادارة فرسان هوسپيتاليه . ويوجد فى الجانب الشمالى منها مسرح للتمثيل من آثار الرومانيين لا تزال له بقية ، وقد حوله الصليبيون الى قلعة حصينة . ولا اثر اليوم لبروج القلعة . وقد سورها الصليبيون بسور يشبه سور طرطوس مبنى بحجارة كبيرة ولكن قضى عليه مرور الايام بالخراب . والمرفأ الصغير الذى اوجده الرومانيون وبنوا فى مدخله برجاً لحمايته هو اليوم مردوم بالرمل اكثر من نصفه . ويوجد فى هذه القصبة مزار السلطان ابراهيم بن ادهم وجامعه . وقد جاء فى قاموس الاعلام عنه [انه كان من اولياء القرن الثالث الهجرى ، وهو ابن احد الملوك فى (بلخ) ، وبينما كان ذات يوم يركض وراء الصيد سمع هاتفاً من ورائه يقول [ألهذا خلقت ؟ ...] ، وعلى رواية اخرى انه رأى رؤيا اشعرته بالزهد وترك الدنيا ، فغادر قصور ابيه وهام على وجهه وراض نفسه بالعبادة فى الجبال والكهوف مدة ثم قصد مكة ولبث فيها برهة وصحب الائمة والاولياء ثم قفل الى الشام وبقى هناك الى آخر عمره حتى توفاه الموت سنة « ٢٦١ » هجرية . وقد تضاربت الروايات بشأنه، حتى عسر انتقاء صحيحها . وقد اكتفينا بهذا المقدار منها . ولا ريب فى انه كان من الصالحين الذين ضرب المثل بزهدهم] .

٣ — الاحوال الطبيعية فى القضاء

ان اراضى هذا القضاء تتألف من بعض جبال النصيرية ، ومن السهول الممتدة على طول الساحل . وهى خصبة منبتة . وثلاثة اخماس هذه الاراضى عبارة عن الوعور الجبلية وخمساه عبارة عن السهول البحتة . وارتفاع جبال النصيرية التى تمتد من الشمال الى الجنوب يتراوح بين « ٥٠٠ و ٦٠٠ » متراً واعلى نقطة فيها تبلغ (١٠٠٠) متر فى جبال النواصرة . وربما يبلغ ثخن طبقة الثلج الذى يسقط على النقاط المرتفعة فيه الى « ٢٠ » سانتيمتراً . ويوجد فى القضاء « نهر السن » المعروف بوفرة مياهه والذى يفصل القضاء عن قضاء مرقب . ويوجد فى الناحية الجنوبية من مركز القضاء جدول « برغل » و « جوبر » ، وفى الجهة الشمالية جدول « الرميلى » و « العثمانية » . ولا اثر هنا للمستنقعات التى توجد فى انحاء طرطوس وترهق سكانها الضرر العميم .

٤ — الاحوال العمومية فى القضاء

ان سهل جبلة الذى هو من اخصب البقاع فى لواء اللاذقية تبلغ مساحته مع سفوح الجبال « ٢٥٠٠٠٠ » دونم ، ورغماً عن اتساعه بهذه الدرجة ، ووجود المياه التى تقوم باروائه لا يزرع الا خمساه فقط . وسبب ذلك هو سقامة الاصول فى التملك ، لان جميع هذه الاراضى الخصبة تملكها اسرة واحدة . ويستحيل على هذه الاسرة رغماً عن غناها ان تستطيع اعمار جميع هذه الاراضى ، ولاسيما بتلك الآلات الزراعية السقيمة التى تستعمل الآن . ومن المحتم ان نحكم على عقامة الزراعة ، وعدم الاستفادة من تلك الاراضى الخصبة ما دام اصحاب الاملاك عبارة عن افراد معدودة ، لا يدركون منافع الاصول الفنية فى الزراعة .

ويحصل فى هذا القضاء من الحبوب القمح والشعير والذرة ، ولاسيما التبغ والتنباك . وزرع فى السنة السالفة مقدار (٥٠٠) دونماً من التبغ و(٣٠٠٠) من التنباك . وكان محصول الاول (١٥٠٠) والثانى (٨٠٠) قنطاراً . وقد بيع فى السنة الماضية كل قنطار من التنباك بثلاثة الاف غرشاً دراهم نقدية بعد ما كان يتراوح ثمنه فى السنين السالفة بين (٨٠٠ و ١٢٠٠) غرشا . وقد بيع سنة ١٣٣٣ كل قنطار من التبغ بثلاثة آلاف غرشاً دراهم نقدية . وينقسم التبغ الذى يزرع فى هذا القضاء الى نوعين (حسن كيف) و(مشروب). اما نوع (حسن كيف) فانه يكون شديد الحدة . وكان قبل الحرب يساق برمته الى مصر ويباع قنطاره بالفى غرش وقنطار المشروب بثلاثة آلاف اما اليوم فان ادارة الدخان « الرژى » تبتاع جميع المحصول ، وتعمل منه السجاير فى معمل حلب والشام .

وتجارة التبغ كادت ان تنحصر فى النصيريين الذين يقوون على شرطة التبغ (قوجى) . ويكثر الاتجار بالتنباك بين المسلمين المقيمين فى جبلة . ويزرع التبغ فى انحاء الجبال لانه لا يحتاج الى السقى كالتنباك .

ويدعى بوثوق ان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة يناهز النصف فى سكان مركز القضاء ، اما فى القرى فلا يتجاوز اثنين فى المائة . والمدارس الموجودة فى هذا القضاء لا تقوم بالحاجة فى تعميم المعارف والعلوم الابتدائية بين هؤلاء القوم الجاهلين. وعليه فمدرستا الذكور ومدرسة الاناث الموجودة فى مركز القضاء ، ثم المدرستان الموجودتان فى القرى لن تكون كافية لتعليم سكان القضاء الذين اناخ عليهم الجهل منذ قرون عديدة . واسمنا اليوم فى المعارف ايضاً لا تكفى لسد العوز ، وتخليص هؤلاء القوم الجاهلين من مخالب الجهل الفاتك .

٥ — الفصول الزراعية فى القضاء

ان الغلال الزراعية على الحد المتوسط فى قضاء جبله هى على الوجه الآتى :

جنس الغلال	كيلة
القمح	٩٦٠٫٠٠٠
الشعير	٢٨٠٫٠٠٠
الذرة البيضاء	٩٠٫٠٠٠
الذرة الصفراء	٥٠٫٠٠٠
الحمص	٦٠٫٠٠٠
السمسم	٢٠٫٠٠٠
العدس	١٠٫٠٠٠
الجلبان	١٠٫٠٠٠

٦ — منظر جبله وضواحيها وخطوطها الداخلية

ان قصبة جبله التى تمتد من الشمال الى الجنوب على ساحل البحر الابيض محاطة من الشمال بانقاض قلعة قديمة وحقول مستوية ، ومقبرة ثم الجامع الذى يسمونه « السيد ابراهيم ادهم » ومن ورائه بساتين الفواكه ، ثم منبع « ابراهيم ادهم » ؛ ومن جهة الشرق بحقول سهلة تمتد مسافة ساعتين ، ومن الجنوب بالبساتين ايضاً ، وبمقبرة ثم من ورائها السهول التى تمتد الى بانياس ، ومن الغرب بالبساتين والبحر .

وهذه القصبة التى يبلغ طولها من الشمال الى الجنوب كيلومتراً ، وعرضها من الغرب الى الشرق نصف كيلومتر قائمة فى منتصف ارض فسيحة ولهذا كانت جهاتها الاربع مفسوحاً عنها . فهى تطل من جهة الشرق على جبال النصيرية ومن الشمال على جبال « صهيون » وذروة « جبل الاقرع » ومن الجنوب على قلعة مرقب ، وجبال ضنية ، ومن الغرب الشمالى على قصبة اللاذقية .

وهى ببيوتها التى تناهز الالف منقسمة الى محلتين مهمتين . « المحلة القبلية » او « محلة الجامع » فى الجنوب ؛ و « محلة الشمالية » او « الصليبة » فى الشمال .

ويوجد فى هذه القصبة جامعان جامع « السيد ابراهيم » و « المنصورى » . والثانى منهما قائم فى منتصف القصبة يفصل المحلتين عن بعضهما . ثم يوجد فيها من المساجد ؛ مسجد « القنطارى » و « بنى على اديب » و « الغزالى » و « الاكراد » .

ثم اذا اضفنا لهذه البنايات ، دائرة الحكومة الكائنة فى الجهة الشمالية وبضعة منازل لوجوه هذه القصبة ، يتضح لنا مجمل عمرانها ورسم بنائها . وهذه المبانى كلها على النسق القديم ، الا بضعة منازل منها بنيت على الطراز الحديث ، بسطوح قرميدية . وجميع هذه الابنية مشيدة بالحجارة وسطوحها مطليه بالعدسة ، وهى عبارة عن مزيج من الكلس والرمل والحصباء تطلى به تلك السطوح ثم ترص . ولهذا ظهرت تلك القصبة بمنظر ابيض .

ويوجد فيها مقدار مائة دكان . ومعظمها فى المحلة الشمالية . ولكن هذه الاركان التجارية هى على شكل ساذج بسيط .

اما طرقها الخارجية فيوجد فى شمالها طريق اللاذقية الذى يبدأ من امام دار الحكومة ويتجه الى الشمال ، وطريق بانياس الذى يتجه الى الجنوب ثم طريق حماة الذى يتجه الى الشرق . وتوجد داخل القصبة طرق عديدة ولكنها ضيقة ، وغير منتظمة ، وهى مسرب لجميع المياه الوسخة ترتكم فيها كوم الاوساخ ، وتربض فى اكنافها الحيوانات والمواشى . ولهذا لا يسوغ لنا ان نسميها طرقاً . وان هذه الطرق التى جعلت جبلة مركزاً للعفونة والاوساخ هى لا جرم من اكبر المشينات لهذه القصبة . مع ان لها رياضاً ناضرة تحيط بها من الشمال والجنوب والغرب . وعددها يناهز العشرين . وكلها نظيفة لطيفة .

اما ماء القصبة فانه ينقسم الى قسمين ، الاول الماء الجارى . ومنه « نبع الفوار » و « نبع البركه » و « نبع الجباب » ، وهذه الينابيع تنبع من شرقى القصبة بمسير دقايق . وتتحد قريباً منها وتمر من البساتين الشمالية ، ويمر فرع منها بجامع السلطان ابراهيم ، وبحمام القصبة ثم يصب فى البحر .

ويوجد فى الجهة الجنوبية من القصبة « نبع القاموع » و « عين ام عيسى » . وهذان يمران على بعض البساتين ويصبان فى البحر ايضاً . ويوجد فى الجانب الشمالى على بعد يسير منها « ماء الخرخار » و « ماء النفعه » وهما يمران بالبساتين ايضاً ثم يعطفان على نهر « الرميلى » الواقع فى شمال القصبة بمسافة ربع الساعة ويصبان فيه . وبهذا تكون جميع المياه الجارية فى جبلة خارجة عن البلدة . ولا يستفاد منها الا باسقاء البساتين وتدوير الطواحين

اما القسم الثانى من مياهها فهى غير الجارية . وكل المياه التى يستعملها سكان القصبة هى من هذا النوع . فيوجد فى كل بيت بئر يتراوح عمقه بين (١٠—١٢) متراً ، ومياه هذه الآبار عذبة صالحة للشرب والاستعمال . ولهذا فان هذه القصبة سعيدة بتلك النعمة الحيوية .

*
* *

ونقول قبل اتمام هذا البحث ، ان لهذه القصبة التى سماها الاقدمون *Gabala* ، من المقاصف الطبيعية ما يكون تمثالاً للطافة لو تسنى له قليل من سعى . فرأس البساتين فى

الشرق و « الاترنى » و « صالح » فى الجنوب ، و « الميدان » على ساحل البحر كلها من المحلات التى تكون غرة فى جبين هذه القصبة لو ان لها يداً عاملة .

٧ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الاحوال الاجتماعية فى جبله** — ان جميع سكان هذه القصبة من المسلمين وعددهم يناهز (٥٠٠٠) نسمة . ويمكن تقسيمهم من حيث الحياة الاجتماعية الى ثلاث طبقات :

فالطبقة الاولى تتألف من اسرتين يبلغ عدد افرادهما الى « ٢٠٠ » نس . . . وى انهما حلبيون . ويوجد بين هاتين العائلتين اللتين تشتغلان بالتجارة والزر . بعض افراد لهم من الثروة ما يقدر بخمسين الف ليرة . لاسيما الاسرة الاولى ، فان املاكها تمتد على طول الساحل من قرية « حماميم » الكائنة فى الجهة الشمالية على بعد ساعة من جبلة ، الى قرية (حريصون) الكائنة على بعد ساعة من بانياس . وعلى هذا تكون الاراضى التى تملكها هذه الاسرة عبارة عن « ٧٠ » فى المأة من عموم اراضى القضاء الصالحة للزرع . ويروى ان هذه الاسرة لم تكن غنية الى هذه الدرجة من قبل . ولكنها حصلت عليه منذ تولت اوقاف السلطان ابراهيم . على اننا لم نعثر على البراهين التى تؤيد صحة هذه الدعوى اما الاسرة الثانية ، فمنها اناس تناهز ثروتهم (١٠٬٠٠٠) ليرة . والاراضى التى فى عهدتها تشغل (١٠—١٥) فى المأة من مجموع اراضى القضاء الصالحة للزرع .

وكل من افراد هاتين العائلتين يرتدى الرداء العلمى . واكثرهم درسوا العلوم الابتدائية فى المدارس الاهلية ، وبعضهم متخرج فى مدرسة الازهر . ولهذا فان جميع رجالهم يعرفون القرائة والكتابة . اما نساؤهم فلا حظ لهن منها . ولهذه الطبقة تمسك شديد فى الدين ، وعيشتهم بسيطة . ويعرفون بالزهد والتقوى ، والعفة والجنوح الى السلم . ولهذا السبب لايظلمون المزارعين والقرويين رغماً عما فى ايديهم من الاراضى الفسيحة ، ولا يؤثر عنهم ايقاع الفساد ، وارتكاب التزوير فى القضاء . وهذا اللين والسلم فى هؤلاء الذين شذوا عن سائر المتمولين فى الاقضية الاخرى لا يبعد ان يكون مسبباً عن خشونة طباع القرويين هنا . لان جميع سكان هذه الديار من النصيريين الذين اعتادوا على الاعتصام بالجبال ، ولا جرم انهم لا يخضعون لسلطة هذه الفئة الحليمة العالمة . ولهذا ترى ارباب اليسار هنا مهضومى الحقوق فى اكثر الاحيان . وهؤلاء المتمولون الذين لا يهمهم الا الاستحواذ على الاراضى الواسعة لا يريدون ان يفتكروا هل عندهم قوة تمكنهم من ادارة تلك الاراضى

ام لا ؟ وهم لا يستطيعون زرع جميع هذه الاراضى ، ولا يقتدرون على اتقان القسم الذى يزرعونه منها . ولهذا لا تزال تبور الاراضى من جهة ، وتفوتهم الاستفادة الكاملة من جهة اخرى . فتسرق نصف غلالهم قبل ان يعلموا مقدارها ، ثم تتناهبها الشركاء على بيادرها ، ويأخذون منها اجرة الدراسة ورعى الماشية ، واجر الحراثة وغيرها من وسائل النهب حتى لا يكاد يحصل رب الملك الا على اليسير منها . وهؤلاء يجتنبون اغضاب النصيريين ، ويخشون ان يثيروا اطماعهم لدرجة يرون فيها الاكتفاء بما يحصل لهم نعمة ضافية ، لانهم مستيقنون بان لو حركوا غضب النصيريين لآل امر ملكهم الى الزوال او الى الاغتصاب والخراب وقصارى القول ان الاراضى التى تملكها هذه الطبقة ما هى الا مأكلة لعشيرة بنى على من قبيلة « الحدادين » النصيرية .

ولبعض منسوبى هذه الطبقة فى جبله منازل فخمة تناهت فى العظمة تقدر قيمتها بعشرات الالوف من الليرات . منقسمة الى قسمين يختص احدها بالنساء ، والثانى بالرجال . ولهذا لا تزال ابوابها مفتحة للضيوف والزائرين . لاسيما فى الليل فانها تكون اندية تجتمع فيها اغنياء القصبة ووجوهها .

اما الطبقة الثانية فهى عبارة عن المتوسطين ويبلغ عددهم الى (٢٥٠—٣٠٠) نسمة فيهم خمسون من الرجال . وهم يشتغلون بزرع التبغ والتنباك والمتاجرة بهما ، وبعضهم يشتغل بالاخذ والاعطاء فى حوانيت خاصة . ومقدار الاراضى التى يزرعها افراد هذه الطبقة لا يتجاوز عشر الاراضى المزروعة فى القضاء ، وثلاثون او اربعون فى المائة من هؤلاء يعلمون القرائة والكتابة بدرجة بسيطة . اما نساؤهم فلا حظ لهن منها . وهؤلاء ايضاً لهم النصيب الاوفى من القناعة والجنوح الى السلم كارباب الطبقة الاولى . ولكنهم اشد امساكاً وايبس يداً منهم . ودأبهم الحلول فى افراد الطبقة الاولى والحصول بهذه الواسطة على الميزة وسمو الموقع .

اما الطبقة الثالثة ، فهى السواد الاعظم فى هذه القصبة . وعدد افرادها يقرب من (٤٥٠٠) نسمة . وهؤلاء يحصلون على عيشهم بكد يمينهم . واكثرهم يشتغل بالزراعة والحراثة . وهم من الجهل والذلة ، والكسل والفاقة فى درجة لا تخفى على كل من رآهم لانها مرسومة على صحائفهم ونواصيهم بصورة واضحة . وهذه الفئة التى جعلت داخل البلدة منغمساً بالوساخة والقذارة هى فى الدركة السفلى من سؤ العيش والحياة . ولا يعثر بينهم على خمسة فى المائة ممن يعرف القرائة والكتابة . وقصارى القول ان الحياة الاجتماعية فى هذه القصبة هى على اسوأ ما يكون من الحال من حيث المجموع . ولا تناسب بين هؤلاء القوم لانهم اما مفرطون فى الغناء ، او مدقعون فى الفقر . ولكنهم يتساوون بالتألم من الحياة والتظاهر بعدم الرضاء بها .

[٢] — **الاحوال الاجتماعية في قضاء جبلة** — بما ان جميع سكان هذا القضاء هم من النصيريين ، يمكننا ان نعتبره بقعةً نصيريةً . فاذا اضربنا عن القيود الرسمية وقدرنا عددهم على وجه تقريبي نجده يبلغ (٣٥٠٠٠) نسمة . ويظهر لنا صدق هذا التقدير اذا فكرنا بعدد النصيريين الذين لم تدخل اسماؤهم في القيود الرسمية ، واطلعنا على حسابهم باعتبار انقسام عشائرهم .

يمكننا ان نقسم النصيريين القاطنين في قضاء جبله من حيث العشائر الى ثمانية اقسام . وها نحن نذكر كل واحد منهم مع بيان عدد نسماته :

« نصيريو جبله »

عشيرة بني علي « من الحدادين »	—	٤،٠٠٠
« القراحلة « الشراقة ، والغرابة »	—	٨،٠٠٠
« بيت نميلي	—	١،٠٠٠
« بيت ساطر	—	٥٠٠
« الكلبية « في الساحل وجبال الكلبية »	—	٨،٠٠٠
« النواصره	—	٤،٠٠٠
« حلة مرمينو	—	١،٠٠٠
« الخياطين	—	٧،٠٠٠
يكون		٣٣،٥٠٠

وهذه العشائر تعيش مختلطة ايام السلم وتفترق ابان اختصامها . وسكان الساحل منهم فيهم يسير من اللين والانسية . اما سكان الجبال فهم غليظو الطباع اشداء متمردون . واقربهم الى الغضب والحدة ، واطيشهم واسرعهم الى الخصام والجدال هي عشيرة « النواصرة » . وهذه العشيرة ترهب جميع عشائر القضاء ما عدا سكان المركز . وتروى عن افراد هذه العشيرة الروايات الفجيعة ، التي تبرهن على الوحشة والهمجية . حتى انهم يدسون من حادهم في التراب او يقتلونه ، او يحرقونه بالنار ولا يستكبرون ذلك ، بل يعدونه من الاعمال البسيطة . وهم لا يزالون متمردين لا يؤدون الضرائب ، ولا يشاؤن الدخول تحت قيد اجتماعي . اما افراد العشائر الاخرى ، فهم ليسوا في هذه الدرجة من الشدة والعنف . ولم يعتادوا على غزو بعضهم كما يفعل البدو ولكنهم ينقسمون الى قسمين توجد في الاول عشيرة الحدادين والخياطين ، وفي الثاني عشائر « الكلبية والنواصرة وحلة مرمينو والقراحلة

والشراقة » ولا تنقطع بينهم دعاوى الدماء والمطالبة بالثارات ، ولهذا السبب تقوم بينهم غارات شعواء ويوجد في كل عشيرة منهم الوف من الافراد المسلحين بالبنادق الحديثة ، (كالمارتين والماوزر) . وربما تحدث بينهم مصادمات دموية . ثم ان الحدادين والخياطين منهم تنتسبان في الدين الى « الفرقة الحيدرية » ، اما الباقون فهم من « الكلازين » وهذا الافتراق المذهبي يسبب احتدام الاختلاف والخصومة بينهم . ولا ننسى ان اكبر سبب لهذا الشقاق والخصام بين عشائر هذه الطائفة ، هي الحالة الاجتماعية .

ان هذه الطائفة — كما ذكرنا اثناء البحث عن احوال صافيتا — منقادة الى اهواء مقدميها ومشايخها . وان لهؤلاء المقدمين والمشايخ في جبلة السلطة والسيطرة العظيمة على ابناء الطائفة برمتهم . ولهذا نرى من الضروري ان نذكر نبذةً من احوال هؤلاء الصناديد النصيرية :

من المعلوم ان « المقدم » عند النصيريين ، هو اكبر مسيطر اداري و« الشيخ » هو الرئيس الديني الذي تناهت لديه القدرة . ولهذا يكون القيام بتأمين عيش هؤلاء المقدمين والمشايخ ، والسعي لرفاهيتهم من اقدس وظائف النصيريين .

ولكل عشرة في جبلة مقدم او مقدمان وشيخ . فعشيرة بني علي لها مقدمان احدهما في الساحل والثاني في انحاء الجبل ولها شيخ واحد . وعشيرة بيت نميلي لها شيخ فقط والقراحلة الغرابة لها مقدم وشيخ ، وللقراحلة الشراقة ثلاثة مقدمين وشيخ ولبيت ساطر مقدم واحد ، ولعشيرة الكلبية ثمانية مقدمين وللنواصرة ستة وللخياطين اثنان ، وشيخ وعليه يكون عدد المقدمين المهمين في جبله (٢٥) وعدد المشايخ عشرة .

يتظاهر المقدمون ببساطة الحال وهدو البال . ولكنهم في نظر النصيريين . ارهب وادهش من الموت الزؤام . حتى ان اسماءهم عليها مسحة من الخشونة تنذر بالارهاب والدهشة : مثل غازي وصقر . الخ . .

وهؤلاء المقدمون يعرفون القراءة والكتابة بدرجة بسيطة . وعلم المشايخ ايضاً بسيط ، ولا مزية لهم الا كونهم مطلعين على حقائق الديانة النصيرية ومتضلعين فيها .

واهم وظائف هؤلاء المقدمين هي ادارة المناسبات بين الحكومة والعشيرة . ومحافظة حقوق العشيرة ، وتعيين مرقعها تجاه الحكومة ، وحل الخلاف الذي يحدث بين الحكومة وبينها ، او بين افراد العشيرة . وبهذا يكون المقدمون كالعمدة او كالسفراء ، وبعضاً كالامراء . ثم اذا حدث اختلاف بين العشائر المختلفة ، يجتمع مقدمو تلك العشائر في مجلس . ويتذاكرون في المسئلة ويجمعون على حسمها . والرأي الذي يرضى به المقدمون يكون واجب الاتباع .

اما نصب المقدمين فيكون بانتخاب العشيرة ، وتدوم صنعتهم ما دامت حياتهم . ثم

جرت العادة بينهم بانتقال هذه الرياسة من الاب الى الابن . ولهذا اصبح هذا المنصب شبيهاً بمنصب متغلبي القرون الوسطى . وقصارى القول ان هؤلاء الرؤساء المسيطرين ، تمكنوا من الاستبداد بالسلطة والحكم بين النصيريين ، ومع هذا فانهم يحترمون المشايخ غاية الاحترام . وان احترام المقدمين للمشايخ وتوقير المشايخ للمقدمين ومظاهرتهم لبعضهم تكون متقابلة ، وما هى الا تواطؤ هؤلاء المتغلبين على العبث بحقوق النصيريين ، واتفاقهم على غصبها من اربابها .

والمشايخ ايضاً ينصبون بانتخاب العشيرة . ولكن لا يشعر لهم بوطئة وسلطتهم لا تلفت النظر ، او بالاصح ان الاهالى لا يدركونها .

وقصارى القول ان هؤلاء الذين هم اوعز الناس واعظمهم فى نظر النصيريين يكونون اعلى طبقة اجتماعية بينهم بحياتهم وعيشتهم ، وبوقعهم الاجتماعى ، حتى اذا حدث بين العشائر قتل او نهب او سرقة ، لا يلبث مجلس المقدمين ان يلتئم . وربما يستفتون فى المسئلة من المشايخ . وكثيراً ما يحكمون فى القتل بدية مقدارها (١٨) الف غرش . وتقاس المسائل الاخرى عليها . ولهذا كانت سلطة هؤلاء المقدمين بين النصيريين عظيمة جداً .

ولهؤلاء المقدمين الذين استبدوا بالسلطة العظمى والسيطرة القوية رواتب تقل وتكثر بنسبة غناء العشيرة وعدمه . وللمشايخ تخصيصات يتقاضونها باسم الزكاة وامثالها . وتتراوح رواتب المقدمين بين (١٥٠) و (٢٠٠) ليرة فى السنة ، وتخصيصات المشايخ تبلغ فى السنة (١٠٠—١٥٠) ليرة .

ليس على المقدمين ان يشتغلوا بالزراعة ولا غيرها . بل ان جميع حاجاتهم محملة على كاهل النصيريين ، وليس عليهم الا جر ذيول الاردية الحريرية ، والتجول يمنةً وشمالاً . ثم انهم اذا حضروا الى القصبة لا بد ان يؤمهم فارسان بالسلاح الكامل ، ويمشى وراءهم فارسان من اتباعهم كحاجبين ؛ كاملى العدة غلاظ شداد . ولا بد ان تكون البنادق الممتازة فى قبضتهم ، وكنائن الرصاص مشدودة على مناطقهم .

وان لهم من السلطة ما يخولهم ان يضربوا افراد العشيرة ويهددوهم . او يحجروا عليهم ، وهذا يدلنا على درجة سيطرتهم بصورة واضحة .

وجميع النصيريين يسكنون فى البيوت والمنازل ، ولكن منازل المقدمين منهم تكون حصينة ذلك لان حياة العشائر لا تخلو من الهجوم والدفع ، والحرب والضرب . وهى مطوقة من جوانبها الاربعة ببنايات حصينة كانها قلاع او حصون . وربما يضطر المقدمون الى الدفاع عن انفسهم فى تلك الحصون . ولهذا تراهم مستعدين لكل ما يحتمل حدوثه من هكذا حادثات . حتى كانت منازلهم هذه مستودعا للاسلحة والذخائر يحيط بها المحافظون كانها قلعة خطيرة .

وسبب تغلب هؤلاء المقدمين ، وغلوهم فى السيطرة ، هو ما نعلمه من الكتمان الذى يتمسكون به فى دينهم ، ثم انغماس الاهلين فى ظلمات الجهالة الكثيفة .

نعم يستفيد المقدمون من جهالة هؤلاء القوم . وهم يرسلون اولادهم الى اللاذقية فيعلمونهم القرائة والكتابة ، وهذا التعليم لا يتجاوز الحد اللازم بل لا بد من تلقيحهم بالتعاليم النصيرية متى بلغوا السن المعين .

وهؤلاء يشبون على تقليد آبائهم فيتمرنون وهم صغار على اضطهاد افراد العشيرة ، واجراء الظلم حتى يجعلون رعيتهم كبقرة الحالب . لانهم يعتقدون بان لهم المنة الكبرى على حياة هذه الافراد ، فيكون من حقوقهم الصريحة ان يسلكوا بهم ما تشاء اهواؤهم من طرق الحياة . ولهذا نرى اربعين الفاً من النصيريين كانوا كالآلة العمياء الباطشة تتصرف بهم ايدى خمسين رجلاً من هؤلاء المقدمين .

فاذا كان النصيريون محرومين من ان يعيشوا عيشة آدمية ، فلا جرم ان السبب الوحيد الذى اسقطهم فى هذا الهوان هو حكم المقدمين والمشايخ فيهم . ويروى انه يوجد بين هذه الطائفة (١٠،٠٠٠) نسمة ممن لا يزيد دخلهم السنوى على الف غرش و (٢٠،٠٠٠) نسمة ممن لا يزيد دخلهم عن خمسة آلاف غرش . وهذا الحساب التخمينى يدلنا على درجة الفاقة والحرمان التى تلبست بهذه الفئة .

وهذه المعيشة الضنك هى التى حدت بهؤلاء المعسرين الى ارتكاب الشقاوة ، وقطع الطريق . ويروى ان بعض هؤلاء جعلوا ديدنهم هذه المهنة ، حتى كان النهب والسلب من اسباب معيشتهم الحياتية . وهم يشنون الغارة على سكان القصبة او قطان السواحل ، وينهبون كل ما تصل ايديهم اليه . ولا يتوقفون عن البطش والفتك اذا لقوا ممانعةً من اصحاب الاموال . ثم يعتصمون بالجبال .

ولهم فى النهب والسلب خطة واحدة لا يبدلونها . فيرسلون امامهم الجواسيس بزى القرويين ليكشفوا لهم الاخبار . وهؤلاء الجواسيس يهدون المغيرين الذين لا يقل عددهم عن مائتى مقاتل كلهم شاكى السلاح الى الطريق المناسب ، ولا يلبثون ان يطرقوا الحى ليلاً ويبيتوه ثم ينهبون ويحرقون ويأسرون ما يرونه هناك . ولا يذرون شيئاً من حب وحيوان وغيره فى تلك البقعة . وهذه الشقاوة المستمرة كانت سبباً لعدم امكان الاستفادة من الاراضى المنبتة الكائنة على سيف البحر فى هذا القضاء ، لاسيما الفئة الاسلامية المقيمة فى جبلة المحاطة بهكذا اشقياء من جميع اطرافها ، هى لا جرم فى حالة خطيرة ، جديرة بالاهتمام .

حتى لقد يضطر اغنياء جبلة الى الدخول تحت جناح المقدمين ليأمنوا على اموالهم وحياتهم ، ولا بد لهم من اعطاء جزية او خراج لهؤلاء الطغاة حتى يمكنهم الحصول على

حمايتهم والاستفادة منها . وبهذا تسلم لهم اموالهم وارواحهم .

ويقال ان اكبر محرك ومشوق على تلك السرقات والغارات ، هم المقدمون انفسهم . وان لهم السهم الاوفى من تلك الغنائم ولهذا لا ينقطعون عن تحريك الاشقياء وايقاد نار الفساد .

⁂

وقصارى القول ان الحياة الاجتماعية فى جبله ، منغمسة فى فوضوية بحتة . ولن تجد فيها ذرة من سعادة ولا اثر انسانياً . وفيها ارهب المهاوى التى تزلق فيها البشرية واوحشها . وجدير بهذه الحالة الاجتماعية السمينة التى لا تنفك تخنق المعالى المدنية فى كل آن ، ان تبيد . ويجب ان تبدل بحالة حسنة توفيها نصيبها من النور والمدنية .

٨ — الاحوال الصحية

ها نحن نجمل ما سمعناه من طبيب القضاء عن الاحوال الصحية فى جبله وملحقاتها :

[١] — **معلومات عمومية** — ان المنازل فى جبلة متصلة ببعضها وغير منطبقة على القواعد الصحية ، كما ان طرقها وسخة وقذرة . وتوجد فى هذه القصبة منازل لا ترى وجه الشمس . واكثر الاهلين يسكنون فى حجرة كبيرة لا يسوغ ان يطلق عليها اسم البيت . وارجح ناحية من تلك البيوت خصصت للحيوانات . وعليه نجد ويا للأسف ان الحيوان فى جبلة ارجح من الانسان . واعتاد سكان تلك الحجرات على قذف اوساخهم على عرض الدروب . ولهذا فان جبله بمنازلها ودروبها كانت مركزاً لانواع الجراثيم المرضية . وهذه الجراثيم تندفع مع الرياح فتنتشر فى جميع الانحاء وتكون سبباً لظهور الامراض .

هذا وان تكن جبلة جيدة الهواء ، خالية من الرطوبة ، نقية الاكناف من المستنقعات ولكن قذارة السكان جعلتها بقعة لا تسكن . ولاسيما آبارها فهى غير بعيدة عن المراحيض ولهذا كانت عرضة لتحلب الاوساخ ، ورشح الاقذار . فاذا حل فى ساحتها مرض سار لا يلبث ان ينتشر بسرعة برقية ، ويعم جميع اناسها ويفتك بهم فتكاً ذريعاً .

اما القضاء ؛ وان كان منعماً بالمحاسن والنعم الطبيعية كما هو الحال فى المركز ، ولكن تساهل خلقه واهمالهم جعل فيه من الاوساخ ضعف ، بل اضعاف ما يوجد فى المركز . ولهذا يمكننا ان نسمى هذا القضاء « دار الوساخة » لان معظم بيوت القرى عبارة عن اكواخ منفصلة من الداخل بالواح الخشب المركبة على عمد من خشب . فالقسم الاعلى من هذين القسمين يكون منزلاً لافراد العائلات . والقسم الاسفل يجعلونه للحيوانات . وعليه

لا نبالغ اذا قلنا ان القرويين فى هذا القضاء يعيشون على ظهور الدواب . وبناء على هذه التعاسة فى الحالة الاجتماعية ، ما كادت تزورهم الحمى التمشية فى السنين الاخيرة الا واتت عليهم كما تأت النار على يابس الحطب . وقضت على كثير من القرى بالاقفار وانقراض السكان .

وجميع هذه الرزايا ، وتلك البلايا التى منى بها سكان هذا القضاء لم تزل بعيدة عن ايقاظهم ، وهم لا يزالون غير مؤمنين بتأثير العلابة . ولهذا اذا وجد فى اكواخهم مصاب بمرض الحمى التمشية تجدونهم يسدون المنافذ ، ويوصدون الابواب ، ثم يوقدون النار فى باحة الكوخ ويقصدون بذلك شفاء المريض . ولا يدرون انهم يستعجلون له الموت .

وها نحن نذكر هاتين القصتين برهاناً على سخافة هؤلاء السكان وافصاحاً عن حقيقة الحالة الصحية بينهم :

— ذهبت ذات يوم الى جبال النصيرية لافحص جنازة . وبناء على بعد الطريق اضطررت لان ابات عندهم . وطلبت من صاحب البيت ان يأتينى بفراش ولحاف . فما لبث ان جائنى بقطعة من بساط ، ولحاف ملطخ بالاوساخ فما كان منى الا ان طلبت منه ان يبدله بانظف . فقال لى :

— كن على يقين انى جاملتك بقصارى الاكرام باتحافى اياك بهذا اللحاف . لانه لم يستعمله احد بعد . بيد انى كنت درجت به والدتى العزيزة لما توفيت ، واوصلتها الى مزارها . فكن مطمئن البال بشأنه ! !

وهذه القصة تفصح لكم عن فكر هذا ، وغيره من القرويين فى امر الصحة . وفى يوم آخر ذهبت الى عيادة مريض كان على وشك الموت . فما دخلت البيت الا ووجدت عنده شيخاً يتمم وفى يده اعواد يضمها ويحزمها ثم يضعها عند رأسه . ورأيت شيخاً آخر واقفاً هناك . وما كاد يرانى حتى جاء الى وقال :

— رويدك برهة ؛ ليتم الشيخ قرائته ثم تفحصه !

فقلت :

— لا يسوغ الانتظار ، انى ارى حالته تنذر بالخطر .

فكانه غضب من مقالى ، فاخذ بيدى الى ناحية منهم وقال :

— هل يستطيع الطبيب رد القضاء ؟ وما كان طلبنا اياك الا لكى لا يقال « لم يأتوا بطبيب » ! !

وبما ان هذا الاجمال يفصح عن درجة الفكرة الصحية فى قضاء جبله لا نرى حاجة لزيادة شىء عليه .

[٢] — **الامراض المحلية والطارئة** — بعد ان اطلعتكم على الحالة الصحية العمومية فى القضاء ، اريد ان اطلعكم على الامراض المحلية ، والطارئة التى عثر عليها فى هذه السنين الاخيرة :

ان اكثر ما يوجد فى المركز والقضاء من الامراض المحلية ، هو مرض الالتهاب الصديدى . ويصاب به فى كل سنة مقدار (١٥٠—٢٠٠) فى المركز و(٣٠٠—٤٠٠) فى القضاء . ثم تاتى بعد هذا امراض الحمى المرزغية والديزانتهرى . ويصاب بهذه الامراض فى كل سنة مقدار (١٠٠) فى المركز و(٢٠٠—٢٥٠) فى الملحقات . ومرض سل الرئة وذات الجنب ايضاً يصاب بها نصف هذا المقدار . ولا ارى لزوماً لذكر بعض الامراض الجلدية والسمية التى تندر فى هذا القضاء .

اما الامراض الطارئة ؛ فنها الحمى التمشية التى دخلت القضاء فى السنة الماضية وافحشت بالفتك بسكانه . ولا يمكننى ان اطلعكم على مقدار اضرارها بعدد معين . ولكن لا جرم يقرب عدد من اصيب بها من (١٥٠) فى المركز و(١٥٠٠) فى انحاء القضاء . وقد توفى منهم عشرون فى المائة .

*
* *

ثم اذا اعلمتكم انه لا يوجد فى هذا القضاء الا طبيب واحد بلا صيدلية ، لا بد ان تطلعوا على حرمان هذا القضاء من الوسائل الصحية ، كما هو الحال فى غيره من الاقضية .

— ٢٠ —

جبال النصيرية

اشغل فكرنا كثيراً انتقاء الطريق الذى يجب سلوكه اعتباراً من جبله . وكان من الممكن ان نتبع الساحل ونسير حيث نصل الى اللاذقية بمدة اربع ساعات . غير اننا نحرم من مشاهدة جبال النصيرية التى القت فى ادمغتنا تاثيراً عميقاً . ولهذا كنا نرى الانصراف عن طريق الساحل والاقبال على التجول فى الداخل اوفق وانسب ، وكنا نريد ان نحظى بالمسرة التى يولدها الاستسلام الى متاعب الطريق واقتحام ما هنالك من العقبات مهما كلفنا الامر . ولهذا رأينا من الضروري ان نستهدف بسفرنا قصبة « بابنا *Babanna* » مركز قضاء صهيون . وهذا الطريق من الطرق التى لم يرغبها لنا كل من كان له المام بالحالة الاجتماعية فى

تلك الاصقاع . لان المسافة تمتد اكثر من تسع ساعات . والطريق صعب وعر مملوء بالعقبات لا يكاد الانسان يقوى على السير فيه . لاسيما وان للنصيريين هناك قصصاً رهيبة . ولهذا كان جديراً بالاجتناب .

ورغماً عما هناك من المحاذير والاتعاب فقد كنا فى رغبة عظيمة ، وميل لا يرد . وكنا نقول :

— لا بد من اقتحام هذه الهلكات ، واختراق تلك الجبال الراسيات .

وما كدنا نمتطى متون الجياد ، ونفارق جبله حتى شعرنا بارتياح عظيم تحت تأثير ذلك العزم المتين .

سلكنا طريق اللاذقية مدة وبعد ان اجتزنا « نهر الرميلة » انعطف بنا الطريق نحو الشمال الشرقى . ولاحت لانظارنا جبال النصيرية عن بعد تحت امواج هذا الضياء الصبحى وقد زادها ابهام البعد رهبة اكثر مما نعهد . وكان على يميننا « جبل البودى » وفى جانبه قرية (الشراشير) و « بحضرمه التحته » و « بنجاره » و « طغرامو » و « ديراوتان » و « بيت حجيره » و « بشكوح » و « عين الشقاق » . تلوح كانها نقاط من ظل وهى مختلطة ببعضها فى المنظر . وكانت على يميننا سلسلة من الجبال تكل الطرف ، وعلى شمالنا سهل فسيح ينتهى على شاطئ البحر الذى كان يلوح بزرقته من بعيد . ونحن لا نزال نعتسف طريقاً سهلاً فى منتصف الحقول الجرداء . وبعد ساعة اجتزنا وادى (مكينا) وجدوله ، وغادرنا قرية (دقار) على شمالنا ووصلنا الى قرية « حماميم » . وقد كان لوصولنا اليها فى مثل هذا الوقت وقع عظيم على نفوس اهليها . فكنا نراهم يتراؤن على السطوح وامام البيوت وفى ايديهم البنادق ثم ينسحبون . ودام فيهم هذا الارتباك الى ان انجلى لهم خبرنا وعلموا باننا من ابناء السبيل . فاطمئنت قلوبهم . وقد علمنا ان احد الذين اجتمعوا حولنا (مقدم) فرأينا من الضرورى ان نتربص هنيهة ريثما نزوره . ولم يلبثوا ان تهافتوا يدعوننا الى منازلهم ، واخذوا يقبضون على ازمة خيلنا وفى ايديهم البنادق « مراتين » ويدعوننا لننزل . ولم نجد فى منزل المقدم المؤلف من طابقين وقسمين نظافة تذكر . وليس للنظافة حظ من شخصياتهم ايضاً . صعدنا الى الطابق الاعلى من المنزل ومكثنا فيه برهة وكنا نرى من هذا المحل جبلة كانها ظل اخضر . والبحر يلوح عن بعد كانه اطلسة زرقاء ثم القرى قريباً من الساحل كانها خيال . ورأينا نساء النصيريين يشتغلن فى حقول التبغ والتنباك ، ويلقون فى تلك الساحة الخضراء تموجات لطيفة بلباسهن الملون . وبما اننا لم نرد ان نمكث كثيراً فى هذه القرية كانت عشرتنا معهم عامية ومجملة . وقد اسهب لنا المقدم فى البحث عن جهالة النصيريين وتألم منها ولا جرم انه كان محقاً فى رأيه ، وكانت ترجمته هذه تشف عن حرارة وصدق تأثر . وكنا حينئذٍ نسمع اولاد المقدم يقرؤن امام شيخهم

فى القسم الثانى من البناء .

ما لبثنا ان انتهزنا الفرصة ، وسألناهم عن الاسباب التى تدعوهم لان يظلوا مسلحين مجهزين فى كل آن فتأوه الجميع وقالوا :

— لو تعلمون ، كم نحن غير مطمئنين على حياتنا . وكل يوم نحن عرضة لغارة او قتال او احراق . وحياتنا كلها مرت بهكذا مناضلات وخصام ولا تزال تمر .

وكنا نكتفى بسماع هذه الشكاية من المقدم وطائفته . لاننا نعلم علم اليقين انهم هم الذين جعلوا حياتهم على هذه الوتيرة .

خمدنا سورتهم ، واخذنا نتاهب لنركب ، فقبضوا على ازمة الخيل واخذوا يقربونها لنا ، وفى ايديهم الاخرى اسلحتهم وبنادقهم .

وبعد ان غادرنا حاميم ببرهة يسيرة وصلنا الى غياض « بستان الباشا » وكانت على يميننا قرية « بطره » وهى عبارة عن خربة . ويروى ان هذه البقعة كانت حومة لمعمعة دموية منذ عهد قريب . حتى ان « نهر الروس » الكائن قريباً منها خضب بالدم فى تلك الوقعة .

وبعد ان غادرنا البطرة بنصف ساعة وصلنا الى قرية سلورين . وكانت تتراآى من ورائها قرية « ابن عيسى » وقرية « كلماخو » وورائهما جبال « الكلبية » . وكنا لا نزال ننهب الطريق ، وبعد ساعة رأينا على يميننا قرية « عين العروس » على ضفة جدول صغير ، وعلى يسارنا قرية « قابو » قريباً من ساحل البحر . وهنا انتهت اراضى جبله .

وبعد ان اجتزنا وادى نهر العروس قام امامنا سهل فسيح . وكان طريقنا بين الحقول المزروعة بالتبغ والتنباك . وبعضاً كنا نمر من الاراضى المحصودة ، او من جانب البيادر . ولا نزال نتقدم فى السير .

وبعد برهة غادرنا عن يسارنا قرية « خربة ابو خسرو » القريبة ، وقريتى (غللينه) و(المتروكية) البعيدتين . وكنا نرى عن يميننا قرية (قلوريا) وقرية (حرف الرضوة) على البعد .

وبعد نصف ساعة اجتزنا نهر « القويقه » وقريته ، وتسلقنا فى مرتقى خفيف وهنالك تراءت لنا جبال « المهالبة » وفوقها « مقام الاربعين » . ثم اجتزنا وادى « قماص » وبينما كنا نسير بين قريتى « عليله » و« بريكه » لاحت امامنا قرية « الشيخ ريح » على قمة الهضبة وراء الوادى الذى كان امامنا . ثم وصلنا الى « قمين » وبعدها الى « الشيخ ريح » . وهذه القرية كانت مرتفعة ولهذا كان منظرها جميلاً جداً . لاسيما منظر البحر من جنوبها ، وغياض « بستان الباشا » كانت تستقبل الانظار بما يحى القلوب من الخضرة المغسولة بعذاب الضياء الباهر . وفى شمالها تلوح سلسلة الجبال باغوارها ونجودها .

وبعد منحدر ترابى مستو ، وصلنا الى واد نضير . وكانت على شمالنا قرية « قطرية » .

وكنا نرى امتداد هذا الوادى الى الغرب الجنوبى نحو البحر .

وبعد نصف الساعة تراءت لنا قبة بيضاء فوق ربوة صغيرة ، وهى مقام « الشيخ حسن البترون » . وهنالك انتهى الوادى .

وهنا شرعنا نتسلق فى مرتقى ، وكانت الذرى الصغيرة القرعاء تتوالى عن يميننا . ولاحت قرية « الجديدة » فى حفاف احدى تلك الذرى . وكنا نشاهد بنات آوى تتراكض امامنا يمنة ويساراً ، ونسمع من حوالينا صفيراً مريباً .

وبعد ان اجتزنا الهضبة قام امامنا سهل فسيح لاحت فى اقصى آفاقه ربى كثيرة ، من من كبيرة وصغيرة . وبعد برهة تراءت عن يسارنا قرية « قطرية » وعن يميننا قرية « بنزار » وورائها البحر الهادئ .

وكنا نرى فى هذه الساحة زرع الذرة قائماً على سوق اعلى من قامة الانسان ، او هى جلدها حر الهجيرة فغدت تميل مع الهواء يمنة وشمالاً . وكنا نرى الانقاب فى سفوح الربى الجرداء كانها خطوط بيضاء . ونشاهد البواشق تحوم فوقها وتخفق .

وما انضر الوادى الذى كنا نسير فيه ! فخضرة الذرة والتبغ والتنباك كانت من عناصر جمال هذه الاصقاع التى كستها منظراً بديعاً . لاسيما وكنا نمتع النظر بالوان بديعة ما بين شوك ازرق ، وحصيد اصفر ، واعواد سمراء .

وما لبثنا ان وصلنا الى ساحة مسورة بالهضاب . وكنا محصورين بين سورين جبليين . وهنالك انقطع هبوب الريح . وكانت الشمس تمج سعيراً محرقاً ، يشوى الارواح فى اجسادها ، اما المحيط فقد غلى مرجله فكنا نخوض منه هواء كالمهل يشوى الوجوه .

اخذنا فى الاسراع ليتسنى لنا ان نتملص من هذا العذاب الجهنمى وبعد برهة اخذنا نتبع الضفة اليمنى من نهر يدعى « نهر الصنوبر » عند منبعه ، ويسمى « نهر القش » بعد غلوة منه .

وكانت الشمس منحرفة عن نقطة الزوال الى الغرب منذ مدة وانقطع تسلطها على أم دماغنا ولكنها ما زالت ترجم اقفائنا ، وكواهلنا بمثل مذاب الرصاص . وبعد مدة اوصلنا هذا النهر المسمى « الديف » الى طاحونة خضراء . فلبثنا هناك مدة ، ثم اخذنا فى التسلق الى قرية « ترجانو » ووصلنا اليها . وفيها نهر « ترجانو » .

وبعد ان غادرنا هذه القرية الخضراء الظريفة اخذنا ننحدر فى منحدر وعر ، ثم تسلقنا فى مرتقى وعث ورأينا عن يسارنا قرية « ميليو » ثم بعد هبوط وصعود تركنا على يميننا قرية « انحاره وعناقيه » ، واخذنا نصعد فى جبل « بستار » . وهناك كان المنظر بهيجاً . ولما عطفنا الى وراء الذروة لاحت لنا فى انحاء الجنوب الغربى سفوح اللاذقية ، وفى الشمال الغربى ربى صهيون .

ثم بعد هبوط وصعود آخر ظهرت لنا بين ربوتين صغيرتين سفوح « بابنا » مركز قضاء صهيون ، وهنالك انشرحت صدورنا كاننا صرنا اسعد الناس . لأن هـذا الطريق كان اتعب واصعب مما سمعنا عنه بكثير .

وها نحن نشاهد على اقاصى الافق قرى « الدفين زنقوفى ، الشرقاق ، البكاس ، المشارقة ، شتبغه » كانها موكولة لترسم حدود ذلك الافق .

وها نحن دخلنا فى وادى صهيون . وها هو نهرها . وكنا نتبع الضفة اليمنى من هذا النهر . وبعد برهة تسنقنا مرتقى واخذ بعده الوادى بالاتساع ، وشرعت تلك القرى التى عددناها تتراآى بوضوح .

وبعد ان اجتزنا عن يميننا قرى « خربة خيشون ، والدوير والرصيف ، وحارة الديغة والعرموطه » باكثر من ساعة وصلنا الى ينبوع قائم بين اشجار الحور . ثم اخذنا نتسلق فى الجبل ، وكلما اوغلنا فى الصعود تزداد امامنا الدوالى ، واشجار التين ، والآس ، وتكسب المحيط منظرا نضيراً .

وبعد ان اجتزنا وادى صهيون ، اخذنا نتسلق مرتقى آخر . وكنا من بابنا على مسافة بضع دقايق . ومع هذا كنا نتقرب من هذه القصبة وهى تذوب من امام انظارنا ، وتتراآى مكانها هضبة عالية مستورة بالاشجار .

ثم اخذنا نسير فى سكة قديمة وشرعنا نتسلق الهضبة فى طريق حلزونى يتدرج بالارتفاع الى ان صرنا فوقها واجتزنا الذروة . فانجلت امامنا قصبة (بابنا) منغمسة فى ضياء العشى المسجدى ببيوتها البيضاء التى تطل على الغرب بين تلك الغياض الخضراء . وهنالك اخذ مزيج الاغوار والانجاد والوديان والربى التى ارتسمت فى ادمغتنا ، ينحل ويذوب حتى باد وانطفى فكانه لم يكن .

— ٢١ —

صهيون

١ — موقع القضاء وحدوده

ان هذا القضاء الكائن فى الشمال الشرقى من قضاء مركز اللاذقية ، محاط من الشمال والشرق بقضاء جسر الشغور من اعمال حلب ومن الجنوب بقضاء جبله .

٢ — مساحة القضاء وسكانه واحواله الادارية

تخمن مساحة هذا القضاء بمقدار (٩٦٠٠٠٠) دونم جديد ، منهـا (١٠٠،٠٠٠) من الاراضى الاميرية و (٥٠،٠٠٠) من الاراضى الموقوفة و (٥٠،٠٠٠) من الاراضى المتروكة ثم (٥٠،٠٠٠) من الاراضى المملوكة . ومساحة الاراضى الموات تبلغ (٧١٠،٠٠٠) دونم .
اما عدد سكان القضاء فهو كما يلى :

جدول سنة ١٣٣٢

المسلمون	١٦١٠٦
النصيريون	١٤٧٥٠
النصارى	٢١١٦
يكون	٣٢٩٧٢

وقد كان مقدار السكان سنة (١٣٢٣) ، « ٢٨٨٥٤ » نسمة . وبهذا تكون الزيادة أكثر من (٤٠٠٠) نسمة فى هذه السنين العشر . ونطقت القيود الرسمية بان مقدار اللدات كان سنة « ١٣٢٨ » و « ١٣٣٠ » و « ١٣٣٢ » ؛ (٥) و « ٣٦٨ » و « ٣٢٢ » نسمة ، والوفيات (٤٤) و (١١١) و (٣٠٥) نسمة .

ان مركز القضاء هى قرية « بابنا » المبنية على هضبة يبلغ ارتفاعهـا « ٤٠٠ » متراً والكائنـة فى الدرجة ٣٥،٣٤ من العرض الشمالى و (٣٣،٣٩) من الطول الشرقى . وعدد سكانها (٢١١٧) نسمة كما ثبت فى القيود الحديثة .

ويوجد فى محلة بابنا من هذه القرية جامع بنى على نفقـة القائمقام نشأت بك ، وفى محلة « جنكيل » منها جامع كبير ومسجدان صغيران . ولا اثر فيها للابنية والمؤسسات التى هى من ضروريات الناس كالحمام والطاحون والسبيل وغيرهم . بيد انه توجد فيها دائرة بلدية لها من الدخل « ٣٧٢٠ » غرشاً فى السنة . ولا اثم على هذه القرية المحرومة حتى من خان يضم غرفة واحدة يأوى اليها من ابتلى بدخولها الا كونها مركزاً للقضاء . ولا بد لمن يتجول فى الانحـاء الشمالية من الولاية ان يعجب ويأسف لمرآى مراكز الاقضية بفقرها واوساخها واكواخها التى لا يسوغ ان تعتبر من المسـاكن . فهل كان القائمقامون الذين ما انفكوا يديرون هذه الاصقاع منذ اكثر من ستين سنة ، وربما اشغلوا المقامات الرفيعة معتقدين بان واجبهم التحامل على الاهالى وجمع الضرائب والاعشار فقط ؟ .

وليس لهذا القضاء الذى يبلغ باتساعه اضعاف قضا جبله ، ناحيات رسمية ولكنه منقسم بصورة طبيعية الى ناحيات صهيون ، وجبل الاكراد ودويوس وبيت الشلف والمهالبة .

٣ — الاحوال الطبيعية فى القضاء

ان هذا القضاء يشغل الانحاء الشمالية من جبال النصيرية — ولهذا كانت جميع بقاعه وعرة وعثة . والجبال الممتدة فيه من الشمال الى الجنوب كلها جرداء لا احراج ولا مرعى فيها على عكس غيرها من جبال الاقضية الاخرى . ويخمن طولها اعتباراً من حدود جسر الشغور الى تخوم قضاء جبله بسبعين كيلومتراً وعرضها (٢٥—٤٠) . ومنشأ هذا الفرع الشمالى من جبال سورية هو جبل الاقرع *Cassius* (١٧٦٩ م) وهو عبارة عن استطالة جبال طوروس وذروته على شكل الاهرام . وكان من مقدسات الفنيقيين . ويبلغ ارتفاع اعلى نقطة فى هذا القضاء الى (١٠٠٠) متر .

ثم ان المياه الجارية فى هذا القضاء عبارة عن (نهر الكبير) وجدول (مرقية) . فالنهر الكبير ينبع من جبل الاقرع الكائن فى شمال صهيون ويشق القضاء من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ويدخل قضاء مركز اللاذقية فيسقى اراضيه المنبتة ، ثم يصب فى البحر جنوباً من مركز اللواء . ويجب ان يفرق هذا الجدول عن النهر الكبير الذى يفصل جبال النصيرية عن جبال عكار والذى سماه الاقدمون *Eleftheri* وطوله « ١٠٠ » كيلومتر وعرضه « ٨—١٥ » متراً . ثم يوجد جدول « كفريه » الذى ينبع من جانب القرية المسماة باسمه ، وطوله خمسة كيلومترات وعرضه « ٣—٧ » امتار .

٤— الاحوال العمومية فى القضاء

مما يوجب الشكر والثناء ! عدم حرمان الصهيونيين المنغمسين فى ظلمات الجهالة من المدارس الابتدائية . ونرى ان المحاسبة الخصوصية وضعت فى ميزانيتها نفقة لتأسيس عشر مدارس فى هذا القضاء ، ولكن لا توجد فيه الآن الا مدرسة للذكور واخرى للاناث فى مركز القضاء ، ومدرستان فى قريتى « سلمى » و« حفه » الاسلاميتين ويروى ان عدد التلاميذ فى مدرستى بابنا « ٧٥ » من الذكور و « ٢٥ » من الاناث ولكن لا ننسى ان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة فى احداث « بابنا » لا يتجاوز « ١٥ » فى المئة مع ان المدرسة اسست فيها منذ اثنى عشرة سنة .

اما هذا العدد فى الاناث فلا يبلغ الى واحد من مائة . ويقال عن معلم مدرسة (سلمى) انه ساقط الاخلاق والتربية ، اما معلم (حفه) فقد اكمل سبعين حجة وهو يتخبط فى الجهالة ، ورد الى ارزل العمر . وان ادرى هل يسوغ لنا ان ندعى بوجود التحصيل الابتدائى عندنا ، ونحن على هذه الحالة . ثم من العبث ان نرتاد السكك والدروب فى هذا القضاء .

اما اراضى صهيون التى اكثرها كلسية ، فهى تستثمر اما بالمناصفة واما بغيرها من صنوف المزارعة . ففى المناصفة يدفع صاحب الملك الى المزارع الارض والبزر ، ويأخذ نصف الغلة ، اما فى النوع الآخر فان رب الملك يدفع الارض والبذر والآلات والحيوانات والمزارع يتعهد العمل ، ويأخذ ثلث الغلة . ويوجد فى هذا القضاء مقدار (٥٠٠٠) شجرة من الزيتون ، وكروم يبلغ اتساعها (٢٠٠٠) دونم ويستغل منها فى كل سنة (٢٥٠،٠٠٠) اقة من الزيت و (٢٠،٠٠٠) كيلو من العنب .

وصناعة الحرير فى هذا القضاء متعممة بين المسلمين اكثر من النصيريين والنصارى ، خلافاً للاقضية الاخرى . ويخمن محصول الشرانق فى السنة بمقدار (٤٥٠٠) كيلو . وزراعة التبغ والتنباك هى من اهم مشاغل القرويين فى هذه الانحاء . وكانت حاصلات سنة (١٣٣٢) عبارة عن (٧٦٧٧٨٨) كيلو من تبغ (شك البنت) و (٥٣٠،٠٠٠) كيلو من « ابو ريحه » و « ٢٥٥٧١ » كيلو من التنباك . وكان القضاء يربح قبل الحرب « ١٠،٠٠٠ » ليرة فى كل سنة من هذه المزروعات . والآن نرى الاهالى فى ضيق شديد لسبب انقطاع التجارة البحرية ووقوفها .

وهذه غلال القضاء بالحساب المتوسط :

جنس الغلال	كيله
القمح	١،٢٠٠،٠٠٠
الشعير	٣٥٠.٠٠٠
الذرة البيضاء	١٥٠،٠٠٠
الحمص	٦،٠٠٠
الفول	٤،٠٠٠
العدس	٨٠٠٠

٥ — الآثار القديمة فى القضاء

سمى هذا القضاء باسم حصنه الذى لعب دوراً خطيراً فى الاجيال المتوسطة . وان قلعة صهيون التى هى اقدم انموذج للحصون التى بناها الافرنج فى قطعة سورية وقلعة حصن

الا كراد ايضاً هما من اوضح الآثار التى تريننا نسق المؤسسات العسكرية الصليبية فى الشرق .

وهذه القلعة التى كان يسميها الصليبيون (*Saone*) كانت من اهم اعمال ايالة انطاكية ابان حرب الصليبيين . واسرة صاوْن (*Saone*) التى حكمت هذه القلعة مدة طويلة تشغل فصلاً مهماً فى كتاب الانساب الاوروبية . حتى لقد يعثر على كثير من اسماء افراد هذه السلالة فى المنشورات الملوكية الصادرة فى القرن الثانى عشر . وبعد ان مزق صلاح الدين الايوبى فى سهول حطين ، اهم جيش للنصارى ، واقبل على فتح الاصقاع الشمالية من سورية . فتح هذه القرية واعادها الى الحكم الاسلامى «١١٨٧م» واسس هناك ثلاث ايالات اسلامية . وهى : صهيون وقاميه « *Apamée* » وكفرطاب وانطاكية ، وبالات نوس « *Balatnous* » واللاذقية .

بنيت هذه القلعة فوق هضبة من جبال داريوس ، وانفصلت عما يجاورها من العوارض بخندقين من طرفيها . والانقاض الموجودة فى الجانب الشرقى المشار اليها برقم «١» كانت كقرية مسورة من اربع جهاتها بسور متين . والحصن المنفصل عن هذه المبانى القديمة بخندق عميق مبنى فى اعلى نقطة من الهضبة ، ومسور من الجهة الغربية بحائط وطيء ، وهنا توجد جميع مشتملات القلعة اما الخندق الذى حفر فى الصخر فانه من اعجب الآثار التى اسسها الافرنج فى بلاد سورية .

اما الجسر الذى يصل قصبة صهيون بالقلعة فهو اليوم من الآثار التى يقصدها السواح وهو قائم على دعامة تشبه مسلات الفراعنة *Obélisque* وتوجد فى اعمق انحاء هذا الخندق الذى يبلغ عرضه « ١٨ » متراً آثار ابنية محفورة فى الصخور ايضاً . وكانت هذه المبانى عبارة عن اصطبلات .

ولا يوجد من هذه القلعة الآن الا برجها وبضع صوامع مبنية بالحجارة الكبيرة . فالبرج الذى اشير اليه برقم « ٥ » هو مربع الشكل وطوله « ٣٦ » متراً وكل طابق فيه كان كانه بهو . ويصعد من الطابق الاول الى الثانى على سلم قائم فى الجدار الشمالى كما هو الحال فى برج صافيتا . والجدار الشرقى المطل على الخندق والجهة الجنوبية ايضاً مجهزان بالبروج . والبروج الجنوبية التى بنيت على شكل مربع يبلغ طول كل واحد منها نحواً من « ٢٠ » متراً والموقع الذى اشير اليه فى الرسم برقم « ٣ » فيه انقاض قرية اسلامية بنيت بعد تسخير الحصن . وجامع هذه القرية وحمامها المزدان بالنقوش العربية الظريفة لا يزالان مصونين من الخراب ثم يوجد فى الجانب الشمالى منها مستودع ماء محفور بالصخر ينزل اليه بسلم وهو لا يزال موجوداً برمته .

ويزعم موسيو « ره‌ى *Rey* » الذى امعن فى تدقيق الآثار الصليبية فى سورية ، ان

قلعة صهيون مبنية على انقاض ابنية من آثار البزانطيين وجدران الكنيسة الصغيرة التى تشاهد بين الانقاض الموجودة فى الغرب الاقصى من الهضبة ، والمشار اليها برقم « ١٢ » والبرج المشار اليه برقم « ١١ » لا تزال قائمة تلفت انظار السواح والزائرين .

٦ — موقع بابنا ، ومنظر ضواحيها وخطوطها الداخلية

ان قصبة بابنا ، مركز قضاء صهيون التابع للواء اللاذقية مبنية على السفح الغربى من جبل (جنكل) المرتفع عن البحر بمقدار (٤٠٠) متر ، وعلى الجانب الشمالى من جبل (الكتف) الملاصق له .

وبما ان ملتقى هذين الجبلين الذى هيء للقصبة موقعاً مناسباً بميله الخفيف من الشرق الى الغرب ، محشو بانواع الاشجار الكثيفة ، اصبحت « بابنا » كمنبر بديع صيغ من زبرجد قائم على سنام الهضبة يطل على القضاء الغربى .

نعم ان الجهة الغربية من قصبة بابنا التى كانها لسان ممدود مع ميل قليل مقطوعة بوادى « شرفه » ثم على نصف ساعة منه القرية المسماة بعين الاسم وبعده قضاء لا تطوله خيوط البصر يمتد الى حيث تتكسر امواج البحر . ولهذا كان منظره ناضراً جداً . لاسيما وطنف تلك القرى ، وهاتيك الذرى الذى يلوح عن بعد ، ثم المعاطف التى غشيت بسراب الابهام اوحدت هناك مشهد محاسن تناهى فى اللطف والجمال . فترون عن قرب قريتى (براشيبو وزوبار) وعلى غلوة منها فى الشمال الغربى انحاء البهلولية ، وبعيداً منها انحاء « بوجاق » و « باير » كانها موكولة لتعلم الناس الشعر .

ثم ان الجهة الشمالية من هذه القصبة لا تقل لطافة عن الجانب الغربى ، بل لها مشارفة على مناظر تناهت بالمحاسن ايضاً اذ تطل اولاً على قرية « الارض الحمراء » ثم على قرى « سنابروت » التله ، الرويسة الشيخ قلعة ، عمام ، زوبيك ، دغمشايه » وامثالها التى انتشرت فى تلك الانحاء يمنة وشمالاً ، ثم من ورائها (جبل الاقرع) الذى يلوح على بعد كانه قبة من اديم السماء .

لاسيما اذا تسلقنا ذرى جبل « الجنكل » و« الكتف » الذين كانا متكئاً للقصبة من جهة الشرق والجنوب ، ونظرنا الى ذلك المنظر الفسيح الذى يتغلغل وراء الآفاق المرئية ، ثم الى القصبة نفسها التى كانها صحيفة من الماس احيطت بسوار من الميناء المنقوشة فان ذلك انضر وازهى . ويرى من ذروة جبل « الجنكل » واد وسيع وبعده قرية « دريوس » ، ثم انحاء « جبل الاكراد » ثم الافق الذى يقصر البصر عن تعيين حدوده ، وتشاهد من جبل « الكتف » الهضاب والربى والوديان والغياض والرياض ، ثم القرى الكائنة بين

جبله وبابنا .

قصارى القول أن هذه القصبة هى من اجمل قصباتنا بحسن المنظر وتنوعه ونضرته . وهى فى كتاب سورية من الصحائف الممتازة الغراء ، التى تجب قراءتها بالشوق والسرور .

***

اما الخطوط الداخلية فى القصبة ؛ فمن العبث ان نتحرى الاقسام والفروع فيها وهى لا تجاوز بعددها «٦٠٠» بيتاً . ومن السهل ان نحيطها برمتها بنظرة واحدة .

وقد كانت حتى العهد القريب منقسمةً الى ثلاثة اقسام صغار . ففى الغرب « بابنا بيت سليم » وفى الشمال « بابنا بيت حسون » وفى الشرق « بابنا بيت شريقى » . ثم اضيفت اليها الاقسام الموجودة فى جل (جنكل) وهى : « الجنكل الاول » و« الجنكل الثانى » و« الجنكل الثالث » . ولهذا اصبحت مؤلفةً من ست محلات طبيعية .

وجميع بيوت هذه المحلات لا تختلف عن بعضها بشئ . هذا وان تكن جميعها مبنية بحجر ابيض يسمونه « حجر النحيت» ولذلك كان خارجها جميلا بذلك اللون الناصع . ولكن هذه البيوت التى كادت ان تكون كلها عبارة عن طابق واحد ، قبيحة الداخل لان سقوفها قائمة على اخشاب من الحور مصفوفة حيث جائت ملصوق فوقها الواح من الخشب ايضاً او حصائر تطلى من فوقها بالوحل ، وهى وطيئة لدرجة يحسبها الانسان انها ستسقط على رأسه . ويضطرون دائما لرصها بمكابس من الحجر .

ثم ان جدرانها مطلية بالوحل المخلوط بالتبن ، ونوافذها تغلق بمصراع واحد ، وانهم يطينونه فى الشتاء ، ويفرجون عنه فى الصيف .

ويوجد فى هذه القصبة بضعة منازل بناؤها لا بأس به ، واقسامها الداخلية تكاد تكون شيئاً ، ولكن بيوتها سافلة .

ويوجد فيها محلات لايواء الحيوانات ايضا . وهذا يدلنا بوضوح على درجة فقر هذه القصبة من الابنية الصالحة للسكنى . ثم ان الحوانيت الموجودة فى هذه القصبة التى لا تزيد عن عشرين هى على عين لدرجة من عدم الانتظام والترتيب .

ثم لا يوجد فيها من الابنية المهمة الا جامعان ودار الحكومة ، ثم بناء المدرسة . فالجامعان والمدرسة هم من آثار هام لا تنسى صهيون اسمه الكريم . « نعم ان « جامع نشأت بك » هو من الآثار الخيرية المرضية .

ثم ان هذه القصبة محرومة من الطرق المنتظمة ايضاً . وليس فيها الا طريق واحد يقطع القصبة من الشرق الى الغرب بميل قليل ، ويسمونه « طريق السرايه » . اما الطرق الاخرى فهى عبارة عن مداخل ضيقة معوجة كثرت فيها المنعطفات .

ويوجد فى خارجها طريق « اللاذقية » الذى يمتد الى الجنوب الغربى ، ثم فى جنوبيها طريق « جبلة » ، وفى شماليها طريق (جسر الشغور) . وجميع هذه الطرق لم تخرج عن الحالة الطبيعية .

***

ويوجد فى بابنا ثلاثة ينابيع . الواحد فى محلة « بابنا بيت حسون » . ويسمى « عين عثمان » . ويستعمل ماؤه للشرب . والثانى فى جوار دار الحكومة ويسمونه « عين عويجان» وماؤه غير صالح للشرب . والثالث « عين سلامه » وهى فى « الجنكل الثانى » وماؤها يمتاز عن جميع تلك المياه . وهم يملؤن الماء بجرار كبيرة واسعة الافواه . ويوجد فى القصبة مقدار ثلاثين بئراً ايضاً . ولا جرم ان هذه الينابيع لا تقوم بسد العوز . لا سيما ابان الصيف اذ ينقص مقدار المياه فهنالك يدخل الناس فى ضيق شديد .

٧ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحالة الاجتماعية فى بابنا** — ان سكان هذه القصبة الذين يتجاوزون بعددهم (٢٠٠٠) نسمة ، كلهم من المسلمين السنيين ، وهم ينقسمون من حيث الحياة الاجتماعية الى طبقتين . ولهذا نرى من الواجب ان ندرس حالهم بالنظر الى هاتين الطبقتين . نعم توجد فى هذه القصبة طبقة من الاغنياء وارباب اليسار تتألف من بضعة اشخاص ، وطبقة من عامة الناس المستضعفين الذين يودعون حياتهم تحت سيطرة اولئك المسيطرين . وهم السواد الاعظم . والفرق بين هاتين الطبقتين يكاد يلمس لوضوحه .

والطبقة الاولى تتألف من خمس عائلات تبلغ نحو بضع مآة بافرادها وكلهم يشتغلون بالزراعة ذلك لانحرام المركز والقضاء معاً من الحياة التجارية . ويوجد بين رؤسائهم من له مقدار عشرة آلاف دونم من الاراضى ، فى الاصقاع الساحلية ، او فى لواء اللاذقية ويخمن دخلهم السنوى بثلاثماية ليرة . ولكل واحد من هؤلاء الرؤساء بيت للضيوف يسمونه « اوده » . وهو مهيء لقبول الزوار والضيوف فى جميع الاوقات . وهذه الحالة تضطرهم الى ان يرتادوا دخلاً غير الذى لهم ، ليتمكنوا من القيام بتلك النفقات الطائلة التى الزموا انفسهم بها . وهذا هو السبب الذى يدفعهم الى التطاول على المزارعين والتسلط على جميع السكان . ويروى ان معظم الافراد هناك اما من الفارين من الجندية ، او من مرتكبى الجرائم ، او من المحكومين بها ، الذين تضطرهم حالتهم هذه الى التكتم والتباعد عن اعين الناس . وهذه كانت فرصة عظيمة لرؤساء تلك العائلات يستفيدون منها ويسعون لادامتها وبقائها . ويظهرون لهؤلاء المحترزين بانهم يريدون ان يرفعوا عنهم حيف المأمورين

ويفهمونهم ضرورة المفاداة لاجل تأمين هذه الغاية المطلوبة . ويحلبون منهم ما تشاء اطماعهم من النقد والمنافع . فاذا شذ عنهم شخص ، وعصى امرهم ، فلا يألون جهداً بالقبض عليه وتسليمه الى الحكومة ليذوق نكال جريرته . ويجزونه على شذوذه وعصيانه .

وقصارى القول ان هؤلاء الرؤساء الجائرين المتظاهرين بالدفاع عن الخلق ، والذين لا يدعون فرصة لاضرارهم الا وينتهزونها ، ما هم الا بلاء صب على هذا القضاء ، وعلى اهليه المساكين .

ويروى عنهم من التلاعب فى مسائل الاعشار والضرائب وابتزاز اموال الناس واضرارهم ما يجعل الانسان فى عجب وحيرة من خضوع الناس واستسلامهم لهم الى هذه الدرجة . ويوجد فى بابنا بعض رؤساء ايضاً ليسوا فى هذه الدرجة من السلطة ودخلهم لا يزيد عن مائة ليرة فى السنة . ولا يبلغ تغلبهم الى درجة الاولين ولكنهم لا تسنح لهم فرصة يستطيعون فيها الاستفادة من انعاب الناس الا وينتهزونها . وابناء هذه الطبقة لهم ميل عظيم الى وظائف الحكومة . ذلك لتكون لهم عوناً على احراز امانيهم المذكورة .

وان هذه الطائفة التى تكتسى اردية حمراً من نسيج يسمونه « الديمه » وفوقها الجبب الطويلة وتتعمم بعمامات منقوشة ، لا حظ لها من العلم والعرفان رغماً عن طموحها الى الوظائف الرسمية حتى ولا تميل نفوسهم اليه .

وطباعهم المتواضعة التى تخضع لكل امر ، هى من الهدوء والسكينة فى درجة ، لا يمكن تجاهها تصديق ما يروى عنهم من انواع الاعمال التى بحثنا عنها ، الا باكراه النفس واجبارها . واذا سلمنا بصدق هاتيك الروايات نعلم ان لكل من هؤلاء الرؤساء كثيراً من الاتباع المسلحين .

ويقال ان عدد اتباع كل واحد منهم يناهز المائة ، وبهذا يكون مجموع خولهم فى القضاء يناهز الف شخص . ولهؤلاء الاتباع مفاداة عجيبة بالدفاع عن اسيادهم ، او بالاسراع لتحقيق امانيهم ومقاصدهم .

وقصارى القول ان افراد هذه الطبقة الاولى الذين يروى عنهم انهم لا يهملون شيئاً من فرائض دينهم ، وانهم يصلون بعيشتهم من القناعة والتصبر الى درجة حرمان النفس مما انعم الله عليهم ، لو عاملوا ابناء جلدتهم باللين والانسانية ، وقدروا هذه التربة المنبتة التى نشأوا عليها حق قدرها فلا جرم انهم يرسمون حول مجدهم هالة غراء من العز والشرف ، ويشحنون قلوب الناس باحترامهم وتجلهم .

*
* *

اما الطبقة الاجتماعية الثانية ؛ فهى عبارة عن السواد الاعظم من سكان (بابنا) . فاذا صرفنا النظر عن اتباع الطبقة الاولى من الاهالى ، نرى الباقين فقراء قانعين منهوكين ،

لا تزال حياتهم فى الدرجة البدائية .

وكلهم يشتغلون بالزراعة . وثلثهم من اصحاب الاراضى ، والثلثان يشتغلون بالاجرة عند ارباب الاراضى فى اراضيهم ، او فى بساتين الاثمار ، وبهذا يتسنى لهم تأمين العيش .

ومن العبث ان نرتاد عند هؤلاء المساكين عادة او مدنية او حياة لانهم ليسوا الا آلة وواسطة للغير يستفيد منهم ويستثمر مساعيهم . حتى ان اصحاب الاراضى بينهم عاجزون عن اجراء ولو حساب بسيط . والباقون منغمسون فى بحر من الجهالة .

فهل يقيض الزمن لهؤلاء الفقراء المساكين الذين لا يزيد دخل ايسرهم حالاً عن بضعة آلاف غرش فى السنة ، الخلاص من الاطماع التى جعلتهم آلة لاجتناء الشر ، ويسعدهم بتوجيههم الى الهدف التى تأمر به المدنية الحقيقية ، وتتطلبه سعداء بنى البشر او يقربهم اليه ، ولا جرم ان هذا لمن الآمال التى يجب ان نركض وراءها ونهتم بتحقيقها .

[٢] — *الحالة الاجتماعية فى صهيون* — تجاوز سكان هذا القضاء بعددها (٣٢٠٠٠) نسمة ، وثلثهم من المسلمين السنيين . اما الثلثان فمنهم (١٥٠٠) من المسيحيين وهم من الروم الاورتودوكس . والباقون من النصيريين . فاذا اخذنا بالاكثرية نضطر الى ان نعتبر القضاء من الديار النصيرية . وقد كان يوجد فى قرية (آرامو) وقرية (غنيمه) نحو (٦٠٠) نسمة من الارمن ولكنهم نقلوا الى محل آخر ، والروم الاورتودوكس الذين مر ذكرهم موجودون بين اكثرية عظيمة من المسلمين والنصيريين ، جعلتهم لا يحس لهم بموجودية اجتماعية تستحق الذكر . ولهذا فان بحثنا عن حياة هذا القضاء الاجتماعية ينحصر فى هاتين الطائفتين فقط المسلمين والنصيريين .

ان المسلمين السنيين الساكنين فى قصبة بابنا يعرفون باسم (عشيرة صهيون) . ولهم فروع فى بعض انحاء القضاء . فتوجد فى كل من قرى (بوكاس ، حفه ، شرقاق) اسرة سنية يشبه رؤساؤها ، رؤساء المركز وهم لهم نموذج صغير بالسلطة والسيطرة . وتتألف كل واحدة من هذه العائلات من خمسين نسمة ولكل منها مائة شخص من الاتباع المسلحين .

وهؤلاء لا يختلفون شيئاً عن رؤساء المركز بحالتهم وحياتهم وكسوتهم وسلطتهم . ولهذا لا نرى حاجة الى الاسهاب فى البحث عنهم . واتباعهم من القرويين لا يزالون يرزحون تحت سيطرتهم الباهظة .

ويوجد من السنيين فى هذا القضاء « عشيرة جبل الاكراد » التى تقطن الناحية المسماة بهذا الاسم . وهذه العشيرة السنية التى اتحدت مع عشيرة صهيون لا نراها تختلف عن الاخرى بشىء . ولهذه العشيرة اربعة رؤساء لا يألون جهداً بالتشبه بجيرانهم . ولا يدخرون

وسعاً فى منع السعادة والرفاه عن اتباعهم من القرويين .

وهاتان العشيرتان السنيتان؛ عشيرة صهيون وعشيرة جبل الاكراد هما العنصر الاسلامى السنى فى هذا القضاء.

وتقابلهم فى القضاء الطائفة النصيرية . وهى عبارة عن عشائر « العمامرة » و« المهالبة » و« بيت شلف » .

فعشيرة العمامرة تسكن الانحاء الجبلية من القضاء. وعدد افرادها يتراوح بين (٥٠٠٠ و٦٠٠٠) نسمة. ويوجد بينهم (٢٠٠٠) من الرجال المسلحين ببنادق « ماوزەر » . واقوى من فيهم الرئيس وثلاث عائلات من وجهاء العشيرة .

اما عدد افراد المهالبة فهو (٢٠٠٠—٣٠٠٠) نسمة . فمنهم (١٠٠٠) من المسلحين وفيهم شخص واحد يحكم على جميع العشيرة .

ثم ان عشيرة « دريوس » هى مثل المهالبة بكثرة الرجال ولكن قوتها المسلحة لا تزيد عن (٥٠٠) شخصاً .

واقوى العشائر القاطنة فى قضاء صهيون هى عشيرة « بيت شلف » ويبلغ عدد افرادها قريباً من (١٠،٠٠٠—١٢،٠٠٠) نسمة . منهم (٣٠٠٠) من المسلحين وعدد حكامها ومتغلبيها لا يتجاوز بضعة انفار .

وقصارى القول ان النصيريين فى هذا القضاء منقسمين ايضاً الى عشائر مختلفة ،ولكل منها اتباع مسلحين، ولهذا يجب فى البحث ان ننظر اولاً الى مناسبات الطائفتين الاسلامية والنصيرية ، وثانياً الى مناسبات العشائر بين بعضها ، وندرس حالتهم الاجتماعية .

يزعمون انه لا يوجد اختلاف بين العشيرتين السنيتين ، لانهم لا يريدون ان يتفرقوا ويفشلوا تجاه قوة النصيريين العظيمة ولهذا فانهم لا يزالون على اتفاق واتحاد دائم . ولا بد ان يحدث بين العشائر الاسلامية بعض الجرائم كالقتل ، وخطف الاناث . ولكنهم يحسمون هذه المسائل بين العشيرة ولا يدعونها لتكون سبباً للاختلاف والشقاق وهؤلاء العشائر لا يعيشون تحت الخيام كعشائر البدو . بل كلهم متوطنون فى منازل ثابتة . هذا وان تكن تلك الاوكان التى يسمونها « بيوتاً » هى احط وادنى من خيام البدو . ولكن استقرارها منعهم من الفوضوية العمومية ، واضطرهم الى حل اكثر الاختلافات التى تحدث بينهم .

وللسنين تجاه النصيريين حالة روحية جديرة بالذكر ، ولا يصح الاعتقاد بان السنيين يحبون النصيريين . لانهم على يقين من بطلان مذهب هذه الطائفة ، ولذلك فهم يعتقدون ببعدهم عنهم اكثر من النصارى وغيرهم ممن يخالفونهم فى المعتقد وعليه فان السنيين لا يزوجون بناتهم الى النصيريين البتة ، ولكنهم ينكحون النصيرات ويقال انه توجد فى

بيوت متغلبى السنيين بنات كثيرة منهن ثم لا توجد اشارة فى الديانة النصيرية تدل على ان ابنائها يحبون من سواهم البتة . ولهذا فلا تكون قلوبهم أبر بالسنيين ، من قلوب السنيين بهم .

ورغماً عن بعد هاتين الطائفتين عن بعضهما روحاً ودينا نراهما على مجاملة ظاهرة ، ووفاق دائم . ولا نرى لاحدى الطائفتين فى قضاء صهيون تجاوزاً على الاخرى . ولا جرم ان هذا السكون وعدم التحرش مبنى على توازن القوى والسلطة بين الفريقين . ونجاح السنيين فى تأمين هذه الموازنة بالرغم عن قلة عددهم تجاه كثافة عدد النصيريين جعلتهم يعتقدون فى انفسهم العزة ، ويحملون مكانتهم على علو كعبهم فى الجسارة والبسالة التى ارهبت رقبائهم ، وجعلتهم يخشون جانبهم .

ولكن النصيريين لا يسلمون بهذا التأويل ، وينكرون فى الموازنة الموجودة نشأتها عن جسارة السنيين وبسالتهم ، ويحملونها على الاختلاف والشقاق الموجود بين عشائرهم فقط .

ولا بجرم ان تأويل النصيريين اقرب للحقيقة وامس بالصواب . لان اوصافهم الاجتماعية الخاصة، ودعاوى الثارات والانتقام بينهم جعلتهم فى شقاق وخصام دائم. ولهذا السبب ينقسمون الى قسمين فالقسم الاول يضم قسماً من عشيرة العمامرة ، وجميع عشيرة المهالبة ، وقسماً من عشيرة بيت الشلف . اما القسم الآخر فيتألف من بقية العمامرة ، ومن عشيرة دريوس ، ومن بقية عشيرة بيت الشلف . وهذان القسمان لا يزالان فى المرصاد لبعضهما ، ولا يدعان فرصة لاضرار بعضهما الا ويهبان لانتهازها ، كانهما جيشان متخاصمان . ولا ادرى ماذا تبتغى هاتان الفئتان من سفك دماء بعضهما كالوحوش الضارية ؟

وهذا الخلل هو الذى مكن العشائر السنية من الاحتفاظ بكيانها . ومع هذا فقد يروى ان النصيريين يعترفون بكفاية القوة المسلحة التى يستند عليها السنيون .

وقصارى القول ان هذا التوازن والتماثل بالقوى جعل هاتين الطائفتين مرتدعتين عن التسلط على بعضهما فى قضاء صهيون، غير ان من النصيريين اناساً يبلغ عددهم قريباً من الف شخص كلهم مسلحون ، يمضون حياتهم بالشقاوة وقطع السبيل .

وينقسمون الى عصابات ربما جاوزت بعددها مائة شخص، وديدنهم شن الغارات على القرى القريبة ، وخاصة على القرى الساحلية ، وعلى الانحاء التابعة للاذقية فيعيثون فيها فساداً ويحرقون وينهبون ، ويقتلون اذا لقوا منعاً او مقاومة ، ويرتكبون كل سيئة .

وقصارى القول ان هؤلاء القوم الذين ينهبون اعمارهم بحالة يسود لها وجه البشرية ولا تليق حتى بالاقوام الابتدائية ، يتدهورون فى افجع ما يصاب به ابناء البشر من المهاوى الفظيعة ، ويسوقون معهم هذا الوطن العزيز الذى لم يعرفوا قيمته ، وهذه البلاد الناضرة

التى اربت على الجنان بلطافتها وحسنها الى تلك المهواة الماحيــة ، فيهلكون ويهلكونه معهم . وقد ان زمان الصيحة بهؤلاء الغافلين ، وحان ابان زجرهم عن اقتراف هاتيك الفظايع . واننا نعلم أن الاعتراف بهذه الحقيقة المرة هو من أكبر وجائبنا .

[٣] — تتمة — وبعد ان ذكرنا الاوصــاف الاجتماعية الاساسية فى هذا القضــاء ومركزه نرى من اللازم ان تتم البحث باضافة بعض الشؤن الفرعية ايضاً .

اولاً ، لا يوجد فرق فى نسق العيش بين السنيين والنصيريين البتة . لان جميعهم يعيشون فى تلك الاوكان المتداعيــة والذين يتمكنون منهم من فرش ابد فى تلــك الارض المتعفنة من هاتيك البيوت التى هى عبارة عن صبرة من وحل لا جرم تكون كل السعادة لهم واكثرهم يربطون دوابهم فى هذه البيوت ويناموون معها جنباً لجنب. وقد استاصلت فيهم هذه العادة حتى لا يكاد يشذ عنها احد منهم .

ومع هذا فان خلودهم فى هذه العيشة الذميمة ، ورضائهم بها لا جرم يستند على ما هم فيه من الجهالة العمياء. لانهم لا يوجد بينهم ممن يعرف القرائة والكتابة الا بعض اشخاص فى مركز القضاء لا يتجاوز عددهم (٣٠) نسمة. وهكذا الحال فى السنيين ايضا .

اما نسقهم فى الامور المذهبية فان للسنيين اماما فى مركز القضاء فقط ، وقراهم محرومة من الرؤساء الدينية . والنصيريون عندهم فى كل قرية شيخ ويتفق المشايخ مع الرؤساء ويتصرفون بهؤلاء المساكين كيف شائت اهواؤهم .

والسنيون يراجعون قاضى المركز فى مسائل النكاح وغيرها من المسائل الدينيــة . وقد نطقت القيود الرسمية فى محكمة القضاء الشرعية ان عدد الذين تزوجوا سنــة (٣٢٥) كان (٩٣) وسنــة (٣٢٦) ١١٦ وسنة (٣٢٧) ١٢٥ وسنة (٣٢٨) ٣٧ وسنة (٣٢٩) ٥١ وسنــة (٣٣٠) ٢٣ وسنة (٣٣٢) ٤ اشخاص فقط . ويقال ان قاعدة تعدد الزوجات ليست متعممة بين السنيين .

ولم نظفر بالقـاعدة الحقيقية التى يتبعهـا النصيريون فى هذا الامر . عــلى انه من العبث ان نبحث عن هكذا امر بين هذه الطائفة التى ليس للنساء عندها من قيمــة اجتماعية .

وان النساء فى قضاء صهيون عرضة لكل اضطهاد وظلم وهؤلاء البائسات اللاتى لا ينقطعن عن العمل ، لا يزلن حفاة ، ولا يكون حظهن من لثياب الا اطمار بالية ، وانهن لجديرات بالرحمة لسقوطهن فى هذه الديار التى خيمت عليها الخشونة والغلظة . ولا جرم يحق لهــن ان يصرخن بالشكاية من هذه الويلات ، ولكن هيهات لتلك الاصوات الضئيلة ان تستطيع

ع رنينها بين تلك الجلبة القاصفة .

نعم ان قعقعة السلاح بــين اولئك المتمردين الذين لا يبالون بارتكاب اشنع الجنايات ، لا تزال تخنق بضوضائها اصوات تظلم النساء . فهلا يعلم اولئك الفلاظ ان هــذه الذنوب الصامتة التى تجنيها ايديهم على تلك العصابة البائسة الضعيفة ، هى من اعظم الجنايات الاجتماعية فى نظر الانسانية المتمدنة . ولكن بعيد عن هؤلاء الذين لا يعرفون الا البنادق ان يعلموا نعم انهم لا يعقلون .

ثم ان الدماء فى هذا القضــاء هينة رخيصة . وقد قيدت جداول الاحصاء سنه (٣٣٢) فى هذا القضاء تسعة جنايات من نوع القتل اشترك فيهــا (١٠٢) من الاشخاص. وجرائم الضرب والجرح لا يحصى لها عدد. وضبطت القيود منها « ٨١ » حادثة فقط . وما يدرينا لعل هؤلاء من الاشخــاص الذين تمردوا على الرؤساء الصهيونيــين وخالفوا اهوائهم . ونرى الكثير يصادق على اصابة هذا الرأى .

*
* *

ولا نعجب من اسماعهم الغليظة التى لا يطربها الا صوت البنادق . اذا رأيناها لا تهتم بالالحان الرقيقة الموسيقية او غيرها من الهامات الفنون الجميلة . ولا اثر هنا للشعر ، ولا للموسيقة ولا لغيرها . وتوجد عندهم ثلة من زعانف الناس يسمون بالنور يتجولون فى تلك الاصقاع ، ويتحفون القضــاء حين زيارتهم بقرع الطبول ، وولولة الزمور ويثب هؤلاء الاسقاط كالقردة يمنة وشمالاً ، وهم من الوساخة فى درجة تخجل منها الانسانية ، ويغيرون على الشامة بنتانة كريهة . وعلى الادمغة بمعاز تعمل فيها عمل الرصاص فيحسبهم الصهيونيون اولئك المساكين ، انهم يرقصون والبلاء الاسود فى تسمية تلك السفاسف غناءً وتراهم يحركون اشداقهم ، فيتطاير منها فتات اللعاب ويقولون :

امان امان فنجانه
فنجانــه هالطويــله
يصلحله شرب الاركيله
عملت علينــا حيــله
تمسك لنــا البغاله

وليت شعرى هل يشعر الصهيونيون بالطرب حينما تنزل هذه السفاسف على ادمغتهم كجلد السياط . اذ من المستحيل ان تشف انظارهم او سحنتهم عن هكذا شعور . على ان عدم شعورهم وتحسسهم بتلك الطبول والزمور امر ظاهر لا يعمى عن روءيته الا من كان منهم ، او من اضرابهم .

٨ — الاحوال الصحية

من العبث ان نتحرى فى هذا القضاء حالاً فى الصحة غير الذي نعهد فى الاقضية الاخرى . واذا علمنا ان الحالة الصحية فى المركز والملحقات هى على غاية فى الانحطاط رغماً عما افاضت عليها الطبيعة من الاستعداد الحيوى الكامل نضطر الى ان نحمل القصور عليهم لانه عبارة عن اهمال بشرى وعجز .

واذا أردنا ان نبرهن على صحة دعوانا ، نذكر المستنقعات التى اشغلت مساحة مائة دونم فى الجهة الغربية ، وخمسماية دونم على ضفاف العاصى فى الجهة الشرقية . وهذه الينابيع المرضية لا تنفك تخلق امراض الحمى المرزغية وتشبع بها القضاء قتلاً وفتكاً . وان ادرى كيف يسوغ اهمال هذا الامر وعدم التعرض لدفع هذه السموم القاتلة فى هذا الزمن ؟ وتوجد فى القضاء غير هذه الحمى الامراض العينية والسل ، والديزانترى ...الخ ليس لها من سبب الا حياة السكان العمومية ، فمتى يا ترى يتخلص هؤلاء البائسون من هذه الحياة المخالفة للقواعد الصحية ، ومتى يدركون معنى الصحة وقيمتها ؟

علمنا بالبحث ان للصهيونيين نسقاً عجيباً فى المداواة . فاذا ارادوا تسكين وجع الاضراس يعمدون الى الحائط فيدقون فيه مسماراً ثم يضربونه بسيف صارم فيقطعونه ، فانقطاع المسمار يقطع الوجع عن الضرس !!

ولهذا يجب ان لا نعجب من ابتلاء هؤلاء المساكين بالامراض فى هكذا قضاء بل اولى لنا ان نعجب من احتفاظهم بالحياة ومع هذا فانهم يركضون الى العدم والهلاك بخطوات سريعة . وهذه الامراض لا تزال تفتك بهم ، بل تصليهم بنارها ، كما يصلون بعضهم بنار بنادقهم .

وقد اطلعنا بحساب تخميني على ان مقدار الوفيات فى هذه السنة تجاوز (١٣) فى المائة او بالاوضح ان مقدارها كان سنة (١٣٣٣) (٤٠٠٠—٥٠٠٠) نسمة . واسبابه اولاً مرض الحمى النمشية التى اكتسحت جميع الانحاء ثم الحرمان والجوع . والذى نعلمه علم اليقين — مهما اختلفت الاسباب هو تناقص هؤلاء القوم من جرائد النفوس وانعدامهم .

هذا وان كان لا بد لتلك الامراض الطارئة من هكذا فتك عاجل ، غير ان اللدات فى القضاء لا تجاوز ثلاث فى المائة ، وربعها يودع الحياة فى ابان الطفولية ثم اذا اضفنا اليها مصائب الامراض الحالية لا جرم تنجلي لنا دهشة هذا المقدار ونطلع على وفرته.

ولهذا يجب فى الاستحالة التى ننتظر حدوثها فى هذا القضاء المحروم من جميع الوسائط

الاجتماعية والمدنية . أن تستهدف الصحة العامة قبل كل شئ ، لان اهم اركان المدنية هى الحياة . وعليه يجب ان يكون دستورنا فى هذا الامر « لا مدنية بلا صحة وحياة ».

—٢٢—

بين بابنا واللاذقية

ما كنا نرى لزوماً لتعيين خطة السفر، لان الطريق بين بابنا واللاذقية معلوم واضح. وهذا الطريق الاخير الذى سيوصلنا من بابنا الى الساحل بظرف بضع ساعات سمعنا عنه من احاديث الثناء والوصف باللطافة ما جعلنا نستعجل بانتظار اوقات السعادة التى نفارق فيها بابنا نبتهج برسم آخر خط فى صحيفة هذا السفر .

ولو لم نضطر لتشييع هذه الليلة ونحن ايقاظ بين الحشرات التى تتراكض حوالنا على تراب ارض الغرفة الخالية التى اوينا اليها فى مدرسة بابنا ، لكنا حاولنا ان ننير هذه الظلمة الكثيفة التى غشيت ابصارنا بنور الامل الذى انبعث عن ابتهاجنا بهذا السفر الميمون ، ولعلنا كنا نعتاض عن هذا الديجور بشئ من الرقاد .

غير ان هذه الصحيفة الاخيرة من كتاب سفرنا كانت محشوةً بسطور مملة مزعجة . وكنا ندافع هذه الظلمة وننتظر انبلاج الصبح وآذاننا مصغية الى دبيب الحشرات المتراكضة حولنا فى احشاء هذا الليل الرهيب . وانظارنا معطوفة الى الكواكب اللامعة فى قبة السماء الساكنة .

وما زلنا على هذا الانتظار الممل حتى كبت فحمة الليل وقام على اطلسة السماء من وراء جبال جنكل لون رمادى. فكانت لنا هذه الصحيفة البيضاء براءة نجاة . ولم نلبث بعد هذه البشرى القدسية الا وامتطينا متون الجياد . واخذنا نخوض فى تلك الظلمة التى لم تزل سابلةً سدولها .

غادرنا قصبة بابنا وسنحت لنا نكهة عطرة انبعثت من اشجار الآس وامتزجت بارواح ذلك النسيم العليل فى هذا الصباح الصيفى فأحيت ميت الآمال واسكرت الادواح،

وهذه جميع انحائنا تغط فى رقدة الصبح ، فى طى ذلك الهدو السائد . ولا تلبث ان تطل عليها ملكة النور من فوق شواهق جبال جنكل ، وتسلط امواج ضيائها لتبعث جميع النيام من مرقدها .

انحدرنا فى منحدر سهل وبعد برهة تركنا قرية « الشريفة » ؛ ولاحت عن يسارنا ربى « شيخ البيادر وعين التينة والمزارعة ودباش والعميرة » . ترسم على نحو الافق خطوطاً

مبهمة ثم بعد مدة ترائت عن يميننا جبال « بر ايشبو » و« زوبار » كانها تلال صغيرة قامت بيننا وبينها الوديان، وما كان انضر منظر تلك الوديان واخضر.

ثم كان على يسارنا مجرى « نهر الشقيفات » كانه طريق ممدد بالبلاط الابيض،وعلى يميننا وادى « بابنا » . وها نحن نغادر طريق جبله الذى يمتد الى الجنوب وننعطف نحو الغرب ، ونرى خيال البحر يلوح عن بعد كانه صحيفة سمراء .

وبعد نصف ساعة تركنا عن يميننا قرية « الرقيق » فى كبد الوادى ، وعن شمالنا قرية « خوفلله » وهى عبارة عن بضعة بيوت . وكان سبيلنا لا يزال يتدرج بالانحدار . وعلمنا من التلال والسهول التى قامت امامنا اننا سنسير فى طريق سهل حتى نصل اللاذقية ، وهذه البشرى بعثت فى نفوسنا نشاطاً وتسلية .

هذه الشمس بزغت من وراء جبال جنكل واخذت انوارها تتدفق على هذا الفضاء حتى غمست كل شئ بذلك الطلاء الذهبى . واكتسب سبيلنا منظراً نضيراً .

وسرنا ردحاً من الزمن ونحن محصورون بين اشجار الحور وشئ من الخضرة ، وكانت الحقول المحصودة حوالينا كانها مبتسمة مستبشرة وهذا المحل هو المنبع الذى يسمونه « عين التريبنة » ثم غادرنا هذا المنبع على يسارنا ، ولم نزل نسير فى المنحدر . ثم انعطف الوادى الذى كنا نتبعه من الغرب الى الجنوب ، وترائت لنا فى الجنوب قرية « ايرطهليه » .

وكنا نسير فى الساحة السفلى من الوادى ونحتفظ باتجاهنا الى الغرب . وها قد شرعنا نصعد فى مرتقى صغير واجتزنا « نهر الرقيق » الذى يجرى فى اعماق الوادى . وقداوصلنا هذا المرتقى الى ذروة « الحميدية » وقريتها . وها قد غادرنا قرية الحميدية على يميننا واخذنا فى التقدم وكنا على بعد ساعةمن بابنا ولاحت لنا عن شمالنا قرية « خربة خيشون »وقرية « المشهر » وهما فى طريق جبله .

ثم بعد اغواء وانجاد مررنا من جانب قرية « قدر » الكائنة وراء واد صغير على هضبة بعيدة . ثم تركنا قرية « الزفت » على يميننا وقرية « سمندل » على يسارنا . وهذه كانت مستترة وراء الهضبة .

وقطعنا المرعى المسمى « مرج الزفت » وكان على يميننا جدول « ساقية القدره » الذى ينبع من انحاء « قدره » .

وبعد قليل لاحت على يميننا قرية « برديخه » ، وعلى غلوة منها فوق الربوة قرية « بهلولية » و « زشية » ووراءهما على بعد ذروة « جبل الاقرع » العالية .

وهنالك شرعنا نرى الحقول المزروعة بالذرة البيضاء والصفراء . وبعد ان تركنا قرية « المختارية » على يميننا وقرية « القبارصة » على يسارنا انقلب طريقنا الى سهل بحت . وبعد ان اجتزنا « نهر المختارية » بقليل وصلنا الى « النهر الكبير » الكائن فى منتصف الطريق

بين بابنا واللاذقية .

امضينا قريباً من ثلاث ساعات منذ غادرنا بابنا . وها نحن نخوض فى الماء بخيلنا بين خرخرته وزبده وقلوبنا تطفح سعادة لما كنا نراه حولنا من المناظر البديعة .

وها قد لاحت لنا فى اليمين عن بعد قرية « عين اللبن » وقرية «الجندارية » وفى اليسار قرى [العنصه ، ست فيرس ، شربة حورو] ومن وراءها قريتا « رودو ورويسة الحرش» وجميعها كانت تتسلسل على الضفة اليسرى من النهر الكبير وهى على الطف ما يكون من نضرة المنظر بخضرتها اللطيفة . وما كان اجمل هذا الوادى فى هذا الصباح الصيفى .وثابرنا على تعقيب الساحل الايمن من هذا النهر الممتد الى الجنوب الغربى . والآن وصلنا الى طريق « اللاذقية — جسر الشغور » المعبد وسنسير فيه حتى اللاذقية .

ثم غادرنا عن يسارنا قريتى « رودو » و « ساقية الغنصه » واخذت القرى التى مر ذكرها تتوالى على انظارنا حتى لاحت على يميننا قرية « قايو » . ومنذ ترائت قرية «الشيخ محمود » شرعنا نلمح سفوح اللاذقية عن بعد ، واخذ منظر البحر ينفسح امامنا حتى سد علينا الآفاق .

وبعد مضى ست ساعات منذ ركوبنا من بابنا وصلنا الى قرب جامع «الشيخ المغربى » فى اللاذقية . وبعد قليل اخذنا ندخل الابواب القديمة فى هذا المركز الذى ظهر لاعيننا بمنظر رهيب . وكنا نسير على ارصفة البلدة وبودنا ان لو طالت هذه السفرة التى ما كنا نحسبها الا جولة للتنزه الصبحى . وكنا بهذه الفروسية نريد ان نمثل فرسان القرون المتوسطة الذين يتجولون فى خارج ابواب القلاع القديمة .

— ٢٣ —

قضاء مركز اللاذقية

١ — موقع القضاء وحدوده

ان قضاء المركز الكائن فى الشمال الغربى من لواء اللاذقية محدود من الشمال بولاية حلب ، ومن الشرق بقضاء صهيون ومن الجنوب بقضاء جبله ومن الغرب بالبحر الابيض.

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ان مساحة هذا القضاء تخمن بمقدار (٣٧٤٨٣٤) دونم ، يناهز القسم المزروع منه (٢١٣٩٠٠) دونم .

اما عدد سكانه بالنظر الى القيود الرسمية فى سنة (١٣٣٢) هو كما يلى :

اسماء النواحي	الارمن ذكور	الارمن اناث	المارونيون ذكور	المارونيون اناث	اللاتين ذكور	اللاتين اناث	البروتستانت ذكور	البروتستانت اناث	الاروام ذكور	الاروام اناث	المسلمون ذكور	المسلمون اناث	الاجمال ذكور	الاجمال اناث	يكون
قصبة اللاذقية	٩٧	٨٦	٢١٧	١٤٥	١١	٩	٤١	٤١	١٦٥٩	١٥٢٤	٨١٩٦	٨٣٥٨	١٠٢٢٢	١٠١٦٥	٢٠٣٨٧
ناحية قرى الخزينة									١٤٨	١٤٩	٧٤٥١	٧٦١٧	٧٥٩٩	٧٧٦٦	١٥٣٦٥
ناحية البهلولية									٤١	٥٨	٢٢٣٣	٢١٢٩	٢٢٦٤	٢١٨٧	٤٤٥١
ناحية البسيط	١٦٤	١٣٥									٢٩٦٠	٢٧٢٤	٣١٢٤	٢٨٥٧	٥٩٨٠
ناحيه باير											٢٤٩٣	٢٥٨٣	٢٤٩٣	٢٥٨٣	٥٠٧٦
يكون	٢٦١	٢٢١	٢١٧	١٤٥	١١	٩	٤١	٤١	١٨٤٨	١٧٣١	٢٣٣٢٣	٢٣٤١١	٢٥٧٠١	٢٥٥٥٨	٥١٢٥٩

وبهذا يكون مجموع السكان «٥١٢٥٩» نسمة منها «٤٥٢٥» من النصارى و«٢٠٧٩٦» من النصيريين و«٢٥٩٣٨» من السنيين . وكان مقدار اللدات سنة «١٣٢٨» و «١٣٣٢» (١٩٣) و (٧٢٨) نسمة . ومقدار الوفيات في هاتين السنتين «٢٩٧» و «١٣٩٣» نسمة . اما الاتراك الموجودين في هذا القضاء الذين بحثنا عنهم في القسم العمومي . فعددهم بحسب القيود الرسمية كما يلي :

في ناحية قرى الخزينة	١٧٦٦
« « البسيط	٢٧٩١
« « باير	٣٠٢٧
يكون	٧٥٨٤

٣ — امور المعارف في القضاء

ما من امة هبت لمناضلة الاستبداد الذي يودي بحياة البلاد ومنافعها ، ويجعل آتي الامم مدفوناً في طي ظلمات رهيبة ،ويصل الى درجة تأبى الطباع لابية تحملها ؛ ونشطت لتقويض دعائمه ، ونقصته من اطرافه ثم اقامت مكانه حكم الجمهور ؛ الا وتضطر بعد ان تتكلل مساعي ثورتها بالنجاح الى الاقبال على تنسيق الامور الادارية والاجتماعية ولاسيما امور المعارف . وان الحكم الانامي العصري الذي نص عليه فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماؤه ، ودان به الثوار الفرنساويون ، لا يسلم ويبقى الا بالمعارف وبالاطلاع على العلوم الاجتماعية والسياسية التي تنقش في ادمغة الامم آيات هذه الحياة الادارية . ولهذا نرى الدولة الفرنساوية لم تهمل امر المدارس حتى في سنة (١٧٩٢) حينما كانت منغمسة في الحروب الدموية ، التي انذرت حياتها السياسية بالخطر في داخل البلاد وخارجها ، بل نهض رؤساء الثورة وخطباؤها ، وبحثوا على منابر الخطابة في المجالس الملية عن المدارس التي تهيئ لحكومة الجمهور آت يبهج وتجعل اسها متينة لا تتزلزل . لم يخطأ المؤلفون الذين يشبهون الدستور بسيف ذي حدين . لانه يحمي حقوق الامة من تعرض المستبدين ، ويرمي كاهل الوطنيين باثقل الوظائف . وان الحرية التي تتقيد بحقوق الغير يختلف تأثيرها باختلاف المحيط فهي اما تهيئ للوطنيين آت مطمئن زاهر ، او تجرهم الى مهاو الدمار . فاذا كان القوم آخذين نصيبهم من التربية الفكرية والعلوم الاجتماعية فان الوظائف والحقوق بينهم تكون معينة ، ولهذا تكون الحرية فيهم كالدليل المرشد تأخذ بيدهم جراً الى السعادة والسلامة . ويتسنى لهكذا امة ان تستحوذ على الظافر في الجدال الحيوي بسهولة . فتنكشف العلوم والفنون ،

وترقى التجارة والصناعة والزراعة بسرعة البرق ، ولا تجد احداً منهم يطغى على الآخر ، ويغضب كل منهم لما يخالف القانون ، ويعترض هكذا اعمال ويهب لاسقاطها . وهكذا فان الادارة الدستورية تقضى على الحكومة والامة معا بالتقيد ببعض القيود النافعة . فيسعى افراد الامة وهم احرار ضمن الدائرة التى ترسمها القوانين ، ويتوسلون بالوسائل الفنية لترقية زراعة البلاد وتجارتها ويجعلون لانفسهم وامتهم آت بهيجا .

وهذه النتائج الصالحة التى اكتسبتها البلاد الراقية لا يسوغ حملها على تأثير المدارس العالية . فكم فى بلاد الغرب من الاغنياء واصحاب الاراضى ، وارباب المعامل الذين انخرطوا فى الاعمال العملية قانعين بما لديهم من التحصيل الابتدائى فقط . بيد ان المدارس الابتدائية التى اغنت الطبقة الانامية عن التحصيل التالى والعالى فى البلاد الراقية ، هى مدارس جدية بمعلميها العالمين المحنكين وبابنيتها الرصينة الصحية ، وبما فيها من آلات الدراسة الحديثة . ولا بد ان يدرك الذين يتخرجون فيها جميع الحقوق والوظائف التى قضت عليهم بها حياتهم المدنية والاجتماعية . وتجدهم يهتمون لكل ما من شأنه تأمين سعادة امتهم وسلامة اوطانهم ويقبلون على الوسائل التى ترشدهم الى اصلاح اعمالهم ورقيها فيقرؤن الجرائد والرسائل والمجلات ويطلعون على تلك التدابير ، ثم لا يألون جهداً بارتياد الاخصاء وجلبهم والاستفادة من ملكاتهم العلمية والفنية .

منذ اكثر من عشر سنين ونحن فى ادارة دستورية . فلماذا يا ترى لم تقيض لنا تلك السعادة المنشودة ، ولم تحى فينا هاتيك الآمال المذهبة . وها نحن نعيش عيشة القرون الوسطى مع ان العالم يطوى المراحل الشاسعة بسرعة البرق فى اخلاقياته ، واجتماعياته ومدنيته الحقيقية ، وهذه بالامس فى العالم السياسى ، بلغاريا وصربية يظهران من العزم والانتباه ، ما جعلهما يسبقاننا بشوط بعيد ، وها نحن نتسكع وراءهما ، وهما اطفال السياسة بل اطفالنا .

لا جرم ان سبب هذا الحرمان ، بل خالق هذا الشقاء هو عدم وجود المدارس الابتدائية . وما كان انتصار الامة الالمانية على الدولة الفرانساوية سنة (١٨٧٠) ولا ظفر اليابانيين فى اصقاع مانچوريا سنة (١٩٠٥) ، وحتى ولا غلبة البلغاريين فى لوله بورغاز سنة (١٩١٣) الا بالمدارس الابتدائية التى تعلم اطفال الامة حقيقة الوطنية . اما نحن معشر العثمانيين فلم نهتم بمعارفنا بطريقة معقولة تناسب الزمان والمكان . وترى جداول المعارف لا تزال تبحث عن المدارس التى اسست فى جميع انحاء الولاية ، او تقرر تأسيسها ولا جرم ليس فيها من مؤسسة يجدر ان تسمى مدرسة . لا سيما لواء اللاذقية الذى قام فى اقصى الشمال من الولاية ، ولم يزل يتخبط فى حالك من ظلمات الجهل ، فهو مهمل بالكلية وترى مفتش المعارف فى اللواء يبحث عن اسباب هذا الحال فى تقريره الذى عرضه على

مقام الولاية ، فقال :

[لم نتمكن فى هذه السنة (١٣٣٢) من تطبيق قانون التدريسات الابتدائية . اذ يجب بموجب هذا القانون ان تؤسس المدارس الابتدائية فى كل قرية . ثم يصار الى قاعدة التحصيل الاجبارى . بيد انه لم يمكن اعداد المعلمين القادرين ، الحائزين على الشروط والاهلية للمدارس التى كفلت نفقاتها ميزانية الولاية . وهذا السبب قضى بتعطيل اكثرها ، ولو عمدنا لتحصيل النفقات من الاهالى لاجل تأسيس هاتيك المدارس ، ثم لم نتمكن من ايجادها بسبب فقدان المعلمين ، لا جرم لا يتحقق النفع الذى يتوخاه القانون ، ولربما يحدث هذا الحال فى اذهان الناس تأثيراً معكوساً . ولهذا اضربنا عن النفقات التى تقوم بها تلك المدارس . ولم نطرحها على الاهالى كما امر القانون .

اما الاجبار على التحصيل ؛ فلم يمكن تطبيقه ايضاً . وذلك بسبب ما اصاب الاهالى فى السنة الماضية من ضنك المعيشة وضيق اليد ، ثم ان الآباء والاولياء الذين تحق عليهم المسؤلية اما هم فى الخدمة العسكرية ، واما هم فى الدرجة القصوى من الفقر والحاجة . ولهذا لا يمكن تطبيق الجزاء الذى رسمه القانون . حتى اننا نرى كثيراً من الطلاب قصرت ايديهم عن الحصول على الكتب والدفاتر وغيرها من آلات الدراسة ، بسبب ترفع الاسعار . ولا جرم ان اطفال المجاهدين ، والشهداء والفقراء الذين اعتادوا على شراء عشرين لوحاً من الورق بعشر بارات يعجزون عن شراء لوح واحد منه بعين الثمن] .

ان تألم لواء اللاذقية كائن بسبب فقدان الابنية ، وعدم وجود المعلمين المقتدرين على التدريس . ويجب على الذين يتألمون لاقفار هذا اللواء من المعاهد العلمية ان يعلموا ان هذا المرض يشمل جميع انحاء بلادنا . وما من احد فينا الا ويسلم باحتياجنا الى الدواء الحاسم العاجل .

٤ — الاحوال الزراعية فى القضاء

ان الغلال السنوية فى قضاء مركز اللاذقية ، هى كما يلى :

اسماء الغلال	مقدار الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيلة
القمح	١٠٠،٠٠٠	٨٠٠،٠٠٠
الشعير	٤٠،٠٠٠	٢٨٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
الحمص	١٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠

الفول	١٠٠،٠٠٠	٨٠،٠٠٠
السمسم	٣٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
العدس	١،٠٠٠	٣،٧٠٠
الجلبان	٥،٠٠٠	٣٠،٠٠٠

ثم يستغل على الحساب المتوسط فى كل سنة مقدار (٥٠٠،٠٠٠) كيلو من التبغ فى اراضى تبلغ مساحتها (١٥،٠٠٠) دونم .

حصلنا على المعلومات الآتية من مديرية الزراعة بشأن زرع التبغ الذى هو من اهم غلال هذا اللواء :

[ان زرع التبغ فى لواء اللاذقية لم يزل معروفاً منذ قرن ونصف ، وقد تبين لنا بالتحقيق ان هذه المادة جلبت من ربوع الروم ايلى .

والتبغ الذى يستحصلونه اليوم لاجل الشرب ، له اوراق لينة كبيرة وطويلة حمراء تضرب بلونها الى الصفرة ، ورائحته لطيفة ويسمونه « شك البنت » . هذا وان وجد بعض انواع من هذا التبغ ولكن لدى الحقيقة كله جنس واحد [*] ولا يختلف الا بعظم الاوراق وصغرها نظراً لاختلاف الانحاء التى يزرع فيها من سهل ووعر

وكان جميع هذا المحصول يرسل الى اسواق مصر وقد حدث سنة (١٢٣٤) انواء عظيمة فى البحر لم تمكن ارباب السفائن من اجراء السفر ، فبقى محصول التبغ فى ايدى اصحابه وبما انه لا يوجد عندهم مستودعات معدة لهذا الخصوص اضطر اذ ذاك القرويون الى تعليقه بسقوف بيوتهم . ثم وافاهم الشتاء فشرعوا يوقدون النار في تلك البيوت على جرى العادة . فاصاب الدخان قسماً من التبغ وبخره واعتقد القرويون انه فسد .

ولما استحوذوا على المحصول الجديد فى السنة الآتية ارسلوه الى مصر وادخلوا بينه عن غفلة منهم بضعة اكياس من التبغ المبخر . ولما رآه المصريون ظنوه نوعاً جديداً وسموه « ابو ريحه » بسبب ما فيه من الرائحه الخاصة التى نشئت عن تبخيره . ولم يلبثوا ان ادعزوا الى تجار اللاذقية باشتراء كمية وافرة منه فى الموسم الآتى وبهذا كان لزراع التبغ الدخل الوافر من هذا النوع الذى ظنوه فاسداً .

ان هذا النوع من التبغ يوضع فى بيوت بنيت خاصة لاجله . وهى مستطيلة الشكل ولا يوجد فيها من المنافذ الا باب فى جهتها الغربية على طول متر وعرض (٨٠) سانتيمتراً ، مركوزة فى داخلها من الارض الى السقف اعمدة رفيعة تبعد عن بعضها مسافة نصف المتر .

[*] يجب ان نستثنى التبغ الذى جلبته مديرية الزراعة من ازمير وصامسون قبل سنتين لاجل التجربة وهو ذو رائحة لطيفة . ويكاد يتحتم نجاح هذه التجربة .

وهذه الاعمدة تنقسم الى اربعة اقسام اعتباراً من علو متر عن الارض ، ثم تتصل هذه الاقسام بعوارض . وبهذا يكون داخل البيت عبارة عن اربع شبكات فوق بعضها ، وهم ينشرون التبغ على تلك الشبكات ويبخرونه .

كيفية التبخير وزمانه — يزهر التبغ اما فى اواخر تموز او بداية اغستوس فيعمدون الى تلك الازهار ويقطعونها بساقها ومعها الاوراق التى تحتها ، ثم يقطعون من اسفل النبات ورقتين ايضاً ، ويضمون الجميع بخيط ثم يربطون الخيط بعصا رفيعة لكى لا يتدلى ويعلقونها فى الشبكة العليا من البيت ، ثم لا تلبث تلك النباتة التى قطعت ازهارها بضعة عشر يوماً الا وتزهر مرة ثانية فيقطعونها على الكيفية الاولى ويعلقون الاوراق ايضاً . ثم بعد اسبوع من العملية الثانية يعمدون الى ما بقى ويقطعونه من اسفله بالسكين ، ويفرقون اوراقه الى قسمين او ثلاثة متساوية ويعلقونه ايضاً .

وفى اول تشرين الاول ياتون من الاحراج بحشيش متوسط باليبوسة ويحرقونه فى المواقد المعدة فى تلك البيوت ويشرعون بالتبخير ببطئ . ثم يثابرون على هذا العمل فى كل يوم . ويأتون بحطب متوسط فى اليبوسة بشرط ان لا يكون من شجر الصنوبر ، ويرغب فيه ان يكون من الفصيلة البلوطية ويحرقونه فى المواقد ، ويوصدون الابواب بصورة محكمة .

ويعرض التبغ الى دخان النار . وهكذا يدوم هذا التبخير مدة (٥ — ٦) اشهر . ويجب فى التبخير ان لا يكون اثناء الطقس اليابس . لانه يسود ورق التبغ ويجعل له رائحة كريهة .

ولهذا يجب الانقطاع عن التبخير ابان هبوب الرياح اليابسة كالريح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية . ثم يجب ان لا يكون الحطب يابساً لكى لا يذهب اللهيب بلين الاوراق ، ولا يكون سبباً لحدوث الحريق واحسن الازمان للتبخير هو الذى تهب فيه الرياح الغربية الرطبة وخصوصاً ايام المطر . وعلى هذا الحال تكون ايام التبخير عبارة عن « ٩٠ — ١٠٠ » يوم .

وقد ثبت بالتجارب العديدة ان حاصل كل دونم يتراوح بين (٧٠) و(١٠٠) اقة من التبغ اليابس فى كل سنة . وينفق على كل دونم فى السنة مبلغ (١٠٠) غرش لاجل الحرث والغرس و(٥٠) غرشاً لاجل التبخير . ويتراوح ثمن الاقة بين (٤) و(١٢) غرشاً . وبه يكون الدخل الخالص فى السنة (٣٥٠ — ٤٠٠) غرش من كل دونم .

اما نفقة انشاء البناء فهى يسيرة ، اذ يمكن قيام كل بيت من تلك البيوت التى تمكن محافظتها مدة (٤٠) سنة بشرط تفقدها اصلاحاً فى كل سنة بنفقة لا تزيد عن (١٠٠٠ —

١٥٠٠) غرش . ويصدر اللواء فى كل سنة نحواً من مليون اقة من هذا المحصول . وبه يكون الدخل السنوى (٤٠—٥٠) الف ليرة] .

—٢٤—

اللاذقية

١ — موقع اللاذقية ومنظر ضواحيها

ان اللاذقية التى تقابل الانظار مبتسمةً بسمائها المضيئة وبحرها الاطلس ، ورياضها الخضراء ، ومناراتها البيضاء ؛ تلك البلدة الطيبة التى كادت ان تكون فى حضن الامواج الزرقاء التى تكللت بزبد فضى على الساحل الشرقى من بحر الابيض . والتى اخذت مبلغها من فيض محاسن هذا المحيط الممتاز ، لا تفتأ تجود على قلب الادب والشعر بدم فياض ، وعلى ألباب الادباء والشعراء رحيقا من الابداع والذوق ساحراً .

اذا نظرنا الى الجدة والنضرة فى ذلك المنظر البهيج فى تلك البقعة المباركة التى تبعث بارجى الآمال الى كل روح منقبضة ، وتفيض بابهى الانوار على كل قلب اشجاه اليأس ، وخيم عليه ظلام الحزن . لا جرم نحتاج الى تكذيب الخيال واكراه النفس على ان نؤمن بان هذه القصبة هى بلدة « رامثا — *Ramitha* » الفنيقية القديمة .

يا للعجب ما اصدق هؤلاء الفنيقيين بالذوق والانتخاب ؟ وما اضل الذين يحسبونهم اناس بيع وشراء فقط ؛ وما ابعد هذا البهتان عن تلك الامة القديمة التى حطت رحالها وخطت بلدانها ، وطرحت غياضها فى اجمل سواحل الكون تجاه ابدع ما يكون من الالوان الغربية ! ! الا يرون ان الحقايق الطبيعية فى هذه الديار الفاخرة ، هى اصدق انباءً من زخارف الصنعة واباطيلها ، الا يعلمون ان هذه المنظومة البديعة لذلك الساحل الذى لا مثيل له هى بنت دهاء تسجد لبلاغتها القصائد البليغة ، الا يسمعون فى هذا الاقليم المطرب سجع الطيور وتغريدها ، وقصف الامواج التى هى اطرب من كل نغمة ساحرة . لا جرم انهم لا يعلمون ولا يسمعون .

فبلدة (رامثا) القديمة بنت ذلك الدهاء الباهر ، هى جديرة بالتكريم والتعظيم . وهذا السبب حدى بالملك [سلوقوس نيقاطور — *Seleucus Nicator*] الى تجديد هذه البلدة اللطيفة وتسميتها [لاوديسه — *Laodicé*] باسم والدته .

ولكن يا للاسف ما تمتعت هذه البلدة قط بحسن الحظ فى طيات القرون الحالية . بل

ما زالت تطبق عليها الزلازل ، وما انفكت المحاصرات تشبعها هدماً وتخريباً . حتى قوضت عمرانها . ولولا هاتيك الكوارث لكانت هذه البلدة البسامة ابدع مما هى عليه الآن .

ومع هذا فان اللاذقية اليوم لا تزال تشف عن ابداع الفنيقيين وتتقلب كل يوم فى استحالة نورانية ، وتظهر فى طور جديد ولباس قشيب .

كانت اللاذقية من قبل منحصرة فى ساحة مستوية بعيدة عن الساحل اما اليوم فلهما القصور المشيدة التى كانت بلطافتها كالازهار فى روضة البحر . وهى لا تزال تتسرب الى الشمال على امتداد الساحل ، وتكسب القصبة بهاءً وجمالاً .

وقد كانت من قبل فى شكل دائرة ، ونراها اليوم تشبه قطعاً ناقصاً ، وتميل لان تكون مستطيلة . .

فالجانب الشرقى من هذا المستطيل محاط باراض مرتفعة ، ثم بقلعة الزيتون ، والجنوبى بحدبات « الطابيات » و « دوغردورده » ، والجهة الشمالية محدودة بحدبة « فاروس » . ولهذا تكون القصبة محاطة من انحائها الثلاث بمرتفعات ، اما ناحية البحر فيها فهى منخفضة وبه كان شكلها العمومى على ميل خفيف .

فاذا نظر الى القصبة من فوق احدى تلك المرتفعات تنكشف خطوطها الداخلية ، وضواحيها ايضاً بشكل واضح . ولاسيما اذا نظر اليها من جامع « المغربى » الكائن فى الجهة الشرقية الذى هو اعلى محلات القصبة فيرى الناظر ابدع المناظر وانضرها . لان داخل القصبة الذى خطت فيه الشوارع المتجهة الى البحر مربعات متوازية مزدانة بالرياض هو على غاية من الجمال ببياض منازله الناصعة ، وقدود مناراته الظريفة. وخارجها ايضاً لا يقل عنه لطافة وجمالاً . فتوجد فى الناحية الشمالية منها اشجار الزيتون والتين والاثمار ، ثم الرياض من بعدها ساحة تمتد مسافة ساعتين مملوءة بالرمل الاحمر النقى . ثم من ورائها فضاء واسع انتشر فى ساحاته ، وعلى رؤس هضابه كثير من القرى مثل « برج القصب » و « دمسرخو » و « المغريت » و « القلوف » و « سنجوان » و « اسقوبين » . ثم وراء ذلك اراضى ناحيتى بار وبوجاق ، ثم « جبل الاقرع » بشاهقته التى غشاها الثلج . ونوجد فى شرقيها وراء القلعة الحقول الواسعة من ورائها الغياض القائمة على امتداد ضفاف « النهر الكبير » . وبعدها جبال النصيرية ، اما فى الجهة الجنوبية فتوجد سلسلة من القصبات النضيرة على ساحل بحر الابيض الذى يسبق شعاع البصر الى ما بعد الآفاق . فتتراآى عليه قرى [المتركية والصنوبر والبصة] وتتبعها قصبات [جبله وبانياس وقلعة « قب] . وترسم الخطوط النهائية من ذلك الافق بظلها المبهم .

اما غربيها فهو عبارة عن بحر واسع لا حد له .

وقصارى القول يحق لهذه القصبة الفينيقية الاصيلة ان تفتخر مهما استطاعت لانها مشحونة الضواحى بابدع ما يكون من المناظر الزاهية .

فلتنم الروح الذكية الفنيقية ، ربة الآفاق السورية ، قريرة العين ومطمئنة الفوآد فى هذه السواحل البهيجة . لان هذه الامة النجيبة اختارت لنفسها افخر الديار مواطناً فى حياتها واقدس الاصقاع مرقداً بعد مماتها . ولا جرم ان الفنيقيين لمغبوطون فى محياهم ومماتهم ، ومشكورون .

٢ — الخطوط الداخلية فى اللاذقية

ان قصبة اللاذقية التى تشغل ساحة واسعة بطول كيلومترين ومثله من العرض ، وتتألف من [٦٠٠٠ — ٧٠٠٠] مسكن ، تنقسم من حيث نسق البناء الى قسمين واضحين .

وقد كان النسق الشامى نموذجها الوحيد فى البناء منذ العهد القديم ولهذا نرى اليوم اكثر مساكنها دمشقية النسق . وهى عبارة عن صحن مبلط ، محاط بالغرف وجميع سطوحها مظللة .

غير انهم شرعوا الآن بتقليد البيروتيين واخذوا يبنون جميع محلاتهم الحديثة على هذا النسق . ولا تزيد هذه المساكن الآن بعددها عن مائة ولكن لا بد للقصبة ان تستقر على هذا الطراز بتداول الازمان .

ويمكن تفريق الابنية الحديثة فى اللاذقية لاول نظرة . لان المساكن القديمة كلها مبنية بالحجر الاسمر الذى يسمونه « النارى » . اما الابنية الحديثة فانها تبنى بحجر ابيض يسمونه « الحجر الرملى » ، وتستر سطوحها بالقرميد الاحمر .

فمحلة (الكاملية) الكائنة على ساحل البحر فى الشمال الغربى من القصبة تتألف من هكذا مساكن ، اما محلات [الشيخ ضاهر والعوينة] فى الشمال و « القلعة والصباغين » فى الشرق و « الشحاتين » فى الشرق الجنوبى و « الصليبة » فى الجنوب يتألف معظمها من المساكن المبنية على النسق القديم .

واكبر هذه المحلات التى عددنا اسماءها ، هى محلة « الشيخ ضاهر » اما ارقاها واجملها هى لا جرم محلة « الكاملية » ثم تأتى بعدها محلة « الصليبة » .

ونرى المسلمين والنصارى فى اللاذقية يسكنون متخالطين فى محلة [الشيخ ضاهر والقلعة والصليبة والكاملية] اما المحلات الاخرى فيسكنها المسلمون وحدهم .

ويوجد فيها اكثر من (٤٠٠) حانوت يختص قسم منها ببيع الخضرة والفاكهة . وهو المحل المسمى « سوق البازار » الكائن فى محلة الشيخ ضاهر . والقسم الآخر يقطنه باعة الاقمشة » وهو فى محلتى الصباغين والقلعة . ويعثر بين المحلات على بعض حوانيت ايضاً .

وكان يوجد فيها قبل الحرب بضعة مراقص اما الآن فقد نابت مكانها ملاهى المحلات . وان هذه الملاهى وجميع الحوانيت فى اللاذقية فى حالة كسيفة وسخة .

وفيها من المؤسسات العمومية دار الحكومة الظريفة وبناء النادى ثم الثكنة . وهذه موجودة فى محلة القلعة ، اما الاخريتان فهما فى محلة الكاملية .

ويوجد هنا للمسلمين جوامع كبيرة خطيرة . واهم هذه الجوامع واكبرها هو جامع « المغربى » . ثم الجامع « الجديد » فى محلة القلعة وجامع « الكبير المصورى » فى الصباغين و « ارسلان باشا » فى الشحاتين وجامع « الصابية » فى الصليبة وجامع « صوقان » فى محلة العوينة وجامع « الشيخ ضاهر » فى هذه المحلة وجامع « الاسكلة » فى محلة الاسكلة وجامع « الشواف » قريب من دار الحكومة وجامع « الصغير » بين الصباغين والشيخ ضاهر . ويوجد فيها اثنى عشر مسجداً ايضاً .

وللنصارى فيها كنائس كثيرة . فللروم الاورتودوكس واحدة فى محلة القلعة واخرى فى الكاملية واثنتان فى الشيخ ضاهر وللمارونيين واحدة فى الصباغين وللارمن واحدة فى القلعة والمجموع ست . ثم ان للاروام فيها اسقفية فى محلة القلعة .

وتوجد غير هذه من الابنية الضخمة تكية المولويين فى محلة القلعة ومدرسة للاروام ، ومدارس « فرمر » ومدارس الشركات الاميركية والايطالية .

*
* *

وقصارى القول ان اللاذقية لا تبعد ان تلفت النظر بسعتها وابنيتها ، ولكن اتصال بعض الابنية المتداعية ببعضها ووساختها بسبب الاهمال وعدم الاهتمام جعل منظر هذا القسم من القصبة مستكرهاً تنفر منه الطباع وتمجه الاذواق .

نعم ان التجول فى تلك الطرق الضيقة المستكرهة التى طبقت عليها الحنايا فى القسم القديم من هذه القصبة لهو من العذاب الذى لا يطاق . ومع هذا فلا يسوغ لنا الطعن فى هذه البلدة بسبب شوائبها القديمة . لان فيها من الشوارع المنتظمة ما يجعلها ارجح فى الرقى من البلاد السورية الاخرى . وها نحن نذكر اسماء هذه الشوارع :

١ — الشارع الذى يبدأ من ساحل البحر ويمتد مشرقاً الى القلعة والى مقام الشيخ المغربى .

٢ — الطريق الذى يمتد من الجنوب الى الشمال ويصل الى الشيخ ضاهر .

٣ — الطريق الذى يبدأ من ساحل البحر ، ويمتد الى الشرق ويصل الى محلة الشحاتين ويسمى « شارع الحكومة » .

٤ — الطريق الذى يبدأ من الشمال ويمتد فى الجنوب الى محلة الصليبة .

٥ — الطريق الذى يبدأ من البحر وينتهى فى « سوق البازار » .

٦ — الطريق الذي يبدأ من البحر ويصل الى الصلبية من الجانب الغربي .

٧ — الطريق الذي ينعطف من وراء دار الحكومة الى الجنوب ويمر بين البساتين .

وجميع هذه الطرق التي عددناها لا اسم لها . وكلها معبـدة منتظمة . مزدان طرفاها بالاشجار، واكثر التي تبدأ من ساحل البحر تكون محاذية لبعضها .ولهذا فان اللاذقية بهذه الشوارع المنتظمة حرية بان تنسينا سقامة الطرق القديمة فيها . ومع ذلك فان تملصها من تلك الطرق الوسخة المستكرهة لهو من الاماني التي يجب ان يسعى لها .

* * *

ان المياه المستعملة في اللاذقية كادت ان تكون جميعها من الآبار . وهذه المياه عذبة ونقية في الاصل ، ولكنها عرضة لترشح وتحلب ما لا يخلو من الاوساخ ، ثم انها تتدنس بالامتياح لعدم نظافة الدلاء . ولهذا السبب ربما تكون واسطة لتفشي الامراض في البلدة وانتشارها .

ولا يخلو بيت في اللاذقية من بئر ولكن الحصول على الماء يتوقف على اتعاب باهظة وعليه لا تكون هذه البلدة سعيدة من هذا الوجه. ويوجد فيها صهاريج تملأ من ماء المطر وليس فيها من منبع لا في داخل البلدة ولا في خارجها.

ويوجد في الناحية الجنوبية في محلة الصلبية منبع راكد ينبع في داخل كهف يسمونه « ماء سندلكس» وماؤه نقي وعذب ولكنه قليل المقدار ، ولهذا لا يقوم بالحاجة .

وهذه الحاجة الشديدة حدت باللاذقيين الى التحفز لجلب الماء من موقع « توتيه » التابعة لناحية البهلولية الكائنة في الشمال الشرقي من النهر الكبير . ولكن يحتاج هـذا المشروع الى نفقة تناهز (١٠—١٥) الف ليرة . وهـذا المبلغ العظيم قضى على المشروع بالبقاء في التصور. على انه من الواجب المحتم على اللاذقيين الذين اشتهروا بغزارة الثروة ومضاء العزم ان لا يتوانوا في حل هذه المسئلة الحيوية .

* * *

وقبل ان نتم هذا البحث في بيان الخطوط الداخلية في اللاذقية ، نرى من الواجب ان نتكلم على مقاصف هذه البلدة ومحلات التنزه فيها .

ان هواء هذه القصبة لطيف ومناظرها جميلة ، ولهذا نرى كل بقعة فيها كادت ان تكون متنزهاً . على ان هناك بعض محلات معينة يقصدها اللاذقيون لاجل النزهة ويعدونهـا من مقاصف البلدة . فمنها جنينة البلدية على ساحل البحر وهي حديثة العهد .

وهذه الروضة الآن محتاجة للاصلاح والترتيب ولكن حسن موقعها جعلها مهيأة لتكون من الطف الرياض .

ويقصدها اللاذقيون عشية كل يوم ولاسيما يومي الجمعة والاحد . ويتجولون في الشارع الممتد الى الشمال على طول الساحل . وربما يتجولون في الشوارع الحديثة ليتمتعوا بمحاسن ما حولها . ثم ان موقع « الطابيات » في هذه البلدة له منظر بهيج لانه عبارة عن هضبة عالية . ومشجرات الزيتون في انحاء القلعة لا بأس بها . ورياض « الصلبية » و« عين سندلكس » او السهول الرملية الكائنة تحت القلعة كلها من المتنزهات التي يقصدها اللاذقيون .

* * *

ثم توجد في اللاذقية حنايا الظفر القديمة ودعائم ، وهي من انفس الآثار التي يجب ان ترى . وسنتكلم عنها حين البحث عن تاريخها وآثارها القديمة .

٣ — الاحوال العمومية

[١] — **قصبة اللاذقية** — ان هذه القصبة التي هي مركز ادارة اللواء الكائنة في الدرجة (٣٥,٣١) من العرض الشمالي وفي الدرجة (٣٣,٣٩) من الطول الشرقي والمبنية على هضبة ترتفع عن سطح البحر مقدار عشرين متراً ، جميلة المنظر . والسهول الموجودة في شرقها وجنوبها منبتة خصبة تسقى من النهر الكبير الذي يقطعها على امتدادها . وهذه القصبة تبعد من بابنا وجبله مسافة ثلاثين كيلومتراً .

[٢] — **عدد السكان** — كان عدد سكان هذه القصبة سنة (١٣٣٢) ٢٠٣٨٧ نسمة من الذكور والاناث . ومفرداتها كما يلي :

	الذكور	الاناث
المسلمون	٨١٩٦	٨٣٥٨
الاورتودوكس	١٦٥٩	١٥٢٤
اللاتين	١٢	٩
المارونيون	٢١٧	١٤٥
البروتستانت	٤١	٤٣
الارمن	٩٧	٨٦
يكون	١٠٢٢٢	١٠١٦٥

٢٠٣٨٧

وفى سنة (١٣٢٨) و(١٣٣٢) كان عدد اللدات فى هذه القصبة ١٩٣ و٧٢٨ نسمة ، وعدد الوفيات ٢٩٧ و١٣٩٣ . وفكرة الهجرة الى اميركا متفشية بين المسيحيين الذين يبلغون بعددهم (٣٨٣٣) نسمة .

واليوم يوجد قريب من ربعهم هناك . وبعض النصيريين والارمن المتوطنين فى قريتى « كسب » و« غنيمية » سرت اليهم هذه الروح واخذوا يقلدون انصار الهجرة الى البر الجديد . وأكثر هؤلاء المهاجرين الذين يختارون الانحاء الجوبية من اميركا يتوطنون هناك ولا يرجع منهم الا ثلاثة فى المائة . وهذا النوع من مهاجرى المسلمين لا يتجاوز ثلاثة فى المايه . ويقولون ان الاغنياء من هؤلاء الذين اقاموا فى تلك البلاد الاجنبية يرسلون الى عائلاتهم (٥٠٠) ليرة فى السنة ، أما الفقراء فيرسلون مقدار (٦٠——٧٠) ليرة . وعليه كان هذا اللواء قبل الحرب يتقاضى من ابنائه مقدار (٢٥٩) الف ليرة فى كل سنة .

[٣] — **مجمل تاريخ اللاذقية** — سمى الفينيقيون هذه القصبة (راميتا *Ramitha*) او (رامانتا *Ramantha*) ولعل هذا الاسم مشتق من اسم (بعل رام *Baal Ram*) الذى كان له معبد فى جبل الاقرع . ثم جاء (سلوكوس نيقاتور *Séleucus Nicatoor*) الذى جعل نفسه ملكا فى سورية بعد وفاة الاسكندر الكبير . فجددها مع بضعة بلاد غيرها وسماها « لاؤديسه *Laodicée* » اضافة لاسم والدته « ٢٩٠ ق . م » .

ولما زادت بسطة الحكومة الرومانية كانت سلالة سلفقوس اخذةً بالانحلال ولم تلبث ان انقرضت وبادت . ثم وقع الخلاف بين هؤلاء الحكام الحديثين فى اوائل الفتح وتجرعت البلاد بسببه بحراناً دموياً . وحينما كان الاختلاف قائماً بين العوام والخواص فى الرومانيين نصبت فرقة الاعيان « قاسيوس » وعينت فرقة العوام « دولابللا *Dolabella* » والى على سورية ، وحضر كلاهما الى محل ولايتهما . ولما نشبت الحرب بين هذين الرئيسين كان السكان منحازين الى فرقة العوام . وعليه عمد قاسيوس وسخر اللاذقية عنوة وكبدها اضرارا عظيمة . واكتسح جميع كرومها التى كانت لها الشهرة الرنانة بنفاسة عنبها .

وبعد ان قتل « ژول سزار » انقسمت بلاد الرومانيين بين انطونيوس واوقتابوس ، وكان انطونيوس لم ينس جميل اللاذقيين بمقاومة قاسيوس خصمه ولهذا ارتأى ان يجزيهم على حسن عملهم فأقال بلادهم من جميع المكوس والضرائب . ولما ثار « پسهنيوس نژر *Pescennius Niger* » احد القواد الرومانيين وطلب تاج القيصرية لنفسه ، قصد اللاذقية وهدمها . ثم لم يلبث رقيبه « سهوهر *Sevère* » ان استحوذ على الحاكمية فى روما والتفت الى اللاذقيين الذين كانوا منحازين اليه فمنحهم بالامتيازات ، وشيد فى القصبة كثيراً من المبانى الضخمة اللطيفة . وسماها « سبتيما سهورى » . اضافةً الى اسمه

(١٩٣——٢١١) .

وقد ارسل عمر ابن الخطاب (ر . ع) جيشاً فى قيادة يزيد سنة (٦٣٧) وفتحها فى زمن هراقليوس من قياصرة البيزنطيين .

وفى ايام الصليبيين سخر هذه القصبة (بوهموند) امير تارانت و« ريموند » حاكم بوهموند وطولوز (١١٠٩) ثم الحقت بايالة انطاكية بسبب صغر شأنها فى ذلك الزمن .

ثم فتحها السلطان صلاح الدين الايوبى سنة (١١٨٨) مع كثير من البلاد فى سورية الشمالية واقطعها الى اخيه الملك المظفر تقى الدين عمر . وقد عمر هذا الامير قلعتها واصلح شأنها . ولكن اعاد عليها الصليبيون الكرة بعد مدة وملكوها مرة اخرى . وبقيت فى ادارتهم الى سنة « ١٢٨٦ » حيث انتزعها السلطان قلاون منهم ، وبقيت منذ ذلك التاريخ الى الآن فى ايدى المسلمين . وقد منيت هذه القصبة بزلازل شديدة سنة ١١٥٧ و١١٧٧ و١٢٨٧ هدمت اهم مبانيها ،

وبالرغم عن تلك المصائب التى تجرعتها فى الغابر ، وانطماس كتاباتها التاريخية فان هذا القصبة لم تزل محتفظة بموقعها الخطير فى الآثار القديمة . فيعثر فى الناحية الشمالية والشرقية منها على كهوف منحوتة فى الصخر ، وعلى اجداث مزينة بالنقوش المتنوعة . وهناك مغارة قديمة تسمى « مارتوقله » لا تزال نصارى هذه الانحاء تدخلها للتبرك فى مولد « مريم » عليها السلام . وكان هذا النوع من المغارات التى اعدت لدفن الاموات ، ومعد اجتماع للنصارى فى اوائل انتشار دينهم .

ثم يوجد فى الجانب الجنوبى من القصبة جدار لا يبعد ان يكون من بقية سورها اما الجامع الموجود فى الجنوب الشرقى منها فهو مبنى فى موقع الحصار المجهز بحنية الظفر ، الذى بنى فى ايام « سبتيم سهوهر *Septime Sévère* » . وكان عرض كل جدار من جدرانه الاربع (١٣،٥) متر . وكان له باب ضخم . اما الزوايا فانها مبنية على النسق القورنتى ومزينة بالاروقة الظريفة ، والقبة التى هى عبارة عن نصف كرة قائمة على مضلع مثمن يرى فى داخلها كثير من صور الآلات الحربية مرسومة بنقش نافر . ويعرف هذا المحل عند الاهلين بالكنيسة المعلقة . وتوجد فى جانب حنية الظفر اربع دعائم . يحتمل ان تكون بقية من انقاض معبد بنى هناك .

٤ — **بلدية اللاذقية** — ان الذين لا يعرفون ماهية الانحاء الشمالية فى سوريه يظنون ان اصقاع اللاذقية المحرومة من المعارف و الزراعة والطرق هى فى حالة ابتدائية خالية من معاهد العمران . ونحن ايضاً لما فارقنا طرابلس مستهدفين الانحاء الشمالية ، ورأينا تلك القرى الخربة التى لا نصيب لها حتى ولا من العمران الابتدائى كنا على عين

الرأى ، ودخلنا اللاذقية ونحن نتوقع ان نرى قرية على ذلك النسق غير انها كثيرة السكان ولكن مرحى لحلتها الجديدة فانها ما لبثت ان اضطرتنا لتبديل هذا الظن . ومع هذا فلا نحسب ان لبلديتها همة فى اعمار القصبة .

وان الاقوام ، بل الامم التى تكون مثلنا لا نصيب لها من الرقى العصرى لا تجد بداً من ان تتبع فى حياتها الاجتماعية كبرائها وآمريها. فيكونون لها بمثابة الوصى الذى كملت عنده السيطرة .

ولهذا لا ترون وال ولا متصرفاً ، بل حتى ولا قائمقاماً يتبع خطة يتوخاها فى ادارة المحل الذى ولى امره ، الا وترون آثار تلك الخطة منطبعة فى ذلك المحل . وان ما نقوم به من الاصلاح والاعمار يكون فى اكثر الاحيان من آثار ميول وآراء شخصية محضة اكثر من كونه ناشئاً عن خطة منتظمة قرر عليها وثوبر على تطبيقها . ولهذا لا يسوغ لنا ان نعجب لعدم شمول ما نراه من الآثار فى بعض انحاء الولاية . وهذه اللاذقية هى اكبر دليل نستشهد به على صدق دعوانا .

وجد فى اللاذقية قبل بضع عشرة سنة متصرف نزيه الطبع ، بعيد الهمة ، محب للانتظام ، اسمه « شكرى باشا » فلم ترق فى عينه حالة هذه القصبة لانها كانت عبارة عن بيوت متلاصقة ، محصورة فى ساحة ضيقة ، وطرقها التى هى عبارة عن مضايق ، او انقاب كانت كلها مسقوفة ، حتى لا تكاد تنفذ الشمس اليها مملوءة بالعفونة والاوساخ بدرجة لا يمكن تحملها .

ومن جهة اخرى كان مأمورو الحكومة يسكنون فيها فى اوكان متداعية ضيقة لا يصل اليها الهواء . ولا تنطبق على حيثية الحكومة وشرفها . ولهذا فان هذه الحالة التى تمثل حياة الاجيال المتوسطة ، لم ترق فى عين هذا الهمام ، فعمد الى الساحة الفارغة الكائنة بين القصبة والبحر ، وخط فيها طرق المحلة الحديثة ، وازمع على تشييد دار للحكومة فى تلك الساحة لا يرى لها مثل فى بقية البلدان من حيث انطباقها على القواعد الصحية ونظافتها وحسنها . ولاجل الحصول على نفقة هذه البناية طرح على كل رزمة من تبغ «ابو ريحه» الذى يصدر الى البلاد الاجنبية ثلاثة غروش ، وطرح مكساً يسيراً على بقية الاموال الصادرة ، والواردة ، فتوفر له مبلغ كاف من هذا المكوس التى خف الى ادائها الاهلون بارتياح عظيم . فصرف منها (٣٣٠٠) ليرة وشيد دار الحكومة الحالية على احسن ما يكون . ثم عبدمن طريق اللاذقية — جسر الشغور مقدار (١٧) كيلومتراً ، وفتح طريقاً آخر بين اللاذقية وقرية « سرخو » التى تعتبر كمصطاف للاذقيين . وجميع هذه النفقات كانت من هاتيك المكوس .

وعوضاً عن ان يلتهم هذه المبالغ التى تقاضاها من افراد الامة كما كان شأن معاصريه،

لم يكتف بصرفها فى غايته الاعمارية بل عززها بانفاق مبلغ طائل من ثروته ايضاً . ولا جرم ان الاوطان مديونة بالشكر لهكذا مصلحين نادرى الوجود ، لا يدخرون وسعاً فى طريق اعمارها .

وبلدية اللاذقية التى لا تفرق شيئاً عن بقية البلديات بعدم ادراك ماهية وظيفتها ، كان لها من الدخل سنة (١٣٣٢) مقدار «٢١٢٦٧٨» غرشاً ومثله من الخرج.

ولم تكن حتى العهد القريب لهذه القصبة البديعة فى منظرها حديقة عمومية . وعليه عمدت ادارة البلدية قبل سنتين وسعت لازالة هذا النقص واسست فى احسن موقع من الساحل حديقةً منتظمةً انفقت عليها مقدار «١٥٥٠٠٠» غرش .

وهذه البلدية التى حاولت ان تثبت لها وجوداً باقامة هذا الاثر الذى من شانه تنمية الاذواق البديعة فى الخلق . فهى اما عاجزة عن تنظيف الاوساخ المرتكمة فى طرق القصبة الضيقة المتعفنة ، او متكاسلة فى ايفاء الوظيفة . مع انها قادرة بما لديها من الدخل ان تقوم بالاعمال المهمة التى تنفع السكان وتنطبق على مصلحتهم .

[٥] — **المعارف** — لا تزال معارف هذه القصبة تتقلب فى ادوار مهمة منذ اربعين او خمسين سنة . وبينما كنا محرومين من معاهد العلم والمعارف ، نهضت جمعية «بره سبيتهرين» الاميركية سنة (١٨٥٩) وارسلت الى اللاذقية وفداً فى رياسة المبشرين «ميسر دودس Dodds » و« ميستر بيتى Beattie » لاجل تعميم البروتستانتية بين النصيريين والارمن. وهذه الهيئة التى ما فترت همتها منذ ذلك الزمن الى الآن ، تمكنت من تأسيس اربعين مدرسة فى قصبة اللاذقية ، وبذلت كل ما يمكن بذله فى طريق غايتها الدينية حتى تسنى لها تنصير ثلة من فقراء النصيريين ، وقسم مهم من سكان قريتى « بجمره وجندره ». وقد شعر « ضيا باشا » الذى كان متصرفاً فى اللاذقية قبل عشرين سنة بوجوب التذرع بالتدابير التى تقف امام هذا التيار البروتستانتى الذى لا ينطبق على الحرية الدينية المؤيدة بجميع القوانين الاساسية . فعمد الى عشر قرى من قرى النصيريين واسس فى كل واحدة منها جامعاً ومدرسة ، وبعث اليها الواعظين والمرشدين . اما الآن فنرى تلك المعاهد التى نشأت عن اندفاع ملى جدير بالاجلال والتكريم مهملةً تداعى اكثرها واندثر .

وميزانية هذه السنة قضت بوجود (١٧) مدرسة ابتدائية فى جميع اللواء ، غير ان فقدان المعلمين اوجب الاكتفاء بتأسيس «١١» مدرسة كلها تدار بالوكالة . ولا نجد لدى الاهالى رغبة فى هذه المدارس . فاذا علمنا ان مجموع الطلاب فى جميع هذه المعاهد العلمية لا يزيد عن (٢٥٠ نسمة)، لا جرم نطلع على درجة تأثيرها فى ذلك المحيط .

اما المدارس الاجنبية فكان لها قبل الحرب موقع خاص . وكانت فى هذه القصبة

مدارس للذكور والاناث تخص اللاتينيين ، والروس والاميركان والفرمر . وقد عطلت بعد اشهار هذه الحرب ولم يبق منها الا مدارس الاميركان . ويروى ان قد كانت لنصارى هذه الاصقاع رغبة عظيمة فى تلك المدارس . اما المسلمون فكان مقدارهم فى مدارس الفرمر خمسة فى المائة ، وفى مدارس الاميركان اثنان فى المائة . ويدعى بوثوق ان مدارس الفرمر كانت راجحة على جميع تلك المؤسسات الاجنبية بجدية د أستها . اما المدارس الاميركية فيوجد فيها مقدار (٤٠ — ٥٠) طالب وطالبة من قسم الداخلى المجانى و (١٠٠ — ١٢٠) من الطلاب الخارجية . ودرجة التحصيل فيها بسيطة للغاية . ولا يشتغل معلموها الا بدس الروح النصرانية البروتستانية . وبهذا يزيدون هذه الربوع المقفرة من العلم عمهاً وضلالةً .

[٦] — **الاحوال الاقتصادية فى اللاذقية** — اذا اردنا ان ندرس الاحوال الاقتصادية فى احد البلاد يجب علينا اولاً ان نطلع على مصادر حياة اقوامها ومقدار ما عندهم من القدرة الدماغية والعضلية . ويعتقد « راتزه ل *Ratzel* » العالم الالمانى بان البشرية وهممها هى من الحادثات الجغرافيــة . ويقول ان تلك الهمم لا تقوم الا بالآثار التى يشعر بهـا كالطرق ومجارى المياه ، والبلدان والزراعة والصناعة . ويرى ان لا بد من آثار فى التراب تدل على وجود ابناء البشر عليه .

ولهذا لا بد للاحوال الاقتصادية فى جميع البلاد ان تكون لها رابطة قويــة فى الموقع الطبيعى والجغرافى فيها ، ولا جرم ان اهم الاسباب التى صعدت بانكلترا الى مقامها الباذخ فى التجارة ، هى ثروة بلادها الطبيعية ، وموقعها الجغرافى . وهكذا الحال فى الالمانيين الذين حركوا بعلو موقفهم الاقتصادى حسد الاقوام الساكسونية ، فان مناجم معادنهم ، واحراج بلادهم ، وانهارها لها الحظ الاوفى فى تلك المكانة الاقتصادية .

غير انه لا يسوغ ان نعطف اسباب الرقى الاقتصادى فى بلدة ، او اسكلة ما على الموقع الطبيعى فقط . ولهذا لا يصح ان نسند الرقى التجارى فى انكلتره الى حالة نهر التايمس ، او الى بحيرات اسقوجيا ، او الى سواحل بلاد الغال فقط . لان اسباب رقى انكلتره الاوروبية لا تنحصر فى اوروبا ، بل هى شايعة فى جميع اقطار الكون ، وهكذا لا يكفينا فى ايضاح غناء المانيا ان نطلع على حالة سواحل پومه رانيا ، وعلى كثافة احراج باويرا وعليه فان الاستناد على الاسباب الموضعية فى ايضاح الحالة الاقتصادية لاحد البلاد يكون خطاءً محضاً .

ثم يجب ان لا نسرع فى الحكم . ونقول ان الاستعداد الطبيعى فى المحل الفلانى كذا ، فيكون رقيه الاقتصادى كذا . وعلينا ان لا ننسى ان الاستعداد الطبيعى يختلف باختلاف

الاحوال السياسية والاخلاقية والاجتماعية فى الاقوام التى تقطن تلك الانحاء .

وامتزاج القوى الطبيعية بالمساعى البشرية هو الذى يخلق قوة البلاد وثروتها . وبانضمام سخاء الاولى وكرمها الى ذكاء الثانية وهمتها ، وسويتها العلمية والفنية ، يتسنى للامم ان ترقى الى ذرى العظمة والسلطان . وهذا يطلعنا على ان لا يمكن لكل امة ان تستفيد بدرجة واحدة من الثروة والاستعداد الطبيعى . فمنها من تستطيع تزييد هــذا الاستعداد ، وتحظى بمنافع عظيمة كالسيونيست فى فلسطين ، ومنها من يتوسط فى الاستثمار ، ثم منها من لا يعلم قيمة تلك الثروة والاستعداد فيعيش عيشة سافلة . وهذه تختلف باختلاف الاوصاف الاخلاقية والسجايا التربيوية فى الاقوام والامم والحكومات . وهكذا فان لحسن المعاشرة والاتحاد السياسى فى تلك الاقوام التى وصفت بالصبغة السياسية تأثيراً عظيماً فى رقيها وانحطاطها .

لا تأثير لشكل الادارة فى الحكومات من حيث الوجهة الاقتصادية مشروطة كانت او جمهورية او مطلقة . بل الامر الذى تدور حوله الشؤن الاقتصادية ، هو الامن والانتظام والتحابب والاتحاد والعدل والانصاف فى الداخــل ، وجسارة تلك الامــة وشجاعتهـا تجاه الخارج .

ويمكننا اجمال هــذه الملاحظة العمومية وتطبيقهـا على بلادنا ، وحتى على لواء اللاذقية منها .

ان لواء اللاذقية الذى يشغل الاصقاع الشمالية من الساحل السورى ، هو من المواقع التى يجب ان لا تهمل من حيث التجارة والاقتصاد . ثم ان خصب تربتــه وكفاية مياهه الجارية لاسقاء حقوله ، ووجود السواحل المجهزة بالمرافئ الطبيعية فيه كلها تدل على كمال استعداده الطبيعى .

غير ان السكان التى تقطنه هى فى اشد الحاجة للتربية الفكريــة والاقتصادية . وهؤلاء السكان الذين جملتهم الجهالة يعتقدون بخرافات ترفضها افكار الصبيان ، خصوصاً النصيريون منهم لن يستطيعوا استثمار تلك الاتربة المنبتة والاستفادة من ذلك الموقــع البحرى الذى لا مثال له . وقد اخبرنا المؤرخون ان اسياف البحر اعتبـاراً من شمال اللاذقية الى اقصى الجنوب كانت فى القرون الاولى تدر بخير عميم . اما الآن فان ثلثى اراضى جبله ، ومعظم سهول اللاذقية وصهيون وبانياس محرومة من الزراعة . ويحمل البعض اسباب هذه العطلة على طغيان النصيريين وجورهم . نعم ان الانحاء التى تكون محرومة من الامن والانتظام لا يمكن ان ترقى فيها الزراعة ولا الصناعة ، ولا تنتظم فيها الاحوال الاقتصادية .

ولا استفادة لهذا اللواء اليوم الا من التبغ والبيض وقليل من الحبوب رغماً عما فيه من الارض المخصبة . وهذه الثروة التى تحيكها تلك الايدى الجاهلة الخرقاء لا يمكن ان ترقى ما لم يكن لها وصى مدنى يهمه خيرها ونفعها . والا فانها تبقى على ما كانت عليه من

قبل اربعين سنة . وهذه الارقام تفصح لنا عن صدق دعوانا .

السفائن التى مرت بمينا اللاذقية

		طون
سنة ١٣١٥	باخرة	٣٤٨٦٠
	شرعة	٦٤٦١
سنة ١٣٢٠	باخرة	٧٣٨٨٤
	شرعة	٦١٥٢
سنة ١٣٢٨	باخرة	١٣٥١٦٣
	شرعة	١١٧١١
سنة ١٣٣٠	باخرة	١٨٨٠٩٤
	شرعة	٧٦٥٣

ثم اذا لم يحور نظام (ادارة الدخان) — رژى — الذى مر ذكره اثناء البحث العام، وخفض من غلواء هذه الشركة المتغلبة ، لا يمكن اصلاح زراعة التبغ ورقيها البتة .

ومن اعظم المؤثرات التى تؤخر اقتصاديات هذا اللواء وتضر بصالحه ، عدم وجود الطرق المعبدة فيه ، وفقدان المرافئ المحفوظة التى تسهل اصدار حاصلاته . ومن السذاجة ان نعتقد برقى تلك الاصقاع وفلاحها ما دام سكان جبال النصيرية لا يعرفون صديقاً لارواحهم الا السلاح ، وما لم يعدلوا عن فكرتهم التى تقول بلزوم افناء الحياة فى اشد المذاب بين تلك الصخور الصلداء التى لم ينفذ اليها نور العلم ولا مرشد المدنية منذ قرون كثيرة . فاذا مهدنا لهم الطرق وشيدنا المرافئ ، ثم اذا عمدنا الى افكارهم التى عشمش فيها الجهل فانرناها بالعلم ، فهنالك ترقى الزراعة والصناعة ويتسع نطاق الاقتصاد وتتوفر للبلاد كل سعادة .

[٧] — **مرفأ اللاذقية** — يوجد فى اللاذقية مرفأ طبيعى صغير مسور بسد ناقص لصد الامواج طوله ثمانون متراً وعرضه ثلاث مترات يبدأ من خربة القلعة التى بنيت عليها منارة المرفأ ويمتد الى الشمال الشرقى حيث يتصل بالساحل. ويستوعب مقدار [٤٠— ٥٠] شرعة يتراوح حجمها بين (١— ٨٠) طناً . ومعظم ما يستوعب اربع باخرات يتراوح حجم الواحدة منها بين (١٠٠— ١٣٠) طناً . ولكن لم يسبق ان دخله غير الاشراع ذلك لان

مدخله ضيق للغاية ، ولا يتجاوز عمقه (٣— ٤) باعات ، مردوم بالاحجار التى سقطت من انقاض القلعة بمرور الايام .

وعليه يمكن للاشراع الصغيرة ان تدخل من هذا المدخل وتصل الى منتصف المرفأ ولكن لا يتيسر للضخمة منها ولا للباخرات دخوله ، وعليه لا بد لهذه السفائن من الارساء فى الجهة الشمالية بمسافة نصف ميل عن مدخل المرفأ .

وتمر بهذه الاسكلة فى السنة على الحساب المتوسط (٦٠) باخرة يبلغ مجموع حجمها (١١٥٠٠٠) طن و(٢٠٠٠) شرعة مجموع حجمها «٢٢٠٠٠» طن وبناء على وفرة الوسائط النقلية البحرية وسهولة شروطها يصار دائما لاستعمال هذه الواسطة بالنقل .

ويجب لاجل توسيع التجارة البحرية فى هذه البلدة اولاً كرى المرفأ وتنظيفه من الرمال والوحول التى كادت تملئه ، وتعميقه بمقدار خمسة باعات على الاقل، واخراج الاحجار الموجودة تحت البحر فى ناحيتى المدخل . ثم ان ارتفاع السد ليس بكاف . ولا تزال الامواج تقتحم اعلاه عند حدوث الانواء ولهذا السبب تداعى اكثر اطرافه . وعليه يجب اتمام ارتفاعه واصلاح ما يوجد فيه من الخلل .

وبنى هذا السد سنة ١٣٢٦ ولكن لم يتم. ثم لم تطرح امامه من ناحية البحر حوائل من الاحجار الصناعية لكسر سورة الانواء وما زالت تنطحه الامواج حتى تصدع وتمزق من اكثر انحائه . وهو الآن متصدع فى وسطه من محلين ، وقاعدته متداعية ايضاً . ولا جرم ان تمادى هذه المؤثرات لا بد ان يزيد فى تداعيه .

اما عمق الماء فى داخل المرفأ فهو مختلف . ففى المدخل يتراوح بين (٣،٥— ٤) باعات وفى منتصف المرفأ يتراوح بين (٥٣،٥— ٣،٥) باعات . اما عمقه فى القسم الداخلى فيتراوح بين (١،٥— ٢) من الباعات . ومقدار الماء فى موقع الاسكلة لا يتجاوز اربعة اقدام . وبما ان المرفأ غير واسع. فلا يمكن ان تدخله بعد اصلاحه الا السفائن التجارية التى لا يزيد حجمها عن (١٢٠٠) اما السفائن التى يكون حجمها اكثر من هذا فلا بد من ان تتكبد المشاكل .

٤ — الاحوال الاجتماعية فى اللاذقية

[١] — **الحياة العمومية والاجتماعية** — اذا نظرنا الى الجداول الرسمية يجب أن نعتبر سكان اللاذقية نحواً من عشرين الف من النسمات . اما اذا اطلعنا على ما يدعيه بعض اللاذقيين الذين لهم المام بحقيقة الامر يجب ان نصعد بهذا المقدار الى (٢٥٠٠٠) نسمة . واربعة اخماس هذا المجموع تتألف من المسلمين السنيين والخمس الآخر من الروم الاورتودوكس

والمارونيين والارمن والبروتستانت واللاتين المسيحيين .

فيقسم مسلمو اللاذقية من حيث الحياة العمومية الاجتماعية الى ثلاثة اقسام : الاغنياء والطبقة الوسطى ، والعوام .

ان منسوبي الطبقة الاولى اصحاب الاملاك والاراضي والذين لديهم الثروة الضخمة هم عبارة عن سبع اسر . ويوجد بين افراد هذه الاسر اشخاص لهم من الثروة النقدية ما يتراوح بين عشرة الاف وخمسين الف ليرة ، ومن الدخل السنوى ما يتراوح بين (١٠٠٠—٤٠٠٠) ليرة .

ويوجد بين اصحاب الاراضي من يشتغل بالزراعة فقط ؛ ومن يتعاطى التجارة . فالذين يشتغلون بالزراعة يولجون باعمالها شركائهم من القرويين . اما التجارة في اللاذقية فهي عبارة عن تجارة التبغ والبيض .

ونخمن الاموال المنقولة وغير المنقولة التي تملكها هذه الاسر السبع بمقدار نصف مليون من الليرات . وعدد افراد هذه الاسر يبلغ نحواً من (٥٠٠—٦٠٠) نسمة رجالاً ونساء . والبعض بين هؤلاء الاسر المبلحجة يعيشون عيشة منتظمة راضية . فمنازلهم المنسقة على طراز مدني . ونسق عيشهم يدلنا على انهم لم يهملوا امر الانتفاع من ثروتهم بل اتخذوها ذريعة لرفاهيتهم وتحسين عيشهم . وجميع منسوبي هذه الطبقة في اللاذقية يتوخون في لباسهم الطراز الحديث .

غير اننا نجد جميع افراد هذه الطبقة الذين يظهرون بمظهر الترقي والتمدن ، هم في مترتبة من البضاعة العلمية . ويوجد بينهم اسرة واحدة لافرادها نصيب من التحصيل بالتالي ، اما الآخرون فانهم محرومون من هذا الجهاز الحيوي . وهذا الانحرام حال بينهم وبين الاستفادة التامة من ثروتهم الوافرة . وجعلهم عاجزين عن خدمة بلادهم واعلاء شانها . لاسيما وان هذا الحال حدى بهم الى الانهماك في اللذات والاذواق .

ومع هذا فان لهم في الحياة الاجتماعية سيراً حسناً . لان المزارعين في اراضي هذه الطبقة كلهم من النصيريين ، واملاكهم جميعها محاطة باراضي جبله وصهيون التي اشتهر اربابها بالخشونة والقسوة في الحياة الاجتماعية .

ولهذا لم يجدوا سبيلاً يمكنهم من التسلط والاستبداد . وعليه كان ارباب هذه الطبقة على غاية من الانس والانسانية ، وهم اهل قرى ايضا غير ان في حالتهم الروحية ميلاً للانهماك في الاذواق والملذات .

وقصارى القول ان افراد هذه الطائفة لم يؤثر عنهم انهم ذوو شر وفساد ، او سيطرة ينتفعون بها باضرار غيرهم ، كما انهم ليسوا بارباب لطف وعناية بالناس ينفعونهم بوفرهم الطائل . فيجب ان نتلقاهم فئة تتألف من اناس هادئ الطباع ، معتدلي السير يحبون

الاحتفاظ بالموجود .

*
* *

اما الطبقة الاجتماعية الثانية في المسلمين فهي عبارة عن اوساط الناس . وعدد عائلات هذه الطبقة يربو على «٥٠» وعدد افرادها يتجاوز «١٠٠٠٠» نسمة .

فاذا علمنا ان ثروة كل عائلة من هذه العائلات تتراوح بين «٢٠٠٠» و«٦٠٠٠» ليرة ، ودخلها السنوى يتراوح بين «٢٠٠» و«٥٠٠» ليرة يتضح لنا ان مجموع قيمة اموالهم المنقولة وغير المنقولة لا يقل عن «٢٠٠—٣٠٠» الف ليرة .

وهذه الطبقة ايضاً تشتغل بالزراعة والتجارة . ولا تختلف معيشة هؤلاء عن معيشة ارباب الطبقة الاولى الا انها انقص منها بدرجة ، ولا يمكن العثور بينهما على فرق ملموس من حيث الموقع الاجتماعي . فاذا اغضينا عن كمية الثروة نستطيع ان نعتبر هاتين الفئتين طبقة واحدة . بيد ان ارباب الكسوة العلمية ، والذين اشتهروا بدراسة العلوم الشرعية ، كلهم من افراد هذه الطبقة . وبه كان لهذه الطبقة المس ارفع سوية من اناس الطبقة الاولى . وربما يعثر لديها على هكذا اوصاف من حيث المسعى ايضاً .

وبما انهم ليسوا على درجة من الرفاهية ورخاء العيش يضاهون بها الطبقة الاولى نراهم اشد اقتصاداً في الحياة الاجتماعية ، واهدأ طباعاً في الحالة الروحية . ثم اذا نظرنا فيهم نظرةً عامةً نجدهم من حيث التحصيل اشبه بسكان القرى ، كما هو الحال في الطبقة الاولى .

*
* *

اما الطبقة الاجتماعية الثالثة فهي عبارة عن السواد الاعظم من الخلق . وهي تتألف من الذين يشتغلون بالنوتية او بيع الخضرة ، او من زراع البساتين ، او العمال وغيرهم من الصنوف الاجتماعية .

يكتسي ارباب هذه الطبقة الاردية والسراويل ، ويلبسون في رؤسهم طرابيش . وعيشتهم منغمسة في الفقر . واكثرهم يسكن في محلة «الشحاتين» و«الصباغين» . ومع هذا لا يقل دخل احدهم عن (٢٠٠٠—٣٠٠٠) غرش في السنة ، اما الحياة في اللاذقية فهي رخيصة هينة ، فيتسنى لافقر عائلة ان تعيش بدخلها عيشةً لا بأس بها . ويسهل على كل احد في هذه البلدة ان يجد لنفسه عملاً . ولهذا يندر فيها وجود من يسقط في درك الذلة والمهانة .

غير ان تحصيل افراد هذه الطبقة ناقص ، وعدد الذين يحسنون القرائة والكتابة فيها قليل .

وعدد الذين يحسنون القرائة والكتابة بين جميع مسلمى هذه البلدة يناهز عشرين من المائة فى الرجال وخمساً منها فى النساء. ثم يوجد بينهم ستة او سبعة اشخاص من متخرجى المدارس العالية، وقريب من مائة من دارسى العلوم الشرعية. اما الباقون فتحصيلهم يسير جداً. وهذا يدلنا على انحطاط السوية الفكرية فى اللاذقية.

*
* *

اما نصارى للاذقية؛ فان اربعة اخماسهم من الروم الاورتودوكس، والخمس الآخر من بقية الطوائف. ومعظم الثروة يوجد فى ايدى الاروام. ولهذا فان موقع بقية الطوائف المسيحية بالنسبة الى الاروام، موقع حرمان بحت.

والحياة الاجتماعية فى هؤلاء الاروام تماثل حياة الطبقات الاجتماعية الاسلامية. ويوجد فى طبقتهم الاولى اسرتان هما ارجح وارقى من نظرائهما المسلمين سواءً فى الثروة او فى نسق العيش. وثروة كل واحدة من هاتين الاسرتين اللتين حصرتا تجارة «ابو ريحه» فى ايديهما تتراوح بين (٦٠—٧٠) الف ليرة، ودخلهما السنوى لا تقل عن (٦—٧) آلاف ليرة.

ثم ان حسن الترتيب والنظام فى منزل هاتين الاسرتين والمدنية التى تتجلى فى نسق عيشهما وحياتهما بارزة ملموسة. ولديهما شابان تخرجا فى مدارس الغرب، ولهما مؤلف بالفرنساوية يبحث عن الصناعة والزراعة فى سورية جدير بان يكسبهما ثناءً وتقديراً.

ويوجد فى الطبقة الوسطى بين المسيحيين بضع عائلات افرادها من ارباب الاملاك، اما افراد الباقيات فيشتغلون ببعض المهن والصنايع. ونرى الطائفة المسيحية اسبق وارقى من جارتها المسلمة من حيث المزية العلمية والسوية الفكرية. فاذا قسنا هاتين الطائفتين ببعضهما مع مراعاة عدد افرادها. نجد عدد الذين يحسنون القرائة والكتابة من رجال المسيحيين اكثر من المسلمين. اما نساؤهم فانهن ارقى بكثير من النساء المسلمات. لا نقصد بهذا الرأى ان المسيحيين هناك هم على غاية من الرقى. ولكن لا بد ان نعترف بانهم ارقى من المسلمين من حيث المعرفة بالقرائة والكتابة.

وان النصارى هنا لهم رابطة قوية بالدين ولربما كانوا متصلبين اكثر من المسلمين. وعليه تكون الطائفتان على عين الشاكلة من هذه الوجهة

*
* *

وقبل ان نتم بحث الحياة الاجتماعية فى اللاذقية نرى ان نستطرد ونبحث نبذة عن الحالة الاجتماعية فى قضاء مركز اللاذقية.

اذا صرفنا النظر عن سكان قصبة المركز نجد ان عدد سكان هذا القضاء يربو على

(٣٠٠٠٠) نسمة. ونصف هؤلاء من النصيريين، وثلاثة ارباع النصف الآخر من التركمان والسنيين. والربع الآخر من مختلف الطوائف المسيحية.

فالنصيريون الذين يسكنون فى قضاء المركز، يشتغلون بالحراثة والزراعة. ومنهم بضع عشرة من العائلات التى تملك اراضى تتراوح قيمتها بين (١٠٠٠) و (٢٠٠٠) ليرة. ودخلهم السنوى يتراوح بين (٢٠٠) و (٥٠٠) ليرة.

وهؤلاء النصيريون يشبهون سكان السواحل، او قطان الاسياف من نحى جلدتهم. ولهذا لا نجد فيهم تلك السجايا والخلال الموجودة فى قطان الجبال من اخوانهم.

وبما ان اكثرهم مزارعون فى اراضى اغنياء اللاذقية، تكون السكينة وهدو الطباع امراً طبيعياً لهم. لاسيما وان ظلم النصيريين الصهيونيين اياهم، وتعديهم على حقوقهم، جعلهم اقرب قلوباً، واميل نفوساً الى اللاذقيين.

ومن العبث ان نرتاد الرفاهية فى عيش هؤلاء النصيريين، او الصلاح فى حالتهم الفكرية. لانهم ثلة من فقراء الناس ومساكينهم.

ثم ان النصارى فى قضاء اللاذقية ليسوا على شئ من الاوصاف الخاصة. اما السنيون الذين هم ثلاثة اثمان السكان؛ فهم مقدار (٥٠٠) نسمة من العرب يسكنون فى قرى «البساتين والريحان وقيناص». والباقون يسكنون انحاء «الخزينة وباير وبوجاق». وبما اننا سنتكلم عن التركمان الذين يسكنون تلك الانحاء فى مبحث خاص، لا نرى لزوماً الآن لتكرار البحث.

[٢] — *العادات الاجتماعية* — نريد هنا ان نبحث عن بعض العادات التى لها اوصاف خاصة عند اللاذقيين. ونبدأ منها بالزواج.

ان مسئلة المهر عند المسلمين هى من اهم مسائل الزواج. ولهذا يطول الشرح فيها حتى تحسم. وعندهم ميل شديد للتغالى فى المهر. وربما يبلغون به الى (٤٠٠) ليرة. وبعد حسم هذه المعضلة يهون الامر، فاما ينتج اتفاقهم بما يسمونه (الخطابة) وهى عبارة عن ترسيم وتسمية، او بمباشرة عقد النكاح. ومن عاداتهم اجراء العقد او الخطبة فى بيت العروس، ثم لا يتغالون فى الاحتفال به بل تكون تقاليدهم عبارة عن قرائة المولد الشريف فقط، وهذا اما تكون فى ليلة الاثنين او الجمعة. وتقضى عليهم العادة بعد الخطبة بارسال هدية الى المخطوبة من خاتم او قرط. وباعداد ليلة انس وطرب فاذا اكتفى فى بادئ الامر بالخطبة، يكون عقد النكاح يوم العرس او قبله بيومين، ويعقد نهاراً.

ويجب على الخاطب ارسال الصابون والقهوة والحناء، والصلصال المطيب، الى بيت

المخطوبة قبل الزفاف باسبوع ، ويسمون هذه الهدية « ميده » اى مائدة .

ثم تحتفل عائلة العروس بترتيب دعوة الحمام للنسلة ، فيرسلون الى كل من يريدون حضورها فى الحفلة قطعة من الصابون تقوم مقام الدعوة . وتكون هذه الحفلة قبل العرس بيومين او ثلاثة ايام .

وهنالك يرسل الجهاز من بيت العروس الى منزل العريس . وكان من عوائدهم ارساله بضرب الطبول والزمور . اما اليوم فقد هجروا تلك العادة .

وفى ليلة الزفاف يدعى العريس الى بيت احد اصدقائه . وتهيء له آلات الطرب هناك او يقرؤن المولد الشريف . وبعد ان يلبث العريس هناك حتى منتصف الليل . ينعقد موكب الزفاف فتتقدم المصابيح ، وآلات الطرب امام الجمع ويلتف حول العريس اقاربه واصدقائه ويوصلونه الى البيت ، وهناك توجد حفلة النساء . فيتلقين العريس بالاهازيج ويصرخن « لو ، لو ، لو » . وتقضى عادتهم على العريس وابيه واخوته ان يقدموا للعروس هدية صباح ليلة الزفاف .

وربما تتسلسل ليال السرور بعد ليلة الزفاف وتدوم فيها الافراح ، ويجب على الزوج ان يدعو الى بيته حماه وذويه وجميع اقارب العروس فى يوم مخصوص ، وتسمى هذه الدعوة عندهم « ردة الرجل » . وبعد العرس بشهر يجب على اب العروس ان يدعو صهره وجميع ذويه . ويسمون هذه الدعوة « بوسة اليد » . ولا بد من تقديم الهدايا فى جميع تلك الدعوات . والمهر المؤجل عندهم يكون بمقدار ثلثى المهر المعجل . او ثلثه او ربعه .

ويندر فى اللاذقية وجود تعدد الزوجات . وهو منحصر فى بضعة اشخاص . ويؤثر عنهم انهم اقاموا لكل زوجة منزلاً على حدة .

ويرغبون ان تكون اولادهم ذكوراً ، ويحتفلون بختانهم ، وختمهم القرآن احتفالاً عظيماً .

وتحمل الاموات فى اللاذقية بتابوت مكشوف ، ويكتفون بسترها بغاشية . ويروى عنهم انهم يتحاشون من استعمال التابوت المستور لئلا يتشبهون النصارى الذين يضعون امواتهم فى مكذا توابيت .

ولا تمشى النساء وراء الجنائز . بل تشيع من قبل الرجال باتم الهدوء والسكينة . ومن عوائدهم زيارة قبور الصالحين مثل « الشيخ محمد المغربى » و « الشيخ صالح الطويل » و « الامام البطرنى » و « الامير موسى » و « ابى الدرداء » و « الشيخ سعيد » . وكثيراً ما يبيتون مرضاهم فى تربة (الامام البطرنى) و « ابى الدرداء » . ويعتقدون انهم يبرأون من مرضهم بهذه الوسيلة . ثم عندهم مزار يسمونه (قاضى الحاجات) . تقصده النساء ،

وفى يد كل واحدة منهن حصبة تحصب الجدث بها ثم تتمنى من صاحبه قضاء حاجتها بصوت عال .

*
* *

ويخرج المسلمون ايام الربيع قبل شروق الشمس الى محلات النزهة نساءً ورجالاً ، ويأخذون معهم الحليب والقهوة ويخرج النساء دون الرجال فى الايام الثلاثة من ابتداء نيسان الرومى وتسمى هذه النزهة فى عرفهم « شم النسيم » . وهكذا يخرجن فى آخر اربعاء من شهر صفر .

ثم تخرج النساء المسلمات الى خارج البلدة لاجل التنزه فى عيد الفصح عند المسيحيين ويسمونه (طلعة عيد النصارى) . ويزعم ان هذه العادة تأسست لاجل التغيب من وجه النصارى . ولكن نرى هذه العادة قد تأصلت فى نفوسهم حتى صار هذا اليوم لديهم مثل بقية اعيادهم . ونفقة الثياب التى تعد لاجل هذا العيد هى اعظم مما ينفق لاجل الاعياد الاسلامية .

٥ — الاحوال الصحية

ان الوسائل الصحية فى هذه القصبة متوفرة . لان انفساح ضواحيها ، وخلوها من كل حائل جعل للهواء مهباً من جميع انحائها . لاسيما الرياح الشرقية التى تهب فى ليال الصيف فانها تحف اللاذقية بحياة طيبة . ولكونها بلدة معتدلة فى اقليم معتدل لا تتجاوز فيها الحرارة ابان الصيف (٢٣—٣١) درجة ، ويندر انخفاضها عن الصفر فى الشتاء واكثر ما ترى فى ذلك الموسم بين (٥—١٠) درجات .

وماء القصبة صالح للشرب والاستعمال باعتبار الاصل ، وموافق للقواعد الصحية .

ومع هذا فاذا نظرنا الى تدنس مياه الآبار بالامتياخ ، وتحقق لدينا انها عرضة للترشحات الوسخة نعلم ان تلك المياه واسطة خطيرة لسراية الامراض وتفشيها . ويروى اطباؤها ان قد حل فيها قبل بضع سنين مرض القوليرة فكاد لا يبقى ولا يذر ، وكان لهذه الآبار تاثير عظيم فى تأصله واستقراره فيها .

اما بيوت القصبة فقد ذكرنا فى بحث الخطوط الداخلية ان اكثرها مما لا يسوغ ان يشتكى منه ، غير ان فيها من البيوت التى اكلتها الرطوبة وعشعشت فيها العفونة وهجرها الضياء ، ما لا ينطبق على الخير الصحى ، ولا على الحالة المدنية . ولهذا يكون اصلاح هذا القسم منها من الامور التى لا يجوز اهمالها .

ويجب ان لا ننسى فى هذا البحث المستنقعات الموجودة قريباً من المدينة . لان النهر الكبير الذى يصب فى البحر فى الجنوب الشرقى قريباً من القصبة يحدث مستنقعات لا تنقطع الحمى المرزغية من هذه البلدة بسببها .

هذا وان قال طبيب البلدة ان مقدار الذين يصابون بهذا المرض لا يتجاوز (٥٠٠—٦٠٠) نسمة فى السنة . ولكن اذا نظرنا الى الحالة الاجتماعية فى خلقها واطلعنا على سويتهم الفكرية يتضح لنا ان مقدار المصابين اكثر بكثير من المقدار الذى بينه الطبيب . وعلى كل حال ان عدد مصابى هذا المرض يكاد ان يكون نصف مقدار ما يصاب بجميع غيره من الامراض .

ويقال ان هذا المرض يفتك فى ملحقات اللاذقية فتكاً رهيباً . ويروى ان عدد الذين يصابون به فى قضاء المركز يبلغ فى كل سنة نحواً من (١٥) فى المائة من مجموع السكان . ولا جرم ان السعى لتقليل عدد المصابين الذى يناهز (٨٠٠٠) نسمة فى السنة ، او بالاجدر اعمال الهمة لتحديد دائرة هذا المرض واطفائه فى زمن قصير ، هو من الوجائب الضرورية التى يتحتم القيام بها .

ثم يأتى بعد هذا المرض ، مرض « السل » . وان تأثير هذا المرض هو اشد وافظع من الاول بكثير . لاسيما وقد كان هذا المرض قبل (٤٠—٥٠) سنة منحصراً فى بضعة اشخاص من المسيحيين ، واصبح اليوم فى درجة يقتل فى السنة (٤٠—٥٠) نسمة . وهذا جدير بالاهتمام ، وهذه النسبة لا تزال فى هذه الدرجة منذ سبع سنين . وعدد الاصابات منه فى كل سنة يبلغ نحواً من (١٠٠) نسمة .

ويقول المدققون ان اسباب تفشى هذا المرض بهذه الدرجة الهائلة ، هو عدم التعرض لبيع الاشياء التى تخص هاتين العائلتين اللتين مر ذكرها ، وعدم تعقيمها على الوجه الصحى ثم الاغماض عن بيع اغراض مرضى اليوم ايضاً ، وعدم وجود آلة للتعقيم ثم عدم وجود دار للتجريد تحفظ فيها المرضى . ولا ريب ان تأثير هذه الوسائل لا ينكر ، وعليه يتحتم التذرع بهذه التدابير ، والسعى لانقاذ حياة اللاذقية من مخالب هذا الموت الهائل ،

ويأتى بعد مرض السل الذى يشغل عشرة فى المأة بين الامراض الاخرى ، مرض لا يقل عنه فى الخطورة والامحاء . وهو مرض الافرنجى . ويقول الطبيب انه اطلع على (٥٠—٦٠) من المصابين بهذا المرض فى ظرف ستة اشهر . وهذا يطلعنا على درجة هول هذا المرض القاتل . ثم اذا فكرنا بالذين يرجعون فى ازالة مرضهم الى السحرة والدجالين والذين يتداوون بالتبخير وغيره نعلم خطورة هذا المرض الذى خلقه الحرب ، ودرجة هوله على الصحة العامة . ويدعى ان اكبر سبب لتفشى هذا المرض هو عدم وجود المحلات التى تمكن مراقبتها ، ويسهل وضعها تحت الفحص . ولا نرى لزوماً لان نبين احتياج

هذا الامر الخطير الى التدابير العاجلة .

ثم تأتى بعد هذه الامراض بعض الحميات ، والامراض العينية والجلدية وبعض الامراض السمية . ولكن ليس لهذه الامراض سطوة بنسبة الآخرين . فاذا صرفنا النظر عن المصابين ببعض الامراض السمية نجد الباقين لا يتجاوزون العشرين فى عددهم .

*
* *

اما الامراض الطارئة التى حدثت فى السنين الاخيرة فهى عبارة عن الحمى التمشية والقوليرة . ويخمن مقدار مصابى القوليرة سنة (١٣٣٢) ببضع عشر نسمة . حتى ان الحمى التمشية ايضاً لم تشتد وطأتها فى هذه السنة . اما فى النصف الاول من سنة (١٣٣٣) فقد كان عدد المصابين بها (٢٠٠) نسمة ، توفى منهم ثلاثة فى المأة . اما القوليرة فلم يكن لها اثر فى هذه السنة .

*
* *

ان ادارة الصحة فى اللاذقية عبارة عن طبيب البلدية . وتفقد الناحيات الكائنة فى الجهة الشمالية على مسافة يوم من المركز ، منوط بهذا الطبيب ايضاً . وليس له معاون ، ولا عنده مستشفى ، وهو محروم من كل الوسائط الصحية . ويوجد فى المركز طبيب خصوصى وقابلتان لم تتخرجا فى المدارس . وصيدليتان . ولا نرى لزوماً لان نبحث عما تستطيع هذه الادارة القيام به من الاعمال الصحية وهى على هذه الحالة . ولا حاجة لتدقيق حالة الصحة العامة بعد ان اطلعنا على هذا التعريف البليغ .

٦ اللغة والادبيات وحياة الطباعة

لا جرم ان اللغة العامة فى اللاذقية هى العربية العجمى . هذا وان تكن لغة اللاذقيين لا تفرق عن اللغة السورية شيئاً ولكن لهم لهجة خاصة تقضى عليهم بمد اواخر الكلم ، وتفخيمها وبهذا كانت لهجتهم غليظة . وهذه اللهجة توجد عند اهالى جبلة ايضاً ، اما فى الاقضية الاخرى فانها تنزع الى اللهجة الطرابلسية .

ويوجد فى اللاذقية من يتكلم باللغة التركية من متخرجى المدارس الابتدائية والتالية ويبلغ عددهم الى (٢٠٠) شخص . اما التركمان الساكنون فى انحاء باير وبوجاق والذين يناهزون فى عددهم (١٠٠٠٠) نسمة يتكلمون بالتركية بلهجة تركمانية . ثم ان اللغة الانكليزية والافرانسية معروفة عندهم . وبعض الذين يعرفون القرائة والكتابة من المسيحيين يعرفون هاتين اللغتين .

*
* *

نبغ فى اللاذقية بضعة رجال اشتهروا باتقانهم العربية الفصحى ، وباختصاصهم بالعلوم الشرعية . فمنهم (الشيخ مصطفى الحمودى) الذى توفى قبل خمسين سنة وهو من العلماء المحدثين ، ثم (الشيخ خالد الازهرى) الذى توفى قبل اربعين سنة ، و (عبد الرزاق افندى الفتاحى) الذى توفى فى ذلك الزمن . وهو عالم وشاعر معاً . ثم نبغ بعد هؤلاء (الشيخ عبد الفتاح المحمودى) و (الشيخ عبد الحميد المحمودى) والاول من هذين الاخوين يعد من فطاحل العلماء السوريين .

وكان عالماً شاعراً ، فقيهاً ومحدثاً . ومعظم الذين يتقنون العربية الفصحى الآن ، والمشتهرين باطلاعهم على العلوم الشرعية هم من تلاميذ « الشيخ عبد الفتاح المحمودى » .

وله مصنفات عديدة فى الصرف والنحو والبيان والعروض والفقه والتجويد ، مطبوعة وغير مطبوعة . وديوانه المسمى « سير الفوآد » ، وكتابه المسمى « تحفة الدارس » الذى يبحث عن علم الصرف وكتاب «الجريدة » فى علم النحو هم من مصنفاته المطبوعة

واخوه « الشيخ عبد الحميد المحمودى » ايضاً كان شاعراً وعالماً . وتوفى هذا العالم قبل عشرين سنة ، اما وفاة اخيه فكانت قبل خمس عشرة سنة .

ثم ان « لشيخ صالح الطويل » ايضاً كان من العلماء المحدثين وله عدة مصنفات لم تطبع ووفاته كانت قبل ثلاثين سنة .

ثم منهم (الشيخ محمد سعيد الازهرى) . وقد توفى قبل خمس عشرة سنة وله اشعار، وبعض آثار دينية لم تطبع .

*
* *

ولا جرم ان اشهر رجال اللاذقية بالشعر هو (الياس صالح اللاذقى) الذى ولد سنة (١٨٣٩) ميلادية . وهو ينتمى الى اسرة مسيحية اصلها من غزه وقد تخرج فى الكلية الاميركية . وبعد ان تقلد وظيفة الكتابة برهة تركها واخذ يتعاطى التجارة . وفى سنة (١٨٧٢) صار قنصلاً لدولة اميركا ولم يلبث ان استقال منها ، ودخل فى خدمة الحكومة مرة ثانية واستخدم فى العضويات . وتوفى سنة (١٨٨٥) . وطبع ابنه اشعاره سنة (١٩١٠) فى مجموعة سماها (مراثى وديوان المرحوم الياس صالح اللاذقى) .

واكثر موضوع هذا الديوان المدحيات والمراثى والتواريخ . واهم ما فيها الاقسام التى تبحث عن بعض الوقايع التاريخية . وقصيدته التى بحث فيها عن قدوم مدحت باشا الى اللاذقية لاجل تأسيس المتصرفية حينما كان وال فى سورية ، هى من هذا القبيل . وقد استهلها بهذا المطلع :

مقل الورى اياك امست ترصد
يا كوكباً منه المطالع تسعد

يا مدحة العصر الذى بك فخره
ونتيجة الدهر الذى بك يحمد

ثم قال :

شرفت ارض اللاذقية منة
فشدا بها طير السرور يغرد
واخضرت الآكام فى ارجائها
زهواً واهلوها بوفدك عيدوا

وهذه الابيات الآتية تدل على انه كان عالماً بمزية مدحت باشا الحقيقية :

لا بدع ان احييت ميت قطرنا
واعدت رونقه له يتجدد
انت الخليق بفعل كل عجيبة
فلما لك الفضل الذى لا ينفد
وباحرف الذهب اسمك السامى غدى
فى صحف تاريخ الدهور يخلد

وله قصيدة اخرى مدح فيها راشد باشا والى سورية سنة (١٨٧٠) واخرى مدح فيها خورشيد باشا متصرف طرابلس سنة (١٨٦٧) ، وقد كان رشيد باشا قدم اللاذقية لاجل اصلاح جبال النصيرية ، فخاطبه الشاعر بهذه القصيدة :

قصد البوادى والجبال فذاق من
فيها تمرد طعم موت احمر
واستأنست فيها الذآب فاصبحت
معها ترى الاغنام ترعى فاشكرى .

وخورشيد باشا ايضاً قدم الى هذه الديار لاجل اصلاح جبال النصيرية فخاطبه بقصيدة طويلة منها هذين البيتين :

وهب يصعد بالعليا الى جبل
لها طغت وبغت جهلاً عشائره
حتى محا كل عدوان ومفسدة
والله باليمن والبشرى يوآزره

وقصارى القول ان الياس صالح اقتدر على تثبيت حادثات زمانه المعلومة بخلوص ، وصفوة . واستطاع ان يترجم عن شعوره الدينى تجاه مريم العذراء بطبع قدير على النظم

وبقلب ملئ من الايمان . فقال :

يا عذرا ام العجائب	يا نجاتى فى النوائب
انت يا بكر ارحمينى	وادفعى عنى المصائب
كل من فى مدح مريم	قد تغنى وترنم
من خطوب الدهر يسلم	آمنا كل المعاطب

ثم قال :

مدح ام الرب عندى	فاق كل المطربات
وهى مأمولى وقصدى	فى حياتى والممات
يجلى قلبى وصدرى	فى مديحى للبتول
رافعاً نغمات شكرى	راجياً منها القبول

ولا جرم ان هاتين المنظومتين انبعثتا عن شدة هيام ووجدينى عميق . وقصارى القول ان الياس صالح شعر فى حياته بكثير من الهياج وحاول جهده ليبثنا اياه ويطلعنا عليه . ولهذا يجب على اللاذقيين عامة ، والمسيحيين منهم خاصة ان لا ينسوا اسمه . لانه استطاع تحريك الاحساسات التى تخفق لها قلوبهم وتقريرها . واقتدر على نقل حالتهم لروحية وتثبيتها .

*
* *

حياة الطباعة — توجد فى اللاذقية مطبعتان . الاولى « المطبعة الوطنية » للشيخ سعيد افندى ، والثانية « المنتخب » لادوار افندى مرقس وانتشار عدة جرائد ومجلات فى برهة وجيزة بعد اعلان الدستور يدلنا على ان حياة الطباعة هناك دخلت منذ ذلك العهد فى دور جديد من الرقى . فكانت تصدر فيها جريدة « المنتخب » لصاحبها ادوار افندى مرقس ، وهى سياسية اسبوعية و « جريدة اللاذقية » للشيخ سعيد افندى سعيد وهى اسبوعية سياسية ايضاً ، و « الجريدة العربية » له ايضاً و « جريدة ما صنع الحداد » وهى اسبوعية مزاحية لعبد الحميد افندى الحداد و « ابو نواس » وهى اسبوعية ومزاحية ايضاً لصبحى افندى عقده . هذا وان كان جميع هؤلاء الجرائد اسبوعيات ولكن ما كان هذا التقدم النشرى ليقف عند ذلك الحد ، بل لا بد له ان يصل بهم الى تأسيس الجرائد اليومية ايضاً .

غير ان هذه الحرب الطحون ما لبثت ان طبقت على تلك الحياة الطباعية واخمدت جمرتها وهى فى مقتبل عمرها . ولا جرم اننا نود ان تعود هذه الحياة بعد الحرب ، وتكون احسن مما كانت عليه قبلها .

— ٢٥ —

تركمان اللاذقيه

كنا تكلمنا عن التركمان المتوطنين فى ناحيات الخزينة وباير وبوجاق من اعمال اللاذقية وذكرنا اسماء القرى التى يقطنونها ، وبينا فى القسم العمومى من كتابنا ما عثرنا عليه من المعلومات بكيفية مجيئهم الى هذه الانحاء وزمانه [*] .

اما الآن فاننا نريد ان نبحث عن الاحوال الاجتماعية والروحية فى تركمان هذه الانحاء الذين يناهزون فى عددهم (١٠٠٠٠) نسمة ، ونتكلم عن لغتهم ، وآثارهم الادبية .

١ — الاحوال الاجتماعية والروحية

جاء تركمان اللاذقية فى زمن شذ عن نظر التاريخ الى هذه الانحاء الجبلية المستورة باحراج البقس والصنوبر ، والمزدانة بينابيع بللورية ، واخذوا يستجدون من تلك الصخور الصوانية يسيراً من حياة ، ويدفعون حاجاتهم بما استطاعوا ان يستحصلوه منها بشق الانفس .

وليس من الصعب ادراك ما كان من كثرة هؤلاء التركمان الذين تمكنوا من التوطن فى هذه الديار رغما عن بخل طبيعتها ، والحرمان الحيوى الذى يوجد فيها ؛ وقدروا على الاحتفاظ بكيانهم وهم عرضة لجميع انواع الامراض .

وهؤلاء الذين يشغلون جميع انحاء بوجاق من « بغجاز » الى « زغرين » ومن ساحل البحر الى « سراى » . واصقاع باير من « قيزيل چات الى « القصبة » ومن « آقچه باير » الى « سراى » . ثم جميع ناحية « الخزينة » ، نراهم لم يألوا جهداً فى تمزيق حياتهم كما مزقوا تلك الاحراج الناضرة ، حتى اصبحوا اليوم واجسامهم كالقديد من النحافة وادمغتهم افرغ من فؤاد ام موسى .

ويتحد هؤلاء التركمان فى نسق العيش والحياة الاجتماعية مع من حولهم من الاقوام العربية الى درجة نرى فيها جميع ما اطلعنا عليه من الفاقة ، وضنك العيش فى اولئك الاقوام التى مررنا بها وعالجنا تعريف حالتها وفقرها ، موجوداً فى هذه الفئة المحرومة لا يزال يودى بها .

---

[*] راجع صحيفة (٤٤ — ٤٧)

وهم ايضاً يشيعون الحياة ، بل يكملون انفاسها فى طى اوكان هى عبارة عن ركام من الحجارة . وهذه الاوكان ، مع منازل اغواتهم المؤلفة من بضع حجرات ايضاً ، تبعث بريح عقيمة من الفقر العاتى ، لا يزال يخى على الارواح بسمومه المهلكة حتى عرق جميع الاجسام وجعلها جلداً قام فيه هيكل من عظام .

من اكبر سعادة هؤلاء القوم ان يفرشوا على التراب لبداً بال ، منسوج من شعر الماعز ويطرحون عليه فراشا ويتمددون فوقه . وما اسعدهم اذا تمكنوا من حسو شئ من الحساء فى صحون من نحاس موضوعة فى طبق مصنوع من سوق الحنطة ، او اذا طعموا شيئاً من الذى يسمونه «السراسير» . وهى عبارة عن قمح مطبوخ يصبون عليه لبناً خاثراً . لانهم لا يعرفون شيئاً من المآكل الا الذى يسمونه « كيشيك » وهو عبارة عن لبن خاثر يفسدونه بالغلى ، ثم ينشفونه ويضعونه فى جرار ، ويدفنونها فى بطن الارض حتى يحمض ، وهذا يكون طعامهم مدى الشتاء . ويصنعون من هذه المادة اقراصاً صغيرة يعرضونها الى الشمس لتنشف ويسمونها « سورك » وهذا من اشهر مآكلهم . فلا نبالغ اذا قلنا ان الطعام الذى يعمل من القمح ، أو العدس هو من افخر مآكلهم. وقصارى القول ان هذا الحرمان الذى نراه فى مآكل هذه الفئة موجود فى ملابسها ايضاً . حتى ان نساءهم يستعملن الصدار والسراويل على عين ما تستعمله النساء النصيريات ، ويتقنعن باقنعة سوداء منقوشة بنقش ابيض ، يسمونها (ترلك) . ويلبسن فى رؤسهن تحت تلك الاقنعة طرابيش بالاهداب ويضربن بخمرهن على افواههن ، ولا يبدين الا عيونهن وانوفهن . واللواتى فى انحاء الصليبية منهن يتقنعن بقنع حمر فتراهن وهن يشتغلن فى الحقول كانهن شقائق النعمان ويلبسن فى ارجلهن الاحذية (صرمايه) الحمر او الصفر .

اما الرجال فلباسهم السراويل التى يسمونها [كوجك ، او ديزلك] ، ويلبسون فى رؤسهم قبعات من صوف او طرابيش ، ويتعممون عليها ويعصبونها بعصائب بقعاء . اما لباس رؤسائهم فهو على غير هذا النسق ، لانهم يلبسون اردية يسمونها « الزبون » ، وفوقها جبة طويلة ، وبعضهم يلبس على النسق العربى المعروف ، وهم يضاهون مجاوريهم فى الحياة والصنوف الاجتماعية ايضاً كما يضاهونهم بنسق العيش وطراز اللباس .

فالتركمان يتألفون من طبقتين اجتماعيتين مفترقتين عن بعضهما. فالطبقة الاولى تتألف من الرؤساء اى « الاغوات » ، والطبقة الثانية هى عبارة عن عامة الناس من القرويين . فالرؤساء الذين يسميهم القرويون « اغا » هم حكام هذه الاصقاع وآمروها . والتركمان مفطورون على احترام رؤسائهم والارتباط بهم وهذه السجية فيهم جعلتهم عرضة لاضرار عظيمة . او بالاصح مكنت « الاغوات » من اضطهادهم وهضم حقوقهم .

فتوجد فى انحاء باير اربع عائلات لها مقدار (١٠٠) من الافراد ، وعائلتان فى انحاء بوجاق يبلغ عدد افرادها (٥٠) نسمة ، وهؤلاء لهم بين التركمان سلطة لا تقاوم ، وقدرة لا يعترض عليها . فاغوات القسم الاول لا يتجاوز دخلهم السنوى مائتى ليرة . اما الآخرون فدخلهم اكثر من هذا المبلغ باضعاف مضاعفة . وكلهم يستخدمون القرويين فى حراثة اراضيهم وزراعتها . ومع هذا فان هؤلاء الاغوات ليسوا من الغنى فى درجة تستحق الذكر .

أما ما بقى من عامة التركمان فهم فى فقر مدقع وحياتهم تمر فى عيش ضنك . وكلهم رازحون تحت اعباء الفاقة .

* * *

ثم ان الاحوال الروحية فى هؤلاء العاجزين المحرومين من كل شئ ، هى اشد تعاسة من حالتهم الاقتصادية . فتراهم قانعين بما تيسر ، مستسلمين الى ظلم الرؤساء خاضعين لسجونهم وتعذيبهم يتنظرون الموت وهم يعدون ثوانى الحياة . وقد بلغ فيهم العجز والخور الى درجة ، اصبحوا فيها لا يستطيعون ولو كتم الاسرار ، واذا اقتضى الامر يقتدر بضعة من افراد الدرك على اجلاء هؤلاء الالوف المؤلفة عن اراضيهم واوطانهم ، دون ان يروا منهم ايسر مخالفة ، ناهيك عن استعمال السلاح .

واكبر ما يعللون به آمالهم هى السعادة الاخروية . ولهذا تجدهم لا يفترون عن اقامة الصلاة ، وربما يقرؤن قصة المولد الشريف وينغمسون فى وجد يجعل لديهم قيمة الحياة صفراً . فلا يهتمون بصحتهم ولا بعيشهم ولا بابنائهم . ويتلقون كل النوائب بصبر جامد . تجف منهم فى كل ثانية قطرة من الحياة ، وتذبل ارواحهم ، وهكذا حتى يصلوا الى سعادة العدم . ولا يهتمون لتعطيل المدارس فى قرى [قورجه ، جامووران ، كبره ، قوجلق ، سراى] التى تزعم الجداول الرسمية انها موجودة فيها، وهى لا أثر لها الآن. فما اغناهم عن اتعاب النفس ما زال رؤساؤهم لا يعلمون من القراءة والكتابة الا يسيراً . ولا تسمع منهم وهم يمزقون رداء الحياة فى عجز ومسكنة وجهل الا تكرار هذا الدعاء :

— متعنا الله بالجنة .

وهاتين الكلمتين هما البرهان الناطق ، على القحط الموجود فى ديار ارواحهم .

٢ — اللغة والادبيات

لا جرم ان اللغة التى يستعملها التركمان هى التركية ، ونرى لهجتهم لا تزال تبتعد عن اللغة التركمانية ، وتقرب من العثمانية وهى تشبه اللهجة الاناطولية ، اكثر من مشابهة

اللهجة العكارية لها .

لا سيما وان الاغانى التى يتغنون بها تشف عن هذه المشابهة بصورة بارزة . وها نحن نثبت هنا اهم الاغانى التى يستعملها اولئك القوم :

— ١ —

لاذقيه حابيسنده يم
دمير يا پيسنده يم
عتاب ايتمه سوديكم
ايلك قپوسنده يم

— معناها —

اقلل عتابك ايها الحبيب فان جسمى الفولاذى ، فى الباب الاول من سجن اللاذقية .

— ٢ —

فريده مسك فريده م
نه باقيوك كيريدن
قوزولو قويون كبي
آيرلدكمى سوردون

— معناها —

فريدتى ! ما بالك تنظرين من بعيد ، هل فاتك السرب ، فكنت كالظبية المطفل ؟

— ٣ —

آغ يوقوش يوردى بنى
يا رالى قويدى بنى
كور اولەسى غريبلك
آرادى بولدى بنى

اوهت جلدى القلعة البيضاء ، وتركتنى جريحاً . فقاتل الله الغربة كيف قصدتنى وظفرت بى .

— ٤ —

چارشودن آلدم كتن
كللرى ديكن ديكن
هيچ برقايغوم يوق اما
وطن بوينمى بوكن

— معناها —

ابتعت من السوق كتاناً ورده ذو شوك . وليس لى فيه ارب . غير ان الوطن هو الذى يخضعنى .

— ٥ —

كميده يم كميده
اياغم يمنيده
آلماينى قرعەجى
سوديكم وار كريده

ها انا فى السفينة ، منتعلاً نعلى . حنانيك يا مجند لا تأخذنى فقد خلفت ورائى حبيباً .

— ٦ —

اومدن ايندير ديلر
واپوره بينديز ديلر
يكيله نشانليدم
يمنه كوندرديلر

اخرجونى من البيت ، ووضعونى فى السفينة ؛ وكنت حديث العهد بالخطبة فارسلونى الى اليمن .

— ٧ —

زيبينى ديكدم قوطلو يار
صحبتى طاتلى يار .
كلدى كچدى سلامسز
سلامى قيمتلى يار

خطت الرداء لحبيبي السعيد ، الذى صحبته اسعد فر ولم يمتعنى بسلامه الثمين .

— ٨ —

كل بنم كلم كلم
ياپراغى ديليم ديليم
اولديرسەلر واز كلمم
ايتسەلر ديليم ديليم

تعالى يا وردتى المورقة ، لا بد منك ولو قطعونى ارباً ومت .

— ٩ —

قارشيدن قاز كليور
يولونمش از كيليور
ايشته هاسكا خبر
نشا نلك وازكليور

جاءتك اوزة ، منتوفة الريش ، فاعلم ان خطيبتك انصرفت عنك .

— ١٠ —

بودره ساز باغلادى
ديى تركس باغلادى
نى بركلين اوردى
يارامى قيز باغلادى

اقصب هذا الوادى ، ونبت فيه النرجس . رمتنى العروس بسهامها ؛ وضمدت الآنسة جروحى .

— ١١ —

آغلى قارالى طاشلر
عسكر تعليمه باشلار
چيفته دكيرمن دونديرير
كوزمدن آقان ياشلر

ايتها الحجارة البيض والسود ، شرع العسكر بالتمرن ، فذرفت عيونى بدمع يحرك حجر الرحى .

— ١٢ —

الفك هجاسى وار
كوندوزك كيجهسى وار
سويجك قيزلردن سو
كلينك قوجهسى وار

ان للالف هجاء ، ولكل نهار ليل . فاجعل حبك فى البنات ، ان العروس لها بعل .

— ١٣ —

بوكون آيك او نيدر

يوكم بغداى اونيدر
اوليه كوكل ويرمه
كيدر اوه اونودور

اليوم عاشر ايام الشهر ، وحملى من دقيق القمح ، لا تربطى نفسك بالمتزوج ، فانه ينساك متى دخل البيت .

— ١٤ —

چيقسهم قوزان طاغلرينه
قارى ديزلهيه ديزلهيه
يارالرم كوزكوز اولدى
يارى اوزليه اوزليه

اترى اتسلق فى جبال قوزان ، واخب فى الثلوج . تفجرت جروحى ، من عظم اشواقى الى الحبيب .

— ١٥ —

الف ديدم به ديدم
يار بن سكانه ديدم
قوش قانادى قلم اولسه
ياز لمازنم دردم

قلت الف ، قلت به ، ماذا قلت الك ايها الحبيب . لو كان ريش الطير اقلاماً لعجز عن قيد آلامى .

— ١٦ —

ريحان اكدم بر اولك
داداندى قره ليلك
ليلك كوزك كوراولسون
ريحان ياريمه كرك

زرعت حقلاً من ريحان ، فاشتهاه اللقلق الاسود ، عميت عينك ايها اللقلق ، الريحان يليق بحبيى .

— ١٧ —

كتير آنا البسهمى كيهيم
كيهيم ده يار بولنه كيدهيم

شمدنكرى بوصاغلغى نه ايدهيم
آغلاصيز لا يوره كه قان طولدى

أنى يا امى بثيـابى ، لا ابس واذهب الى طريق الحبيب . فما نفعى بعد الآن بالحيـاة فابكى وانتحى ، فقد ملئ الدم فوآدى .

—١٨—

كتـير آنا البـهمى قاصهيم
قاصهيم ده قازيقـلره آصهيم
سنك ايچون دوستلرمدن كوسهيم
آغلا صيزلا يوره كه قان طولدى

أنى يا امى بثيابى لاقصرها ، وانشرها على الاوتاد . واهجر اصحابى لاجلك ، فـابكى وانتحى فقد ملئ الدم فوآدى .

*
* *

ويستعمل تركمان اللاذقية عدداً كثيراً من نوع هذه الاغانى . وتوخينا ترك كثير منه لانه مجونى .

وقصارى القول ان جميع هذه الاغانى يترنم بها تركمان اللاذقية بشغف عظيم . ولهذا يمكننا ان نتخذها مقياساً لسبر اذواقهم ومراميهم . بيد انه يجب علينا ان نعلم ان هـذه الأغانى مستعملة فى بلاد الاناطول بعينها ، وخاصة فى انحاء كماخ . فلا نظن انها من ايجاد هذه الاصقاع . ويقولون ان الاولى هى من اغانى اللاذقية ولكن الباقيات ليست كذلك . لاسيما رقم (٣) و (١٣) فهما تشبهان اغانى قونيه و (٥) اغانى طرابزون و (١٤) اغانى اطنه و(١٥) اغانى انقره والباقيات اشبه باغانى كماخ . ويحتمل ان تكون منتقلة من هاتيك الاصقاع . وبما اننا لم نجد فى هؤلاء القوم اثراً يجعل لهم قيمة فى الابداع بالصنعة الادبيـة ، نرى الاصح فى هذه الاغانى انها انتقلت اليهم من الخارج .

وقصارى القول ان ادبيات التركمان اللاذقيـين تنحصر فى هكذا نتف يسيرة ، ولا يعرفون من الكتب القصصية الا (كوراوغلى) و (زال اوغلى رستم) و (عاشق غريب) . وليس عندهم علم بالتآليف التركية العالية .

ولنذكر قبل اتمام هذا البحث ان العربية العجمى التى يتكلم بهـا جميع سكان هـذه الاصقاع لا تزال تستعمل بين التركمان ايضاً . والاشعار العامية العربية ترى منهم رغبـة عظيمة . وبهذا يسهل علينا ان نعرف ما يهيئه الآتى الى اللغـة التركية عند هؤلاء القوم .

—٢٦—

القفول

ها قد انتهت الدقايق الباهظة التى وطنا فيها انفسنا لاقتحام العقبات ، وتكبدنا فيها ابس الحرمان فى احمى ايام شهرى تموز واغستوس . وان الشواهق التى ما زلنا نتسلقهـا فى الانقاب والفيافى والقفار والسهول التى ما فتئنا نعتسفها ، والميـاه الراكدة ، ثم القرى الخربة التى كنا نشاهدها فى كل آن وقلوبنا تمض من الاسف والحزن ، احدثت فى نفوسنا تأثراً مراً بشقائها ، حتى خشينا من ان نستأنس بها .

اذ كنا نعلم ان تكرر عين المحسوس وتواليه لا بد ان يحرم ارواحنا من الشعور به .

ولا جرم ان عدم شعورنا بحالة اولئك الضعفاء الذين ما زالت تسفعهم شمس سوريـة المحرقة ، وهم يركضون وراء ثيرانهم يتبعون خطة فى الزراعة ورثوها من الادوار الآدمية ؛ اولئك التعساء الذين يتكبدون الحرمان البحت ، ويظلون مرضى ، عاجزين خائرى القوى ، لا يبغون حراكاً ، وعدم تأثرنا منها يكون فى الحقيقة عبارة عن تدهورنا فى عين الاهوية التى هووا فيها . ولهذا كنا نحاشى بجميع قدرتنا من هذه النتيجة الرهيبة السوداء .

ولا ننكر ان ادمغتنا ما زالت تتصادم بهذه الحقائق المرة منذ ازمعنا الاتجاه الى بيروت من اقصى السواحل السورية الشمالية . وكنا نقول :

لا ، لا ... لا جرم ان الآتى يدخر النور الحقيقى لهذه الربوع التى هى غرة فى جبين الكرة . ولا بد لوطننا ، هذه الجنة المقدسة ، ان يظفر بالعز والنجاح ، ويحظى بالسعـادة والفلاح . فالآتى يتدفق بالنور والآمال . فيجب ان نكون مطمئنين . كان الاذان المحمدى ينبعث من شواهق منارات اللاذقية ويشق عباب النسيم الذى يتضوع منه المسك فى هـذا الصباح الصيفى ، نعم ذلك الهاتف بصوت قدسى ، يصيح :

— حى على الفلاح ، حى على الفلاح . . . .

وينشر على الآفاق حياة ويقظة ، وكنا اذ ذاك نسترحم من القادر ان يقيض لوطننـا الذى اثخنته الجروح ، وصبت عليه الآلام دواءً ناجعاً ، ونودع تلك البلدة الاسلامية العجوز .

ها نحن نمر من طريق ملىء بالحجارة والاشواك فوق متون البرازين الضعيفة العاجزة واخذت تقوم امامنا الخرائب البعيدة وشرعنا نشاهد حولنا العدم واليتم ، واكوام الحاجات

والكل هكذا . ولا جرم سيدوم هذا المنظر المحزن حتى جبله وبانياس وطرطوس وطرابلس وبيروت ايضاً .

*
* *

ان هذا السفر الساحلي المطرد الذي امتد بضعة ايام ، بعث في انفسنا الذكرى الماضية المحزنة ، ومع هذا فقد كنا نتلهى تارة بالبدايع الطبيعية التي قامت على ساحل سورية الزاهر واخرى نعالج ان نلهى افكارنا بانواع الآمال العالية ، ونفكر بما يعدنا به الآتي من الوسائل المدنية والمعاهد الانسانية ، وبالسعادة التي سنظفر بها بوجود الادمغة الكبيرة ، والاجسام المتينة ، وبالافراد المدنية المنورة العالمة ، التي تجدد بها الحياة ؛ ونسكر برحيق هذه الآمال التي تعدنا بمستقبل زاهر .

— بيروت : ٢٣ كانون الثاني ١٣٣٤ ، ١٩١٨ —

ختام



خاتمة المجلد الثاني :

١ — المؤلفات الجديرة بالذكر

٢ — جدول الخطأ والصواب

٣ — الفهرست

المؤلفات الجديرة بالذكر [*]

— المؤلفات التركيه —

١ — دولت عثمانيه تاريخى (هامه‌ردن مترجم) — محمد عطا

٢ — تاريخ جودت جودت باشا

٣ — تورك تاريخى نجيب عاصم

٤ — تاريخ ابو الفاروق مراد بك

٥ — خرافاتدن حقيقته م . شمس الدين

٦ — لغات تاريخيه وجغرافيه احمد رفعت

٧ — (تورك يوردى) مجموعه‌سى (استانبول)

— المؤلفات العربية —

١ — تاريخ بن الياس ، طبع بولاق ١٣١١ هـ

٢ — درة الاسلاك فى دولة الاتراك لابن حبيب

٣ — برق الشام لابن شداد

٤ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى ، طبع بولاق ١٢٧٠ هـ

٥ — المنهل الصافى لابى المحاسن

٦ — نهاية الارب فى فنون العرب للنويرى

٧ — السلوك لمعرفة دول المملوك للمقريزى

٨ — البراق الشامى لعماد الدين

٩ — حياة صلاح الدين الايوبى لبهاء الدين

١٠ — كتاب الباكورة السليمانيه فى كشف اسرار الديانة النصيرية، لسليمان افندى الاذنى

١١ — كتاب المجموع ، لعبدالله بن حمدان الحصيبى

١٢ — كتاب مجموع فيه الاعياد والدلالات ، لابى سعيد ميمون بن القاسم الطبرانى

١٣ — كتاب الاسوس

١٤ — كتاب الصراط تأليف المفضل بن عمر

[*] تابع للمؤلفات التى ذكرناها فى خاتمة كتابنا « ولاية بيروت ـ القسم الجنوبى »

١٥ — كتاب الاصيفر ، تصنيف الامام ابى عبدالله محمد بن شعبة الحرانى

١٦ — مسائل ابى عبدالله بن هارون الصائغ عن شيخه ابى عبدالله الحسين بن حمدان الحصيبى

١٧ — كتاب تعليم الديانة النصيريه

١٨ — الرسالة الدامغة للفاسق الرد على النصيرى لحمزه بن على

١٩ — الرحلة الشامية ، للامير محمد على باشا شقيق الخديوى (المطبعة الاميرية بمصر ١٩١١)

٢٠ — مشاهير الشرق ، لجرجى زيدان

٢١ — سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان ، لنوفل نعمة الله نوفل

٢٢ — شعراء العصر ، لمحمد صبرى

٢٣ — فلسفة اللغة العربية ، لجرجى زيدان

٢٤ — كتاب الملل والنحل، لابى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (المطبعة الادبية بمصر)

٢٥ — كتاب الفصل فى الملل والاهواء والنحل لابى محمد على بن احمد بن حزم الظاهرى ؛ المطبعة الادبيه بمصر سنة ١٣٢٠ هـ

٢٦ — كتاب الفرق بين الفرق للامام الاستاذ عبد القادر بن طاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ؛ طبع اخيراً بمطبعة المعارف بمصر

٢٧ — صناجة الطرب فى تقدمات العرب لنوفل افندى نوفل

٢٨ — فصل من اللفظ الشريف هذه مناقب المولى راشد الدين (ژورنال آزياتيك ١٨٧٧ حزيران)

٢٩ — تاريخ الصحافة العربية ، لفيكونت فيليب دى طرازى

٣٠ — مجلة الزهور (مصر)

٣١ — مجلة المشرق (بيروت)

٣٢ — مجلة الكوثر (بيروت)

٣٣ — مجلة الباحث (طرابلس شام)

— المؤلفات الفرانساوية —

« المؤلفات العمومية »

1 — Archives des missions scientifiques et littéraires, Paris, 1re série, 1850—1859, 8 vol. ; 2e série, 1864—1882

2 — Revue archéologique

3 — Bulletin archéologique de l'Atheneun français

4 — Bulletin de la société de géographie de Paris

5 — Bulletin de l'institut egyptien. Alexandrie

6 — Bulletin de l'Œuvre des écoles d'Orient

7 — Année géographique, 13 vol. Paris

8 — Gazette archéologique. Paris

9 — Batissier, Histoire de l'art monumental dans l'antiquité et au moven âge, 1 vol., 2e édition, 1860. Paris

10 — Chipier, Histoire de la formation des ordres grecs. 1 vol. Paris, 1875

11 — Maxime Du Comp. Egypte, Nubie, Palestine, Syrie, 25 liv. Paris, 1854

12 — Vigouroux. la Bible et les découvertes modernes. 4 vol. Paris, 1881

13 — I. Yanoski, Histoire de la Syrie ancienne. dans « l'Univers » 1 vol. Paris, 1848

14 — Bibliothèque Orientale d'Herbelot

« المؤلفات الخصوصية »

1 — F. de Saulcy, voyage autour de la mer morte et des terres bibliques, 2 vol. Paris, 1853

2 — Voyage en Terre Sainte, 2 vol. Paris 1872

3 — Numismatique de la Terre Sainte, 1 vol. Paris

4 — Le Temple de Jérusalem, 1 beau vol.

5 — Inscriptions sémitiques, Paris

6 — Syrie centrale, architecture civile et religieuse, du 1er au VIIe siècle, magnifique ouvrage, 2 vol. Paris

7 — Luynes (Duc de), voyage d'exploration à la mer morte, à Palmyre, à Pétra et sur la rive gauche du Jourdain, 3 vol. Paris

8 — Rey E-G, Familles d'outre-Mer et Du Cange. 1 vol. Paris, 1859

9 — Sommaire du supplément aux famille d'outre-Mer, 1 vol. Chartres, 1882

10 — Les colonies latines de la Syrie au XIIe et XIIIe siècle. 1 vol. Paris, 1882

11 — Voyage dans le Haourân et aux bords de la mer morte, avec atlas, Paris, 1860

12 — Essai géographique sur le Nord de la Syrie evec carteau $\frac{1}{50,000}$ (Bulletin de la Société de géog. 1873)

13 — Rapport sur une mission scientifique accomplie en 1864-1865 dans le Nord de la Syrie. 1 vol. Paris

14 — Essai sur la domination française en Syrie durant le moyen, âge, 1 vol. Paris. 1866

15 — Etude historique et topographique de la tribu de Juda, 1 vol. Paris, 1863

16 — E. Renan, Mission de Phenicie, bel ouvrage avec planches. 1 vol. Paris

17 — W. Waddington, Inscriptions greques et latines de la Syrie, 1 vol. Paris, 1870

18 — V. Guérin, description géographique, historique et archéologique de la Palestine, accompagnée de cartes, 1re partie Judée, 3 vol. ; Samarie, 2 vol.; Galilée, 2 vol. ; Paris, 1868-1880

19 — Clermont-Gannoau-Horus et St Georges

20 — Itinéraire de Jérusalem à Bîr el-main ; (Bulletin de la société de géog. Mai 1877)

21 — La Palestine inconnue, Paris, 1876

a 22 — L. Lartet, Essai sur la géologie de la Palestine et des contrées voisinantes, 1 vol. Paris. 1869

23 — Bertou (Le Cte de), Essai sur la topographie de Tyr. Paris, 1843

24 — L. de Laborde, voyage dans l'Arabie Pétrée. 1 vol. Paris.

25 — Alph. Courtet. La Palestine sous les empereurs grecs, (326-632), thèse, 1 vol. Grenoble. 1869.

26 — G. Schlumberger, Les principautés franques du Levant, d'après les plus récentes découvertes de la numismatique. 1 vol. Paris. 1877

27 — Numismatique de l'Orient latin. 1 vol. Paris, 1878

28 — Lockroy. Route entre Tripoli et Hourmoul, dans le Tour du Monde, 1862

29 — H. de villefosse, Notice des monuments provenant de la Palestine et conservés au Musée du Lauvre, Paris, 1876

30 — Michaud et Poujoulat, correspondance d'Orient, 7 vol. Paris 1880

31 — G. Pierrotti, La Palestine actuelle dans ses rapports avec la Palestine ancienne. 1 vol. Paris, 1865

32 — Cadalvene, Campagne d'Ibrahim-Pacha en Syrie, Paris. 1841

33 — Moritz Sobernheim, Materiaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, Syrie du Nord, Le Caire, 1909

34 — Sacy (Le Bon Sylvestre de). Exposé de la religion des Druses 2 vol., Paris, 1837

35 — Idem, Catéchisme des Nasairis, Paris

36 — Russeau. Les Vahabis, les Nosaîris et les Ismaëlis, Marseille 1817

37 — R. Dusseaud, Histoire et religion des Nosairis. Paris, 1899

38 — Idem, Influence de la réligion nosairi sur la doctrine de Rachid-al-Dîne Sîman, Cammunication à la Société Asiatique, mai 1900

39 — Idem, Voyage en Syrie (Revue Archéologique, 1897)

40 — Léon Cahun, Les Ansariés, dans le Tour du monde, 1879

41 — Le P. Lammens, Les Nosairis (Etudese religieuses, 1899

42 — Filix Dupon, Mémoire sur les mœurs et les cérémonies religieuses des Nosseriés (Journal asiatique, 1er ser. v

43 — Cl. Huart, La poésie religieuse des Nossairis

44 — J. Hammer, Tableau généalogique des 73 sects de l'Islam (Journal Asiatique, 1re ser. t, vi)

45 — Baron Rey, Exploration de la montagne des Ansariés en Syrie (Bulletin de la Société de géog. 1865)

46 — Stanislas Cuyard, Un Grand maître des Assassins aux temps de Saladin, Paris, 1877

47 — P. du Damas, voyage en Orient

48 — Quatremère, Mines de l'Orient, Paris

49 — Reinaud. Extraits des Historiens Arabes, Paris 1829

50 — Edouard Saadé, l'Agriculture à Lattaquié, (thèse agricole soutenue en 1905 à l'université de Beauvais)

51 — Emil Catzéflis, Essai sur l'agriculture du Liban et du Littoral; Beauvais

52 — Les ruines de Palmyre ou Tedmor au désert, 2 vol. Texte et planches, Paris, 1829

53 — Rouvier, les ères de Tripolis, Paris 1898

54 — J, de Goeje, Mémoire sur les Caramathes du Bahraïn et les Fatimides

55 — Alfred Fouillée, Histoire de la Philosophie

56 — M, c, Defréméry, Nouvelle recherches sur les Ismaéliens ou Batiniens de Syrie

57 — M. Quatremère, Notice Historique sur les Ismaéliens

58 — M, R, Mémoire sur les trois plus fameuses sectes du Musulmanîsme; les Wahabis, les Nosairis, et les Ismaélis

59 — S. Guyard, Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis, dans la (XXII)me partie de Motions et Extraits; (Paris 1855)

60 — Defrémery, Essai sur l'Histoire des Ismaéliens ou Batiniens de la Perse (Paris 1867)

61 — Pavet de Courteille, Dictionnaire Turk-Oriental; Paris 1870

— المؤلفات الانكليزية —

1 — Ed. Robinson, Biblical researches, Londres, 1856

2 — Physical geography of the Holy Land, Londres, 1865

3 — W. Linch, Narrative of the United states expedition to river Jordan and the Dead Sea, 1 vol. Londres, 1852

4 — B. Tristram, The Land of Moab, travels and discoveries on the east side of the Dead Sea and the Jordan, 1 vol. Londres, 1874

5 — The Land of Israël, Journal of travels in Palestine, 1 vol. Londres, 1876

6 — Natural history of the Bible, Londres 1873

7 — A. Stanley, Sinaï and Palestine, in connection with their history, 1 vol. Londres, 1877

8 — Vilon et Warren, The Recovery of Jerusalem, a narrative of exploration and discovery in the City and the Holy land, 1 vol. Londres 1870

9 — Ch. Warren, Undergroud Jerusalem, vith a narrative of an expedition through the Gordan Valley and a visit to the Samaritans, 1 vol. Londres, 1876

10 — C. Conder, Tent work in Palestine, 2 vol. Londres, 1879

11 — H. Palmer, The desert of the exodus, 2 vol. Cambridge, 1871

12 — J.-L. Porter, Five years, in Damascus, with travels and researches in Palmyra, Lebanon, etc. Londres, 1870

13 — The Giant Cities of Bashan and Syria's holy places, 1 vol. Londres, 1870

14 — W. Besant et H. Palmer, Jerusalem, the City of Herod and Saladin, 1 vol. Londres, 1871

15 — The history of Jerusalem, Londres

16 — G. williams, The Holy City, historical, topographical and antiquarian, notices of Jerusalem, 2 vol. Londres, 1849

17 — Barclay, The City of the Great King, 1 vol. Londres, 1857

18 — Mac Gregor. The Rob. Roy en the Jordan, 1 vol. Londres, 1876

19 — C. Schick, Recent excavations at Jerusalem

20 — Rev. S. Lyde, The Ansyreeh and Ismaêleeh Londres 1853

21 — Smith, Dictionnary of Greck and Roman Geography, Londres, 1854

22 — Burckhardt, Travels in Syria and the holy Land 1 vol. Londres, 1822

— المؤلفات الالمانية —

1 — Dr Frass, Drei monate am Libanon, Stuttgard. 1876

2 — Geologische Beobachtungen am Nil, auf den Sinaï-Halbins und in Syrien, Stuttgard, 1867

3 — G. wetzstein, Reisebericht über Haouran und die Trachonen, 1 vol. Berlin, 1860

4 — Kotschy ; Reise in den Cilischen Taurus über Tarsus, Gotha, 1858

5 — Van de Velde, Reise durch Syrien und Palestina, in den Jahren 1851 und 1852, 2 vol. Leipzig, 1855

6 — Georg. Ebers, Durch Gosen zuna Sinaï, 1 vol. Leipzig, 1872

7 — Brugch, wanderung nach den Turkis-Minen und der sinaï Halbinsel, 1 vol. Leipzig, 1868

8 — A. von Kremer, Die Heindengemeinden der Nosairyer im nordlichen Syrien und in Cilicien, Das aus Land, 1872

9 — M. Hartmann, Das Liwa el-Ladkidje und die Nahije und die Nahye Urdu, das Z.D.P.V., t. XIV

10 — Sachau, Reise in Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883

11 — Chwolsohn, Die Ssabier und der Ssabismus, St Pétersbourg, 1856

12 — Brockelmann, geschichte der arabischen Litterature, weimar 1898

13 — Roehricht, Geschichte des Koenigreichs Jerusalem

14 — Zeitschrift für Egyptische sprache und alterthamskunde, Leipzig

15 — Zeitschrifs d. deutsche morgenlandische Gesellschaft, Leipzig

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٤	١١	خصائص الشعوب	طبقات الارض
٧	٢٧	تعذب	تعزب
٨	٩	واحرزوا	واحرزوا
٨	١٩	golgatha	golgotho
٨	٢٢	ن	ان
١٣	٢٢	الجبل موطناً	الجبل كان موطناً
١٤	٤	فحميت	فحمية
١٧	٤	الصيف ٤٠	الصيف الى ٤٠
٢٥	٢٤	وتوكمان	وتركمان
٢٦	٢٣	هرورووت	هەرودوت
٣٣	٢٦	يحترمون	يحترمن
٣٦	٢	لقوم	القوم
٣٦	١٢	وولفا	وولغا
٣٧	١٣	خوارز	خوارزم
٣٨	١٢	هم من	هم
٤٦	١٨	عن عشرات	على عشرات
٤٦	٢٥	سلسنا	سالمنا
٥٥	١٧	الترد	التردد
٥٦	١٥	مؤسيسهم	مؤسسيها
٦١	٢٥	دانتشارهم	وانتشارهم
٦٣	٣٠	١٨٦٤	٨٦٤
٦٦	٧	انجاب	اعجاب
٦٤	١٨	روج	روح
٧٢	٢٤	خلفها	خلقها
٧٢	٢٨	secte	seetes

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٧٤	٢	لاهراق	اهراق
٧٢	١	واقعمت	وافعمت
٧٦	٣	نموزج	نموذج
٧٦	٣	والولد» ن	والولدان
٨٠	١٩	« ابن الارتق »	« بنى الارتق »
٨٠	٢٩	بن طغتكين	بنى طغتكين
٨١	٢٦	ان	على ان
٩٨	٦	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
٩٨	٢٤	ان	بان
٩٩	٨	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
٩٩	١٢	اللاافلاطونيون	الافلاطونيون الحديثون
٩٩	٢٠	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
١٠٠	١٨	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
١٠٥	٢٤	gobineaus	gobineauz
١٠٧	٢٦	التاريج	التاريخ
١٠٩	٤	چندياً	من الجنود
١٠٩	١٩	والاسم	والاسم هو
١١٦	١٥	اتنقل	تنتقل
١٣٤	١٣	السياسة	السياسية
١٣٦	٢٣	وطنى الجبوب	وطنى المحبوب
١٣٧	٢٦	متصلاً	متواصلاً
١٣٨	٥	موصلة فى لوائى	موصولة بلوائى
١٣٨	٦	يتبين	ويتبين
١٤٠	٨	وعليه	والا
١٤٠	٢٢	لا تنسى	لا تنس
١٤١	١٢	الرهنية	الرهينة
١٤٩	١٤	Eliccaliers	Elievaliers
١٤٩	٢٨	Ordse	Ordre

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٥١	١٦	على الظن	فى الظن
١٧٧	٤	ومن اليمين	وعن اليمين
١٧٧	٢٥	كانوا يأتون	كن يأتين
١٨١	٢٠	يمينهم	يمينها
١٨١	٢٠	اوقد	وقد
١٨١	٢١	لزيتون	الزيتون
١٨٢	٤	التى	الذى
١٨٣	٤	نتعالى	فهى تتعالى
١٨٤	١٦	ثلثان	ثلثا
١٨٥	١١	لم تغرب	لم تعزب
١٨٥	٢٠	النوزجية	النموذجية
١٨٩	٨	ثلاثة	ثلاث
١٩٢	١٠	تولدات	لدات
١٩٧	٥	من الاراضى	عن الاراضى
٢٠٠	٣	عن	من
٢٠٠	١٧	وعرضهم	وعرضها
٢٠٢	٦	لا يزال	لا تزال
٢٠٢	٢١	نموزج	نموذج
٢٠٢	٢٩	عابدى	عابدو
٢٠٦	٢٢	عددهن	عددها
٢٠٦	١٢	جامع	جامعاً
٢٠٨	٧	الذق	الذوق
٢٠٩	١١	تمدد	تمداد
٢٠٩	٣٠	فنهم	فنها
٢١٠	٢٤	لى	الى
٢١١	٤	عددهم	عددها
٢٢٩	١٢	على	الى
٢٣١	١٨	عنه	عنها

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٢٣٦	٩	الرحى	الروحى
٢٤٠	١٥	الطبعية	الطبيعية
٢٤٢	١٧	لقده	لقدره
٢٤٦	١٠	هؤلاء	هذه
٢٤٨	٣	الكلامات	الكلمات
٢٤٨	١٦	القدرة	المقدرة
٢٤٩	٤	وحلولهم	وحلولها
٢٥١	٩	تفثت	تفث
٢٥١	١٠	تسائها	نسائها
٢٥١	١١	اليلفون	الياقوت
٢٥١	٢٠	ثلاثة	وثلاثة
٢٥٥	٩	نال على	نال
٢٥٦	٢١	وهم	وهى
٢٥٧	١	الة	الغاية
٢٦٢	٣	ثلاثة	ثلاث
٢٦٣	٤	ما يمكنا	ما يمكنها
٢٦٣	٢٦	وتقطعون	وتقطعوا
٢٦٤	٢٨	Reveu	Revue
٢٧٢	٨	استرده	استردوه
٢٧٣	١	Cuallth	Coallth
٢٧٥	٣	تلك	ذلك
٢٧٥	١٠	ولا ارى	ولا ادرى
٢٧٥	٢٧	خان الايده	خان العبده
٢٧٧	١٧	الكلس	الكلسى
٢٧٧	١٧	معظهما	معظمها
٢٧٩	١٣	على الانفراء	على الانفراد
٢٧٩	١٤	حكاردى	حكارى
٢٨٠	٢٣	رباسم	باسم

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٢٨٤	١٥	بنسبةٌ	بنسبة
٢٨٤	٢٧	فهم	فيهم
٢٨٥	١	الطبيعية	الطبيعية
٢٨٦	١٣	الاولى	الاول
٢٨٨	٩	الطبايع	الطباع
٢٩٣	١١	جاؤا	جائت
٢٩٣	١٢	ليكونوا	لتكون
٢٩٤	٢	يتربض	يتربصن
٢٩٦	١	التى	الذين
٢٩٨	٩	نستطع	نطلع
٣٠٠	٧	السمران	العمران
٣٠١	٢٤	الى	فى
٣٠٢	٢٤	*de*	*des*
٣٠٣	١٤	وحصن	ولها حصن
٣٠٤	١٢	الستاء	الشتاء
٣٠٤	١٤	جهتها	جهتيها
٣٠٤	١٩	لها	لهما
٣٠٦	٢٥	لهذا	الى هذا
٣٠٩	١٥	فلى	فعلى
٣١٠	٢٨	هم	هى
٣١٢	٨	الادرار	الادوار
٣١٣	٢٠	يجب	بحب
٣١٨	١٦	لتخذير	اتخذير
٣١٨	١٩	العربية	هى العربية
٣١٨	٢٥	الحصنين	الحصنيين
٣٣٤	٢٣	يتسلسلن	تتسلسل
٣٣٨	١	به	بها
٣٣٨	١٦	است	ألست

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣٤٢	٨	عندى	عند
٣٤٣	٩	نهم	دينهم
٣٤٨	٨	النور	المنور
٣٦٢	١	فقولة	فقوله
٣٦٣	١٥	متران	مطران
٣٧١	٢٣	بهذا	بهذه
٣٧٢	١	العربى	الغربى
٣٧٢	٦	الايام	الابهام
٣٧٤	٢٥	لحمله	حمله
٣٨٤	٢٦	هذا	هذه
٣٨٩	١	عپارت	عبارة
٣٩١	١٣	خوالى	خوابى
٣٩٥	٤	عمال	اعمال
٣٩٦	٢٠	مرجىٌ	زجىٌ
٣٩٧	٢١	١٣٢٢	١٣١٢
٤٠٦	٨	ودعيتهم ن	وادعيتهم ان
٤٠٦	١٦	يهتم ن	يهتمون
٤٠٦	١٨	ب لوله	بمدلوله
٤٠٦	٢١	من اهم	اهم
٤٠٦	٢٣	ل	حل
٤٠٧	١٥	.	بتلك الضلالة القديمة ام لا ؟
٤٠٧	١٨	لة	ليلة
٤١٧	٩	السرق	الشرق
٤١٧	١٤	والجن ب	والجنوب
٤١٨	٧	«٢٠٠»	«٢٠٠» نسمة ويروى
٤١٨	٨	والزر	والزراعة
٤١٩	٤	المابية	الماشية
٤١٩	٤	ن	من

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٤١٩	١٦	افرد	افراد
٤٢٠	١	حبله	جبله
٤٢٢	٩	اوعز	اعز
٤٢٣	٧	يجعلون	يجعلوا
٤٢٤	٢٢	الطبيعة	الطبيعية
٤٣٤	١٧	القلة	القلعة
٤٣٤	١٨	دعا ة	دعامة
٤٣٥	٣	اا واخ	السواح
٤٣٥	١٠	القضاء	الفضاء
٤٣٥	١٣	القضاء	الفضاء
٤٣٥	١٥	وطف	وطيف
٤٣٦	٢٠	تكاد تكون	تكاد ان تكون
٤٣٧	٥	بانبا	بابنا
٤٤١	٢٩	حتى بالاقوام	حتى ولا بالاقوام
٤٤٣	١	ع	اسماع
٤٤٣	٢	التمردين	المتمردين
٤٤٣	٥	التمدنة	المتمدنة
٤٤٣	٨	تسعة	تسع
٤٤٤	٢٤	للدات	اللذات
٤٤٥	٨	نبتهج	لنبتهج
٤٤٦	٢	واخضر	واخضره
٤٤٦	٣	ممدد	ممرد
٤٤٦	١٠	القضاء	الفضاء
٤٥٤	٦	الاطلس	الاطلسي
٤٥٥	١٦	جامع	الجامع
٤٥٥	٢٤	ونوجد	وتوجد
٤٥٨	٢٤	على	عن
٤٦٥	٢٨	ما	عما

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٤٦٦	١٧	تفول	تقول
٤٦٧	١٩	٥٣٫٥	٢٫٥
٤٦٧	٢٢	(١٢٠٠)	(١٢٠٠) طن
٤٦٩	٣	وساط	اوساط
٤٦٩	٤	فرادها	افرادها
٤٧١	٢٥	تكون	يكون
٤٧٣	٩	ويسمونه	ويسمونها
٤٧٤	٢٨	خلقه	خلقته
٤٨٧	٢٤	البرازين	البراذين



الفهرست

الخاتمة